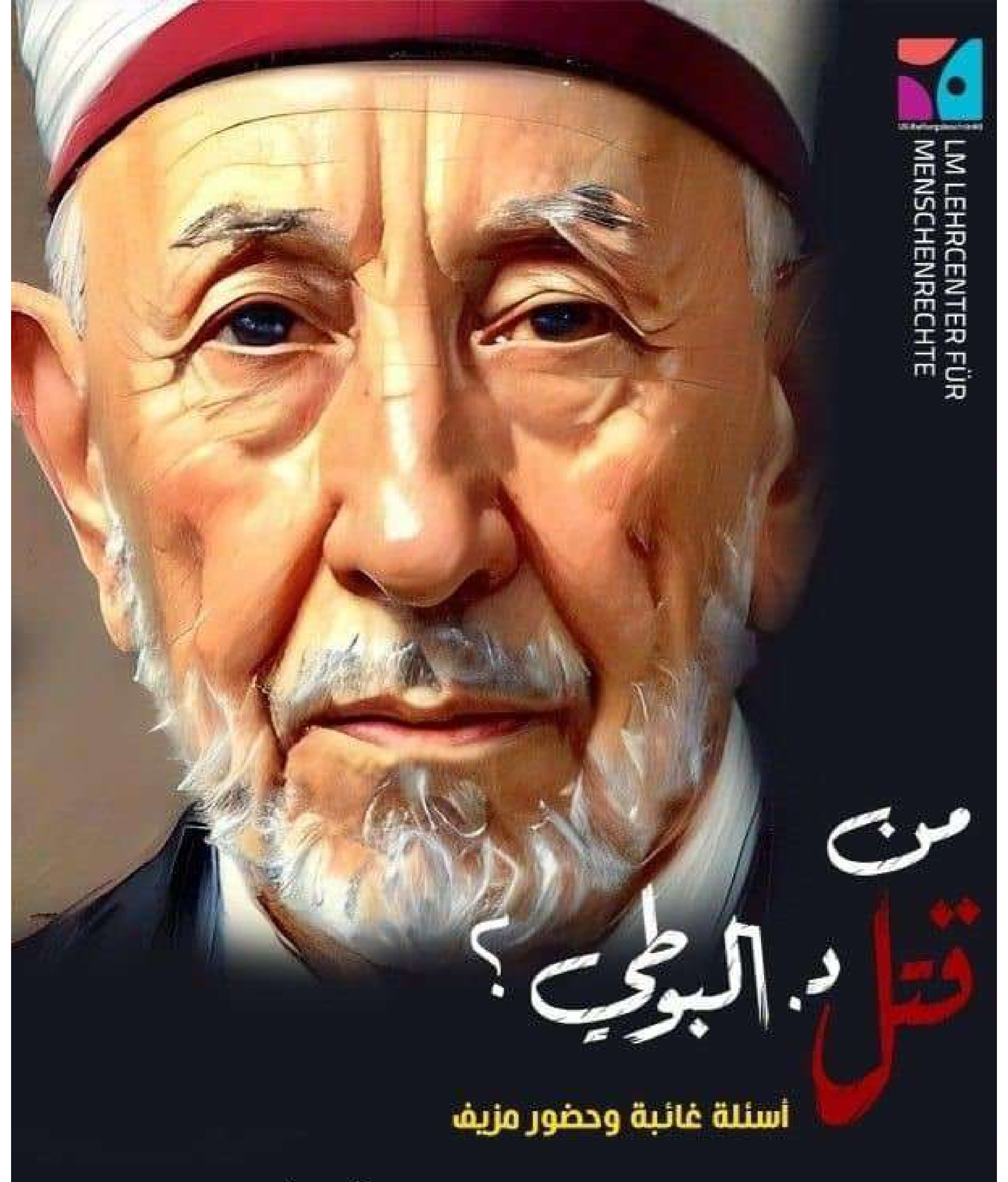


من قتل د. البوطي؟

أسئلة غائبة وحضور مزيف

د. علاء الدين آل رشي

تقديم

د. عبد الرحمن محمد سعيد رمضان البوطي

د. علاء رجب تباب

اللهم إني أعوذ بك أن أقول قولاً حقّا فيه رضاك ألتمس به أحدا سواك.

وأعوذ بك أن أتزيَّن للناس بشيء يشينني عندك.

وأعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك.

وأعوذ بك أن يكون أحد من خلقك أسعد بما علمتني مني.

ونعوذ بكَ من تغيّرِ القلوبِ بدون حجّة ومن عداوةٍ تأتي بعد المحبّة ومن الخيبة فيمن أحسنّا يوما الظن به.



من نحن

مؤسسة ألمانية تعليمية تعنى بقضايا حقوق الإنسان ونبذ العنف والكراهية وثقافة الإقصاء والدم والعنصرية وتدعو إلى السلم والسلام الأهلي والعالمي وتستثمر الثقافة والإعلام لنشر رسالتها، ونشر الوعي المتحرر من مفردات الاختزال والأحكام النمطية وتدعو إلى الانفتاح والحوار والتلاقي ومد جسور التعارف بين الشعوب المختلفة، والتعريف بقيم وعادات وثقافة المجتمعات المتعددة بغية بناء ذاكرة ودية تلاقحية.

- ترسيخ مفهوم الحوار والاحترام من أجل تفعيل قوى المجتمع الكامنة لتحقيق هدف السلم بين الشعوب .
- نشر الأبحاث التي تبين موقع الدولة ووظائفها وعلاقتها بالمجتمع المدني، وتحديد دور كل منهما في إطار تكاملي وليس إقصائياً.
- نشر الأبحاث والدراسات التي تهتم بتحديد وتوضيح معاني الحرية والديمقراطية والتعددية والمشاركة والتنظيم المجتمعي المدني القادر على تحقيق فاعلية ملموسة على الأرض بما ينعكس على الواقع العملي المنشود، ويحقق النهضة المرجوة.
- الاهتمام بخصائص المجتمع وهويته التي تبلور المفهوم الصحيح للمجتمع المدني الذي يتوافق مع ثقافتنا وقيمنا ولا يكون نسخة مقلدة عن نماذج مجتمعية محددة، تختلف اختلافاً جذرياً عن مجتمعاتنا ويكون في تعميمها وتقليدها إعاقة لدور المجتمع المدني الخاص بنا.

> وإنه لعجيب جداً أن ترى في الناس من يدرك حاجة البصر للإبصار إلى نور الشمس ونحوها،ولا يدرك حاجة البصيرة للإدراك إلى نور الوحي الإلهي ونحوه.
>
> د. محمد سعيد رمضان البوطي
> رحمه الله

2023



LM Lehrcenter für Menschenrechte UG
(haftungsbeschränkt)
IBAN: DE09 4401 0046 0357 7794 66
BIC: PBNKDEFF

friedrichstraße 11
42105 wuppertal
Deutschland

د. علاء الدين آل رشي

من قتل الشيخ د. البوطي؟

أسئلة غائبة وحضور مزيف

تقديم:

د. عبد الرحمن محمد سعيد رمضان البوطي

د. علاء رجب تباب

[يا رب أعد فرحة الأمن والسلام إلى ربوع شامنا.

يا رب أدخل فرحة الأمن والسلام إلى قلوب عبادك البائسين إلى قلوب عبادك المكروبين إلى قلوب عبادك الحزانى يا ذا الجلال والإكرام.

اللهم إنا نسألك بحبك لرسولك محمد وبحبه لك إلا استجبت دعاءنا.

اللهم إنا نسألك بحبك لعبادك الصالحين وبحبهم لك إلا استجبت دعاءنا، وحققت رجاءنا.

بسطنا أكف الضراعة إلى سماء رحمتك فلا تردها خائبة.

يا رب، يا رب عجل بالفرج من هذه الشدة، يا رب، يا رب، يا رب يا رب عجل باليسر بعد هذا العسر.

اللهم صل على عبدك ورسولك محمد النبي الأمي الحبيب العالي القدر العظيم الجاه وعلى آله وصحبه أجمعين، آمين آمين آمين والحمد لله رب العالمين .]

د. محمد سعيد رمضان البوطي

رحمه الله

اللَّهمَّ ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ فاطرَ السَّمواتِ والأرضِ عالِمَ الغيبِ والشَّهادةِ أنتَ تحكم بينَ عبادِكَ فيما كانوا فيهِ يختلِفونَ اهدِني لما اختلِفَ فيهِ منَ الحقِّ بإذنِكَ إنَّكَ تهدي من تشاء إلى صِراطٍ مستقيمٍ[1].

سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ

❖ ❖ ❖

1- روته السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه (770)

إهداء إلى...

أستاذي الذي علمني مقارعة الطغيان وعدم الركون إلى فلسفة التنويم

أحمد معاذ الخطيب

من عرفته قد دفع عمره ثمن كرامته وحريته الشاعر الكبير أستاذي

سليم عبد القادر رحمه الله تعالى



بساط فكري وشعوري

◈ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة/8)

مات رسول الله ووجدوا في قائمة سيفه رقعة مكتوب فيها (صل من قطعك، وأحسن إلى من أساء إليك، وقل الحق ولو على نفسك)

الخليفة الراشد علي بن أبي طالب[1]

◈ "واعلم أنا قد جربنا في أنفسنا، ومن عاصرنا من الأئمة والفضلاء كذب الكذابين عليهم، وحسد الحاسدين لهم، وهذه عادة مستمرة للأنجاس في حسد خيار الناس".

ابن الوزير[2]

◈ ما أبقى خفق النعال وراء الحمقى من عقولهم شيئا.

ابن الجوزي[3]

◈ الأذكياء وحدهم هم الذين يعرفون ألا أمل أن يصلوا بتفكيرهم إلى نتيجة مؤكدة واضحة المعالم.

ثروت أباظة[4]

1- رواه سيدنا علي رضي الله عنه وقد صححه الألباني في صحيح الترغيب: 2467 صحيح لغيره وأخرجه ابن الأعرابي في (معجمه) (1507) باختلاف يسير، وابن النجار كما في (كشف الخفاء) للعجلوني (2/32) .

2- العواصم (2/57).

3- صيد الخاطر بعناية أ. حسن السماحي ط3 (دمشق دار القلم 2012) ص 48

4- نقوش من ذهب ونحاس ص 5 صدر هذا الكتاب عام 1986. صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام 2022.

◈ عليكم بالنمط الأوسط، فإليه ينزل العالي، وإليه يرتفع النازل .

الخليفة الراشدي علي بن أبي طالب[1]

◈ من قواعد الشرع والحكمة أيضاً: أن من كثرت حسناته وعظمت وكان له في الإسلام تأثير ظاهر فإنه يحتمل له مالا يحتمل لغيره ، ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره؛ فإن المعصية خبث، والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث، بخلاف الماء القليل فإنه يحمل أدنى خبث، ومن هذا قول النبي ﷺ لعمر: "وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم" وهذا هو المانع له ﷺ من قتل من حس عليه وعلى المسلمين - أي : تجسس، ونقل أخباره إلى الأعداء- وارتكب مثل ذلك الذنب العظيم، فأخبر ﷺ أنه شهد بدرا، فدل على أن مقتضى عقوبته قائم، لكن منع من ترتب أثره عليه ما له من المشهد العظيم، فوقعت تلك السقطة العظيمة مغتفرة في جنب ما له من الحسنات.

وهذا أمر معلوم عند الناس مستقر في فطرهم : أن من له ألوف من الحسنات فإنه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوها ... كما قيل :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحـــــــد ... جاءت محاسنه بألف شفيع

وقال آخر:

فإن يكن الفعل الذي ساء واحدا ... فأفعاله اللاتي سررن كثـــــير

ابن القيم[2]

◈ إن الشجاعة تحمى نفسها من الزلل المحطم؛ لأن الشجاعة تطوى على الحكمة..

وهذا فارق بينها وبين التهور، عليك أن تلحظه..

الشجاعة - اقتحام تقوده الحكمة..

أما التهور، فصيحة، يدفعها النزق !

باشر مسئولياتك بشجاعة.. ومارسها في حدود طاقتك وظروفك، فليس من حقك أن تحمل مسئولية لا تطيقها، وتعرض نفسك لبلاء لا تطيقه.

1- قال العراقي: لم أجده مرفوعا وإنما هو موقوف على علي بن أبي طالب رضي الله عنه رواه أبو عبيد في غريب الحديث بلفظ خير هذه الأمة النمط الأوسط يلحق بهم التالي ويرجع إليه الغالي ورجال إسناده ثقات إلاَّ أن فيه انقطاعا

2- مفتاح دار السعادة» (1/176-177) .

ضع عينيك دائماً على إمكاناتك في غير تهيب، وأيضاً في غير تهور، ووازن بين ما تريد أن تعمل، وما تستطيع أن تعمل.. لا تلق نفسك من حالق، رغبة في أن يقال «يا للبطل»..!!
ولا تعامل الحياة كما لو كانت «سركا»، قفزة هنا وقفزة هناك.. بل فكر بذكائك، وقاوم بذكائك، وقاتل - إذا اضطررت للقتال - بذكائك.!
وأولى سمات الذكاء هنا، ألا تستدرج إلى مسئولية تقوم بين طاقتك وبينها استحالة لا تملك تذليلها.

كان الرسول ﷺ يقول: «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه.قيل: وكيف يذل نفسه يا رسول الله»؟ «قال: أن يعرض نفسه لما لا يطيق من العمل، فيعرض له ما لا يطيق من البلاء[1]».

ففي ضوء جميع الظروف اختر مسؤوليتك، واذا اخترتها، فقم بكل التزاماتها.

أ.خالد محمد خالد [2]

◈ لا يوجد ما يدعو إلى تشجيع الثورة بذاتها؛ فهي محفوفة بالمخاطر، ولكنها تأتي مثل قدر لايرد حينما يتعذر الإصلاح الجذري الجاد.
القمع والظلم والفساد والتخلف والفقر وحدها داعية الثورة.فالثورة لا يرتب لها أحد، ولا يخطط لها الناس، ولكنها تنفجر على حين غرة حين تسد طرق الإصلاح، وتوقف عمليات العدالة ويمارس القمع...إن الإصلاح الجاد يستحق التضحية، وليس الخسارة ...لأنه أفضل طريق تكافح به الثورة.

د.سلمان العودة [3]

1- رواه حذيفة بن اليمان هداية الرواة الرقم : 2437 وقال الألباني: حسن غريب بغيره ومعنى الحديث أَمَرَنا الإسلام بما نَستَطيع، ورَفَعَ عنَّا الوِزرَ فيما لا نَستطيع عَمَلَه، فالشَّريعة الإسلاميَّة جاءَتْ بالتَّيسيرِ والرَّحمةِ، ولم تكلِّفِ الإنسانَ فَوقَ طاقَتِه. وفي هذا الحَديثِ يَقول الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «لا يَنبَغي لِلمؤمِنِ أنْ يذِلَّ نَفْسَه»، والمعنى: لا يَجوز لِلمؤمِنِ أنْ يأتيَ ما يَكون سَبَبا في ذلّه وهَوانِه مع الناسِ، فتعَجَّبَ الصَّحابة؛ لِأنَّه لا يوجَد شَخص يحِبّ ذلك لِنَفْسِه؛ فالإنسان مَجبول على إعزازِ نَفْسِه، «قالوا: وكيف يذِلّ نَفْسَه؟» كيف يذِلّ الشَّخص نَفْسَه؟ وما نَوع ذلك الإذلالِ؟ قال النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «يَتعَرَّض مِنَ البَلاءِ لِمَا لا يطيق» قيلَ: بالدّعاءِ على نَفْسِه بالبَلايا، أو بفِعلِ ما يَنتِج عنه ذلك، ومِثاله: إنكاره لِمنكَرٍ باليَدِ أو باللّسانِ؛ فيَترتَّب عليه بسَبَبِ ذلك ضَرَر لا يَستَطيع تَحمّلَه، كأنْ يأمرَ بالمعروفِ ويَنهى عنِ المنكَرِ مَن لا يَسلَم غالِبا مِن أذاه على نَفْسِه ومالِه وأهلِه؛ فليس له والحال كذلك أنْ يأمرَ أو يَنهى؛ لِمَا يَترتَّب عليه مِن ذلٍّ وهَوانٍ لِلمؤمِنِ، وهذا لا يسقِط عنه الإنكارَ بالقَلبِ، فإنْ فَوَّتَ اليَدَ واللّسانَ لِعلَّةٍ، لم يَسقطْ عنه إنكار القَلبِ. وفي الحَديثِ: أنَّ المسلِمَ مأمور بعَمَلِ ما في استِطاعَتِه دونَ تَشدّدٍ أو إهانةٍ ومَذلَّةٍ لِلنَّفْسِ. وفيه: أنَّ الدِّينَ يسر لا عسر.
2- ص 49 الوصايا العشر لمن يريد أن يحيا القاهرة المقطم للنشر والتوزيع ..مصر ط7. 2003.
3- أسئلة الثورة الريحانية تركيا قطر الندى للثقافة والإعلام ط1،2021 ص 9

◈ طلب أحد الخراف إلى الجزار ألاّ يمسّه بأيّ أذى، وأرفق طلبه بمجموعة من البحوث الطبية التي تبيّن مضار أكل اللحوم وفوائد أكل النبات، ولكنّ الجزار كان لا يعرف القراءة والكتابة، ولا يبالي إلاّ بإرضاء زبائنه من محبي اللحوم وطالبيها.

نظم شاعر الخراف قصيدة موزونة مقفاة أهاب فيها بأمّة الخراف أن تتناسى خلافاتها وتتوحد في قطيع واحد، متراص الصفوف، فرحب الجزارون بهذه القصيدة، وروّجوا لها، فالقبض على خراف متوحدة متلاصقة أسهل من القبض على خراف شاردة مبعثرة.

آمن أحد الخراف السمينة بفكرة السلام بين الخراف وبين الذئاب، وخصص كلّ جهوده للتبشير بها والدعوة إليها، فقبضت الذئاب عليه، وكرّمته خير تكريم بأن تبارت في طهو لحمه المكتنز الطري بأساليب مبتكرة جديدة.

كان أحد الخراف لا يملّ من المباهاة بكونه يعيش في غابة تكفل حرية التعبير لكل سكانها من دون تمييز، ولم يكن بالمخطئ إذ لم يتجرأ أحد على منعه من هجاء السكين المثلومة الحدّ التي تذبح الخراف.

حلم خروف أن يصير كاتباً ذائع الصيت، وقد نال ما يحلم به بعد أن ألّف كتابا طبيا حول تسمين الخراف بأقصر وقت، فقوبل كتابه بالثناء والرواج، واشتراه كل خروف يستحي من هزاله، واشتراه أيضاً مالكو الخراف.

زكريا تامر [1]

◈ والإمساك في الفتنة سنة ماضية واجب لزومها فإن ابتليت فقدم نفسك دون دينك ولا تعن على فتنة بيد، ولا لسان ولكن اكفف يدك ولسانك وهواك والله المعين»

الإمام أحمد بن حنبل [2]

1- حكاية خراف
2- طبقات الحنابلة/ (28/1)

مقدمة

بقلم د. عبد الرحمن محمد سعيد رمضان البوطي

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم أعنا على ما أقمتنا فيه، وألهمنا رشدنا في أقوالنا وأفعالنا.

اللهم جنبنا حظوظ النفس ولغط شياطين الإنس والجن.

وأكرمنا بنعمة الإخلاص لوجهك الكريم.

وبعد: منذ فترة وصلتني مسودة هذا الكتاب، وفور رؤية عنوانه، بدأت أفكاري تتداخل وتتصارع حول مضمونه، وبخاصةٍ أن مؤلفه من رموز المعارضة الإعلامية السورية.

لقد خلت أن الكتاب لن يخرج عن نهج المؤلفات والمقالات السابقة لغيره، حيث بات والدي رحمه الله مادة دسمة للمتاجرة من قبل أكثر من جهة، إلا أنني لست بغائب عما يطرح هنا وهناك فيما يتعلق بالمشهد السوري، حيث وقفت على أبحاث ومقالات ومؤلفات كانت تدور في أغلبها في إعادة إنتاج تفكير الجهة التي ينتمي إليها صاحبها، وكانت تدور أيضاً في حلقة التفكير المسيس والمشوه للحقائق في كثير من المواقف ولا تخلو من التدليس والختل.

تصدى لبعض تلك المؤلفات جند مأمورون بإمرة الممول في جانب، وبما يطلبه العامة في جانب آخر، والحقيقة أن والدي مضى إلى ربه غير عابيء بأمزجة الحكام ولا بهوى العوام، وقد نجح كثير من صغار الكسبة وتجار الأزمات في صناعة الأراجيف والفبركة ومايسميه والدي بالغرف السوداء والأيدي الشقية حيث أمعنوا في الإساءة إلى عالم دين ليس له من السلطة إلا قلمه وفكره.

قدم والدي رحمه الله روحه في بيت من بيوت الله وأمامه كتاب الله عز وجل، وليت شعري كيف يصدق أن نطلق لفظ الحرية على ثائر وهو يمارس أقسى أنواع الأحكام التعسفية حتى إن البعض قد اعتلى مقام التألي على الله فشمت بوالدي في نهايته واستعاذ من خاتمته!

ويبدو أن أمثال أولئك يهربون من الموت في بيت من بيوت الله ويفرون من الموت وهم يتلون والقرآن، وعلى طهارة، وهم صائمون، هؤلاء المستعيذون أحرار في استعاذتهم من تلك الخاتمة على ذكر الله وفي بيت الله!

لكنها ياصاحبي هي المتاجرة السياسية والاسترزاق بالمال السياسي واستدرار عواطف الهائجين، كل ذلك يعمي ويصم عن رؤية الحقيقة. فالمهارة ليست في رواية الحدث، بل المهارة في أن تمحص وتستقرأ الأحداث والحيثيات المحيطة بها والبيئة التي وجدت بها، لتصل إلى النتائج الحاصلة ثم استخلاص العبر من تلك الدراسة.

ولست أبالغ أبداً إن قلت إن غالب من تناولوا حياة والدي لم يكونوا على الجادة العلمية الصحيحة، وبعضهم كانت رواياته على طريقة اجتزاء الكلام من سياقه على منهج إبليس (فويل للمصلين ...) كي يوصل للقارىء الفكرة الخاطئة التي تقصد أن يزيفها، والغريب أن الرواية المشوشة من الجهتين المتعارضتين تلتقيان في عدة نقاط أهمها:

① ذبح الحقيقة، الجهة الحاكمة والمسيطرة أخفت أجوبة والدي التي لا تناسبها: مثل إلحاح الوالد على توبة السلطة والجيش من كل تجاوز ضد الشعب وهذا معروف في خطبه ودروسه .

② شرعنة والدي للمظاهرات السلمية وهذا معروف في خطبه ودروسه ومواقفه.

③ الإلحاح بالإصلاح، والمتمثل بإلغاء سلطة الحزب الواحد، وإصلاح الفساد الاقتصادي، بل تجاوز ذلك كله إلى المطالبة بدولة مدنية إسلامية.

④ فتواه بتحريم قتل المتظاهرين، ثم بتحريم المظاهرات المؤيدة أو ضد الشلطة .

⑤ إدانة كل عسكري قتل أو ساهم في قتل المدنيين.

⑥ تكفير كل من روج للسجود لصورة الرئيس وكل من دعا إليها (وهو أول استهداف علني من أكبر رأس إسلامي سني في سوريا لمسؤولي النظام وحاضنتهم)

وفي المقابل أخفت أبواق المعارضة الإعلامية كل تلك الأجوبة والمواقف وقفزت فوق ذلك كله إلى ناحيتين اثنتين **(الجريمة الأخلاقية والعقلية)**.

وذلك يتجلى في اقتطاع كلام الوالد عن بعض كلامه في وصف بعض المظاهرات بأن جباههم لاتعرف السجود، أو تحويرهم لكلام والدي حول امتداحه للجيش وتشبيهه بالصحابة، ومن عميق صنع المؤلف أنَّه بيَّن الحق والحقيقة في هذين الموضعين اللذين يستحق الشكر عليهما على الرغم من أني أحمل انتقادات على المؤلف الذي كان حاداً في بيان مشروعية مواقفه المعارضة والتي مع اختلافي في بعض تفاصيلها، إلا أنني احترم وجهة نظره.

بعض أطياف من يسمون بالمعارضة تغافلت عن تلك السردية المتكاملة لموقف الوالد رحمه الله ليشترك النظام مع المعارضة في وأد الحقيقة.

تأمل معي أيها القارىء الكريم، رغم أن والدي لم يكن جزءاً من المعارضة إلَّا أنَّه انتسب إلى عامة الناس وفق منهج علمي صارم يرى أنَّ الإصلاح أولى من الثورة، وأنَّ كلمة الحق عند السلطان تقتضي النصح المباشر لهم عبر أقنية غير استفزازية.

معلوم تاريخياً أنَّ السلطة لاتقبل مواجهةً أو مجابهة، وهذا ما جعل والدي لكثرة إلحاحاته العلنية والخفية في خانة من لا ترتاح له السلطة في التعامل حتى لو لم يكن ثورياً، بل وضعته السلطة في خانة ما أسماه د. علاء (**التفاهم الاضطراري**) وهذا خير وصف للحقيقة.

وفي المقابل تعاملت جموع من المعارضة مع والدي على أنَّه جزء من السلطة وذلك لضيقهم من نصحه لهم، وتحذيره لهم من الإنجرار إلى الخطة المرسومة، ولم يتكلم بخطاباتهم الخشبية الثورية.

بين سلطة مستبدة ومعارضة قاصرة أصبح سيدي الوالد رحمه الله عدواً للطرفين.

ألا تجد صديقي القارىء أن النقيضين اجتمعا على وأد الحقيقة والتلاعب بذاكرة الشعوب والابتذال الأخلاقي في تسفيه القامات والمرجعيات الدينية.

إني أرى أن الاستهتار بالمواقف العلمية الرصينة هو فخ ينصبه المستكبرون لمعارضيهم من كانوا حتى يبتلع الطعم لتسقط كل رأس عاقل.

ألم يتم تطويق الشيخ معاذ الخطيب وعزله؟

ألم يطالب بالحوار مع النظام؟

ألم يطالب بإطلاق سراح المعتقلين؟

ألم يطالب باستقلال القرار السياسي السوري؟

ماذا كانت نتيجة تلك المبادرة إلا مزيداً من التطويق والتهميش والإغتيال المعنوي .

أود التأكيد أن الوالد لايحتاج إلى من يدافع عنه، ولكني تلقفت الكتاب لمعرفة هل التزم المؤلف ببيان الحقائق وكشف التزييف أم لا؟

من باب المصارحة فإن الذين حاولوا اتهام مقام والدي والتجريح في شخصيته لايملكون أي أسس للبحث العلمي والاستدلالي، وليس لديهم أي أدلة عقلية أو أخلاقية،رحم الله من قال: (اللهم خفافاً لا لنا ولا علينا، لا نُؤذِي ولا نُؤذَى، لانَجْرَح ولا نُجَرِّح، لانُهين ولا نُهان، اللهم عبوراً خفيفاً، لانشقى بأحد ولايشقى بنا أحد)، هكذا كان الموقف العلمي والأخلاقي للوالد رحمه الله، فالحقيقة تعلو فوق كل افتراء وكذب وتدليس.

نحن لا نصادر حق نقدنا من غيرنا طالما أن النقد كان ولازال مشروعاً ضمن دائرة العلم والاحترام، ومهما حاول البعض انتقاص قدر سيدي الوالد بأسلوب رخيص بالتزييف واجتزاء الكلام والمواقف فإن علومه ومؤلفاته ومشاركاته في المؤتمرات والندوات الفكرية الإسلامية والفقهية تشهد له بإخلاصه لما كان يدعو إليه، وقد نهل العالم الإسلامي من معين فكره ووجدانه، وأخذ من نهجه شباب وأجيال مختلفة قد تعاقبت في حياته ومازالت بعد مماته، ولاينكر ذلك إلا مكابر وجاحد.

لم يرتبطوالدي رحمه بسياسة الدولة إلا من أجل الشأن العام ولمنع تغول السلطة على الشعب. ولم يكن لهدف شخصي أبداً كما تشهد بذلك سيرته العلمية والدعوية .

وقد دفع حياته ثمناً للحق ومبادئه ليستشهد على كرسي درسه الذي واظب عليه طيلة حياته، ويموت المرء على ماعاش عليه ويبعث على مامات عليه، أقول هذا الكلام كي تعجب أيها القارىء من شماتة البعض وهي شماتة حمقاء لايفعلها عاقل حين يرى ثبات شخصية والدي وفي هذا الجو الإجرامي يعدل عمامته والقرآن أمامه ثم يستشهد بعد ذلك.

إن الابتعاد عن المنهجية العلمية في النقد الفكري هو بحد ذاته جريمة .

إذا كانت الغيبة بحق إنسان مؤمن حي يرزق تشبه أكل لحم أخ ميت فكيف هي الغيبة والافتراء بحق عالم انتقل الى رحمة الله شهيداً أمام كتاب الله تعالى؟

وهاكم أمثلة عن مو اقفه داخلياً وخارجياً :

خارجياً: كان له تأثير في وقف نزيف الدم في الجزائر حين وجه لهم خطابه يطالبهم فيه بوقف العنف والرجوع إلى الهدوء، رغم خسارة حق الإسلاميين في نتائج الانتخابات، لأنه كان قد أقر لهم بحقهم، ولكنهم حرموا منه، فطالبهم أن يحتسبوا ذلك عند الله منعاً لإراقة مزيداً من الدماء في أهل الجزائر.

وفي زيارته لإحدى الدول العربية كانت هناك دراسة لمشروع يلغي الأذان في المساجد ويستبدل بأذان مسجل موحد يبث في جميع المآذن، أي إلغاء دور المؤذن الحقيقي في المساجد. واستُفتي في ذلك من قبل مسؤولين كبار متأملين منه أن يوافقهم لكنه أفتى بعدم جواز ذلك واعتبر ذلك إلغاءً لشعيرة الأذان في البلاد .

وعقب غزو العراق للكويت في زمن صدام أرسل رسالة إلى الرئيس الراحل صدام يطالبه فيها ناصحاً له بالتراجع والانسحاب ففي ذلك حماية للعرب والمسلمين وحماية للعراق أيضاً من عواقب ذلك .

وفي إحدى السنوات دعي والدي إلى القاهرة لتكريمه مع ثلة من علماء العالم الإسلامي بحضور الرئيس المصري. وقد طُلب منه أن يلقي كلمة العلماء المكرمين نيابة عنهم، ووافق على ذلك، ولكنه فوجئ بالوزير يعطيه ورقة مطبوعة قائلاً: تفضل هذه هي الخطبة. نظر إليه والدي مدهوشاً قائلاً له: أنا لا ألقي خطباً أو كلمات تملى عليَّ من أحد، إن قبلتم ألقي كلمتي بطريقتي المعتادة أو أعتذر. وبين لهم قائلا: أينما ذهبت وفي أي مناسبة كانت في سوريا أو خارجها، إذا دعيت للتكلم أمام الرؤساء والمسؤولين لا يملي علي أحد ما سأقوله عندئذ تم تبديله بخطيب آخر.

داخلياً: السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو أين هؤلاء رواد الثورة من المواقف الشرعية المطلوبة تجاه الحاكم، في خصوص محاربة الفساد الأخلاقي ومحاربة البرامج الهابطة، ومواجهة ولي الأمر بالنصح والإرشاد ثم بالصلابة في النصح بحكمة وحزم معاً.

أين كانوا حين كان والدي يرسل الرسائل إلى رأس السلطة ويبين له ممارسة المسؤولين بحق شعائر الإسلام، ويطالبه بإعادة حقوق المحجبات في المدارس سواء كن طالبات أو مدرسات؟

وأين كان هؤلاء عندما كان يطالب المسؤولين بدءاً من أعلى سلطة بالسماح للمجندين بأداء فريضة الصلاة؟ وحين كان يرفع شكاوى الجنود الذين يعانون من تنمر ضباطهم تجاه صلاتهم إلى رأس الدولة ؟

وأين كانوا حين صدرت مقررات مؤتمر صندوق الإسكان الدولي والذي كان يحمل أخطر القرارات بنشر الفساد والرذيلة في الشعوب الإسلامية؟ فيعلم والدي رحمه الله أن مسؤولين في التربية والاتحاد النسائي ومنظمات الحزب واتحاد الشبيبة شرعوا بتنفيذ تلك المقررات التي كان شعارها الخفي بينهم (الراحة الجنسية للشباب والفتيات). ليشن والدي حملة عنيفة على تلك المقررات وينبه السلطات بأعلى هرمها إلى خطورة ذلك. وتمت الاستجابة إليه، وصودرت الأوراق والمطبوعات والأفلام القذرة التي تم اعدادها للبدء بورشات عمل لتحقيق هذه المقررات.

أين كانوا حين كان يدعو الجميع قادةً ومسؤولين وعامة الشعب إلى التوبة والرجوع إلى الله تعالى؟ وأين كانوا حين كان يدعو السلطات ورأس السلطة إلى إطلاق سراح المعتقلين السياسيين والعفو عن الذين هم خارج البلاد؟

كان نهجه أن الصلح مع الله في تطبيق منهجه وأول خطوة في هذا المنهج هي (أن الله يأمر بالعدل). ولم يكن يعبأ برد فعل الحكام ولا برد فعل الناس، وكانت مواقفه تخضع لضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية، ولذلك كان يرى نفسه بمثابة سورٍ لمنع سقوط هذا البلد في كارثة الدمار والضياع.

ألم يحذر والدي من هذا البلاء؟

ألم يقل إنكم ستدخلون في نفق مظلم لا يعلم أحد نهايته؟

بحثتم عن العثرات في كلامه، بل في قشور الكلام فكان حالكم كحال من يريد أن يفرح بالعثور على شيء مفقود يلهث وراءه، من أجل التشهير به وبث السموم، واعرضتم عن جوهر الموقف الشرعي الذي استنبطه من الكتاب والسنة ، لم يكن موقفه مرتجلاً بل نابعاً من دراسة كاملة للأحكام الشرعية، وكل العلماء الأجلَّاء الذين خالفوه نهلوا من نفس المدرسة الفقهية التي نهل منها، ونحن نطالبهم أن يثبتوا دليلاً واحداً على مخالفته لمنهج السنة والجماعة في خصوص أحداث البلد. دعك من هذا الكلام الذي يقول: قال كذا وقال كيت وكيت. بل أرني خطأً منه في جوهر الموقف الشرعي الذي اتخذه بعد الدراسة والتمحيص والتدقيق.

للأسف بدلاً من مناقشة موقفه وفكره بشكل منصف وعاقل أصدر البعض مؤلفات ومقالات في مواقع التواصل حملت في طياتها متاجرة بقضايا الناس والتحريض على مزيد من الدخول في نفق الظلمات ولمزيد من الضياع.

ثم أصدر أ. محمد خير موسى كتابه المشؤوم عن حياة والدي المشحون بالحقد والسموم والتزييف ثم ادعى للقراء أنه كان مقرباً جداً من أسرتنا ومن والدي رحمه الله، وأخشى أن يصدق نفسه بهذا الادعاء. لإنه ادعاء باطل لا صحة له، فقد كانت علاقته علاقة عادية كأي واحد من طلاب دروس الوالد، وربما زار منزلنا في مناسبات استثنائية وفي الأعياد، وقد تدخل في كتابه في صميم العلاقات الأسرية ليزعم أن والدي ورث عن جدي روح السيطرة والهيمنة المشيخية علينا بشدة ليسلب منا إرادتنا ويقيد حريتنا!

إنه تدخل سافر في خصوصياتنا علماً أنه ادعاء لا أساس له من الصحة مطلقاً، وننصحه ألا يجعل من نفسه محامياً عنا.

كفاه حقداً أنه لم يترحم علة والدي من بداية الكتاب إلى آخره، فضلاً عن نسج وصوغ عقده إسقاطاته ونقائصه على سيرة والدنا وعلى أسرتنا، ثم يدعي الإنصاف والواقع أنه يكتب ما يطلبه الجمهور الخاص به.

لقد أراد أن يجعل من والدي جزءاً من النظام، وكي يوصل أفكاره المسمومة للقارىء اجتزأ قسماً من مقابلة متلفزة ولم يتممها على نمط (فويل للمصلين ....) كي يصف والدي بأنه معتد جداً بنفسه لا يرى أحداً إلا نفسه!

إنه أسلوب رخيص مبتذل يا للأسف.

وللبيان أقول:

لم يكن والدي يوماً من الأيام جزءاً من الدولة أو النظام.

ولم يكن يعنيه رضا الدولة ولا رضا عامة الشعب رحمه الله.

غايته رحمه الله رضى الله تعالى فقط باتباع النهج الشرعي، رضي من رضي وسخط من سخط.

ومواقفه كانت مبنيةً على أحكام شرعية يبحث فيها ويدرسها ويستخير الله فيها ليصل إلى نتيجة صحيحة.

كل مواقفه التي عدها البعض مع السلطة إنما هي روايات مجتزأة، ومع ذلك فإنه عدة مرات ذكر أن من لديه دليلاً شرعياً على خطأ موقفه فليذكره لي.

إنني على يقين أن كثيراً من هؤلاء يعلمون ضمناً خطأ موقفهم ويدركون الآن بعد الدمار والتشتت والضياع صواب موقف ومنهج والدي، ولكن خوفهم من غضب وتنمر جمهورهم يمنعهم من إعلان ذلك.

قال لي أحدهم: إني لا أملك الجرأة أبداً لإظهار أي تفهم لموقف الشيخ البوطي، خشية غضب وتنمر بقية المعارضة!

أليس هذا هو الإرهاب الفكري بحد ذاته؟! أليسلو ملكوا القدرة على ممارسة إرهاب أكبر لمارسوه؟! والغريب أنهم هم الذين هربوا من إرهاب الدولة وبطشها.

وأعود إلى البداية حيث اتصل بي مؤلف هذا الكتاب الدكتور علاء منذ فترة ليعرض علي فكرته ومشروعه، فكان جوابي له فاتراً وبعيداً عن أي حماس، وتريثت في ذلك، وبعد تفكير ونقاش معه لمست منه أنه سيكون منصفاً وعلمياً في نهجه، وبعد قراءتي لأصول هذا الكتاب اختلفت مع المؤلف في نقاط عديدة، ولكني لم أجد مبرراً لممارسة الإرهاب الفكري عليه في قناعاته كما يمارسه الباقون الهاربون من قهر الدولة ليمارسوه فيما بينهم وعلى غيرهم .

جديد هذا الكتاب حسب نظري أنه قدم رؤية كاملة لموقف الوالد الشهيد دون مقص الرقيب، وأما الحكم النهائي فأتركه للزمن.

وبناءً على أنني بحمد الله لست مرتهناً بمواقفي وآرائي ومنهجي إلى الداخل، لم أتلكأ في كتابة مقدمة لكتاب فيه من الإنصاف والبحث الموضوعي والعلمي لموقف والدي الشهيد رحمه الله.

أقول لعل الله يجعل من هذا الكتاب منارة لمن أغلقت قلوبهم وتم التلاعب بعقولهم تحت ضغط التدليس والتزييف، وأما الذين ينشرون ويروجون الافتراءات لغايات هم يعلمونها قبلنا فلا يهمنا رد فعلهم ولكن نسأل الله لهم الهداية والخروج من بؤرة العناد والمكابرة وأن يتقوا الله في أنفسهم.

والحمد لله رب العالمين

عبدالرحمن محمد سعيد رمضان البوطي

8/05/2023

مقدمة

بقلم د. علاء رجب تباب
دكتوراه في الإعلام والعلاقات العامة والتسويق السياسي

أن تكتب عن العلّامة البوطي ليس أمراً سهلاً، فأنت لا تقف أمام شخصٍ عادي، فهو سليلٌ لظاهرة نخبوية اجتماعية تستحق التحقيق والتحليل. الكتابة عن الشيخ البوطي بعد الحراك السوري دون تقليلٍ أو تقديس أشبه بالسير في حقلٍ تملؤوه الألغام والمخاطر.

أن تكتب عن البوطي فأنت تقرّر استدعاء العاطفة الشعبية واستفزاز العقل الجماهيري! لكن لا شكّ أنّها خيانة اجتماعية وثقافية أن يخضع العقل لإرهاب الجمهور، فهذا إرهاب فكري لا يقلّ خطورة عن إخضاع عقل المثقّف الاجتماعي لإرهاب السلطة السياسية. لذا لا مناص أخلاقياً من المدارسة والوقوف مع العقل والعلاّمة البوطي ليس بقصد التبرير أو التبرئة، بل التقييم والتقويم، ولا بدافع الانحياز لشخص بذاته، بل بهدف الانحياز للمجتمع والذات الحضارية وإنقاذ العقل الجماهيري من تخبّط الفكر والمفاهيم وأرقِ الخلط ما بين الفكرة والشخص أو الشخص والرمز! فإنّ الرأي العام لم يتعاط مع الشيخ البوطي كحالة فردانية، بل يعتبره ظاهرة رمزية لعالم الدين الإسلامي ولا أبالغ إذا قلت إنّه تعدى الأمر وخلط ما بينه وبين الدين ذاته! وهذا ما يحاول الفاعل الإعلامي السياسي للسلطة المتنفّذة أن يسوّقه لاستنبات وتكريس الهوّة ما بين الإنسان والحالة الدينية في المجتمع! لذا إنّ التعاطي مع قضية البوطي كحالة فردانية لا يُجدي ويعكس عدم إدراك الواقع الاجتماعي، ويتوجب على العقلاء أن يتعاملوا مع هذه القضية أثناء المعالجة الاجتماعية والفكرية من ذات منظور الرأي العام الذي يتعاطى معها كونها ظاهرة اجتماعية دينية وثقافية.

حاولت الآلة الإعلامية السياسية أن توهم الرأي العام بأنّ العلاّمة البوطي جزءٌ لا يتجزأ من المنظومة السياسية للنظام السوري، بل وكان دفنه أمام المجاهد صلاح الدين الأيوبي لتسويق هذه الرسالة والمفهوم في نفوس العامّة والخاصّة والنّخب الاجتماعية والفكرية، ولم يكن هذا السلوك بقصد التكريم والتشريف، بل بدافع التحجيم والتجييش ضدّ الفاعل الديني داخل المجتمع العربي والإسلامي والسوري، لذا فإن اتخاذ قرار تصفيته واغتياله غالباً لم يكن محلّياً، بل كان على المستوى السياسي العام لهذه المنطقة العربية والإسلامية!

لا ريب أنّ اجتزاء المواقف وسلخها عن السياق الاجتماعي والسياسي في الحكم على العلاّمة البوطي يعرقل التوصيف والتقييم والتقويم، **وإنّ استقراءً دقيقاً لسيرته ومو اقفه التي سلّط الكتاب عليها الضوء، يبيّن حقيقة الأمر وما فيه وأنّ الشيخ البوطي هو علاّمة اجتهد وارتأى أن لا يتقوقع في المحراب أو منصّات المر اكز الثقافية أو مدارج الجامعات والسياق التعليمي الأكاديمي، ما دفعه إلى التفكير في محاولة إدارة الفاعل السياسي من خلال هيكلة الو اقع الاجتماعي والثقافي وفق الثابت الديني أقوى فواعل المجتمع السوري والعربي**، وهنا نفهم لِمَا كان البوطي لا يفاوض في ثوابت الإسلام الاجتماعي والفقهي والعقائدي، لكنّه بذات الوقت كان صارماً حازماً لا يتنازل عن الثوابت والأسس الدينية الاجتماعية والثقافية، في حين كان ينتهج التّقية السياسية في التعاطي مع المتغير السياسي المستبد، ليس إيماناً منه بنزاهة السلطة، بل لإدراكه إمكانيات وقدرات الفاعل الديني والاجتماعي وتأثيره وتأثّره بالمتغير السياسي والسلطوي والأمني، ولعلمه أنّ السلطة الاستبدادية المجرمة في العصر الحديث، لا يمكن مقارعتها عسكرياً بسكّين أو بندقية وإعلامياً بمنبرٍ أو مكبّر صوت، لقد كان يعتقد أنّه بالإمكان إدارتها فيما يخدم الفاعل الاجتماعي الحضاري ويحافظ على المتغير الثقافي وحوامله البشرية في المجتمع السوري إلى أن يخلق الله أمراً كان مقضيّاً.

لم يُدرك أحد خطورة العلاّمة البوطي على المجتمع السوري إلّا النظام السياسي والأمني ذاته! فكان يدرك هذا النظام الأمني الخبير، أنّ استنساخ البوطي اجتماعياً يهدّد أمنه ووظيفته في إدارة المجتمع استراتيجياً، لذلك لم تسمح السلطات للشيخ البوطي أن يكون زعيم حراكٍ اجتماعي أشبه بالحركات الشعبية الإسلامية المستندة إلى العاطفة والتصوّف المطلق وتغييب

العقل شعبوياً، لضمان استغلال العاطفة غير العاقلة وإبقائها عنصراً معطوباً قابلاً للتوظيف السياسي والحضاري!

إلّا أنّ العلّامة البوطي فرض حضوره في التعليم والدراسات الجامعية والعليا والسياق النخبوي الاجتماعي، وبطبيعة الحال لم يشكّل حضوره في هذا الإطار إشكالاً أو تهديداً للفاعل الاستبدادي، لأنّ المؤسسة التعليمية والحكومية والأمنية تتحكم بكافة متغيرات هذا الإطار وتفاصيله والبوطي لا ضرر أن يكون فيه أستاذاً محاضراً، لأنّ تخوّف وإشكالية السلطة مع هذه النماذج الفكرية الدينية أن تتحوّل إلى حراك اجتماعي يولّد حوامل بشرية تستند على العقل والعاطفة والولاء معاً، ما ينافس ويهدد الفاعل الاستبدادي السياسي السلطوي اجتماعياً، لأنّ مثل هذا الحراك ينتج نخباً غير قابلة للتوظيف العاطفي السياسي، لأنّها بطبيعة منبتها تكون مشبعةً فكرياً برؤى أصيلة وثابتة ومسبوكة، ما يعني أنّ العاطفة بهذا السياق تتحوّل لقوّة حضارية دافعة للتمكين الفكري والحضاري.

إنّ إدارة البنى الاجتماعية للفاعل السياسي الاستبدادي في ظل متغيرات الواقع السلطوي الشامل ذو القوة العسكرية والأمنية والإعلامية والتعليمية والاجتماعية المطلقة أمر يحتاج لوقفة والارتحال فيه خيانة، فالأمر ليس كتابة مقال أو تحقيق أو بحثٍ علمي!

وليس من العدل ولا المنطق المقارنة ما بين موقف أحد الفاعلين والعاملين في المشهد الاجتماعي المحكوم بأدوات السلطة الاستبدادية ذات النفوذ المطلق وبين موقف أحد المنظّرين أو المحللين أو الكتّاب الحاضرين في أماكن أخرى! لأنّه من المعلوم أنّ الحكم على الأشياء والسلوكيات تتباين باختلاف الزمان والمكان والمتغيرات المحيطة، لكنّ هذه البديهية لم تعد واضحة المعالم في عصر الإعلام والفضاء المفتوح، فاختلط الحابل بالنابل واختلط المكان بالمكان والزمان بالزمان، فأصبح المنظّر السياسي والديني المتواجد خارج إطار الجغرافية لبلد ما، يحكم على قضاياها انطلاقاً من واقعه وبيئته ومتغيراته وزمانه ومكانه، أو يحكم بعضهم على القضايا قياساً بالحالة المثلى الواجب أن يكون السلوك عليها، في حين أنّ الحكم على ذات الأمر يتباين بالنسبة للفاعل الديني المتواجد داخل الجغرافية ذاتها، فهو يحكم على الأشياء بالقرار المناسب وليس الأمثل، لأنّ القرار الصائب ليس بالضرورة أن يكون الأمثل بل أحياناً

يكون القرار الأمثل في بيئة معينة هو عين الخطأ! فهناك فرق شاسع بين أن تكون فاعلاً في بيئة معينة وبين أن تكون منظراً أو كاتباً أو محلّلاً!

كذلك إنّ الرأي العام الذي يعتبر اليوم وليد وسائل الاتصال الاجتماعي والجماهيري، يحكم على الأشياء انطلاقاً من الواقع الإعلامي ومدخلاته وليس من الواقع المعاش أو المنهج الأصولي، لذلك تحوّل العالم الافتراضي لمعيار يُقاس به العالم الحقيقي، وبهذا يتم الحكم على العلماء والمنظرين الفاعلين بمعيار غير دقيق يصنعه الإعلام السياسي الذي يصوغ البنية التفكيرية والمنهجية لدى الرأي العام.

وعليه ما يبدو أنّ الشيخ البوطي اجتهد وقرّر أن يتفاعل مع الواقع الحقيقي وفق تقديره لتوازن القوى المحلّية والدولية والشعبية الفاعلة وليس وفق المأمول الافتراضي أو القرار الأمثل الذي يطالب فيه الحراك وينظر له الكاتب والمحلّل والعالِم الديني المنفصم عن الزمان والمكان والمتغيرات المحيطة للبيئة الجغرافية الخارجة عن نطاقه!

يُغالط البعض ويقارن بين الشيخ البوطي والمتظاهرين ليقول: إنّ عدم التحاق الشيخ بالمتظاهرين في ساحات الاعتصام دلالة على انفصامه وخيانته واصطفافه لجانب المجرم، وهذا كلام غير دقيق! هذا الشيخ حياته كلّها ثورة وهذا الشباب الثائر بعضهم نتاج ثورة أمثال الشيخ أصلاً!

إنّ السلوك الجماهيري الشعبي لا يحتاج لعدد، ولكنه يحتاج لثورة موازية في المستوى السلطوي والمؤسساتي، يحتاج لعقل يوجه بوصلته، يحتاج لأناس يحتلّون المفاصل لدعم الحراك والتدافع المجتمعي المؤثّر لإدارة التغيير الرأسي لهذا المجتمع سياسياً وعسكرياً واقتصادياً. لم يكن المتظاهرون بحاجة متظاهر ثمانيني يعتصم أو يُشجع إعلامياً لأنّ التجريم واحد أصلاً بالنسبة للفاعل السياسي الاستبدادي، لذا كان الخيار الأنسب لكل صاحب مفصل ومكان أن يدعم القضية بطريقته وبشكل منظّم من مكانه، ومثل هذا السلوك هو الأخطر لأنّه يكمّل الحراك ويفعّل وجوده ويهدد كيان النظام السياسي الاستبدادي ويدفع باتجاه التدافع السلطوي عاجلاً أم آجلاً، فلا قيمة كبرى أو مؤثّرة لتظاهر أصحاب المفصل العسكري أو المفصل الديني الاجتماعي، فإنّ المؤثّر العسكري القيمة التي يضيفها ليست بتظاهره بل بإدارة

الممكن في مكانه لصالح الحراك الشعبي أو انقلابه المؤسساتي وليس انشقاقه الذاتي، والحال ذاته بالنسبة للفاعل الديني الذي يسعى إلى الرباط في الحيز الاجتماعي والاستعداد لكافة الاحتمالات المستقبلية، فالثورة ليست بالاعتصام والتظاهر ولكن بالتنسيق والتنظيم والإعداد ومحاولة التأثير بالمواقع المفصلية بشكل منظّم ومدروس! ولأنّ النظام الأمني يعي خطورة هذا الأمر لجأ إلى سياسة التشجيع واستنبات الانشقاقات العسكرية والسياسية والأمنية والدينية والشعبية والمؤسساتية وفتح أبواب التهجير والاعتقال والقتل والتجنيد لتفكيك المجتمع والمؤسسات وإعادة هيكلتها بشكل متجانس وبعيداً عن تأثيرات الحراك الشعبي على كيانه الذاتي، وكان هذا باعتراف رأس النظام بأنّ الانشقاق سلوك إيجابي تنظّف الدولة والبلد ذاتها بواسطته لتحقيق كيان متجانس باستطاعته العيش دون اضطراب!

لنكن أكثر إنصافاً... ماذا نريد من هؤلاء! أنريد من هؤلاء المفكرين الربانيين أن يُقتَلوا ويُرموا في السجون والمعتقلات أو المقابر! ومن ثم يتم تنصيب عناصر مخابراتية بعمامة وجبّة لا يقدّسون لا الثوابت الدينية ولا الثقافية ويعتبرون الفاعل السياسي إلهاً من دون الله! أنريد ألّا يكون لهذا المجتمع عقلاً أو سياجاً! لو كان اعتقالهم وقتلهم جدلاً يحلّ الإشكال ويقضي على الاستبداد، بالطبع لا مشكلة لا بقتلهم ولا اعتقالهم! ولكن ماذا إذا كانت النتيجة تغييب العقل الاجتماعي وتكريس المستبد والتفاهة وتغيير الديمغرافيا والعبث بالمفاهيم وقلب الموازين لصالح المستبد والأجندات الثقافية والاجتماعية الخارجية!

لذا هل يعتبر مطالبة هؤلاء الأسرى الاجتماعيين بإعلان العداء والحرب على السلطة المستبدّة يصبّ في صالح المجتمع والذات الحضارية الثقافية والإسلامية!؟

وهل مجاملاتهم السياسية تندرج في إطار الارتهان السياسي أم أنّ معيار الحكم على العالِم الديني يكون من خلال سلوكياته الاجتماعية وحرصه على تحقيق ثوابت الدين والمجتمع بغض النظر عن المجاملات!؟

نعم، إنّ استقراءً حيادياً لمواقف الشيخ البوطي وتعاطيه مع الفاعل السياسي الاستبدادي بغض النظر عن مجاملاته السياسية التي سأعرّج على أهدافها لاحقاً ليس بقصد التبرير أو التشريع بل التقييم والتقويم، يبيّن لنا هذا الاستقراء العام أنّ البوطي ما قبل الحراك الشعبي

وبعده كان يعتبر أحد أخطر الأعداء على النظام السوري من الناحية السلوكية والاستراتيجية لا الإعلامية!

ألم يأن الأوان أن تراجع العقلية الاجتماعية السورية ذاتها وتخلو بعقلها دون عواطف! لأنّه ببساطة إنّ العقلية الاجتماعية التي تعمّم الجزء على الكل غير قادرة أن تصنع ثورة بناء! وإنّ هذه العقلية التي لا تمجّد إلّا القتيل أو المعتقل والكلّ خائن لديها حتى يُقتل أو يُسجن لا يمكن أن تنهض وتستعيد ذاتها لأنّها تهدم متغير الثقة المسؤول عن تنظيم الحوامل البشرية الحضارية والذي يسعى النظام جاهداً لهدمه منذ استلامه السلطة إلى اليوم لأنّه يعلم يقيناً خطورة هذا المتغير في صناعة الذات الحضارية، كذلك إنّ هذه العقلية الاجتماعية التي لا تتقبّل إلّا الحالة المثالية تُحدث لدى الصادقين رهاباً من المحاولة والعمل والتفكير وفق الاجتهاد وتقدير الواقع وموازين القوى في العصر الحديث وفي ظلّ الأنظمة الشمولية الاستبدادية!

لا بدّ أن ندرك أنّ الحالة المثالية لأي مشروع لا تُخلق بين ليلة وضحاها وإصرارنا على محاكمة المشاريع قبل اكتمال نموّها هو فشل حضاري وعدم وعي وإدراك بالواقع وتطوراته، فإنّ النصر والمشروع الجماعي نتاج لجهود تراكمية! فلا يوجد حضارة أو مشروع في العالم إلّا ومرّ في مراحل الرضاع والحبو والمشي والمراهقة والتفكير والرشد، وهنا لا أتكلم عن ذاتية الدين بل عن تطبيقه وتفاعله مع المتغيرات العصرية في ظلّ الأنظمة الاستبدادية والشمولية وعدم توازن فواعل القوى والحضارة، فإنّ الدين ثابت لا يتغيّر في مبادئه وأصوله، أمّا تطبيقه فهو متغير متفاعل مع البيئة ولا يمكن تطبيقه بمعزل عما يحيطه من متغيرات وثوابت، لذا إنّ الدين الذين حكم العالم هو نفسه ورغم صلاحه مرّ بمراحل دعوية عدة، والدفاع عن الذات والمواجهة الحضارية، ولكن لم ينتقل لأي مرحلة إلّا بعد تهيئة الحوامل البشرية المناسبة، والحوامل البشرية ليست هي القادرة على التظاهر والدبك والاستعراض الغنائي في الساحات والميادين، إعداد الحوامل البشرية يكون بالتعليم والتنظيم والإعداد والتزكية والتفكير الجماعي، ما يبدو أدرك البوطي حسب استقراء سيرته وما وراء مواقفه أنّ المرحلة غير مواتية وأنّ القيادات الاجتماعية لم تتبلور وتتأهل وتتقوّى وتنظّم بفاعلية مؤثّرة، بالمقابل أدرك تركيبة النظام وشبكته الدولية وإجرامه وأنّ أي مواجهة صدامية تؤدي إلى إجهاض الحوامل البشرية

في المجتمع الموازي داخل بيئة الاستبداد السياسي. لذلك من الظلم بحقّ المجتمع أنّ نحكم على عقوله الفكرية الأخلاقية بعاطفة واندفاع واجتزاء ودون تحقيق أو تبيان، فإنّ العالِم لا يُحكم عليه من تصريح أو اجتهاد ما أو وجهة نظرٍ سياسية، فهو ليس صاحب قرار أو سلطة، هو متغير يتفاعل مع محيطه وفق تقدير المصالح والمفاسد، إنّه أسيرٌ ومكره ومحكوم بأصول لا بعاطفة أو بأقلّ تقدير هو من لحمٍ ودم يخطئ ويصيب ويخاف ويُراوغ ويجتهد! وعليه لا يُحكم على العالِم الإسلامي في ظلّ البيئة السياسية الاستبدادية إلّا من سياسته ومواقفه الساعية إلى تمكين الإسلام الاجتماعي الفكري الثقافي وليس الطقوسي، فكلّ وقّافٍ عند حدود الشرع في النطاق الاجتماعي الثقافي فهو أداة تغيير آمن، وكلّ عالِم لا وزن لهذه الحدود لديه ولو كان معارضاً سياسياً فهو أداة هدم وتدليس آمن!

لذلك من الممكن أنّ يعتبر سلوك البوطي رباطاً ثقافياً هدفه المحافظة على الممكن الاجتماعي الثقافي وصناعة مجتمع موازي داخل البيئة الاستبدادية الإجرامية الساعية لهدم المجتمع وتغيير بنيته الثقافية! وإنّ أي منصف يدرك أنّ هذا السلوك يكمّل ويتناغم مع إرادة الحراك الشعبي وليس مناقضاً لها! وهذ بالطبع حسب الاستقراء العام لا يعني به الشيخ البوطي أن نغيّب أو نتجاهل دور العلماء المجتهدين الذي يعتقدون أنّ لا خيار لمواجهة هذا الصائل السياسي إلّا بالعمل المباشر ضدّه وإعلان الانقلاب عليه وأنّ اللحظة مواتية بكل تفاصيلها، وهذا الرأي اعتبره البوطي اجتهاداً غير ناضج، لكنّه كان منصفاً ووصفه بالاجتهاد الفقهي، وهذا الموقف لا شكّ يعكس النضج الفكري السياسي لدى البوطي، بل ويؤسس لمنهج سياسي في التعامل مع الصائل السياسي.

ما يبدو أنّ الحلّ الأنسب والأصلح لتحقيق التمكين الحضاري الآمن في ظل البيئة الاستبدادية الإجرامية هو استيعاب الأطراف ذات التوجه الثقافي الواحد لكافة الاجتهادات المنبثقة عن عقولها الأخلاقية العلمية، والحذر من تخوين كّل طرف للآخر وإلّا تحوّلت الحالة الدينية الاجتماعية لحلبة استنزاف ذاتي تصبّ في خدمة الصائل السياسي!

ليعلم أنّ كل طرف لا يمكن أن يُلغي الآخر حكماً، ولكن كلا الطرفين يُلغيا بعضهما بعضا باستنزاف الذات! بالمقابل من الممكن أن يحكم الأطراف المجتمع إذا ما تجنّبا الصراع واعتبر

كلّ منهما رأي الطرف الآخر اجتهاداً مقبولاً. الكارثة اليوم أنّ المسلم لا يقبل المسلم، بل يتحالف مع النقيض الفكري الثقافي رغم أنّ القواسم بين الطرفين السابقين تعتبر الأغلب، لكن ما يبدو أن المسلم الأول يعتبر المسلم المخالف لوجهة نظره التفصيلية منافساً لمشروعه ومنازعاً لسطوته الشخصية المنحصرة بكيان أو مؤسسة أو مصلحة ذاتية! مع العلم أن السبيل الأفضل لتجاوز العقبات الحضارية هو التحالف مع المتقارب الفكري وليس النقيض، وبذات الوقت لا يعني أن تكون وجهة النظر المخالفة للرأي الآخر متناً لمشروعك أو أن يكون أصحابها جزءاً من فريقك فهذا سلوك يستنزف الفكرة سلباً، لكنّه يكفي أن يشكّل كل طرف حاضنة شعبية مستقرّة للطرف المتقارب الآخر إذا ما استحكم مشروع أحد الأطراف في قيادة الفاعل الاجتماعي والسياسي، وبهذا السلوك يتم تجنب الاستنزاف الذاتي لصالح النقيض الاجتماعي والثقافي والسياسي والإدارة السلطوية المستبدة.

ولكن لا بدّ من التنويه أنّه من الخطورة المحاباة والتفاوض والمداهنة في ثوابت الشأن الديني الاجتماعي والعقدي والخطوط العامّة للفقه العام وإلا نكون أمام كارثة! ما يعني أنّ الأولوية الثقافية استراتيجياً هو الحفاظ على الدين الثقافي التشريعي لا الطقوسي وأمّا الانتصار يكون تحصيل حاصل والتغيير الأمن عندها لا شك منظور قريب.

القول أنّ الشيخ البوطي لو أفتى بجواز الخروج على السلطة لغيّر المعادلة كلام مبالغٌ فيه ويحتاج لإعادة نظر وتقدير، علينا أن نعترف أولاً أنّ الحراك الشعبي الحاصل أصلاً ليس نتاجاً لوعي، بل هو نتاج ألم لا ينتظر فتوى ولا توجيه، فإنّ الإنسان السوري وعى واقعه قبل أن يمتلك أدوات التمكين، وعدم امتلاكه لهذه الأدوات، كان نتيجة خضوعه للاستبداد السياسي المطلق، لذا العبارة الدقيقة التي توصّف الحالة الثورية هو أنّ الواقع هو الذي ثار على الإنسان وليس الإنسان من ثار على الواقع!

وهذا ما يفسّر طبيعة اصطفاف البوطي لجانب الحراك عاطفياً لا عقلانياً، فالمطلع على تفاصيل حواراته وأحاديثه لا يخفى عليه إذا كان منصفاً وحاذقاً تعاطفه مع الحراك الشعبي، ولكنّه فيما يبدو كان يتعامل معه استناداً إلى التقييم العقلاني لا العاطفي، حيث يعرف عن البوطي أنّه ليس رجل جماهير ويعتدّ برأيه وفق أصول الفقه والاجتهاد الديني، وأجاب ذات مرّة

أنّي أعجبت بكثيرين ولكنّ لم أتأثّر بأحد، كان يفصل بين العقل والعاطفة ويدرك أنّ التأثّر العاطفي يقتل التفكير ويقوّض العقل! لذلك إنّ المتابع لمواقف البوطي وتصريحاته يدرك أنّ محاولة دعوته لعدم التظاهر والتسليح والاشتباك مع السلطة، لم يكن خوفاً على النظام ومرتزقته ولا خوفاً منهم، بل كان يحاول إنقاذ البيئة الاجتماعية من هذا الصائل السياسي وداعميه، كان مدركاً للتركيبة السياسية والعسكرية والمافيوية لمنطقة المشرق العربي، وكان يدرك أنّ هذا الحراك الشعبي رغم شرعيته إلا أنّه يتم إدارته سياسياً لإجهاض الجنين الحضاري السوري الذي ما يزال يتخلّق في الرحم الاجتماعي الحضاري، من الواضح لمن يستقرئ سيرة وتصريحات وسلوكيات العلّامة البوطي يدرك أنّ استراتيجيته في التغيير هو المحافظة على السياج الاجتماعي، لأنّه كان يؤمن أنّ المحافظة على البنية الثقافية وصقلها بالإمكانيات وتطويرها هو السبيل الوحيد لتحقيق التغيير الآمن في ظل هذه السلطة الدموية العابرة للقارات.

لم يكن البوطي جباناً ولا خوّافاً ولم يكن موقفه نتاجاً لخوف أو جبنٍ أو طمع، ولكنه كان ينطلق من منهجه ورؤيته وتقديره لمعطيات الواقع وميزان القوى. من الواضح أنّ البوطي كان يعتقد أنّ الخسائر الاجتماعية والسلبيات التي ستنتج عن تطويق الحراك في بدايته أقل بكثير من الخسائر التي ستنتج عن المتابعة في إشعال هذا الحراك الشعبي لعلمه اليقيني بالتركيبة الاجتماعية الذاتية والسياسية وإجرام النظام والفاعل الدولي! وهذا ما يفسّر أساسيات اجتهاده وموقفه الصارم والحازم.

يُدرك الشيخ البوطي أنّ مباركته للطوفان الشعبي لن يشعله ولن يوقفه، فلا النظام السوري ينتظر فتوى من البوطي ليوقف آلة بطشه ولا الشعب ينتظر فتوى ليتابع غضبه أو يقوّض حركته، فإنّ البوطي يدرك حسب قراءتي لمواقفه وتعاطيه مع الحراك والتي سردها الكاتب في طيات كتابه بشكل مفصّل أنّ هدفه هو العمل والتعليم والإعداد وليس إصدار فتوى استعراضية لا تقدم ولا تؤخّر!

كان يدرك أنّ ما يحدث سنّة كونية لا يمكن مقاومتها ولا يمكن مجاراتها ولم يكن أمامه إلا الاجتهاد في إدارتها. وهذا ما يفسّر رفض البوطي لتولي منصب الإفتاء ما قبل الحراك الشعبي

لأنّه يعلم أنّ الفتوى غير مؤثرة اجتماعياً وأنّ المؤسسة الدينية مختطفة ولا يريد أن يكون أسيرها، بل آثر أن يبقى مستقلًّا غير محكوم بجهة سياسية وأمنية حتى ولو التقى موقفه معها ظاهرياً، لكنه لم ينطلق بفتواه بغية إرضائها حتماً!

إلّا أنّه تم التسويق أمنياً وإعلامياً بتبعية البوطي للنظام الاستبدادي بغية خلق هوّة بين العالِم الديني والحاضنة الاجتماعية، بهدف تنفيذ خطة التغيير الاجتماعي التي يشرف عليها النظام الاستبدادي والمنظمات المدنية ومعابد الدراسات الاجتماعية! كان البوطي يسعى جاهداً لبناء مجتمع يتأثر بالفتوى قبل أن يصدر له فتوى!

لأنّ فتوى الاصطفاف لجانب الحراك لو أصدرها جدلاً لشرّعت تحييده ولم تقدم أو تؤخر! الفتوى الفاعلة الملزمة للسلطة والعامّة هو عندما يكون الدين هو السلطة الحقيقية وليس محكوماً! لذا ما يبدو ارتأى البوطي أن يستثمر الحراك الشعبي للضغط على السلطة السياسية بواسطة التواصل المباشر لا الإعلامي.

ولو أنّ البوطي أعلن انقلابه علناً لشرعن للنظام الإبادة الجماعية العلنية لكل مسلم شارك أو لم يشارك في الحراك الشعبي. آثر البوطي أن يبقى في سلطته المعنوية الشعبية ليشكل أداة وصل بين الحراك والسلطة لصالح المجتمع الذي انبثق الحراك منه ليقينه بالطبيعة الإجرامية للنظام السياسي، وعدم انقلابه العلني على السلطة كان لعلمه أنّ المجتمع الإسلامي بحاجة لرأس يديره في المرحلة الآنية والقادمة والرأس المقصود هنا هو الفاعل الديني وليس شخصاً بذاته، لا سيما وأنّ المستهدف حسب التدقيق في مواقف البوطي وتصريحاته هو الفاعل الاجتماعي الثقافي وإنّ حملات التهجير والاعتقال والتغيير الديمغرافي لا تخرج عن سياق الحدث، وعليه إنّ سلوك البوطي كان لصالح الحراك الاجتماعي استراتيجيا في إطار الممكن ويعتبر الخطة البديلة عن نجاح الحراك وتمكينه سياسياً، فهو بذلك حافظ على وجود أسر إسلامية ثورية لا تعلن ثوريتها وانقلابها ومازالت تعيش بالمناطق الخاضعة لسيطرة النظام وهؤلاء المرابطين الثقافيين من الواجب اليوم التشبيك معهم ودعمهم بخطط تنموية تحافظ على ثقافتهم وتوازنهم وفاعليتهم الاجتماعية.

يظنّ البعض أنّ السمات الشخصية للعلّامة البوطي لا علاقة لها بالثورية، ما أثّر على موقفه ورؤيته وتعاطيه مع الحراك الشعبي، إلّا أنّ المتابع لمواقفه الاجتماعية والتعليمية والعلمية والفقهية والثقافية والسياسية أثناء حقبة ما قبل الحراك الشعبي السوري، يُدرك أنّ الثورية والشغف إلى التغيير الاجتماعي والسياسي الآمن كان ديدنه وهمّه ولكن بطريقته وأسلوبه واجتهاده، لذا نجد أنّه المفكّر السوري الأوحد الذي تحدّى الحراك الاجتماعي الفلسفي السوري المعادي لدين وثقافة الإسلام، ولا شكّ أنّه اشتُهر أثناء جولاته الاجتماعية الفكرية والعقدية بالثورية والحزم والحذاقة والهيبة والأنفة والحضور اللافت والبديهة الحاضرة والاتصال العاطفي الخاشع مع الذات الإلهية.

لا أبالغ إذا ما قلت أنّ البوطي كان يحرس الثغر الاجتماعي والثقافي الديني بكل ما أوتي من عزيمة وعلم وحنكة وموقف، وهذا ما جعله محطّ استهداف سياسي عابر للقارات في مرحلة ما بعد الحراك الشعبي وأثنائه!

أيضاً كان من الواضح أنّ الشيخ البوطي لم يتساهل أو يداهن البتّة السلوكيات الرعناء والاعتداءات الممنهجة التي يقودها النظام السياسي وتشنّها الدراما السورية ونقابة الفنانين أحد أهم الفروع الأمنية لنظام الأسد على المجتمع السوري بقصد إعادة هيكلته وفق الرؤى الإلحادية والغريبة عن ثوابت وأصالة الواقع الثقافي السوري.

لذا لا أبالغ إذا ما قلت أنّ العلّامة البوطي لم يكن ليناً سهل الإدارة، بل كان ثائراً ما قبل الحراك الشعبي وبعده، والدليل عدم اعتزاله لهذا الطوفان الشعبي وإصراره على البقاء في دمشق لتوجيه الحراك الشعبي والاجتماعي وتوعيته وترشيده واستثماره للضغط على الفاعل السياسي الاستبدادي في ضوء القدرات الذاتية والحدود الممكنة الساعي لتوسيعها مستفيداً من هذا الحراك الثوري. ما سبق يدلّ على أنّ الثورة والمواجهة معجونة بكلّ تفاصيل سلوكيات البوطي، ولكن وفق اجتهاده ورؤيته وأولوياته، أمّا الإصرار على تصنيف مساعي البوطي أنّها تهدف إلى تعويم الاستبداد السياسي توصيف غير دقيق!

فهو لم يكن جزءاً من منظومة النظام السوري ولا مؤيداً له والدليل سلوكياته الأصيلة بغض النظر عن مجاملاته المحدودة الهادفة لتحقيق غاية، ما يبدو استراتيجية البوطي حسب

الاستقراء العام تهدف إلى مخاطبة المستبد من خلال الاتصالات الشخصية والبينية المباشرة لتحقيق مكاسب اجتماعية على الصعيد السياسي سعياً لتحقيق التغيير الآمن والممكن. وكان البوطي عندما يضطر لمخاطبة الحاكم في العلن أُثناء المناسبات المحدودة يقدّر طبيعة العنجهية والاستبداد واعتزاز الحاكم بذاته وعدم تقبله للنصائح أمام الجماهير والرأي العام، فكان إذا اضطر لمخاطبته، يخلط ما بين المجاملة والنصح العلني ليكون الخطاب متوازناً وتوجيهياً هادفاً بنكهة المجاملة بغية المحافظة على مكانة الفاعل الديني لدى السلطة السياسية بهدف إدارة الواقع الاجتماعي وفق الثابت الديني.

ويلاحظ المتابع أن استراتيجية البوطي أثناء المخاطبة العلنية للحاكم تهدف إلى صبغ الحاكم السياسي المتنفّذ بالصفات الإيمانية ليس نفاقاً أو تدليساً، بل لمحاولة تقييده بصورة نمطية معيّنة لا يمكنه تجاوزها والتمرّد عليها اجتماعياً، فإنّ سياسة المجاهرة بالصفات الإيجابية الإيمانية التي لا يتخلّق بها المستبدّ حقيقةً، كانت تهدف إلى إجبار وإلزام الحكم السياسي الاستبدادي بعدم اتخاذ قرارات سياسية سلبية اجتماعياً تناقض هذه الصورة النمطية التي تم صبغ الحاكم وتقييده بها.

وهنا لا أحكم على صحة هذا المنهج أو عدمه، بل أبيّنه لنفهم أن سلوك البوطي وفق سياق سلوكياته وسيرته لم يكن بغاية التسويق للمستبد السياسي، بل بهدف المراوغة وإدارته لصالح المجتمع وفق الإمكانيات المتاحة وفق تقديره.

المعضلة اليوم أنّ العقل الجمعي أصبح يحكم على الإنسان من أنصاف أحاديثه لا من سلوكه ومنهجه، من الظلم أن نقيّم أحد العاملين في المجال السياسي الديني استناداً لتصريح أو اثنين ونرمي بآلاف التصريحات والأفكار والسلوكيات المكذّبة لأنصاف الأحاديث المجتزأة والصادرة عنه فليس صواباً تعويم الشاذ والتعامل معه كأنّه المنهج!

لا شكّ أنّ المتتبع لتفاصيل العلّامة البوطي ومنهجه يدرك أنّه لا يتفق مع سلوكيات النظام السياسي واستراتيجيته، ولكن لا يتفق بذات الوقت مع جدوى الحراك الشعبي وأساليبه في اقتلاع السلطة الاستبدادية عن طريق المظاهرات والاعتصامات والمقاومة وفق القدرات المتاحة.

كان يدرك أنّ خطابه لا يُسعد السلطة الاستبدادية ولا يروي الظمأ العاطفي عند الحراك الشعبي، ولكن يدرك بذات الوقت أنّ اجتهاده يلتقي مع إرادة الحراك الشعبي والاجتماعي السوري. لقد كان البوطي يخطط لثورة محاولاً استثمار التخبط الشعبي والاضطراب السياسي ما بين السلطة السياسية والحراك الشعبي.

إنّ معارضة البوطي للحكم السياسي الاستبدادي هو ديدنه الدائم قبل الحراك الشعبي، ولم تكن مشكلة البوطي مع الحراك ومطالبه ولكن مع واقعه و آلياته وعدم وجود راية واضحة، مبيّناً أنّه لو أبصر الطريق والراية والآليات لكان على رأس الثائرين في الحراك الشعبي، وتقدير هذا الكلام أنّه اعتراف صريح من جانبه بعدم شرعية هذا النظام السياسي ولكن اقتلاعه لا يكون بالطريقة الآنية لأنّها تقوّيه ولا تضعفه حسب اجتهاده، ما يعني أنّ الشيخ البوطي يلتقي مع الحراك لشعبي استراتيجياً ويختلف معه تكتيكياً.

كان البوطي يُدرك أنّ الفاعل الديني في ظلّ المحيط الاستبدادي لا يمكن أن يؤثر حضارياً إلا بالبيئة الاجتماعية المستقرّة، والمتتبّع لسيرة ونشاطات البوطي يعلم أنّ وراء رفضه أن يكون أسير المؤسسة الدينية السياسية، لأنّه كان يسعى لصناعة مجتمع متديّن وليس إلى أسر الحراك الحضاري الاجتماعي الثقافي خلف قضبان المؤسسة الدينية السياسية الساعية بذاتها إلى عرقلة بناء المجتمع الحضاري الديني السليم.

المتتبّع لسيرة البوطي يدرك أنّ الشيخ كان يتصدّر ريادة التأثير الديني الفكري في البيئة الاجتماعية شبه المستقرّة ظاهريا. ولا أبالغ إن قلت لو كانت هذه البيئة مستقرّة اجتماعياً دون تدخلات سياسية تسيطر على المفاصل الاجتماعية أو تدخلات دينية علنية وإعلامية من الرموز الاجتماعية مثل الشيخ البوطي في الشأن السياسي الإعلامي قبل الحراك، أو دون الاقتصار على التوعية النظرية ألّا تنظيمية وألّا تطبيقية بالتوازي مع محاولات تطوير الخطاب والمنهج، لكان الحراك الشعبي الاجتماعي الناتج عن هذا المجتمع حراكاً واعياً قادراً على البناء وعدم الاكتفاء بالهدم أو الانتقاد والتنظير!

وبذلك فقط يتم تحقيق التوازن ما بين التوعية الفكرية بالظلم الواقع على الإنسان والتمكين الفكري والتطبيقي بكيفية مكافحة الظلم بالعدل والبناء والوعي وتحويل الحوامل

البشرية الاجتماعية إلى فواعل حضارية متواجدة في مختلف المجالات الاجتماعية بدل أن تقتصر وظيفة هذه الحوامل على نقل الصورة وكتابة الخبر والتقرير!

أمّا في البيئة غير المستقرّة مطلقاً والناتجة عن ثورة الواقع على الإنسان وليس الإنسان على الواقع والتي يقودها السلاح أو التي تغيب عنها الرؤى والأهداف أو أساليب وإمكانيات التطبيق والتمكين، إذا لم يكن الفاعل الديني هو في مقدمة الصفوف والقوى المقاتلة أصلاً، لن يزيد دور حامله البشري الحضاري عن رجل صالح يتبارك فيه من حوله ويدعون له بطولة العمر لا أكثر! بالمقابل في هذه البيئة غير المستقرّة إذا حضر السلاح وغاب الوعي والمشروع والحالة الدينية الفكرية فإنّ الحوامل المقاتلة تتحوّل لإرهاب أو أدوات قابلة للارتزاق لا أداة استقرار وبناء!

لذلك إنّ الاستراتيجية التي كان البوطي يسعى لتحقيقها حسب الاستقراء العام لسيرته ومواقفه قبل الحراك وبعده، تهدف إلى صناعة البيئة والحوامل الحضارية والمكان والرحم الاجتماعي المناسب قبل اتخاذ الموقف الأمثل الذي يدعونه إليه ويؤمن به، ولكن لا يؤمن بتوقيته. فالبوطي كان يدرك أنّه إذا لم يكن له مكاناً فاعلاً ومناخاً مناسباً سيتحول لجمهور يراقب ما يحدث وليس لفاعل يؤثر بما يحدث! وعندها يتحوّل بأفضل الأحوال لرئيس مؤسسة دينية مسجونة خلف قضبان البيانات والتصريحات! كان البوطي يسعى خلالها مسيرته إلى صناعة مجتمع ديني فاعل لا مؤسسة دينية تتبع بطريقة أو أخرى للفاعل السياسي المستبد في المنطقة!

لم يكن البوطي درويشاً، بل كان يدرك خباثة النظام الاستبدادي الساعي لإدارة الواقع الاجتماعي وفق الرؤى السياسية والأمنية، إلّا أنّه كان يحاول السعي في إطار الممكن إلى فرض الواقعية الاجتماعية على الواقعية السياسية وإدارة الفاعل السياسي بواسطة المتغير الاجتماعي إلى أن يخلق الله أمراً، إلّا أنّ النظام السوري بعد عجزه عن مواجهة الحضارة الاجتماعية والقوّة الناعمة رغم تحكّمه بأغلب المفاصل السياسية الثقافية المؤثّرة على الواقعية الاجتماعية التي يراهن البوطي عليها في التغيير الآمن، لم يعد أمامه خياراً إلّا الانتقال إلى المواجهة واتباع سياسة الحضارة المحروقة وانتهاج سياسة التهديم والتهجير والقتل والتغيير الديمغرافي والنفي العام لشعب وحضارة بأكملها! الأمر الذي لم يدركه البوطي بسبب موته وعدم حضوره المتغيرات المستجدة في الواقع الاجتماعي والسياسي والحضاري السوري اليوم،

هو أنّ الحل الأنسب في التعاطي مع الأنظمة المستبدة المعادية للدين لا يكون إلّا بفصل الدين عن السياسة إعلامياً ومؤسساتياً ليبقى الدين في إطار الحراك المدني فوق السياسي، لأنّ اعتزال الفاعل الديني للسياسة داخل البيئة السياسية الاستبدادية هو عين السياسة لأنّ المشاركة السياسية هنا تعني التوظيف السياسي!

لذا إنّ اعتزال السياسة وعدم تأسيس مؤسسات دينية حكومية هو عين السياسة والطريق الصحيح إلى التأسيس لكيان سياسي فاعل. وبالطبع هذا لا يعني بفصل الدين عن المجتمع والحركات المدنية والمؤسسات القانونية والتجارية والأحوال الشخصية والتشريعات الاجتماعية على الإطلاق، لأنّ هذه المؤسسات بطبيعة الحال يجب أن يكون التشريع الديني مصدرها الأساسي، ليس تعصّباً، بل لأنّه متغير أساسي في الثقافة السورية والضرورة الحضارية تقتضي أن لا يكون هناك هوّة ثقافية ما بين البيئة الاجتماعية والقانون الذي جاء لينظّم العلاقات الاجتماعية البينية، فإنّه لا يمكن حكم مجتمع بثقافة آخر أو بعبوات قانونية ثقافية مستوردة من حضارات الغير!

فإنّ القانون لا يفرض على الشعوب المستضعفة بالطيران والتهجير والاعتقال والإذعان القانوني الأنيق الذي يرتدي أصحابه ربطة عنق أثناء فرضهم للمعاهدات الدولية الثقافية! كان البوطي حازماً ولا يقبل التفاوض في الثوابت الاجتماعية والدينية ولآخر أسبوع قبل قتله حذّر السلطة السياسية على العلن بخطورة أن يكون التشريع مخالفاً للعمق الاجتماعي الثقافي والديني، لذا كانت وصيّته دوماً وصراحة بأنّه لا سيادة حضارية إلّا بـ "دولة مدنية إسلامية" وإلا تحوّلت حضارتنا لتابع!

إنّ إصرار البوطي على هذه الرؤية كان كفيلاً أن يجعله عدوّاً لدوداً لكافة السياسات الساعية لإعادة هيكلة البنية الاجتماعية والثقافية للمجتمع السوري!

كان يعلم النظام في قرارة نفسه علم اليقين أنّه لا يمكن أن يأمن جانب العلّامة البوطي، لأنّه كان يدرك أنّ رؤية العلّامة البوطي وأفكاره وسياسته نتاج تفكير وليست نتاج عمالة أو استرزاق أو تواطؤٍ مع الفاعل السياسي الاستبدادي، لذلك كان من الخطورة بمكان أن يبقى البوطي على قيد الحياة لأنّه لا يمكن ضبط سلوكه بتغير الوقائع! من المؤسف أنّ مثل هذا

الإنسان يُحرج أبناء الثورة والحراك السوري أن يُعلنوا الترحم عليه! ومنه لا يعرف عنه إلّا عدّة مقاطع مجتزاه لا أكثر! ولو أنّهم اطلعوا على ما كتب وما قال بحق الحراك والثورة دون اجتزاء وفي سياقه الاجتماعي والعلمي والسياسي والديني، لتبيّن معهم أنّ العلاّمة البوطي تقبّله الله هو شهيد الثورة لا النظام!

إنّ هذه الجولة في أغوار سلوكيات وأحاديث العلاّمة البوطي، لم تكن بهدف التبرير بل التقييم والتقويم، والتقويم المراد ليس تقويم الشخص بعينه فهو أفضى إلى ربّه ولا نستطيع إزاء سلوكه سبيلاً، لكنّه وكما أشرت سابقاً إنّ العلاّمة البوطي هو منهج وظاهرة وليس حالة فردانية، أيضاً إن الحالة السياسية الاستبدادية ما زالت حاضرة وسطوتها متنفّذة، لذا إنّ المراد هو تقييم هذا السلوك لمحاولة استخلاص ملامح الإطار المنهجي المتبع لديه في إدارته لمتغيرات السلطة الاستبدادية بهدف تقويم وتطوير أو استبعاد هذا المنهج الفكري والحضاري والفقهي المتّبع في إدارة الواقعية الاجتماعية والثقافية وفرضها على الواقعية السياسية المستبدّة. أوضح لنا الكاتب الدكتور علاء الدين آل رشي بهذه الجولة التوثيقية الفريدة الجريئة في حياة العلاّمة الشهيد البوطي تفاصيل وجوانب كان لا بدّ أن نسلّط الضوء عليها ليس من باب الأمانة العلمية بل الأمانة الحضارية والفكرية والاجتماعية والأخلاقية والثورية والإنسانية، من باب الوفاء لهذا المعلّم الرباني، وبدون شكّ إنّ الاطلاع على هذه الجوانب والتوثيقات الإعلامية والعلمية والبحثية والاجتماعية المؤيد والمعارضة للعلاّمة البوطي هي ضرورة حضارية لأنّها لا تسعى لتقديس شخص بل لإنصاف مجتمع وإغناء الفكر والمشهد والمنهج، وبهذه الومضات وغيرها مما كتب آخرون ولو كانوا معارضين لهذا المنهج، يستطيع المتلقي الواعي والعالِم المؤتمن والمثقف الباحث عن الحقيقة أن يدرك ويتلمّس بخطى واثقة معالم الطريق إلى الحرية والتغيير الآمن.

لا شكّ أنّ الله عزّ وجلّ توجّه بقوله: "إنّما يخشى الله من عباده العلماء..." إلى خاصّته من العلماء والعامّة على السواء، ليحذّر العالِمَ من خطورة مكانته الاجتماعية، وليحدّد للعامّة المعيار الذي يجب اتخاذه أثناء اتّباع هذا العالِم أو ذاك، لنرى أنّ المعيار الذي أوصى الله عباده به لم يكن العلم بحدّ ذاته، بل الأخلاق والإخلاص والخوف من الخالق، وإلّا ألّحد

العالِم ومجتمعه سلوكياً ولو كان مؤمناً في الظاهر العام، ليتحوّل العالِم بذلك لأداة تضليل لا تنوير، وعندها يكون عقل الأمّة جزءاً من مشاريع الآخر السّاعي لاستعباد الإنسان ومنازعة الله ومنافسته في أرضه! إذا أردنا فهم طبيعة العلاقة بين السلطة السياسية الاستبدادية والنخب الدينية والفكرية، لا بدّ أن نمحّص ونقف عند الحالة التفاوضية ما بين فرعون وموسى عليه السلام، ما بين النخب الاجتماعية أو الفاعل الديني وبين المستبد السياسي الذي يعتبر نفسه إلهاً من دون الله، لنلاحظ أنّ المستبد السياسي لم يكن لديه إشكالاً مع موسى إلّا لأنّه أصرّ إلى أن يستقلّ فكرياً واجتماعياً عن الفاعل السياسي الاستبدادي، ولو وافق موسى جدلاً أن ينضم لطاقم السحرة بل أن يكون الرئيس الأعلى لهذه المؤسسة الاجتماعية السياسية النخبوية، لَمَا اصطدم مع المؤسسات السلطوية ولَمَا كان هناك إشكالاً البتّة مع السلطة العليا، بل على العكس إنّ قبوله الانطواء تحت لواء المؤسسة الاجتماعية النخبوية يكرّس الاستقرار السياسي للسلطة المتنفّذة.

وهذا ما يفسّر تسارع السلطات السياسية لاختطاف العقول الثقافية والفكرية والدينية لحضارة اجتماعية ما، والسّعي الدؤوب إلى تأطيرها في نظم مؤسساتية تخضع لتوجهات سلطوية فوق ثقافية أو حضارية أو دينية، بهدف الحدّ من الإفراط في التفكير النخبوي الاجتماعي الحضاري، ولا يتم هذا الأمر إلا من خلال استيعاب وتطويق النخب الحضارية عن طريق المأسسة السياسية المستمرّة للعقل الثقافي والحضاري المتجدد، خشية أن ينظّم ذاته ويتحوّل لمنافس ومنازع لهذا الفاعل السلطوي.

وعليه لا بدّ لمن ينتهج نهج الشهيد العلّامة البوطي في إدارة الفاعل السياسي داخل البيئة المستبدّة ألّا يغرق في البراغماتية ليتحوّل لمفعول به وأداة وظيفية بدل أن يكون فاعلاً مؤثراً على الفاعل السياسي الاستبدادي، ويحصل الارتهان التام لمتّبع هذا المنهج البراغماتي المطلق، عندما يُخضع روّاد هذا المنهج البراغماتي ماهية الدين الإسلامي إلى التفاوض السياسي على الصعيد التشريعي والقانوني والثقافي والاجتماعي، مثال ذلك، عندما يقبل عالِم الدين الإفتاء بعدم موافقة ثوابت دينية لمتغيرات العصر بذريعة التعاطي اللين مع الفاعل السياسي، متجاهلاً أنّ اللين المأمور به أولي النخب ينحصر في الأسلوب وليس بالتنازل عن مفردات وأصول الخطاب والأمانة! لأنّه بهذه الطريقة يُخضع الفاعل الديني ذاتية الدين إلى الحالة

البراغماتية التفاوضية ويشارك الله في التشريع بدل أن يبلّغ التشريع، وهنا نكون أمام كارثة براغماتية التشريع! والخطورة الحضارية هنا أنّ المتغير الديني هو أساس الثقافة والحضارة العربية واللاوعي الاجتماعي، وإنّ التنازل والعبث في أصوله يؤثر على أساس البنية الاجتماعية والثقافية والفكرية التي تعتبر اللاواعي الاجتماعي للحضارة، وبهذا نكون أمام تغيير حضاري ساحق يؤسس لعبودية اجتماعية وحضارية متجذرة!

إلّا أنّ الاكتفاء بالتعامل البراغماتي الجزئي أو براغماتية التطبيق مع الفاعل السياسي الاستبدادي في البيئة المستقرّة هو منهج مقبول في إدارة الفاعل السياسي، لأنّ هذا المنهج يحافظ على ثوابت الذات الاجتماعية والدينية والثقافية والفكرية والتشريعية والقانونية، وبعبارة أدق إنّ الليونة والبراغماتية بهذا المنهج تكون في التطبيق وليس في إعادة هيكلة ذاتية الحضارة الثقافية وفق الرؤى السياسية المتنفّذة! وهذا هو المنهج الاتصالي الذي اتبعه العلّامة البوطي أثناء تعاطيه مع الفاعل السياسي الاستبدادي.

وإنّ عاقلاً لا يفوته أنّ منهج البراغماتية الجزئية لا يتفق مع ماهية وأهداف الفاعل السياسي إذا كان هذا الفاعل واجهة لاحتلال وليس فاعلاً محلّياً يستبدّ بسلطة لتحقيق مصالح ذاتية، لأنّ كافة الاحتلالات على مرّ العصور تعتبر تغيير السلطة الثقافية والاجتماعية والتشريعية أولويتها التي تسعى لتحقيقها، لعلمها أنّ الواقع الثقافي الاجتماعي والتشريعي لا ينفصل البتّة عن استقرار تحكّم الفاعل السياسي، لأنّ هذا الفاعل يخلق بذلك سلطة داخل سلطة أي سلطةً اجتماعية داخلها سلطةٍ سياسية، ما يجعل المحتل في صراع واستنزاف دائم مع البيئة الاجتماعية التي يحكمها ويستنزف خيراتها! إنّ رفض البوطي إخضاع ذاتية الدين إلى منهج البراغماتية الكلّية أو المطلقة وإصراره على انتهاج البراغماتية الجزئية أو التطبيقية، جعله محطّ استهداف لهذا النظام السياسي الاستبدادي وداعميه. كان يُدرك العلّامة البوطي أنّ الاهتمام بالسياسة لا يكون إعلامياً واستعراضياً في منصّات "التيكتوك واليوتيوب" بل واقعياً من خلال العلاقات العامة والتواصل المباشرة والتنظيم الاجتماعي على أرض الواقع.

ولا بدّ أن نشير إلى ضرورة وجود جماعة نخبوية فكرية دينية ضابطة للبوصلة المثالية للوعي الديني الاجتماعي والسياسي، حيث يتوجّب على هذه الجماعة أن تكون متحررة من سطوة

السلطة السياسية، وإنّ وظيفتها تكمن في ترشيد وضبط الواقع الاجتماعي والتوعية المستدامة بالثوابت الدينية السياسية المثلى، ودورها هنا يكمّل الوظيفة الاجتماعية للفاعل الديني الذي يتخذ البراغماتية الجزئية أو التطبيقية منهجاً تواصلياً في إدارة الفاعل السياسي. ويجب أن تحذر هذه الجماعة النخبوية الضابطة من تخوين الشريحة الفاعلة الأسيرة ما دامت في إطار البراغماتية التطبيقية والجزئية، وبهذه الطريقة يتم المحافظة الاجتماعية على التوجه الرصين للعقل الإنساني الاجتماعي وتوثيق علاقته مع الحالة المثالية للأفكار والسلوكيات، بالتوازي مع تحرّكه بحرّية ودون صدامات مدمّرة تعيق التغيير الآمن والاستقرار المسؤول عن التطور الاجتماعي الثقافي وصناعة المجتمع الموازي السليم في ظلّ البيئة الاستبدادية.

ما يعني أنّ وظيفة هذه الشريحة يجب أن تكون تسليط الضوء على ما يجب أن يكون خوفاً من تحويل السلوك السياسي البراغماتي الجزئي لمبدأ اجتماعي، وبهذا المنهج نحافظ على الوعي الاجتماعي والحرية في تطبيق الممكن، وبذلك نكون أمام جماعتين تعملان بشكل موازي، الجماعة الأولى تعمل في إطار ما هو كائن والثانية في إطار ما يجب أن يكون، وبهذا يتم الحفاظ على الفاعل الديني والاجتماعي والبوصلة الفكرية العامّة دون التصادم مع الفاعل السياسي الاستبدادي.

إلّا أنّ المعضلة التي تعيق المنهج البراغماتي الجزئي أو التطبيقي هو الفاعل الإعلامي في عصر الاتصال الجماهيري والسطوة الإعلامية الشمولية التي تدير الرأي العام والمجتمع والعقل الجماهيري، فإنّ خطورة هذا الفاعل أنّه خلط الأوراق وغيّر مفاهيم الزمان والمكان وسياق الحدث والسلوك، فأصبح الناس يخضعون لسطوة معيار الواقع الافتراضي لا الواقع الحقيقي! تحوّل الإنسان إلى متلقٍ دائم وبدل أن يكون فاعلاً تحوّل لجمهور!

أصبح الإنسان يقيّم كلّ الأشياء إعلامياً من خلال التصريح والخطاب والحديث! دون النظر إلى الواقع الحقيقي أو السّري غير المعلن أي الوجه الآخر للجهة التي يتم تقييمها إعلامياً! وهذا ما وقع به الكثير أثناء تقييم العلّامة البوطي، حيث أخضعوه للتقييم الإعلامي لا السلوكي، وحاكموه بالمعيار الجماهيري والإعلامي لا النخبوي أو الاجتماعي أو العلمي! ماذا عن الجهود الحقيقية والاتصالات الاجتماعية والشخصية والسياسية السرية التي تصبّ في صالح المجتمع

والتي قام بها الشيخ البوطي، ولكن هذه السلوكيات لا تراها الكاميرات ولا يمكن الإفصاح عنها إعلامياً لأسباب أمنية وذاتية! ولكن بالطبع هذا لا يعني أنّها لم تحدث، بالمقابل هناك أشياء تُعلن إعلامياً ولم تحدث! لذا فإنّ التقييم وفق المعيار الإعلامي هو آفّة العصر، وآفة الحراك الحضاري والاجتماعي والثوري!

البوطي لم يبحث عن النجومية فهو لا شكّ من جيلٍ لم يتلوث عقله ومنهجه وتفكيره باللعنة الجماهيرية الافتراضية والإعلامية. وعليه من الواجب على الشريحة النخبوية الضابطة المتحررة من قيود البيئة الاستبدادية الذي بيّنا وظيفتها أعلاه أن تنبّه الرأي العام دوماً أن البراغماتية الجزئية في التطبيق لا تعني خيانة صاحبها، ويهدف مثل هذا التبيان والتوضيح إلى ردم هوّة الثقة العقلانية الواعية بين العامّة والقدوة الفاعلة في الواقع الحقيقي لا الافتراضي والإعلامي، لكي لا يكون هناك شرخ اجتماعي وأزمة ثقة عمياء وعدم تفاعل حضاري ما بين الرأس والقاعدة وما بين العقل والجسد وما بين المصلح الاجتماعي والديني والعامّة، فلا شكّ أنّ بناء علاقة سليمة ما بين الفاعل الديني والفاعل الاجتماعي هو ضرورة حضارية لاستنبات قيادات اجتماعية وحوامل بشرية وإحداث تحالفات وتنظيمات بشرية قادرة على تحقيق التغيير الاجتماعي والسياسي الآمن.

لا يسعني في نهاية المطاف إلّا أن أشكر الدكتور علاء الدين آل رشي على هذه الجولة التوثيقية والفكرية الجريئة التي خطّها بقلم متألّق وحرفٍ نابض يتحرّى الصدق والإنصاف والوفاء لمجتمعه ومعلّمه، ولا شكّ أنّ هذا القلم الأنيق يزداد جمالاً وعزّاً وبهاءً بإنصافه العلامة الشهيد د. محمد سعيد رمضان البوطي.

كنت في غاية السعادة وأنا أسافر مع عباراته التوصيفية والتحليلية التي اقتحمت خلوتي وأغوار عقلي لتنتزع ما فيّ من حبّ وإنصاف وأفكار ما استطعت أن أطوّقها، فكتبت البعض ومازلت أمتلك الكثير!

شعرت أثناء قراءتي لوهلة أنّي أجالس هذا العالم الجليل المظلوم الذي حاول بعد تفجيره في المسجد أن يستقيم لا لينتزع الحياة، بل فقط ليعدّل عمامته ويتحدّى قاتله ويجأر في عينيه ويقول: لن أسمح لأحدٍ أن يدنّس عمامتي أيها الجبان!

مقدمة المؤلف

الثمن

إنني مع المستقبل، مع أن بعد النظر صار جريمة وقد يستجلب القتل في عصر الترفيه والتتفيه وهو ما حصل للدكتور البوطي، ولن نكون أصحاب مستقبل دون قراءة لماضينا وأخذ العبر منه في اختياري أن أكون حراً ومواقفي التي تصر على أن الدين بني على ركنين العقل والحرية، ورفضي تطويع الإسلام لأمزجة الحكام أو لما يطلبه جمهور العوام دفعت الثمن الذي كان لابد أن أدفعه، لقد حصل وأن جففت مواردي المالية ولم يرحب بنشاطاتي عند الكثيرين فقد شاهدوا فيها موقفا يخالف الممول الذي وظفهم.

وها أنا ذا في هجرة اضطرارية وأعيش في منفاي وأحمد الله أنه لولا إقامتي في بلاد الغرب لما استطعت كتابة حرف واحد .

إنني من عشاق الحرية ودعاتها، وهي من العناصر الأساسية فى فهمي الإسلامي الإصلاحي، وقد كنت ومازلت عدوا للاستبداد أيا كانت صورته ولا أقبله بحال، ولو تسربل باسم الدين، ورحم الله شيخنا محمد الغزالي الذي يرى أن الاستبداد باسم الدين أشد خطرا من غيره.

وعلى إثر هذا الإيمان حل بي اعتقال ونفي وتغيرات عميقة في حياتي ألحقت ضررا بي وحاول البعض فرض تصوراته فرفضت ونالني ما نالني.

قليل الذين يقبلون التضحية لكي يجيبوا عن السؤال المفزع:

كيف يجب أن نعيش.. ونفكر؟ السؤال صعب.. والثمن فادح.

إن حياتهم تصبح جحيما والاستماع إليهم يصبح جريمة، فهؤلاء هم الأحياء والأسماك الميتة فقط هي التي مع التيار.

حسنا لقد اخترت طريقي..

لن أكون سمكة ميتة، بل أنا حي وضد التركيع والتجويع والتطويع ومع الحرية.

أنا ما اخترت زماني أينا يختار عصره

أنا ما اخترت مكاني أينا يختار مصره

لا أملك عمري، أنا لا أملك عمري أينا يملك عمره

بيد أني اخترت دين الله واستحببت أمره

أنا في التيار تيار الهدى أنشد نصره

أنا في التيار تيار الهدى الهدار قطره

قطرة في الخير لا في الشر فالإنسان فكرة.[1]

التغيير الحقيقي يبدأ من (إيمانك بنفسك) وليس (إيمان الآخرين بك) لست معنيا بماذا يعتقد الناس) بي ولا صورتي في مخيلتهم، هذا يقزم كرامتي ويغرس في داخلي النفاق والجهل، وأصبح دمية .

كل تحركاتي ومواقفي تنطلق من: من أنا؟ وماذا أريد؟ وما قيمي؟

لقد توقفت عن التخوين والمشي في ركب الانفعال والحكم على معتقدات الناس وأحوالهم، وركزت علي فهمي وخبرتي وتصحيح مواقفي والتزام المسار .

إحدى أهم الكوارث التي حلت بالشعب السوري (**شيوع الظلم وشرعنته واستصدار الأحكام المختزلة والجائرة)**

إن تجميل المقابح كالإحسان إلى المفسد تزيد من فساده وشره.

ورضي الله عن الفاروق علي بن أبي طالب الذي قال: "أحسن إلى المسيء تفسده"، وهذا يصدق على رجل الدين والسياسة وأتباع الثورات وبناء المجتمعات.

إنني أعتقد أنه -لا حرية لأعداء الحرية- وألد الأعداء من وظف الحرية لخدمة طغيانه، وأرقى صور الحرية ممارستها في ظل قيم وانضباط.

1-كلمات الأستاذ: سليم عبد القادر رحمه الله.

لقد تناوبنا على الظلم حكاماً ومحكومين، وأضعنافرصة الدهر وليس فرصة العمر.

ماذا كسب النظام من مذابحه وجرائمه ومن ظلمه؟

وماذا استفاد بعض أدعياء الثورة من مسيرتهم التي لا تختلف عن بشار؟

الطفل المدلل قد يمنح حق الظهور واعتلاء المسرح في توقيت محسوب ولوقت معلوم ثم ينتهي دوره وهذا مانراه قادما مهما طال الزمن على بشار، وعلى كل بيدق مأجور باسم الحرية والثورة.

الثورة البائسة هي التي تثور على قيمها فتسقطها، والنظام المجرم هو من يريد أن يحكم شعبه بقاذفات اللهب الحاقدة، ومن حق شريحة كبيرة أن ترفض كلا المنهجين، وهو مسلك رضي به د. محمد سعيد رمضان البوطي، ودفع ثمنه حياته.

لماذا يصر الكثير على معرفة مصير الناشطة رزان زيتونة ولا نجد في المقابل مطالبة بفتح تحقيق شفاف من وراء اغتيال الشيخ البوطي؟

هل دم البوطي أزرق بينما رزان لدمها لون خاص؟

لماذا يدافع عن أبي عمشة وانتهاكاته من قبل البعض بينما لا يسمح لنا بالدفاع عن أخلاقنا وعن العدل في التعامل مع الشيخ البوطي رحمه الله؟

الشيخ كسر القيود المرفوضة باسم الثورة ولم يقبل القوانين المفروضة من السلطة.

عرفته سوريا والعالم في الساحة الدينية واحداً من عظام العلماء عاش مصلحاً غيوراً على دينه ودعا إلى التوبة الجماعية حكاماً ومحكومين وعمل على تجنيب البلد الدم حسب قدرته ورؤيته..

لقد تناولت بالتحليل المنطقي المحايد المواقف التي اتخذها الشيخ حيال ما واجهه في حياته، والذي شكل التداخل بين الديني والسياسي علامة فارقة.

إن آثار فكر البوطي لا تزال باقية ليست في سورية فحسب بل في العالم الإسلامي أيضاً، وقد ارتبط استشهاده بفترة مهمة في التاريخ السوري المعاصر حقبة الثورة التي شهدت أحداثاً مدمرة وتداعيات لم تنته بعد.

عالم وأكاديمي كان على الصعيد الإنساني لطيفاً متواضعاً وفي الوقت ذاته كان شديد الاعتزاز بذاته وعلمه ودينه أما على الصعيد السياسي.

رفض البوطي الهروب لأنه حسب رأيه ذلك عجز وتنصل عن المسؤولية.

الشيخ رحمه الله كان صاحب فكرة لا ترضي العامة ولا تطيع السلطة كما كانت مواقفه تتباين وتصل إلى حد التناقض لمن كان يستعجل استصدار الأحكام لكن شعاره كان في كل حياته [الإسلام وحرمة الدم وسوريا]، إنه الخيط الذي يربط كل مواقفه ومبادراته ويؤكد اتساقها حتى حين تبدو للوهلة الأولى غير متسقة.

نزل البوطي من علياء الأكاديمي وخرج على عباءة الشيخ التقليدي واجتهد في تخفيف محنة الشعب ولم يسلم من نار تلك المحنة.

ومع هذا فقد تم تشويه صورته وصوته.

الغاية من هذا الكتاب:

- تعويد القارئ على سلوك طريق الإنصاف، والتحرر من الامتطاء والاحتواء والإملاء.
- استخدم اللغة الموضوعية.
- البحث في هذه القضية الشائكة منهج عذاب ولكنه عذب.
- رفض ثقافة القطيع، وانتهاج درب الحقيقة.
- الحذر من التماهي مع النظام، أو أن نكون بيد خصمنا بيادق مأمورة وبنادق مأجورة ونحن في الظاهر نثور عليه.
- الامتناع عن ظلم الحقيقة.
- التعود على قراءة الحدث بعين غيرنا.

إنني لست مدافعاً عن د. البوطي في موقفه السياسي فهو مجرد رأي، مهما بلغ لا يمكن أن نجيز قتله بسببه.

إن الحكم الذي سوف أخلص إليه في دراستي هذه أريده أن يظل شاهداً علينا أننا نملك جرأة التراجع والتصحيح وعدم المكابرة وأن نقف مع المظلوم، إن جوهر القضية التي أدافع عنها هو(العدل).

قبل أن نستفيق من دوار المحنة التي نزلت بنا وقبل أن نلم شتاتنا من حرب الإبادة التي سلطت علينا لابد من التوقف عن التطفيف والظلم.

إن المواطنين أصحاب الحساسية القوية برسالتهم وتبعات الإصلاح الملقاة على كواهلهم، يشعرون كأنهم المعنيون عند كل نداء، المطلوبون عند كل نجدة. وهذا الكتاب نجدة لضمائرنا ودعوة للحقيقة.

الأدوات الخشنة التي تجيدها سلطة العصابة في سوريا تتطلب المزيد من التحقير والازدراء والقتل والسجون والتنكيل وهي تختلف عن الأدوات الناعمة.

لست محاميا عن الدكتور البوطي، فهو بين يدي ربه، ولن ينفعه كلامي كما لن يضره تطاول البعض عليه، وإن كان من المتوقع أن يسبب الكتاب لي مشاكل، لكني الله أسأل أن يجعل ما كتبته في سبيله وجبرا لتقصيري.

هذا الكتاب هو دعوة لإنصاف الثورة السورية ورفض الظلم ووقوعه على الشيخ الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله.

ومن أجل الحرية وفي سبيل الله والحق يظهر هذا الكتاب وهو جهد يصب في الدفاع عن قيمة آمنت بها "الله سوريا حرية".

إنني أوثر أن أكون مواطناً ضد الظلم سواء أظهر باسم الثوار أو باسم بشار ولو لم أستلم منصباً وأن أعيش فقيراً شريداً على أن أكون مؤيدا لنظام أو مسترزقا وأرتع بالغنى وأنا ذليل.

فلنستحضر رقابة الله ولتكن سوريا العزيزة عادلة منصفة والحرية المنضبطة هادية.

والله من وراء القصد

08/05/2023

مقدمات أساسية

أنا أخبرك ما هي حياة المسلم،

إنها نهاية الفكروكمال الجنون.[1]

لا أعشق الانخراط الموجه لحساب أي جهة، مهما بلغ نبلها، مع أني لا أمنع أحداً من الانتساب لأي جماعة أو رأي.

ولم أنتم إلى أي حزب سياسي موقف عقلاني وأخلاقي التزمت به منذ أكثر من ربع قرن تقريباً، وذلك لطبع نفسي واقتناع فكري، فأنا متمرد نفسياً على المحنط مهما كان معظماً، ولا أصلح لقواعد صارمة سياسية حزبية.

فكريا تحررت من القوالب الجاهزة وأنا مع حكيم الإسلام محمد الغزالي طيب الله ثراه (أومن بضرورة المراجعات).

1- محمد إقبال، الأعمال الشعرية الكاملة قدم لها وحققها وترجمها عن الشعر الأزدي د. حازم محفوظ الديوان الثالث ضرب الكليم (القاهرة مصر دار الأفاق العربية ط1 2005) ص 417

وأعني بالمراجعة:

الحساب العقلي الشديد على:

- مواقفنا من أنفسنا ثورتنا ووطننا ومحاكماتنا العقلية.

- أحكامنا على القضايا وممن معنا ومن هو ليس على شاكلتنا وماذا فعلنا، وماذا تركنا، وماذا قدمنا، وماذا أخرنا؟

إن من الانتصاف من الذات وإنصاف الخصوم أن نتحدث دون حرج عما لدينا من نقائص وسلبيات، وأن نتحدث عما لدى خصومنا من فضائل وإيجابيات، فهذا من النظرة الموضوعية ومن القيام لله تعالى بالقسط كما يقول د. عبد الكريم بكار .

وكل محاولة للنهوض – دون هذه المراجعة الواجبة – قد تكون تكرارا للمأساة.

وفي السياسة العربية والشرق أوسطية وفي أخلاقنا الاجتماعية السائدة يتبدى **لا مراجعة ولاهم يحزنون!!** وهي عدوى سرت حتى إلى صفوف من ثار على الأنظمة.

ولذلك ما اتخذه من مواقف في السياسة تستعصي على بعض الفئات:

▿ جهة شعبية وشريحة عريضة لا تقبل بالمراجعة يغلب عليها فقدان الرشد وهؤلاء ضحية ولا يمكن مطالبة الضحية بأي مراجعة لموقفه.

▿ جهة تؤمن بالاصطفاف الجهوي مع الظالم نتيجة تحقق النفع منه.

▿ جهة نخبوية اعتادت على امتيازات التحزب وحولت الحزب إلى دكان، والثقافة إلى ارتزاق .

فأي مراجعة تعني تراجع مصالحهم وكشف عوارهم.

ومن هؤلاء وهؤلاء (تبعيض من الكل)، من يوافقني في ضرورة الاعتراف بالقصور .

في السياسة نحن كقارئة الفنجان والكف، أو (كحمام مقطوع الماء) الكل يصرخ ويولول ولا يعرف هل سيصل صوته أم لا!!! ولا أحد يبحث عن سبب توقف الماء وانقطاعه من الصنبور.

أنا على مذهب الإمام مصطفى السباعي رحمه الله تعالى حيث ذكر في حديث (كلنا سياسيون)[1]

والذي قال فيه رحمه الله:

إن من واجبك أن تتبع الحوادث التي تقع في بلادك بكل يقظة وانتباه، فالوطن هو وطنك، والخير الذي يعمّه إن حسنت أحواله هو خير لك ولأبنائك وأحفادك، والنار التي تحيط به إن امتدت إليه – لا سمح الله – ستمتد فيما تمتد إلى بيتك وولدك وزوجك ومالك.

- كن يقظا في تتبع الحوادث.

- كن عادلا متزنا في الحكم فيها.

- ما تبين لك أنه الحق بعد إمعان نظر وسداد منطق فاحرص عليهلا تجامل فيه أحدا، ودافع عنه بالحكمة والموعظة الحسنة.

- ما تبين لك أنه الباطل بعد تثبت وتحقق واستيفاء لأدلة الحكم الصحيحة فاجتنبه، واحذر مع ذلك أن تتخذ منه ذريعة إلى التهديم أو وسيلة إلى التفرقة.

عليك أن تتجنب الخطأ وتنبه إليه، وحجتك في ذلك البيان السديد، ووسيلتك في التعبير وسيلة المؤدَّب الذي لا يفحش في السباب ولاينغمس في التجريح.

وما ترددت فيه فلم تتبين وجه الحق فيه من الباطل، فاسأل عنه أهل الخبرة به، ممن ترتضي عقولهم وتأنس بفطنتهم وتطمئن إلى استقامة ضمائرهم، و لا تحاول أن تستعلي عليهم بحكم جازم لهم تهيأ لك أدلته، ولا تظهر بمظهر المغرور الذي حجبه الغرور عن جهله، فإذا هو في غروره من أجهل الناس وأحمقهم)[2]

ثم إن السياسة الجيدة تعتمد على الدقة في المعلومات وعلى وفرة في المصادروعلى عمق في التحليل وهي أدوات تكاد تكون معدومة وغير موجودة فيما بيننا.

1- لقد أذيع في مساء الخميس 19 من شوال 19 من حزيران 1955م، وقد نشر في أخلاقنا الاجتماعية.

2 أخلاقنا الاجتماعية دار الوراق بيروت الرياض ط1 2010 ص 143

ما يؤطر وعينا ليس حراكاً مدنياً حراً ولا كفاحاً حقوقياً ولا استقلالاً إعلامياً، إنما هي بضع قنوات موجهة من هنا وهناك أمر بات لا يتحمل أي مواربة أو مجادلة ولا يحتاج إلى برهان.

إنني أجد في مواقفنا السياسية ضمورا كبيرا في وعينا، وأن الحسابات القومية والطائفية تعلو على الوعي فتقهره.

قالت لي سيدة هل تكتب عن الشيخ البوطي لانتسابه للقومية الكردية التي هي أصلك العرقي؟

تعجبت من هذا الاستفهام المبطن بالانتقاص وذلك لخلوه من اللباقة واللياقة وحتى من الرشاقة الفكرية.

يعلم من يتابع الشيخ البوطي يرحمه الله أنه لم يقدم نفسه في أي مرحلة من حياته على أساس قومي، بل دافع عن العربية وآدابها أكثر من أهلها، بل إن شريحة كبيرة من أبناء القومية الكردية وتحديداً في الشمال السوري ينظرون إليه كعالم تخلى عن قوميته، ولذلك لا يعطون أي أهمية للرابطة الكردية في علاقتهم بالشيخ البوطي .

ومع أن الشيخ رحمه الله صاغ من تراث الكرد نسيجاً محكماً من النصوص الأدبية العربية، إلا أن بعض الكورد وضعوه في خانة الإسلامي المنقلب على قوميته.

ولكن مع كل ذلك هل يمنع الكردي من حق الدفاع المشروع؟ ثم ألا يحق للكورد أن يدافعوا عن رجالاتهم؟

وهل الكورد خارج التقييم الإنساني المنصف؟

ولماذا يتم القولبة القومية مباشرةً أليست هكذا عقلية شبيهة بحزب البعث ؟

وهل الكورد إلا جزءاً من الخارطة السورية؟

وهل علي كي أظهر في ثوب علمي أن أتخلى عن أصولي وأن أساهم في ظلم أبناء قوميتي؟

متى كان الرابط القومي مدعاة لتزييف الحقائق إلا ممن لا يعرف أن القومية لا تعني المصداقية؟ القومية أشبه بلصقة إجبارية، لا نملك فكها أو الانفكاك عنها، فهي تكوين

خلقنا معه وجبلنا على لبسه، ولكنه ليس شارة تميز ولا ترفع، ولا يجيز الانتماء الصادق الانتقاء للقيم فالظلم ظلمات لا عرق له ولا دين يبرره.

إن مفهوم العدالة فوق الانتماء وإن نسبنا القومي القهري الذي يلازمنا لا يعني أن نظلم أو نقبل الظلم.

كما لابد أن أشير إلى أن الساحة الإسلامية السورية تفيض برجالات الدين من الكورد ولو وضع الذهب في يميني على أن أكتب عن أحد منهم لن أفعل وذلك لأمرين:

أولهما : أني لست بمقتنع بتلك المدراس، مع احترامي لها .

ثانيهما: ليس من طبعي العلمي تقديس القوميات وجعلها مسطرة علمية ولا مقياسا في اختيار الكتابة عن الشخص مصلحة ذاتية أو مراعاة لقومية ما.

وقد دأبت من ربع قرن تقريبا على إنصاف الشخصيات وصدرت لي دراسات ومقالات حول شخصيات ظلمها أناس أو تغافل آخرون عن جميل فعلها. وقد كتبت عن الدكتور عبد الكريم بكار وكذلك المهندس أحمد معاذ الخطيب وغيرهما وهما لا ينتميان لرابطة كردية .

لنعترف أن التسلط السياسي أفقدنا رشدنا فنحن بلا وعي وبلا أي توازن وعدلية.

إنني أكتب عن البوطي لإنه جزء من مشهد كبير اسمه الظلم.

العدل دين ولا دين لمن لا عدل له .

ولا ثورة مباركة وهي تعمد راياتها بدم مظلوم وتحاكي الظالم في ظلمه



حالت الغواشي المثقلة على حياتنا في سوريا موانعاً بيني وبين الانضمام لأي حركة سياسية أو مزاولة السياسة من خلال حزب!

ماذا يعني ذلك؟

لقد حزمت أمري واتخذت موقفاً محدداً تمليه علي شرعة حقوق الإنسان، فكلما :

اقتربت من حقوق الإنسان شعرت بإحباط وخذلان السياسة وارتاح ضميري.

وكلما ابتعدت عن حقوق الإنسان شعرت بفقدان الخلق وقيم العدالة في السياسة وآلمني داخلي.

عام 2003 م انتظمت رسميا مع الدكتور هيثم مناع في اللجنة العربية لحقوق الانسان، و عملت على نشر دراسات نوعية للأستاذ الدكتور هيثم مناع حول :

- ثقافة حقوق الإنسان والإسلام.
- حقوق المرأة.
- حقوق الطفل.
- الولايات المتحدة الأمريكية وحقوق الإنسان.

ثم شرعت في فتح الملفات الشائكة وحضور ورش العمل الإنساني وأدركت ضريبتها.

فتعاونت على كشف:

- حقائق حول سجن تدمر، ومصائر المعتقلين في دراستين (نقطة انتهى التحقيق) و(ما لاترونه) للأستاذ سليم عبد القادر يرحمه الله وكذلك(لأنهم قالوا لا) للأستاذ فارس كامل.

كما عملت على نشر ثقافة المجتمع المدني والدستور للدكتور عبد الله الحامد رحمه الله تعالى.

- لكن هل منعني نضالي الحقوقي من أن أقول في السياسة ما أومن به؟!

سأصارحكم (لا).

لأني أتكلم بلغة الحقوقي الثابت وليس السياسي المتحول فأنا أعرف أنه قلما تجتمع السياسة وحقوق الإنسان فهما خصمان لدودان!!

لقد ذهلت من الظلم السياسي للشيخ البوطي رحمه الله تعالى، من قبل النظام الذي وظف بعض المواقف له والمعارضة التي استثمرت تلك المواقف فجعلت من البعض كلا.

واجتمع النقيضان على وأد الحق.

علينا أن نتفق على الطريقة المثلى في قراءة هذا الشخص وفي الأحداث وفحص القضايا والأمور وهي في تقديري تتمثل في خطوتين أساسيتين:

① تحرير المصطلح:

أن نتجنب في بحثنا الكلمات المطاطة والعبارات الفضفاضة، بمعنى أن نحرر المصطلح إن خير ما نتعلمه ونعمل به ونعلمه وننصح به الذين يفكرون، والذين يريدون اتخاذ المواقف واستصدار حكم في القضايا والموضوعات أن يتجنبوا نفخ الكلمات كما ينفخ البالون. أقصر الطرق لبلوغ الحقيقة ورؤيتها هي الكلمات الدقيقة جداً، والمحددة جداً، والمرهفة كحد السيف أي تحرير المصطلح.

② التأطير التاريخي:

وضرورة وضع الوقائع والمواقف المثارة في السياق التاريخي لها .. وإذا لم تفعل فسنجد أنفسنا نتخبط تحت أمواج طامية يتوه فيها المجداف والملاح.!!

عندما نريد استصدار حكم وقراءة ما بحق شخص ما علينا أن:

▹ نفهم عصره، فالمفكر ابن بيئته وهو مخلوق يتخلق من رحم الواقع وتداعياته بل هو فكرة حيّة لا بد أن نقف على تاريخ مخاضها ومن ساعدها في ولادتها، والظروف التي نشأت فيها، ومدى تأثرها بمحيطها: المخالف والموافق وكيف تطورت؟ وإلى ماذا انتهت؟ وهل جاءت في سياق الجدل مع الآخر أو التقرير، ولو شرعت بقراءة سوريا في عهد الأسد وما فيه من فرق ومذاهب وأعلام، وحريات وأحداث ساعتئذ ستكون قد فهمت نصف أفكار المفكر قبل أن تقرأ صفحة واحدة من آثاره فالفكرة بنت البيئة وكلما جهلناالبيئةاغتربت الفكرة اغتربت[1]

فمثلاً قبل أن يقول قائل في البوطي:

إنه كان منافقاً، وقبل أن يكون إنسان ما لنفسه هذا الحكم الخداج المبتور، عليه أن يضع البوطي بكل إنتاجه في «إطاره التاريخي» الذي يجب أن يكون.

قبل أن يقول قائل: إن الشيخ البوطي كان مداح القصر والجيش والأسد، علينا أن نقرأ من هو الشيخ وماهو السياق التاريخي الذي كان يتحرك فيه؟

1- د. ثائر الحلاق بتصرف من حسابه على تليغرام.

يقول أستاذنا المفكر د. محمد شاويش:

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي كان من شخصيات المجتمع التي يشار إليها بالبنان في مدينة دمشق منذ مطلع سبعينات القرن العشرين، أي أنه كان كذلك طيلة فترة حكم الأسد الأب ثم ظل كذلك في السنوات التي عاشها تحت حكم الأسد الابن حتى اغتياله مباشرة بعد اندلاع الثورة السورية عام 2011.

لكن علينا أن نذكر أنه في جميع الأحوال كان:

✓ شخصية منتمية إلى المجتمع.

✓ لم يكن بحال من الأحوال جزءا من السلطة.

✓ لم يكن القرار السياسي في يده لا في الشؤون الداخلية ولا الخارجية.

وهذه من الحقائق البديهية البينة التي يجب على بداهتها ألا ننساها، خصوصا ونحن نسمع تهجمات المراهقين سياسيا على الرجل في بعض الأوساط الثورية السورية، فأنت ترى في هذه التهجمات أن هؤلاء يحمّلونه ما لم يكن بطبيعة موقعه البعيد عن التأثير في مفاصل السلطة يحمله.

✓ لم يكن بإمكان البوطي أن ينصر الثورة السورية ولا كان بإمكانه أن يهزمها، وكل ما كان يستطيعه أن يتكلم على منبر مسجد كلاما لم يقدم ولم يؤخر، فلا سمعه الثوار ولا سمعته السلطة.

الثورة السورية مرت كما هو معلوم بمرحلتين:

المرحلة الأولى:

تميزت بمظاهرات سلمية كبرى في أجزاء كثيرة من سوريا من بينها الريف الدمشقي. وإن ظلت المدينتان الكبريان دمشق وحلب بعيدتين عن الدخول في المساق الثوري كما هو معلوم. وهذا لم يشمل الريف المحيط بهما.

من السهل أن يطرح السؤال عن «تقصير» البوطي، وما كان عساه يحصل لو أنه وقف مع الثورة ودعا الجموع إلى التظاهر والانتفاض لإسقاط السلطة. والحال أن البوطي حذر من عواقب وخيمة ستنتج عن التظاهر، وأفتى بتحريمه على أساس هذه العواقب، ولم يبن فتواه

على أساس مناصرة السلطة والزعم أنها سلطة عادلة لا ترتكب المظالم، كما يزعم الذين لم يقرؤوا بدقة أقواله في تلك المرحلة الحاسمة.

المرحلة الثانية :

التي بدأت بعدها سوريا تسير في طريق الدمار وتهجير جزء كبير من السكان من بيوتهم طوعا أو بالإكراه.

وسهولة التخوين والوصف بالتشبيح لكل من لم ينطق بلغة الثوار ومصطلحاتهم سمة مميزة لتلك المرحلة ولا تزال آثارها موجودة، وهي من أكثر سمات البنى العقلية التسلطية خطورة، وقد تميزت بها من قبل السلطة على أيام آل الأسد، فالمواطن كان ينظر إليه بريبة حتى لو لم يعارض لكنه لم يستعمل اللغة والمصطلحات النمطية «الصحيحة»، فقد كان على السوري مثلا أن يقول «الرفيق المناضل» عن الرئيس، ولم يكن يقبل منه أن يقول «الرئيس المكافح» مثلا، وهذا الاستبداد اللغوي إن صح التعبير وجدناه بقضه وقضيضه عند كثيرين جداً من ثوار 2011.

وقد استمعت إلى ما توفر لي من مقاطع مصورة لخطب الشيخ البوطي بعد الثورة، فاقتنعت أن هناك تحويراً وعدم دقة في ما ينقله شاتمو الشيخ عنه، بعض ما له أصل مقتطع من سياقه مما يبعد العبارة عن معناها ليخدم هدف التهجم على الشيخ وشتمه. زعموا أنه مثلا شبه جنود الجيش بالصحابة وعندما رجعت إلى الفيديو وجدت أن ما قاله بالفعل كان أنهم يمكن أن يقارنوا بالصحابة إن سلكوا السلوك المستقيم المرضي.

قالوا إن الشيخ البوطي رحمه الله قارن أفراد الجيش السوري بالصحابة. يفهم الواحد من هؤلاء أن البوطي قال مثلاً: «إن أفراد الجيش هم مثل الصحابة». ونقطة. وطبعاً هذا القول ذنب عظيم إن صح أنه قاله.

لكني استمعت إلى ما قاله الشيخ بالفعل وسأنقله بالحرف الواحد.

قال البوطي: « والله ليس بين أفراد هذا الجيش وبين أن يكونوا في رتبة أصحاب رسول الله إلا أن يرعوا حق الله في أنفسهم، وأن يقبلوا إلى الله وهم تائبون وهم ملتزمون بأمر الله، جهد استطاعتهم لا أقول أكثر».

وكما ترى إن كان أحد رعى حق الله في نفسه وأقبل إلى الله وهو تائب وملتزم بأمر الله فليس مستعظماً من القول أن يقارن بالصحابة! والمسألة أن هذا الجيش (بقيادته) لم ينفذ هذه الشروط فلا هو رعى حق الله، ولا أقبل إلى الله وهو تائب وملتزم بأمر الله!

اقتطع الكلام بهدف تشويه صورة الشيخ. ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا!

وهذا هو حال حروبنا إجمالاً. الإنصاف مفقود والتزوير مباح لتأييد رأينا وجماعتنا.

لك أن تناقش طويلاً في حقيقة موقف الشيخ من الثورة ومن تقديراته لمآل الأمور، ومن استرابته في خطط خفية تهدف إلى تدمير البلد.

وما من شك أن النظام السوري أثبت أنه لم يكن على مستوى المسؤولية، وكان مستعداً لتخريب البلد خوفاً على السلطة، وقد اتضح أن الرئيس على الأغلب كما قال بعض المقربون منه وانشقوا عنه كان لا يحب البوطي، وغالباً هو الذي كان وراء مقتله، فلماذا يقتله إن كان يخدمه؟

ولنفرض أن البوطي أخطأ في التقدير (لعله إجمالا في المنام الذي رآه قبل الأحداث بسنة وتنبأ فيه بخراب البلد كان عنده حدس صادق بما سيجري)، فهل هذا مبرر للافتراء عليه؟ لننه هذه الحروب الأهلية الثقافية ولنعد إلى الرشد!

ولكن هنا أشياء يتم إغفالها في الجدال (العقيم) الذي لا يحب المرء أن يخوضه مع من يريد تخوين الناس بالحق والباطل، ويجد في ذلك إرضاء نفسياً له أو هو يفيده الفائدة التي يجنيها المزايدون عادة في ظروف كهذه.

لم يكن هناك جديد في استناد الشيخ إلى مبدأ تحريم الخروج على الحاكم إن لم يكفر كفراً صريحاً فهذا يكاد يشكل إجماع فقهاء أهل السنة.

ومن هؤلاء الفقهاء من واجهوا بصدورهم العارية أسواط زبانية السلطة لكنهم حرموا الخروج عليه.

ومنهم مثلاً أحمد: يذكر الإمام الخلال في كتاب السنة عن أبي الحارث الصائغ، أنه سأل إمام أهل السنة أبا عبدالله أحمد بن حنبل في أمر كان حدث ببغداد، وهمَ قوم بالخروج، فقال أبو الحارث: يا أبا عبدالله، ما تقول في الخروج مع هؤلاء القوم؟

فأنكر ذلك عليهم، وجعل يقول: سبحان الله، الدماء الدماء، لا أرى ذلك ولا آمر به، الصبر على ما نحن فيه خير من الفتنة، يسفك فيها الدماء، ويستباح فيها الأموال، وينتهك فيها المحارم، أما علمت ما كان الناس فيه؟ يعني أيام الفتنة. قال أبو الحارث: والناس اليوم أليس هم في فتنة يا أبا عبد الله؟ قال: وإن كان، فإنما هي فتنة خاصة، فإذا وقع السيف، عمت الفتنة، وانقطعت السبل، الصبر على هذا ويسلم لك دينك خير لك». ولم يكد يخالف فقيه في ذلك من القدامى والمحدثين.

وكاتب هذه السطور ليس في مضمار أن يبدي رأيا في هذا الموقف، لكنني لا يفوتني أن أذكر أن موقف الفقهاء الكبار هذا لم ينتج عن كونهم هم بأشخاصهم من فقهاء السلطان واتباعه، بل قلّ منهم من لم يواجه السلطة غير مكترث بعواقب المواجهة التي تنال شخصه، لكنه كان مع هذا يحرص على تحذير الناس من الخروج الجماعي لأن هذا الخروج لم يسبق له أن أحدث خيرا قط في تاريخ الإسلام، منذ أول ثورة على عثمان رضي الله عنه، وما نتج عنها من كارثة تاريخية قادت إلى تحطيم الخلافة الراشدة وإرساء قواعد الملك العضوض في ديار الإسلام.

وكان الشيخ قد رأى عام 2010 رؤيا تنذر بخطر ماحق قادم إلى البلد، وظن السبب مسلسلاً تلفزيونياً يهزأ عنوانه بآية قرآنية، ولكن حقيقة ما رآه كان إنذاراً بخراب البلد بعد عام 2011.

والشيخ، مثل بقية المسلمين أو معظمهم، يؤمن بواقعية الرؤى والأحلام، ولا أعرف أنا ما أقول هنا، لكني أكتفي بالقول إن رؤيا الشيخ ويا للأسف قد تحققت، فها نحن أولاء أمام بلد مدمر، هجر نصف أهله من بيوتهم، وتقاسمته الدول تقاسم الذئاب لفريستها.

موقف البوطي شاركه إياه على كل حال مجموعة غير قليلة من السوريين العاديين، بل كان على ما يظهر موقف أغلب سكان مدينتي دمشق وحلب، لكن صوت الثورة، وتذنيب أو تخوين من لم ير رأي الثوار، صار هو الصوت الغالب لسببين مهمين:

أولهما :

السياسة الإجرامية لحكام دمشق، التي لم تعرف لغة للتفاهم مع شعبها أو مع الساخطين من شعبها غير لغة الدم والنار.

ثانيهما:

هو إرادة إقليمية ودولية لتصفية الحسابات مع بشار الأسد (وبعضها حسابات شخصية لبعض حكام المنطقة معه)، ومع النظام الإيراني، وهو ما دفع هؤلاء لتأجيج الصراع، وحجب الأصوات الحكيمة في المعارضة السورية المجربة التي كانت ترى رأي العين ان عاقبة التصعيد وفق موازين القوى القائمة لن تأتي بالحرية المطلوبة، بل ستقود إلى تحقيق ما وعد به زبانية السلطة: الأسد أو تهدم البلد.

هل كان البوطي جزءا من النظام؟

كان البوطي شخصاً مهماً في مجموعة لم تقتصر عليه من مشايخ دمشق وعلمائها سارت مع النظام مسار التوازي: لا التطابق ولا التناقض، ومن هؤلاء مشايخ آل الرفاعي في جامع زيد، ومجموعة كفتارو، وآخرون مثل مشايخ عائلة الفرفور العريقة، ومنهم مدرسون مهمون في كلية الشريعة بدمشق من أمثال وهبة الزحيلي ونور الدين عتر وغيرهما، ومنهم مجموعة نسوية فريدة من نوعها أسستها منيرة القبيسي وعرفت باسم «القبيسيات».

وهؤلاء مارسوا الدعوة الدينية والنشاطات التعليمية وفقا لاتفاق ضمني مع نظام حافظ الأسد: لم يلجؤوا إلى المعارضة، وتركوا الاهتمام بالسياسة المباشرة، وفي المقابل أعطاهم النظام مساحة من حرية الحركة ضمن هذا الهامش المحسوب.

وفي العقدين اللذين تليا حقبة المواجهة الشرسة مع المعارضة المسلحة في الثمانينات: التسعينات والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين الذي سبق اندلاع الثورة انتشر تأثير هؤلاء المشايخ في أوساط الشباب السوريين، ولم يأخذ هذا النشاط سمة سياسية معارضة، ولكنه طبع الغالبية السنية بطابع ديني ظاهر توازياً مع ما جرى في بلاد أخرى، وهو طابع لم تعرفه سوريا أو غيرها من بلاد العرب قبل عام 1990، وهو ما سموه «الصحوة الإسلامية»، وأذكر هذه التسمية الشائعة هنا على علاتها ووجوب النقد المستحق لها.

من المراهقة السياسية أن نلوم هؤلاء العلماء على أنهم لم يتصدوا للنظام وجها لوجه في كل تلك السنين، واللائمون أنفسهم عادة لا يتمتعون بالمقدرة على النقد الذاتي، إذ معظمهم كان يعيش في سوريا، بل كثير منهم كان عضوا في الحزب الحاكم، فإن لمت غيرك على أنه لم يكن ثائرا قبل عام 2011 فكيف لا تلوم نفسك؟

الأمر المهم الذي أريد أن أختم به هذه السطور هو التالي: من المهم إن كنا نريد حقاً بناء مجتمع حر لا تتسلط فيه فئات وشرائح على فئات وشرائح أخرى أن نقر بوجود فروق في اللغة والعادات والسلوك بين هذه المجموعات المتنوعة التي يتشكل منها المجتمع. ومن أسوأ أنواع التسلط أن لا تقر لفئة معينة أن تخالفك في ما تراه أنت صحيحا.

لقد رأت مجموعات سورية كثيرة أن الثورة هي القرار الصحيح، بينما لم تر مجموعات أخرى ذلك، فعلى الفئتين احترام موقف كل منهما الذي لا تحدده الأيديولوجيا وحدها بل تحدده عوامل كثيرة اجتماعية وتاريخية. ومن أنواع التسلط الشائعة أن تفرض على من لا يرى الثورة خياراً صائباً رأيك. [1]

التفاهم الاضطراري بين العصابة والفقيه.

لو وضعت في وعاء خمسين نملة سوداء و خمسين حمراء سيبقى الاستقرار هو السيّد، لكن إذا هززت الوعاء بعنف سيتقاتل الفريقان حتما، حيث يعتقد النمل الأحمر أن الأسود هو العدو،بينما يعتقد الفريق الأسود أن الأحمر هو العدو، ولكن العدو الحقيقي هو الشخص الذي حاصر المجموعتين وهزّ الوعاء وهذا ما ينطبق على إدارة المجتمع السوري سياسياً في وقتنا الراهن!

1- مشاركة خاصة طلبتها من د. محمد شاويش وقد اتحفني بها فوضعتها في سياقها المناسب

قبل أن تخاصم يجب أن تسأل نفسك من هزّ الوعاء؟

هناك طوائف تفرقت وأصبحوا أعداء، وقوميات تناحرت وأصدقاء تقاتلوا و هناك أزواج تطلقوا وهناك أخوة نفروا وتباعدوا، كل هذا بسبب جهة ما تنتهج سياسة هزّ الوعاء بخبث ودهاء ومكر بهدف تحقيق الاستخراب الاجتماعي لا الاستقرار، مستخدمة كافة طرق الإلهاء والتشويه والافتراءات لتحقيق غاية سياسية للسلطة العابثة!

ولا شك بدأت اليوم تتجلّى معالم الرؤية السياسية والاجتماعية التي حذّر الشيخ البوطي من عواقبها منذ بداية إدارة المطالب الشعبية لصالح المجرم السياسي، فأصبح واضحا أنّ الواقع السوري اليوم يدار بيد شقية ومسردبة وعقلية تحترف الإجرام المنظّم وزراعة الوهم والحقد بين المكونات السورية ليتم تنظيم اضطرابها في استهداف الهوية السورية.

إن المحافظة على الذات السورية المعافاة يعد فريضة لا يصح قبلها أي فرض، وقد ضربنا المثل بنمل ولكن من هز الوعاء أفعى مجرم والمتقاتلون أبرياء صاروا بيادق مأمورة وبنادق مأجورة، وتحولوا إلى ما يمكن تسميته بفيلسوف الشقاق وسوء الأخلاق، حيث إن تسييد البعد الواحد والرؤية القاصرة تمنع الحكم المنصف وتغلب التقييم الفاسد ولغة الاصطفاء الذاتي والعقل الصفري .

ليس صحيحا أن العالم هو قرية بل بات أشبه بشقة صغيرة، تدار بيد شقية وعقلية محترفة، تزرع الوهم والحقد والتمييز، وربما تلك الساعد المشغلة منحت صغار العقول منابر لها كلمة، ومناظير لها رؤية، ومناقير لها أذية.

وكان كل دور هؤلاء الصغار (الجلبة) و(التشاغب) الذي يمنع السكن، ويحول دون سكينة سكان الشقة الواحدة، ومن أهم اشتغالات الكبار **[توظيف الصغاروشغلهم ببعضهم البعض وضرب الكل بالكل]**

وكان من أهم الاستراتيجيات المتبعة سياسياً في تحقيق هذا التخبط الاجتماعي إسقاط الرموز الدينية وغير الدينية شريطة أن تكون عاقلة وفاعلة اجتماعيا من خلال الأحكام المعلبة والأحادية وبروز الأنا.

[الأنا المتورمة] مرض أدى إلى تهتك صفوفنا بسببه، و كون لنا الكثير من الأعداء، إنه مرض اللون الواحد، حيث ننسف القرابات وندمر العلاقات فلا إنصاف ..

كان المراد سياسياً أن تكون سوريا غير قادرة على أي خطوة مستقبلية وفي سبيل ذلك يجب أن يتحول الدين إلى سكين والقومية إلى منصة تشهير والطائفة إلى هوية حدية، والمجتمع إلى خنادق قابلة للاشتعال، وكل ذلك بدعم من الممول للنظام ولبعض أطياف المعارضة، **خلاف مصنع بين أبناء البلد الواحد**.



غذى تلك السلوكيات المدمرة الأجواء المحتقنة وطول عمر الثورة، وبعض منصات الإعلام، وتمظهر ذلك في غياب الإنصاف وتبرير المجازر التي تقع على من ليس منا والبرود العاطفي في أي كارثة تحل بغيرنا وترأس مشاعر التخوين والتخويف والاحتراب الداخلي بجهل ذاتي وتوظيف خارجي، وتعميم الأحكام التعسفية والسلبية والتي تستخدم لفظ [كل] والذي يفيد الاستغراق والشمول فلا خير، فيمن اختلفنا معه سواء أكان حزباً أو شخصية أو قومية أو طائفة.

مع أنه حتى في الدين هناك [فسق دون فسق]و[معصية دون معصية]، و[صواب قطعي وصواب نسبي]و[خطأ قطعي وخطأ اجتهادي]و[مخالف، ومعادٍ وشديد العداوة]و[أصدقاء، وخلّص الأصدقاء]و[معارف ومجاهيل]، وسرت تلك الأحكام الجائرة في مواقفنا من قراءة سيرة أي شخص اختلفنا معه وكان من الضحايا الاجتماعية الأولى لهذه الثقافة الاستبدادية الأسدية هي صورة وصوت الشيخ البوطي الذي قتله نظام الأسد لأنّه يعلم يقيناً أنّه يمثل رأساً استقطابياً ورمزاً يجب أن يتم تصفيتهم لما له من دلالة في ذاكرة وعمق المجتمع السوري.

لقد استطاع الأسد قراءة البوطي بعمق أكثر بعشرات المرات من قراءة المعارضة السورية السياسية والتفكير المجتمعي العاطفي لمواقفه المتوازنة التأصيلية.

نقول سيطرت على الكثيرين من الناس في التعامل مع الموقف بما صدره النظام وتبنته بعض صفوف المعارضة من محاصرة الشيخ بأنه من وعاظ السلاطين.

حكم على الشيخ البوطي بالشطب الكلي دون أي محاولة للإحاطة بالواقع الداخلي السوري وتعقيداته وتجلياته والقوى السياسية الفاعلة فيه .

إن وعينا بذلك كله يعفينا من الإصابة بمرض اللون الواحد (عقلية الأبيض والأسود) هذا المرض الذي يمكن توصيفه بأحادية اللون الأبيض والأسود، عقلية الصواب المطلق والخطأ المطلق، عقلية: إما أن تكون معي، وإما أن تكون ضدي، عقلية: لنا الصدر دون العالمين أو القبر.

مع أن من قواعد الشرع والحكمة أيضاً: أن من كثرت حسناته وعظمت وكان له في الإسلام تأثير ظاهر فإنه يحتمل له مالا يحتمل لغيره، ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره؛ فإن المعصية خبث، والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث، بخلاف الماء القليل فإنه يحمل أدنى خبث، ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمر : (وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم) وهذا هو المانع له صلى الله عليه وسلم من قتل من حس عليه وعلى المسلمين [يعني : تجسس ، ونقل أخباره إلى الأعداء] وارتكب مثل ذلك الذنب العظيم ، فأخبر صلى الله عليه وسلم أنه شهد بدرا، فدلّ على أن مقتضى عقوبته قائم، لكن منع من ترتب أثره عليه ما له من المشهد العظيم، فوقعت تلك السقطة العظيمة مغتفرة في جنب ما له من الحسنات .

وهذا أمر معلوم عند الناس مستقر في فطرهم : أن من له ألوف من الحسنات فإنه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوها ... كما قيل :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحـــــد جاءت محاسنه بألف شفيع .

وقال آخر:

فإن يكن الفعل الذي ساء واحدا فأفعاله اللاتي سررن كثير» [1]

1- مفتاح دار السعادة، (177-1/176) .

لابد أن نؤكد أن سلطة عصابة البعث العابث نجحت بدهائها الماكر وسياستها المبرمجة في:

- إذكاء الغباء.
- تسييد المحاكمات الفجة.
- شرعنة الاصطفافات الحدية والعقل الصفري عبر سياسة الإفقار في المدارك والمعارف.

إن قراءة شخص ما دون معرفة الواقع السياسي المحلي والنظام العالمي الدولي، وبخاصة إذا كان هذا الشخص من محاور الاستقطاب الجماعي، أو من رموز الهوية المجتمعية. فإن ذلك سيفضي إلى ظلم كبير لذلك الشخص.

في مدارس التحليل السياسي هناك ما يسمى بالواقعية السياسية وهي تعني إدراك حجم القوى الفاعلة سياسيا بكل تجلياتها الأمنية والاجتماعية والإعلامية والاقتصادية وحتى الثقافية والدينية ثم نتعامل مع تلك القوى وفق الممكن أو على مبدأ علاقة الاضطرار، وليس علاقة الاختيار.

وهذا يعني أن العلاقة ستبقى مشوبة بالحذر المتبادل بين الأطراف الفاعلة وبين الجهة السيادية (العصابة) التي مهما حاولت تطمين الجميع إلا أن الجميع يدرك أن لا أمان معها .

هذه النقطة الغائبة عن كثيرين من الإسلاميين هي التي أوقعتهم في فخ المكابرة، أي تجاوزوا ما هو ممكن ومتاح إلى ما ينبغي ويكون، وكان من جراء ذلك بطش لا مثيل له مع غض بصر دولي على مجازر حماه وحلب وتدمر التي قام بها حافظ الأسد.

التفكير العبقري عند الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله ظهر في وعيه للخارطة السياسية الداخلية وللإرادة الدولية، كان رحمه الله تعالى على وعي تام بالنظام وبدوره التشغيلي الوظيفي في سوريا وداخل المنطقة العربية والدور المناط بالحكم.

لقد حدثني بعض قيادات المعارضة في سوريا عن جلسات خاصة ومفاتحات بينهم وبين د. البوطي، وأن البوطي رحمه الله كان يرى أن النظام هو محض مجرم قاتل، وأنه لا أمان له، وأنه جزء من الإقرار الدولي، وأن التعامل لتغيير هذا النظام يجب أن يتجاوز فكرة الثورة الهائجة إلى الإصلاح المتدرج.

لقد عاين الشيخ البوطي مآلات الضربات السياسية القاتلة لكل المناوئين بدءاً من رحيل البوطي نفسه مع والده الملا فراراً من بطش أتاتورك، مرورا بالإعدامات العلنية للرموز في مصر على يد عبد الناصر، ومعاينته للقبضة الأمنية في أحداث حماه في الستينات (اعتصامات مروان حديد عام 1964) وجامع المرابط والأموي في دمشق و أحداث الثمانينات والتي أسماها في كتاب (هذا والدي) فتنة الإخوان المسلمين.

وأيضاً الأحداث التي رافقت العشرية السوداء في الجزائر، وصولاً إلى أحداث 2011 التي دفع فيها دمه ثمناً في سبيل معتقداته وأفكاره.

طبيعة العلاقة التي كانت تحكم الشيخ البوطي والنظام، كانت مرتكزة على:

- محاولات الاختراقات من الطرفين الشيخ والعصابة.
- اجتهاد الشيخ في ملء الفراغ.
- البحث عن المتاح لتقديم ما يمكن تقديمه وفق رؤيته الإصلاحية.

عاصر د. البوطي الإجرام النظامي وفداحة الخسائر التي مني بها من وقف في وجه السلطة ومن كل الاتجاهات، وكان عليه أن يبحث عن خط بديل، وهنا تظهر صعوبة اتخاذ موقف من عصابة أو سلطة لا تقبل أبداً إلا الامتطاء أو الاحتواء أو الإملاء.

مواقف الشيخ لم تكن من قبيل إرضاء السلطة، والتي كانت تكره اسمه كما روى لي الوزير الدكتور رياض نعسان آغا وإنما كانت مساعي الشيخ تهدف تحقيق ما يمكن تحقيقه.

كان الشيخ يدرك أن النظام يستثمر في بعض مواقفه، وكان على الشيخ أن يستثمر بعض مواقف النظام، كما كان عليه أن يستفيد من النظام ومن الانفراجات التي يستطيع من خلالها تحقيق بعض مطالبه.

في مكالمة هاتفية من قبل حافظ الأسد حيث اتصل بالشيخ البوطي وقال له سل ما تريده وسيكون بين يديك. فأجاب الشيخ أشكرك سيادة الرئيس وعندما ألح حافظ على الشيخ رد:

((أريد منك أن تأمر كل من هم في الداخل أن يخرجوا ومن هم في الخارج أن يدخلوا))
وفهم الرئيس حافظ أن الشيخ يريد إخراج المعتقلين وعودة المبعدين، فسأله:

وهل من قريب لك تريد أن تساعده؟

فقال الشيخ د. البوطي :كل من في الداخل أولادي وكل من في الخارج أهلي ..

إن الذين يقرأون الدكتور البوطي دون مراجعة الواقع السياسي ودون مراجعة الممكن والمتاح سيظلمون الرجل ويظلمون حقيقتهم.

إن العلاقة بين السلطة والبوطي مبنية على السباق البيني، كما بينت قبل قليل كل طرف يريد أن يستثمر الآخر لمشروعه.

وفي ظل هذا السباق المحموم بين قوتين غير متكافئتين، تقع أخطاء وأخطاء ويدفع البعض الثمن.

كان لا بد للأسد الأب أن يتنازل ظاهرياً عن بعض الخطوات مقابل أن يضمن أن ثورة ما تستثمر الدين لن تقوم في وجهه كما قامت في الثمانينات .

كانت محاولات الدولة متتالية لشراء الذمم، وكان البوطي يقف موقف المعاند ويتجلى ذلك في عدم اقتناعه بالسلطة أو سعيه لتحصيل أي منفعة منها:

- عدم قبوله لأي منصب رسمي.

ورفضه التام لأي عطية من النظام رغم محاولات النظام المتكررة شراء ذمته، أو امتطاء ظهره، وكان النظام يعلم علماً واقعياً أن ذلك الأمر صعب بل إن بعض قيادات الأجهزة الأمنية رفضت أي منصب رسمي للشيخ البوطي، وقد تناقل أهل دمشق قول اللواء محمد ناصيف تحذيره القصر الجمهوري بعدم الاقتراب من البوطي لأنه إن تولى منصباً لن نقدر على التحكم فيه فإما أن نحرقه أو يحرقنا على حد تعبير ناصيف .

فالبوطي ابن المدارس الفقهية التي لها جذور ناوأت السلطات ولعل من أهمها مدرسة الشيخ حسن حبنكة رحمه الله، والشيخ السباعي رحمه الله.



إن إنصاف راية الثورة من الظلم تعني مراجعة مواقفنا وهذا يتطلب منا نقد ذاتنا والتخلص من الأحكام القاصرة التي تستبطن عقلية النظام والغواية القومية، وتحطيم الرموز.

هل تساءلنا لماذا لا يقبل أي جسم عاقل ورشيد ينتمي إلى هوية المجتمع السوري وقيمه التاريخية حتى لو اختلفت المواقع، أن يراجع مواقفه؟

لماذا حكم على هوية المجتمع السوري بالإعدام سواء أكان موقفه علميا كالشيخ البوطي، أو حتى معارضاً كالشيخ معاذ الخطيب وصولاً إلى الساروت وأبي فرات؟

إن علاج أمراضنا يكون بالصحة الفكرية وذلك من خلال:

- تفعيل دور العقلاء.
- والتوقف عن القيل والقال والاقتطاع المسيس لموقف شخصية ما.
- أن نضع أنفسنا في موقع الطرف الآخر لنعرف هل يمكن أن نحكم عليه كما نحكم الآن.

من حقك أن تقول: البوطي أخطأ، ولكن يجب أن تلتزم بالصدق وبالتقصي وعدم التجزئة.

وعلينا محاصرة كل من يتاجر بعقلية التصعيد ومن يصدر حكماً واحداً، فالناس ليسوا كتلة واحدة والتيارات ليست خطاً واحداً، والانتماءات ليست على نسق واحد، وأخيراً لنفكر لصالح من نتقاتل تاركين المجرم الذي ضرب الكل بالكل.

السلطة حكمت الحكم النهائي على البوطي: الاحتواء، ومن ثم الاتلاف البطيء، ثم القتل.

من حيث المبدأ العام أنا مع ماذهب إليه أستاذنا الكبير محمد شاويش بل إن موقفي من الدكتور البوطي يقارب موقفي من الأحداث السورية وهو كالآتي:

① أومن بحق الشعب في تقرير شكل ونظام من يحكمه، ولذلك أعزو كل التكديس من المشاعر المحتقنة الى بشار أسد بصفته يمارس ببراعة استقدام المجرمين معه وضده لتدمير بلدي وهذا خياره الذي اتخذه في سبيل بقاء حكمه.

② لا أومن بعصمة الطرف الثائر على بشار، ولكن لا يمكن أن أساوي بين أغلاطه وبين مجازر بشار فالإرهاب المنظم للدولة يفوق إرهاب الأفراد والفصائل العسكرية الثورية، ومع هذا فكل ثوري ثبت جرمه وجب محاسبته.

③ لأني أومن بالعدل أومن أن النظام استنجد بكل المنتفعين من كل المكونات السورية ولذلك لا يمكن أن نصف الثورة بأنها ذات طابع سني ضد طابع علوي مثلا.

④ ومع أني لست من الإخوان المسلمين ولا من أي حزب ديني أو قومي أو علماني ولكن لا يمكن أن أقبل أن يتم الإقصاء لهم، كما لا يمكن أن أحملهم وزر كل ما يحصل وهم جزء من المشكلة وجزء من الحل.

⑤ كل خطايا الواقع وزفراته وأناته تقع مسؤولية ذلك كله على عصابة الأسد أولا ثم بقايا أطياف المعارضة.

⑥ لا أومن ببندقية ولا شرف لقاتل لدي، وأميل الى الحل السياسي ولا أجرم أو أحرم أن يدافع أحد عن ممتلكاته، على أن يكون مقاتلاً لا قاتلاً.

⑦ أرفض أي حيف بأي مكون سوري، وأرفض أي راية عربية أو كوردية أو أي قومية تعمل على تهجير أو سلب أي صاحب حق حقه .

⑧ أرفض أي إملاء خارجي على القرار السوري فنحن ثرنا على حاكمنا لنتحرر منه لا لنقع تحت سطوة حاكم خارجي.

⑨ قبلت جموع من الشعب تجاوزات كثيرة ارتكبت من الفصائل الثورية (الحر / الإسلامي) باسم الثورة سواء من تشويه للإسلام أو انتهاك لحقوق الإنسان، وقبلوا التفاوض مع النظام أيضاً ولكن امتنع الطيف المعارض وشرائح واسعة من الشعب عن التواصل مع المكون الكوردي بحجة انتهاك المكون الكوردي لحقوق الانسان وتم رفض وجود أقوى فصيل كوردي في هيئة المفاوضات وهذا ظلم مرفوض.

⑩ أرفض ادعاء الصدام بين القومية والإسلام فالأولى لا اختيار فيها والثاني قرار عقلاني، ولا يشترط الدين عليك أن تتخلى عن قوميتك كي تكون متدينا ولا يليق بك أن تحول قوميتك إلى سكين...

تذكر أن الإسلام هو دين القيم وليس إلغاء القوميات

⑪ مادام البعض مفعما بالتبرير والتحليل والذب عن دول الجوار فلماذا لا يعمل على تبرير وتقريب المختلفين ضمن وطنه وبالأخص بين المكونين العربي والكوردي والعلوي والسني والدرزي والايزيدي وغيرهم ...

⑫ مادام الكوردي يطعن بالعربي والعربي يطعن بالكردي فانتظروا دماءً وجنوناً...

⑬ لو أنصف العرب الكورد وتحدثوا عن لقاء ومصالحات بين الجسد السوري بربع ما تحدثوا به عن مديح حكومات ودوّل الحوار لرأيت الخلافات تذوب، ولو فعل ذلك الكرد لتغير وضعهم وكفوا ألسنة الآخرين.

من حيث تسلسل الوقائع فإن العلاقة بين مكونات الشعب السوري اجتماعيا كانت كلما تجنبت السياسة وقاربت المفهوم الإنساني المحض والتدين الفطري كانت أشد عمقا وأكثر رسوخا؛ لكن للأسف اليوم تتمزق العلائق ويأتي جهال القوميتين ليتحدثوا بما قبح عن بعضهما؛ بطريقة لا يؤيدها وقائع التاريخ ولا المنطق السليم .

انخرط العرب والكورد في معارك وجودية واحدة ومواجهات عديدة حدية.

لماذا كل هذا اللغط والخطابات العنصرية؟

لأننا افتقدنا التسامح على مستوى الدولة والأفراد.

فالتسامح على مستوى الدولة يقتضي ضمان العدل وعدم التحيز في التشريعات وفي إنفاذ القوانين والإجراءات القضائية والإدارية.

وهو يقتضي أيضاً إتاحة الفرص الاقتصادية والاجتماعية لكل شخص دون أي تمييز. فكل استبعاد أو تهميش إنما يؤدي إلى الإحباط والعدوانية والتعصب. وبغية إشاعة المزيد من التسامح في المجتمع، ينبغي للدول أن تصادق على الاتفاقيات الدولية القائمة بشأن حقوق الإنسان، وأن تصوغ عند الضرورة تشريعات جديدة لضمان المساواة في المعاملة وتكافؤ الفرص لكل فئات المجتمع وأفراده.

السمة الأساسية للدولة المدنيّة تتمثل في :

① تعزيز قيم التعايش والسلم الأهلي.

② تكريس التعارف لا التدابر بين المكونات العرقية والطائفية.

③ إدماج السلم الأهلي في منظومة الثّقافة، بل وفي المنهج التعليمي والخطاب الديني حتى يتم إكساب المجتمعات فكرا جديدا حول أسلوب الحياة ضمن تعدّد وتنوّع الجماعات واختلاف مشاربها وهويّاتها.

④ اعتبار هذا التعدّد والتنوّع مصدر ثراء للمجتمع وللحضارات.

جوهر النضال لحركات حقوق الإنسان والمجتمع المدني هو تحقيق وعي كوني بمفاهيم التعايش السلمي، هنا تتم أنسنة النظم السياسية لتكون إطارا عاما يعزز من ما هو مشترك بين مكونات أهل البلد من والثقافات والديانات، وتوسيع نطاقه باستمرار من خلال مزيد من الحوار والنهج العقلاني في إقرار فنون التعايش وتحقيق السلم الأهلي.

الثّقافات الحية والمجتمعات الناشطة والدينامية هي التي تعرف مفهوم التعايش وفق تعدّد الثقافات والمذاهب.

والمجتمع الذي يحرص عليه الدين ليس هو مجتمع المسلمين، بل مجتمع حلف المؤمنين الأحرار.

لكل دينه، ولكل قوميته، ولكل طائفته، التي يؤْمِن بها والجميع يلتزم بالقانون وهذا هو لب الدين.

وراء كل جاهل سلطة أجهل ووراء كل سلطة جاهلة شعب يقدس جهله

ومن صور رحمته صلى الله عليه وآله وسلم التي فقدها كثير ممن يدعي محبته له، ما قرأناه أنه يوم بدر قبيل المعركة يقول ﷺ لأصحابه: (إني قد عرفت رجالا من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحدا من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله فلا يقتله، فانه إنما خرج مستكرها)[1]

1- ابن كثير: البداية والنهاية ج3/ ص284

فكر معي بالآتي:

الدين + جهل = تعصب.

التعصب + سلطة = استبداد.

الاستبداد + الخوف = تطرف.

الدين + العلم = السلام.

السلام + العدل = آمان.

الفقر + الخوف + الجهل = إرهاب.

الإرهاب + السلطة = الدمار.

الإنسان +الجهل - الدين + السلطة = الظلم.

الظلم = خراب.

كثيرا ما أصف نفسي بالمواطن العالمي المتسامح لكني غير مسالم للظلم.

أرى هذه النقاط هي مهمة كل حر:

① عمران السماء لا يكون بخراب الأرض.

② الأصل بين الأديان والقوميات التعارف والتفاهم.

③ لا صدام بين شرعة حقوق الإنسان والأديان.

④ الأديان ليست مهمتها إلغاء القوميات، بل نشر القيم.

⑤ الدين في خدمة الإنسانية.

⑥ كل دين يجافي العلم والإنسانية ليس بدين.

⑦ الإنسان غاية الأديان.

الفكر المتطرّف الرافض للتعدّد والتنوّع، مأزوم باستمرار لأنه نتاج لبنى ماضوية، يعجز على تقديم الإجابة عن التساؤلات المتجدّدة وتلبية الاحتياجات المتطوّرة للإنسان.



والتعايش المشترك والسلم الأهلي من أهم أسئلة الوجود الاجتماعي والسياسي في عالمنا المعاصر، وفي مجتمعاتنا العربية بوجه خاص، هنا يكون من اللازم الإقرار بالتعايش والسلم الأهلي باعتبارهما من أهم ممكنات تحقيق الاستقرار وبناء الحياة المدنيّة.

السلم الأهلي والتعايش التوافقي من أهم مفاهيم العمران البشري التي تقرّ بها جميع الحضارات.

السلم الأهلي: هو الترابط المجتمعي الوطني والقائم على قبول التنوع ونبذ العنف؛ والإكراه؛ والتعامل الحضاري والسلمي مع جميع الأشخاص المشتركين في المواطنة بغض النظر عن اختلافاتهم.

وهذا المفهوم يعني:

أولاً: إقرار الجميع بالحفاظ على سلام دائم.

ثانياً: رفض كل أشكال الاقتتال أو الدعوة إليه.

ثالثاً: رفض حتمية التصادم مع الآخر المختلف في الثّقافة والدين والمذهب، .

رابعاً: رفض تحويل مفهوم الحقّ بالاختلاف إلى أيديولوجية صدامية.

خامساً: الوعي المتحضر وقوانين علم الاجتماع.

هل نحن إزاء تراجع أم مراجعة؟ قناعة أم هزيمة؟ قنبلة سياسية أم فضيحة خلقية؟ خطوة إنقاذية أم شعوذة فكرية؟

لا تستهينوا بالأكاذيب، يستخف بها الجيل الأول، ويصدقها الجيل الثاني، ويقدسها الجيل الثالث، ويقاتل من أجلها الجيل الرابع.

في الصفحات التالية ثمة جريمة بشعة مكتملة الأوصاف، قتل مع سبق الإصرار والترصد، قتل مع التعمد قتل مع التنفيذ.

إنه ليس تفكيراً في قتل، ليس شروعاً، ليس محاولة.

إنه قتل!

ومع ذلك.. فإن الجاني خرج بعد جريمته بغير عقاب!

إن القتيل معروف ... وأداة القتل مضبوطة.. وسبب القتل واضح.

فالمفقود موجود، والغائب حاضر.

والشهود موجودون، والقاتل معترف، ومع ذلك فإن جريمة القتل يتم تسجيلها في النهاية ضد: **مجهول.**

إن القتيل ليس شخصاً عادياً.

والقاتل ليس شخصاً واحداً و**القتيل** في الظاهر عالم دين. ومكان الجريمة حرم المسجد.

وأما **الهدف من القتل غير المعلن:**

(نحر قيم العدل والإنصاف)، وإن بدا في الصورة أن المقتول هو عالم دين، مجرد عالم دين وله رأي مجرد رأي، وإذا كان القتيل هو مجرد رأي.

فإن القاتل لم يكن «مجرد» شخص.

إن القاتل مزيج غير متجانس من المتناقضات، إن المتفجرات التي وضعت في المسجد، والمسدس الذي صوب على د. البوطي رحمه الله تحمله في النهاية أكثر من يد واحدة (**النظام ومشتقاته**).

الأمس عدونا الحميم وصديقنا اللدود، ولكن لا مفر منه إذا أردنا فهم يومنا علينا أن نقرأ بصمته على مسارنا نحن نعيش اليوم بجريرة الماضي.

والتاريخ ليس مجرد رواية، بل قد تكون درايته أكبر من نقل أحداثه، وبلا مجاملة نحن لا نجيد قراءة التاريخ.

تأملت الفيديو المسرب والذي يحكي مسرحية الجريمة، أطرقت ولم أنبس ببنت شفة.

دمي لن يضيع

دمي رغم كل الأراجيف نسغ البطولة

دمي يتنزى رجولة ويشهد من يعرفون معاني الإباء وسر الوفاء

بأن دمي أبدا لن يضيع

فإما أهيل التراب وجفت زهور الربيع

فإن عيون السحاب ستجري بفيض السماء

وتجرف كل الغثاء

وتنمو عظام الضحايا

لتأخذ شكل الحراب

وتنبت في كل جرح بصدر الشهيد

ألوف البراعم تقفو خطاه وتملأ كل صعيد..

كانت هالته الإيمانية حاضرة رحمه الله في نظراته، وأما وجهه فهو يحكي قصة صدق ووفاء لبلد وانتماء لدين.

تمعنت في عدم هلعه على الرغم من وقوع الانفجار أثناء درسه، قرأت في مقلتيه الثبات والرضى وأحسست فيهما وهو يودع الدنيا وكأنه يقول رسالة:

لقد بلغتكم ما أومن به، وقد عشت على كرسي المعرفة والعلم، وها هي يد الغدر تغتالني لألقى الله على ما عشت عليه، وأسأل الله أن أبعث على ما مت عليه..

نعم جيوش من المتناقضات اجتمعت على رجل واحد، لكنهم في النهاية سلطة واحدة، وإن اختلفوا في المواقع لكن لها تفكير السلطة، وأسلحة السلطة، وجبروت السلطة.

لابد أن نعترف أن النظام تمكن من مداهمة معاقل الثورة المادية والمعنوية وتحطيمهما إلى حد كبير، وقد بلغ درجة ملحوظة حتى إن بعض من رفع شعار الثورة ومن هو محسوب على الثورة امتثل لأوامر النظام دون أن يعلم أو بعلم وبتنسيق ودون النظر إلى النتائج التي لم يتوقع حدوثها.

إن شتم النظام ومحاولة التخلص منه دون مفارقة لأخلاقه، لن يسقط النظام وهو ما تم وهو ما كان يحذر البوطي رحمه الله تعالى منه.

إن العقوبة التي حلت بالقيم داخل سوريا كانت كبيرة جداً، أدت إلى تدمير نسيج الشعب السوري وافقاده الثقة بعلاقاته التاريخية وهويته الوطنية والدينية وكونت تغيرات ديموغرافية أفضت إلى أحداث غير مسبوقة ومنها انتهاك المسجد، وقتل عالم، وإزهاق الأرواح وسيادة منطق التتفيه.

لم يكن كل ذلك مفاجئا فمن وراء ماوقع تكمن السياسة المفسدة لكل شيء.

لقد تم التشهير بالدكتور البوطي ومن ثم قتله، كإجراء نهائي وقبل ذلك، أعلن المجتمع الموتور حكمه عليه (خائن عالم سلطة)، حتى قوميته الكردية لم تسلم من التطاول عليها.

إنه بمقدار ما يعجب المرء من مآلات الثورة السورية، يأخذه الألم العميق للجنوح الرهيب الذي غيب العقول عن إدراك حقيقة موقف د. البوطي طيب الله ثراه، فقد توافق الأضداد على ظلمه **النظام والمعارضة** وشرع بعض أحداث الأسنان وسفهاء الأحلام شتمه وتسويغ الكذب عليه تارة باسم الوطن وأخرى باسم الحرية.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتضْعِفوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَروا بَلْ مَكْر الَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمرونَنا أن نكفرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَه أَندَادا﴾ (سبأ/٣٣). وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كلِّ قَرْيَةٍ أَكَبِر مجْرِمِيهَا لِيَمْكروا فِيهَا وَمَا يَمْكرونَ إِلَّا بِأَنفسِهِمْ وَمَا يَشْعرونَ﴾ (الأنعام/١٢٣)، المكر بين البشر هو تآمر خفي وغير مشروع، وما يتضمنه ذلك من خداع وتضليل، وعرفه الصاحب بن عباد بأنه احتيال بغير ما تضمر. هذا هو معنى المكر، وهو في العرف صفة سوء حين ينسب إلى البشر، ويستعمل بدله لفظ الخديعة والتورية وما أشبه ذلك مما يجوز تقية وفي الحرب. وأما مكر الله تعالى بمعنى الاستدراج وشبهه فهي صفة تعظيم الله تعالى كما جاء في القرآن الكريم واضح أن وظيفة أكابر المجرمذين هو التخطيط الخفي للإجرام المصحوب أو المسبوق بخطاب أو إعلام مزخرف لأجل التضليل، وأما وظيفة أتباع وخدم أكابر المجرمين فهو تنفيذ العمليات وفقا لخطط الأكابر، وكما قال تعالى في آية قبلها:﴿ولتصغى إِلَيْهِ أفئدة الَّذِينَ لَا يؤْمِنونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْه وَلِيَقْتَرِفوا مَا هم مقْتَرِفونَ﴾ (الأنعام/١١٣). وقال تعالى:﴿لا يَأْلونَكمْ خَبَالا وَدّوا مَا عَنِتّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تخْفِي صدورهمْ أَكْبَر﴾ (آل عمران/١١٨).

وهذا يؤكد ضرورة عدم الركون إلى الخطاب المعلن لهم، بل يجب البحث عن المضامين غير المعلنة وإثارة الاحتمالات العديدة الممكنة فيها. وقد كان قادة المكر قديما جماعات صغيرة متعددة يمثلون القيادات السياسية لشعوبهم أو اتباعهم، وأما اليوم فالأمر أوسع بكثير، فإن عمليات التضليل والخداع والتآمر الإستراتيجي اكتسبت مهارات عالية جداً، كما أن المؤسسات المختصة بها كثيرة وكبيرة جداً ومتصارعة فيما بينها ولكن الأمر كما قال تبارك وتعالى: ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّه بنيَانَهم مِّن الْقَوَاعِدِ فَخَر عَلَيْهِم السَّقْف مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهم الْعَذَاب مِنْ حَيْث لَا يَشْعرونَ﴾ (النحل/٢٦). [1]

1- ثمار التنقيح على فقه الإيمان د.وميض بن رمزي بن صديق العمري دار عمار الأردن ط 1. 2019

لقد قتل البوطي مرتين مرة بالإعدام المعنوي والذي مارسته توجهات محسوبة على المعارضة تارة لمحاسبته على مذهبيته وصوفيته وأيضاً قوميته، ومرة بتصفيته جسديا وبتنسيق بين التكفيريين وبين النظام الذي سهل عملية الاغتيال.

ولن ينتصر أيٌّ شعبٍ على صاحب القصر والشعب يمارس أخلاق الاستبداد والقهر.

تناقلت الأخبار أن عمر ﷺ كتب إلى سعد بن أبي وقاص ﷺ في رسالة طويلة «أما بعد: فإني آمرك، ومن معك من الأجناد، بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدّة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك، ومن معك، أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينتصر المسلمون بمعصية عدوهم لله؛ ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدّتنا كعدّتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا لم ننصر عليهم بفضلنا، ولم نغلبهم بقوتنا[1].

السلطة في المجتمع السوري كانت لها مقاييسها الخاصة التي تخفيها دائماً وتعلنها أحياناً وقد تشربنا تلك الثقافة التي تعد:

الخوف صبر.. والجمود عقل.. والتطور جنون.. والتجديد إلحاد.. والحرية كفر.. والتفكير جريمة. الضعف نعمة.. والجبن قيمة.

والشجاعة رذيلة.. والصمت حكمة.. والجهل فضيلة.. والتمرد زندقة.. والظلم عدل.. والطغيان قوة.. والإرهاب قانون.. والحاكم إله. والحاضر مقبول.. والمستقبل ملعون.. والاختلاف خيانة.. والظلام نور.. والمرأة حيوان.. والشعب عبيد. والتاريخ أسطورة.. والماضي مقدس أو مدنس.

1- فهذا الأثر قد تناقلته كتب التاريخ والأخبار في رسائل مختلفة، وألفاظ متقاربة عن عمر - رضي الله عنه - إلى ولاته، وقادة جيوشه، ولم نقف على من صححه، فقد جاء في بدائع السلك في طبائع الملك للأصبحي الأندلسي وجاء هذا منسوبا إلى عمر بن عبد العزيز، كما في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، وكما في سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه. وفي كتاب الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء للكلاعي، ومجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة للآبادي للهندي، وغيرهما، أن عمر - رضي الله عنه - كتب إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح: من عبد الله عمر - أمير المؤمنين - إلى أبي عبيدة بن الجرّاح: سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فقد أتاني كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه من إهلاك الله المشركين، ونصره المؤمنين، وما صنع الله لأوليائه وأهل طاعته، فأحمد الله على صنيعه إلينا، واستتم الله ذلك بشكره، ثم اعلموا أنكم لم تظهروا على عدوّكم بعدد، ولا عدّة، ولا حول، ولا قوة، ولكنه بعون الله، ونصره، ومنّه، وفضله. انظر إسلام ويب ا صحة الأثر الذي جاء عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال: «إنكم لا تغلبون عدوكم بعدد، ولا عدة، ولكن تغلبونهم بهذا الدين، فإذا استويتم أنتم وعدوكم في الذنوب كانت الغلبة للأقوى»؟

إن ما ذكرته هو نموذج من المقاييس التي حوكم على أساسها البوطي إنها أيضاً ليست خافية، فالشيخ البوطي يعلم مقدما نتائج ما قد قرر وما سوف ينتج عن اختيار طريقه.

فحدثوني بربكم.. أترى ما نحن فيه مؤامرة نحن ضحاياها، أم شدة نحن أبطالها وصنّاعها ؟![1].

لقد اختار رحمه الله الحرية قبل الإكراه اختار الاختلاف قبل الموافقة.

اختار المفكر فوق السياسي..

اختار الدين قبل الدكان.

اختار الإنسان الواحد فوق القطيع الضخم.

وهذا ما جعله يدفع ثمناً غالياً وتعرض لجريمة نكراء ورحم الله من قال:" **خيركم من عاش يسعى ويزيد الناس نفعا** " ومع توقع النتيجة وانتظار العقوبة، فإن البوطي لم يتردد لحظة واحدة قبل أن ينطق برأيه.

لقد قال رأيه وبدأ يحارب من أجله.

إنه يحارب من أجل عصمة الدم السوري.

ليس من أجل وظيفة.

ليس من أجل مركز.

ليس من أجل سلطة.

بل من أجل فكرة. مبدأ. رأي.

يقول د. سعيد رحمه الله: ومن هذا المنطلق أدعو لهذا البلد ومن هذا المنطق أدعو بالهداية للقائمين على شؤون هذا البلد، أنا لا أملك حقداً، أنا عندي حب، أنا عندي ود، أحب أن يرحم الله عباده جميعاً، أحب أن يهدي الله عباده جميعاً، هذا هو المبدأ الذي ننطلق منه.

1- موقع نسيم الشام مقال للدكتور محمود رمضان البوطي نشر في 26/11/2021

وعى د. البوطي مشكلة الأمة الإسلامية من الحكام والشعوب والتي تتلخص في البعد عن المنهج الإلهي، وفي تخليها عن دورها الاجتهادي الذي أفضى إلى التخلف العام على صعد عدة كالاستقلال الإداري والسياسي وبناء المجتمع على أسس من تكامل المؤسسات والنظم والأدوات .

دور البوطي كان يسير على منحيين خطابه للقيادة بالتوبة والجيش بالالتزام بما يرضي الله وخطابه للشعوب أن تفارق اي انفعال يستثمر من الخارج .

وكثيرا ما وجه نقده لهذين الطرفين.

لقد قرر مسبقاً أن الفساد والاستبداد ليسا هما السبب في قتامة المشهد وإنما هما نتيجة لتخلفنا نحن.

الدور الذي قام به البوطي في التقريب بين الحكام والشعوب هو دور علمي بحت كان يريد من خلال ذلك بناء جسور للتواصل وتغليب التفاهم على المواجهة..

أثار البوطي الكثير من الأفكار، والقيم والمفاهيم والنقاشات حول العناصر الأساسية للإصلاح:

- توبة الحكام.
- توبة الجيش
- استقامة الشعوب.
- الرجوع عن كل ما يضر بأمن وسلامة المواطن والوطن

ومن أجل فكرته تلك وقعت المعركة وكانت تدور بين طرفين غير متكافئين من البداية:

حرف ضد مال وزيف، قلم ضد سيف، عالم ضد مرتزق، مع أن المفروض أن الصراع يجري بين رأي ورأي حجة وحجة.

لم تكن هناك مجادلة. لم تكن هناك مناقشة كانت هناك فقط تفجيرات. والأسوأ من هذا أنها تفجيرات لم تتوقف عند الشيخ البوطي، بل فجرت أي قدسية للدين، ولرجالاته، وللحرية، وقدسيتها.

إن السلطة أصدرت حكمها على د. البوطي مسبقا بأنَّ عليه ألا يتجاوز الأطر التي سمحت بها وما أضيقها، ومازلت أذكر عندما قادتني مواقفي إلى جهاز أمني رهيب هو فرع فلسطين في دمشق وسمعت بأذني من المخابرات شتم البوطي.

النظام لم يكن يأمن للشيخ البوطي لأنه يعرف أن ثمة نقطة قادمة ستكون بينهما سبب القطيعة، وسوف يفترقان مهما كان الظاهر سلمياً بين الطرفين فالسلطة تعرف خلفية البوطي المعرفية، وبيئته ونظافة يده وترفعه عن المناصب.

وأنه لا يمكن أن يستدرج إلى شباك النفاق، وقد سمعت هذا الكلام من د. برهان غليون الذي قال لي: لقد درسني البوطي مادة التربية الإسلامية في حمص ولا أعتقد أن الرجل من أتباع السلطة.

والبوطي كان على دراية ببطش النظام وكان يسدد ويقارب ويحاول خلق مساحات من التنفس والراحة بين عموم الإسلاميين وبين السلطة، ونظراً لتلك العلاقة الحذرة بين البوطي والسلطة فقد طوقت السلطة البوطي بسور من العلاقة المريحة ظاهرياً لكنها المعادية له حقيقة وقد سمعت من الشيخ البوطي نفسه في زيارتي لبيته عام 2010 أن رأس السلطة يؤجل اللقاء به منذ أشهر طويلة.

السلطة كانت تحتفظ لنفسها بحق الحسم في النهاية لا تفكر، لا تقدر، إنها تذبح.. تستأصل.. تقتل.

سوف نشاهد مثقفين في كل مجتمع مستعدين للتصفيق للسلطة حتى وإن أدعوا أنهم يعارضونها.. طالما أن رأساً آخر هو الذي تحت السيف؟

وطالما أن الضوضاء سوف تثير الأضواء عليهم، وطالما أن المتفجرات يمكن أن تصنع منهم أبطالاً ولو على حساب المدنيين والأبرياء.

إن من أهداف الجريمة العاجلة والآجلة:

قتل شخص وإعدام الرأي الآخر ومصادرة رأي - لكن بعد هذا – هناك هدف آجل: إعدام الحرية التي شردنا في سبيلها وضرب الإسلام ورجالاته وتحميل الإسلام ما لا يحتمله.

ونترك أمر من نفذ قتل الشيخ للزمن الذي يحل الكثير من الألغاز ويغير الناس.

إن أي محكمة حينما تقرر إعدام مجرم - قتل مجرم - فإنها لا تقصد بذلك تصحيح الجريمة التي ارتكبها، وإنما تقصد - بالدرجة الأولى -أن تحذر الآخرين من سلوك طريق المجرم.

وهذا ما أهدف إليه، والله من وراء القصد

إن الخبرات التي توصل إليها أعضاء نقابة الدول المسيطرة ليست جديدة لكنها أكثر فعالية ونجاحا بفضل وسائل الإعلام التي تكاد تصل إلى منتهى طاقاتها.

إنه بحكم سيطرتها على ما أطلق عليه العالم الثالث، غنيمة الحرب العالميتين الأولى والثانية، تقوم بتفكيك المجتمعات وإحداث التغيرات، باتجاه هابط، وتغَيِّب الهيبات وتسْقِط المقامات بخبرات وأسس علمية مصدرها مختبرات علم النفس الاجتماعي.

عندما يحين موعد تغيير وتبديل في دولة ما أو أكثر ، يتم احتواء رأس السلطة واعتبارها حليفا وصديقا وتكَبَّل حركتها وتعَطَّل فعاليتها تجاه قضية مهمة للشعب والدولة، وتترك الفرصة لمجموعة أو أكثر تبني القضايا التي تهم الناس وترفع الشعارات التي تلهب مشاعر الجميع ، والجهة الرسمية جامدة لابل يظن أنها ضد مصالح شعبها ، علما أنها صعدت إلى السلطة من موقع نضالي سابق وبعد الوصول تثلَّجت وتجمَّد الدم في عروقها ، وهكذا تخسر هيبتها وتتحول عبئا على شعبها ، ثم تزاح من مواقعها ولا تجد لها من يهتف بالروح بالدم ..... ليفسح بالمجال للجماعة الصاعدة للدخول إلى الثلاجة تماما كما حصل لمن سبقها ويتم التحضير لمناضلين أخرين.

وبين كل حِل وترحال تنهب ثروات الشعوب وتدمر \حواضرها ويتناقص عددها إما إلى القبر أو إلى الخيام والمخيمات واللجوء، الرق بحلته الجديدة ، والسلامة على من لاتبتلعه مياه البحر المتوسط أومن يستضافون في أقبية السجون ومضاعفاتها.

هكذا يتحقق المثل الفرنسي :

الحجر الذي يتدحرج لاينبت عليه العشب.

الفصل الأول

المفتاح التاريخي

الطيور المهاجرة

النشأة والمنهج والرؤية

" ثلاث علامات من اجتمعن له كان من عظماء الرجال، وكان له حق في الخلود:

- فرط الإعجاب من محبيه ومريديه.
- فرط الحقد من حاسديه والمنكرين عليه.
- جوّ من الأسرار والألغاز يحيط به كأنه من خوارق الخلق الذين يحار فيهم الواصفون ويستكثرون قدرتهم على الآدمية، فيردون تلك القدرة تارة إلى الإعجاز الإلهي، وتارة إلى السحر والكهانة، وتارة إلى فلتات الطبيعة إن كانوا لا يؤمنون بما وراءها. "

عباس محمود العقاد، [1]

وهذه العلامات الثلاث مجتمعات للشيخ سعيد رمضان البوطي على نحو واضح في التاريخ السوري، لا يشركه فيه إلا قليل من الشخصيات؛ فهو في ضمان الخلود منذ أحبَّه مَن أحب، وكرهه من كره، وتحدث عنه من تحدث كأنه بعض الخوارق والأعاجيب.

1- الأعمال الكاملة، المجلد 15، تراجم وسير أبو العلاء، ط2، القاهرة دار الكتاب المصري، بيروت دار الكتاب اللبناني، 1991، ص 311، بتصرف.

▿ الأب والأصل

الملا [1] رمضان يعرفه أهل الشام بـ (الفقيه الشافعي العلامة التقي البرّ الورع) .

(الكردي الأصل من -بوطان- جزيرة من مواطن الأكراد) [2]ولد عام 1888.

▿ أمل في الحياة

رزق الملا بابن خاف عليه الفقد، ذلك أنه لم يعش للشيخ رمضان طفل، فما يرزق بمولود حتى يتخطفه الموت منه بعد حين.

وكان الوليد هو محمد سعيد بن رمضان بن عمر بن مراد البوطي وكان ذلك سنة (1929م - 1347هـ)، في قرية تقع على ضفاف نهر دجلة عند نقطة التلاقي بين حدود سورية والعراق وتركيا، وتدعى (جليكا) تابعة لجزيرة (بوطان) وهي داخلة في حدود تركيا على مرمى النظر من بلدة عين ديوار السورية[3].

خشي الوالدان على مولودهما الموت فالتمسا البركة والدعاء، عند رجل صالح.

أسرع الأب رحمه الله تعالى بابنه إلى أحد معلميه الشيخ (محمد سعيد) رحمه الله المشهور بلقب شيخ سيدا[4]، والذي كان يعتقد فيه الصلاح والتقوى، ليدعو ببقاء المولود والبركة فيه، وشاءت قدرة الله سبحانه وتعالى أن يعيش هذا الطفل حتى جاوز الثمانين من عمره[5].

1- أي العالم باللغة الكردية.

2- الوالد الداعية المربي الشيخ حسن حبنكة الميداني قصة عالم مجاهد حكيم شجاع ص132.

3- د. محمد سعيد رمضان البوطي، هذا والدي القصة الكاملة لحياة الشيخ ملا رمضان البوطي من ولادته إلى وفاته،ط 13، دمشق دار الفكر، 2011، ص13

4- كانت قرى جزيرة ابن عمر تفيض بالمدارس العلمية، وكانت تعج بطلاب العلم، وكان على رأس تلك المدارس وأولئك الطلاب علماء أعلام، خرجتهم تلك المدارس وأمثالها.

ثلاثة من الشيوخ الذين تلقى عليهم الشيخ رمضان الشيخ محمد سعيد سيدا، وكان مشهورا باسم: شيخ سيدا، ثانيهم سيد محمد الفنذكي، وكان الدكتور البوطي ينعته بالعلم والتواضع، وثالثهم الملا عبد السلام، وكانوا يدعوه دائماً بـ: سيداي ملا عبد السلام، أي أستاذي ملا عبد السلام. أنظر موقع نسيم الشام.

نسيم الشام › العارف بالله ملا رمضان البوطي – السيرة الذاتية (naseemalsham.com)

5- د. محمد سعيد رمضان البوطي، هذا والدي القصة الكاملة لحياة الشيخ ملا رمضان البوطي من ولادته إلى وفاته،ط 13، دمشق دار الفكر، 2011، ص 23، ود. البوطي، شخصيات استوقفتني، ط10، دمشق دار الفكر، 2017، ص 19.

▿ الاسم المختار

كانت رغبة الوالد - في البداية - أن يسمي وليده (محمد فضيل) تيمنا وتبركا ب فضيل بن عياض؛ الذي كان شديد الحبّ له والتأثر بحياته، وبالفعل سماه بذلك، ولكن وفي اليوم السابع من ولادته عَدَلَ عن ذلك وسماه (محمد سعيد) تلبية لرغبة الشيخ الذي حنّكه ودعا له، وطلب أن يكون هذا الطفل سَمِيّاً له[1].

▿ الطيور المهاجرة

يقول د. البوطي رحمه الله:

(بستان وحديقة صغيرة.. هذا ما أذكره، ولا أدري ما الذي كان يملك والدي من البيوت.

المهم أنه رحمه الله نفض يديه من ذلك كله وتركه لإخوته وأقاربه من بعده، وتجهز للرحيل سراً ، ولم يكن جهازه إلا ثماني ليرات ذهبية، إن صح حفظي ولم تخني الذاكرة.

كان على أبي أن يجتاز بأهله نهر دجلة إلى الحدود التركية السورية، في ظلام الليل خفية، إذ كانت الرقابة التركية ترصد وتراقب المتسللين خارج الحدود، لتحيلهم إلى الشنق مباشرة..

وكانت المغامرة مخيفة وخطيرة، واحتمال النجاح فيها ضئيلاً.

كانت الأسرة مؤلفة من أبوي، وابنهما الوحيد محمد سعيد، وأخته الكبرى زينب والصغيرة رقية. وكنت آنذاك قد دخلت الرابعة من عمري حسب ما أكده أبي رحمه الله

وها أنا أتصور الآن مشهداً بقيت منه في ذاكرتي خطوط تلوح لرسم مهترئ تقادم عليه العهد: نساء من قريباتنا يجلسن على شاطئ دجلة، بينهن امرأة تبكي بعويل يكاد يشق صدرها وقد علمت من بعدها أنها خالتي سينم رحمها الله، كانت تودع أختها الوداع الذي لا لقاء بعده، لتفارقها مع زوجها وصغارها إلى مصير لا تدري أهو الموت أم النجاة.

كما أستطيع أن أتصور رجالاً كانوا يقتربون إلى الشاطئ الذي اجتمعنا جالسين في طرفه، لوحا خشبيا كبيرا مربع الأبعاد، يطفو على وجه الماء، وأذكر كيف رأيته مؤلفا من عمدان متراصة ضم بعضها إلى بعض، ويسمونه باللغة الكردية (كلك) تنقل عليه البضائع والأشخاص،

1- د. البوطي، شخصيات استوقفتني، ط10، دمشق دار الفكر، 2017، ص 19..

لمسافات محددة، داخل نهر دجلة . وهكذا بدأت رحلتنا فوق ذلك الكلك الذي عبر بنا نهر دجلة، وفصلنا عن الأهل والأقربين والوطن، في ساعة ارتسمت مشاهدها في مخيلتي، ولكني لم أتبين آلامها المذيبة إلا فيما بعد)[1].

(لم أسمع من أبي شيئا عن كيفية اختراقنا، بعد ذلك، ساعة الخطر، واجتيازنا الحدود إلى الأراضي السورية بسلام، على الرغم من وعورة الطريق وشدة الخطر. ولكني أعلم أن الوقاية العظمى التي التجأ إليها بنفسه وأهله وأولاده، هي قرأنه وأوراده التي لم يكن يغفل عنها قط)[2].

هاجر الطفل مع أسرته الصغيرة المكونة من والده رمضان وأمه السيدة منجي وشقيقتيه رقية[3]وزينب[4] رحمهم الله في عام 1934م، أي بعد سنوات من معاهدة (لوزان) التي رسمت ملامح جديدة في الخارطة السياسية العالمية وفي نفسية الطفل المهاجر جراء الاضطهاد الذي حل في تلك الفترة.

اتجه سرب الطيور المهاجرة سيراً إلى (عين ديوار) من الأراضي السورية، على الضفة الأخرى من نهر دجلة وأقاموا فيها بضعة أيام ثم غادروا.

وعن تلك القرية يقول الدكتور البوطي:

(كانت ولادتنا (الرسمية) جميعا في تلك القرية، فقد سجلت أسماؤنا مواطنين سوريين، مولودين في قرية «عين ديوار» وأعْطِي أبي الوثائق التي واصل رحلته بموجبها على هذا الأساس وبهذا استقر المقام بالأسرة بعد ذلك بسفح جبل (قاسيون) بحي (الأكراد)؛ الذي يعرف الآن بحي ركن الدين)[5].

1- د. محمد سعيد رمضان البوطي، هذا والدي القصة الكاملة لحياة الشيخ ملا رمضان البوطي من ولادته إلى وفاته،ط 13، دمشق دار الفكر، 2011 ص 34.

2-د. محمد سعيد رمضان البوطي، هذا والدي القصة الكاملة لحياة الشيخ ملا رمضان البوطي من ولادته إلى وفاته،ط 13، دمشق دار الفكر، 2011 ص 34.

3- من مواليد 1931 وتوفيت في دمشق 1938

4- توفيت 1/10/1940.

5- د. محمد سعيد رمضان البوطي، هذا والدي القصة الكاملة لحياة الشيخ ملا رمضان البوطي من ولادته إلى وفاته،ط 13، دمشق دار الفكر، 2011 ص 35

(توفيت والدته في أواخر عام (1942م)، بعد مرض عانت منه سنوات عدة، وله من العمر ثلاثة عشر عاما، فتزوج والده من السيدة عاتكة من أسرة فاضلة تركية فكانت سببا في إلمامه باللغة التركية بالإضافة إلى الكردية والعربية).[1].

▿ هوامش على هذه المرحلة:

◉ الحالة القلبية للملا رمضان والسلوك المتزهد والذي يمكن وصفه بالمؤمن الصادق حيث كان يذكر أيام طلبه العلم، ورحلته إلى الشيوخ لأخذ العلم عنهم: (كان جل الطلبة يهتمون من علوم الشريعة بشقاشقها، وكان أكبر اهتمامهم التفاخر على الأقران في حلّ عقد المسائل وفك الألغاز المستعصية! .. غير أن اهتمامي كان منصرفاً بالإضافة إلى حفظ المتون المعتمدة ودراسة الكتب المقررة، إلى غير ذلك أيضاً..

كان جل اهتمامي منصرفاً إلى ترتيل القرآن وتجويد تلاوته، وكانت أمنية نفسي أن أحفظه غيبا وبدأت أحفظه فعلاً في سن مبكرة. وكنت أهتم من علم الفقه بعباداته وأحكامه التي تخصني في سلوكي، كانت تستهويني كتب التصوف، وكان كتاب إحياء علوم الدين للغزالي من أوائل الكتب التي اقتنيتها وعكفت على قراءتها، كنت شغوفاً بدراسة السيرة النبوية، وتنامت لدي الرغبة في الإكثار من نوافل الطاعات والعبادات. وكانت أمنية كبيرة لي أن أقتني ساعة، كي أستعين بها في القيام إلى صلاة الليل، ولما تحققت لي هذه الأمنية كان فرحي بذلك لا يعدله شيء)[2] !

◉ شارك الملا رمضان في الحرب العالمية الأولى عام 1914 وتطوع في الجيش النظامي وأدرك عمق الهوة بين القيادات والقيم، ليخلص إلى خيبة أمل مريرة، حيث(أيقن أن مصير الخلافة الإسلامية إلى زوال: ذلك لأن العناوين الكبيرة لم تكن يوماً لتشكل حصونا للأمة بدلاً من الاستقامة على الرشد والتحلي بمكارم الأخلاق) [3].

1-حدثني بذلك د. عبد الرحمن محمد سعيد رمضان البوطي وانظر موقع نسيم الشام.

2- د. محمد سعيد رمضان البوطي، هذا والدي القصة الكاملة لحياة الشيخ ملا رمضان البوطي من ولادته إلى وفاته،ط 13، دمشق دار الفكر، 2011 ص 18

3- د. محمد سعيد رمضان البوطي، هذا والدي القصة الكاملة لحياة الشيخ ملا رمضان البوطي من ولادته إلى وفاته،ط 13، دمشق دار الفكر، 2011 ص 22

◉ نتج من التسلط السياسي لدى الأب رؤية عامة لكيفية فهم الواقع السياسي ويمكن تلخيصها بـ:

✓ الاستمساك بالعلم.

✓ ضرورة مقاومة الغواشي السياسية بأسلوب الامتناع والنأي عن التوظيف المسيس.

✓ رفض الانطواء تحت أي راية سياسية تخالف قناعاته وهذا ظاهر هجرته من بلاده وفي رده على الضابط الذي منعه من الصلاة أثناء خدمة العسكرية في الحرب العالمية الأولى.

يصف الملا رمضان الضابط المسؤول عنه بأنه ضاق ذرعا بقيامه إلى الصلاة:

(وحاول أكثر من مرة أن يمنعني من القيام بهذا الركن الأساسي في الدين. مما اضطرني أن أقول له: إنني لست جنديا موظفا في معسكرك، إنني متطوع للقيام بواجبي الجهادي هذا، ومتحمل تكاليف ذلك، دون أي منة منكم، ابتغاء مرضاة الله عز وجل، فبأي حق تمنعني من أن أؤدي أوامر الله الذي لم أشترك معكم في المجيء إلى هذا المكان إلا لمرضاته؟![1])

وعن أخلاق كثير من الجنود والضباط، وقد وسمها بالابتعاد عن الاستقامة والانهماك في المعاصي، وربما الفواحش .. يقول: (وربما سألت أحدهم عن اسم رسوله المرسل من قبل الله إليه، فلا يعلم) [2]

◉ بعد معاينة الأسرة للخداع العالمي وللترحيب وللتواطؤ الدولي بالتغييرات الجذرية التي قادها وقام بها كمال أتاتورك منذ عزل السلطان عبد المجيد الثاني 1922 ثم إعلانه عام 1923 الجمهورية الحديثة ثم الاقتراع العام بإلغاء الحكم العثماني عام 1924 ثم انتخابه عام 1927 أول رئيس لتركيا وبقي حتى وفاته عام 1938 حيث غير في الجغرافية التاريخية والسياسية والفكرية ليس في تركيا فحسب، بل في العالم الإسلامي فقد قطع الصلة بالتاريخ ومسخ الهوية وأبدل القوانين بقوانين ليس لها أي صلة بقسمات المجتمع بعد تأمل الأب الملا في الملعب السياسي استوثق من فكرة الاستعصاء على الاحتواء من خلال مفارقة الجغرافيا الضاغطة والسياسة الناقمة.

1-د. محمد سعيد رمضان البوطي، هذا والدي القصة الكاملة لحياة الشيخ ملا رمضان البوطي من ولادته إلى وفاته،ط 13، دمشق دار الفكر، 2011، ص 22

2-د. محمد سعيد رمضان البوطي، هذا والدي القصة الكاملة لحياة الشيخ ملا رمضان البوطي من ولادته إلى وفاته،ط 13، دمشق دار الفكر، 2011، ص 22

◉ رفض الأسرة شيوع الجهل والأمية وسيادة العادات وميل الأب ملا رمضان إلى التعليم والتربية وسيلة أساسية لبناء الفرد ومقاومة الطغيان وهو ما جعل من الشيخ رمضان يتخير في تعليم ابنه الوحيد أفضل المعلمين وأعرق الأسر العلمية في مهجره الجديد بينما اعتنى ببناته وهما زينب وخديجة فقام بتعليمهن مع والدتهن.

◉ معاصرة الأسرة للانقلابات التاريخية العامة والخاصة والمنعطفات السياسية الحادة أيضاً بنيرانها ونيلهم نصيباً من الهجرة والتشرد أفضى كل ذلك إلى سلوك النفس الطويل والتأني مع الخارطة السياسية .

◉ حضور العلم والتربية في حياة الأسرة وذلك من خلال حرص الشيخ رمضان رحمه الله على التماس العلم والبركة من أستاذه الذي كان يحبه والذي سمى أيضاً الوليد باسمه المعتمد.

◉ التزام الشيخ رمضان بما طلب منه شيخه دلالة على الموثوقية بالمرجعية الدينية آنذاك ومكانة العلم في الأسرة وعلى عمق الجانب الروحي أيضاً.

الفصل الثاني

الأعمدة والتدابير

((كل المسلمين جماعتنا ونحن من جماعة كل المسلمين))[1]

الملا رمضان البوطي
رحمه الله

1- العبارة وردت على لسان حفيد د. البوطي، ينقلها عنه في فيديو بعنوان (من الولادة إلى الشهادة) حياة الإمام البوطي يلقيها حفيده عند الدقيقة 31 من الفيديو، وتجد هذه الحقيقة في كتاب هذا والدي تحت عنوان: رعاية وحدة المسلمين واجب مقدس، ص 133.

بدأ الشيخ رمضان رحمه الله وضع الأسس المعيارية في تمتين هوية الابن والحفاظ على الدين والقيم والمبادئ لطفله الوحيد فاختار الأعمدة واتخذ التدابير والتي تجلت في الجغرافيا والحاضنة.

◉ العمود الأول: العاصمة (البيئة الشامية وغناها المعرفي)

(أكد ملا رمضان لفلذة كبده عندما شب ونما وعيه بأن اختيار الشام لم يأت اعتباطاً، بل الدافع إليه ما ورد في فضل الشام عموما من أحاديث، قال صلى الله عليه وآله وسلم:

اللهم بارك لنا في شامنا وفي يمننا.[1]

إنَّ فسْطاطَ المسلمينَ يومَ المَلْحَمةِ بالغوطةِ. إلى جانبِ مدينةٍ يقال لها: دِمَشق، من خيرِ مدائنِ الشامِ.[2]

يقول د. البوطي رحمه الله تعالى :

(ولقد تجلت لي حقيقة تعلق أبي بالشام، وبدمشق منها بالذات، ومدى حبه لها. فيما بعد، يوم زاره ثلة من علماء هذه البلدة وشبابها، في أوائل الثمانينات، أثناء فتنة الإخوان، فقد قال له أحدهم : بلغنا أنكم تفكرون في الهجرة إلى المدينة المنورة . فأجابه قائلاً: إن تعلقي بالشام كتعلق الصخرة الراسخة في تخوم جبل، لا أتحرك عنها إلا اقتلاعاً)[3]

(ومن يدري، فلعل هذا ما جعل الشيخ البوطي رحمه الله يتفاعل مع أهل الشام فيما بعد وتحديدا بعد ثورة 2011 م[4] فلم يقبل الهجرة والمغريات والعروض وقبل أن يتحمل تبعات الموقف وكأنه واحد منهم، وهو كذلك. ويبادلونه أي أهل الشام الود بمثله وكأنهم أسرته الكبرى التي انصهرت بداخلها أسرته الصغرى دون أن تفقد خصوصيتها. وهم كذلك وأهل له.

1- رواه البخاري. صحيح البخاري 1037

2- رواه أبو داوود في سننه 4298 وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط

3- د. محمد سعيد رمضان البوطي، هذا والدي القصة الكاملة لحياة الشيخ ملا رمضان البوطي من ولادته إلى وفاته،ط 13، دمشق دار الفكر، 2011، ص 33

4- من إضافتي ثورة 2011

هيأت الشام المناخ الملائم لهذا الشاب الكردي الصاعد في قلب بلاد الشام لينجح في رصد الظواهر الإسلامية التي تطفو على سطح الساحة الإسلامية في بلد كبير ومؤثر ومحجوج إليه مثل سوريا، التي تختزل أرضها معظم الحركات الإسلامية إيجابية كانت أو سلبية، انعكاسا لما يجري في أنحاء العالم الإسلامي)[1].

(على أن حب الشام لم ينس الشيخ موطنه الأصلي الذي يرمز إلى أرضه وقوميته، وجنسه وعشيرته، لذلك وجدنا في تركيبة اسمه التي ختمت بكلمة البوطي دلالة على هذا كله، وفاء منه للقوم الذين انحدر منهم، وإليهم ينتسب، فالتصق ذكرهم به من خلالها التصاق الروح بالجسد فهل بعد هذا من دليل على شفافية روحه، التي أبت معها كرامته أن يغفلهم أو يتناساهم)[2].

1- مجموعة من المؤلفين، محمد محي الدين حمادة، شخصيات وأفكار، ط1، دمشق مركز الراية للتنمية الفكرية، 2004، ص 240
2-مجموعة من المؤلفين، محمد محي الدين حمادة، شخصيات وأفكار، ط1، دمشق مركز الراية للتنمية الفكرية، 2004، ص 242

◉ العمود الثاني: الملا صاحب الفقه والهمة والرؤية

"يارب: إذا عرفتك بأنواع المعرفة، وأثنيت عليك بأصناف الثناء، أنا وجميع خلقك إلى الأبد، فهو كقطرة صغيرة رميت في البحر المحيط. ومع ذلك فهذه النقطة ليست إلا منك، فيتسلسل الحمد، فآخره العجز عن حمدك، يا خالق الحمد والحامد واللفظ والمعنى والكلام. اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك النبي الأمي القرشي العربي، محمد المختار من بين الأنام، وعلى آله وصحبه المهاجرين والأنصار الكرام." ملا رمضان [1]

البيت: الأب والمعلم والعديل

ما إن بدأ وعي الولد يتشكل حتى عهد به والده وهو في السادسة من عمره إلى امرأة فاضلة كانت تعلم الأطفال قراءة القرآن فختم محمد سعيد تلاوة القرآن عندها خلال ستة أشهر، وقد احتفى والده بهذه المناسبة احتفاء شديدا، وأعطاها على إنجازها هذا أربع ليرات ذهبية.

والتحق بعد ذلك بمدرسة ابتدائية في منطقة (ساروجة)، تعنى بتعليم الدين ومبادئ اللغة العربية والرياضيات، غير أن تلقيه للعلم لم يقتصر على جهد المدرسة فقط، بل كان لوالده الدور الأبرز.

يقول د. البوطي:

(كان أبي بعد ذلك هو معلمي الأوحد.. علمني:

✓ أولا: **مبادئ العقيدة الإسلامية.**

✓ ثم علمني **موجزا من سيرة سيدنا رسول الله** ﷺ من خلال رسالة صغيرة اسمها: ذخيرة اللبيب في سيرة الحبيب.

✓ ثم أخذ **يعلمني مبادئ علوم الآلة** من نحو وصرف وسلّكني في طريق حفظ ألفية ابن مالك

1- د. محمد سعيد رمضان البوطي، هذا والدي القصة الكاملة لحياة الشيخ ملا رمضان البوطي من ولادته إلى وفاته،ط 13، دمشق دار الفكر، 2011، ص 80

في النحو، فكان يفسر لي كل يوم خمسة أو ستة أبيات منها، وكان علي أن أتقنها في بياض ذلك النهار، فأذكر أنني حفظت الألفية كلها في أقل من عام، ولم أكن قد ناهزت البلوغ بعد).[1]

يظهر أثر الوالد الكبير والإيجابي في تربية الابن وهذا أمر واضح يعرفه العامة والخاصة وهو ما ترك بصمات عميقة على فكره.

يقول د. البوطي: (ولكم استيقظت على صوت بكائه وحديث نجواه.. ولكم سمعته في أوقات السحر وما قبلها يتحدث عن الموت وما بعد الموت وما هو مقبل عليه).[2]

(ثم إن صلاته لم تكن كصلاة أحدنا، تلاوة باللسان، وحركات مألوفة بالجذع والأعضاء، مع قلب منصرف إلى الدنيا وشؤونها، محجوب عن كل ما يتلوه بين يدي الله وانساق في ذلك جسمه ومظهره وراء أحاسيسه ومشاعره المنصرفة إلى مناجاة الله عز وجل ... ولكم انتابته وهو في الصلاة أحوال) [3].

(ولما كان المؤمنون العارفون بالله أصحاب نفوس تواقة لمشاركة من يحيط بهم سعادة مناجاة الله ليل نهار، فمن الطبيعي الذي لا مسلك لسواه أن يكون ملا رمضان أكثر حرصا وشغفا لتذوق ولده الغالي معاني العبودية الخالصة لله رب العالمين، واستقباله الواردات الإلهية بصدر مفتوح لا حجاب عليه، وتدرجه معها في سبيل تتروض فيها نفسه على ذكر الله تعالى، وتلين لطاعته دون كسل أو ملل، ليستمد العون على تذليل أهواله وشهواته تحت سلطان الضوابط الشرعية)[4].

الوقائع الشاهدة تقول:

✓(إن الشيخ الأب رمضان ما كان يفوت فرصة تعرض له إلا ويغتنمها في تذكير أسرته بسطوة الله عليهم، أو برحمته بهم، أو بإنعامه لهم.

1- د. محمد سعيد رمضان البوطي، هذا والدي القصة الكاملة لحياة الشيخ ملا رمضان البوطي من ولادته إلى وفاته،ط 13، دمشق دار الفكر، 2011 ص 56

2- د. محمد سعيد رمضان البوطي، هذا والدي القصة الكاملة لحياة الشيخ ملا رمضان البوطي من ولادته إلى وفاته،ط 13، دمشق دار الفكر، 2011، ص 70

3- د. محمد سعيد رمضان البوطي، هذا والدي القصة الكاملة لحياة الشيخ ملا رمضان البوطي من ولادته إلى وفاته،ط 13، دمشق دار الفكر، 2011، ص 71

4- مجموعة من المؤلفين، محمد محي الدين حمادة، شخصيات وأفكار، ط1، دمشق مركز الراية للتنمية الفكرية، 2004، ص 243

✓ لم يكن يوماً واحداً من الذين يقولون ما لا يفعلون فسيرته خير دليل على بناء القواعد الفكرية والخلقية لأولاده وأحفاده الذين أخذوا يشاركونه أذكاره وأوراده بصورة دائمة في زمن مضروب لهم جميعا يجتمعون فيه على اختلاف أعمارهم وأجناسهم بعد صلاة الفجر صباحي الاثنين والخميس، بهدف أن يعمر قلوبهم الشوق إلى الله، والرهبة من عظمته).[1]

وقبل أن يضع الشيخ رمضان ابنه في الدراسة الرسمية الشرعية أخذ على ولده العهد الذي التزم به الدكتور البوطي إلى أن لقي ربه.

(اعلم يا بني أنني لو عرفت أن الطريق الموصل إلى الله يكمن في كسح[2] القمامة من الطرق لجعلت منك زبالاً، ولكني نظرت فوجدت أن الطريق الموصل إلى الله هو العلم به وبدينه، فمن أجل ذلك قررت أن أسلك بك هذا الطريق)[3].

يقول د. البوطي:(ثم شدد علي وأكد كثيراً ألا أجعل قصدي من دراسة هذا العلم أي شهادة أو وظيفة... وأخذ علي ما يشبه العهد أن أقتنع بأي رزق يسوقه الله إلي وبأي عمل كريم يقيمني الله فيه). [4]

(ومنذ ذلك اليوم انقطعت عن الدار، وأصبحت طالباً داخلياً في معهد التوجيه الإسلامي، وكنت أتردد على الدار لرؤية والدي أيام الثلاثاء فقط من كل أسبوع، أبقى عنده بياض ذلك النهار، حتى إذا أقبل المساء استأذنته عائداً على منجك.

وفي أيام الثلاثاء كنت أتلقى على والدي مزيداً من الدروس.. تلقيت عليه دروسا في النحو وفي البلاغة، وقد حفظت على يديه عقود الجمان للسيوطي، كما درست عليه كتبا في المنطق، والمقولات العشر، ودرست عليه شرح جمع الجوامع في الأصول).[5]

وفي تلك الفترة تقدم للخطابة وصعد المنبر، ولم يكن قد تجاوز بعد السابع عشرة من عمره، وذلك في أحد مساجد الميدان القريبة من جامع منجك.

1- مجموعة من المؤلفين، محمد محي الدين حمادة، شخصيات وأفكار، ط1، دمشق مركز الراية للتنمية الفكرية، 2004 ، ص243

2- الكَسْح: الكنس، لسان العرب لابن منظور، مادة (كسح)،571/2

3- د. محمد سعيد رمضان البوطي، هذا والدي القصة الكاملة لحياة الشيخ ملا رمضان البوطي من ولادته إلى وفاته،ط 13،دمشق دار الفكر، 2011، ص 95.

4- د. محمد سعيد رمضان البوطي، هذا والدي القصة الكاملة لحياة الشيخ ملا رمضان البوطي من ولادته إلى وفاته،ط 13،دمشق دار الفكر، 2011، ص 95.

5- أنظر نسيم الشام

رغبه بعض أساتذته في حفظ القرآن الكريم وشجعوه على ذلك، وبالفعل فقد استجاب وبدأ بالحفظ، ولكن والده رحمه الله على الرغم من أنه بيّن له عظيم الأجر الذي ينتظر حافظ القرآن، فقد حذره من الوزر والإثم اللذين يلحقان بمن يحفظ القرآن الكريم ثم لا يطبقه.

كان من المكثرين لتلاوة القرآن، حتى إنه كان يختم في كل ثلاثة أيام ختمة، فكان من نتيجة إكثاره لتلاوة القرآن الكريم حفظه للعديد من السور مع استحضاره لجل السور ومواضع الآيات فيها، من دون أن يقوم بأي جهدٍ للقيام بحفظ شيء منها على الطريقة التقليدية التي يتبعها من يريد أن يحفظ شيئاً من القرآن الكريم.

وقد ظل الابن الشيخ سعيد وفياً لقناعة أسرته بالعلم ولعهده الأول حيث سمعت منه وقد اغرورقت عيناه بالدموع: (اجعلوا من العلم سلما إلى لوعة الفؤاد اجعلوا من العلم سلما إلى محبة الخالق ولا تجعلوا من العلم أداة للجدل والنقاش والحديث والخصام، فهذا لا يفيد، هذا ربمايكون حجابا للعبد عن الله سبحانه وتعالى)[1]

ومن باب الوفاء لوالده صدر الشيخ البوطي دراسته التي منح بها الدكتوراة عام 1965 في أصول الفقه والتي كانت بعنوان ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية وقد حاز بهذا البحث مرتبة الشرف الأولى مع التوصية بالطبع والتبادل مع الجامعات المختلفة بالإهداء المعترف بالفضل وهذا جزء منه (إلى من ربَّاني والدا، وعلمني أستاذا، وهذبني مرشدا، وأخذ بيدي خلال ذلك إلى سبيل التوفيق في جميع الأعمال والدي).[2]

1- سمعت ذلك في الشهر الرابع من عام 2003م في جامع التوبة في دمشق، أثناء ترجمته العلامة الراحل شيخه الشيخ حسن حبنكة الميداني ووثق ذلك الشيخ محمد محيي الدين حمادة في كتاب شخصيات وأفكار ص 245

2- د. البوطي، ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية، ط 2، 1973، مؤسسة الرسالة ص3.

مآخذ وأوهام على تربية الأب لابنه:

▼ الساكن في جلباب أبيه

من المؤسف حقاً أن يعد بعض الكتاب الذين يسيسون قراءتهم لعلاقة الأب بابنه ويرون أنها علاقة إشكالية، و أن طاعة الولد لوالده (كالساكن في جلباب أبيه وأنها علاقة هيمنة أبوية مشيخية تتجاوز حدود البر)[1]

(من غير الطبيعي أن يبلغ الدكتور سعيد من العمر مبلغه ويبقى رهين أبيه في كثير من مواقفه وتصوراته وقراراته، لا على وجه الاستشارة، بل على وجه الإلزام والتكليف بالأمر حينا والإيعاز حيناً، والإحراج حيناً آخر. إن معرفة مواقف وقناعات الملا رمضان وكيفية تعامله مع ابنه سعيد حتى سنوات عمره الأخير ينبيك عن حالة هيمنة أبوية مشيخية تتجاوز حدود البر) [2]

ويسوق الكاتب موسى نماذج لذلك الوهم المغلوط المبني على الحدس والتخمين وأيضاً التسييس في القراءة ويمكن تلخيصها بالنقاط الآتية:

يصف أ. محمد خير موسى علاقة الابن بأبيه بأنها تتجاوز البر [3] كما ذكرت قبل قليل ويضع شاهدا على ما يحاول إيهام القراء به زواج الشيخ سعيد من أخت زوج أبيه ودعونا نتوقف عند قصة الزواج بعيداً عن التجريف والتحريف..

1-أ. محمد خير موسى، البوطي شخصيته ومواقفه، ط1، اسطنبول مكتبة الأسرة العربية 2023، ص 19
2-أ. محمد خير موسى، البوطي شخصيته ومواقفه، ط1، اسطنبول مكتبة الأسرة العربية 2023، ص19
3- أ. محمد خير موسى، البوطي شخصيته ومواقفه، ط1، اسطنبول مكتبة الأسرة العربية 2023، ص 19

⁉

الوهم الأول: الزواج

▼ **علاقة جديدة بين الابن و أبيه ومرحلة المسؤولية الزوجية..**

تزوج الشيخ في الثامنة عشر من عمره بفتاة تكبره بثلاثة عشر عاماً، وكان ذلك انقياداً لرغبة والده الذي أصر على أن يزوج ابنه الوحيد، ولم يكن للدكتور البوطي رغبة - في ذلك الوقت - بالزواج، واستعفى والده، وأكد له عدم رغبته فيه، ولكن إصرار والده جعله يَقْبَل بالزواج انصياعاً له، وتلبية لأمره وشرح الله صدر الدكتور البوطي، وأثلج فؤاده، وأشعره بسعادة هذا الزواج لما بشره والده بتلك الرؤيا[1].

يروي د. سعيد قصة ذلك «طرق (والدي) باب غرفتي ذات صباح، وأنا نائم بعد رجوعه من صلاة الصبح في المسجد، وكان ذلك بعد زواجي بأسبوعين تقريباً، وراح يناديني بصوت مرتفع قائلاً: أنت لا تزال نائماً، والبشائر التي جاءتك تستوجب أن تقطع الليل كله ساجداً لله، واستيقظت على صياحه، وخرجت أسأله عن البشائر التي يعنيها، فقال: رأيت الليلة في الرؤيا رسول الله مقبلاً ومعه ثلة من الرجال، علمت أنهم من أصحابه، وقال لي جئنا لنهئ سعيداً بزواجه![2]

كانت هذه البشارة أول ما أشعرني بسعادة ذلك الزواج، ثم تلا ذلك الخير الكبير الذي أكرمني الله به واليمن الوفير إلى هذا اليوم [3]

صار الابن زوجاً وعديلاً لوالده بعد أن أتم الدراسة في معهد التوجيه الإسلامي..

وفي التزام الابن بمن اختارها الأب زوجة له تتجلى حقائق:

▹ كان أمراً طبيعياً، وعرفاً مقبولاً في ذلك الزمن حيث يبحث الأب عن الزوجة المناسبة لابنه.

▹ من الممكن تفسير سلوك الملا رمضان بأنه مزيد من الإسراع في توطين ابنه في البلد الذي هاجر إليه وهذا أنجع بعد فقد الابن لوالدته.

1- عبد الغفار عبد الرؤوف حسن عبد الرؤوف، القضايا الاجتماعية في فكر الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ط1، دمشق دار الفكر، 2017، ص63

2- د. محمد سعيد رمضان البوطي، هذا والدي القصة الكاملة لحياة الشيخ ملا رمضان البوطي من ولادته إلى وفاته،ط 13، دمشق دار الفكر، 2011، ص 62

3- د. محمد سعيد رمضان البوطي، هذا والدي القصة الكاملة لحياة الشيخ ملا رمضان البوطي من ولادته إلى وفاته،ط 13، دمشق دار الفكر، 2011، ص 62

▹ لم يكن تزويج الابن بشقيقة زوجة والده إلا من باب من تعرفه خير ممن لا تعرفه.

▹ لا يدل قبول الابن اختيار أبيه على ضعف الشخصية أو سيطرة الأب، بل يتجلى الجو الحواري الأسري في رفض الابن ابتداءاً اختيار أبيه ثم الموافقة.

▹ لا يدل طاعة الابن لأبيه على ضعف شخصية الابن ولا على تسلط الأب.

▹ هذا الحدث كان من الشائع اجتماعياً بين جميع الأسر فما بالك في أسرة علمية والأب مثل الملا؟

▹ ماذا يضر أن يكون الأبن مثالياً في طاعة والده حتى في الأمور الخصوصية؟

▹ أليس في التخفف من فكرة بر الوالد وتوصيفها بالهيمنة مضارعة لنظام التتفيه الذي يرفع أي تبجيل أ وتقدير أو طاعة للوالدين حتى بات يشاع إعلامياً وفي البرامج والمسلسلات الفنية أن ينادي الابن والده باسمه في تحريض على الاستهانة بالأبوين ورفع أي كلفة بين الأولاد وأبويهم..

▹ وأخيراً يكذب حدس المؤلف أ. محمد خير موسى ما قاله الشيخ المتزوج محمد سعيد : (وتزوجت.. وكان لي في ذلك الخير الكبير والحصن المنيع)[1].

⁉

الوهم الثاني :موقفه من التصوف

(نجد الابن محمد سعيد لا يخرج عن رأي والده في موقفه من التصوف فالملا رمضان صوفي حتى النخاع غير أنه لا يجب الانتماء للطرق الصوفية، وله منها موقف هو ذاته الموقف الذي تبناه الابن بأدق تفاصيله) [2].

لا تعليق على هذا الكلام غير المفهوم فموقف الملا رمضان وابنه الدكتور محمد سعيد هو الموقف العلمي الدقيق لعلماء الإسلام وأهل الشام.

1- د. محمد سعيد رمضان البوطي، هذا والدي القصة الكاملة لحياة الشيخ ملا رمضان البوطي من ولادته إلى وفاته،ط 13، دمشق دار الفكر، 2011، ص 62

2- أ. محمد خير موسى، البوطي شخصيته ومواقفه، ط1، اسطنبول مكتبة الأسرة العربية 2023، ص20

ولذلك لما كان يلتقي الملا أو ابنه الشيخ سعيد رحمهما الله تعالى بأي طالب علم ويسألهما عن إجازة في الطريقة يكون الرد:

(طريقتك استقامتك على شرع الله).[1]

في تلميح خفي إلى أن الغاية من التصوف الالتزام بالدين وليس الحرص على تقاليد وصور التصوف وطرقه..

⁉

الوهم الثالث: الانتماء للتيارات والحركات الإسلامية

(الابن يمتثل أمر أبيه في أن يبتعد ابتعاداً تاماً عن الانتماء لأية جماعة أو حركة إسلامية، بل يلاحق أبناءه وأحفاده حتى لا يتورط أحد منهم في مخالفة قرار والده ملا رمضان، ويفتش في أدراجهم وأوراقهم الخاصة ممتثلاً لأوامر والده ملّا رمضان)[2].

وهذا الموقف للشيخ رمضان ولابنه الشيخ سعيد هو موقف غالب علماء أهل دمشق، والتزام الابن ليس إلزامياً بمقدار ما هو توافقي أقره الابن.

كان بإمكان الطفل سعيد بعد أن اشتد عوده رفض ذلك، ولكنه رأى أن التدين المسيس يحمل إشكاليات عميقة تفضي إلى وأده.[3]

⁉

الوهم الرابع: العمل الوظيفي

كذلك في العمل الوظيفي كان الابن محمد سعيد رافضاً رفضاً مطلقاً مبدأ الوظيفة الحكومية امتثالاً لأوامر أبيه ثمّ قبلها امتثالاً للأمر الجديد دون أن يعلم أو يسال عن سبب تغيّر الموقف فهو يمتثل للأمر الآتي من أبيه دون جدال.[4]

وهذا التخمين ليس له أي قوام علمي أو حتى أخلاقي فإن أهل العلم كلهم يكرهون الاسترزاق بالدين والتوظيف الرسمي وهذا لا يحتاج إلى تعليل فمن أكل من مال السلطان

1- ذكر ذلك د. عبد الرحمن محمد سعيد رمضان البوطي.

2- أ. محمد خير موسى، البوطي شخصيته ومواقفه، ط1، اسطنبول مكتبة الأسرة العربية 2023، ص20

3- سنشير لاحقاً إلى علاقاته بالحركات والأنشطة الإسلامية.

4- أ. محمد خير موسى، البوطي شخصيته ومواقفه، ط1، اسطنبول مكتبة الأسرة العربية 2023، ص21

فلا بد أن يضرب بسيفه والملا كان يريد لابنه أن يعيش بكرامة كما عاش هو وألا يحول الدين إلى دكان وهذا سر الرفض للتوظيف أما القبول فيعود لتيقن الأب من استحكام استقلالية شخصية ابنه وكفى.

⁉

الوهم الخامس: العلاقة بالحكم والسلطات السياسية

فقد كان والده يوجهه ويرسم! له الخطوط العامة وربما بعض التفصيلات؛ فالدكتور سعيد يذكر بعد أن قدم بياناً مرئياً عن مجزرة مدرسة المدفعية في حلب يقول:

« ولما وقعت مجزرة مدرسة المدفعية بحلب، واتصل بي مسؤولون من وزارة الإعلام يرغبون إلى أن أعلن عن حكم الشريعة الإسلامية في ذلك؛ استشرت أبي فيما طلب إلي؟ فأمرني بالاستجابة»[1].

إن معرفة كون الدكتور البوطي كان غائباً في جلباب أبيه وذائباً في شخصيته إلى أن فارق الشيخ ملّا الحياة عن مئة وأربع سنين مهم في فهم أحد جوانب تركيبة شخصية البوطي وجذور هذه التركيبة التي كان لها دور حقيقي في كثير من المواقف والتصرفات

ولكن هذا لا يعني على الإطلاق أنّه التفسير الوحيد لمواقف البوطي الفكرية والسياسية فهذه المواقف تحتاج إلى تفصيل واسع في ودوافعها وظروفها[2].

وهكذا نرى جملة من الظنون تسوق على أنها محاولة لفهم نفسية الشيخ البوطي رحمه الله وليت شعري هل استقامت نفسية الباحث قبل أن يبحث في نفوس الآخرين؟

ليتأسس بناء على ذلك فهم آخر غريب حيث يقول أ. موسى:

(هذه الهيمنة الأبوية والسلطة المشيخية انطبعت في سلوك الدكتور محمد سعيد مع من يتعامل معهم في اتجاهين اثنين:

الاتجاه الأول الخضوع للأبوية: وذلك مع أصحاب السلطات إذ كان يخضع للسلطات الأقوى لا سيما السياسية التي تمارس الأبوية السياسية والأمنية، فالحكام يعرفون مصالحنا أكثر منا والحكومة أبعد نظرا وأعمق بصيرة.

1-أ. محمد خير موسى، البوطي شخصيته ومواقفه، ط1، اسطنبول مكتبة الأسرة العربية 2023، ص21
2- أ. محمد خير موسى، البوطي شخصيته ومواقفه، ط1، اسطنبول مكتبة الأسرة العربية 2023، ص23

والاتجاه الثاني هو الإخضاع للأبوية: وذلك مع من يرى له وصاية عليهم سواء في ذلك أسرته أو طلابه أو روّاد مسجده، بل كان يمارس هذه الأبوية على قرائه فتكاد تجد هذا النفس في الكثير من المواضع في كتبه ومؤلفاته) [1].

لم يجبر الشيخ البوطي أولاده على أي موقف أو طريقة أو حتى دراسة بعينها ولم يلزم أولاده بالسكنى معه، ولم يفرض أي رأي على أحد منهم وحسبه أن يبين لهم الطريق، ومن ثم يترك لهم حرية الاختيار، وحق المناقشة والاعتراض حتى وإن لم يقتنعوا برأيه ولم يتفقوا على رأي واحد، وهو ما حدثني عنه د. عبد الرحمن البوطي[2]. وعندما سألته عن هيمنة والده عليهم وجدت منه بسمة وتبرما واستصغارا لهذا الكلام الملفق حسب تعبيره، وقد قال لي حرفياً:

(لم نطلب من أحد أن يكون محامياً عنا بيننا وبين والدنا رحمه الله تعالى، ومازلنا نذكر محاسن تربيته وتوجيهه .

و مع تقديرنا لكل وجهة في قراءة موقف الإمام البوطي سياسيا إلا أننا نرى من الكذب الصريح نسج قصة كل هدفها كتابة أكاذيب مسيسة تتقنع بالحقيقة وتستبطن الغواية والهوى والذهن الشللي).

ويدحض هذا الكلام أن الدكتور البوطي لم يكن يوماً من الأيام جزءاً من وعاظ السلاطين ولم يقل:

إن الحكام يعرفون مصالحنا أكثر منا والحكومة أبعد نظراً وأعمق بصيرة. بل طالب الحكام بالتوبة والصلاح والإصلاح ولم يميزهم عن الشعب، بل وفي أحلك الظروف وعبر خطبه خاطب السوريين حكاما ومحكومين فقال:

(سأدعو قادة الأمة وأدعو أفراد هذا الجيش المقدام وأدعو كافة المسؤولين إلى أن يتوبوا إلى الله، إلى أن يعتصموا بشرع الله، بهذا أرحل إلى الله، هذا هو رأس مالي إذا قام الناس لرب العالمين، ليس لي عمل صالح هام أتقدم به وأرفع الرأس به بين يدي الله).[3]

1- أ. محمد خير موسى، البوطي شخصيته ومواقفه، ط1، اسطنبول مكتبة الأسرة العربية 2023، ص23

2-من مكالمة هاتفية 2023/2/21

3-موقع نسيم الشام يفرح الله بتوبة عباده .. وفي عباده من يسوئهم ذلك، تاريخ الخطبة الجمعة، 14 صفر، 1434 الموافق 2012/12/28 نسيم الشام ، A MARTYR SCHOLAR: IMAM MUHAMMAD SAEED RAMADAN AL-BOUTI - الخطب - يفرح الله بتوبة عباده .. وفي عباده من يسوئهم ذلك (naseemalsham.com)

(نحن مكلفون قادة وجيشاً وشعباً أن نكون في خندق واحد وأن تكون لخلقِنَا الإنسانية سدى ولحمة واحدة متصلة وأن يكون أساس ذلك كله الانضباط بأوامر الله والانتهاء عما نهى الله والتوبة نكررها ونعيدها في كل صباح ومساء)[1]

وخير ما نختم به هذا الموضع وصايا الملا رمضان لابنه:

« حاصل الكلام أيها الولد أنني أوصيك باتباع الكتاب وسنة النبي صلى الله عليه وسلم في جميع حركاتك وسكناتك، وترك ابتداع عوام الزمان، فإن البدعة شرك الشرك. فحذار أن تتعلم أو تعمل إلا بنية خالصة ...».

« زكِّ نفسك من الرذائل والأمراض القلبية، كالغضب والحقد والحسد والعجب والرياء والفخر والحرص على الدنيا والطمع والبخل وحب الجاه. لأن من الفروض العينية معرفتها ومعرفة أسبابها وعلاجها»

« يا أيها الولد عليك بالرياضات والدعاء من الله بالتوفيق، ولا تلتفت إلى ثقل الأمر على نفسك. فإن غالب الفواكه قبل الإدراك طعمها حامض أو مر ثم يدرك.

« إياك وحب الجاه وهو سعي الإنسان إلى أن يكون معظماً في القلوب وعلاجه بأن تعلم أن إرضاء قلوب الناس عن نفسك لا ينفعك لأنه غير باق. ألا تنظر إلى فرعون كيف عظموه حتى عبدوه ثم إلى ماذا صار وصاروا؟

« يا أيها الولد: إن أردت سلوك الطريق ولا تكون لإبليس هدفاً، فعليك بتزكية القلب من الآثام، وتقليل الكلام ما استطعت لاسيما في الغيبة والنميمة، حيث يصعب الاحتراز عنهما في هذا الزمان بل صارتا فاكهة المجالس والضيفان كلما اجتمعوا اشتغلوا بعيب غائب أو بنقل كلامه إلى الغير على وجه الإفساد وقد قال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (القصص/٨٣).

1- انظر موقع نسيم الشام أيهما أسوأ المبالغة في حب رسول الله أم المبالغة في العصبية للذات تاريخ الخطبة الجمعة، 07 صفر، 1434 الموافق 2012/12/21 الرابط نسيم الشام › A MARTYR SCHOLAR: IMAM MUHAMMAD SAEED RAMADAN AL-BOUTI – الخطب – أيهما أسوأ المبالغة في حب رسول الله أم المبالغة في العصبية للذات (nasee-malsham.com)

↫ أحثك على أن لا تعلق قلبك بغير الله، إلا أن يكون رسولاً له أو نبياً أو ولياً، بل كن محباً لله لا غير، إلا حب من يقربك حبه إلى الله عز وجل»

«ثم كن ما استطعت خائفا من الله تعالى، فإنك لا تدري على أي النهايتين يختم عمرك».

ثم لا يكفي في حبك مجرد الطاعة، كما قد تتوهم مما قلناه آنفاً، بل يلزمك أن تحبه حباً شديداً حتى لا ينفك القلب عن مراقبته وملاحظته وشهوده حباً ذاتياً». ثم كن حارساً على باب قلبك، كي لا يدخله، شيء آخر ثم كن ذاكراً بقلبك ولسانك لله ذكرا كثيرا» .

لا تزل كذلك وكما أوصيتك، إلى أن تموت، فإن الله كريم لا يخيب السائلين[1]

◉ **العمود الثالث: الحاضنة المعرفية الخاصة**

حسن حبنكة المصلح الصالح والحكيم الشجاع المتأني

بعد انقضاء المرحلة الابتدائية عَهِدَ الشيخ رمضان ولده محمد سعيد إلى الشيخ حسن حبنكة الميداني رحمهم الله جميعاً ليلتحق بجامع (منجك)؛ الذي عرف بعد ذلك ب (معهد التوجيه الإسلامي)؛ والذي كان شيخا لهذا المعهد.

يقول د. البوطي:

(كنت أشترك مع الطلبة الكبار في الجلوس إلى دروسهم التي يتلقونها من الشيخ حسن حبنكة دون أن أعي منهم إلا النزر القليل، ولكني تبينت بعد ذلك أن حضوري كان مفيداً)[2].

وفي عام (1953م) أتم دراسته بهذا المعهد (معهد التوجيه الإسلامي)؛ الذي كان قد تحول حينئذ إلى معهد شرعي نظامي، وبذلك قضى ست سنوات في جامع (منجك) عند الشيخ حسن حبنكة، وكانت تلك السنوات حجر الأساس في حياته العلمية» [3]

يقول نجل العلامة حسن حبنكة الميداني أ.د. عبد الرحمن رحمهما الله:

1- د. محمد سعيد رمضان البوطي، هذا والدي القصة الكاملة لحياة الشيخ ملا رمضان البوطي من ولادته إلى وفاته،ط 13، دمشق دار الفكر، 2011، ص 188 -193

2- موقع نسيم الشام، العلّامة الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي - السيرة الذاتية (naseemalsham.com)

3- د. محمد سعيد رمضان البوطي، هذا والدي القصة الكاملة لحياة الشيخ ملا رمضان البوطي من ولادته إلى وفاته،ط 13، دمشق دار الفكر، 2011، ص 62

(بدأ محمد سعيد دراسة العلوم العربية والإسلامية على والده صغيراً، وأخذ عنه الأدب والخلق والدين ومبادئ العلم، ثم قدم به والده إلى مدرسة الوالد الإمام، فانتظم فيها، وكان ذلك حين بدأت المدرسة تتطور إلى مدرسة شبه نظامية ذات فصول دراسية متدرجة. وبالنظر إلى أن (محمد سعيد) قد كانت له دراسة سابقة على والده، رأى مدير المدرسة المباشر عمي الشيخ صادق ترتيبه في الصف الأعلى من نظرائه ممن لهم سابق دراسة.

نبغ (محمد سعيد) في الدراسة، وتفوق سريعاً علماً وأدباً، وبدا يومئذ أنه موهوب قلم ممتاز، وكانت طلائعه تبشر بمستقبل باهر، إذ كانت موضوعاته الإنشائية أحسن الموضوعات التي يكتبها سائر زملائه، إذ كنت أجد فيها حسن صياغة، بأسلوب ممتاز، وأفكار مرتبة تسرّ القارئ، مع خط جميل.

أكمل الشيخ محمد سعيد دراسته في معهد التوجيه الإسلامي بتفوق)[1].

يظهر أثر الشيخ حسن حبنكة في شخصية د. البوطي رحمهما الله تعالى جليا، ووفاء الشيخ البوطي له رغم تقادم الزمن في كثير من كتاباته ومواقفه واستشهاداته:

حيث يمكن وصف الشيخ حسن حبنكة بأنه رجل المثابرة وصاحب الحضور الأخاذ والقيادة الملهمة وهو صاحب النهضة العلمية في دمشق رحمه الله تعالى.

شارك في إهداء أعلى شهادة علمية نالها التلميذ محمد سعيد هي الدكتوراة حيث شارك الإهداء مع والده الشيخ رمضان الشيخ حسن حبنكة (إلى من منحني من علمه وفضله وتوجيهه، وبصرني بدروب الحياة وأنار أمامي معالم الطريق المربي الكبير الشيخ حسن حبنكة الميداني أستاذي) [2]

(إن الشيخ رحمه الله كان قد أوتي - إلى جانب انكبابه على العلم وشغفه بالدعوة إلى الله - فراسة، ثاقبة وحكمة دقيقة، وبراعة نادرة في معالجة الأمور والمشكلات، وتقديراً، قل أن يخطئ العواقب الأمور ونتائج الأحداث كل ذلك مع جرأة في الحق تستعلي على جميع المخاوف والأخطار.

1- الوالد الداعية المربي الشيخ حسن حبنكة الميداني قصة عالم مجاهد حكيم شجاع، ط1،الناشر المؤلف،2002،ص132

2- د. البوطي، ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية، ط 2، 1973، مؤسسة الرسالة ص3.

ولقد شهد من مناورات أولي الأمر الذين تعاقبوا على سدة الحكم خلال جيل من الزمن، ألوانا وأصنافا، فما خدع منها بلون، ولا غره منها ظاهر.

ولقد جاء من لوح له فيما بعد بسلاح القهر وخطر القتل، فما طاش له من ذلك رأي، ولا ذلت له قناة وواصل جهره بالحق وتنديده بالمنكر وأهله ملتزماً في ذلك خطه الذي لا عوج فيه حكمة بالغة في التعبير والبيان، وجرأة نادرة في التحذير من الباطل والتنديد بالمبطلين.

ثم رأت دوائر الكفر والطغيان، ذات الهوية المادية الملحدة، أن بقاء الشيخ بفكره المتدبر الثاقب، ولسانه القوي الصارم يحول دون سعيها الناجح إلى خنق الإسلام وأهله، ويصدّها عما ألزمت نفسها به من القضاء على فكرة الإيمان بالله، وما عزمت عليه من تحنيط الإله والزج به في المتاحف فأوعزت إلى أجرائها أن ينفذوا التهديد ويحققوا الوعيد، وأن يخنقوا صيحة الإسلام في دمشق بقتل زعيم الدعوة الإسلامية فيها، لسان أهل العلم جميعا، ورأسهم المفكر والمدير: الشيخ حسن حبنكة الميداني.

ما كان من الأجراء إلا أن خفّوا إلى تنفيذ الأوامر، وزجوا به في الغياهب تمهيداً لإعدامه والقضاء عليه، ولكن الرب الذي كان المبطلون يدبرون سبيل (تحنيطه) فيما زعموا، كان يدبر لهم سبيل النهاية والانمحاق، فلقد صدق فيهم قوله جل جلاله:﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾(الأنبياء/70) لقد انتهوا من بطشتهم وسلطانهم إلى شَذَر مَذَرَ، وإلى ذل يتمنى الإنسان معه نعيم الموت! من حيث عاد الشيخ إلى وظيفته التي أقامه الله فيها معلماً وداعياً ومرشداً، وقد تضاعف له الحب والتقدير في العالم الإسلامي أجمع، وازدادت قلوب المسلمين توجها إليه وتعلقا به)[1]

(فالشيخ حسن لم يهدم ما بناه الملا عليهما من الله سحائب الرحمة والرضوان وإنما يمتن ما أقامه، ويدعم ما وضع له القواعد، ويصعد بالأدوار واحدا إثر الآخر في رحلة علمية تربوية طويلة، لا تستعجل قطف الثمار، ولا تلج وراء النتائج. وكذلك الشيخ ملا لم تنازعه نفسه أن يهدم ما يبنيه الشيخ حسن في شخصية ولده من بنيان متكامل الأركان والصنعة والزينة، بعدما رأى ولده يحبه، ويعشقه، ويجعله في درجة أبيه علما وأدبا، والدليل هو الحب الذي اشتعل أواره في قلب كل من الرجلين للآخر، والمتابعة التي كان يقدمها الشيخ ملا عليه رحمة

1- د. البوطي، شخصيات استوقفتني، ط10، دمشق دار الفكر، 2017، ص 273

الله لولده يوم الثلاثاء وهو المتنفس الوحيد بين التلميذ سعيد وأسرته، حيث كان يلقي عليه دروسا في النحو والبلاغة والمنطق والأصول وغيرها من الفنون)[1].

(في تلك الفترة تقدم للخطابة وصعد المنبر ولم يكن قد تجاوز بعد السابعة عشرة من عمره، وذلك في أحد مساجد الميدان القريبة من جامع منجك).

(في هذه الفترة أصبح الشيخ محمد سعيد مولعا بقراءة الكتب الأدبية لأدباء معاصرين وغابرين مثل: مصطفى صادق الرافعي، والجاحظ، والعقاد والمازني، إضافة إلى مقامات الحريري، وفي عام 1952 ظهرت أولى أعماله وهي مقالة بعنوان أمام المرآة، نشرتها له مجلة التمدن الإسلامي، ثم تبعتها في المجلة ذاتها مقالات أخرى، لكن باكورة أعماله الأدبية بحق كانت قصة ترجمها من اللغة الكردية، وهي المعروفة باسمها الكردي ممو **زين** وهي قصة تمثل الحب العفيف والعاطفة الملتهبة والوفاء النادر. وقد أفرغها المترجم في بيان عربي مشرق وبنيان قصصي جذاب)[2]

◉ العمود الرابع: الحاضنة الأزهرية

من ميدان دمشق إلى قاهرة المعز

أنهى الشيخ سعيد دراسته في المعهد وطلب منه الالتحاق بالخدمة العسكرية، لكن قبول الأزهر في مصر استكمال دراسته [3][4] حال دون خدمته التجنيد العسكري.

ذهب إلى القاهرة لاستكمال دراسته في جامعة الأزهر، وحصل منها:

1- مجموعة من المؤلفين، محمد محي الدين حمادة، شخصيات وأفكار، ط1، دمشق مركز الراية للتنمية الفكرية، 2004 ، ص 263

2- أعلمني بذلك ابنه د. عبد الرحمن البوطي في مقابلة خاصة وأنظر موقع نسيم الشام،العلّامة الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي - السيرة الذاتية (naseemalsham.com)

3- د. محمد سعيد رمضان البوطي، هذا والدي القصة الكاملة لحياة الشيخ ملا رمضان البوطي من ولادته إلى وفاته،ط 13، دمشق دار الفكر، 2011، ص 63

4-حيث لم تكن كلية الشريعة في جامعة دمشق قد افتتحت بعد.

▹ على إجازة كلية الشريعة عام (1955م).

▹ التحق في العام الذي يليه بكلية اللغة العربية في الجامعة نفسها.

▹ نال منها دبلوم التربية.

تتلمذ الدكتور البوطي إبان دراسته في الأزهر على كثير من الشيوخ الأجلاء، ومن أبرزهم: الشيخ مصطفى محمد عبد الخالق، والشيخ جاد الرب رمضان، والشيخ طه محمود الديناري.

العودة إلى دمشق:

▹ ثم عاد د. البوطي إلى دمشق وعين مدرسا للتربية الدينية عام1958م.

▹ عين معيدا. في كلية الشريعة بدمشق عام 1960م.

▹ أوفد إلى كلية الشريعة بجامعة الأزهر لإتمام دراسته حتى منح الدكتوراه عام 1965 م[1] في أصول الفقه.

◉ العمود الخامس: الميدان التعليمي

(ثم عين أستاذاً في كلية الشريعة بجامعة دمشق، وترقى ترقيات نظامية حتى بلغ درجة أستاذ وتولى وكالة عمادة هذه الكلية فعماداتها في بعض الدورات. وخلال رحلته التعليمية والتوجيهية تصدى للتأليف والكتابة، فكتب مقالات نافعات، وكتباً إسلامية علمية أدبية فكرية منطقية رصينة، ونشر رسائل وجه فيها الأجيال توجيها كان فيها موفقاً وناصحاً، وصار خطيباً ومحاضراً ممتازاً.

وذاع صيته ولمع اسمه وصار يدعى للمؤتمرات واهتم بالفكر الإسلامي وتأصيله ونشره ولاقى اهتماما بالغا في دروسه الأسبوعية لمثقفي الجامعات، بجامع السنجقدار بدمشق وبغيره وفي محاضراته التي يعدها ويلقيها في الندوات والمؤتمرات والمجامع الكبرى والجامعات التي يدعى لإلقاء المحاضرات فيها، وفي المقالات التي يكتبها وينشرها في المجلات الأدبية والعلمية، الذائعة الصيت، والواسعة الانتشار)[2].

1- د. البوطي، البدايات باكورة أعمالي الفكرية، ط1، دمشق دار الفكر 2009، ص 13. د. محمد سعيد رمضان البوطي، هذا والدي القصة الكاملة لحياة الشيخ ملا رمضان البوطي من ولادته إلى وفاته،ط 13، دمشق دار الفكر، 2011، ص 63

2- الوالد الداعية المربي الشيخ حسن حبنكة الميداني قصة عالم مجاهد حكيم شجاع، ط1،الناشر المؤلف،2002، ص132

نشأ وترعرع في هذا الرياض العلمائية الطيبة فنهل منها صنوف العلم وفنون الأدب، ورغم انتمائه لهذا الأصل الكريم والطعم الأصيل فقد كان لعلمه نكهته الخاصة التي تتفرَّد في بعض جوانبها عن السياقات التقليدية التي اعتاد عليها النَّاس.

عقلية التحدي وعمق الإيمان ودعم الوالد[1]

يقول د. عبد الرحمن محمد سعيد رمضان البوطي: (في عام 1970 بين شهري كانون الثاني وشباط، كنت طالباً في المرحلة الإعدادية وأنا على وشك تقديم الامتحان،وفي يوم ما وعندما أردت الدخول إلى غرفة الأسرة أصبت بوجوم جراء وجود والدي على أريكة الغرفة وبين يديه مجموعة من الكتب الدراسية المتعلقة بمنهاج الثانوية العامة الفرع الأدبي.

ساورني شك أن والدي قد كلف بمناقشة هذه المناهج، أو أن جهة رسمية قد طلبت منه تقييماً لهذه المواد، لكنه بادر مسرعًا في تبديد استفهام بريق عيناي وقال مبتسماً :

نعم لست وحدك في الثالث الإعدادي وفي اختبار الشهادة بل أنا معك أنت تقدم الثالث الإعدادي وأنا أقدم الثالث الثانوي.

صدمتني كلماته المبتسمة والحزينة في آن واحد وحل جوابه كالصاعقة التي ضربت رأسي فأصابتني بهلع، وأصبحت في شك هل أنا في يقظة أم حلم!.

لكني لا أعرف الوالد إلا صادقاً جاداً حتى في مزاحه، والحق أقول كان والدي كذلك فقد تقدم في اختبار رسمي للشهادة الثانوية، بعد أشهر قليلة، ولكننا لم ندرك السبب والسر وراء ذلك.

ومضت سنون طويلة حتى أدركنا ما الذي حصل.

لقد تم تعيينه رحمه الله تعالى في عام 1966 مدرساً في كلية الشريعة، بعد حصوله على شهادة الدكتوراة من جامعة الأزهر بمرتبة الشرف، وقد حاك بعض أصحاب الخدع والمكر مكيدة ضد الوالد، فوصلت الوشاية إلى المؤسسات المعنية عام 1970 وأفضت إلى اتخاذ وزارة التعليم العالي، ووزارة التربية ورئاسة جامعة دمشق، القرار بالفصل والغرامة المالية متعللين بأنه لا يحمل الشهادة الثانوية الرسمية من الحكومة السورية.

1-القصة بأكملها رواها لي د. عبد الرحمن البوطي .

لقد نال الوالد الثانوية الشرعية من مسجد منجك (معهد التوجيه الإسلامي) وقد كان لهذا المعهد صلة رسمية بجامعة الأزهر حيث قبل هناك مباشرة، ويكمل الطالب بموجبها بعد إجازة الجامعة الماجستير والدكتوراة.

في الحقيقة إن والدي كان قد تخطى تلك الشهادة غير المعترف بها إلى شهادة عليا رسمية وهي الدكتوراة ولكن الأيدي الشقية أرادت أن تدبر مكيدة، وبناء على ذلك تم تبليغ الوالد عدم شرعية تعاقده مع الجامعة وبطلان أستاذيته وتم استصدار قرار بتحميله نفقات ذهابه إلى الدراسة في مصر حيث أنه في ذلك الوقت بعث إلى مصر على حساب الحكومة السورية، وقد درس هناك اللسانس والماجستير والدكتوراه.

وبناء على عدم حمله للشهادة الثانوية الأدبية أيضاً صدر عزله عن التدريس، ومطالبته بتقديم الشهادة الثانوية في فترة تعجيزية ثلاثة أشهر.

كان مشهداً محزناً أن ترى رجلاً قد بلغ الأربعين من عمره تقريباً يكلف من جديد بجهد لا يتناسب مع سنه ولا مكانته ولا واقعه العلمي.

وفوق ذلك عليه أن يعيد الرواتب المالية التي كسبها خلال تدريسه لأربع سنوات في جامعة دمشق.

أي ألم سيحل بقلبه وهو الأكاديمي صاحب الكسب المشروع والأسرة الكبيرة والنفقات الكثيرة والدخل المحدود؟

أي هم أصاب قلبه وهو الذي كان مدرساً في الأمس أصبح طالباً اليوم.

وفي فترة قياسية يلزم بما يصعب تحقيقه.

لقد عانى الوالد من هذا الأمر معاناة كبيرة ولكنه أضمر كل ذلك الحزن كبركان يؤجل ثورانه وحممه .

جلس مع نفسه يفكر بالحل حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت، لقد أخفى على جدي ما مر به.

من أين يبدأ من جهة المال أم من تبعات نفقات الأسرة أم من خلو يده من أي مهنة غير التعليم الذي حرم منه؟

ولكن فراسة الجد طالت الوالد رحمهما الله ودار بينهما هذا الحوار .

الملا رمضان :

أرى فيك هماً وحزناً ولا أعلم ماقصتك، ماذا تخفي عني ولماذا لا تعلمني؟

رد الوالد الابن سعيد :

لقد تحاشيت أن أشغلك بهمومي وأتعبك بمشاغلي.

لكن الجد أصر على معرفة كدر الابن، وأخبر الشيخ رمضان ابنه الشيخ سعيد أنه رأى في المنام ما يشير إلى ضائقته ثم أعاد الجد السؤال:

قل لي مابك لأعلمك بتفاصيل ما رأيت.

فإذا بوالدي ينساب في ذكر أدق التفاصيل والقرارات المجحفة، وما حل به كما ينساب الماء في الكأس لقد صارح الوالد والده الجد بتفاصيل ماجرى وتبعات القرار الجائر الذي حل به.

ترى ماذا سيكون جواب الجد؟

ومن أي منطلق سيتعامل مع الكارثة التي حلت بابنه؟

وكعادته الشيخ رمضان تبسم تبسم الواثق بربه، المقر برحمته وحكمته، وقال لابنه:

إن هذا الموضوع سيحل إن شاء الله لا تقلق، فقد بشرت في الرؤيا أن الفرج آت، وبدأ الجد يشرح لابنه تفاصيل رؤياه:

حيث رأى الملا أنه وابنه يسيران في طريق مقفر، وإذا بهما يترآى لهما فارس يتوشح البياض ويحمل سيفه، وعرف عن نفسه فقال: أنا الشيخ عبد القادر الجيلاني، وقال للملا: إن ابنك سعيد في عهدتنا وضرب على صدره، ثم قال: لا تخشى عليه أي أذية.

لكن الوالد الشيخ سعيد كان يتساءل من أين الفرج؟

وهم يطلبون مني شهادة ومالاً وتعويضاً؟

ومع ذلك كله كان يثق بربه وأيضاً من ثم بصدق بشائر والده.

كل ما عليه هو أن يتخذ الأسباب ويتوكل على الله ويترك تعديل الواقع وتسهيله على الله.

ولم يمض طويل وقت حتى جاء الفرج، بدأت التباشير تترى ..

فصدر القرار من وزراة التعليم العالي أن هناك استثناء لمن كان من المدرسين في الجامعات ممن يحملون شهادات ثانوية غير معترف بها، يحق لهم خلال ثلاثة أشهر تقديم امتحان الثانوية العامة، حيث سمح لهم في شهر نيسان تقديم الامتحان أي بعد ثلاثة أشهر من صدور قرار حجبه عن العمل، فإذا حصل على الشهادة الثانوية الأدبية أو العلمية يتم اعتماد أوراق تعيينه كاملة، ويعفى من أي تعويض مع استرداد منصبه.

قدم والدي الطلب ودرس المقرر للشهادة الثانوية الأدبية وتقدم للامتحان وكانت المفاجئة في غرفة الاختبار حيث جلس على مقعد الامتحان ولم يكن في القاعة إلا هو فتعجب لعدم وجود غيره وحاول التأكد هل هذه هي قاعة الامتحان؟

فجاءه الجواب نعم، فكان كأن القرار فصل لأجله وحده!!

يارحمة الله بعباده يا يسر الله ورحمته يا لطف الله بخلقه.

قدم والدي الامتحان وقبل التحدي واثقا بربه ونجح في الاختبارات عربي وفلسفة ونصوص وتاريخ وجغرافيا، ومناقشة عن الأدب العربي الجاهلي والإسلامي.

كانت من أقسى الأزمات التي أدخلته في حيرة من أمره، كيف يعوض الجامعة من بعثاته الدراسية التي ذهب إليها عدة سنوات وكيف يعيد رواتب السنوات الأربعة التي درسها، ونحن في ذلك الوقت في حالة عادية جداً جداً، ليس لدينا تجارة، إنما كحياة أي موظف، والحمد لله كان هذا من فضل الله علينا وإكراما منه سبحانه لجدي ولوالدي رحمهما الله، هكذا كانت حياتنا محفوفة بفضل الله عز وجل ورعايته وحفظه ورحمته طيلة حياة جدي ووالدي. والحمد لله رب العالمين .

⁉

رد على وهم وكذب: الاعتداد العلمي والفكري غير المتناهي بالذات [1]

اتسم الدكتور البوطي بصفات العالم العامل بما علم؛ حيث إن العلم نوعان: علم حمل وعلم استعمل، فكان علمه من العلم الذي استعمل؛ أي ظهر أثره في صاحبه وعلى من حوله ومن أهم ملامح شخصيته إنكار الذات :

كان الدكتور البوطي ينكر ذاته ويرى أنه لا كسب له ولا فضل فيما لديه من علم، وإنما هي منح وفتوحات أودعها الله إياه ببركة دعاء الصالحين وتجليات الله عليهم.

يقول الدكتور محمد جنيد الدير شوي مدللاً على ذلك : إن الأستاذ - حفظه الله - لا يرى فيما أوتيه من العلوم والمعارف والعبقرية أي مزية له، بل يرى ويشعر أن ما أودعه الله - عز وجل - فيه من الفضائل، إنما هي أمانات عنده [2]

ومن يتتبع دروسه ومحاضراته يرى أبهى مظاهر هذا الخلق قولاً وسلوكاً، فهو الذي يقول مربياً للفرد المسلم ألا يغتر بمدح المادحين: اعلم أن الله تعالى لو كشف لهم طرفاً من سريرتك وخفي أحوالك لما رآك أحد. أهلاً لشيء من هذا الذي أثني به عليك [3] منهم وكان يرفض وبشدة أن يقوم له أحد حتى ولو كان تلميذاً من تلاميذه وكان يمنع وبشدة أن يقبل أحد يده في حين أنه كان يقبل أيدي العلماء المعروفين بالصلاح والتقوى، فلقد قبَّل يد الشيخ الحبال[4]، وإذا سئل عن تقبيل اليد قال : تقبيل أيدي أهل العلم والفضل والصلاح شيء مشروع، وهو أمر حسن، ولكن الأمر إذا كان متعلقاً به هو ورغب إنسان يظن به الصلاح أن يقبل يده أنكر ذلك أشد الإنكار، وقال: إنما كان هذا الأمر حسناً إذا كان من تقبل يده رجلاً صالحاً، ولا أزعم أنني كذلك)[5]

1- أ. محمد خير موسى، البوطي شخصيته ومواقفه، ط1، اسطنبول مكتبة الأسرة العربية 2023، ص 24

2- مقال: عالم محقق وعاشق رباني د. محمد جنيد الدير شوي، ص 105، ضمن: محمد سعيد رمضان البوطي بحوث ومقالات مهداة إليه.

3-د. البوطي، الحكم العطائية شرح وتحليل، ط6، دار الفكر – دمشق، 2011م،ج3، ص 210. وكان ذلك في ضوء شرحه لحكمة ابن عطاء الله السكندري، القائلة: الناس يمدحونك لما يظنونه فيك، فكن أنت ذاما لنفسك لما تعلمه منها.

4- تواضع الشيخ البوطي مع الشيخ الحبال رحمهم الله مؤثر جداً - YouTube

5- د. البوطي، فقه السيرة النبوية، ط19، القاهرة– دمشق– دار الفكر ودار السلام ، 2008، ص 350

لقد كان الدكتور البوطي يخجل من الله ويشعر دائماً بالتقصير، ويرى أن الناس ما يمدحونه إلا لجميل ستر الله له، وإذا كان واعظاً أو داعياً إلى الله فإنه مجرد دلّال على بضاعة الله، فبعد أن فرغ من تأليف كتابه الشهير (فقه السيرة)؛ الذي ختمه بآداب زيارة قبر النبي، طلب من القارئ وهو واقف أمام النبي ﷺ أن يتذكره بالدعاء؛ يقول : ولا تنس يا أخي أن تخصني أنا أيضاً بشيء من دعائك، قل: اللهم إذا جمعت الأولين والآخرين لليوم الذي لا ريب فيه فأسبل جميل سترك على عبدك المذنب محمد سعيد بن ملا رمضان، وأدخله بمحض منك وفضلك في عبادك المغفورين، وامنحه شربة هنيئة من حوض نبيك محمد يوم يقف عليه مشرق الوجه... يستقبل أصحابه الذين عرفهم وإخوانه الذين لم يرهم واشتاق إليهم، ولا تجعله من المطرودين أو المحرومين، عهد يسألك الله عنه يا أخي المسلم أيا كنت، أن تدعو لأخيك عند ختمك لهذا الكتاب، فما أحوجني إلى دعاء خالص من أخ لي في ظهر الغيب[1]

إنه لا يرى في ذاته حتى العلمية أي فضل، فلا يفخر بإنتاجه العلمي المتنوع؛ بل يتعلق برحمة الله تعالى ويتشبث بالطرق التي توصل إليها؛ لذا بعد أن انتهى من تأليف كتابه (فقه السيرة) الذي كتب له الذيوع والانتشار طلب من القارئ أن يتذكره بالدعاء في ظهر الغيب دون أن يشعر بأنه يفوق غيره من أقرانه ويتميز عليهم.

1- د. البوطي، فقه السيرة النبوية، ط19، القاهرة- دمشق- دار الفكر ودار السلام ، 2008، ص 350

“ كلما ازداد الإنسان قربا من الله ازداد ضآلة „

د. سعيد رمضان البوطي

تعددت المشارب العلمية للدكتور البوطي

لقد كان الشيخ البوطي نتاج بيئته العلمية والتي اتسمت بتعدد المشارب فهو تلميذ في مدرسة عبقرية الشافعي والتي اتسمت بالانتقال من أصول الفقه إلى منهجية البحث،والفضيل بن عياض الذي ضبط وعيه من التيه والضلال إلى أسمى درجات الهداية والعرفان، وعبد الله بن المبارك المجاهد الذي تضؤل معه قيمة الحياة والروح والجهد العمراني والاقتصادي الذي يحمي المجتمع وينعش الفرد، والأشعري الذي نجح في إزاحة الركام عن معاني الإيمان، والإمام أبي حامد الغزالي الذي تظهر مكانته الجليلة في عقله وقلبه والذي جمع بين القناعة العقلية وكسوتها من البيان الرائع والأسلوب المبسط الأخاذ، وجلال الدين الرومي الذي أخضع صوفيته الأدبية أو أدبه المتصوف لما كان قد تشبع به من علومه ومعارفه الإسلامية، وبديع الزمان النورسي نموذج البطولة الفعالة لا القوالة، والشيخ السباعي العالم الجليل والخطيب الفذ والداعية الأكاديمي، والشيخ محمد الحامد المتكامل بين العلم والفهم والسلوك، وعلي الطنطاوي صاحب البيان الساحر والحديث الجذاب والمواقف العظيمة.

شخصيات كثيرة استوقفته وأعجب بها بعد أن اقتنع بطريقتها فيسير على خطى ابن القيم في كتابة السيرة النبوية، وعلى منهج ابن تيمية في المحاججة العقلية ودرء التعارض بين العقل والنقل، وتراه يحاكي أسلوب سيد قطب والعقاد والرافعي في بيانه، ويسلك طريقة القوم على حكم ابن عطاء الله السكندري، والشيخ بدر الحسني في تواضعه ومنهجه التعليمي والتربوي، فهو يكره التواضع إذا كان فناً مصطنعاً ويدعو إليه إذا كان قيمة يتمثلها الإنسان بإيمان.[1]

وفي هذا الجانب أترك القارئ الكريم مع مقال ظهر لي في بعض المواقع الإلكترونية لاستيعابه الرد على هذا الافتراء[2]:

1-انظر الرابط على موقع نسيم الشام: https://youtu.be/TXwaEO7ruzQ

2- موقع فكر حر، التدليس العلمي ومحنة الشيخ البوطي [محمد خير موسى أنموذجا] نشر بتاريخ 27/12/2022

أخيراً تنفست الصعداء واستبشرت خيراً وسرّ خاطري إثر إعلان السيد محمد خير موسى عن كتابه [البوطي شخصيته ومواقفه دراسة تحليلية لشخصيته ومواقفه وخلفياتها من الحكام والقضايا والثورات] وحدّثت نفسي متفائلاً: لا شكّ إنّ هذا الكتاب يسهم في استعادة التوازن في قراءة الشيخ البوطي بسياق الحدث والزمن وفي إطار الصورة شبه الكاملة اليوم، لا سيما وأننا تجاوزنا مراحل زمنية وتاريخية تتيح لنا فرصة الحكم على الواقع بمعزل عن الصدمة الاجتماعية والتأثّر العاطفي، وانطلاقاً من هذه المعطيات سعيت جاهداً في الحصول على نسخة من الكتاب، وما إن كان بين يدي حتى شرعت في قراءته، ولا أبالغ في القول إن أعلنت:

أني صدمت بعد مطالعته، وذلك لفقد الكتاب مقومات البحث العلمي الرصين وفي مقدمتها (الأمانة العلمية والاستقصاء الشامل) نعم لقد خلا الكتاب من الصدق إلا في بعض المواقع !

كان حشداً من التخمين والحدس والأراجيف، والكذب بالطبع ليس بالضرورة هو عدم قول الحقيقة فحسب، بل إن قول نصف الحقيقة يعد كذباً ممنهجاً على طريقة ويل للمصلين وهو ما سيلحظه الباحث عند قراءته لهذا الكتاب. لقد كان واضحاً افتقار الكاتب إلى التحري والكد والمتابعة، والاكتفاء ببعض التفريغات النصية المخلة والموجزة لخطب ودروس الشيخ البوطي دون تتبع. وليت حضرة المؤلف الكريم التزم بكلام الشيخ البوطي في الحوار المرئي الذي جعله شاهدا على كلامه المدلس!

ما يبدو أنّ المؤلّف لم يستطع الخروج من جلباب التوجهات السياسية والشعبوية، فمن الواضح أنّه كان أسيرها، كانت تحليلاته وتركيباته تقفز بجرأة مراهق دون احترام لعقل القارئ أو توقير لأمانة وأدوات البحث العلمي ومناهجه، لم تسلم كلماته من التأثر بهوى النفس والاستعراض المتماهي مع ما يريده الجمهور! وهو ما حذر منه د. البوطي في أحد الحلقات التي حللها المؤلّف بكتابه، حيث حذّر من خطورة التأثر بأحد مهما علا شأنه، لكنّ الظاهر أن المؤلّف الكريم خضع لما يطلبه الجمهور ليتأثّر من حيث يدري أو لا يدري بجهات سياسية بدل أن يتتبّع مواقف البوطي بدقّة! ناسيا أنّ التعالم نظير الجهل والتسايس الثقافي صنو

التشاغب، ضوضاء بلا فائدة! إنّ تكريس هذا السلوك البحثي يؤدي بنا إلى خلق صنف من النخب الدينية الثقافية هي أشبه بعالم دون علم وسياسي بلا سياسة!

والغريب أنّ السيد المؤلف ادعى أنّه من خواص تلامذة الشيخ البوطي، إلّا أنّ أقارب الشيخ البوطي نفوا أي خصوصية للسيد المؤلف مع الشيخ البوطي، وكان ذلك خلال مقابلات أجريتها مع أهل الشيخ مباشرة.

لا يخفى على باحث وقارئ محترف أنّ الكاتب لم ينتهج المنهج العلمي في توصيف الواقع وعرضه ونقله! ولا شكّ أن مسألة النقل لا تحتاج لقدرات فكرية في التحليل والتركيب، هي فقط تحتاج لصدق وأمانة لا أكثر، أمّا مسألة التحليل فهذا أمر يتمايز به باحث عن باحث وتحكمه قدرات ذاتية لا نريد أن نحمّل السيد المؤلف وزر إمكانياته المتواضعة في التحليل والتركيب والاستنباط الواضحة في تحليل شخصية البوطي انطلاقاً من مواقفه، إلّا أنه بالمقابل لا يمكننا أن نتجاوز عن شطحات المؤلف في مسألة الصدق والأمانة أثناء النقل، وهذا ما سنوضحه في سوق أحد الأمثلة المتعلقة بالنقل والتحليل والاستنباط بالطبع، لأن المجال لا يتسع لسرد كافة الأمثلة والنماذج التي تعكس البدائية في التحليل واستنباط الأحكام انطلاقا من المواقف التي لا صلة لها بالأحكام أبدا!

إذا نحن أمام احتمالين يفسران سلوك السيد محمد خير موسى : إمّا إن الكاتب يجهل أصول البحث ، وهذا يعني أنّه ليس جديرا بالكتابة عن الأعلام، أو أنّه تقصّد أن يغفل جوانب هذه الشخصيّة وتقصّد أن يطوي الأدلة التي تنبي عن هذه الشخصيّة ، وبالتالي فإن هذا الكاتب غير أمين على المنهج العلمي ، وإن دلَّ هذا على شيء فإنما يدلّ على أنَّ وراء الأكَمَةِ ما يظهر لمن يحسن رصدَ هذا الكاتب ! إن انتزاع الصدق من كتاباتنا، يعني خلو البحث العلمي من أهدافه التي في مقدمتها نشدان الحقيقة وتقديمها بأمانة علمية.

محنة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

الكذب والخيانة العلمية في نموذج ما كتبه أ. موسى

جاء في ص 24 تحت عنوان طباع وسمات نفسية خلف المواقف السلوكية أن من أهم الطباع التي جبلت عليها شخصية الشيخ البوطي حسبما وصفها أ. موسى ب[الاعتداد العلمي والفكري غير المتناهي بالذات] مؤكداً في الصفحة التي بعدها (كان الدكتور البوطي شديد الاعتداد بنفسه علمياً وفكرياً فيرى أنه ليس تابعاً لمدرسة فكرية أو تيار علمي بل هو نسيج وحده، فلا ينتسب لأحدٍ من الأقدمين أو المعاصرين، وإنما علاقته بالعلماء والفقهاء والأدباء هي علاقة إعجاب بما يقدمونه ليس أكثر).

وقد استفتح السيد موسى للتأكيد على ذلك بتفريغ مدلس وعمل محرف لا يتناسب مع البحث العلمي حيث اقتطع الآتي من جواب (الشيخ يسأله المذيع : من هي الشخصية التي كان لها الأثر البالغ في حياتكم " ؟ فيأتي جوابه على الفور: " أخشى أن أفاجئكَ إن قلت: لا أعتقد أن هنالك من أثر في حياتي، هنالك من أعجبت بفكره العلمي، هنالك من أعجبت بمنهجه المعرفي، هنالك من أعجبت بحمايته للحقائق الكونية، أما هل هنالك من أثر في ؟ أعتقد أنني مهما بحثت فلن أجد من أثر في".

ثم يحاول أن يبرر ذلك فيقول: "عملية التأثير تتجه إلى عقل المتأثر، بل تتجه إلى نفسه، وعملية التأثير مهما كانت وسيلة المؤثر أمر غير مشكور فهو نوع من الخداع في ماله؛ نوع من التدجيل المغناطيسي")[1]

أقول: لقد اعتمد الكاتب في تقييمه على مقابلة متلفزةٍ مع الشيخ البوطي وهي مقطع مجتزأ من حوار طويل متجاهلاً ما جاء في باقي المقابلة على لسان الشيخ وهو يستكمل الموضوع[2]!

وإليكم النص كاملاً للسؤال والجواب، ويمكنكم المقارنة:

المذيع : لو بدأت معكم بالشخصيات التي كان لها الأثر البالغ في حياتكم.

1- أ. محمد خير موسى، البوطي شخصيته ومواقفه، ط1، اسطنبول مكتبة الأسرة العربية 2023، ص 24

oxiLJwskQSf=v?hctaw/moc.ebutuoy.www//:sptth-2

الشيخ البوطي : أخشى أن أفاجئك إن قلت لا أعتقد أن هنالك من أثر في حياتي، هنالك من أعجبت في فكره العلمي وهناك من أعجبت بمنهجه المعرفي وهنالك من أعجبت بحمايته للحقائق الكونية، أما هل هنالك من أثر في؟ أعتقد إنني مهما بحثت لن أجد من أثر في.

للسبب التالي، التأثير يتجه من الشخصية وهيمنتها إلى النفس لا إلى الفكر.

يقال: فلان ذو شخصية مؤثرة له شخصيته التي يستطيع التأثير بها على الآخرين لأنه ربما كان لونا من ألوان التنويم المغناطيسي أو ربما كان بوسائل نفسية أخرى هذا التأثير الذي يأتي من شخصية المؤثر تتجه إلى عقل المؤثر لا تتجه إلى نفسه. وعملية التاثير من شخصية مهما كانت وسيلة التاثير أمر غير مشكور. نوع من الخداع .نوع من التدجيل

ومن ثم الإنسان الذي تأثر يكون ضحية لهذا الذي أثر فيه والسبب كما قلت لك يقال فلان ذو شخصية مؤثرة وربما كان جاهلاً وربما كان هذا المؤثر لا يتمتع بزاد من الثقافة لكنه ذو شخصية مهيمنة بوسيلة ما بسبب ما.

نعم ولحسن حظ هذا المؤثر يكون الشخص الآخر المتأثر ضعيف الشخصية وبالتالي سرعان ما يتأثر هذا الانسان بالشخصية القوية فيقال فلان متأثر بالشخص الفلاني بالمزية الفلانية في التاثير الشخصي.

المذيع: لذلك أنت تنصح دكتور أن يكون الإنسان ابن ذاته قبل أن يتأثر بهذا أو بذاك .

الشيخ البوطي : أنا أنصح الذين يحاولون أن يؤثروا ألا يستعملوا شخصياتهم النفسية في التأثير هذا نوع من ألوان الدجل المغناطيسي وأنصحهم إذا أرادوا أن يؤثروا أن يؤثروا بالإقناع العقلي، بالاعتماد على الزاد العلمي وهذا لا يسمى تأثيراوانما يسمى إقناعاً .

المذيع: لكن الإنسان المسلم أليس بحاجة إلى شيء مادي يتعلق به من أجل ربما الله كما ذكرتم أنتم في كتاب فقه السيرة النبوية بأن الكعبة المشرفة من الاعجاز العلمي بأن هذا شيء مادي تعلق به لكن واجب على الانسان أو ربما يقول ويعتقد بأن هذا الشيخ أو هذه الشخصية ربما توصلني أو تقربني إلى الله هل هذا المعتقد صحيح؟

الشيخ البوطي: ما يتعلق بالكعبة أوما يتعلق بآثار فيها بصمات من البركة والخير هذا لا نتحدث عنه.

أنت تتحدث عن الشخصيات وأنت تسألني عن الشخصيات التي أثرت في، لا التي أقنعتني.

الواقع أن صلة الشخص بالشخص ينبغي أن تكون عبر العلم وعبر الفكر في هذه الحالة تكون هناك حماية ضد الدجل وضد الهيمنة الخرافية من أشخاص كثيرين كانوا ومازالوا يهيمنون على أشخاص ضعيفي الشخصية عن طريق هيمنة شخصية نفسية. يمارسونها وربما يمرون بتجارب وبدورات نعم .

هذه الطريقة ينأى عنها الإسلام ويحذر منها ينبغي أن نعلم ذلك.

هنالك وسيلة أخرى مما بين الأشخاص الذين يسري فيما بينهم التعاون الذين سخرهم الله لانتشال آخرين من أودية الضلال .. ماهي هذه الوسيلة ؟

وسيلة الاعتماد على العقل، ومن ثم الاعتماد على العلم وضوابط العلم، فلو سألتني أنت من هم الذين أعجبت بمخاطباتهم ومحاوراتهم العلمية ومن ثم أقنعوك؟

لأجبت: فلاناً وفلاناً وفلاناً.

لكن لو سألتني من هم الذين أثروا فيك يعني أثروا في نفسي وليس في عقلي وفكري، لقلت لك حتى الرسل والأنبياء بعثوا ليحاوروا الناس بالعقل وبالفكر ولم يأذن لهم الله أن يطووا مما بينهم وبين الناس الحوار العقلي والعلمي الذي ارسلوا به ويجعلوا من هيمنتهم الشخصية سبباً للتأثير على كياناتهم النفسية في هذه الحالة يضيع الفارق بين المدجلين وبين الذين بعثوا لينتشلوا الناس من الباطل ويصعدوا بهم ذروة الحق .

ثم يشرع الدكتور البوطي في ذكر من اقتنع بهم واقتفى آثارهم.

فيقول: كثيرون هم الذين تابعت دراساتهم وعلومهم وتزودت من علومهم بالكثير الكثير.أ. هـ [1]

وبهذا النموذج البسيط المتعلّق بالنقل أكثر من كونه يتعلّق بالتحليل، يتضح من نص الكتاب الموجز الذي ساقه المؤلف الاقتطاع المحرف والمخل لترويج قاعدة هوائية للمؤلف وذلك جراء تأثره بالاحتقانات العامة والانفعالات السائدة والتلبيس والتدليس ووضع القواعد المسبقة وخيانة الأمانة العلمية.

1- برنامج البوطي حياته وفكره، https://youtu.be/fSQkswJLixo

فارق كبير بين مراد وقصد الدكتور البوطي وبين التوظيف المسيس لمحمد خير موسى!

لا أبالغ إن قلت أنّ ما تفضّل به العلامة الشيخ البوطي رحمه الله في الحلقة يعد من أدق ما يقال في هذا المجال، بل بمنزلة دستور شرف وبوصلة وعي لكل طالب علم أو عالم يخاف الله ويسعى لتسييد الفكرة لا الشخص!

من الواضح أنّ البوطي كان يحارب صنمية الفكرة.

لم يذكر الشيخ البوطي البتة أنه نسيج وحده كما أن البوطي أراد التفرقة بين كلمة (تأثير) والتي قد تكون من شخصية بلا قيم وبلا علم وهو مانراه اليوم من تأثر الشباب بشخصيات لا عقل لها ولا خلق وبين الاعجاب المبني على الاقتناع.

فقد أوضح الشيخ البوطي أنَّ كلمة (تأثير) تحمل جانبا نفسيّا يحمل على السيطرة والهيمنة بعيدا عن الجانب المتعلق بالحقّ المشفوع بالقناعة العقليّة، وهذا ما أراد الشيخ البوطي إن يوضّحه للمذيع ، ومن يتابع الحوار يجد ذكر أسماء العلماء الذين كان لهم دور في قناعاته ، ولكنّه عاد بعد عدّة دقائق وتطرّق إلى اسم شيخه الشيخ حسن حبنّكة رحمه الله ، ثمّ ذكر الشيخ الغزالي والنورسي. ولو عدنا إلى كتاب الشيخ البوطي (شخصيّات استوقفتني) لوجدنا فيه ما يسقط فكرةَ الكاتب محمد خير والتي اتهم بها الشيخ البوطي ولو عاد الكاتب إلى مقابلاتٍ متلفزةٍ للشيخ البوطي لوجد الكثير مما يسقط هذه الفكرة وعليه أقول: لقد خان الكاتب الأمانة العلمية واستحضر الهوى النفسي وتأثر بهوى العامة ورحم الله ابن الجوزي عندما قال: ما أبقى خفق النعال وراء الحمقى من عقولهم شيئاً[1]

وهكذا نجد أن الكاتب جانَبَ الصوابَ في دراسته "العلميّة" لشخصيّة الدكتور البوطي إذْ المنهجية العلمية في دراسة الشخصيات توجب اقتفاء كل أثر للشخصية التي يراد تقييمها من خلال كتابات صاحبها ومن خلال ما صدر عن لسانه في كلّ ما قاله (ونحن في زمن المقابلات المتلفزة) ولو أن الكاتب محمد خير أراد إنصاف الشيخ البوطي، لاستمع أقلّ الإيمان إلى باقي المقابلة التي تحدث فيها الشيخ عن الأشخاص الذين كانوا وراء قناعاته فيما وصل إليه من فكرٍ ومن مكانةٍ علميّة!

1- ابن الجوزي، صيد الخاطر، بعناية أ. حسن السماحي ط3، دمشق - دار القلم، 2012، ص 48

طبعاً والأحرى به أن لا يقف الباحث عند مقابلة واحدة، بل يجب أن يقرأ في تراث البوطي كاملا إذا أراد أن يطلق حكماً على شخصيته لا أن يكتفي بمقابلة أو يقتطع جزء من مقابلة حتى! فإنّ التفريغ المسيس والذي اعتمد عليه الكاتب لدعم حكمه المسبق علي البوطي فليس من العلمية في شيء.

مؤسف أن يستحضر الكاتب قناعاته وأحكامه لنبش قبر عالم وشيخ بمكانة البوطي! ليحاول هؤلاء الصعود على أكتافه في مشهد هستيري وشعبوي بعيداً عن العلمية والخلق. والمضحك المبكي أنّ جمهور السيد المؤلف الذين تهجموا عليه أثناء إعلانه عن كتابه، كان تهجمهم انطلاقاً من ظنّهم أنه يمتدح البوطي، فهم كعادتهم يكتفون بقراءة العنوان! ومن باب إنصاف المؤلف أقول إلى هؤلاء بأسف:

عودوا إلى رشدكم فلن تجدوا ما يعمق هيجانكم ووهمكم مثل هذا الكتاب المفتري غير الحيادي ابتداءاً من غلافه الذي انتقى صورة ليست حيادية للشيخ البوطي وهو مغمض العينين مروراً إلى امتناع المؤلف عن أي ترحم على الشيخ البوطي وصولاً إلى التلفيق والتشويه الذي يعج الكتاب به!

الفصل الثالث

حياته الزوجية والأسرية

" ما أكثر ما سألني صغار، في مناسبات شتى، عن أرض الإسلام وأرض الكفر، وهل هم يعيشون الآن على الأولى منهما أم الثانية، وقد أرهقت المسألة أذهانهم وبلبلت قلوبهم.... وقد كان الأحرى أن يشغلوا أنفسهم بدلا عن ذلك، بتجويد تلاوة القرآن، ومعرفة شيء من أحكام الحلال والحرام، وكيفية أداء العبادات.

إنَّ الناشئة اليوم، لا يحتاجون في مجال التوجيه والدعوة إلى التحلي بالإسلام، إلى أكثر من تبصيرهم بحقائق الإسلام الاعتقادية بالمنطق والبرهان وأخذهم بعد ذلك بأسباب السلوك والاستقامة على المنهج الإسلامي السليم. "

د. محمد سعيد رمضان البوطي،[1]

رحمه الله تعالى

1- هكذا فلندع إلى الإسلام، ط1، دمشق - دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، 2020،ص 99

▿ سبق وأن ذكرنا أنه تزوج في الثامنة عشر من عمره وكانت زوج الدكتور البوطي هي لطفية شقيقة زوج والده فكان هو ووالده عديلين. وقد أنجبت أولاده الثلاثة وهم د. توفيق ود. عبد الرحمن والسيدة سمية.

▿ السيدة أميرة الزوجة الثانية منذ عام 1970 م وعاشت معه ما يربو على ثلاثة أعوام وقد كتب عنها في كتابه من الفكر والقلب رثاء تحت عنوان أميرة الحلم الذي طاف بكياني اثنين وأربعين شهرا.

▿ السيدة ليلى تزوجها عام 1974 وقد رزق منها بثلاثة أولاد : السيد أنس (كلية الاقتصاد) والسيد زاهر (هندسة عمارة) السيد إبراهيم يعمل في مجال الإنتاج الفني بما يخص الأطفال.

في بيت الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله[1]

▿ **قبل الفجر:**

يستيقظ قبل الفجر بنصف ساعة على الأقل، وأحياناً قبل ساعة، وفيها:

✓ يقرأ شيئا من القرآن.

✓ يؤدي صلاة التهجد.

✓ يدعو ويطيل الدعاء في سجوده، لشؤون الآخرة والدنيا، لنفسه وأسرته، وللمسلمين..

▿ **صلاة الفجر إلى ما قبل الظهر.**

✓ يخرج من بيته ماشياً مهما كان الجو، لأداء الصلاة في جماعة.

✓ يبقى في المسجد إلى أن تنتهي أذكار الصلاة.

✓ يعود إلى البيت، ويجلس إلى ما بعد طلوع الشمس .

✓ يقرأ جزءا من القرآن .

✓ يكمل الأوراد ومنها ذكر : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

1- كما رواه لي ابنه د. عبد الرحمن البوطي

✓ ينام ساعة أو ساعة ونصف حسب التوقيت، في الصيف ينام أكثر من ساعة، حتى الساعة الثامنة والنصف.

✓ يستيقظ ويجلس مع زوجته يشرب القهوة ويقضي وقتاً في الأنس الصباحي بزوجته والحديث معها، ثم يتناول الإفطار في الساعة التاسعة، وبعد ذلك يجلس في مكتبه.

✓ كان قلمه سيالاً، فيكتب بعض المقالات والمؤلفات، أو يدقق في بعض الرسائل العلمية التي تصله من خارج سوريا، ويعطي تقريراً حولها لبعض دارسي التخصصات الشرعية العليا في بعض الجامعات خارج سوريا، ثم يعود إلى التأليف إلى ما قبل الظهر، إذا كان ليس لديه التزاماً خارج البيت، عندما كان في الجامعة كان ينزل إلى الجامعة ليعطي محاضراته، ثم يعود بعد الظهر.

▿ **<u>بعد الظهر</u>:**

✓ بعد صلاة الظهر والقيام بالأذكار يعود إلى:

✓ التأليف والكتابة، هذا إن لم يكن لديه أي التزام آخر.

✓ عندما يحين وقت الغداء، يتناول الطعام ويأخذ قيلولة قصيرة، ثم يعود إلى عمله في القراءة والكتابة والمطالعة.

▿ **<u>بعد العصر</u>:**

✓ نذهب إليه ونجلس معه ونتبادل الحديث لوقت غير مضبوط.

✓ ثم نجده أمسك أوراقه وبدأ يكتب، فنفهم من ذلك أنه ينصرف إلى عمله بطريقة لائقة، ولسان حاله يقول: دعوني الآن أعمل. فننصرف.

▿ **<u>قبل المغرب</u>:**

إذا كان في البيت:

✓ يقرأ القرآن والأذكار والتسبيحات قبل غروب الشمس.

✓ ثم يخرج إلى صلاة المغرب جماعة، وبعدها يعود إلى البيت.

▿ **العشاء وماقبل النوم:**

في المساء وبعد صلاة العشاء إن كان الوقت شتاء والليل طويلاً:

✓ يجلس مع الأسرة ويتبادل الأحاديث عن أحوال الأسرة والأولاد والأحفاد، ويحاول معرفة همومهم ومشاكلهم وظروفهم، حيث كان رحمه الله سريع الاستجابة لنجدة أي واحد إن كان في ضائقة فيساعده إن كان يملك سبيلاً إليها.

✓ يعود إلى قراءاته وكتاباته.

✓ ولا يسهر كثيراً، حيث كان ينام في الشتاء حوالي الساعة العاشرة، وفي الصيف ينام في الحادية عشرة والنصف على الأكثر، وكان ينزعج من سهر الأولاد والأحفاد كثيراً بعد صلاة العشاء، بسبب حرصه على صلاة الفجر في وقتها حتى لا تفوت على أحد منا .

▿ **كانت أولوياته:**

① في الجانب الأسري:

✓ في الأسرة الإرشاد والنصح: كنا نلتقي عنده في برنامج أسبوعي وقديماً كان اللقاء في كل أسبوع ببيت واحد من الأولاد. حوالي ساعة ونصف، نقرأ أذكار الإمام النووي، وبعض النصائح والإرشادات ثم ننصرف، وعموماً حتى في باقي الأيام كان لا يدخر جهداً في العناية بالأسرة من حيث الالتزام الديني والمواظبة على الصلاة والاهتمام بالأحكام الشرعية، كان دقيقاً جداً في هذه الأمور ولا يتهاون بها.

✓ رغم جديته الشديدة لا تخلو الجلسات من بعض المزاح الطيب اللطيف، الذي يكون كالفاكهة للمجلس. فكان يسر ويضحك في المزاح المقبول، وذلك ضمن الإطار الشرعي وليس خروجاً على الأدب والمألوف.

✓ بعد عودتي من الإمارات عام 1995، كان عملي قريباً من بيته وكنت في خدمته عدة سنوات، كنت آخذه بسيارتي إلى الجامعة وإلى مواعيده، وكنت أعيده إلى البيت بعد أن ينتهي، وكانت مراسلاته كلها عن طريقي، فكنت أجيب هاتفياً بدلاً منه على بعض الرسائل الموجهة إليه ولكن ضمن صلاحيتي وعلمي، وذلك بسبب وصول رسائل كثيرة لا تستحق أن

ينشغل بها كأسئلة فقهية بسيطة أو مشاكل عائلية ليس لوالدي وقت لها، وأستقبل أيضاً الرسائل على الفاكس، وبعد سنتين من ذلك اشترى الفاكس لبيته وأصبحت الرسائل لديه، وبقيت في خدمته حتى عام 2001، وبعد ذلك امتلك أخي سيارة، وكنا نتناوب في خدمته ونتقاسم المهمات، تارة أنا وتارة هو، ثم توسع عملي وزاد الضغط علي، فتفرغ ابن أخي توفيق لخدمته بعد عام 2004 أكثر مني، ومع ذلك كنا نحاول خدمته قدر الإمكان. ومع ذلك لم يكن لديه أحد مقرب على حساب غيره، كان يحاول أن يوازن بين الأولاد، فإن شعر أن أحدنا تألم لأنه لم يحظ بخدمته، كان يدعوه لخدمته ويفتح له المجال، حتى يدخل السرور إلى قلوبنا جميعا، ويحاول أن يعدل ما أمكنه ذلك.

✓ كانت علاقته مع الأحفاد جيدة جداً وجميلة، ويسرّ برؤيتهم وخاصة في الأعياد والمناسبات وشهر رمضان، كان يداعبهم ويمزح معهم، ويأكل معهم، ويباسطهم في الحديث، ويزداد سروره إذا رآهم ملتزمين بصلاتهم ودينهم، ويشجعهم على ذلك، ويدعونا إلى متابعة تربية الأولاد على النهج الذي يرضي الله سبحانه وتعالى، وإذا شعر بأي إهمال من طرفنا تجاه بيوتنا كان يتأثر ويغضب (مثلاً إن سهر أحدنا خارج المنزل مع أصدقائه على حساب بيته) كان يقول: ((في الحالات الطارئة لا مانع أما أن تكون عادة متكررة كان لا يرضى بذلك)).

▿ **<u>أهم القيم التي كان يغرسها فينا:</u>**

✓ **فعل الخير:** وينتشي فرحاً عندما يجد أن أحدنا ساعد أسرة أو أسعف فقيراً، أو مريضاً، كان يسر سروراً شديداً ويحض على ذلك دائماً، وكان له النصيب الأكبر دائماً في المساعدة واللهفة على المحتاجين والمساعدة في تزويج الشباب الذين لم تساعدهم الظروف المادية على الزواج، أحياناً تأتيه أموال من أهل الخير الذين يثق بهم، فينقلها فوراً إلى المحتاجين، ويبلغ أصحاب الأموال كيف وصلت الأموال إلى المستحقين، وإن كان أحد من طلاب العلم في حاجة ماسة، فيتصل ببعض التجار ليقول لهم فلان من الناس كذا وضعه، فكانوا جزاهم الله خيراً لا يقصرون، ووالدي يرسل المبلغ، لذلك كان يشجعنا على مساعدة الفقراء واللهفة عليهم.

✓ ذكر الله سبحانه وتعالى: فجعل لنا في كل أسبوع مرة أو مرتين، مجلس ذكر بعد صلاة الفجر، وكان يحضنا على الذكر وقراءة ورد الإمام النووي في كل يوم، وعلى حضور مجالس الذكر في المساجد وكذلك مجالس العلم ويسر بذلك عندما يرى أولاده وأحفاده في هذا الطريق.

② في الإصلاح المجتمعي :

في الحالات الاستثنائية التي يدركها هو شخصياً، فيما يخص الشأن العام، كان يقدم الشأن العام على شؤون الأسرة، فيتفرغ بشكل كامل ويعتذر عن استقبال أي أحد، حتى لو كنا نحن.

فيقول: عندي التزام يجب أن أنهيه، فإذا شعر أن الوقت ادّاركه في بعض مؤلفاته، استنفر قليلاً واحتجب عنا نسبياً ريثما ينهيها.

الفصل الرابع

مسار الأشواك

الشيخ والسياسة وآل الأسد والثورة

"أنا لم أكن يوماً ما إلى هذه اللحظة وإلى أن أموت معنياً لا بمجاملة المسؤولين ولا دهماء الناس أبداً، أنا مَعْنيّ بأن أستمسك بموازين الكتاب والسنة، وأن أرضيَ ربي عز وجل"

"كثيرون هم الذين ذهبوا ضحية أوهام، قيل لهم إنَّ النظام قد انتهى، ما هي إلاَّ أسابيع أو اشهر وسيولد نظام آخر صفته كذا وكذا، فصدقوا وذهبوا إلى حيث طلبَ منهم أن يذهبوا ليشتركوا في مطبخ النظام الجديد، ثمَّ أنهم أحيط بهم فكرياً وتبين لهم أنَّ الأمر لم يكن هكذا، آخرون قدمت لهم إغراءات وأنا مسؤول عن هذا الكلام،فغضوا الطرف عن الواقع وحملقوا في الإغراء ات"

الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي
رحمه الله تعالى

"نعم لقد استخدم الشيخ البوطي رحمه الله أوعية السلاطين، لكنَّه لمْ يقدِّمْ للناس فيها سمّا زعافا، بل قدَّمَ عصير العلم و رحيق الفكر الذي يزيد من مناعة الشعوب ضد فيروسات الحكم وجراثيمه!"

▻ التصوف والحراك الشعبي

إنَّ القراءات التفسيرية والتأويلية المتعددة للإسلام أنتجت تنوعاً في المواقف من الحراك الشعبي وصلت إلى حد التناقض أحياناً وإلى درجة الصدام في أحيانٍ أخرى! فقد لاحظ المتابع لأحداث ما تم تسميته اصطلاحاً بالربيع العربي الانقسام الحاد في المواقف لدى حركات الإسلام السياسي بمختلف مذاهبها وتوجّهاتها الفكرية، ولا نسعى من خلال هذا البحث الوقوف على مختلف التوجهات لتلك الحركات وطبيعة مواقفها من ثورات الربيع العربي! بل سيكون بحثنا مركَّزا على الحالة الصوفية كون موقفها كان من أكثر المواقف إشكالية تجاه تلك الثورات إلى جانب بعض الاتجاهات في التيار السلفي! وسيكون موقف الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي نموذجا.

فما هي جذور تلك المواقف؟

ولكي نكون أكثرَ تحديداً وقرباً من تفسير هذه الظاهرة والتي هي موضوع البحث، لا بدَّ أن نفرّق بين مصطلح التَّصَوّف بمعناه الواسع والذي يعرف في أبسط تعريفاته بأنَّه:

"هو الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق"[1] وهو ما يعني عزوف النفس عن الدنيا والعكوف على العبادة والانقطاع إلى الله والإعراض عن زخرف الحياة الدنيا وزينتها، ويربط بعض الباحثين هذا المعنى بمفهوم الزهد والذي تعود جذوره إلى عصر الصحابة والتابعين، والتَّصّوّف بهذا المعنى يهدف إلى تزكية النَّفس ومحاولة تنقيتها من عوالق الدّنيا، وهو ما يمثِّل الجانب الروحي للعبادة وهو ما يَجب على كل مسلم يسعى لمرضاة الله أن يتصف به سواء كان عالماً أو إنساناً عاديّاً، وبذلك يكون التصوف بمفهومه العام مسألة فردية وليس تنظيماً جماعياً أو مؤسسياً، وهذا ما نسعى لبيانه لِنفَرِّقَ بينه وبين التَّصوف الطّرقي الذي تحوَّل إلى مؤسسات لها تنظيم هرمي وتراتبية تبدأ من رأس الهرم وهو شيخ الطريقة وصولاً إلى القواعد المتَمَثِّلة بالمريدين على اختلاف مواقعهم! هذا الانتقال بمفهوم التَّصوف من كونه حالة تزكية فردية تخص كل مسلم إلى حالة مؤسَّسية مؤطرة سهَّل على السلطات عملية احتوائها والسيطرة عليها وتوجيهها وفقا لمرادها!

1- الإمام القشيري في رسالته،تحقيق الإمام د. عبد الحليم محمود- د. محمود ابن الشريف، القاهرة -دار المعارف، ص127.

وعليه يرى الخبير في التسويق السياسي والعلاقات العامة د. علاء رجب تباب: (أن الأنظمة السياسية لا يكون لديها مشكلة مع تنظيم رجال الدين لطقوس عباداتهم وشعائرهم، بشرط أن يقتصر هذا الدين على الحيز الطقوسي، لكن ذات الأنظمة لا تسمح لعلماء الدين من تنظيم أنفسهم حال تركيزهم على أهداف جامعة تؤثر بشكل مباشر على الواقع الاجتماعي المعاش أو السياسي الحاكم، لأنّها تدرك أنّ وجود مجموعة من المتوافقين بالرأي، ولو وصل عددهم لـ 10 ملايين، ليسوا عناصر كافية لتحقيق ما يسعوا إليه من أهداف إذا لم يتمكّنوا من تنظيم أنفسهم وترتيب أجنداتهم وفق قواعد وأسس الاتصال التنظيمي. لذا نشاهد السلطات تشجع رجال الدين على نشر فلسفة الطقوس التعبدية بشرط عدم تعرضهم لأهداف وأفكار تشريعية ومنهجية تزعزع الواقع السياسي والاجتماعي، لأنّ ذلك من شأنه أن يحوّل مراكز هذه الطقوس التعبدية لقوالب جامدة وجامعة تسهّل على السياسي التحكم بأفكار مرتاديها وفق توجهات المصالح السياسية.

والفلسفة الطقوسية رشحت التدين الشيعي ليكون السلعة المجتمعية والسياسية المراد تسويقها للسوق الاجتماعي والسياسي في المشرق العربي، بسبب تميزه بالطقوسية ووحدة المرجعية وأفكاره المتطرفة والعاطفية سهلة الانقيادة لغياب النص والإيمان بمعصومية المرجعية ذات الارتباط الوثيق بالأجهزة السياسية.

الواقع يثبت بأنّ دعم ساسة العالم لهذه الطقوس كان لأنّها تشكل خطوة تكتيكية لمحاربة التدين السياسي والاجتماعي الفكري بالديانة الطقوسية والخرافية سريعة التأثير والتمكّن من عقول العامة، وإمكانية تطويعها لمنابر اجتماعية تساعد على إحكام القبضة السياسية. ولا شكّ إنّ دعم الحالة الطقوسية للتجمعات الدينية، هي خطوة تكتيكية تنتهجها السلطات للقضاء تدريجيا على ذات الدين.

فاختصار القول: إن تنظيم عشرين شخصاً يجتمعون حول مبادئ وأهداف واحدة، يخيفون النظام السياسي ويقلقونه أكثر من ملايين الأفراد الذي ينتهجون النظام الطقوسي في التعبد، ببساطة لأن التعبد هو عيش الدراويش بعالم آخر لا يزاحمون به طموحات الساسة)[1].

1- علاء رجب تباب، الاتصال التنظيمي لقادة الرأي العام وأثره في الحراك الشعبي، دراسة حالة على الحراك السوري، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، 2016، ص 57

لكن يبقى السؤال الأهم وهو: ما هو المدخل الذي استطاعت السلطات الولوج من خلاله لكسب هذه المؤسسات الدينية لصفِّها ووضعها في مواجهة المطالبات الجماهيرية؟

نحتاج مرة أخرى للعودة إلى جذور المسألة ! ففي الأزمنة التي كَثرت خلالها الفِتن والحروب وبدأت المظالم بالظهور وسفكت الدِّماء تحت شعارات وعناوين مختلفة، كان لا بدَّ من تصعيد الجانب الروحي مقابل طغيان المادية والتَّنازع على أمور الدّنيا، ضمن هذه الأجواء المضطربة نجد أنَّ المتَصَوِّفة قدَّموا أنفسهم كبديل أو كحل وسط بين الخشونة التي أبدتها الجماهير للمطالبة بحقوقها ورد السلطات العنيف تجاه هذه المطالب، لكنَّ الجماهير المندفعة عاطفيّا تجاه مطالبها والمستعجلة في نيل مطالبها نظرت لهذه المواقف الصوفية نظرة سلبية واعتبرتها انحيازاً للسلطة وبعداً عن الجماهير ومطالبها! وهنا تلعب السلطات لعبتها بالاقتراب من الحالة الصوفية لجذبها تجاهها واستخدامها كمؤثِّر روحي تخفف من حالة الغليان الجماهيري لتنشأ تلك العلاقة بين السلطة وأتباع الطرق الصوفية أساسها حاجة الحالة الصوفية المؤطرة للرعاية وحاجة السلطة لولاء هذه الشريحة الاجتماعية المؤثرة في الوجدان العام كونها تستخدم الخطاب الديني كوسيلة تأثير على الجماهير.

وبناء على ذلك فإنَّ من يراجع تاريخ الحركة الصوفيَّة عبر التاريخ يلاحظ أنَّ سلوكها لم يكن صدامياً مع السلطات بل متماهيا معها في أغلب الأحيان كسياسة أمر واقع مبنية على:

- حاجة السلطة لاستقرار الجماهير أو استكانتها والحد من حركتها .
- حاجة الحالة الصوفية الطرقية للوقوف في وجه العنف الجماهيري حتى لو جاء في سياق المطالبة بالحقوق!

لكن وللإنصاف فإن الحالة الصوفية لم تكن كتلة واحدة في هذا الموقف، فرغم أنَّ بعض أتباع الطرق الصوفية بالغوا في مهادنة السلطات لدرجة أنَّهم استكانوا حتى لقوى الاحتلال الأجنبي وطالبوا بعدم مقاومته بحجَّةِ أن هذه القوى المحتلة هي السلطة التي يجب الخضوع لها وعدم مقارعتها! إلاَّ أنَّ هناك اتِّجاهات من ضمن الحالة الصوفية قارعوا المستعمر وحملوا السلاح بوجهه وقاوموه وساهموا في الاستقلال الذي نالته الكثير من الدول العربية والإسلامية والتَّحرر الذي حققته، والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها:

① شامل النقشبندي قائد الحرب ضد روسيا القيصرية.

② حركة الأمير عبد القادر الجزائري في الجزائر.

③ عمر المختار في ليبيا.

④ وصولاً إلى الدور الكبير لمحدِّث الشام وعلّامتها الشيخ محمد بدر الدين الحسني المفجِّر الحقيقي للثورة السورية الكبرى التي أخرجت الاحتلال الفرنسي.

لكن هذا يقودنا لسؤال آخر: هل كانت الحالة الصوفية هي الوحيدة التي اتَّخذت موقفاً مهادناً للسلطات؟

أوَّل ما يتبادر إلى الذهن في الإجابة على هذا السؤال هو موقف غالب الحركة السلفية من السلطة والتي يقوم فكرها على مبدأ التسليم بالأمر الواقع وإقرار شرعيته، بل إنَّ أحد مكونات هذا التيَّار تحرِّم كل أشكال الخروج على الحاكم مهما بدر منه من ظلم وجور وتعسف في حق النَّاس الذي يعبَّر عنهم في الفكر السلفي ((الرعيَّة)) فالناس رعيَّة عليها أن تخضع وتساق على رأي السلطة مهما شذَّت أو انحرفت أو جارت على الناس ! وحتى تحرِّم النّصح العلني للحاكم المستبد حتى لو مارس كل أشكال الرَّذيلة علناً.

وبعيداً عن الفكر الديني نجد أيضاً أغلب المنادين بالعلمانية المتطرفة أو اليسار المتَكَلِّس انحازوا إلى السلطات وبرروا لها توَحّشها تحت شعار الدفاع عن الدولة وحمايتها من الانهيار!

فإذا أقررنا بأنَّ هذا هو حال مختلف الاتِّجاهات الفكرية الدينية منها أو العلمانية والقومية في أكثرها تجاه السلطة، فمن له حق الاعتراض على الآخر؟ وما هي المرجعية التي يتَّبعها كل طرف في نقدهِ للآخر .

جميع هذه الأسئلة تحتاج إلى إجابات قبل أن يسعى أي طرف من الأطراف أن يوجِّه النَّقد للآخر، فعند نقد أي فكرة أو مشروع أو سلوك فعلى المنتقد أن يقدِّم البديل الواقعي القابل للحياة والقابل للمشاهدة والقياس والنَّقد ! أمَّا النَّقد المجرد الذي لا يقدِّم بديلا فالجميع يجيده !

وبما أنَّ القاعدة المنطقية تقَرِّر أنّ الحكم على الشيء فرع من تصوّرِه، كان لا بدَّ من هذه المقَدِّمة لنكون منصفين في الحكم، فالحكم على الشيء يقتضي فهمه واستيعابه بدرجة تمكننا من أخذ فكرة متكاملة عنه حتى يأتي حكمنا مطابقا لما تحمله من الرأي أو من محاذير أو أخطاء ارتأيتها فيه، أي أنه لابد من الإلمام التام بالموضوع محل الحكم قبل إصدار الحكم، فإنَه من الخطأ بل من الظلم والإجحاف الحكم على شيء من خلال سماع عابر أو اتباع لرأيٍ أو تقرير دون علم أو إلمام به،ففي هذه الحالة سيكون حكمنا بعيدا كل البعد عن الإنصاف، حيث يستحيل صحة الحكم على شيء سلبا كان أو إيجابا إن لم نحط بهذا الشيء تماما، ومن باب السلامة يتحتم على العاقل ألا يتكلم في شيء أو يتصدره أو يكون له فيه حكما أو رأيا أو يكون متَّبِعا ما لم يكن فيه على علم ودراية وإدراك تام، ونجد أنَّ اتِّباع هذه القاعدة هو استجابة لقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كلّ أولَٰئِكَ كَانَ عَنْه مَسْئولا﴾ (الإسراء/ 36)

وبعد هذه المقدِّمة التي تهدف لتحرير محل النِّزاع بين مجمل المواقف التي اتَّخذتها المكونات الاجتماعية المختلفة من الحراك الشعبي بكافة مستوياته نصل إلى جوهر البحث وهو :

قراءة هادئة في مسار الأشواك

موقف الشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله من ثورات الربيع العربي بشكل عام ومن الثورة السورية بشكل خاص ومن آل الأسد !

▿ لماذا البوطي؟

ربما من أوائل الأسئلة التي ترد في ذهن القارئ هو: لقد وقف العشرات بل المئات من المشايخ إلى جانب السلطات في سلوكها الإجرامي تجاه الحراك الشعبي بمختلف مستوياته، بل ذهب بعض المشايخ بعيداً في تأييدهم للسلطات حين أباحوا لها قتل النَّاس المطالبين بالعدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية تحت عناوين مرعبة ألبسوها لبوساً دينيّاً لكي تنطلي على بسطاء النَّاس ويكره عليها آخرون! فطالما الأمر كذلك، لماذا كانت الحملة ضد الشيخ البوطي هي الأشد والهجوم الذي تعرَّضَ له هو الأعنف؟!

وفي الإجابة السريعة على هذا السؤال نقول: لأنَّه البوطي !

فمشايخ النِّفاق الذين تستخدمهم السلطات عند اللزوم ثمَّ ترميهم في أقرب حاوية قمامة عند انتهاء صلاحيَّتهم لا يخيفون السلطات ولا تهتم لأمرهم الجماهير! فهم كالطبل له صوت عالٍ لكنه أجوف ويتخامد صوته ثم يتلاشى دون أن يترك أي أثر في نفوس النَّاس!

كل منصف يعلم أنَّ الشيخ البوطي رحمه الله ليس من هذا النوع من المشايخ! وهذا ليس كلاماً مرسلاً تحكمه العواطف بل هو كلام علمي عليه ألف دليل ودليل، ويحتاج لتفصيل يجب أن يوضع بين يدي القارئ لكي يكون رأيه مبني على دليل وبرهان، وأن يكون عادلاً في حكمه على موقف الرجل، استجابة لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(المائدة/8)، طبعاً هذا الكلام موجه للباحثين عن الحق بإنصاف ولا يعني أصحاب الهوى والأحكام المعلَّبة المسبقة والتي لا يجدي معها أي كلام ولا ينفع معها أي حوار !

▿ فمن هو البوطي وما هو منهجه ؟

النشأة والمنهج والرؤية

الإنصاف في النَّقد هي الثَّقافة الغائبة عن تقييمنا للآخر، فنجد الغالبية العظمى ممكن يكتبون أو يصَرِّحون بآرائهم عن الآخر ينطلقون من تقييمهم من داخل صناديقهم المغلقة وقناعاتهم المبنيَّة في الأغلب على هوى النَّفس في أحسن الأحوال وعلى التشويه المتعمَّد في أغلب الأحيان! فيغيب الإنصاف ويحضر الإجحاف في أبشع صوره!

لذلك نجد من النَّادر أن نجد كاتباً منصفاً ينقل الوقائع للنّاس كما هي ثمَّ يترك لهم الحكم.

واليوم في حديثنا عن الشيخ البوطي رحمه الله ورغم عدم اتِّفاقنا التَّام مع تعاطي الشيخ للعلاقة مع السياسة والسياسيين لكن سأحاول بحيادية اتباع التفسير الموضوعي متخذاً أدوات البحث العلمي من ملاحظة ومقابلة سبيلاً لنقل الواقع والسياق بدقة إلى المتلقي، ومن

ثمَّ أترك الحكم للقارئ يشكِّل قناعاته وفقا لما يطمَئِنَّ له قلبه، ولا بدَّ من القول أنَّ ما أكتبه عن الشيخ لا يأتي من فراغ معرفي بل من واقع رحلة مع فكره امتدَّت لعقود، فكر فيه من الإبهار ما يجعلكَ تعيش في حالة تصالح مع هذا الوجود بتعقيداته! فيزَوِّدك بمعرفة تكشف خفاياه وتميط اللثام عن أسراره وخباياه، فمن يحمل هذا الفكر يحَتِّم على الجميع ومن باب الإنصاف أن يكون لهم فيه رأي مختلف وأن لا يوضع في سلة واحدة مع مشايخ النِّفاق النفعي الفارغ من كل علم والمبني على أساسٍ مصلحي خالٍ من أي مبدأ أو قيمة أو خلق!

فالرجل كما أشرنا في الفصول السابقة هو نتاج بستان علم وثمرة لشجرةٍ مباركة أصلها في جزيرة بوطان، جزيرة العلم والعلماء، حمل هذه الثمرة رجل[1] مشهود له بغزارة العلم والاستقامة والصلاح وأودعها في ميدان العلم الدمشقي وفي روضة الحسن الحبنَّكي التي ينتمي إليها خيرة علماء الشام وأكابر دعاتها، نشأ وترعرع في هذا الرياض العلمائية الطيبة فنهل منها صنوف العلم وفنون الأدب، ورغم انتمائه لهذا الأصل الكريم والطعم الأصيل ودراسته الأكاديمية المتخصصة في أعرق الجامعات الإسلامية الأزهر فقد كان لعلمه نكهته الخاصة التي تتفرَّد في بعض جوانبها عن السياقات التقليدية التي اعتاد عليها النَّاس.

فهو إنسان:

صوفي النزعة نقشبندي الطريقة.

لكنَّه الرَّافض لكل الشطحات الصوفية المتفلِّتة من ثوابت الشريعة، وقدم الحكم العطائية في شرح متوازن ومعاصر يعد واحداً من أهم شروح الحكم في العالم الإسلامي

معلم جامعي:

نذر نفسه ليكون أحد حراس الشريعة فتعلَّمها وعلَّمها وأصبح عميد كليَّتها وأحد أعمدتها الراسخة، ذلك المكان الذي حقق له انتشاراً واسعاً بين الطلاب والجامعيين داخل سورية وخارجها.

1- ملا رمضان البوطي

أديب بليغ :

لم يقتصر نشاطه على تلك الميادين ولم يتوقف فكره عند تلك الحدود، فهو الكردي الأصيل صاحب اللسان العربي المبين، فهو الأديب الأريب الذي نقل للعربية حكاية (ممو زين) قصة العشق الذي نبت في الأرض وأينع في السماء فكان مبدعاً في إعادة تصوير الحكاية بلغةٍ أدبية ممتعة ومشوقة جذبت الكثير من قرّاء العربية نحوها.

فقيه شافعي ومؤرخ للسيرة:

صاغ بقلمه فقه السيرة النبوية العطرة بأسلوبٍ راقَ للملايين فوصلت النسخ منه كل أصقاع الأرض ليصبح متعة للقارئين ومادة للدارسين ومرجعا للباحثين .

متكلم وفيلسوف :

ففي الاعتقاد هو صاحب كبرى اليقينيات الكونية التي قدَّم من خلالها رؤيته لعلاقة الإنسان بهذا الكون من جهة وعلاقته بخالقه من جهة أخرى.

المفكر والمنافح:

الذي قارع الفكر الليبرالي واليسار التقليدي فنقضَ أوهام المادية الجدلية وهدم أركانها بطريقة جديدة فذة بيَّن من خلالها كيفية حوار المسلم الواعي مع الآخرين، حيث لم يعتمد فيها على الأسلوب الخطابي العاطفي الذي يدغدغ العواطف و يثيرها بل سعى لمخاطبة العقول ولم يحتكم للمنطق الديني في إبطال تلك المفاهيم بل استعمل أدواتهم في نقضها وهدمها وقدَّم رؤية رصينة يسهل الدفاع عنها بالعقل وأدواته المحضة ! وقد تمكَّن بأسلوبه العذب من تمزيق غاشية الانبهار بالكثير من العناوين البراقة التي تأثرت بها بعض النفوس الضعيفة، كما سعى لإنهاء عهد الجدل الخطابي المتشنج الذي كان سائداً فاستعاض عنه بالحوار العلمي الهادئ، ولعلَّ من تابع مناظرات الشيخ مع أقطاب العلمانية واليسار أمثال صادق جلال العظم والطيب تيزيني من موقعٍ محايد يدرك عمق الفكر وقوة الحجة التي تميَّز بها الشيخ في مواجهة الفكر المقابل!

عرف بتَصَدِّيه للعديد من القضايا الفكرية والسياسية والاجتماعية رغم تجنّب الكثير من أقرانه الحديث عنها.

هذا التّنوع في طرح الأفكار الجديدة والجريئة سمح له بخلق فضاء واسع من الجمهور المتنوع الذي وجد فيه شخصية مقنعة إلى حدٍ كبير، حيث تصدَّى للكثير من القضايا المعاصرة فكان له رأي وفتاوى محددة في الكثير من تلك الوقائع.

لم يتوقف فكر الشيخ عند نقض الأوهام بل سعى لتشخيص المشكلات التي تعاني منها المجتمعات الغربية، فقدَّمها في كتاب واضعا عناوين لأهم هذه المشكلات اختصرها في عدة نقاط فصَّلها في الكتاب :

← صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان تناقض مبدأ الصيرورة.

← الرق الذي ظل مباحاً في الإسلام حتى عصور متأخرة يتضارب مع الكرامة الإنسانية.

←النظرة الدونية للمرأة التي ما تزال راسخة في المجتمع الإسلامي تتعارض مع المساواة.

←التقديس للتراث يحرم المسلم من النظرة العلمية الواعية.

← السماح بالنقد للأشخاص والحوادث الميثولوجية في الكتب المقدسة عدا القرآن يتنافى مع إيمان المسلم بالكتب السماوية.

←الثورة على سلمان رشدي وآياته الشيطانية مصادرة لحرية الرأي.

← الحياة وراء الحجاب نوع من الموت.

← موضوع التسري لا يختلف كثيراً عن الدعارة !

جميع هذه القضايا عالجها الشيخ في كتابه وردَّ على كل منها رداً وافياً مدعوماً بالحجة والبرهان.

لم يكتفِ الشيخ رحمه الله بالحديث عن مشكلاتهم، بل أتبع كتابه السَّالف الذِّكر بكتابٍ آخر أسماه وهذه مشكلاتنا عالج فيه أهم القضايا التي تعاني منها مجتمعاتنا واختصرها بنقاطٍ محدَّدة :

←الجدلية المضنية بين المعلم والتلميذ.

←الثوابت والمتغيرات في الإسلام .

←الإنشغال عن واجب الدعوة بأحلام المجتمع الإسلامي.

←الوجود الإسلامي في ظل النظام العالمي الجديد.

←المعرفة وعلاجها في حياتنا الفكرية المعاصرة.

←العلاقة بين العلم والدين.

←الثقافة الإسلامية وخصائصها.

←العلوم الإنسانية في كثير من جامعاتنا.

لقد أفاض الشيخ رحمه الله في شرح هذه المشكلات وطرق علاجها لتصبح دليل عمل لكل الباحثين عن تشخيص مشكلاتنا ووضع أفضل الحلول لعلاجها !

أشعري الاعتقاد:

ورغم هذا التنوع الكبير في القضايا التي عالجها الشيخ رحمه الله في عشرات المؤلفات التي أصدرها، يبقى كتاب الجهاد في الإسلام كيف نفهمه وكيف نمارسه هو أكثر الكتب إثارة للجدل! حيث قدَّم مفهوما متوازنا لقضية الجهاد في الإسلام بمعناه الواسع، وأتى بالأدلَّة التي تدعم رؤيته من القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية، وهذا الكتاب يعد المؤسس لفكر الشيخ لعلاقة الناس مع السلطة وكيف يمكن أن تكون علاقتنا مع الآخر أيضاً انطلاقاً من مقاصد الشريعة وفقا لقراءته لمفاهيم الإسلام المقاصدي.

هذا الفكر لم يَرقْ للكثيرين من أصحاب العقول الحامية الذي يعتبرون علاقتنا مع الآخر هي علاقة تصادمية وليست علاقة تعايشيَّة! وربما يكون هذا الفكر الهادئ والتصالحي مع النفس ومع الآخر هو من أكثر الأسباب التي جعلت من الشيخ عرضة لما تعرَّض له من هجوم، لم يتوقف عند حدود اختلاف الآراء وتعدد الرؤى لكن تجاوز ذلك إلى السباب والشتائم.

فالشيخ له رؤية بناها على أصول فكرية راسخة يقدم لها الدليل والبرهان، فهو يؤكد في كتابه الجهاد في الإسلام أن ((الجهاد بالدعوة إلى الله هو أساس الجهاد وعماده، وهو الذي استغرق من حياة الرسول ﷺ الفترة الأطول، وهو الجهاد الماضي إلى يوم القيامة، والمستمر

في كل الظروف والأحوال))[1] وهو يعد أن الجهاد القتالي، هو فرع من فروع الجهاد، ((محدود بظروف خاصة، ومقيد بشروط معيّنة، من تكوّن المجتمع الإسلامي وتميّزه في دار الإسلام ونشوء حِرَابة تهدد مكتسباته))[2] فالجهاد القتالي الذي شرّع بتأسيس دولة النبي، إنّما شرّع في نظره ((دفاعاً عن هذه الحقوق الثلاثة: الأرض التي أورثهم الله إياها، والجماعة المسلمة التي ترسّخ وجودها فوق تلك الأرض، والنظام السلطوي الذي أعطى تلك الجماعة القوّة والفاعلية. وقد علمت أن المسلمين لم يكونوا يملكون شيئاً من ذلك من قَبْل)) [3] .

فهو يرى أنَّ الجانب القتالي من الجهاد لا يمارس إلاَّ بشروطه ولا يعلن إلا من خلال الإمام الذي بيده أمر إعلانه و أن مبرّر هذا القتال هو وجود الحِرَابة، فإذا انتفت الحرابة انتفى موجب قتالهم من المسلمين.

فالجهاد وفقاً لرؤيته التي حاول بيانها والأدلة التي ساقها في كتابه الجهاد في الإسلام تتلخَّص في قوله:

الجهاد بمعناه الأوسع هو الجهاد الدعوي وهو الذي استغرق المدَّة الأطول في حياة النبي محمد ﷺ وهي المرحلة المكية، وأنَّ الجانب القتالي من الجهاد ينحصر في مفهوم الحرابة أو تعرّض البلاد لعدوان خارجي، ونحن في هذا الكتاب لسنا بصدد تأصيل مفهوم الجهاد أو الانتصار لرأي الشيخ مقابل رأي مخالفيه، لكننا نهدف إلى بيان رأيه وقناعاته الراسخة في هذه القضية، وأنَّه يتبنى هذا المنهج مرضاة لله واتّباعاً لنهج نبيّه صلى الله عليه وسلم وليس نفاقاً أو تزلّفاً أو تقرّباً من سلطة حاكمة أو إرضاء لغريزة جماهيرية أو شعبوية كما يعلن دائماً.

أي أنَّه يعتبر أن المجتمع الذي يسعى النظام الإسلامي لإقامته ويجعله هدفا له هو مجتمع إنساني يتسع لتعاون حقيقي وفعَّال بين المسلمين وغيرهم، طبعاً هذه الرؤية التي يتبنَّاها الشيخ يختلف معه كثيرون حولها ولهم آراء أخرى بأدلتها التي يرونها وهذا ليس موضع بحثنا، فعلى مدى تاريخ الإسلام تختلف رؤى علماء المسلمين حول الكثير من القضايا إن لم يكن

1- د.محمد سعيد رمضان البوطي، الجهاد في الإسلام كيف نفهمه وكيف نمارسه، ط1، دار الفكر المعاصر بيروت- دار الفكر سورية، 1993، ص

2- د.محمد سعيد رمضان البوطي، الجهاد في الإسلام كيف نفهمه وكيف نمارسه، ط1، دار الفكر المعاصر بيروت- دار الفكر سورية، 1993،

3- د.محمد سعيد رمضان البوطي، الجهاد في الإسلام كيف نفهمه وكيف نمارسه، ط1، دار الفكر المعاصر بيروت- دار الفكر سورية، 1993،

معظمها، لكن يبقى هذا الاختلاف في إطاره العلمي ولا يتحوَّل إلى ضغائن وأحقاد وخصومات وتخوين وتجهيل بل وتكفير واستحلال دم كما حدث في قضية الشيخ البوطي رحمه مع مخالفيه، هذا ملخص لرؤية الشيخ رحمه للعلاقة مع الآخر وضوابطها.

أمَّا رؤيته للعلاقة بين الحاكم والمحكوم والسلطة والمعارضة أيضاً وضع لها ضوابط وأحكام يستمدها من نصوص الكتاب والسنَّة وفقا لقراءته لها وللقراءات التي ينقلها عن علماء كبار ينتمون للمدرسة الفقهية التي ينتمي لها، وسنحاول الاقتراب من فهمه لهذه العلاقة من خلال ما يصرح به وما ينقله عن أسلافهِ.

كيف ينظر الشيخ البوطي رحمه الله للعلاقة بين الحاكم والمحكوم وماهي ضوابطها وهل مواقف الشيخ مواقف مبتورة أم لها جذور ؟

رأي الشيخ البوطي صريح في هذه المسألة ويجاهر به وله أدلته التي يوردها دعماً لهذا الرأي، فهو:

▿ **يرفض تكفير الحكام كمقدِّمة لاستعمال السلاح ضدهم للوصول إلى الحكم**، حيث يؤكِّد أنَّ ذلك يتناقض مع الأحاديث النبوية، ومنها: ((من خرج على أمتي يضرب برّها وفاجرها، لا يتحاشى مؤمنها ولا يفي بذيِ عهدها فليس مني)) (رواه مسلم والنسائي وأحمد).

▿ يؤكِّد أنَّ العجز عن الدعوة والإقناع العقليّ هو ما يدعو تلك الجماعات اللجوء إلى العنف وحمل السلاح.

▿ يعد أنَّ مجرّد ابتعاد الحاكم عن بعض الأحكام الدينية لا يوجب الخروج عليه، وإنما الموجب الوحيد في نظر البوطي هو «الكفر البواح»، ويضع قيوداً شرعية لإثبات كفر الحاكم، ويؤكد أن الجماعات التكفيرية لا دليل لهم يثبت مشروعية نزعتهم التكفيرية الموصلة للعنف لا من القرآن الكريم ولا السنّة النبوية الصحيحة، بل هي قراءات مبتورة لظاهر بعض النصوص من وجهة نظره !

▿ يحاول حماية مفهوم الجهاد من كل غبشٍ قد يلحق به ويتسبب بنزوله من عليائه كأهم دعائم الدعوة إلى الله إلى مفهوم عبثي أو سلاح طائش بيد أناسٍ يجهلون قيمته ولا يجيدون استخدامه بعقلٍ وحكمة ! لذلك هو يفرّق بين مفهوم الجهاد كقيمة سامية ومفهوم الهرج كوسيلة عبثية لا تنتج إلاّ الفوضى والاستهانة بأرواح الناس ودمائهم .

يقول[1]: "قد أوضح الكتاب المبين؛ كتاب ربّنا جل جلاله، ومن ثمّ شرح لنا رسولنا محمدﷺ الفرق بين الجهاد المبرور الماضي إلى يوم القيامة وبين الهرج الذي هو علامة من علامات قيام السّاعة والذي هو أخطر بابٍ وأوسع بابٍ إلى الفتنة الدّهماء، ومع ذلك فإنّنا لنسمع ونرى ما لا يصدّقه العقل، نرى أناساً يزعمون أن الجهاد قد التبس عليهم بالهرج، يدعون إلى الهرج ويرفعون لواءه ويزعمون أنه الجهاد في سبيل الله، يأمرون بما نهى رسول الله ﷺ عنه، يأمرون بما حذر منه كتاب الله عز وجل ويقولون إنه الجهاد))

من يقرأ هذا الكلام بتأنّي أو يستمع إليه بهدوء يدرك الحرص عل مفهوم الجهاد كمنهج رباني يحدد مسار الدعوة إلى الله بما يحقق سعادة البشر، والتحذير من استخدامه كأداة قتل عمياء تنشر الفوضى وتثير الرعب في النّفوس، فيهدر دم البريء وتضيع حقوق العباد فتصدق فينا نبوءة رسول الله ﷺ ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَذْهَب الدّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْم لَا يَدْرِي الْقَاتِل فِيمَ قَتَلَ، وَلَا الْمَقْتول فِيمَ قتِلَ، فَقِيلَ : كَيْفَ يَكون ذَلِكَ ؟ قَالَ: الْهَرْج، الْقَاتِل وَالْمَقْتول فِي النَّارِ)) رواه مسلم (2908)

ولزيادةِ الأمر بياناً وفهم المرجعية التي بنى عليها الشيخ رحمه الله رأيه نتأمّل هذه الرواية التي تقترب كثيراً من تصوير الحالة التي وصلنا إليها والتي حذّر منها الشيخ رحمه الله :

((كَانَ رَسول اللَّهِ ﷺ يحَدِّثنَا أَنَّ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ الْهَرْجَ. قِيلَ: وَمَا الْهَرْج؟ قَال: الْكَذِب وَالْقَتْل. قَالوا: أَكْثَرَ مِمَّا نَقْتل الْآنَ؟ قَالَ: إِنَّه لَيْسَ بِقَتْلِكمْ الْكفَّارَ، وَلَكِنَّه قَتْل بَعْضِكمْ بَعْضاً، حَتَّى يَقْتلَ الرَّجل جَارَه، وَيَقْتلَ أَخَاه، وَيَقْتلَ عَمَّه، وَيَقْتلَ ابْنَ عَمِّهِ. قَالوا: سبْحَانَ اللَّهِ! وَمَعَنَا عقولنَا؟ قالَ: لَا، إِلَّا أَنَّه يَنْزع عقولَ أَهْلِ ذَاكَ الزَّمَانِ، حَتَّى يَحْسَبَ أَحَدكمْ أَنَّه عَلَى شَيْءٍ وَلَيْس عَلَى شَيْءٍ)) رواه أحمد في المسند (32/409)

1- في خطبة جمعة ألقاها بتاريخ 27 أيار «مايو» 2011م

وحتى لا نبقى ضمن دائرة المصطلح نحاول إسقاطه على المفاهيم المتداولة التي تدركها النَّاس اليوم، فنقول إنَّ حالة الفوضى التي ينتشر خلالها الكذب ويكثر القتل والتي نعيش فصولها في هذا الزمان هي المرادف لمصطلح الهرج الذي استحضره الشيخ من قاموسه الفقهي المستمد من النصوص التي يوردها كحجة ودليل على مذهبه الذي يتبنَّاه في هذه القضية وغيرها من القضايا التي يتصدَّى لها !

لكن السؤال الذي يتبادر للذهن من فوره، هل المظاهرات التي يخرج بها النَّاس مطالبين بحقوقهم أو معترضين على سلوكيات السلطة هل هي من الهرج الذي يتم التحذير منه؟

طبعاً لا يمكن الإجابة على هكذا سؤال بنعم أو لا، لأن الأمر يتعلَّق بطبيعة هذه المظاهرات ودوافعها، وسلوك المتظاهرين وكيفية التَّعامل معهم، لذلك سنبحث عن الموقف من مبدأ التَّظاهر كأحد الوسائل التي تلجأ لها الناس للضغط على السلطات للحصول على حقوق معينة أو مكاسب محددة أو حتى دفع ظلم وتحسين وضع، فعندما تكون المظاهرات ضمن هذا السياق:

ما هو موقف الشيخ البوطي منها؟

وهل يعتبرها خروجاً على الحاكم؟

وهل هي من الهرج الذي حذرنا منه؟

سنبحث عن موقف الشيخ من هذه الظاهرة ضمن شروط طبيعية وفي سياق علمي وليس تحت ضغط معين سواء من السلطة أو من النَّاس!

وعند بحثنا في مؤلفات الشيخ عن موقفه من حالات التَّظاهر السلمي التي تهدف للمطالبة بالحقوق أو الاحتجاج على سلوك السلطة وجدناه يؤكّد على أنّ المظاهرات السلميّة والهتافات ضدّ الحاكم لا تعدّ من أنواع الخروج على الحاكم من حيث الأصل، إذ المقصود عند الفقهاء بالخروج على الحاكم هو الخروج المسلّح بينما الهتافات حتى المنادية بإسقاط النّظام لا تعدّ نوعا من أنواع الخروج على الحاكم!

فيقول : ((وعلينا تذكير أولياء الأمور أنهم مكلفون بتطهير مجتمعاتهم من المنكرات التي يستعلن بها، فإن لم تجد تذكرتهم شيئا وبقيت المنكرات على حالها، بل ربما أخذت تزداد وتتفاقم ! فما الذي يجب فعله عندئذ؟

ويجيب: أنَّ الإنكار اللساني يجب أن يستمر من الناس، وفي ذلك ما يرفع اللائمة عنهم أمام الله عزوجل، ولكن هل يحق لهم في مجال الحوار أن يطالبوا الحاكم بالتنحي عن الحكم عندئذ؟ دون أن يتجاوزوا في ذلك حدود الحوار والكلام والإعلان عن الرغبة التي في نفوسهم؟

الذي أعلمه أنَّ هذا لا يعد في ذاته خروجاً على الحاكم (وقد علمت أن الخروج عليه غير جائز فيما اتفق عليه جمهور المسلمين مادام لم يتورط في كفر صريح بواح) إذ الخروج الذي حذر منه علماء الشريعة الإسلامية هو العمل على خلعه بالقوة، أي بقوة السلاح، والاحتجاجات اللسانية، بوسائلها السلمية المعروفة اليوم لا تدخل في المعنى الذي حدده العلماء لكلمة الخروج على الحاكم))[1] فهل هناك كلام أوضح من هذا لبيان رأي الشيخ في المظاهرات؟ لكن ربما يجيب البعض بالقول: لكن الشيخ دعا النّاس صراحة لوقف المظاهرات والدخول في حوار مع النظام لتحقيق الإصلاحات المنشودة ففي الفتوى المنشورة بتاريخ 14 من حزيران «يونيو» عام 2011م يسأل سائل: «ما حكم الذي يأخذ نقوداً من الدولة أو أشخاص منتفع منها ويقوم بفض المظاهرات السلمية بالقوة المفرطة التي تقوم من أجل المطالب الشعبية؟» فيأتيه الجواب من الدّكتور البوطي:

((ثبت بما لا يقبل الشكّ أن الخروج إلى المسيرات واستثارة الآخرين بالهتافات المختلفة، ذريعة إلى فتنةٍ لا مجال للتحرّز منها، وكثيرا ما تتمثّل هذه الفتنة بقتلٍ أو تعذيبٍ أو سجنٍ لأناسٍ لم يكونوا معرضين لشيءٍ من ذلك لولا هذه المسيرات، وقد أوضحت لك في سؤال سابق حكم الذّرائع الموصلة إلى جرائم ومحرمات، وبينت دليل حرمتها وسخط الله على الذين لا يبالون بحكم الله فيها. فلماذا تسألني عن حكم أخذ النقود لفضّ المسيرات، ولا تسألني عن حكم المسيرات ذاتها؟! المهمّ أن نعلم ويعلم كل مسلم أن سدّ الذّرائع إلى الفتن والمحرمات واجب شرعيّ خطير بنص صريح من القرآن))

1- د. محمد سعيد رمضان البوطي، من سنن الله في عباده،،ص115

نعم لقد قال الشيخ هذا الكلام، لكن قبل الحكم عليه من خلال هذا الكلام لا بدَّ أولا من النَّظر إلى تاريخ صدور هذا الكلام عن الشيخ وكيف كانت أحوال البلد في ذلك الوقت؟ فمن وجهة نظره أنَّ النَّاس وصلت لحالة الهرج التي حذَّر منها وبدأت الدماء تسيل ووحشية النظام بلغت مبلغا خطيرا في ردَّة فعله تجاه المظاهرات التي واجهها بالأسلوب الذي لا يجيد سواه وهو العنف بأبشع صوره، لذلك يجب النظر إلى كلام الشيخ انطلاقاً من هذه المعطيات، ووضعه في سياق الأحداث الجارية عند صدور هذا الكلام، فهذا الكلام لا يعني تَغيّر موقف الشيخ من المظاهرات الذي ذكرناه، لكن تغير الأحداث تستدعي كلاماً مختلفاً !

نعم هو دعا الناس لوقف المظاهرات حسب رؤيته خوفاً من الدخول في (الفتنة) والمقصود بها هو حمَّام الدم الذي وقع بعد ذلك، ونرى أنَّ الدَّافع لهذه الدعوة هو معرفته الدقيقة واللصيقة لهذا النظام الذي يتعامل معه ومدى الإجرام الذي يمكن أن يمارسه في مواجهة النَّاس، والآن وبعد أن تبيَّن للجميع كمية الإجرام الذي مارسه النِّظام في حق الشعب السوري وسكوت العالم عن هذه الجرائم بل ومشاركته بها من خلال إصراره على دعم آلة القتل في مواجهة شعب شبه أعزل مقارنة بترسانة الأسلحة التي سمح للنظام باستخدامها بعدما خطَّط ونجحتْ خطته بتحويل الحراك السلمي إلى نزاع مسلح تكون له اليد الطولى به بمساعدة دول عظمى وتواطئ دول أعظم، وربما هذا هو الشيء الذي أدركه الشيخ ببصيرته عندما اكتفى الآخرون ببصرهم!

بل أكثر من ذلك ومن خلال مقابلتي لشخصيات مقرّبة من الشيخ رحمه الله أكّدت أنَّ النِّظام وجَّه له رسائل دموية من خلال إمكانية استهداف أشخاص مقربين من الشيخ أولّا ثمَّ وضعه هو شخصيّاً في دائرة الاستهداف ثمَّ التَّخلّص منه لاحقاً .

فهل أدرك خصومه من أي موقعٍ كان يتحدَّث الشيخ رحمه الله قبل أن يطلقوا سهامهم عليه؟

والآن وبعد اكتمال المشهد واتِّضاح الرؤية التي ينطلق منها الشيخ في حكمه على الأمور ومعالجته للقضايا التي تخصّ عموم النَّاس، لا بدَّ لنا أن نسأل:

هل موقف الشيخ الذي أعلنه هو موقف بدعيّ مبتور عن مواقف أسلافه؟ أم هو امتداد لفكرٍ متجذِّر في وجدان الأمَّة قال به علماء أفذاذ تشهد لهم الأمَّة بالعلم في مختلف العصور في تقديم رؤى سارت عبر التاريخ وتم الاحتكام إليها في فهم العلاقة بين الدين والسياسة والحاكم والمحكوم!

لكن إذا أردنا فهم جذور المسألة دون الدخول في تعقيدات السياسة والحكم وموقع الدين بينهما، لا بدَّ من العودة إلى بدء مسار هذه العلاقة، فأبسط قارئ للتاريخ يستطيع رسم ملامح المنطقة العربية أو بمعنى أوسع الشرق الأوسط وفقا للمصطلحات الحديثة، وبمعنى أدق المنطقة التي كانت مسرحاً لبعثة النبي محمد ﷺ، هذه المنطقة المضطربة التي وجدت بين قوتين منظمتين شرقها وغربها (الفرس والروم)، معلوم للجميع هشاشة هذه المنطقة سياسيّا وعسكريّا وحتى اقتصاديّا لاعتمادها في رزقها على رحلتي الشتاء والصيف بين الشرق والغرب، جاءت البعثة النبوية ومعها الرسالة التي أعادت تشكيل المنطقة على قواعد جديدة، هذه القواعد مستمدَّة من الدين، بمعنى أن الدين هو الذي رسم السياسة التي حكمت المنطقة في العهد النبوي، فوثيقة المدينة كانت هي الدستور الأول الذي أقام مجتمعاً جديداً تسوسه تعاليم الدين وتحكم العلاقة بين جميع مكوناته !

لذلك نستطيع القول إن:

الرسول محمد ﷺ قدَّم أعلى مستوى من الفهم البشري لرسالة السماء فكان عهده عهداً معيارياً لكل من يأتي بعده ويجعل من تعاليم الرسالة المحمديَّة مرجعاً في بناء المجتمعات وضبط العلاقة بين مكوناتها!

يقول د. البوطي: وأول إمام للمسلمين منذ بعثة خاتم الرسل والأنبياء، محمد ﷺ ؛ فهو إلى جانب كونه نبياً مرسلاً من قبل الله إلى الناس، وإماماً لهم أيضاً. ولقد أقام رسول الله الحكومة الإسلامية على أسس تنظيمية منسجمة مع أوضاع الناس الاجتماعية آنذاك. ثم أخذت هذه الأسس تزداد فاعلية وتعقداً وأخذا لأشكالها الرسمية، كلما ازدادت حياة الناس سيراً نحو التعقد الاجتماعي والحضاري. ذلك لأن الأنظمة الإدارية للحكم إنما هي ظلال لواقع الشعوب وأحوالها الاجتماعية فالشعب الذي لا يزال يعيش مرحلة البساطة والبداوة من حياته، لا

يمكن أن يؤخذ بتلك النظم الإدارية المعقدة التي لم تأت إلا نتيجة أوضاع اجتماعية معقدة. لذا نقول بحق: إن البحث عن قيمة الحكومة الإسلامية التي أقامها رسول الله ﷺ من خلال الموازنة بين أنظمة أي دولة في هذا العصر، ونظام الدولة الإسلامية في فجر نشأتها: بحث عابث لا طائل منه.

حسب الدولة الإسلامية التي أنشأها رسول الله أنها قامت على أسس دستورية صيغت كأحدث ما تصاغ به الدساتير الحديثة اليوم، وأن وجودها إنما على فكرة الأمة الواحدة؛ التي جاءت حدثاً طارئاً على أذهان العرب ومشاعرهم جميعاً في ذلك العصر.

وقد عبرت عنها تلك الوثيقة الدستورية في أول بند من بنودها؛ التي تزيد على ثمانين بنداً؛ وهو "المسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس" ثم حسبها أنها قامت بعد ذلك على أسس وقواعد دستورية؛ كالعدل والحرية والشورى والمساواة، وأنها تجلت أبرز ما تكون في منهج الحكم وتدابير الأمور، وأنها كانت دعائم راسخة لأوطد حكم عرفه التاريخ. ينبغي أن نعلم أن الأسس والأنظمة التي تقوم عليها الدول العربية والإسلامية اليوم لا علاقة لها بشيء من الأسس والنظم الإسلامية السابق ذكرها. وأول وأخطر مظاهر بعدها عن القواعد الإسلامية تعدّدها وتشرذمها. لقد طوي النظام الإسلامي للدولة الإسلامية، منذ أن تم انهيار الخلافة الإسلامية؛ التي ظلت حصناً للإسلام طوال ثلاثة عشر قرناً. وإنما تم انهيارها بخطة بريطانية تضافرت معها جهود الصهيونية العالمية. منذ ذلك اليوم والعالم الإسلامي يزداد تفككاً فتدابرا فشقاقا.[1]

في العهد الراشدي اجتهد الخلفاء الأربعة الذين جاؤوا بعد النبي ﷺ في الاقتداء بالنموذج المعياري الذي تركه لهم رسول الله، فقدَّموا لنا أربع نماذج من الفهم البشري لذلك النموذج المعياري، وكان الدين طيلة هذا العهد هو الذي يرسم سياسة الدولة والمجتمع، لكن بعد ذلك وفي أول صراع بين سياسة الدين ودين السياسة رجحت كفَّة السياسة وبدأت تتصلَّب في مواجهة الدين !

1- د. محمد سعيد رمضان البوطي/ إحياء جوهر الإسلام في حياة المسلمين مما خطه في حياته ونشر بعد استشهاده، ط2، دمشق - دار الفكر، 2017، ص 84

ظهرت بعد ذلك عدة محاولات لاستعادة دور الدين في رسم سياسة الحكم وضبط سلوك المجتمعات، تعود بذور هذه المحاولات إلى:

✓ أول تمرّد في وجه الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضوان الله عليه.

✓ مواجهة الخليفة الرابع علي بن أبي طالب لرافضي خلافته وما رافقها من أحداث مؤلمة.

✓ ثورة الحسين بن علي.

✓ ثورة عبد الله بن الزبير

✓ ثورة زيد بن علي.

✓ ثورة محمد النفس الزكية.

وغيرها من الحركات والثورات، التي رفعت شعار الدين في مواجهة سياسة السلطة!

هذه الحركات جميعها فشلت في سعيها لاستعادة دور الدين، فتغوَّلت السياسة فواجهت مؤسسات الحكم والسلطة خصومها بكل القوة والعنف مما أدَّى لانقسام حتى في صفوف المطالبين بالإصلاح الديني، فظهرت فئة دينيَّة ابتعدت عن الصراع مع مؤسسات الحكم وأظهرت سلوكاً روحانيّاً يهجر الدنيا لصالح التوجّه نحو الآخرة فظهر مفهوم الزهد الذي تطوَّر إلى مفهوم التَّصوف في مستوياته المختلفة.

كما ظهرت طبقة فقهاء السلاطين الذين أرادوا تسويق سلوك السلطة لدى العامَّة فبرروا قسوتها وأعطوا السلطان الحق في ممارسة كل الوسائل التي يسعى من خلالها لاستقرار حكمه ودوام سلطانه، فتعقَّدت قراءة الدين وفهمهِ من قبل العامَّة مع ظهور الفرق الإسلامية والمدارس الكلامية وتعدد الاتجاهات الفكرية، ليصبح الدين أداة صراع بدلاً من كونه عامل سلم واستقرار، ليظهر مفهوم الفقه السلطاني الساعي لترويض الناس بعد فشل كل محاولات الحركات التي رفعت شعار الإصلاح الديني.

ومع طغيان الفقه السلطاني على المشهد الديني تم اضطهاد وتغييب كل من يحمل فكراً يعارض السلطة أو لا ينسجم مع توجّهاتها، فتم نحت مصطلحات فقهية استخدمها السلطان للتخلص من خصومه، فغاب مفهوم الثورة وظهر مصطلح الفتنة الذي يبرر للسلطان

القضاء على أي حركة تمرد أو احتجاج قد تظهر في مواجهته، كما ظهر مصطلح الزندقة للتخلص من أيِّ فرد قد يجهر بفكر فيه بذور معارضة للسلطة، فأصبح الصوت الأعلى هو صوت الفقه السلطاني وخفتت الأصوات المطالبة باستعادة الدور الإصلاحي للدين !

ليس هدفنا من الحديث عن هذه الحركات بيان تفصيلاتها والدخول في تعقيدات ظهورها وكيفية التعامل معها ومدى أحقيَّتها وتحديد موقف منها ! لكن ما نهدف إليه هو بيان الحالة التي نشأت خلالها الاتجاهات الفكرية الإسلامية وكيف تم رسم ملامحها وكيف سارت عبر التاريخ حتى وصلنا لما نراه اليوم من هذه الاختلافات الحادَّة في فهم الواقع الذي لم يتخلَّص من عوالق التاريخ ومازالت تلك الأحداث هي التي ترسم ملامح واقعنا الذي نعيشه اليوم !

هذه الحركات والثورات والصراعات التي حدثت في تاريخنا وأشرنا إليها بشكل مختصر هي التي شكَّلت الوعي العام الذي نعيش تداعياته اليوم، وفشل هذه المحاولات الإصلاحية التي ترفع شعارات دينية وهزائمها المتكررة هي التي كرَّست دور الفقه السلطاني الذي ظهر في خضم هذه الأحداث الكبرى وأصبح التَّخلص منه أو حتى مجرد التشكيك به عملية شاقَّة خاصة بعد أن تشرَّبه الناس لدرجة أصبح من الصعوبة بمكان أن تقنعهم ببعدهِ عن الصواب أو أن تقدم لهم فكراً بديلاً.

هذه الحالة من الاستقطاب بين فقهاء السلاطين وطبقة العلماء الذين يحملون فكراً مغايرا أدَّت لظهور طبقة من العلماء تحاول عقد صلح في الصراع الناشئ بين النزعة السلطوية والمرجعية الدينية بحيث لا تطغى الأولى ولا تغيب الثانية ! فكانت الحاجة لظهور مفهوم السياسة الشرعية التي تسعى لدفع الحاكم للبقاء تحت مظلة الشرع، فكتب الماوردي الأحكام السلطانية التي حاول من خلالها ضبط هذه العلاقة الملتبسة بين ضروريات الحكم وتعاليم الشريعة، وحاول الإمام الغزالي عقد مصالحة بين الفقه والتصوف في فكرٍ سعى من خلاله لإحياء علوم الدين، فقرَّبَ بين الفقهاء والمحدِّثين من جهة وعلماء الصوفية من جهة أخرى، فساهم في ظهور مسار عريض في الفكر الإسلامي شملَ غالبية الأمة ومذاهبها الكبرى التي تمثَّلت في كلٍّ من الأئمَّة أبو حنيفة ومالك والشافعي في الفقه والأشاعرة والماتريدية في

الاعتقاد، باستثناء مسار ضيق موازٍ لهذا المسار تمثَّل فيما سمِّيَ بالتيار السلفي الذي تعود جذوره لفقه الإمام أحمد بن حنبل ومدرسة الإمام ابن تيمية في الاعتقاد،مرة أخرى نعود للتوضيح بأنَّنا لا نهدف من هذا البيان الدخول في تعقيدات الظروف التي ساهمت في نشأة الاتجاهات المختلفة في مسار الفكر الإسلامي، لكن هدفنا هو إعطاء القارئ فكرة مبسطة عن كيفية نشوء هذه الاتجاهات وأحجامها لنعرف موقع الشيخ البوطي رحمه الله فيها ومدى صلته وارتباطه بالاتجاه الفكري الذي ينتمي إليه، وهل كان وفيّاً لهذا النهج أم تمرَّد عليه وخرج عن قواعده وأصوله ؟

<u>ففي أيِّ مسارات الفكر الإسلامي مشى الشيخ رحمه الله ؟</u>

الذي يتابع فكر الشيخ رحمه الله سواء من خلال مؤلفاته أو من خلال مشاركاته العديدة والكثيرة في المؤتمرات الإسلامية بتنوعها، أو من خلال دروسه وظهوره في مختلف وسائل الإعلام يعلم يقينا أنَّه من أبناء ذلك المسار العريض في الفكر الإسلامي الذي تحدَّثنا عنه، فهو إسلامي الانتماء صوفي النزعة شافعي الفقه أشعري العقيدة، لكنَّه ليسَ مقلِّداً مطلقاً دون رأي بل هو المجتهد في كل الانتماءات الذي ذكرناها وله فكره المميز لكن دون الخروج عن أصول هذه المدرسة التي ينتمي إليها وقواعدها التقليديَّة التي ينتمي لها غالبية المسلمين اقتداء برموزها وأعلامها الأئمَّة من الأوزاعي إلى أبي حامد الغزالي وفخر الدين الرازي وصولاً إلى الإمام النووي وبقية أعلام هذه المدرسة من القدماء والمعاصرين، هذه المدرسة التي ترى أنَّ هدفها الأسمى هو الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وإيصال قيم هذه الدعوة لنفوس الأفراد بتزكيتها، هذه التزكية التي تعتبر وسيلة لصلاح الأفراد الذي ستكون نتيجته إصلاح المجتمعات، وفي سبيل نجاح مهمتها تسعى للبعد عن الصدام مع مؤسسات الحكم، حيث ترى هذه المدرسة أنَّ:

- الخروج على الحكام جلَب للأمة الخراب والدمار وإراقة الدِّماء.
- جميع الصراعات التي نشبت بين الديني والسياسي انتهت بكوارث.

لذلك يبدو أنَّ الشعار الذي ترفعه هذه المدرسة بالنظر إلى سلوكها وممارساتها هو:

✓ اتِّقاء شر الحكام بكل الوسائل بعيدا عن الصدام المباشر الذي ينتهي غالباً لصالح الحاكم كونه محتكراً للقوة ووسائل العنف.

فهذه المدرسة لا تبيح الخروج على الحاكم إلاَّ في حالة "الكفر البواح" الذي تضع له ضوابط محددة ليتحقق ويصبح مبرراً للخروج عليه!

✓ تطالب ببذل أقصى ما يمكن من جهود في مناصحة الحكام والتَّقرب منهم لتحصيل حقوق العباد وحل مشاكلهم! وهو ما أسميته بالتفاهم الاضطراري بين الفقيه والسياسي، وهو بالطبع يختلف عما يسمى وعاظ السلاطين.

فكان الإمام الأوزاعي رحمه الله يرى أنَّه لابأس من التقرب من السلطة بهدف النّصح والتوسط لديها لانتزاع حقوق الناس وحل مشكلاتهم! ومشهور موقفه في الدفاع عن نصارى لبنان لدى السلطة الحاكمة في زمانه، لكن عندما سئِل إبَّان الحكم العباسي عن دماء بني التي سفكت في انقلابهم على الأمويين، قال لهم : هي في رقابكم إلى يوم القيامة، لكن رأيه هذا لم يمنعه من مبايعة العباسيين، لكن هذه البيعة لم تمنعه من قول كلمة الحق والجهر بها أمام السلطان.

والإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله يقول: ((إنَّ نظام الدين لا يحصل إلاَّ بنظام الدنيا، ونظام الدنيا لا يحصل إلاَّ بإمام مطاع))[1]، وكان يقول : ((ينبغي طاعة سلطان الأمر الواقع إلاَّ في المعصية، ومن دون نسيان الواجب في إبداء النَّصيحة الحسنة والأمر بالمعروف، وهو واجب كل فقيه وذلك بغية التهدئة وإحلال السلام))[2]، لقد سعى الإمام الغزالي رحمه الله من خلال آرائه هذه إلى طي صفحة الصراع الذي قسَّم الصحابة وما تبعه من أحداث مؤلمة، وكان يطالب بذكر فضائلهم والثناء عليهم دون الخوض في خلافاتهم.

حيث كان يحاول جمع كلمة المسلمين على حقيقة واحدة يرجعون إليها ويحتكمون إليها وهي : القرآن الكريم والسنة النبوية ويحرص حرصا شديدا على البعد عن التكفير المؤدي إلى

1- الاقتصاد في الاعتقاد، ص 291 دار المنهاج السعودية ط1 2016

2- كتاب الفقيه والسلطان، وجيه كوثراني، المركز العربي للأبحاث والدراسات 2015

إراقة الدماء واستحلال الأرزاق، فيقول: ((والذي ينبغي أن يميل المحصل إليه الاحتراز من التكفير ما وجد إليه سبيلاً، فإنَّ استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة، المصرحين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم))[1]

نلاحظ أنَّ إمام هذه المدرسة يحرص على حقن الدماء حرصاً كبيراً ويسعى لسد كل الذرائع التي قد توصل لسفكها، جاء هذا الحرص بعد قراءة كل التجارب التي مرَّ بها المسلمون في محاولاتهم ترويض السلطة بالقوة والتي انتهت جميعها بكوارث على الأمة لا تزال تعيش تداعياتها.

وبعد هذا العرض لن يجد القارئ صعوبة في إدراك أنَّ الشيخ البوطي رحمه الله هو ابن هذه المدرسة المخلص لها، و الحامل لفكرها، والسَّائر على هدى أئمَّتها، فهو لم يأتِ برأيٍ مبتور عن جذوره بل هو المجتهد في فكر هذه المدرسة الملتزم بأصولها .

هذه المدرسة التي تحاول:

◎حماية المسلمين من بطش السلطان.

◎ محاولة إبعاد الدين عن ملوثات السياسة بعدما أدركت استحالة الجمع بينهما بالقوة.

هذا السعي يبدو واضحاً في فكر الشيخ، ففي إحدى المحاضرات المنشورة على موقعه يقول: ((إذن فالدين ممارسة سلوكية واعتقادية لما تقتضيه هوية الإنسان، من حيث كونه عبداً لله عز وجل، وبتعبير آخر هو أن يمارس الإنسان عبوديته لله بالسلوك الاختياري كما قد خلق عبداً له بالواقع الاضطراري. ولئن كان الدين تحت سلطان هذه الحقيقة واحداً، فإن الاجتهادات (بقطع النظر عن مدى مبرراتها) هي التي حولته إلى أديان متعددة، المهم أنَّ الدين في حياة الإنسان مطلب غائي وحقيقة مستقرة ثابتة، وليس نهجاً إلى غاية ولا أسلوباً أو سياسة لبلوغ مقصد، أما السياسة، فقد غدت اليوم تحت سلطان الاستعمار الاقتصادي والثقافي والحضاري الجديد، فناً من المكر وأساليب الاستدراج فالإيقاع يستعمل أداة لهيمنة الأقلية القوية الطامعة على الأكثرية الضعيفة المطموع

1- كتاب الفقيه والسلطان، وجيه كوثراني، المركز العربي للأبحاث والدراسات 2015

فيها، وما شعار النظام العالمي الجديد الذي تلاه شعار العولمة، إلا ترجمة لهذا الواقع المرير!

وللمكر السياسي الذي يجند اليوم، ابتغاء الوصول إلى هذه الغاية، أساليب شتى ولكنها تكاد تتلاقى على نهج عريض واحد، هو سياسة التجزئة، وتفكيك القوى، وتأليب الفئات من المجتمع الواحد، بعضها على بعض، ولا شك أن اختلاق الحساسيات الطائفية وإحياء الخلافات العرقية، واستثارة الرؤى المذهبية، أغلى أداة وأخطر سلاح لذلك))[1].

المتأمِّل لهذا الفكر يدرك حرص الشيخ على:

- **حقن دماء أمته.**
- **إبعاد الدين عن حبائل السياسة وألاعيبها.**
- **رفض زجِّ الدين في أي صراع أو استخدامه كأداة لتحقيق مكاسب سياسية.**

عندها سيتلوث الدين نتيجة خوضه في مستنقعات السياسة، ولن يكون بأيدينا وسيلة إصلاح نقية يمكننا اللجوء إليها عندما تسوء أحوالنا وتفسد حياتنا !

وفي جمع رسمي وشعبي تحدث الشيخ البوطي عن رؤيته للإصلاح في بداية الحراك الشعبي.

"أحب أن أقول بين يدي كلمتي : إننا ولله الحمد نتلاقى على منهج واحد ونجتمع على مشرب واحد، نجتمع على صراط الله سبحانه وتعالى، ومن ثم فأنا أوصي نفسي، وكلا من إخواني بأن تكون غايتنا في مثل هذا اللقاء فيما نقول وفيما نصغي إليه، استنزال رضا رب العالمين إلينا، لا نروغ عن ذلك، إلى استرضاء الأغيار ولا إلى اتقاء سخط فئة دون فئة من الناس، وأرجو أن يمتعني الله عز وجل وإياكم بوحدة الشهود، ألا نرى نفعاً ولا ضراً إلا من واحد وهو الله عز وجل، من استرضى الناس بسخط الله، وكله الله إلى الناس، ومن أسخط الناس برضى الله كفاه الله مؤونة الناس، هذا كلام رسول الله ﷺ، دعونا نجعل منه دستوراً في حياتنا التي نسيرها إلى الله عز وجل.

1- من بحث بعنوان استغلال الدين في الصراعات السياسية – موقع نسيم الشام

أولاً: لا شك أن العمل على اجتثاث الفساد، وترسيخ دعائم الإصلاح في المجتمع مطلب ديني متفق عليه، بل يجب أن نضحي في سبيل هذا المطلب بكل شيء، وما رأيت آية في كتاب الله عز وجل يحذر الله عز وجل فيها من الفساد إلا و تتضمن الأمر بإرساء دعائم الصلاح، فالنهي عن الفساد أمر لترسيخ دعائم الإصلاح على اختلافها، هذه النقطة ليست محل خلاف، ومن ثم ينبغي كلنا أن نجند أنفسنا في المطالبة بالإصلاح واجتثاث أنواع الفساد بالمنهج الذي شرعه الله عز وجل وبالطريقة التي بينها الله لنا.

ما السبيل الذي لا بد منه إلى تنفيذ هذا المطلب الرباني؟

هنا عندما أريد أن أجيب، أنا لا أحصر نفسي ضمن دائرة دولة من الدول، ولا وطن من الأوطان، وإنما أضع نفسي أثناء البحث عن الجواب أمام منطق الحقائق، وأمام ما يسميه علماء المنطق بالحصر والإسقاط، بقطع النظر عن أي دولة وأي مجتمع.

ما هي السبل التي بها يمكن اجتثاث الفساد وترسيخ دعائم الإصلاح؟

هما إحدى وسيلتين:

<u>الأولى</u>: أن يخاطب بهذا المطلب القائمون على النظام الموجود، أياً كانوا.. أناس ملكهم الله عز وجل زمام الأمة، الوسيلة القريبة الأولى هي مخاطبة هؤلاء بضرورة الإصلاح.

<u>الثانية</u> : إذا حيل دون تحقيق الوسيلة الأولى، لسبب ما، تكون الوسيلة الثانية التي لا بد من السعي إليها لتحقيق الإصلاح أن نبحث عن البديل الذي نضع بين يديه زمام القيادة، وأنتم تعلمون الانقلابات التي مرت بهذه البلاد، أوضاع داخلية، ليس فيها شائبة، أصابع خارجية، تتحرك فئة في الجيش وتضع نصب عينها سلفاً تركيبة البناء البديل، ثم تأتي بهذه التركيبة الأخرى فتقيمها مقام الفئة الأولى من أجل تحقيق الإصلاح حيث لم تجدِ الوسيلة الأولى. هكذا يقول المنطق، هل هناك وسيلة ثالثة للإصلاح؟!

لا ..

هل هناك وسيلة ثالثة تقول: دعنا نبعث بأنصارنا إلى الخارج لنستدر ونستجدي منهم عملية الإصلاح؟ هذه الوسيلة محكوم عليها بالفساد، وينهى الله عز وجل عنها.

بعد أن انتهيت من تصوير الموضوع بشكل منطقي وعقلاني، نعود إلى واقعنا الذي نعيشه، ننظر فنجد أن القائمين على مصالح الأمة، القائمين على النظام، قد باشروا بعمليات الإصلاح الاقتصادي وهم سائرون في هذا النهج أكاد أقول ليل نهار، دون توقف، وأنا مسؤول عن الكلام الذي سأقوله، هنالك لجان انبثقت عن وزارة الاقتصاد برئاسة الدكتور نضال الشعار لتحقيق أهم سبل الإصلاح الاقتصادي، والمأمول أن هذه السبل ستوضع موضع التنفيذ عما قريب، وأما ما يتعلق بإنهاء عصر سلطة الحزب الواحد، هنالك لجنة أخرى فيها عميد كلية الحقوق في جامعة دمشق، وهي بصدد وضع قانون دقيق من أجل تعدد الأحزاب ومن أجل بيان كيفية تقاسم هذه الأحزاب للسلطة، وكيفية تطبيق المبادئ الديمقراطية السليمة عن طريق اعتماد هذه الأحزاب المتعددة، وما يتعلق بالإعلام وحريته هناك سعي حثيث من أجل ربط الإعلام بحرية الخبر وحرية البيان، وهنالك سبل من أجل التفاعل الذي ينبغي أن يتم بين هذه اللجان والمسؤولين وبين القاعدة الشعبية، هذا ما أعرفه وينبغي أن يعرفه كثير منكم.

الآن تتبلور المشكلة بعد هذا الموضوع، كلنا نعلم أننا فوجئنا بمسيرات سارت في شوارع بلادنا، تطالب بالإصلاح ولا شيء غيره، كانت أصداء هذه المسيرات إيجابية، سرعان ما سمعنا وسمعتم نداء الاستجابة لهذه المطالب ووضعت قائمة إصلاحات تم الوعد بإنجازها، نظرنا فوجدنا أن الشعارات اختلفت في الأسبوع الذي يليه، لم يعد أحد من أصحاب هذه المسيرات يتحدثون عن الإصلاح والمطالبة به، وإنما بدأت ترتفع شعارات الحرية، إن هو إلا أسبوع، فوجدنا أن هذا الشعار انطوى ليظهر في مكانها شعار الإسقاط، والذيول التي تلحق شعارات الإسقاط مما لا يستطيع اللسان أن يبوح به، ما الذي فهمناه من هذه الظاهرة، المفهوم أن الذين هبوا وملأوا الشوارع بمسيراتهم غير معنيين بالإصلاح نهائيا، وإنما جعلوا الحديث عن الإصلاح مدخلاً من أجل أن يرسخوا أقدامهم في هذه المسيرات وأن تصغي إليهم الآذان، ومن أجل أن يستثيروا العواطف فتتبعهم، بل نظرنا وتأملنا فوجدنا – لا أقول أنهم غير معنيين بالإصلاح وإنما وجدنا أنهم يرون أن عمليات الإصلاح تعوقهم، وتصدهم عن بلوغ مآربهم، ولذلك أخذوا يسابقون مبادئ الإصلاح وعملياته من أجل أن يقطفوا ثمار أهدافهم قبل أن تغلق هذه الإصلاحات أمامهم الباب إلى غاياتهم التي ينشدونها، والغاية هو استلاب

الحكم وليست الغاية هي إصلاح فاسد. والآن على ضوء هذا الواقع، أظن أننا إلى الآن لم نصل إلى نقطة خلافية، وعلى ضوء ما ذكرته أن سبل الإصلاح محصورة في سبيلين، الأول أن نعهد إلى النظام القائم بالإصلاح، والثاني أن نبحث عن البديل لكن ضمن دائرة هذا الوطن، داخل هذه الأمة.

أولا: النظام هب لتحقيق جوانب الإصلاح على الرغم من أننا لم نترك للقائمين على الأمر فرصة الهدوء حتى يتفرغوا للعكوف على هذه الجوانب الإصلاحية، فالشعب يملأ الشوارع ويملأ أذهانهم من جانب، والعمل على تنفيذ الإصلاحات التي تم الوعد بها من جانب آخر وهذا شيء مربك، ومع ذلك الأمر يتم. أنا أقول لهؤلاء الذين تبين أن هدفهم لا يكمن في غيرة على غياب الإصلاح والصلاح في هذه الأرض المباركة، وإنما هدفهم يكمن في استلاب الحكم.

استلاب الحكم له سبل أخرى، هذه الأمة لم تفتقر بعد في إدارة شؤون نفسها، ولا تزال فياضة بالمفكرين والقادرين على أن يمسكوا زمام الأمور ويقودوها لكي يبعدوها عن الأخطار ويحققوا لها دعائم الصلاح والإصلاح، لماذا يهدفون إلى أن تعطى زمام الحكم لفئة خارج سوريا، لماذا؟

أفترض أنهم تبرموا بمن يقود النظام داخل البلد، لماذا التخطيط يتم في الخارج والذين يسيل لعابهم على الحكم أناس يعيشون في الخارج، في حين أن عملية الإصلاح ينبغي أن ينبع الشعور بها من الداخل، ومن ثم ينبغي أن يعكف عليه الناس في الداخل لأنهم أكثر غيرة واهتماماً على ما تحتاج إليه هذه الأمة، في حين أن القائمين على الأمر يسيرون بخطى حثيثة وبسرعة من أجل تنفيذ مبادئ الإصلاح.

الجواب عن هذا :

المسألة لا تهدف إلى عملية إصلاح ولا تهدف إلى التبرم بفساد، وإنما العملية تهدف إلى أن يستلب الحكم من أناس ويوضع في أيدي أناس آخرين، من هم أولاء الآخرون؟ أناس في الخارج.

من هم الذين يحلمون بإمساك زمام الحكم غداً أو بعد غد في هذا البلد، خليط من ماركسيين، خليط من تكفيريين، وهابيين متطرفين، يقوم الآن حلف خفي أو غير خفي بينهم

وبين فئات من الإسلاميين، ذيول خدام، وآخرين، حزب التحرير الإسلامي البريطاني، هؤلاء هم الذين ينسقون فيما بينهم من أجل الانقضاض على الحكم، ومن هنا أعود فأقول: أخطر شيء يواجههم، ويصدهم عن تحقيق مآربهم، خطوات الإصلاح التي تتم الآن، وأرجو الله أن يوفق القائمين على الأمر إلى المزيد من السرعة في إنجازها.

هذه الخطوات إذا تمت يتصورون أنه قد حيل بينهم وبين الوصول إلى ما يبتغون.

أظن أن أحداً منا لا يستطيع إلى هذه النقطة التي وصلنا إليها أن يماري ويجادل في الأمر. هذه مشكلة أم هو سير إلى حل مشكلة؟ هذه مشكلة خطيرة جداً، لأن هدف هؤلاء الذين يهبون، يفورن، يهتاجون ويهيجون، ليسوا معنيين بقضايا الإصلاح إنما بتنفيذ واجبات كلفوا بها من الخارج بوسائل شتى، من أجل أن يؤدوا ما طلب منهم بأجر أو من دون أجر، إذا كان الأمر كذلك، ما النتيجة التي ينبغي أن نعلم يقينا أننا سنواجهها إن كان الأمر كذلك، هؤلاء الذين استؤجروا من أجل أن يثيروا الشعب ويرفعوا الشعارات التي تثير البغضاء، الفعل وردة الفعل، عن النتيجة التي لا شك فيها والتي إن ساروا في طريقهم إلى النهاية، سنصل إليها هي أن هذا الوطن سيتحول إلى فريسة، سيبضعها ويقتسمها أولئك الذين يتربصون بها، النتيجة التي لا ريب فيها هي أن سوريا التي كانت إلى الآن دولة واحدة تشيع فيها شبكة الود والتآلف والتعاون، بقطع النظر عن كل شيء، ستقسم إلى أربع أو خمس دول، هذه خطة مرسومة، وسأقرأ لكم هذه الفقرة التي تنص على هذا الذي أقوله:

مقال المنظمة الصهيونية الأولى نشر في مجلة كيفوتين : " ورد في هذا التقرير، إن البنية الطائفية لسوريا ستساعدنا على تفكيكها، يمكن إلى دولة شيعية على طول الساحل الغربي، ودولة سنية في منطقة حلب وأخرى في دمشق، وكيان درزي سيقاتل بدعمنا لتشكيل دولة انفصالية في الجولان من حوران وشمال المملكة الأردنية، ودولة كهذه من شأنها أن تكون على المدى البعيد قوة لنا وتحقيق هذا الهدف في متناول أيدينا "

أظن هذه النقطة ليست محل خلاف، هؤلاء الغوغاء المستأجرون الذين ينفذون أوامر مرسلة إليهم، ليسوا معنيين بالإصلاح، ولا يمكن أن يحققوا لأولئك الذين ينتظرون بفارغ الصبر وهم يجلسون على مقاعدهم الوثيرة، في مجالسهم الأرائكية الحالمة وهم آمنين

مطمئنين، أن يصلوا إلى ما يبتغون إلا بعد أن تجتاز هذه الأمة وهذا الوطن مرحلة خراب لم تعهدها في تاريخها قط، فمثل هذا الطريق، لتحويل النظام من يد إلى يد لا يمكن أن يتم إلا بعد انهيار الوطن كله، يعني ينهار الوطن في سبيل أن ينهار بعده النظام.

ولا تشغل نفسك بالدماء التي ستراق والأنهر من الدماء التي ستفيض بها الشوارع، وأرجو الباري سبحانه ألا يرينا الخراب الذي لم تعرفه سوريا في تاريخها قط لو تم هذا الأمر!!هؤلاء الذين ينهضون الناس إلى الهتافات ليسوا معنيين بمصير الوطن، ولا واحد منهم يفكر أن هذا الوطن إلام سيؤول حاله، ليسوا معنيين بلون المستقبل الذي سيتحول إليه هذا الوطن، ليسوا معنيين بفساد أو خراب أو شيء، هم يؤدون وظيفة كلفوا بها، ويأخذون أجورهم.

إلى الآن لقد رسمت المشكلة، ولكن ما الحل؟

هؤلاء يعلمون أن 57 % من سكان هذا الوطن يملكون من الوعي ما لا يملكه كثير من الناس في البلدان الأخرى، ومن ثم ما أيسر أن يتبينوا ما وراء الأكمة، ومن ثم يحال بينهم وبين الوصول إلى ما يبتغون. السبيل الذي يسلكونه هو التسلل والتسرب ضمن مجموعات الناس المستقيمين المثقفين، أين يوجد هذا المناخ؟ لا يوجد إلا في المساجد، إذا ينبغي أن يجمعوا أنفسهم ثلة هنا، وثلة هناك، ينتظرون خروج الناس من المسجد ثم إنهم يندسون فيما بينهم ويعلنون شعاراتهم المهيجة التي تجعل الدماء تغلي في عروق السامعين في السلطة من أجل ان تكون هناك جريمة، من أجل أن يكون هناك فعل وردة فعل. لعل ثلة من هؤلاء الذين يسمعون الهتافات يقتلون ويأخذون، ومن ثم تكون هناك فئة ينتقمون وتتسع الدائرة لتتحول الفتنة من فتنة في حي إلى فتنة في بلد ثم إلى فتن في الوطن كله. هذه الحقيقة وهذا ما يتم الآن.

لقد أمعنت في بيان صورة المشكلة. فما الحل؟

هما حلان اثنان لا ثالث لهما:

الحل الأول: أن نعود نحن الذين نشكل 08% من أهل هذا الوطن نتمتع بوعي، بثقافة راشدة، بالغيرة على هذه الأمة، نتمتع ولله الحمد بالتزام - وإن كنا مقصرين في سلوكنا—

ونملك المشاعر الدينية العالية ولله الحمد. نستخدم هذا الوعي في فك الاشتباك ما بين هذه الحثالة التي أخذت أجر ما كلفت به، وتنهض بهذا العمل بهذا التكتيك الذي ذكرته، نفك الاشتباك من أجل أن تظهر هذه مستقلة لا تتمتع بأي غطاء يتمثل في أمثالنا، فإذا تجلت هذه الفئة متميزة فإن ذلك أول خطى الحل، لن تستطيع أن تثابر وأن تظل على هذه الحالة مدة طويلة، ولكن الشرط أن نعمل كل ما نملك من أجل فك الاشتباك وتفويت فرصة الاندساس في صفوف الأمة. ثم إن علينا ان نملك أعصاباً فولاذية نستعين في ترويضها وتثبيتها بالله تعالى، لا نؤخذ بردود الفعل، قد نسمع هتافات، قد نسمع سباب، وأنا أقول هذا لأنفسنا وأقوله للمسؤولين، والقائمين على الأمر ولرجال الأمن، ينبغي ألا يؤخذوا بردود الفعل، والتضحية ينبغي أن نصبر عليها، وأخيرا تنتهي الأمور. هؤلاء يغطون أنفسهم تحت غطاء الأمة كاملة من أجل أن يضعوا العالم الخارجي أمام صورة مناقضة لصورة الواقع الذي نتمتع به بحمد الله سبحانه وتعالى.

<u>الحل الثاني</u>: الذي أنادي به لا أقول أنادي وما من مجيب، ولكن أقول إن نسبة الذين ينفذون هذا الحل نسبة ضئيلة، إن الأمر كله بيد الله سبحانه وتعالى، وربنا يبتلي الأمة بين الحين والآخر بمصائب، هي في الظاهر كذلك، لكنها في الحقيقة منح وليست محن، وعصي التأديب كانت ولا تزال منحاً .. ينبغي أن نصحو في هذا المنعطف الذي نمر به إلى هوياتنا، وهذا الكلام أقوله لنفسي، وللمسؤولين، وللأمة بكل فئاتها ودرجاتها، ينبغي أن نصحو إلى ذل عبوديتنا لله وينبغي أن نتوب إلى الله سبحانه وتعالى جميعنا.

﴿ وَتوبوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيّهَ الْمؤْمِنونَ لَعَلَّكُمْ تفْلِحونَ﴾(النور / 13)

دخل رسول الله ﷺ في هذا الأمر. فإذا صدقت التوبة والرجوع إلى الله عز وجل فإن الخطوة الثانية في هذا الحل الثاني هي الالتجاء إلى الله.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهمْ يَتَضَرَّعونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهمْ بَأْسنَا تَضَرَّعوا وَلَكِنْ قَسَتْ قلوبهمْ وَزَيَّنَ لَهم الشَّيْطَان مَا كَانوا يَعْمَلونَ﴾(الأنعام/ 24-34)

أرجو ألا نكون ممن قال عنهم ولكن قست قلوبهم ..

التضرع إلى الله في الأسحار قبيل الفجر وكم يجمل أن يستيقظ الواحد منا ساعة قبل الفجر يسبغ الوضوء ويلتجئ إلى الله ليس بينه وبين الله أحد، إذا سجد خاطب الله باللغة التي يحب والأسلوب الذي يريد، يبكي ويتذلل ويستنزل الرحمة من علياء الربوبية، والله الذي لا إله إلا هو إن الفرج قاب قوسين منا إن نحن التفتنا إلى الحل الثاني الذي أقوله لكم، على أن الحل الثاني لا يغني عن الأول والأول لا يغني عن الثاني.

المعتمد بعد الاعتماد على الله، على الوعي، هذه الامة في الوعي مضرب المثل، لقد زرت جميع الدول العربية، ما وجدت الوعي الثاقب والهدوء والجمع بين العاطفة والعقلانية في دولة مثل سوريا، فلا تغلبنّكم الفئات القليلة، الحثالة على هذا الوعي الذي متعكم الله سبحانه وتعالى به، المساجد نحن حراسها وهذا شرف كبير. ينبغي ان نملأ آذان المصلين بأن المساجد إنما كانت ولا تزال مركزاً لإعلان العبودية لله عز وجل ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ (الجن/81)

املأوا آذان المصلين بهذا المعنى بحيث يصبح كل واحد منهم لديه مناعة كبيرة جداً إذا خرج من المسجد ألا يلتصق به أحد، ألا يحتك به أحد من هؤلاء الناس.

أسأل الله سبحانه أن يوفقنا من أجل تمزيق هذه المشكلة عن طريق الحل الأول ثم الحل الثاني والحمد لله رب العالمين.

والآن وبعد استعراضنا لرأي الشيخ في القضية لو عدنا لقراءة فكر الإمام الغزالي حول نفس المسألة، سندرك النبع الذي ينهل الشيخ من معينة ولعرفنا الأصل الذي ينتمي إليه هذا الفرع.

فمن أراد محاكمة آراء الشيخ وفكره عليه أن يحاكم هذه المدرسة بكاملها وأن يعترض على كامل هذا المسار العريض في الفكر الإسلامي ورموزه! وأن يقدِّم لنا النموذج البديل الذي يراه أكثر جدوى، وأن يشير لنا إلى التجربة الأمثل التي استطاع من خلالها الدين التَّغلّب على السياسة وألاعيبها وأوصل النّاس إلى حقوقهم التي طالبوا بها، والعودة بهم إلى عهد النبوة والرّشد!

إنَّ الفشل المتكرر في فرض الديني على السياسي بالقوة والعنف يدعونا للتأمّل والسؤال:

هل من المعقول أن نستمر لمدة أربعة عشر قرناً نعيد نفس المقدمات التي توصلنا لنفس النتائج الكارثية دون التفكير بوسائل بديلة؟

قد يكون أحدها إعطاء الفرصة للفكر القائل بترك السلطة أو مهادنتها على أقل تقدير ثمَّ السعي بالوسائل السلمية لإيصال قيم الدين لنفوس البشر بطرقٍ تضمن انتشار بذوره بأمان بحيث تثمر خيراً وصلاحاً فتتسع دائرته وتعلو مبادئه ليزحف نحو مواقع السلطة فَيَصِل إليها بسلام، أو يتحول لطوفان خير يغرق فرعون الفساد في النفوس وتجد السلطة نفسها محاصرة بأمواجه فلا تملك حيلة في مقاومته فتستسلم له وتصبح جزءاً منه، نعم القارئ لفكر الشيخ البوطي والمتأمِّل في فكره يجد أنَّ هذه هي خطته في العلاقة مع السلاطين، وهي أن يستخدم أوعيتهم لكنَّه لا يقدِّم للناس فيها سمّاً زعافاً، بل عصير العلم ورحيق الفكر الذي يزيد مناعتهم ضد فيروسات الحكم وجراثيمه!

فمن ينظر بعينٍ منصفة لمواقف الشيخ وما أدلى به من تصريحات يرى هذه الحقيقة واضحة، لكنَّ وضوح هذه الحقيقة لا يعني أنَّ على كل من يراها عليه تَبَنِّيها والاقتناع بصوابها وجدواها، بل المطلوب هو الاعتراف بها دون تشويهها وإلباسها ثوباً ليس ثوبها!

لكن هنا لا بدَّ من سؤال نجده ضروريّا لاستكمال المشهد وعدم بترهِ من سياقه وهو:

هل مواقف الشيخ التي اتَّخذها بعد الثورات العربية هي مواقف طارئة أم هي امتداد لفكره طيلة حياته العلمية؟

الإجابة على هذا السؤال تقتضي العودة لما قبل ثورات الربيع العربي وإلقاء الضوء على أنشطة الشيخ العلمية والفكرية، وهل كان على توافق وانسجام مع مختلف التيارات الفكرية السائدة في العالمين العربي والإسلامي؟ و هل كان مرضِيّاً عنه من قِبَلِ هذه الاتِّجاهات الفكرية؟ وما موقفه منها؟

للشيخ رحمه الله مسيرة علمية وفكرية حافلة، فهو لم يكن شيخاً تقليديّاً يتبع مذهباً معيَّنا يعمل على تلقينه لأتباع مذهبه دون أن يكون له رأي فيما ينقله! بل كان رجل علم

وفكر فهو الأستاذ الجامعي الذي يقَدِّم لطلابه علماً وفكراً متجدِّداً يعالج قضايا الدين والمجتمع وله آرائه المستقلة وفكره المتجدد الذي يناقش القضايا الكبرى وله حجَّته أمام أتباع المذاهب الفكرية، وهو الكاتب الألمعي الذي اقتحم ميادين الفكر والأدب وترك بصمة في كل ميدان دخله، ومؤلفاته تنتشر في أصقاع الأرض بين أيدي الطلاب والباحثين والدارسين، ودائم الحضور في المؤتمرات والندوات العلمية والبرامج التلفزيونية وعلى صفحات الصحف والمجلات والدوريات، بالإضافة لدروسه العلمية في المساجد التي يحضرها الآلاف أغلبهم من جيل الشباب الباحث عن العلم، هذه الغزارة في العلم والفكر فاضت فوصلت أمواجها إلى حصون أصحاب الأيديولوجيات المختلفة فشعروا بخطورة هذا الفكر الوافد على تلك الحصون، خاصة وأن أغلب المتأثرين به هم الشباب الذين يعتبرون وقود أي فكر، فبدأت مناوشات كلامية ما لبثت أن تحوَّلت إلى ما يشبه المعارك الفكرية وعلى ثلاث محاور رئيسيَّة !

أشرس هذه المحاور كانت معركته مع التيَّار السلفي النّصوصي المنغلق على دلالات ظواهر النصوص دون الخوض في دلالاتها الجوهرية ورسالتها المقاصدية التي حاول الشيخ رحمه الله الاقتراب منها ببحوث ومؤلفات رصينة قدَّمت قراءات متقدمة وجريئة أحياناً لتلك النصوص، فكتبَ كتاب السلفية مرحلة مباركة لا مذهب إسلامي، حيث تناول الشيخ رحمه الله في هذا الكتاب معنى السلف في اللغة وفي الاصطلاح، واستعرض العوامل التي أدت إلى ظهور المنهج العلمي، ووضع له تعريفا محدداً ثم شرح الكثير من تطبيقات هذا المنهج، كما عرض الشيخ رأيه في مسألة التمذهب كمنهج علمي يوضح كيفية التعاطي مع قضايا الدين وليس مجرد تقليد أعمى لمن سبق، وبيَّنَ أنَّ التمذهب بالسلفية بدعة لا يقرها أتباع السلف، ووضَّح الفرق بين التمذهب والاتِّباع، وتطرَّق للكثير من القضايا الخاصة بهذا المصطلح، أثار هذا الكتاب حفيظة أتباع التيَّار السلفي والذي كان على رأسِهِ في تلك المرحلة الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله الذي قادَ حملة منظمة ضد الشيخ البوطي تمثَّلت بتصريحات مسيئة للشيخ وإساءات لفظية وتحريضيَّة !

فعندما سئل الشيخ الألباني عن رأيهِ في كتاب السلفية مرحلة مباركة أجاب بأنَّه لم يقرأه وقال: ((أنا أعرف الرجل معرفة شخصية ولنا معه لقاءات ومناقشات)) واعتبر البعض أنَّ

إشارته إليه بالرجل وليس بالشيخ أو الدكتور فيه شيء من الإساءة أو محاولة التقليل من مكانة الشيخ وقدره ! ويضيف الشيخ الألباني ((إذا أحسنَّا الظن بالرجل قلنا إنه لا يَفْقَه الدعوة السلفية ما هي، وإن أسأنا الظن فيه فواقعه الآن – يعْلم من جلساته التي تبث الآن في التلفزيون السوري – يؤكد أنه يعرف الدعوة السلفية ويحاربها، لأنه الآن يدافع عن نظام حافظ الأسد في سوريا، ويزْعَم أن الإسلام في سوريا خير من كل البلدان الإسلامية الأخرى))[1]

طبعا معنى كلام الشيخ الألباني واضح بأنَّه يعتبر الشيخ البوطي محارب للدعوة السلفية عن علم ومعرفة، مع التذكير أنَّ الشيخ الألباني رحمه الله كان يقيم في الأردن عندما أطلق هذه التصريحات، لم تتوقف الحملة عند هذا الحد بل استمرت من خلال مؤلفات ترد على الشيخ البوطي وماورد في كتبهِ عن السلفية والمذهبية، فكتب أحد أشهر تلامذة الشيخ الألباني وهو الشيخ محمد عيد العباسي كتابا اسماه "بدعة التَّعصب المذهبي وآثاره الخطيرة في جمود الفكر وانحطاط المسلمين " لكن من يقرأ عنوان الكتاب فقط قبل الدخول في محتواه يستغرب أنَّ من يدعو إلى الالتزام بظاهر نصوص الروايات دون إعمال العقل يكتب عن جمود الفكر عند الشيخ البوطي !

لم تتوقف الحملة السلفية على الشيخ بل امتدت لبلاد المغرب العربي فألَّفَ الشيخ محمد الزموري في الجزائر كتابا أسماه «مزاعم الدكتور البوطي في تبرئة جبابرة الحكام وتأثيم دعاة الإسلام» حاول من خلاله الرد على مؤلفات الشيخ حول مسائل أساسيّة شرعية ودينية، والتي يمكن إجمالها في القضايا الخلافية بينهم مثل السلفية ومشروعية المصطلح، أحكام البدعة، اللامذهبية، الجهاد وفهمه.

وبعد هذه اللمحة المختصرة عن طبيعة السجال بين الشيخ رحمه الله ورموز التيار السلفي، نجد أنَّ خلاف الشيخ مع هذا التيار لم يكن وليد فترة ثورات الربيع العربي بل هو موقف قديم تعود جذوره إلى الخلاف في قراءة الإسلام بين المدرسة ذات الفكر العريض الذي تحدثنا عنها سابقاً بمسارها الواسع والتي يعتبر الشيخ أحد أبنائها وبين القراءة السلفية للإسلام بمسارها الضيق التي سبقت الإشارة لها عند حديثنا عن نشأة المدرسة الفكرية التي ينتمي لها الشيخ رحمه الله.

1- فيديو متداول على اليوتيوب بعنوان : =رأي الإمام الألباني رحمه الله في رمضان البوطي
https://www.youtube.com/watch?v=W7nXxuGxzPE =

لكنَّ معاركه الفكرية لم تقتصر على التيار السلفي بل كان له قراءة مختلفة للإسلام حتى مع ما يسمَّى اصطلاحاً الإسلام الحركي المتمثِّل بالإخوان المسلمين وحزب التحرير ومن يدور في فلكهم.

وكان جوهر نقده واعتراضه على هذا التيار الحركي يتعلَّق بإشكالية فهم الإسلام القائم على تضخيم الجانب السياسي على حساب الجوانب الأخرى الدعويّة والاجتماعية والروحية، وهذا ما يرى الشيخ أنَّه ساهم في تفريغ الدين من محتواه الجوهري وأحاله إلى نظم سياسية خالية من روح الدين، أو بمعنى آخر هو يعترض على تضييق مسار الدعوة إلى الله من مسار عريض يستوعب تعدد الأفكار الداعية إلى الله فيجعله ممرًّا إجباريًا لأعداد محدودة من البشر تفرض رؤيتها وقراءتها للدين على الآخرين، فهو لا يشكك في صدق نواياهم لكنه يخالفهم في أسلوب الدعوة وتحويلها من مسار عريض إلى ممر ضيِّق فيقول رحمه الله في كتاب الجهاد كيف نفهمه: ((و ممّا لا شكّ فيه أنّه مهما كانت الأعمال التي ينهض بها هؤلاء الإسلاميّون صالحة ومفيدة، فإنّها لا تقوم مقام واجب تعريف النّاس بالإسلام ودعوتهم إليه قطّ، كما أنّه من الخطأ تسمية هذه الأعمال الذّاتيّة دعوة إلى الله تعالى))[1].

فالشيخ رحمه الله يرى أنَّ فردية الدعوة وسريَّتها يجعلها ربما وسيلة لتسلل أفراد إلى تلك الجماعات السرية تكون أهدافهم هدَّامة وغاياتهم تخريبية أو تنفيذ لأجندات هدفها ضرب العمل الدعوي من خلال نقله من الأفق الرحب الواسع والشفاف إلى سراديب مظلمة لا يمكن تقييم عملها والحكم على صوابيَّته لأنَّه متداول بين شريحة ضيقة من الناس فيجعل من الصعوبة الاطِّلاع على ثماره والحكم على صلاحيتها للبشر في دينهم ودنياهم.

ومن مآخذ الشيخ على الإسلام الحركي انشغالهم بتكريس سلطة الإسلام (وفقاً لقراءتهم) في الدنيا على حساب العبادات التي يراها متقدمة على كل عمل دعوي، فيرى أن الإنشغال بالسياسة وألاعيبها والعمل الدؤوب الذي يهدف للوصول للحكم ومواقع السلطة على حساب العبادات المنصوص عليها في الكتاب والسنة، إنَّما يورث قسوة في القلوب تجعل الإنسان بعيداً عن الهدف الذي أراده الله للإنسان وفقاً لقراءة الشيخ للدين ومقاصده، ولا غرابة أن يكون هذا موقفه وهو الصوفي المنقطع قلبه عن التعلق في الدنيا و المنصرف لطاعة الله وعبادته.

1- الجهاد كيف نفهمه وكيف نمارسه، ص 45

الباحث عن صفاء الروح وطمأنينة القلب كما يعلن ذلك في أكثر من موضع من مؤلفاته وفي دروسه ! ففي سلسلة دروس بعنوان "يغالطونك إذ يقولون" نجده يفرد عدة حلقات للرد على ما يعتبرها بدعة أو شبهة أنَّ مجالس الذّكر تورّط في البدعة وملهاة عن العمل الإسلاميّ! ويؤكد على أهمية الذكر في حضور القلب وخضوعه لإرادة خالقهِ، وهو بذلك يسعى لبيان أهميَّة الالتزام بالعبادات وجوهرها الذكر، حيث يعتبر أن تيار الإسلامي الحركي يهملها أو يتهاون بها، إذا ما نودّ تأكيده هو أنَّ الشيخ رحمه الله هو على خلاف مع هذه الحركات في قراءتها للدين قبل ثورات الربيع العربي وأنَّ مواقفه من هذه القضايا قديمة وليست طارئة.

لم تكن معركته الفكرية مع الإسلام الحركي هي آخر الجبهات بل كان يحارب على جبهة أخرى!

تعد معارك الشيخ الفكرية مع السلفية النصوصية والحركات الإسلامية الساعية للوصول للسلطة ومواقع الحكم خلافات داخل البيت الإسلامي، وتعود جذورها كما بيَنَّا سابقاً أنَّ لكل مجموعة فكرية أو اتِّجاه فقهي طريقتها في قراءة الإسلام، وكل مجموعة تقدِّم أدلتها التي يرتكز عليها اجتهادها ! وأوضحنا المجموعة أو المدرسة الفكرية التي ينتمي إليها الشيخ البوطي رحمه الله وأدواته التي استعملها للدفاع عن منهج مدرسته، لكن كان للشيخ رحمه الله معركة فكرية من نوع آخر تتعلَّق بقراءة الوجود الإنساني وما هي الطريقة الأمثل للتعامل معه، فكان رغم انشغاله بالخلافات الإسلامية البينيَّة في اشتباكٍ مع التيار العلماني في المجتمعات العربية، فكان في مواجهة مع هذا الفكر والجهات التي تتبنَّاه، فكانت حواراته القيمة والوازنة مع الدكتور الطيب تيزيني رحمه الله أظهر من خلالها الشيخ قدرته على تقديم خطاب متوازن لا يتفق كليّاً من التوجهات العلمانية للدكتور تيزيني لكنه يخلق مساحة مشتركة واسعة يمكن اللقاء عليها بين أبناء المجتمع الواحد، لقد استطاع الشيخ رحمه الله بأسلوبه المرن وحجته القوية جعل الدكتور تيزيني يقترب من فكره لدرجة بدا الخلاف بينهما وكأنَّه فقط يكمن في تحرير المصطلحات من العوالق التي لحقت بها وجعلت الآخر يبتعد حتى كبرت المسافة بين تلك الأفكار، تلك الحوارات الغير مسبوقة استطاعت إذابة الجليد المتراكم بينهما وقرَّبت المسافات لدرجة قدرة كل طرف الشعور بالآخر وفهم ما يسعى إليه وهو خلق عقد اجتماعي تتعايش من خلاله الأفكار المتعددة في جو من التعاون والوئام، كما كان للشيخ سجالات غير

متكافئة مع نبيل فياض الذي كان يمثل العلمانية المتطرفة الناقمة على كل ما ينتمي للأصالة والداعية لانسلاخ المجتمعات العربية من هويتها واللجوء للتغريب الكامل، هذا التطرف الفج جعل من طروحاته مقولات متداولة بين شرائح محدودة في المجتمع لم تأخذ من الشيخ رحمه الله جهدا للرد عليها ومحاصرتها في مهدها لدرجة اندثارها وخروجها من السجالات الفكرية داخل المجتمع، لكن كان للشيخ ردوداً على شخصيات علمانية وازنة كصادق جلال العظم والطيب تيزيني وفؤاد زكريا و قد ردَّ عليهم بمؤلفات رصينة مثل الدين والفلسفة وهذه مشكلاتهم ونقض أوهام الجدلية المادية، ولم يكن في مجمل هذه المؤلفات والحوارات حريصاً فقط على تفنيد أوهام العلمانية واليسار المتكلِّس بل كان يقدِّم فكراً بديلاً قابلاً للحياة وعليه دليل وبرهان ! طبعاً لا نهدف هنا لبيان الأسس التي تقوم عليها هذه المدارس الفكرية، فنحن نحاول فقط بيان موقف الشيخ منها وكيف تصدَّى لها، أمَّا معرفة مدى قدرته أو نجاحه في الرد على تلك المناهج الفكرية فيعرفها المتخصصون الذي درسوا الأسس التي تقوم عليها هذه المناهج الفكرية وهؤلاء يمكنهم تقييم أداء الشيخ رحمه الله في مواجهة تلك الأفكار، أمَّا عامَّة النَّاس من أراد منهم الإنصاف فيمكنهم تقدير حجم فكر الشيخ وتأثيره من خلال النظر في حجم وقيمة خصومه العلمية وأوزانهم المعنوية في عالم الفكر، عندها سيدرك قيمة فكر الشيخ وحجمه! وسيعلم لماذا أثير حوله كل هذا الضجيج .

لم تتوقف قاطرة فكر الشيخ عند حدود المواجهة مع كل من السلفية والحركات الإسلامية والعلمانية، بل واصل التحذير من كل فكرٍ طارئ في تاريخ الأمة كانت ثماره المرَّة مزيداً من الفرقة والتفتيت والتناحر بين مكونات الأمة الواحدة، هذه الأمَّة التي يحاول الشيخ رحمه الله دائماً الحث على كل ما يساهم في وحدتها وإعادة اللّحمةِ بين مكوناتها، لذلك نجده هو الذي يعيش في حضن البعث العربي وتحت سلطته وحكمه يحَذِّر من خطر النزعات القومية ودورها في تفتيت جسد الأمة، فهو ليس ضد القومية كثقافة ينتمي إليها المرء على غير إرادته، فهو الكردي الفخور بقومه وبانتمائه لكنَّه يسعى لتوظيف هذا الفخر في تعزيز وحدة الأمة وتلاحمها وليس خنجراً للطعن بها أو تهديد وحدتها، فهو يرى أنَّ ((القوميات كانت تتعانق نائمة في مهد الإسلام)) فجاء من يوقظ عصبيَّاتها ويدفعها نحو التقوقع على ذاتها ليتم استعمالها كمعول هدم لجسد الأمة الواحدة ! ففي مقالٍ له بعنوان «هكذا نشأت القوميات» نشره

في مجلة حضارة الإسلام في العام 1963 أي في ذروة المد البعثي العربي ووصوله للحكم يقول الشيخ رحمه الله :

((لقد كتبت أقلام السياسة صفحات كثيرة عن القومية العربية، تفلسفها وتحلِّلها، وتلبسها لَبوس العلم والعمق، وتضفي عليها قداسة العقيدة والدين، وترفعها فوق كل شيء، وتزيح عن طريقها كل حقيقة مهما كانت أصيلة أو ضخمة،.. فهل استطاعت أن تسير بشراشرها هذه إلى نهاية الطريق وتقدم ثمارها المأمولة؟

لا.. فقد زلّت بها القدم، لم تستطع أن تصبح ديناً جديداً، تقدم لأهلها ما يقدِّمه الدين، من الوحدة والحب والتضامن. وإنما استطاعت أن تحييَ دفين القوميات الصغيرة الأخرى في صدور أربابها. فإذا بالقوميات تتناطح، وإذا بهيبة الفلسفة التحريرية تنحسر عنها، وإذا بلَبوس العلم والعقيدة والعمق يطير عن كاهلها، وإذا بالحقيقة الخالدة تقف ملْتَمِعة أمام كل بصيرة وفكر)) نعم هكذا ينظر الشيخ لقضية إحياء النعرات القومية ودورها في تمزيق نسيج المنطقة وتحويلها لكيانات متناحرة، ففي مقاله الطويل الذي أشرنا إليه يقدِّم الأدلة والبراهين على أنَّ الحركة الصهيونية وبمساعدة البريطانيين هما من سعى إلى إحياء النزعات القومية بعد فشلهم بانتزاع فلسطين من دولة الخلافة ! فخططوا ونجحوا في إضعاف دولة الخلافة ثم الانقضاض عليها بواسطة أبنائها بعدما استطاعوا إحياء النزعة الطورانية لدى الأتراك وتشجيع النزعة للقومية العربية في المنطقة العربية، فسقطت الخلافة وضاعت فلسطين، لذلك يرى الشيخ رحمه الله أنَّ الخلافة التي كانت تذوب بها القوميات وتتعايش بوئام تحت راية الإسلام حافظت على فلسطين ثم ضاعت في زمن القوميات،

بل ذهب الشيخ أبعد من ذلك، فرغم إيمانه في حق الشعوب أن تعيش تفاصيل ثقافتها وفقا لرؤيتها وأصل انتمائها ! لكنَّه لا يشجع النزعات الانفصالية في صيغها السياسية لأنَّه يراها تأتي في سياق معاكس للوحدة الإسلامية التي يؤمن بقيامها بأية صيغة من الصيغ التي تلجأ إليها المجتمعات في اختيار نمط حياتها، فمما ينقل عنه رحمه الله أنَّه:

((وقد تبرأ الشيخ البوطي رحمه الله من النزعة الانفصالية لدى بعض كورد سورية واعتبرها -عمالة وخيانة- فهو وحدوي داخل الوطن السوري وداخل أمة الإسلام ووطنها الكبير))[1] .

هذا هو فكر الشيخ البوطي رحمه الله وهذه هي الساحات والميادين التي كان يواجه فيها كل ما يراه فكراً دخيلاً يتسلل إلى جسد الأمة فيساهم في إضعافها وشرذمتها، وهو في سعيه نحو الوحدة الإسلامية وإحياء نظام المجتمع الإسلامي والذي يعتبره الهدف الأسمى بالنسبة له، يحاول تقديم أفكاره التي يعتبرها ركائز لإعادة بناء النظام الإسلامي المأمول على أسس سليمة وفقاً لرؤيته.

فهل كانت رؤيته هذه قاصرة في فهم الواقع وتقدير مآلات الأمور؟ الواقع الذي نعيشه يمكنه تقديم الإجابة على هذا السؤال!

وهل كانت رؤى مخالفيه أكثر صواباً وأقرب للواقعية؟

أيضاً الواقع يجيب! لكن لكي تكون الإجابات على السؤالين منصفة لا بدَّ أن نعود لمسار الأحداث مع انطلاق شرارة الثورات العربية وكيف سارت الأحداث وما حقيقة موقف الشيخ البوطي ضمن هذا المسار في الفترة القصيرة التي عاشها في خضم تلك الأحداث؟

هل غيَّر خارطة مبادئه ومواقفه التي رسمناها لفترة ما قبل بدء الحراك الشعبي العربي أم بقي على مواقفه التي تصادمت من جديد مع أصحاب الرؤى التي تخالف مساره الفكري أصلاً؟!

لكن وقبل الدخول في تفاصيل مواقف الشيخ رحمه الله من ثورات الربيع العربي عموماً والثورة السورية على وجه الخصوص لابدَّ من إجراء مقاربة أو مقارنة بين الموقف الذي يتبنَّاه الشيخ في مسألة الخروج على الحكام، والذي بيَّنا بأنَّه هو موقف السواد الأعظم من علماء المسلمين المعتبرين عبر التاريخ، ومواقف أكثر من عرفوا بمعارضتهم للحكام ووقفوا ضد ظلمهم واستبدادهم! وينتمون لنفس المدرسة الفكرية التي ينتمي لها الشيخ رحمه الله.

1- عن كتاب البوطي الدعوة والجهاد والإسلام السياسي -هشام عليوان وفادي الغوش ص10

فمن أكثر الذين اشتهروا في مقارعة الحكام والذي يضرب به المثل بالجهر بكلمة الحق أمام جور السلاطين هو العزّ بن عبد السلام رحمه الله والذي عرف بسلطان العلماء وبائع الأمراء والملوك! فكيف كان موقفه من الحكام وقضية الخروج عليهم؟

بداية نوَدّ التذكير بأنَّه ليس هدفنا دراسة سيرة هذا الشيخ الجليل مفصلة فهي سيرة غنيَّة وتحتاج لمجلدات للإحاطة بها، لكن نهدف بيان موقفه من الحكام وكيف تصرَّف معهم لإجراء مقارنة منصفة بين موقفه في زمانه وموقف الشيخ البوطي في زمانه لتشابه الظرف التاريخي الذي عاشه العالمان الجليلان!

فقد ولد الإمام العزّ بن عبد السلام في دمشق عام 577هـ – 1181م، وعاش فيها وبرز في الدعوة والفقه، وقد نشأ في كنف أسرة متدينة فقيرة مغمورة لم يكن لها مجد أو سلطان أو منصب أو علم، حيث كان أبوه شديد الفقر، وحين شب الطفل ساعد أباه في بعض الأعمال الشاقة مثل إصلاح الطرق والتنظيف أمام محلات التجار، وعندما مات الأب ولم يجد من يؤويه، توسط له الشيخ فخر الدين ابن عساكر، للعمل في الجامع الأموي، فساعد الكبار في أعمال النظافة، وكان ينام ليلاً في زاوية بأحد دهاليز الجامع على الرخام، وفي ظل هذه الظروف الصعبة لم يستطع العز أن يطلب العلم في الصغر، لكنه كان يشاهد حلقات العلم في المسجد بحكم عمله فيه، وكم تمنى أن يكون بين التلاميذ، إلى أن تعهده ابن عساكر وأمر بتعليمه القراءة والكتابة وحفظ القرآن، أقبل العز على الكتب بشغف كبير، وعوّض ما فاته من سنين الدرس، إلى أن اطمأن ابن عساكر لمستواه، وضمه لحلقات درسه فتتلمذ على يده وعلى يد كبار العلماء في زمانه، هذا الشغف بالعلم أوصله لمكانة مرموقة بين علماء عصره أهَّلَتْه لاعتلاء منبر جامع بني أمية الكبير في دمشق واستلام الخطابة فيه.

عاش العزّ في عصر ضعف وانهيار الدولة العباسية والانشقاقات الداخلية وتكالب الصليبيين والمغول على الأمة، في هذه الظروف فضّل كثيرون من أهل العلم والدين السكوت عن الحق واعتزال المشهد العام، وابتعدوا عن السياسة المعقدة في تلك الفترة لكن العز دخل في قلب هذه الأزمات مقدما صورة مغايرة لعالم الدين الذي يجهر بكلمة الحق و لا يخشى أحداً.

في أيام حكم الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، كان العزّ يتولّى خطابة جامع بني أمية الكبير في دمشق، وكانت الدولة الأيوبية في ذلك الوقت تشهد صراعاً داخلياً وصل لدرج القتال بين الملك الصالح إسماعيل حاكم دمشق و ابن أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب، حاكم مصر آنذاك، لانتزاع السلطة منه، فتحالف الصالح إسماعيل مع الصليبيين وتنازل لهم عن بعض المدن، وسمح لهم بدخول دمشق لشراء السلاح والتزود بالطعام وغيره.

استنكر العز بن عبد السلام هذا التحالف، فصعد المنبر وخطب في الناس خطبة قوية، فأفتى بحرمة بيع السلاح للفرنجة، وبحرمة الصلح معهم، وقال في آخر خطبته: «اللهم أبرم أمرا رشدا لهذه الأمة، يعزّ فيه أهل طاعتك، ويذلّ فيه أهل معصيتك»،

ثم نزل دون الدعاء للحاكم الصالح إسماعيل، فاعتبر الملك ذلك عصياناً، وغضب وسجن العز، فلما تأثر الناس بذلك، أخرجه الملك من سجنه وأمر بإبعاده عن الخطابة في الجوامع.

الشاهد من استدعاء هذا المشهد التاريخي هو لملاحظة وجه الشبه بين نشأة الإمام العز بن عبد السلام والحالة الاجتماعية التي عاشها وطلبه للعلم ثم وصوله لخطابة الجامع الأموي، وبين نفس المسار للشيخ البوطي رحمه الله، هذا التشابه في المسار هل فيه تشابه في المواقف والأفكار، أين الالتقاء وأين الافتراق في المواقف!

نلاحظ أنَّ المبدأ واحد حيث إنَّ العز بن عبد السلام كان مبايعاً للملك الصالح إسماعيل ويدعو له على منبر الجامع الأموي، وعندما اختلف معه لم يدع الناس للخروج عليه وعزله، كل ما فعله هو أنَّه دعا الله دعاء عاما «اللهم أبرم أمراً رشداً لهذه الأمة، يعزّ فيه أهل طاعتك، ويذلّ فيه أهل معصيتك»، وتوقف عن الدعاء للملك، وهذا ما أغضب الملك واعتبره خروجا طاعته فسلك معه ذلك السلوك !

خلاصة القول :

إن العزبن عبد السلام رحمه الله ورغم ما اشتهر به من الجهر بالحق أمام السلاطين غير أنَّه لم يخرج عن النهج العام الذي تبنَّاه علماء الأمة والقائل بعدم الخروج على الحاكم الظالم أو الفاسق، وأنَّ المبرر الوحيد الذي يبيح هذا الخروج هو الكفر البواح المعيَّن بشروطه. فلا يوجد فرق جوهري أو مختلف تماماً بين مو اقف العالمَيْن، فكلاهما يرى عدم الخروج على الحاكم وقد

يكون الفارق هو في أسلوب كل منهما بإيصال رسالته، وهذا الأسلوب محكوم بالشرط التاريخي والظرف المحيط بكل منهما وطبيعة السلطة التي عاش كل منهما في كنفها، والأهم من ذلك طبيعة الناس والجمهوروالبيئة الاجتماعية المشتعلة عاطفياً وأدوات الاتصال الجماهيري التي باتت تسيطرعلى الو اقع الاجتماعي الجديد بطريقة غيرمتزنة، كل هذه المتغيرات الجديدة كان لها دوراً يحكم الكيفية والأسلوب لدى الشيخ البوطي في إدارته للخطاب الديني زمن الحراك الشعبي السوري.

وموقف لعالمٍ آخر اشتهر في مقارعة الاستبداد ومصارعة الاستعباد وهو الإمام عبد الرحمن الكواكبي رحمه الله، وهو غنيّ عن التعريف ومؤلفاته في هذه القضايا معروفة للقاصي والداني، فكيف يرى الطريقة الأمثل لمواجهة الحكام الظلمة والمستبدين، وكيف يمكن للناس انتزاع حقوقهم منهم ! لقد أسهب الإمام رحمه في إبراز بشاعة الاستبداد وجور المستبدين، وكيف نشأت هذه الظاهرة وتأصَّلت في النفوس وماهي وسائل الخلاص منها، لكن هل دعا لمواجهة السلطات بالعنف والخروج عليها بقوة السلاح؟ يجيب في كتابه الشهير طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد :

((الاستبداد لا ينبغي أن يقاوَم بالعنف، كي لا تكون فتنة تحصد الناس حصداً، نعم، الاستبداد قد يبلغ من الشدة درجة تنفجر عندها الفتنة انفجاراً طبيعيّاً، فإذا كان في الأمّة عقلاء يتباعدون عنها ابتداء، حتى إذا سكنت ثورتها نوعاً، وقضت وظيفتها في حدّ المنافقين، حينئذٍ يستعملون الحكمة في توجيه الأفكار نحو تأسيس العدالة، وخير ما تؤسّس يكون بإقامة حكومة لا عهد لرجالها بالاستبداد، ولا علاقة لهم بالفتنة))[1]

وكأنَّ الكواكبي رحمه الله يعلم أنَّ المستبدين زادهم العنف والقوة، فعندما تواجههم بالعنف تكون قد أعطيتهم الفرصة للحديث باللغة الوحيدة التي يجيدونها وهي البطش والتمادي في ممارسة العنف ضد خصومهم، عندها حتما ستكون الغلبة لمن يملك الخبرة في استخدام القوة واحتكار العنف وطبعا هي لعبة السلطات عبر التاريخ.

1- طبائع الاستبداد

مرة أخرى نجد أن أحد أبرز الذين شرَّحوا الاستبداد وعرفوا دهاليزه وخباياه يحذِّر من استخدام العنف كوسيلة للوصول إلى الحقوق المشروعة، ويطالب لاستخدام الحكمة في توجيه الأفكار نحو إنجاز العدالة المفقودة، فعندما يحضر العدل تغيب كل أنواع الشرور ومن ضمنها شرور الحكام والمستبدين! وحتى هذه الدعوة لنبذ العنف واللجوء للحكمة لم ترق للحكام المستبدين فدفع الرجل حياته ثمنا لدعوته بالكلمة فكيف لو دعا لحمل السلاح؟!

ومرة أخرى نسأل أصحاب القلوب السليمة والعقول الحكيمة والنفوس الهادئة ما الفرق الذي تجدونه بين دعوة الكواكبي ومنهج البوطي في الوصول لمجتمع يحكمه النظام وتسوده العدالة؟

وفي نفس السياق نجد كلاماً في غاية الأهمية لأحد أبرز أبناء مدرسة الفكر الإسلامي المعاصر وهو الدكتور محمد عبد الله دراز فيلسوف القرآن وصاحب دستور الأخلاق في القرآن، حيث يتساءل في كتابه المشار إليه ((هل هناك ما هو أكثر منافاة للقانون من ترك الجريمة دون عقاب؟ وترك الباطل ينتصب مكان الحق؟ وترك الظلم يتسلَّط؟ ولكن إذا كان اللوم الذي يوجه ضد خطأ معيَّن يثير من الأخطاء ما هو أشدّ خطراً، وإذا كان التشهير بالباطل يستتبع إظلام الحقيقة، وإذا كان التَّمرد على الطاغية مع العجز عن إقرار النظام، لا يؤدِّي إلاّ إلى ـِ إراقة دماء الأبرياء، وجعل الاستبداد أشد تحكماً، كما لم يكن _ إذا كان ذلك جائز الحدوث، أوليسَ هذا موضع تطبيق المبدأ المشهور : تجنّب أسوأ الشرّين، أو تقبّل أخفَّهما؟)) [1]

لاحظوا حجم الحكمة والفطنة في هذا الكلام الذي قيل في خمسينيات القرن الماضي من إمام من أئمة الوسطية الإسلامية السمحة التي تجلت في تناوله لعدد من القضايا الكبرى التي حيرت الفكر الإسلامي واستنزفته وهي:

العقل والنقل، السنة والبدعة، الجبر والاختيار، السلم والحرب، العلم والدين، الخلق والقانون، هذ الكلام الصادر عن هذا الرجل الموسوعي الذي كتب في كل هذه القضايا بفكر معاصر لا يتنكر للأصالة، فهو ابن الأزهر وابن السوربون، كلامه يستحق التأمّل من كل

1- محمد عبد الله دراز، دستور الاخلاق، 1973 مؤسسة الرسالة، ص508

الحريصين على فهم مقاصد الدين وما هي الطريقة الأمثل لصياغة عقد اجتماعي يقوم على هذه المقاصد ولا يصادم الحقائق القائمة على الأرض ويعاندها، ومرة أخرى نسأل: هل خرج الشيخ البوطي رحمه الله عن هذا المنطق وعن هذا الفهم؟

وبعد جولتنا على تلك القواعد الفكرية والعقدية التي انطلق منها الشيخ رحمه الله نحو تشكيل قناعاته وبناء منهجه الذي يعلن عنه دائماً بكل الوسائل المتاحة له، نصل إلى جوهر بحثنا وهو قراءة لموقف الشيخ البوطي من أحداث الثورات العربية عموما والثورة السورية على وجه الخصوص، لنقرأ حقيقة هذا الموقف:

هل كان موقفه منسجما مع قناعاته ومنهجه الراسخ قبل بدء أحداث الثورات العربية أم هو موقف استجدَّ بعدها، بمعنى هل غيَّر الشيخ البوطي قناعاته وعاندَ منهجه القديم وجاء بنهجٍ جديد ينسجم مع هوى الحكام ويستجيب لرغبات السلطة؟

وبما أنَّنا سنرَكِّز في بحثنا على موقفه من الثورة السورية وما رافقها من أحداثٍ جسام، لا بدَّ من الاقتراب من علاقته مع السلطة في سورية، وهل هي مبنية على ثوابت منهج الشيخ أم أنَّها تلوَّنت بلون هوى السلطة في كل مرحلة من المراحل التي عايشها طيلة حياته في البلد، وهذا يحتاج منَّا عودة إلى الخلف قليلا لنعرف كيف بدأت علاقته بالسلطة وكيف سارت؟

في البداية سنحاول الاقتراب من حياة الشيخ بتلخيص بعض ما مر من سيرته (منذ قدومه إلى دمشق طفلاً وفي أي بيئة تشكَّل وعيه وتبلورت قناعاته، فمنذ قدومه إلى دمشق سكن في حيّ الأكراد (ركن الدين) على سفح جبل قاسيون، فالتحق بمدرسة ابتدائيّة في منطقة ساروجة في دمشق، وكان لوالده ملّا رمضان الدور الأكبر في تلقينه دروس العقيدة والسيرة والنحو والصرف في سنّ مبكرة، لكنَّ حرص الوالد على عقيدة ابنه جعلته يدفعه إلى تلقي العلوم في معهد التوجيه الإسلاميّ لدى الشيخ حسن حبنكة الميدانيّ (1978-1908)، في جامع منجك في حيّ الجزماتيّة في الميدان لفترة ستّ سنوات أي حتّى العام 1953 ميلاديّ، وفي عام 1954، سافر إلى القاهرة حيث حصل على شهادة الإجازة في الشريعة من جامعة الأزهر عام 1955، ثمّ حاز على دبلوم التربية من كلّيّة اللغة العربيّة في الجامعة ذاتها عام 1956 ميلاديّ، ودرّس مادّة التربية الإسلاميّة في حمص عام 1958، قبل أن يعيَّن معيداً في كلّيّة الشريعة،

جامعة دمشق عام 1960، نال درجة الدكتوراه من كلّيّة القانون والشريعة بجامعة الأزهر عام 1965، في أصول الشريعة الإسلاميّة عن أطروحته "ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلاميّة" برتبة ممتاز مع التوصية بطباعتها على نفقة الجامعة وتبادلها مع الجامعات الأخرى، ترقّى أكاديميّاً حتّى أصبح عميداً لكلّيّة الشريعة في جامعة دمشق عام 1977، ثمّ رئيساً لقسم العقيدة والأديان، وبقي محاضراً متعاقداً بعد تقاعده عام 1993 وإلى حين وفاته رحمه الله)[1]

وبالعودة إلى الفترة التي قَدِم فيها الشيخ برفقة والده إلى دمشق، نجد أنَّ المشهد الديني في سورية كان ينقسم إلى ثلاث مدارس دينية كبرى كانت موجودة في سوريا، تمتد من أكثرها تشدّدا ممثّلة بالتيار السلفي -معهد الزهراء ومسجد دكّ الباب- إلى أكثرها ليبرالية متمثلة بتيار اللاعنف -جودت سعيد مرورا بأتباع الطرق الصوفية ذائعة الانتشار مثل: جماعة زيد وآل الرفاعي وجماعة أبو النور وأحمد كفتارو والطريقة الخزنوية ومعهد الفتح وآل الفرفور، لكنَّ الشيخ رحمه الله لم يحسب على أيٍّ من هذه المدارس، والسبب في ذلك أنّ الشيخ البوطي كان قد نشأ وتتلمذ في معهد التوجيه الإسلامي على يد آل الميداني الشيخين: حسن حبنكة الميداني وأخيه صادق، إلا أنّ مدرسة التوجيه الإسلامي لم يكتب لها البقاء، فقد نجح النظام البعثي في تفكيكها عام 1967، وذلك بعد المصادمات العديدة التي حصلت بين الشيخ حسن حبنكة الميداني -شيخ المدرسة والزعيم الديني الأكبر وقتها- وبين النظام السوري في ستينيات القرن الماضي على خلفية قرارات التأميم التي أقدم عليها الرئيس السوري أمين الحافظ عام 1965، والهجوم على «الدين» في مقال «إلحادي» نشر في مجلة الجيش عام 1967.

وإثر تلك الصدامات نهج الشيخ البوطي نهجاً أقرب للوسطية والاعتدال فحاول عقلنة التصوف وإبعاده عن منطق الخوارق والشطحات وضبطه بإمرة الفقه وكان كثيراً ما يزهد بنفسه ويرفض عقلية الشيخ والمريد بل قد يتواضع إلى درجة تربك الطرف الآخر، فقد روى لي د. ثائر الحلاق أنه لقي الشيخ البوطي في أحد شوارع دمشق، وكان الحلاق قد رزق مولوداً فطلب من الشيخ البوطي تحنيكه وأصر على ذلك فرفض د. البوطي، ودله على الشيخ أبي الحسن الكردي متعللاً بأنه ليس من أهل الذكر والبركة[2]، وهذا يدل على تحريره التصوف من عقلية الشيخ والمريد،وقد صحبه على منهجه هذا علماء أجلاء.

1- هذه المعلومات، سبق وأن أشرنا إلى مصادرها كما أنني سمعتها شخصيا من د. عبد الرحمن البوطي خلال لقاءات مباشرة معه.
2- ذكر القصة د. ثائر الحلاق.

كما دخل في نزاع فكري مع التيار السلفي والتي سبق الحديث عنها، ما نودّ قوله بعد هذا العرض لبيان موقع الشيخ في الخارطة الدينية السورية هو أنَّه رحمه الله التزم منهجاً واضحاً في علاقته مع السلطة الحاكمة بغض النظر من هو المتربع على عرشها، فلا خصوصيَّة لعلاقته مع آل الأسد بل هو منهج يتعلق بكيفية تعامله مع السلطة بشكل عام وما هي ضوابط هذه العلاقة، تلك الضوابط التي بيَّنها بوضوح في مقدمة كتابه «هذا ما قلته أمام بعض الملوك والرؤساء» :

▼ أولا: لا أبدأ فأطرق أبوابهم ابتغاء أيّ مغنم أو بحثاً عن أيّ مصلحةٍ دنيويّةٍ خاصّة أو عامّة.

▼ ثانيا: إن دعاني رئيس الدّولة إليه لمشورةٍ أو مهمّة؛ استجبت، إذ لا يسعني في حكم الشّريعة الإسلاميّة إلّا ذلك، ولكنّي لا أصطحب معي - انتهازاً لتلك المناسبة - أيّ حاجةٍ شخصيّةٍ أرجوها منه أو أعرضها عليه.

▼ ثالثا: لا أدّخر وسعا في نصحه وتذكيره بالله، وبعظم المسؤوليّة التي يحملها لهذه الأمّة، بالأسلوب المحبّب البعيد عن التّصنّع، والمغموس بمشاعر الغيرة والحبّ، كلّما سنحت الفرصة لذلك، إنْ في لقاءٍ شخصيّ مغلق، أو في كلمةٍ ألقيها على رؤوس الأشهاد.

▼ رابعا: أثني عليه بكلّ ما عرفته فيه من صلاحٍ وخير، سواء عرف النّاس ذلك معي منه أم لم يعرفوا، حملا له على المزيد، وتحذيرا له من التحوّل إلى النّقيض، وإحقاقا للحقّ.

▼ خامسا: لا أتألّى على الله بحكمٍ غيبيّ أقطع به، لا في حقّ حاكم ولا في حقّ أيّ من عباد الله، مهما كان شأنه، ولكنّي أجنح دائماً إلى حسن الظنّ بالله، في حقّ نفسي وفي حقّ سائر عباده، وهو الأمر الذي يحملني على الترفّع عن الخوض في حقّهم ويحفّزني على حسن الظّنّ بهم.

هذه الضوابط هي التي وضعها الشيخ لمنهجه في التعامل مع الحكام أيّا كان على رأس السلطة، وهو بذلك يعتبر نفسه متّبعا لا مبتدعا، فيقول إنَّ منهجه مبنيّ على نصوص ثابته ومنها :

قول رسول الله ﷺ: «الدّين النصيحة قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» صحيح مسلم/55 وقول رسول الله ﷺ: «أنزلوا الناس منازلهم»[1] ، أي اعرفوا أقدارَهم في خطابكم لهم وتعاملكم معهم .

وهو بذلك يؤمن كما يقول دائماً بأنّه بهذا المنهج يسير على خطى السّلف الصّالح والأئمة الأعلام من الأوزاعي إلى الغزالي إلى الفخر الرازي وصولاً إلى الإمام النووي ومن سار هذا النهج من المعاصرين كما أشرنا سابقاً.

أمَّا علاقته مع آل الأسد فلا يمكنك أن تجدَ لها أثراً قبل عام 1980! فهو المنشغل بنشاطه العلمي مدرساً في جامعة دمشق في كلية الشريعة بالإضافة لنشاطه الديني من خلال دروسه في مساجد دمشق، وذلك حتى العام 1980 حيث ألقى الشيخ البوطي كلمة في جامعة دمشق، في مهرجان خطابي كبير دعت إليه وزارة الأوقاف السورية بمناسبة دخول القرن الخامس عشر الهجري، برعاية وحضور الرئيس السابق حافظ الأسد، وكانت حوادث الصدام في سوريا مع الإخوان المسلمين[2] والنظام آنذاك على أشدّها، ومعروف موقف الشيخ من الإسلام الحركي كما سبق القول، حينها امتثل الشيخ البوطي لأمر والده الذي كان يرى ضرورة نصيحة الحاكم ما أمكن، وقد نالت كلمته إعجاب الرئيس الأسد واهتمامه، كانت هذه نقطة البداية لعلاقة الشيخ مع آل الأسد.

1- أخرجه أبو يعلى في ((مسنده)) (8/ 246)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (4/ 973)، والبيهقي في ((الشعب)) (7/ 264)

2- يرى أ. أمير ناشر النعم في مقاله المنشور بعنوان " دعوة لدراسة دور البوطي غير المنظور" على موقع تلفزيون سورية بتاريخ 24/05/2019، (أن د. سعيد لمع نجمه وشاعت كتبه بعد الأحداث التي مرت في سورية بالثمانينات وهجرة العلماء وقيادات الأخوان المسلمين)، وهذا الرأي لا يزيد عن كونه حدساً شخصياً وليس رأياً علمياً، فقد كان العكس هو الصحيح حيث إنَّ الأخوان المسلمون وقياداتهم قد جعلوا من كتب د. البوطي مراجع أساسية في مناهجهم، ويتجلى ذلك في كتابات الشيخين سعيد حوى وعبد الله علوان رحمهما الله تعالى. بينما يرى أ. محمد خير موسى(أن الشيخ البوطي كان من صف الأخوان المسلمين وممن بايعهم)، وهذا خطأ بيّن حيث أن د. البوطي رحمه الله كان شديد الانتقاد والاختلاف مع الأخوان المسلمين، وقد حدثني شخصياً أ. زهير سالم أن د. البوطي لم يكن يوماً من الأيام في صفوف الأخوان المسلمين، وقد تواصلت كذلك مع أ.د عدنان زرزور حول صحة مبايعة الشيخ البوطي للأخوان وللسباعي تحديداً فأجاب بالآتي: هذا الكلام ليس صحيحاً ولا عهد لي به، ولا أدري من أين جاء به الأخ، لكن الذي أعرفه أن الشيخ سعيد رحمه الله وأنا تم تعييننا في الجامعة معيدين في وقت واحد، وأخذت له موعداً من الأستاذ السباعي لأن صلتي به كانت قبل سنتين من تعييني في الجامعة، وكان هذا في صيف عام 1959 م لما انتبدتني كلية الشريعة لمساعدته في مكتبته، بسبب صعوبة وصوله للكتب، فكنت أعاونه، وأكتب له بعض القضايا، وأخذت موعداً للدكتور سعيد، وهو يعلم أننا لما جئنا للكلية كمعيدين، كان الأمر مفصولاً بالنسبة لمجلس الكلية، كانوا بحاجة اثنين، وكان هناك تردد في المجلس مابين الشيخ سعيد، وعبد اللطيف الشيرازي رحمة الله عليه، فتأخر الموضوع ثلاثة أو أربعة أشهر، ثم اختاروا الشيخ سعيد، والأستاذ السباعي وافق، لأنهم كانوا يرجعون له في مجلس الكلية، عرف الشيخ سعيد أن الأستاذ السباعي هو الذي وافق على مجيئه، فقمنا بزيارته، وكانت جلسة تحدث عنها الشيخ سعيد في مقاله الذي كتبه عن الأستاذ السباعي، لكن موضوع البيعة لم يكن من قريب ولا بعيد، والأستاذ السباعي تخلى عن موضوع الأحزاب والجماعات، ولم يعد له صلة بهؤلاء الناس، بغض النظر عن رأيه في العمل القائم في سوريا أو في غيرها، وعن الأشخاص الذين كانوا على رأس الجماعات الدينية في سوريا وغير سورية.

أخبرني بعض من كان له صلة مباشرة ببشار الأسد عن مجاملته المكرهة لثلاثة شخصيات لم يكن يرتاح لها، الأول: الشيخ أحمد حسون لمصلحيته ونفاقه، الثاني: حسن نصر الله لنديته وجديته في التعامل، الثالث: د. البوطي لكثرة إلحاحه ومطالبه في الشأن العام.

وفي جانب آخر تبرز شهادة الدكتور رياض نعسان آغا في برنامج الذاكرة السورية المنشورة حلقاته على اليوتيوب، حيث يذكر الدكتور رياض في سياق روايته لحادثةٍ وقعت عندما كان مديرا للبرامج في التلفزيون السوري وطالبه أحد وزراء الإعلام بوقف بث القرآن الكريم في افتتاح واختتام البرامج التلفزيونية، فيروي الدكتور كيف وقع في حيرة شديدة وقتها، فقرر أن يوصل الأمر للرئيس حافظ الأسد آنذاك، واستطاع بمساعدة أصدقاء له ذكرهم أثناء المقابلة أن يوصل رسالة للأسد الأب قال له فيها:

((سيدي الرئيس أمرت أن ألغيَ قراءة القرآن الكريم على شاشة التلفزيون ومثل هذا الفعل يشبه أن يقول للناس إنك ضد القرآن والإسلام، والإسلام سيف في يدك ولا نريد أن يكون سيفا عليك)) ثم يضيف الدكتور آغا: وجاء الجواب صاعقاً، حيث تم تفويضي بإدارة الشأن الديني في الإذاعة والتلفزيون من قِبل الرئيس! ويضيف بأنَّ الرئيس بعد هذا التفويض طلب منه التفكير ببرنامج ديني على شاشة التلفزيون السوري ويكون له علاقة بالقرآن، يقول الدكتور رياض: الحقيقة أنِّي طلبت منه أن يعمِّق علاقته بالدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ويضيف: أنا تربطني صداقة عميقة مع الشيخ البوطي (رغم خلافنا السياسي في فترة الثورة حيث كان الشيخ في واد وأنا في وادٍ آخر)، لكن أنا كان أستاذي الرجل، حيث درسني في جامعة دمشق في العام 1970 واستمرت العلاقة بيني وبينه، ثم يستأنف الدكتور رياض حديثه : المهم اتصلت بالدكتور البوطي بعدما قلت للرئيس من المفيد أنك (تشوف) الشيخ البوطي، بعدها فعلاً التقيت الشيخ البوطي وكان البرنامج الذي تم الاتفاق عليه هو تفسير القرآن الكريم، وفعلاً انطلق البرنامج وكان معظم العاملين في التلفزيون يسمون البرنامج (برنامج الرئيس) لأنه جاء بأمر مباشر منه!

ثم يضيف الدكتور رياض في حديثه المهم في الذاكرة السورية : وأنا كنت على صلة وثيقة بالشيخ البوطي، حيث كان يأتيني إلى المكتب عندما يحضر لتسجيل حلقات البرنامج، وفي

أحيان كثيرة كنت أوصله إلى البيت لأن الشيخ البوطي لم يكن يملك سيارة ! ويستطرد: وأنا أحبه وكتبت عنه الكثير، وقرأت كتبه، ورحمه الله أخذ الموقف المعروف ودفع حياته الثمن!

من يتأمَّل في دلالات حديث الدكتور رياض نعسان آغا وهو رجل له ثقله في الفكر والسياسة، يقف عند عدَّة أمور أولُّها أنَّ الشيخ رحمه لم يطلب التَّقرب من أهل السلطة، لكن أهل السلطة هم من اقتربوا منه، ويستشعر الإنسان القيمة الفكرية للشيخ عندما يشهد له إنسان له وزنه في عالم الثقافة والفكر مثل الدكتور رياض نعسان آغا مهما كان رأي الناس فيه، وأعتقد أنَّ الكلمة المفتاحية لمعرفة حقيقة ما يسعى له الشيخ وما هو عليه فعلا هي قول الدكتور رياض نعسان آغا : كنت أوصله أحياناً بسيارتي إلى بيته لأن الشيخ البوطي لا يملك سيارة، هذه الجملة جاءت عابرة أثناء الحديث لكن لها دلالات في غاية الأهمية لو سأل كل منصف نفسه السؤال الجوهري :

إذا ماذا كان يريد الشيخ البوطي من أهل السلطة؟

وفعلاً انطلق برنامج «دراسات قرآنية» في التلفزيون العربي السوري، وكان لهذا البرنامج صدى واسع لدى الناس، وساهم في اقتراب الناس أكثر من فكر الشيخ، حيث كانت تدور نقاشات حول البرنامج من كافة شرائح المجتمع السوري على اختلاف مشاربها وتوجهاتها الفكرية والعقدية، وساهم هذا البرنامج في تمتين العلاقة بينه وبين الرئيس الأسد الأب بشكل كبير والتي استمرت حتى وفاته في العام 2000 حيث أمَّ الشيخ البوطي صلاة الجنازة ممَّا عرَّضه لمزيد من الانتقادات من خصومه في الفكر حيث اعتبروا أنَّه بصلاته هذه شرعن عملية التوريث.

لكن رغم صعوبة فهم الربط بين إمامة صلاة الجنازة وتأييد التوريث يستمر هذا الجدل على مواقف الشيخ بين منصف ومؤيدٍ ومتحامل!

فالشيخ في تعامله مع بشار الأسد لم يخرج عن إطار الضوابط التي وضعها لتعامله مع الحكام، فلم ينشغل بالمديح المجاني بل بقي الناصح ضمن قواعد منهجه الذي يؤمن به ويسير على هديه مردِّدا دائماً الالتزام بنصيحة والده ومعلمه الذي كان يقول له: ((يا ولدي كل المسلمين جماعتنا ونحن جماعة كل المسلمين))، فكان الشيخ يسعى جاهداً لتكريس هذه

المقولة من تكرار دعوته للحفاظ على الوحدة الوطنية التي كان يعتبرها صمام الأمان للحفاظ على وحدة البلد وتماسك بنيانه الداخلي، دائم التحذير من الطائفية حيث كان يعتبرها من أخطر الأوراق التي قد يلعب بها أعداء البلد والمتربصين بوحدته، وكان يكرر هذه النصائح أمام الخاصة والعامة ! ففي أول كلمة له أمام بشار الأسد في رمضان من العام 2000، أثناء دعوته لعلماء سورية على مأدبة إفطار وهو تقليد كان يفعله حافظ الأسد سنوياً وحاول بشار الإبقاء على هذا التقليد، بدأ الشيخ البوطي كلمته بالحديث عن الثوابت التي كان يحرص عليها الراحل حافظ الأسد وهي الاعتزاز بالهوية العربية والإسلامية وأنَّه كان يحرص على إبراز الوجه الوسطي للإسلام بعيداً عن الأصولية المتطرفة، وأنَّه كان يعتقد أن الإسلام الوسطي الذي يعبر عن أصول الإسلام الحق وليست أصولية المتطرفين، ثمَّ يتوجه لبشار بالقول:

((السيد الرئيس لا شكَّ أنَّ المهمة شاقَّة، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم،كلنا يعلم خبر التيارات الوافدة من اليمن والشمال، وكلنا نرى العواصف التي تهتاج، ويا عجباً تهتاج لتصلَ إلى شامنا هذا ! لماذا إلى شامنا هذا : كلنا نعلم مظاهر الضغوط المتنوعة، المتطورة التي تتجه الواحدة تلوَ الأخرى إلى شامنا! لماذا؟ لأنَّ شامنا هذه معين الهداية والرعاية الربانية، شامنا هذه عين من عيون الله سبحانه وتعالى يكلأ الله بها هذه الأمة كلها، لكننا واثقون أنَّ العواصف ستمر كلها، والتيارات ستبدد ولسوف يحمي الله سبحانه وتعالى شامنا بهذهِ اللّحمةِ الوطنية التي أسأل الله أن تزداد تماسكاً، بهذا الإقبال بكل عون وتأييدٍ ودعاء للسيد الرئيس، سيادة الرئيس:

نحن نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا أن نكون جنودك لرعاية الحق الذي تسهرون من أجله، وأنا أعلم أن هنالك ثغرات خطيرة يتسرب منها العدو بألوان شتى، ولا شك أننا نعلم أنَّ الإعلام كان ولا يزال هو رئة هذه الأمة ومن ثمَّ كان هو أخطر نافذة، إعلامنا مطموع فيه بقدر ما تعتزّ به هذه البلدة من قيمنا ومن مبادئنا الراسخة، و إذا كلفتم أمتكم شعبكم هذا بأي عمل في سبيل حماية هذه المؤسسة من ما قد يضير بوحدتها الوطنية، من كل ما قد يزعزع بنيانها الإسلامي، من كل ما قد يزعزع قيمها الأخلاقية الراسخة فنحن جنودك، يخَيَّل إليَّ يا سيدي الرئيس وأرجو أن لا أكون مبالغاً أنَّ توصيات مؤتمر السكان التي لفظتها، هذه

البلدة، لفظتها سورية باعتزاز الآن تتسرب عن طريق النَّوافذ، عن طريق الإعلام،تتسرب عن طريق بعض المسلسلات، ولكنَّني على يقين بأنَّ الله سيحمي شامنا كما قلتم، والسبيل لا أقول الأوحد بل السبيل الأول هو هذا الذي قيَّضه لنا في شخصك)) [1]

لو تأملنا هذه الكلمات من موقع حيادي لوجدنا أنَّ الشيخ بقيَ أمينا لمنهجه وفيّا لقناعاته التي حاولنا رسم ملامحها من خلال العرض الذي قدمناه، فالكلمة تخلو من كيل المديح الفارغ ومهرجانات الرَّدح وقصائد التمجيد التي اعتدنا على سماعها في هكذا مهمات، فالشيخ وجّهَ عدة رسائل.

← أولها: صعوبة المهمة الموكلة على من يصل لمنصب قيادة بلد بحجم سورية وتاريخها.

← ثانيها: أن الشام كانت على الدوام هدفاً للطامعين لموقعها الفريد في وجدان العرب والمسلمين، واستعداد شعبها للتعاون مع كل يسعى للحفاظ على مكانتها .

← ثالثها: خطورة الإعلام كنافذة قد تدخل منها رياح مسمومة قد تهدد مكانة سورية ونسيجها الاجتماعي من خلال العبث بوحدتها الوطنية، هذه الرسائل تحمل في طياتها معانٍ كثيرة لمن كان له قلب سليم وفكرٍ قويم، وفيها من الحرص ما يدفع كل مخلص للبلد وأمنه أن يقرأها بقلبه وعقله لتؤتي ثمارها، فهل وصلت تلك المعاني لبشار الأسد وعملَ بِوَحْيِها؟ واقع الحال لا يعطي جواباً إيجابياً لهذا السؤال، حيث يبدو أن بشار لم يرقْ له أسلوب النّصح وفضَّلَ عليه أسلوب الرَّدح والمدح، فأغلب شهادات المقربين من مواقع السلطة تتقاطع وتكاد تجمع على أن العلاقة بين الشيخ وبشار لم تكن على ما يرام، فلم يعد الشيخ الزائر المرغوب الذي توجَّه له الدعوات لزيارة القصر الجمهوري كأيام الأسد الأب !

لكن هذه الجفوة من السلطة التي أصبح على رأسها بشار الأسد، لم تؤثّر في حقيقة موقف الشيخ من مؤسسة الحكم ! لأنَّه لم يبنِ هذه العلاقة على أسسٍ شخصيَّة بل هي محكومة بالمبادئ التي يؤمن بها والتي سبق الإشارة إليها عندما ذكرنا الضوابط الخمسة التي وضعها الشيخ كإطار لهذه العلاقة، فواصل نشاطه الدعوي والفكري من خلال مختلف وسائل التواصل المتاحة له للقاء الجماهير، واستمر هذا الحال لحين انطلاق شرارة أحداث الثورة السورية، فكيف تعامل الشيخ مع هذا الحدث الكبير؟

1- موقع نسيم الشام، دروس جامع الإيمان https://www.youtube.com/watch?v=jmAFtHSmIM

لم يكن الشيخ ذلك الرجل السَّاذج الذي يمكن أن تتجاوزه الأحداث أو تنطلي عليه ألاعيب السياسة، فهو لم يدخل إلى العمل الدعوي من باب الدروشة الدينيَّة رغم نشأته الصوفية التي لا خلاف عليها، بل دخله متسلِّحاً بعقل قويم وقلب سليم، فجمعَ بين يقظة العقل ورقة القلب[1]، وهذا ما أعطاه هذا التَّفرّد في الموقف وأثار حوله كل هذا الجدل، فهو ليس من شيوخ ما يطلبه الجمهور لذلك ترى أن تلامذته لهم صفة النخبوية المجتمعية العامة لا الشعبوية ولا الشللية وربما عدم سعيه لتأسيس جماعة بل وعدم حرصه على ذلك سهل عملية تصفيته فيما بعد! فلا يروق فكره لغلاة التصوف لأنَّه صاحب فكر يقظ لا يؤمن بالشطحات والمبالغة بالخوارق التي تصل لحدود الخرافة، لذلك ابتعد عنه دراويش التصوف إلى مواقع أخرى يجدون فيها ضالتهم، أما علاقته مع السلفية النصوصية التقليدية، فليس فقط لا يروق لهم فكره بل العلاقة معهم شديدة الحدة تصل إلى حدِّ الصدام، فهم بعيدون عنه أيضًا كما سبق ووضَّحنا طبيعة العلاقة بينه وبينهم وبين التيارات الأخرى التي أشرنا سابقا كالإسلام الحركي والعلمانيين والقوميين واليساريين إلخ، فالرجل لا يحتوي فكره تيار أو حزب أو جماعة لذلك تجده محلِّقا فوق الجميع فيعجزون عن حشره في زاوية أو حصره في مكان، فمن يريد فهم رؤيته عليه أن يفهم أولا طبيعة فكره وأنَّه لن يجده في موقع واحد، وربما هذا الذي صعَّبَ على الآخرين فهم موقفه!

فمع انطلاق شرارة الأحداث جمع الشيخ أوراقه ووضعها على الطاولة ليتمكن من الإحاطة بالموقف المحيط بسورية من كل جوانبه ليتمكن من إعطاء رأيٍ متوازن يبعد سورية عن شبح الخراب الذي وصلت إليه، فالشيخ يعلم تماما طبيعة النظام الذي يعيش في كنفه، ويعلم الجهات التي ستقف بجانبه وتمنع سقوطه، ويعلم حجم الإجرام الذي يمكن أن يمارسه ضد

1- نحن نرى خطأ ما ذهب إليه الشيخ سارية عبد الكريم الرفاعي، من حيث أسلوب نقاشه للشيخ البوطي، حيث يرى الشيخ سارية أن الدكتور البوطي – رحمه الله تعالى كان طيب القلب يصدق كل ما يسمع من الرئيس أو من ضباط الأمن، ويقول: جاءني من مصدر موثوق. يعني بذلك الأجهزة الأمنية! لذلك فإني أعتقد أن الشيخ –رحمه الله تعالى – كان يتكلم ويؤيد النظام بكل ما يقوم به من قتل بناء على قناعته بصدقهم، وبأنَّ الخروج على الحاكم غير جائز؛ لحديث: «وإن ضرِبَ ظَهْركَ وأخِذَ مالكَ» (١)، يعني: عليك أن تطيع الأمير ولو كان ظالما. انتهى، مذكرات في زمن الثورة ج1، ط1، تركيا- مكتبة الأسرة العربية، 2020، ص48.

وتفسير موقفنا في تخطئة فضيلة الشيخ سارية فيما ذهب إليه، أنه بني على اتهامات لا دليل لها وبأسلوب لا يليق تداوله بين أهل العلم حيث يحمل بين ثناياه الاستخفاف بعقل الشيخ البوطي وإدراكه، وكان الأولى أن يناقشه في الأصول المعرفية التي التزم بها د. البوطي، وأن يترفع عن اتهام الشيخ البوطي بدعم القتل، ولو صح أو ثبت عندي هذا الموقف لما صدر هذا الكتاب.

النَّاس الذين قد يعارضونه، ليس علمه بهذه الأمور تعني أنَّه يعلم الغيب، لكن هي عملية استقراء للأحداث من واقع معرفة بطبيعة كافة الأمور التي ستساهم في صناعة الأحداث التي قد تقع[1]، فمن السهل على الإنسان أن يحلل الأحداث بعد وقوعها، وهذا أمر يفعله أغلب النَّاس، لكن خواص النَّاس هم الذين يقرأون مآلات الأحداث قبل وقوعها، ثم يضعون الخطط التي تجنِّبهم المخاطر التي قد تواجههم والكوارث التي قد تقع فهنا تكمن الحكمة ! ففي الأمثال أنَّ رجلاً أراد أن يتباهى بأفعال أبيه فقال: إنَّ أبي كان يجبر كسور الناس، فأجابه آخر: إن أبي كان يجنِّب الناس الكسر، فمن الجيد أن تعالج آثار حدثٍ سيء، لكنَّ المهارة هي أن تمنع حدوثه!

والذي يعود لقراءة الأحداث بعقلٍ بارد كما وقعت يجد أنَّ الشيخ رحمه الله كان يسير وفقاً لهذا المبدأ، فكان يحذِّر من اندلاع الحريق ومن صعوبة السيطرة عليه إن اندلع!

لا أحد ينكر أن أحد أهم محددات سلوك الشيخ رحمه الله هي تربيته الصوفية القائمة على ترويض القلب وإخضاعه لمراد الله سبحانه وتعالى وفقا لمكانة علمية يؤمنون بها ويتوارثونها وفقا لمراتبٍ ثلاث وفقا لتصنيفهم، علم العقل وعلم الأحوال وعلم الأسرار ولكل علم من هذه العلوم ضوابطه ومحدداته التي تحكمه! ولا نهدف هنا الدخول في تفاصيل هذه العلوم فيمكن لكل مهتم الرجوع إلى المصادر الصوفية المعتبرة فيطَّلعَ عليها، لكن ما نريد قوله أنَّهم يعتبرون علم الرؤى والأحلام ضمن الصنف الثالث، فهو بالنسبة لهم من جملة علوم الأسرار التي يطلعهم الله تعالى عليها كشفا فهي لديهم عقيدة ثابتة أو إلهاماً كجزء من وراثة العلماء للأنبياء !

فللرؤى في الوجدان الصوفي مكانة مرموقة إذ يعتبرونها من ركائز العلم الموصل إلى الله بمراتبه التي ذكرناها، ومن هنا يمكن فهم اهتمام الشيخ بتلك الرؤية الشهيرة التي ذكرها كثيراً واعتبرها إنذاراً من الله لشرٍّ قادم ففي يوم 10/8/2010، أي قبل انطلاق شرارة الثورة السورية بأشهر ،رأى الشيخ كما أخبر رؤيا خطيرة، ويقول بأنَّ رسول الله أمره بتبليغها لإخوانه ومريديه و((قادة وطني)) وقد تمثَّلت تلك الرؤيا في ((وباء نازل من السماء بمظهر مادّي مرعب ذي بقع

1- أشرنا فيما سبق، وفي بحثنا حول التفاهم الاضطراري بين د. البوطي والسلطة، إلى الأحداث الجسام التي عاصرها الشيخ وجعلته يفهم الدرس جيدا.

سرطانية حمراء تبعث على التقزز والاشمئزاز، ومع هبوطه السريع نحو الأرض أخذت تلك البقع تنفصل منها حيوانات كثيفة وكثيرة طائرة، راحت تنتشر بسرعة فوق دمشق، وقد علمت أنها جراثيم وباء متجه نحو البلد))

ويقول : ((أريد أن أعلم الجميع أن البلاد مقبلة على ما سمّاه «فتنة»، داعياً إلى «العودة إلى الله من القيادة والشعب»))[1]

قبل بدء الأحداث وبناء على تلك الرؤيا التي يعتبرها من مصادر العلم اليقيني بالنسبة له مهما كان تقييم الآخرين لهذا المصدر طلبَ من القيادة والشعب العودة إلى الله، ومعلوم للجميع ما المطلوب لتحقق تلك العودة سواء من القيادة أو الشعب ! فكيف سارت الأحداث؟

في 15/3/2011 انطلقت الشرارة الأولى وكانت دعوة الناس فيها ومطالبهم هي إصلاح النِّظام، فالتقط الشيخ رحمه الله هذه الإشارة ووجَّه رسالته الأولى من خلال أوَّل لقاء له مع الناس بعد عودته إلى سورية حيث كان يشارك في مؤتمر إسلامي في شرق آسيا، وكانت الأحداث قد بدأت في فترة غيابه وسقطت الدفعة الأولى من شهداء الثورة السورية، وكان لدى الناس رغبة شديدة لسماع رأيهِ بما جرى لعلمهم بأهميته وثقله سواء لدى السلطة أو لدى الناس ففي مساء يوم الاثنين الموافق 4/4/2011، التقى الشيخ الناس في درسه المعتاد في جامع الإيمان ومما قاله لهم :

((عدت وقد أحزنني ما بلغني أنَّ مزيداً من الدماء قد أريقت، وأنَّ مزيداً من القتلى قد سقطوا في ساحات الشهادة، أيها الإخوة إنني باسمي وباسمك أتوجه إلى أهالي وأقارب هؤلاء الذين استقلَّت بهم رحمة الله سبحانه وتعالى وكلنا أهل لهم، وكلنا أقارب لهم، أتوجَّه إليهم على اختلافهم أتوجه إلى أهاليهم في درعا في اللاذقية وفي غيرهما من أرضنا السورية الغالية بالتعزية القلبية الخالصة، سائلا الله عز وجل باسمكم، باسمي واسمكم أن يحشرهم مع الشهداء، ونقول لهم ولنا أيضاً:

إنَّ الحوادث تخدم قضاء الله المبرم، وليس قضاء الله هو الذي يخدم الحوادث، ولسوف نصلي عليهم إن شاء الله صلاة الغائب بعد انتهائنا من فريضة العشاء))

1- عن موقع الشيخ نسيم الشام

طبعا لا شك أنَّ حديثه هنا عن الذين سقطوا من المتظاهرين حتما، حيث أنَّه حتى هذا التاريخ المذكور وهو يوم 4/4/2011 كانت المظاهرات في بدايتها وكانت سلمية خالصة ولم يسقط ضحايا من قوات الأمن ولم يكن الجيش قد تدخَّل حينها، حتى لا يقال أن حديثه هنا عن ضحايا الأمن أو الجيش، وبعد هذه المقدمة يبدأ الشيخ في توضيح رؤيته من الأزمة ويبدأ باقتراح الحلول: ((أيّها الإخوة أما الدعوة إلى الإصلاح والقضاء على الفساد وأسبابه فهي ضرورة لا مندوحةَ عنها بل هي ضرورة يوجبها الشرع علينا قبل أن يوجبها المنطق، حقوق الإنسان، القيم التي يجب أن تتألَّق في المجتمعات الإسلامية، المبادئ الدينية التي ينبغي أن لا تضيَّع، هذه كلها ينبغي على الأمة قادةً وشعوباً أن يرعوها وأن يكونوا حرَّاساً عليها، فأعتقد أنَّه ليس فينا من يتنكر للدعوة إلى الإصلاح، الحريات المنضبطة، الحقوق الإنسانية، القِيم الإسلامية، ولكن:

ما هو المنبر الذي يجب أن تنطلق منه الدعوة إلى الإصلاح؟ هذا ما ينبغي أن نسأله وما ينبغي أن نجيب عنه إجابة دقيقة وحرة، ما هو المنبر الذي يجب أن تنطلق منه عملية الإصلاح إذاً؟ أو الدعوة إلى الإصلاح؟

هل المنبر ترى يتمثَّل في الشوارع؟ والصياح الذي يملأ أرجاءها؟

أم هل يتمثل هذا المنبر في الهتافات والشعارات التي تخفض وتعلي وترفع وتنزل؟

هل المنبر هو الثورات الهائجة التي لا تتورع عن التخريب ومن ثمَّ تتعرض للفتن وتتعرض وتعَرِّض نفسها لمزيدٍ من المِحن!

أعتقد أيها الإخوة أننا جميعاً نعلم الجواب! ليس هذا ولا ذاك ولا ذاك هو المنبر الذي تنطلق منه عمليات الإصلاح، وما علمنا قط أنَّ هذه التجربة نجحت في يوم من الأيام، إذا ما هو المنبر الذي يجب أن تنطلق منه عمليات الإصلاح التي لابدَّ منها، والتي نحن جميعاً متفقون على ضرورتها، أجيبكم أولاً من خلال ما يأمر به الدين، ديننا الإسلامي، ثانياً من خلال ما يأمر به المنطق، ثالثاً من خلال ما تدلنا عليه التجارب المستمرة القديمة والحديثة.

أمَّا الدين فيقول: إنَّ المنطلق إلى الإصلاح إنَّما يتمثَّل في الحوار، في التذكير، في النقاش، هذه الكلمات التي تلتقي تحت المصطلح القرآني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا ما

يقوله الدين الحق، أي أنَّ عملية الإصلاح إنَّما تتم بين طرفين ولا تتحقق من خلال طرف واحد، نحن الآن عبارة عن طرف واحد، نحن الشعب، فالإصلاح لا يتم عن طريق طرف واحد إذا سنكون كمن يحَدِّث نفسه في المرآة، زمام الإصلاح بيد الطرف الثاني! إذا ينبغي أن نجلس مع هذا الطرف الثاني، وينبغي أن نحاوره كما يقول الله عزوجل، ينبغي أن نذكره، ينبغي أن نأمره بالمعروف، ينبغي أن ننهاه عن المنكر، هذا ما يأمر به الدين قبل أن نقول المنطق وقبل أن نقول التجارب، واسمعوا ما يقول رسول الله ﷺ في هذا، فحتى عندما يكون الوليّ جائراً شديد الجور، لا يأذن رسول الله ﷺ بأن نعرضَ عنه وأن نصيح في الشوارع وأن نثير الغوغاء زاعمين بأننا نصلح،بل يأمرنا أن نواجهه، يأمرنا بأن نجلس إليه، لا حظوا دقة كلام رسول الله ﷺ عندما قال "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر"

لاحظوا قال ﷺ عندَ حتى لو كان جائراً، ولم يقل أفضل الجهاد كلمة حق وراء سلطان جائر، ولم يقل أفضل الجهاد كلمة حق في الشوارع دون التفاتٍ إلى السلطان الجائر، لا والرسولﷺ يعني ما يقول، فإذا رأينا أن فساداً يستشري وأنَّنا بحاجة إلى الصلاح والإصلاح، فلْنَعْلم أنَّ سبيل ذلك أن يلتقي الطرفان.ويتذاكران ويتناقشان ويتحاوران، ذلك هو المنهج الذي رسمه لنا كتاب الله سبحانه وتعالى، هذا ما يقوله الدين، ودونكم فاقرأوا كتاب الله فكل آية يأمرنا الله بها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،أن تنهى عن المنكر يعني أن تتحدث مع صاحب المنكر وتجلس إليه، تأمره بالمعروف وتذكره به.

وأمَّا المنطق فإنَّه يقول فيما درسناه في الفلسفة وعلم المنطق أيضاً : أنَّ القضية العقلانية المنتجة هي التي تتكون من مقدمتين، يعني من طرفين، فإذا وجدت المقدمتان أي وجدَ الطرفان وتلاقحا بالطريقة المنطقية المعروفة سرعان ما تنقدح النتيجة من ذلك، هذه حقيقة معروفة، أيّ الطرفين إذا استقلَّ بنفسه لا يستطيع أن يصلحَ فاسدا، لا هذا ولا ذاك لا بدَّ من التلاقي ولا بد من الحوار ولا بد من التشاور، وأنا الآن أتحدَّث عن المنطق، أمَّا عن التجربة، عودوا إلى التجارب السابقة قديما وحديثا تجدون أن العمليات الغوغائية، عملية الثورة التي تنهض بقضايا الإصلاح لا بدَّ أن تدفع غرامة هي في مجملها أسوأ بكثير من فائدة المغنم الذي قد تثمره فيما بعد هذه الثورات !

وهذا كلام المؤرخين، يعني عندما تهتاج فئة في المجتمع تبتغي الإصلاح، تهتاج بطريقة الثورة والإثارة ما الذي يحدث؟ لن تصل إلى ما تسميه الإصلاح إلا فوق ركامٍ من التهجير والتخريب، فإذا أردنا تجاوز هذا الركام لابدَّ أن تمر سنوات وسنوات وتراب هذا الإصلاح الذي نسعى إليه ماهي هويته ؟))[1]

هذا الكلام قاله الشيخ رحمه الله في بداية الأزمة، بعد أقل من أسبوعين على سقوط شهداء الأسبوع الأول من مظاهرات درعا، وواضح أن الشيخ استشعر خطورة ما يجري، هيجان شعبي مشروع لكنَّه غير منظم في مواجهة نظام يجيد كل فنون الجريمة وليس لديه أي طريقة في مواجهة النَّاس سوى الإجرام، عندما تعلم علم اليقين أنَّ المعادلة مختلَّةً خللاً شديداً، غياب تام للتكافؤ بين طرفيها فمن الحكمة أن تبحث عن حلول تخفِّف من نتيجتها الكارثية ! فلو أعدنا قراءة كلام الشيخ بشيء من الحكمة والرَّويَّة بقد انقشاع غبار العاصفة نسبيّاً، سنجد أنَّه في ضوء النتائج الكارثية التي تعرَّض لها شعب كامل من عصابة كان العالم كله سنداً لها، سنقول بإنصاف أن قراءتنا للمشهد كانت قاصرة، لكن نحن نقرأ مشهداً مكتوباً والشيخ رحمه الله قرأه قبل أن يكتب!

كل منصف عليه الاعتراف بهذه الحقيقة التي لم تَعد تخفى على أحد! لقد أدرك الشيخ رحمه الله وهو الَّلماح الفَطِن أن نتائج مواجهة النظام بالقوة ستكون كارثية وأن الخراب هو النتيجة الحتميَّة لهذه المواجهة ! وأنَّ أنهاراً من الدماء ستسيل ! فكانت ردة الفعل على تحذيراته التخوين والتشكيك وصولاً إلى التكفير من البعض،

وبعد أن بيَّن الشيخ في كلمته أنَّ الحوار والنقاش والسعي لتحقيقها بكل السبل هو السبيل الأمثل للحل، ثم يجيب على السؤال الذي قد يتبادر إلى ذهن الجميع :

((لكن أتصور أن فيكم من قد يقول: لكن يا أخي، لو أردنا أن نطرق الأبواب، ونجلس للحوار لن يسمع كلامنا أحد، لو أردنا أن نجلس إلى الطرف الثاني فنذكّرَهم بإصلاح الفساد، وفتح أبواب الحريات، وإنهاء عهد الحزب الواحد الحاكم...، يا أخي ليس هنالك مَنْ يسمع كلامَنا، قد يقال هذا الكلام ! وأنا أقول، وأحب أن أصرّح بما ينبغي أن أقول هل تمت هذه التجربة؟ أبداً ! نحن نقول نظرياً، لو أردنا أن نطرق الأبواب ونجلس فنتذاكر،

1- موقع نسيم الشام، دروس جامع الإيمان https://www.youtube.com/watch?v=jmAFtHSmIM

لن يصغي إلينا المسؤولون لكن، متى قامت هذه التجربة وانتهينا إلى هذه النتيجة، نتيجة عدم الإصغاء؟

أبدا دعوني أسألكم: متى قامت فئة من أعضاء مجلس الشعب وطرقوا باب الرئاسة العليا، لا لمصلحة شخصية، لا لأمر خاصٍ بشؤونهم، وإنما ليذَكّروا بضرورة فتح أبواب الحريات، ليذَكّروا بضرورة إنهاء مثلا الطوارئ، ليذَكّروا بضرورة ترسيخ مبادئ القيم؟

لا أعلم أبداً أنَّ فيهم من فعل ذلك وجِد مَنْ ذهب لمصالحهِ، مظالمهِ، نعم هل في رجال الأعمال مَنْ طرق باب المسؤولين وجلس إليهم ليتحدث عن ضرورة السير في طريق الإصلاح (هذه الجوانب التي نحن متفقون عليها)؟ أنا أصغي بأذني جيدا، وأحاول أن ألتقط الحوادث من هذا القبيل. أبدا، لم يحصل هذا وجد مَنْ سعى وجلس وبحث، لكن من أجل المغانم التجارية، من أجل المصالح الشخصية هل وجد في أساتذة الجامعة، في الطبقة المثقفة العليا، مَنْ طرق هذا الباب، ليسلك هذا المسلك، مسلك المجالسة، الحوار، المناقشة، الدعوة إلى الإصلاح؟ المشايخ، أقولها، فيما مضى: هل تم ذلك؟ نحن مقَصِّرون، وأشهد أننا مقَصِّرون إذن لا تقل يا أخي: لو فعلنا لن نجد من يصغي السمع إلينا جربوا ثم قول))[1].

نعود للتذكير بالقول أنَّ هذا الكلام قيل في بداية الحراك وكانت الدماء التي سالت يسيرة قياسا بالأنهار التي جرت لاحقاً، حاول الشيخ أن يضع الجميع أمام مسؤولياته، وأن لا يتم إصدار أحكام مسبقة، فالأمر يتعلق بدماء الناس وحياتهم وأرزاقهم وممتلكاتهم فالعلاج يجب أن تستنفذ جميع فرصه، وحتى يثبت لمن لا يقبل منه هذا الكلام أن النتيجة ليست دائماً صفرا وقد تتحقق ولو أشياء يسيرة يمكن البناء عليها، فانتزاع القليل من أيدي سلطة لها هذه السطوة المرعبة والقوة الغاشمة يعتبر مكسبا يمكن البناء عليه والمطالبة بالمزيد طالما أنَّ النظام يعيش حالة توجّس شديد قد تدفعه لتقديم بعض التنازلات إذا شعر أن هناك استجابة شعبية للخطوات التي يزعم بأنها إصلاحية، فخطة الشيخ يبدو أنَّها قائمة على قاعدة خذ وطالب، و ما لا يدرك كله فلا يترك جلّه، فإن هذه المقولة قاعدة سليمة، وحكمة بالغة تَرِد كثيراً في كلام أهل العلم وعلى ألسنة الناس، ونظيرها في هدي القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن/16)

1- موقع نسيم الشام، دروس جامع الإيمان https://www.youtube.com/watch?v=jmAFtHSmIM

ثمَّ يتحدَّث عن تجربته الشخصية وفقا لهذه القاعدة فيقول ((وهنا أقول لكم لقد تمت التجربة وقبل أن أقول تمت التجربة، أبدأ بمقدمة، أنا مضطر هنا أن أتحدث عن نفسي، وأسأل الله عزّ وجلّ أن لا يجعلني أنانيا، وأسأل الله عزّ وجلّ أن يميتني وأنا عبد ضعيف ذليل، كل مَنْ أراهم من المسلمين خير منّي، لكن قبل هذه الحوادث التي أطلت علينا بالرعب، هذه حوادث في المجتمع كله، جلست إلى السيد الرئيس، وذكرت له ضرورة فتح باب الحريات، وذكرت له: أما ينبغي أن ينتهي عهد سلطة الحزب الواحد؟ وأطلت وتكلمت فكان الجواب أنه مقِر بهذه الضرورة، وأنه يسعى صامتا إلى تحقيقها، وذكر لي الخطوات التي يفعلها في هذا الصدد! لكن التفتّ يمينا وشمالا فلم أجد – آنذاك- أحدا غيري، وهذا متى؟ قبل الحوادث لا يقولن قائل، الخوف من الحوادث هو الذي ..، لا لا، قبل الحوادث، لكن شاء الله عز وجل أن نستيقظ كمجموعة من العلماء، من المفكرين، من الغيارى على الإصلاح، وَوجِدَتْ سلسلة لقاءات مع قمة المسؤولين في هذه البلدة، مع السيد الرئيس، وطرِحَتْ هذه المسائل، ضرورة الإصلاح بالنسبة لهذه القضايا، فكان التجاوب تاما.

ومن خلال اللقاء، إثر اللقاء، ومن خلال المشاورة، طبعا لأول مرة نحن نكشف عن هذا الموضوع، تمت الاستجابة، تمت الاستجابة بقدر كبير من الإصلاحات، والبحث عن مزيد من الإصلاحات المستمرة، الوقت ضيق، لا بد أن ألخِّص وأكثف الكلام))[1]

يذكر بعدها الشيخ طرفاً من الإنجازات التي تحققت أو الطلبات التي استجيبَ لها مثل :

صَدَرَ قرار بإعادة كل المنقبات اللائي أبعدن عن التدريس بسبب النقاب إلى أعمالهن ووظائفهن، وإحداث معهد الشام العالي للدراسات الشرعية واللغوية، لدراسات اللغة العربية والشريعة الإسلامية،وإحداثِ قناةٍ فضائيةٍ دينيةٍ في سوريا ترعى الإسلام الحق الذي لا يميل إلى شرق ولا غرب، ولا يأخذ غِذاءَه من شرق ولا غرب، إسلام يأخذ غِذاءَه من كتابِ الله وسنّةِ رسول الله ﷺ، وإعادة المهندسين والمهندسات الذين تم إبعادهم من قِبل المحافظة إلى عملهم، هذه المكتسبات يعتبرها الشيخ هي المفتاح للدخول إلى تنفيذ باقي الإصلاحات التي وعدت بها القيادة والتي وضعَ الكثير منها قيد التنفيذ ونحن في صدد انتظار النتائج والثمار العملية لهذه الإصلاحات.

1- موقع نسيم الشام، دروس جامع الإيمان https://www.youtube.com/watch?v=jmAFtHSmIM

وهنا لا بدَّ أن نقول للكثير من الكتاب الذين شرَّحوا حتى نوايا الشيخ ودخلوا إلى حالته النفسية:

هل وضعتم أنفسكم في هذا الجو النفسي الذي كان يعيشه الشيخ بكل تناقضاته وتعقيداته ومعادلاته العصية على الحل ثم حكمتم على ما يقول؟

فالشيخ وسط ذلك الظلام المخيف والمرعب حاول إشعال شمعة علّها تظهر بعض الملامح لطريق قد نسلكه ويوصلنا إلى أقل الخسائر، وأنا هنا لا أتحدث عن الذين بذلوا دماءهم وأخلصوا في أعمالهم ولم يصلوا إلى الهدف الذي يرجونه أو الحلم الذي سعوا لتحقيقه، بل الحديث عن الذين تفرَّغوا للتنظير من مواقعهم المريحة والآمنة وزادهم لا أقول النقد البناء الذي يرتكز لقواعد العقل والمنطق بل كان مجرد حفلات ردح وشتم وتجريح لا يصدر عن عاقل يملك شيئا من الحكمة أو شيءٍ من بصيرة تتجاوز حدود البصر.

كذلك اجتهد الشيخ البوطي انطلاقاً من قناعاته التي لا يمكن التقليل من شأنها وهو من هو في ميادين العلوم بمختلف صنوفها والفكر في شتى مجالاته، هذا زاد الرجل من المعرفة والفكر، فمن أراد التَّصدي لنقدهِ فعليه على الأقل امتلاك بعض الزاد الذي عنده !

وهنا لا بدَّ من العودة لمجمل ما قاله في ذلك اليوم والانتباه لمضامينه لأن ذلك مقدمة لما سيصدر عنه لاحقاً من مواقف وأقوال، لأن من أراد فهم الأمور عليه أن يأخذها في سياقها ولا يقتطع ما يروق له منها تبعا لهواه وانتصاراً لرأيه. فنتأمَّل أن وصف قتلى مظاهرات أول أسبوعين في الثورة بأنَّهم شهداء وأنهم أبناؤنا وأقرباؤنا جميعاً وقدَّم واجب العزاء لأهاليهم وصلَّى عليهم صلاة الغائب، ثم طرح رؤيته لحل الأزمة وفق ما سبق ذكره في كلامه الذي ذكرناه، لكن هل كان ذلك آخر المطاف؟ أبداً فقد واصل الشيخ فعل ما يستطيع فعله!

بعد كل الكلام الذي أوردناه في التاريخ الذي أشرنا إليه تصاعدت الأحداث وتوسعت دائرة المظاهرات وسالت المزيد من الدِّماء وازدادت وحشية النظام في مواجهة المتظاهرين، وأفق الحل يزداد ضيقاً، لغياب الإرادة الحقيقية لدى القوى الفاعلة إقليميّاً ودوليّاً في القيام بخطوات جدية لوقف نزيف الدم، فبادر الشيخ إلى تحويل الكلام العام الذي قاله آنفاً إلى مبادرة فعلية بخطوات عمليَّة، ففي تاريخ 24/4/2011 قدَّم الشيخ مبادرته للحل أو التخفيف

من غلواء الأزمة والتقليل من الاحتقان للبدء الجَدِّي في خطوات إنهاء الأزمة فقال: ((لديّ اقتراح أيها السادة والسيدات، أرجو إن وجدتموه منطقيا أن توافقوني عليه:

- ▼ أولاً: عودة الناس إلى بيوتها.

- ▼ ثانياً: تشكل لجنة متابعة شعبية، على أن تكون لها جذور مؤسساتية، تكون هذه اللجنة ذات صلة قوية بالشعب على اختلاف فئاته وجماعاته، وعلى صلة بقمة المسؤولية، لجنة المتابعة هذه سيعَبَّد امامها الطريق، وينبغي أن يعبَّد أمامها الطريق وطرق أبواب الجهات المعنيَّة لوضع هذه المراسيم الإصلاحية التي أعلن عنها وتحويلها على واقع معاش، إلى تطبيق كل هذه المراسيم، هذه اللجنة مكلفة باسم الشعب كله أن تتابع وأن تسعى وأن تطرق الأبواب المعنية لوضع هذه الإصلاحات موضع التنفيذ.

قد يقول قائل: جربنا هذه اللجان وانتظرنا لسنوات ولم يحدث شيء! هذا رأي أحترمه لكن علينا أن نعطي فرصة لهذه اللجنة ونجرب هذا الحل، فإن رأينا أنَّ الطريق معبَّد أمامها وأنَّ الإصلاحات بدأت تتحول من الكلام النظري إلى الواقع العملي فهذا ما نطلبه، وإن رأينا أن هنالك عوائق، وإن رأينا أنَّ هناك صدّا وردّا فلكل حادث حديث !

عندما نرى أنَّ هذا الطريق الديني الآمن الحضاري قد أغلق فإنَّ أمامنا طرقاً أخرى ! لذلك نرجئ ذلك إلى أن نجد مصداق قول المتشائمين الذين لا يرجون إصلاحاً، عندها لكل حادث حديث))[1]!

أصبح الكلام موطَّراً بإطار محدد وله بنود وخطوات يجب القيام بها من كل الأطراف، واحتوت المبادرة على لهجة لا تروق للنظام عادة، من قبيل إذا لم تتم الاستجابة فلكل حادثٍ حديث ! هذه لغة يجدها النظام غريبة على سمعه خاصة وأن الشيخ لم يتوقف هنا، بل واصل حديثه يصف لنا شكل البلاد التي نطمح بالوصول إليها فيقول :

((إنَّ مطمع أبصارنا أن نعيش في ظل حكم نتغذَّى فيه بالحرية، ونستطيع أن نعَبِّرَ عن أفكارنا وآرائنا مهما تنوعت أو اختلفت، غير أنّ الناس اليوم يتخوفون من أنَّ الحكم الإسلامي الذي تتم الدعوة إليه على مستويات شتى وفي مختلف البقاع العربية، لو تربع على أريكة

1- موقع نسيم الشام , دروس جامع الإيمان https://www.youtube.com/watch?v=jmAFtHSmIM

القيادة والتنفيذ فلسوف يحرم الناس من هذه الحرية التي يطمحون إليها ولسوف يقضي بغلق أبواب الديمقراطية والشورى، ودليلهم على هذا التصور من أنَّ الإسلام يقر طائفة من التصرفات ويستنكر طائفة أخرى.

إنَّ الإسلام الحقيقي إذا حكم فلن يضيق السبيل إلى الحرية أبداً، ولن يوصد باباً من أبواب الشورى أو الديمقراطية السليمة، فإذا كان الله وهو قيوم السموات والأرض لا يلزم عباده في الدنيا بأن يتمسكوا بشرائعهِ، وإنما يطلب منهم أن يتمسكوا بها طوعاً، أفيملك الأنبياء والرسل ومن بعدهم الحكام أن يجبروا الناس على ما لم يجبر الله به الناس؟! فهذا يتناقض كليّا مع طبيعة الإسلام، بل هو مع طبيعة التكليف الذي لا يفرض إلا في تربة الحرية))

ولا يتوقف رحمه الله عند تحديد طبيعة البلاد التي نطمح للعيش فيها بل يصف لنا طبيعة وصفات الحكام الذين نودّ أن يصلوا إلى مواقع الحكم وتكون بيدهم زمام الأمور فيقول:

((أيها السيدات والسادة إننا لسنا متعلقين في تعاملنا مع قاداتنا بالهويات ولا بلون التبعيات، بل بالسلوك ومدى الإخلاص لمبادئ الأمة وقيمها وأخلاقها، إننا جميعاً نقف وراء من يخلص في حماية القيم والمبادئ الدينية ويرعى حقوق الأمة ويسمو بها إلى الأخلاق الفاضلة أيّا كانت تبعيته وإلى أي الفرق الإسلامية كانت نسبته، ولكننا جميعاً ننبذ من يستهين بقيمنا ومبادئنا ومعتقداتنا أويعمل على التنكر لها أو يستبدلها بغيرها ولو كان من أحفاد رسول الله!))[1]

وبعد أن يحذِّر من العبث في بنية المجتمع السوري من خلال استخدام أخطر سلاح يمكن استخدامه لتفكيك المجتمع وتمزيق نسيجه وهو سلاح الطائفية، يستفيض في وصف الحاكم الذي نأمل بأن نراه يوماً في موقع السلطة فيقول:

((إذا لا يسيلنَّ لعاب كائدٍ أو ماكرٍ يتسلل إلينا من وراء البحار أو من غبش الظلام على طائفيةٍ يحكم باستثارتها أو قدح زناد فتنة من خلالها، إننا إذ نبايع إنما نبايع القيم والمبادئ والأخلاق الكامنة في صدور الرجال ولا نبايع صورهم وأشكالهم أو شرائح المذاهب والفرق، هذه الحقيقة ينبغي أن تكون ماثلة في أذهاننا، وعهدي بسورية بلد الوعي، عهدي بها وبرجالها وبكل ما فيها أنَّ هذه الحقيقة ماثلة في أذهانهم، أيها الإخوة نحن مع من يرعى القيم، نحن

1- موقع نسيم الشام، دروس جامع الإيمان https://www.youtube.com/watch?v=jmAFtHSmIM

مع من يرعى المبادئ، مع من يسهر على حقوق الإنسان في هذه البلاد، ولا ننظر بعد ذلك إلى هوية أو تبعية فرقة من الفرق الإسلامية أو غيرها أو نحو ذلك))[1]

هذه الرؤية لم تَرقَ لطرفي الأزمة ! فكثرة الصراخ المتعدد المصادر والمتنوع الهويات حجب صوت الشيخ ولم يصل لمسامع الثائرين على النظام، وفي نفس الوقت لم تعجب النظام هذه اللغة الهادئة التي توجّه اللوم إلى طرفي النزاع وتضع على عاتقهم واجبات ومسؤوليات عليهم القيام، فالنظام لا يرضيهِ إلاّ انبطاح خصومه، والثائرون أغرتهم الوعود وغرّتهم الأماني فرفعوا سقف المطالب دون أعمدة يقوم عليها ذلك السقف، لقد ضاع صوت الشيخ وسط هذا الضجيج ولم يصل لمن يهمهم الأمر، فزادت حدَّةِ انتقادات معارضي النظام للشيخ ولم يحاولوا استثمار ما طرحه من أفكار لتسجيل نقاط على النظام في أقل تقدير، بينما بدا أنَّ النظام قد حسم أمره وبدأ خطوات التَّخلص من الشيخ وإبعاده عن المشهد، فهذه اللغة لا تعجب النظام الذي يريد من يبارك إجرامه في مواجهة الناس من دون إسداء النصح أو تقديم الحلول، فالنظام لا يجد سوى الحل الأمني المعتمد على القوة والإجرام سبيلاً للخروج من أزمته، فبادر بدعوة من وزارة الأوقاف أحد أذرعه الأمنية بتاريخ 26/5/ 2011 لجمع علماء سورية فيما أسماه اللقاء التشاوري لعلماء الشام لحل الأزمة، وكان الشيخ من بين المدعوين لهذا اللقاء، وهنا بدت لغة الشيخ مختلفة بعض الشيء عن كلامه الذي قاله في بداية الأزمة فبدت البصمة المخابراتية واضحة بين سطور كلماته! فالشهداء الذي ترحَّمَ عليهم في بداية الأزمة أصبحوا ينتمون لثلَّة قليلة وحثالة بسيطة، وهي المرة الأولى التي يستخدم به هذا المصطلح، وواضح لغة التهديد التي ضمنتها الجهات الأمنية في كلمته عندما حذَّر من الخراب الذي سيصيب سورية وأنهار الدماء التي ستسيل إن حاول خصوم النظام الاستيلاء على الحكم بالقوة، ولجأ لأول مرة لذكر أسماء جماعات وأشخاص كذكر السلفية الوهابية والإخوان المسلمين وحزب التحرير وذيول خدام !

وجميعها ألفاظ لم يسبق للشيخ ذكرها، ولا تنسجم مع منهجه الذي لا يعيِّن المقصود بالنقد، بل ينتقد أفعالا وسلوكيات معينة حتى لو كان يقصد أناساً أو تنظيمات بعينها ! لقد غابت عن كلمته في ذلك اللقاء خطوات الحل أو اللجان المشكلة لمتابعتها أو المطالبة

1- موقع نسيم الشام، دروس جامع الإيمان https://www.youtube.com/watch?v=jmAFtHSmIM

بخطوات الإصلاح التي سبق وطالب بتسريعها، واقتصر الحل الذي طرحه على أولا تحميل العلماء والمشايخ مسؤولية التوحد في مخاطبة الناس لعزل الفئة القليلة أو (الحثالة) التي أشار لها الشيخ ! وثانياً اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى والتضرع إليه لإنهاء هذه الأزمة ! لقد كانت واضحة البصمة المخابراتية على هذا الاجتماع، وكان بالإمكان قراءتها بسهولة في وجوه الحاضرين والنظرات الزائغة في عيونهم، هذا التحوّل المفاجئ الخارج عن السياق والذي لا يلتقي مع أسلوب الشيخ في التعاطي مع الحادثة لا منذ بداية الحراك ولا حتى مستقبلاً أي ما بعد هذا اللقاء «التشاوري» ذاته! هذا التحول الخارج عن السياق الزمني والمنطقي والمنهجي يضعنا أمام تساؤل مشروع هل تعرض الشيخ لتهديد ما!؟

بكل الأحوال لا نعلم طبيعة هذا التهديد الذي تعرض له الشيخ وبأي صيغة وصله! لكن من يعرف طبيعة هذا النظام له أن يتخيَّل ألف طريقة وطريقة يمكن أن يوصل من خلالها رسائله الإجرامية القذرة ليس فقط لخصومه بل حتى للذين يظهرون له شيء من الود و بعض صِيَغ التعاون التي قد تساهم في إطفاء الحريق أولا ثم الحديث عن المكتسبات والخسائر! من الواضح ما قاله الشيخ في هذا اللقاء لم يكن يحمل رؤيته الاستراتيجية في التعامل مع واقع الحراك، بل كان أشبه بخطوة تكتيكية لمتابعة إدارة الأمر وفق رؤيته التي حددها في بداية الحراك وما بعد هذا اللقاء «التشاوري». كان الشيخ يريد كعادته أن يتابع رسالته دون اصطدام مع السلطة لعلمه أن أي صدام لن يكن في صالح ما يسعى لتطويقه والاستفادة منه اجتماعيا والحد من عبثيته.

لكن بعد ذلك واصل الشيخ في خطبهِ التحذير من «الفتنة» والتذكير بأنَّ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حدثنا عن هذه الفتن وحذَّرنا منها، ووصفها، ووصف هذا الذي نمرّ به بأدق وصف، ثم إنه أمرنا بالابتعاد عنها، وحذَّر تحذير تحريم من الدخول فيها.

وكانت خطبه تركّز على أمرين هامين:

- الأول: هو فقه أزمنة الفتن وكيفية التَّعامل معها، والتي تحدثنا عن رؤيته لها.

- الثاني: هو المخطط الغربي الصهيوني الذي يحاك للأمة والتحذير من الوقوع فيه، واعتباره أنَّ الخروج العشوائي وغير المنظم و غير الهادف ضد الحكام يساعد في نجاح تلك

المخططات الهدَّامة، من خلال استغلالهم للفوضى التي أحدثتها الثورات والتسلل من خلالها لجسم الأمة، لذلك نجده يركِّز على التحذير من القتال تحت"تحت راية عميَّة" والذي سيؤدي حتما للوصول إلى ما يسميه الهرج أو بمعنى آخر الفوضى التي تراق فيها الدماء وتضيع الحقوق فنجده يقول: ((قد أتَّهم بأنني أقف في صف المسؤولين في هذه القضية، أنا لم أكن يوماً ما إلى هذه اللحظة وإلى أن أموت معنياً لا بمجاملة المسؤولين ولا بمجاملة دهماء الناس أبداً، أنا معني بأن أستمسك بموازين الكتاب والسنة،وأن أرضيَ ربي عزوجل، فأنا عندما أقول للناس : يا ناس إذا كانت القيادة مجهولة لا يجوز شرعاً بنص كتاب الله، بنص كلام رسول الله، لا يجوز أن ننقاد للمجهول أبدا مهما كانت الظروف قاسية لدينا، ينبغي أولاً أن نكون نحن المخططين، وينبغي أن نعلم النهج الذي نسير عليه، وينبغي أن تكون القيادة من اختيارنا، ولكن النبي ﷺ نهى بقوله " ومَن خرج على أمتي يَضْرِب بَرَّها وفاجرَها، ولا يَتَحاشَا من مؤمنِها، ولا يَفِي لِذِي عهْدَةٍ عَهْدَه، فليس مِنّي، ولست منه "وأنا أقول هذا الكلام ينطبق على المسؤولين وعلى هؤلاء))[1]

وبعد هذا التوازن في نقل التحذير النبوي وأنَّه ينطبق على الحكام والمحكومين، يتساءل:

((طيب يا أخي إذا كيف أجنِّد نفسي لأكون جندياً لدى هؤلاء الناس؟ والرسول ﷺ يقول "ومن قاتل تحت رايةٍ عَمِيَّةٍ، يغضب لعَصَبِيةٍ، أو يَدْعو إلى عَصَبِيَّةٍ، أو ينصر عَصَبِيَّة، فقتِلَ، فقَتْله جاهلية" أخرجه مسلم (8481) هذا لا يعني أنني أؤيد الدولة أو غير الدولة بالباطل))

بعد ذلك يواصل الشيخ رحمه الله توضيح رؤيته لما يحاك لسورية ثم يتوجه للشباب الذين يتهمونه بالانحياز للسلطة فيقول لهم : ((أجيب إخواننا شبابنا أن يضبطوا عواطفهم بالعقلانية وأن يضبطوا عقلانيّتهم بالإسلام،وأن يجعلوا من سيرة رسولنا ﷺ معلمّا لهم ولا يجعلوني لا أنا ولا غيري معلماً لهم فليقرأوا سيرة رسول الله ﷺ، وأن يقرأوا أحاديث الفتن التي يتحدث فيها رسول الله ﷺعن هذا الواقع تماما، وطبقوا أمر المصطفى ﷺ، ثم أدعو نفسي وأدعوهم أن نلتجئ إلى الله ونتوب بصدق))[2] لم تجد هذه النِّداءات المتكررة آذانا صاغية لدى طرفي النزاع، فالنِّظام أوغل في الدِّماء والناس لم يَعد لديها رفاهية الإصغاء لصوت

1- موقع نسيم الشام، دروس جامع الإيمان https://www.youtube.com/watch?v=jmAFtHSmIM

2- موقع نسيم الشام، دروس جامع الإيمان https://www.youtube.com/watch?v=jmAFtHSmIM

العقل بعدما انشغلت بمداواةِ جراحها، لكن الشيخ رحمه الله لا يملك سوى مواصلة الصراخ الحكيم علّه يصل لأسماع ولو القلة القليلة!

لكنَّه كان رحمه الله يشيد بهذه القلة التي واظبت على دروسه بعدما انفضَّ الآلاف من حوله تحت وطأة حملة التَّهييج الشعبوية التي مورست ضده، فدائماً نجد أنَّ المنهج القرآني يشيد بالقلة، وأنَّ الكثرة ليست دائماً عنوان صواب، فواصل الشيخ إبلاغ الناس بما يراه حقّا فتوسَّع في خطاب شرائح المجتمع فطالبَ :

((رجال الأعمال يخرجوا قليلاً من البحار التي كادوا أن يغرقوا فيها، بحار الدنيا والتجارة والمال والصادر والوارد وكونوا مع الله قليلاً، الناس الذين يسهرون على المحرمات ارجعوا إلى الله قليلاً.

ويتابع رجال الأعمال كثيرون منهم لا يحبون أن تتحقق إصلاحات لأن أرباحهم ستنخفض ربما إلى 50%، لازم يكون في خربطة وقفز فوق القوانين ولازم الرشاوى تتم ولازم كل منهم يختبئ تحت مسؤول! ولازم ولازم ولازم حتى يحافظوا على أرباحهم ! فتصوروا !!

يا إخواننا سيدنا الحسن البصري سمع رجلا يسبّ الحجاج، فقال له لا تقل ذلك يرحمك الله، فإنِّي أخشى إن هلك الحجاج أن تتولاكم القردة والخنازير! هذا كلام الحسن البصري رحمه الله روينا عن رسول الله ﷺ "أعمالكم عمَّالكم مثل ما تكونوا يولَّى عليكم" فإذا أردنا أن نصلح الحال فعلينا أولاً إصلاح أنفسنا،لا زم نصلح أنفسنا أقوله لنفسي وأقوله لأكبر مسؤول وأقوله للمسؤولين الذين إلى جانبه، وقلت ذلك في مجلس لا أريد أن أصفه الآن : يجب أن نتوب جميعاً إلى الله ! هذا ما أقوله دائماً، فيا إخوان أرجو أن لا يسيء أحد الظن بي فيجعل ربي سوء ظنه بي نكالاً عليه، فأنا لم أعش يوماً ما أستجدي رضا مخلوق لا حكَّام ولا محكومين وبيني وبين القبر خطوات،أنا بشبابي ما كنت هكذا، فالآن أستجدي ؟!

أنا أستجدي رحمة الله أستجدي رضا الله، أما مبدأي حديث رسول الله " من استرضى الناس بسخط الله وكَّله الله إلى الناس ومن أسخط النَّاس برضى الله عزوجل كفاه الله مؤونة نفسه"

هذا مبدأي عليه حييت وعليه عاهدت والدي بعد الله وعليه سأستمر وعليه سألقى الله[1]

1- موقع نسيم الشام، دروس جامع الإيمان https://www.youtube.com/watch?v=jmAFtHSmIM

رسم الشيخ في ختام كلامه هذا ملامح منهجه وغايته من هذا النَّهج الذي يسير عليه وهو إيصال قناعاته التي يأمل بأن يلقى الله عليها إلى النَّاس، وقد حاول من خلال هذا النهج أن يضع النظام ضمن إطار هذا المنهج لعلَّه يستطيع إلزامه ببعض متطلبات الجماهير الثائرة فيخفف من الاندفاع نحو مزيد من الدماء والدمار والخراب! فكانت خطبه تتضمَّن رسائل مزدوجة:

- أحدها موجَّه للناس بأن الفوضى هي تسعير لنار الفتنة.

- الأخرى للنظام أن يقترب أكثر من مطالب الناس ويبقى ضمن إطار الهوية الإسلامية الراسخة في وجدانهم، فكان يسعى جاهداً لإلزام النظام ببعض الخطوات الإصلاحية والحصول منه على وعود بتنفيذها لكي يقدمها للناس كمكتسبات لحراكهم!

فكان يحاول إقناع النَّاس أنّ الهدف من وراء هذه الحملة أو الفتنة أهداف عديدة أولها ضرب الإسلام باعتبار أنّ أهل الشام هم البقية الباقية على دين الإسلام، حيث يقول الشيخ في أحد خطبه ((لم يتجه إلينا هذا العدو الذي وفد إلينا من وراء البحار في سبيل محاربة قومية، أو طمعاً في أرض، وإنما توجه إلينا واضعاً نصب عينيه أن يجتث هويتنا الإيمانية والإسلامية من أفئدتنا، بل من أرضنا المباركة هذه أيضاً)) من خطبة الجمعة، بتاريخ: 2011/03/18

بعد هذا التحذير يحاول الشيخ تصوير النظام بأنَّه يقف في وجه تلك المحاولات وأنَّه حريص على هوية الأمة ويدافع عنها لكي يبقيه ضمن الدائرة التي يريدها ويلزمه بأقواله، فيقول:

((قام من ناشد الرئيس في أن يعلن غيرته على الإسلام وأن يكون حارساً على حدوده وأحكامه وآدابه، قام من ناشده أن يضرب على يد من يمارسون مع المعتقلين الكفر والتكفير، نعم، وكان الجواب مطابقا للظن الذي ظننا به جميعاً، أعلن عن التزامه بما ألزمه الله به، أعلن عن شرفه الذي لن يتنازل عنه حارساً لدين الله عز وجل، وأعلن فوق هذا الذي ذكِّرَ به عن أن الدستور الجديد لن يكون إلا تعبيراً عن الهوية الإسلامية لهذه الأمة، لن يكون إلا تعبيرا عن الهوية الدينية لهذه الأمة))[1]

1- من خطبة الجمعة، بتاريخ: 2011/08/26

فعندما يتحدث الشيخ بهذه الوعود والالتزامات من قبل النظام وإظهارها إلى العلن فإنَّ فيها نوع من محاولات الضغط على النظام لإبقائه ضمن هذه الدائرة قدر المستطاع ! حيث يقول الشيخ في خطبة أخرى:

((سئِل رئيس الجمهورية العربية السورية بموقف رسمي أمام جمع كبير من الناس هل سوريا دولة علمانية؟ فأجاب قائلاً نحن مسلمون ولا نتعامل مع هذا المصطلح، ولكنّا نقرر ما يقرره الإسلام من حرية الرأي وحرية المعتقد)) [1]

واصل الشيخ بعد ذلك كلامه مع النَّاس ضمن هذا المسار الذي حاول من خلاله تقديم خطاب متوازن يضع كلا من النِّظام والناس أمام مسؤولياتهم، وواصل أعداد المستمعين له بالتناقص من الجهتين، لقد كان التَّطرف في المواقف هو الطاغي على المشهد وغاب صوت العقل تماما، وربما هذا يعود لتمادي النظام في جرائمه لدرجة وعدم وجود مرجعية موحدة يمكنها ضبط ردود أفعال الناس وتوجيهها نحو سلوك مثمر يمكن توظيفه في البحث عن أي شكل من أشكال الحلول، وظهر جلياً أن النظام لم يعد معنيّاً بالإصغاء لأي صوت يطالبه بإيقاف عجلة القتل بل أصبح يصغي فقط لمن يثني على سلوكه المتوحش ويطالبه بمزيد من القتل لإخضاع الناس، فلم يعد النظام يطرب لكلام الشيخ بل ربما وجده قد استنفد أغراضه وحان وقت قتل القتيل والسير في جنازته! وتوظيف هذا المشهد لصالحه !!

لقد ظهر هذا الأمر جليا في كلام الشيخ خلال أيَّامه الأخيرة وكأنَّه بدأ بإرسال رسائل وداع، ففي آخر خطبة له بتاريخ 15\3\2013 عاد للحديث عن الشام وأنَّ أرضها أرض أمن وإيمان كما وصفها رسول الله في الأحاديث التي ذكرها، ثمَّ استفاض في الحديث عن الأزمة التي ظننا أنها لن تطول فإذا بها تتحول إلى حرب عالمية على سورية مزقت وحدة البلد وقسَّمت أبناءه، ثم عاد ليدعو أبناء سورية للوحدة من جديد ضد هذه الهجمة التي تتعرض لها ((بقي أن أقول شيئا واحدا لهؤلاء الإخوة الذين اجتهدوا فانشقوا ثم اجتهدوا فتسلحوا، أقول لهم اجتهدتم وهذا ظني بكم، والمجتهد مثاب على كل حال، ولكن ألا ترون أنَّ الأمر قد انحسر عن حقيقته، وأنَّ المسألة لم تعد مسألة اجتهادية، وأنَّ الحقيقة أصبحت ماثلة لكل ذي عينين يا عباد الله، إنها حرب معلنة من قبل مجرمي الغرب بشطريه الأمريكي والأوروبي كما كنت قد

1- خطبة الجمعة، بتاريخ: 17/08/ 2012

ذكرت لكم، وإنها تقوم بقيادة المسيحيين المتهودين وبتخطيط سابق من إسرائيل، وها أنتم ترون أنَّ أرضنا المباركة قد امتلأت من أمشاجٍ آخرين من غيركم، ولو استقر بهم المقام لكنتم أول ضحاياهم، ولكنتم أول الأعداء الذين يتربصون بهم، فعودوا، دخلتم في اجتهادٍ وأسأل الله أن يثيبكم عليه،عودوا من هذا الاجتهاد بعدما طويَ الاجتهاد منه وتبينت الحقيقة، عودوا إلى إخوانكم، عودوا فاصطلحوا مع أمتكم قادةً وجيشاً وشعباً))[1]

إذا في آخر ما قاله الشيخ على منبر الجمعة، بمعنى أنَّ هذا كلامه الأخير حتى لا يقال إنّه تراجع عنه، في هذا الكلام لم يصف المنشقين بالعصابات المسلحة أو الإرهابيين وهي الأوصاف التي يطلقها النظام على كل معارضيه، بل وصفهم بالإخوة الذين اجتهدوا ويأمل لهم ثواب اجتهادهم، لكن يدعوهم للتراجع بعد أن ظهر لهم بناء على مجريات الأحداث أنهم لم يصيبوا في اجتهادهم ! حيث أصبح غالبية المتقاتلين على أرض سورية ليسوا من أبنائها !

وحتى في آخر كلامه عن العلماء الذين خرجوا من سورية ظل يخاطبهم باحترام ويحفظ لهم مكانتهم العلمية، ففي آخر حديث له للتلفزيون السوري الرسمي وفي مقابلة أجراها معه المذيع جمال الجيش يوم مقتله يقول: ((كلمة علماء الدين لا تنطوي دائماً على معنى واحد، كلمة علماء الدين تدل على مهنة، تدل على مزية تميزت بها فئة من الناس لديها معلومات دينية تَخصَّصَ بها زيد من الناس، لكن سلوكه، قناعاته، توجهاته، خلفياته المرتبطة بجهات هنا وهناك شيء آخر، وهذا يسوق الناس الذين يحسنون الظن بهؤلاء العلماء إلى أن يرتابوا بموقف إنسان مثلي، فيقال يا أخي هذا فلان وفلان وفلان كلهم علماء مثلك، والجواب على ذلك: هو أنَّ الناس لم يكونوا معصومين ولن يكونوا معصومين، والأشياء التي تتخطف عن قناعاته الدينية والفكرية كثيرة، المصالح، الرغبة، الشهوات، الغرائز، الطموحات، كل ذلك من شأنه أن يتخطف الإنسان ويبعده عن قناعاته، ولو كانت ديناً، وأنا هنا لا أريد أن أتهم زيداً من الناس، لكنني أتكلم مبدأ عام بغض النظر عن فلان وفلان.))

ثم يقول في نفس المقابلة :

((كثيرون هم الذين ذهبوا ضحية أوهام، قيل لهم أنَّ النظام انتهى، ما هي إلاَّ أسابيع أو

1- موقع نسيم الشام، دروس جامع الإيمان https://www.youtube.com/watch?v=jmAFtHSmIM

أشهر وسيولد نظام آخر صفته كذا وكذا، فصدقوا وذهبوا إلى حيث طلبَ منهم أن يذهبوا ليشتركوا في مطبخ النظام الجديد، ثمَّ أنهم أحيط بهم فكريا وتبين لهم أنَّ الأمر لم يكن هكذا، آخرون قدمت لهم إغراءات وأنا مسؤول عن هذا الكلام،فغضوا الطرف عن الواقع وحملقوا في الإغراءات))

ويتابع : ((أنا أقول هذا الكلام متأكدّ، لماذا؟ لأنني واحد من الناس الذين حاول أناس يجرونني إلى مثل ما قد جرَّ إليه البعض الآخر، طلب مني أن أخرج من هذا البلد، المسكن موجود، العربة موجودة، الأسرة أيضاً يمكن أن أطمئن لمصيرها، لكن ما الذي منعني من الاستجابة؟ أنا لا أعيد المسألة لبطولةٍ مني، فو الله أنا ضعيف، لكن الله هو الذي لطفَ بي وأشعرني بأنني في هذه المرحلة لو تركت هذا البلد فسوف يكون شأني كشأن أب له أبناء وأولاد وأحفاد فتركهم إلى حيث لا يعلم مصيرهم، والله هذا ما شعرته (يبكي) وإلا كنت أنا الآخر سأذهب وأغطي قناعاتي الداخلية بكلمات لسانية كما هو شأن بعض الإخوة، لكن أعود فأقول : الإنسان ليس معصوما ما عدا الرسل والأنبياء، أملي كبير بالنسبة لهؤلاء الإخوة العلماء الذين تتحدث عنهم، أنهم أو كثير منهم قد استيقظوا بعد ثبات وانتبهوا بعد غفلة))[1]

إذا لم ينزع عن هؤلاء الذين خرجوا من سورية صفتهم العلمائية بل خاطبهم بها، و وصفهم بالإخوة والعلماء، لكن بقيَ على قناعاته بأنَّ الحل ليس بالمواجهة وإنما بالمحاورة والنقاش الذي يفضي إلى إعادة اجتماع السوريين على كلمة سواء بينهم ثم التَّوَحّد في مواجهة عدوهم المشترك حسب ما يراه، ثم يتحدث الشيخ في نفس المقابلة عن ندم بعض الذين غادروا وأنهم يأملون العودة، ويخلص في تلك المقابلة لدعوة الناس أن لا ينخدعوا بالدعوات التي يراها مخالفة لنصوص الكتاب والسنة وما أجمعت عليه الأمة، ثم يختم حديثه بأنَّه على يقين بأن سورية ستخرج منتصرة من هذه الحرب ثم يقول:

1-آخر لقاء تلفزيوني مع الشيخ رحمه الله https://www.youtube.com/watch?v=oTUvEB1V8Ec

((لكن ما موقفنا بعد زوال هذه الغمة وهذه الغيمة زالت، وعادت سورية إلى وجهها الذي أكرمنا الله عزوجل به، ما الذي ينبغي أن تتخذه سورية قيادةً وحكومةً وشعباً من هؤلاء الذين فعلوا ما فعلوا؟ العفو، نعم العفو، ينبغي أن نتخذ الموقف الذي اتَّخذه سيدنا يوسف من إخوته، نعم هذا هو الموقف، المنتصر يكون دوما صدره مفتوحاً للعفوِ والصفح، وأنا دائماً أقوال للناس الذين يتوهون عن هذا الكلام اقرأوا خواتيم سورة يوسف

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ (يوسف/90-92)

نحن أولى والله أن نمدَّ يدنا إلى هذا وهذا وذاك ونقول يا أخي عفا الله عما سلف، خلينا نرجع إخوانا كما أمر الله))[1]

هذا آخر ما قاله الشيخ رحمه الله قبل أن يلقى ربَّه: دعونا نرجع إخواناً كما أمرنا الله، وأن يعفوَ بعضنا عن بعض، هذا الكلام الهادئ والرقيق الذي يحمل معاني التَّصالح والتَّسامح غاب خلف ضجيج آلة الحرب التي حرَّكها النظام بكل وحشية في مواجهة الناس، فجاءت ردَّة الفعل التي دفعت الناس لكل سبل الدفاع عن النفس والتخفيف من وتيرة القتل وسيل الدماء.

لم يكن من اليسر استيعاب ما كان يدعو له الشيخ رحمه الله وسط هذه المقتلة، لكن بعدما بردت الدماء قليلاً وأعطيت العقول فسحة صغيرة من التفكير وسط هذا الصمت المصحوب بالأنين!

ربما يقول منصف إنَّ الشيخ رحمه الله كان على صواب حين عارض اندلاع الثورة بالطريقة التي انطلقت بها، وزمن اندلاعها، ومَن خلف ستارها، وكأنه يرى مستقبل السوريين رأي العين شتاتا بين الأمم، وربما عِلْمه بشراسة النظام الذي يحكم البلد بالحديد والنّار،وهو الخبير بمكره وخِداعه ووحشيَّته، ما دفعه لذلك الموقف، وقد يقول البعض لقد جانبه الصواب

1-من نفس اللقاء التلفزيوني الأخير

حين دعم وساند وما عاتب حيث العتاب واجب، وبين المنصف والمعاتب يمكن أن يدور حوار ونقاش هادئ حول ما للشيخ وما عليه، أمَّا المؤدلج صاحب الرأي المعلَّب والعقل المغيَّب الذي تحركه غريزة التَّعصب ويدور في دائرة من الجهل ليردد كلاماً لا سند ولا دليل ولا أثارة من علم! فسنتركه جانباً في بحثنا هذا، فمن ختم الله على قلبه لا يجدى معه نقاش ولا يثمر معه حوار،

فلو أردنا إدارة حوارٍ بين منصف ومعاتب سيكون السؤال الجوهري الأول: بعد استعراضنا لمسار الشيخ رحمه الله في حياته العلمية الطويلة قبل ثورات الشعوب وبعدها، وتأصيلنا منهجه واقترابنا من فكره:

▻ <u>ما هي أهم مآخذك على مسلك الشيخ؟ وما الذي كان يجب عليه فعله؟</u>

فعندما تأتي الإجابة في سياق حوار هادئ غايته الوصول للرأي الأصوب سيكون الأمر يسيرا ونتيجة الحوار مثمرة حتى لو اختلفت الآراء!

طبعاً لسنا في صدد محاكمة فكرية لمنهج الشيخ رحمه الله، فالقراءات الفكرية هي ملك أصحابها ولو اختلفت وتنوعت، لكن نود أن نسال:

▻ <u>ما هي أهم المآخذ التي ترددت على ألسنة الناس وتسببت في هذه الهجمة عليه؟</u>

طبعاً لن نعود للتذكير بمنهجه وكيفية قراءته للدين وموقفه من العلاقة بين الحاكم والمحكوم وضوابطها، فقد أشبعناها بحثا لكننا سنذهب بشكل مباشر إلى أهم المآخذ التي ترددت على ألسنة الناس كما أسلفنا ونقترب منها لنفهم هل فعلا وصلت للناس بدون شوائب وهل هي فعلا قالها الشيخ بالشكل المتداول أم تم التلاعب بها ووصلت إلى الناس بصيغٍ منقوصة لإيصال رسالته للناس بشكل مشوَّه؟

أولا سننقل إجابة مباشرة للشيخ رحمه الله حول إحدى تلك المآخذ، هي ما تم تناقله بمقطع فيديو مأخوذ من سياق خطبة جمعة يَتَّهم فيه المتظاهرين بأنَّ جباههم لا تعرف السجود! فعندما سئل حول هذه المسألة في أحد الدروس أجاب:

((نحن الآن نرى شيئاً غريباً وعجيباً أيها الإخوة، عصر المونتاج وعصر الغرف السوداء! صور غريبة وعجيبة جداً جداً لا أصل لها تركَّب، حتى وصل المونتاج لعندي، ففي أول أسبوع قامت فيه المسيرات كنت خطيب الأموي وأثناء الخروج من المسجد كان هناك ثلَّة في مدخل المسجد من الداخل، أناس لم يشتركوا في الصلاة ولكنهم كانوا ينتظرون خروج المصلين، فلما خرج المصلون اندسّوا بينهم وبدأوا بالهتاف، طبعاً أنا قلت عن هؤلاء الناس أنَّ جباههم لم تعرف السجود حيث كانوا ينتظرون في مدخل المسجد ريثما يخرج المصلون فيندمجوا فيهم حتى يبدوا أن الكل يهتفون وما إلى هنالك، ويأتي من يسقط كلامي هذا على كل المسيرات في كل المحافظات ويجعلني أتَّهم كل هؤلاء الناس بأنَّهم لا يصَلّون !هذا مثال على المونتاج الذي يختلق بواسطته شهادة زور، فهذا شيء لا نرضاه ولا يرضى الله سبحانه وتعالى عنه))[1]

هذا تصريح بتصويب فهم إحدى هذه المآخذ، فلا يمكن لمنصف أن يشكك في كلامه ويتهمه بغير ما يصرح به، طبعاً باستثناء أولئك الذين يدخلون إلى النوايا ويضعون فيها ما تهوى أنفسهم! فما زلنا نتحدث عن الإنصاف والشهادة بما نرى و نسمع وليس بما تخفي الصدور فتلك مسألة متروكة لله وحده سبحانه وتعالى.

ومن المآخذ التي تتردد على الألسنة وفي بعض المواقع والمقاطع أنَّه شبَّهَ جيش بشار بالصحابة !

ونقول في ذلك ليس دفاعاً عن الشيخ أو تبريراً له بعدما أصبح بين يدي ربه وهو العالم والعليم بأحواله، وإنما نريد أن نقرر حقيقة ثم للإنسان أن يحكم على تلك الحقيقة هل هي كذلك أم هي مجرد وهم؟

لبيان هذه النقطة من الضروري العودة لما قاله الشيخ في هذه القضية ثم نوضح ما فهمناه من قوله، دون مصادرة أفهام الآخرين!

((والله ليس بين أفراد هذا الجيش وبين أن يكونوا في رتبة أصحاب رسول الله إلاَّ أن يرعوا حق الله في أنفسهم، وأن يقبلوا إلى الله وهم تائبون، وهم ملتزمون بأمر الله جهد استطاعتهم **لا أقول أكثر))** [2]

1- نسيم الشام مقطع يوتيوب https://www.youtube.com/watch?v=1K5SVQHf-4s

2- خطبة جمعة مقطع يوتيوب https://www.youtube.com/watch?v=rvXl5kj1v_U

إذا أمعنّا التفكير نرى أن تقدير كلام الشيخ البوطي هو أنّه يدعو الشباب في الجيش إلى الاقتداء بالصحابة من خلال التوبة والتقوى ومراعاة أوامر الله ونواهيه في التعاطي مع الحراك الشعبي، وهذه دعوة تكليف لا تكريم، فهو يدعوهم لتحميلهم المسؤولية الوطنية والوقوف عند حدود الله وعدم التجرؤ عليها، بل إنّ كلماته تحمل في طياتها تأنيبا وعتابا وزجرا، فعندما دعاهم الشيخ إلى الالتزام بذلك، فإن تقدير كلامه أنّ حالهم بخلاف ما يدعوهم إليه، لذلك من غير المنطق وصف كلامه بأنّه تملّق ويشبه خلاله عناصر الجيش بالصحابة الكرام!

وقد علق شاعر الثورة السورية فراس أبو سليمان على هذا المقطع المتداول فقال:

" بدأ الشيخ -رحمه الله- حديثه مذكِّراً بتكليف الله إيانا وجوب وحدة الجماعة، ولا يطعن في مشروعيةِ هذا التذكير، اعتبار الشيخ القادةَ والجيشَ وعموم الشعب ضمن الدائرة المكلّفة، لأن اعتبارَه محمول على شرطٍ مَتَضَمَّنٍ جعلَه أساساً: "الانضباط بأوامر الله والانتهاء عمّا نهى الله عنه، والتوبة نعيدها ونكررها في كلِّ صباحٍ ومساء" ومن منّا يستطيع إغلاق الباب بوجهِ من يلتزم مثل هذا الشرط؟!

بل إنّ حديث الشيخ عن وجوب التوبة صباحاً ومساءاً، لا يمكن فهمه إلا الإشارة تلميحاً للمعاصي والذنوب من خلال التصريح بعلاجها، بدلالة الدأب الذي أكّد عليه، وهو تلميح اختصّ فيه الشيخ "قادة الأمة والجيش" من عموم الدائرة المكلفة، فهل قصد الشيخ هنا إسقاط وجوب التوبة عن الشعب!؟ حتماً ليس الامر كذلك، لكنّه مرّرَ رسائله بزيّ تعميمٍ مباح، غامزاً لقناةِ خاصٍّ محظور.

أمّا حديثه اللاحق عن الجيش والصحابة، والذي سبقته عبارة "نخجل من الله عن الجلوس في بيوتنا ننظر لما ينفذه هؤلاء الأبطال" فهي بطولة لا تخرج عن الشرط أعلاه، والذي أكده في ختام حديثه عن التوبة صباح مساء " وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال قادة الأمة وحال جيشنا" وهي أيضاً بطولة لا تتحقق إلا فيمن ينفِّذ ما ينبغي تنفيذه فقط.

ختاماً: أستغرب بشدة حالة الاستنكار الشعبوي المستمر حتى اليوم اتجاه قضية "الجيش وصحابة رسول الله ﷺ"، ومَرَدّ استغرابي هو وصف الشيخ الطريقَ الحصريّ الذي من خلاله فقط يصل الجيش لمرتبة صحابة رسول الله ﷺ: "إلّا أن يرعوا حق الله في أنفسهم، وأن يقبِلوا إلى الله وهم تائبون".

أفلا يكون بمرتبة الصحابة أيّ إنسانٍ، يرعى حقّ اللهِ في نفسه، مقبلاً بتوبته إلى الله؟

لقد استغرقَ الشّرط حدودَ كلِّ قضيةٍ تطرّقَ لها الشيخ خلال هذي الخطبة، ولقد ورد في صحيح أبي داود وصحيح ابن حبان ومنتقى ابن الجارود:" المسلمون على شروطهم". كالسلام الذي بدأ به نبينا محمد ﷺ رسائله إلى كلّ من هرقل والمقوقس والنجاشي:" على من اتبع الهدى".[1]

وهنا نسأل الجميع علماء وعوام وطلاب علم: من يرعى حق الله في نفسه ويقبل على الله تائبا وهو ملتزم بأمره قدر استطاعته، فما مصيره وما هي صفته؟!

قبل الحكم على ظاهر الكلام يجب فهم محتواه، فمن يتصف بهذه الصفات الذي ذكرها الشيخ،ما الفرق بينه وبين أصحاب رسول الله في الطَّاعة؟

الشيخ يرتكز في هذا الكلام على قاعدة تقول:

بعدم الحكم على الأعمال بالظن، فلا يجوز الحكم على الأشخاص المعيَّنين بكفر ولا إيمان إلا بنص قطعي الثبوت قطعي الدلالة. فالحكم يكون على الأفعال لا على الأشخاص، فمن نرى منه أعمالا يبدو بظاهرها الإيمان نشهد له بما نرى، وإن رأينا أعمالاً يظهر منها الكفر نقول هذه أعمال كفرية دون وصف صاحبها بالكفر لأنَّه لا يعلم سبب قيامه بهذه الأعمال، فيقول الشيخ رحمه الله ((في أعمال الدنيا لا يجوز لنا أن نأخذ النَّاس بالظنّة أبداً، وإنما نحكم لهم وعليهم بناء على ما ظهر وتجلَّى، هذا الموضوع أيها الإخوة لا أعلم فيه خلافاً، لكن اليوم كثيرون هم المسلمون الذين يتجاهلونه أو يجهلونه و يعرضون عنه، الآن التكفير القائم على قدم وساق ما سببه؟

1- من مراسلة خاصة بين المؤلف وبين الشاعر فراس أبو سليمان.

تجاهل هذا الحكم، أنا الآن أرى أناساً يقولون أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ،ويؤمنون بأنَّ القرآن كلام الله ويؤمنون بالرسل والأنبياء وبمحمد ﷺ ومع ذلك نجد من يكفرهم وبالجملة ! فهل هذا متفق مع قوانين الشريعة الإسلامية؟ أبداً إطلاقاً، لا سيما التكفير بالجملة !))[1] إذا الشيخ يطلق أحكاماً على عموم العمل وظاهره وصفة فاعله دون تعيين بكفر ولا إيمان لأن السرائر هي في علم الله وحده، ففعل السجود لغير الله كفر لكن لا يمكن أن تصف فاعله بأنَّه كافر قبل فهم علَّة سجوده، فقد يكون جاهلاً أو مكرهاً ! وهذه مسألة أصولية لا نريد الخوض في تفاصيلها ولا نملك أدوات التفصيل فيها، وإنما فقط نريد الاقتراب من بعض القواعد والمرجعيات التي يستند عليها الشيخ في إطلاق أقواله ومواقفه وفتاويه.

وبناء على هذه القاعدة يمكن فهم كل ما ينسب للشيخ من أقوال في حق أشخاص معيَّنين،

فهو يقول: إن مصير الإنسان تحدده أعماله التي يقوم بها، فهناك أعمال صالحه تقود على مرضاة الله وأخرى سيِّئة تقود إلى غضبه أيّاً كانت صفة الإنسان الذي يقوم بهذا العمل ومكانته!

▻ د. البوطي ورؤيا باسل الأسد في الجنة

فمثلا يتردَّد على ألسنة الكثيرين -ومنهم مشايخ نجوم على الفضائيات -أنَّ الشيخ البوطي يقول أنَّه رأى باسل ابن حافظ الأسد في الجنة ! فهل فعلاً قال هذا الكلام ؟ وعند عودتنا إلى تسجيلات ما قاله الشيخ بعد مقتل باسل الأسد سمعناه يقول هذا الكلام في المقطع المسجل الذي يشيرون إليه عندما ينسبون رؤية الشيخ لباسل في الجنة ! فالشيخ رحمه الله قال:

((أمَّا النهاية التي ذهب إليها، فلست متأليّاً على الله، ولكني أعلم عن كثب وبشكل مباشر أنه كان متحليّا بالأخلاق التي يحبها الله، كان متساميا إلى شهامة الرجال ولا أبالغ في هذا، كان يسهر على رعاية حال الضعفاء والمستضعفين، كل ذلك خلق يحبه الله سبحانه وتعالى، وكل إنسان يتحلى بهذا الخلق ولا أتألى على الله، أن يصير إلى مكرمة إلهية كبرى وأني لأتصوَّر أنه يتمنى أن تنكشف الحجب ليطلعنا على الحالة التي أقامه الله سبحانه وتعالى عليها!))[2]

1- من موقع نسيم الشام مقطع يوتيوب https://www.youtube.com/watch?v=QKocv5OrfHI

2- الحديث عن مصير باسل الأسد موقع نسيم الشام https://www.youtube.com/watch?v=UdmNsnw-uiw

أيضاً نسأل من نسب للشيخ كلاماً غير الذي قاله:

برأيكم ما مصير من يتحلَّى بالأخلاق التي يحبها الله؟

فإن كان جوابكم: وهل كان باسل يتحلِّى بأخلاقٍ يحبها الله؟ نقول لكم هذا نقاش آخر، فقد كان بإمكانكم مناقشة الشيخ في الكلام الذي قال أنه يعرفه عن باسل،وتأتوا بدليل على بطلانه، أو تأتوا بدليل على نقيضه لا أن تنسبوا للشيخ كلاماً محرفاً يعطي غير المعنى الذي أراده!

نعم هو قال كلاما فيه نوع من إطراءٍ أو مديحٍ لجوانب معينة سواء لدى حافظ الأسد أو ابنه باسل ثم بشار فيما بعد، وقد أوضحنا الحجة التي استند إليها في كلامه، وكان يمكن أن يناقش في موقفه أو حتى في منهجه الذي يعلن عنه ويتبنَّاه فعلياً من دون اختلاق مواقف تتجاوز ما يقول أو يعتقد، فصاحب الحجَّة القوية ليس بحاجة لِيشَوِّهَ كلام مخالفيه لكي يبدو كلامه صوابا، بل يأتي بحجة مخالفه بكامل قوتها ثم يردّ عليها ردَّ الواثق من صواب فكرته !

إنَّ لجوء خصوم الشيخ إلى حرفِ كلامه عن مواضعه و تعمّد تشويه مقاصده دليل على ضعف حجتهم، أو أنَّهم لا يملكون حجَّة مشفوعة بالدليل يمكنها الصمود أمام ما يطرحه الشيخ من قواعد الاستدلال على الكلام الذي يقوله أو المواقف التي يتخذها ! فليس المطلوب موافقة الشيخ في كل ما يقول أو عدم نقد مواقفه وحتى منهجه بل المطلوب هو الإنصاف والإخلاص في النقد، فالنقد أمر مطلوب، فلا يمكن تصويب منهج أو تطوير فكر والتخلص من الأخطاء إلا بالنقد، فالمنهج السليم يضع قبول النقد على رأس أولوياته لأنه في حالة سعي دائم لتصحيح ذاته وتقويم مساره،لكن لا بدَّ أن يكون لدى النَّاقد ميزان دقيق كفَّتاه العدل والعلم، بالإضافة إلى إخلاص النية والنصح لمن هو محل النَّقد، فإذا اختلَّ ميزان النقد فقد قيمته، فإن ملئت إحدى كفتيه جهلاً والأخرى ظلماً غاب الإنسان العالم العادل وحضر الإنسان الظلوم الجهول فغابت الحقيقة خلف ضباب الجهل والظلم!

والآن بعدما استعرضنا منهج الشيخ وأوضحنا قدر الإمكان الأسس التي قام عليها ذلك المنهج، ثمَّ تعرَّفنا كيف حاول الشيخ رحمه الله إسقاط منهجه على أحداث الثورات العربية عموما وأحداث الثورة السورية خصوصاً، سنسأل كل من يستعمل ميزان النَّقد بإنصاف قوامه العلم والعدل فنقول :

▿ أولاً، هل اتَّبعَ الشيخ في مواقفه منهج غالبية علماء الأمَّة المعتبرين أم ابتدع منهجا شاذّا لم يسبقه إليه أحد ؟

▿ ثانياً، هل انحاز الشيخ للحكَّام وأيَّدَ كل ما ارتكبوه في حق الشعوب أم دعا الشعوب لاتِّقاء شرورهم؟

▿ ثالثاً، وفي موقفه من الثورة السورية، هل أعلن الشيخ تأييده المطلق للنظام في كل ما قام به أم أنَّ كل ما فعله هو تصريحات حاول من خلالها فك الاشتباك بين نظام يجيد كل فنون الجريمة وشعب أعزل خذله العالم أجمع؟

▿ رابعاً، هل كانت مواقفه التي اتَّخذها لنفعٍ شخصي أم لنفعٍ عام يكون مردوده للنَّاس عموما؟

▿ خامساً، ما الثمن الذي كان يرجوه الشيخ رحمه الله من الموقف الذي اتَّخَذه؟

▿ سادساً، وبعد، هل كان الشيخ رحمه الله يرى ببصيرتهِ قبل بصرهِ؟

لا بدَّ من طرح هذه الأسئلة والإجابة عليها بإنصاف قبل أن نسأل الذين خوَّنوه و كفروه و حرَّضوا عليه و...، فالأسئلة موجَّهة إليهم وليس للذين خالفوه باجتهاد غير اجتهاده!

فأن يكون لك رأي مختلف لا إشكال في ذلك، خاصة عندما يكون رأيك مبنياً على دليل لديك عليه حجة وبرهان، وهذا ما قاله الشيخ رحمه الله لمن خالفه الرأي! حيث دعا الله أن يثيبهم على اجتهادهم إن كانوا يبتغون مرضاة الله، لكن دعاهم أن ينظروا في ثمار اجتهادهم، فإن كان الثمر طيباً فعليهم التمسك به والعمل به، لكن إن رأوا غير ذلك فعليهم التراجع عنه ولهم أجر المجتهد الذي أخطأ باجتهاده بعدما صدقَ في نيَّته !

يمكن للجميع أن ينقدوا الشيخ البوطي في فكرهِ و في فقهه السياسي والديني وفي مختلف القضايا التي له فيها رأي مختلف فذلك من تمام حقوقهم، ولكنْ يجب أن يكون ذلك وفق سياق علمي ونقدٍ موضوعي لا أن نذهب في اتجاه قتله معنوياً ثم التَّسبب بقتله جسديا !

فقد كان الشيخ باحثاً في الفكر السياسي الإسلامي وله مواقفه التي تميَّز بها منذ تخرّجه من الأزهر ومِنْ قبل تسلم حافظ الأسد للسلطة، وكان أخلاقياً في مواقفه والجميع يشهد له بذلك وكان إصلاحيّاً في علاقته بالسلطة والمعارضين وعلماء الدين والجماهير.

وهذه المواقف ليست مرتبطة بنفع شخصي كما أشرنا سابقاً بل هي مرتبطة بمنهجه في الفقه السياسي والديني ونشأته الدينية وتربيته الصوفية !

فإن وجدنا من يقول بل كانت تلك المواقف نفاقاً لأهل السلطة ! سنسأله على الفور:

لماذا ينافق الشيخ رحمه الله أهل السلطة؟

ما الذي يرجوه من هذا النفاق؟ هل هو نفاق مجاني؟

هل باع الشيخ آخرته بدنيا غيره؟

فهناك أسباب كثيرة ومتعددة تدفع صاحبها نحو إظهار النفاق، وأن يبديَ للنّاس عكس ما يخفي، منها أن يكون محبّا للشّهوات، أو واقعا تحت تأثيرها، ومنها شهوة التّعلّق أو التّمسّك بالحياة، أو أن يكون الدّافع هو حبّ المناصب والرّئاسة، والخوف على نفسه من انتزاع جاهه وزعامته وسمعته بين النّاس، أو أن يكون الدّافع هو التعلّق بالدّنيا وحظوظها، وما فيها من ملذّات وغنائم، فهل يمكن لأحد من ألدِّ أعداء الشيخ أن يتّهمه بإحدى أسباب ودوافع النِّفاق التي ذكرناها ؟ فعلاً لا أدري إن كان موجوداً ذلك الشخص الذي يمكن أن يجرؤ على اتِّهام الشيخ بذلك !

لكن وبعيداً عن الاتِّهامات الشعبوية التي يمكن تغذيتها بسهولة من خلال حقن العقل الجمعي للجماعات التي تقع ضحية لإجرام منظم أو ظلم جماعي بمواقف وشعارات تثير الغرائز وتندفع نحو الانتقام ممن تسبَّبَ بآلامها وأوجاعها، فأي عنوان يوضع في مواجهة الناس في ظروف كهذه سيتعرَّض لهجوم لاذعٍ وعنيف دون البحث في تفاصيل ذلك العنوان وفهم مضمونه الحقيقي!

لكن يبقى السؤال من هم الأشخاص أو الجهات أو المؤسسات التي ساهمت في وضع الشيخ رحمه الله عنواناً معاكساً لرغبات الجماهير ونصيراً للسلطات التي تواجههم بكل صنوف الإجرام؟ هل كان هناك من ساهم بإيصال رسالة الشيخ للنَّاس بطريقة مشوَّهة جعلته هدفا لهجومهم العنيف؟ من الذي ساهم في تعكير المياه الصافية التي كانت تجري بين الشيخ والناس التي كانت تتابعه وتثق بكلامه ثمَّ جعله صيداً لهم، ربما كان حجم الألم الذي

تعرضت له النَّاس أحد أهم الأسباب التي ساهمت في عدم الإصغاء لصوت العقل الذي كان الشيخ يحاول إيصاله للناس حكاماً ومحكومين ! لكن لا بدَّ من القول بأنَّه كان هناك أصوات وازنة ساهمت في تأجيج هذه الحملة التي جاءت منسجمة مع رغبة الناس في مواجهة كل رياح تهبّ من ناحية السلطات بكل الوسائل الممكنة والمتاحة !وبعقلية ثأرية كرد فعل على جرائم السلطات،

فمن هم أصحاب تلك الأصوات ومن كان أكثرهم فاعلية في تأجيج الحملة ضد الشيخ؟

لا شك أنَّ تيَّار الإسلام الحركي كان من أكثر التيارات تأثيراً في توجيه حركة النَّاس وتأجيج انفعالاتهم كونهم أكثر التيارات تنظيماً وقدرة على صناعة خطاب منسجم مع رغبات النَّاس التي تصغي باهتمام وثقة للأصوات التي توقظ التديّن الفطري الكامن في نفوسهم ووجدانهم، وتحرِّك فيهم غريزة الغيرة على الدين وبأنَّه الوسيلة الوحيدة التي يمكنها أن توصلهم لحقوقهم و وتوفر لهم سبل العيش بكرامة وحرية وعدالة اجتماعية، لقد استطاع أنصار هذا التيار استغلال حالة الهياج العاطفي لدى النَّاس فساهموا في خلق حالة من التطرف في المواقف جعلت من العسير الإصغاء لأي صوت يخالف هذا السياق الهائج !

هل أفتى د. يوسف القرضاوي بقتل الشيخ البوطي رحمهما الله تعالى

ولا شك أنَّ من أكثر الأصوات تأثيراً في نفوس الناس من المنتمين لهذا التيار هو الشيخ يوسف القرضاوي رحمه الله، فهو الشخصية الوازنة التي تكافئ في وزنها وقيمتها العلمية الشيخ البوطي لدى الناس، فكلاهما من الأصوات الموثوقة لدى الناس و يمتلكان جماهيرية واسعة في العالمين العربي والإسلامي، لقد ساهم الشيخ القرضاوي رحمه الله من خلال خطابه التحريضي وصوته المسموع في زيادة النقمة الشعبية على الشيخ البوطي، فقد جاء كلامه موافقا لرغبات الجماهير التي وجدت فيه الصوت الثَّائر في وجه الحكَّام الظَّلمة ولم تعد معنيَّة بالاستماع لأي صوت آخر مهما كان مضمون خطابه ! ففي برنامج الشريعة والحياة على قناة الجزيرة وفي ذروة تأجج مشاعر الكراهية لدى الناس تجاه النظام السوري بسبب تماديه في الإجرام، سئل الشيخ القرضاوي رحمه الله :

((هل يجوز استهداف من يعِين النظام السوري، وعلى رأسهم علماء السلطة؟))

فأجاب القرضاوي رحمه الله:

((الذين يعملون مع السلطة يجب أن نقاتلهم جميعاً، من عسكريين، ومدنيين، وعلماء، وجاهلين، من كان مع هذه السلطة الظالمة، المتجبرة في الأرض، التي قتلت الناس بغير حق، هو ظالم مثلها، فيأخذ حكمها، فيجب على كل من يقاتِل أن يقاتِل هؤلاء، يجب أن نقاتلهم جميعا))[1]

وعلى نفس منهج الشيخ البوطي رحمه الله نجد كلام الشيخ القرضاوي رحمه الله،فهو هنا أيضاً لا يعيِّن شخصا باسمه بل يقول كلاماً عاماً يشمل كل من يعمل مع السلطة الظالمة ولم يحدد اسماً معيناً، كما روَّج إعلام النظام وأعوانه بأنَّ الشيخ القرضاوي أفتى بقتل الشيخ البوطي !

لقد كان موقف الشيخ القرضاوي واضحاً في رفضه لموقف الشيخ البوطي،وأنَّه لا يؤيِّد ما يراه وقوفا مع النِّظام، لكن كما رفضنا تحميل كلام الشيخ البوطي أنَّه طالبَ النظام قتل المتظاهرين، نرفض أيضاً تحميل كلام الشيخ القرضاوي أنَّه أفتى بقتل الشيخ البوطي.

لكن يبدو أنَّ الشيخ البوطي شعر حينها أنَّه من ضمن الذين شملهم كلام الشيخ القرضاوي فأراد من موقعه أن يرد عليه : ففي أحد دروسه ردَّ على الشيخ القرضاوي ردّا مباشراً ومطوَّلاً يبين أن كلّا من الشيخين يعطي وزنا لكلام الآخر، حيث قال الشيخ البوطي في رده على القرضاوي:

((هنا يضطرني الحال، والعمل على سد الثغرات، أن أقولَ شيئاً عن أخينا فضيلة الشيخ يوسف القرضاوي، نحن لا نشك بفضل هذا الإنسان، وعلمه، وأنا أعرفه عن قرب، وبيني وبينه مودة أيضاً، لكن عجبت جداً جداً للطريقة التي اقتحم فيها ما قد رآه طريقة إصلاح لما يراه فساداً في هذه البلدة،اعتقد أنه رجل علم، يعني يعلم الشيء الذي ذكرته الآن، يعلم أنّ باب إصلاح الفساد من وجهة نظر الدين هو ما قد ذكرته لكم، يعلم ما يقوله بيان الله، ويعلم أن الطريقة الغوغائية ليست هي الطريقة التي تصلح الفساد، الطريقة الغوغائية

1- الشيخ القرضاوي في برنامج الشريعة والحياة على الجزيرة يوتيوب -https://www.youtube.com/watch?v=Wxy-7IM9MV4g

هي التي تفتح أبواب الفتنة، نعم، العزف على وتر الطائفية لا يصلح الفساد، أيها الإخوة، أبداً، و إنما يزيد الفساد، بل ربما، أقول لكم: يخلق الفساد، فأنا أعجب أنّ أخي الشيخ يوسف القرضاوي يعلم هذه الحقيقة ترى، ما الذي منعه وقد التهبت الغَيْرَة بين جوانحه لمصير حقوق الإنسان، والحريات، والقيم في هذه البلدة، وأنا لا أتهم غَيْرَتَه، طيب، ما الذي منعه من أن يتوجه إلى دمشق، ولسوف يجد من يؤَهِلون ويرَحِبون به، ليجلس شريكاً مع مَنْ جلسوا مع السيد الرئيس، وليكونَ هو الآخر واحدا مِمّن يناقشون ويتكلمون ويبحثون، ومن ثَمَّ يَنال – هو الآخر- ثواباً من عند الله عزّ وجلّ على هذا العمل الذي تم؟

ما الذي منعه من أن يشد الرَّحْلَ إلى دمشق، وهو يعلم أن دمشق سترحب به أيّما ترحيب، على المستوى الشعبي، وعلى مستوى المسؤولين لماذا آثر المنبر الأول، منبر الغوغاء؟

لماذا آثر الإثارة، وهو يعلم أن هذه الإثارة لا تفيد شيئاً؟

طيب، أنا أسأله سؤالا، سؤالَ مسْتَعْلِم، لا سؤالَ ناقد، أبداً، سؤالَ مَنْ يريد أن يعلم، لا سؤالَ مَنْ ينتقد: سمعناه- على الإصلاحات، ويدعو إلى إصلاح الفساد بكل ما يملكه من قوة ومن صوت، وَ وَ وَ .. إلخ.

طيب، عندما جاء، وأتيح له أن يجلس إلى السيد الرئيس، كانت مشكلة الحزب الواحد قائمة، وكانت مشكلة الفوارق قائمة، وكانت مشكلة الحريات قائمة، هذه المشكلات التي يعلن غَيْرَتَه عليها من خلال خطابه الملتهب، موجودة كانت، ولكنه لم يتحدث عن شيء منها، إنما استبدل بذلك المديح الذي كاله جزافا للسيد الرئيس. نعم، استبدل بذلك الثناء والمديح، وموقف سوريا من فلسطين وغزة، وما إلى ذلك، وسمعت أنا الكلام الذي قاله! طيب، شيء غريب، سبحان الله، فرصة ذهبية أتيحت لك، جلستَ إلى جانب السيد الرئيس بشار، يقول لي: كالَ لي المديح جزافاً، هو الذي يقول طيب، هلّا ذكرته يا أخ بهذه الإصلاحات التي تثور من على منبر صلاة الجمعة عليها!!

تثور وتثير من أجلها! الآن، تثير مشاعر الطائفية، وتضرب على وتره! وبالأمس أتيح لك أن تأمر بالمعروف وأن تنهى عن المنكر! وأن تتخذ لنفسك شهادة أو شاهداً بين يدي الله يوم القيامة! لماذا لم تفعل؟ ما فَعَلَ ذلك ؟! وأخيراً أقول: أنا بهذا الحديث عن أخي

الشيخ القرضاوي لا اغمز من قناته أبداً، وأعلم علمه وفضله، ولكني أحب له، وهذا كلام أخ مخلص، أحب له، وهو في هذه المرحلة المتقدمة من العمر، أن يحَكِّم ضوابط الدين وتعاليمه وآدابه في حل أمثال هذه المعضلة، بدلاً من أن يحَكِّم الظروف والمصالح الحزبية التي تدعوه آنا إلى أن يصمت؛ فيصمت، وتدعوه آنا إلى أن يتكلم ويثور؛ فيثور ويثير لا يا أخي، لا يا أخي، نحن بيننا وبينه القبر الذي ينتظرنا شبر أو أشبار، أنا وإيّاه تقريباً، هو أكبر منّي بقليل طيب، يا جماعة دعنا نبيض وجوهنا في عملٍ يرضي الله، نحَكّم ديننا في هذه القضايا، لا نحكم تبعيتنا الحزبية، وغدا الباري عزّ وجلّ يكتب لنا الأجر الوفير، ولسوف يكون ذلك سببا لصلاحنا وإصلاح إخواننا، وسببا لإزالة الفساد، وسبباً لانقياد القادةِ لنصائحنا القادة ينقادون لمصالحنا إن شَمّوا رائحة الإخلاص لوجه الله عزّ وجلّ، ولكنهم يعرضون عنّا إن وجدوا أننا نتلاعب، وأننا نستعمل الكر والفر من أجل قضايانا ومصالحنا))

عن موقع الشيخ طبعاً من الواضح من رد الشيخ البوطي عتبه على الشيخ القرضاوي لكنه عبَّر عن هذا العتب بلغة الخطاب بين العلماء الذين قد تكون لهم رؤى مختلفة لكن تبقى لغته راقية وتحمل أثر العلم في صياغتها وأسلوبها رغم مخالفته لرؤية مثلائه من العلماء.

لكن للأمانة والإنصاف نقول: أنَّه لا يوجد تكافؤ في قدرة كل من الشيخين على قول ما يريد بحرية كاملة ومن دون وجل ! فالشيخ القرضاوي يتحدث من بلاد تتبنَّى فكره وتسمح له بالحديث بكامل الحرية في هذه القضية بل قد تشجعه على ذلك دون أن يخشى ولو حتى كلمة لوم واحدة، بينما نعلم من أين يتحدث الشيخ البوطي وطبيعة النظام الذي يتحدث تحت سلطته وسطوته، فربما لو كان الكلام في أرض تتيح لكليهما التحدث بحرية لما اختلفوا و لكانوا اتَّفقوا على كلام لا يحدث جدلا ولا يثير خلافاً! لكن القسمة في حرية كل منهما على التعبير عما يجول في خاطره لم تكن في صالح الشيخ البوطي رحمه،فشتَّانَ بين من يتكلم من الدوحة ومن يتكلم من دمشق، والمسألة لا تحتاج مزيداً من الشرح.

لكن نقول لكل من يردد بأنَّ الشيخ القرضاوي أفتى بقتل الشيخ البوطي رحمهما الله لم نجد ردّاً مناسباً أكثر من رد الشيخ القرضاوي نفسه! ففي أول خطبة جمعة له بعد جريمة قتل الشيخ البوطي قال الشيخ القرضاوي :

((رأينا بالأمس وقرأنا وسمعنا في الصحف وفي الإذاعات والتلفزيونات نبأ المسجد الذي دمِّرَ في شمال دمشق وقتلَ فيهم اثنان وأربعون شخصا، ومن هؤلاء المقتولين الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي، هو صديقي للأسف، الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي كان صديقاً لي التقينا في عدد من المؤتمرات والتقينا في عدد من البلاد العربية والإسلامية، والتقينا في ملتقيات الفكر الإسلامي في الجزائر لسنوات، لكنَّ الدكتور البوطي خالف علماء سورية عامَّة ووقفَ مع النِّظام ضد شعبه إلى آخر جمعة، الجمعة الماضية وقفَ يؤيِّد النِّظام ويدعو إلى مناصرة النِّظام هكذا، كنت أودّ له أن يهديه الله في آخر المدة كما هديَ كثيرون كانوا مع النظام في أول الأمر ثمَّ رأوا أن هذا النظام يرتكب من المظالم ما لا يمكن أن يقبل فتركوا النِّظام، ومنهم من ترك سورية ومنهم من بقيَ في سورية، لكنَّ الشيخ البوطي الذي لا أستطيع إلاَّ أن أدعو له بالمغفرة وبالرحمة ظلَّ مع هذا النظام إلى آخر لحظة، إلى أن قتِلَ في مسجده، مسجد الإيمان الذي يلقي فيه درسين في كل أسبوع، وهذا المسجد في منطقة آمنة لا يدخلها أحد دون تفتيش! لا يستطيع أن يدخلها أحد إلا من الذين يأمنون على أنفسهم من أتباع النِّظام! إذا من قتل الشيخ البوطي؟ كل الذين يحاربون النظام برئوا من هذا الأمر، صحيح أنهم ضده وأنا ضده ولكن لا نقبل أن يقتلَ النَّاس في المساجد، كل أتباع الجيش الحر وأبناء الشعب السوري كلهم العسكريون والمدنيون الجيش الحر الجمعيات المختلفة الشيخ معاذ الخطيب كلهم برئوا من دم الشيخ البوطي!

فمن قتلَ الشيخ البوطي؟

قالوا في أول الأمر هاون دخل في هذا المسجد، وقالوا هناك انتحاري، كنا نودّ أن لا يدفنوا الشيخ البوطي قبل أن يعاين الطب الشرعي جثته ويقول لنا بأي شيء قتل؟

هل قتل بالرصاص هل قتل بالديناميت أو قتل بأي شيء؟ قالوا أن المسجد كما هو ! النَّجفة في المسجد موجودة وسقف المسجد موجود والمسجد سليم والسجاد في المسجد سليم، فكيف قتلَ هؤلاء؟

لا بدَّ أن يكون الذين قتلوه أتباعا للنظام، فأتباع الشعب لا يقتلون مصليا في مسجد، ولا يهدمون مسجداً أبداً ! النظام دمَّرَ تسعمائة مسجد، تسعمائة مسجد دمَّرها النظام كليّاً أو

جزئيّا ! أمَّا إخواننا أبناء الشعب لم يدمروا مسجداً واحداً، فلا يمكن أن يفكروا أن يضربوا مسجداً ! فمن الذي قتلَ الشيخ البوطي ؟

يجب أن يحقَّق في هذا الأمر وتعرف الجثة ويعرف كيف قتل الرجل ويكون على هذا شهود، لا نريد أن ندعَ هذا لهم إنَّهم يكذبون، كل كلامهم كذب لا نقبل منهم شيئا، الله سبحانه وتعالى سينتقم من هؤلاء القتَلَة فهذا ليس أول عالمٍ قتل، قتل من العلماء كثر، قبله بأيام قتلَ شيخ القرَّاء أحد القراء الذين يقرأون القراءات العشرة، وهم قبل ذلك قتلوا رئيس وزرائهم الزعبي وقتلوا غازي كنعان الذي كان وزير داخليَّتهم وقالوا إنه انتحر والله أعلم، هم يقتلون من يقتلون، من القاتل؟ نريد أن نعرف من الذي قتلَ الشيخ البوطي، أهل السنة، الشعب السوري لم يقتلوه ولن يقتلوه، ولم يقتلوا عالماً ولم يقتلوا مصليّاً وإن اختلفوا معه، كل السوريين مختلفين مع الشيخ البوطي وأنا معهم، ولكننا لا نقتل عالماً ولا نقتل مصليّاً ولا نضرب مسجداً أبداً، فمن فعلَ هذا؟

على النظام السوري الظالم الذي يحكم البلد، يحكمها بغير الحق، يحكمها بالباطل، يزيِّف الأقوال ويفسد في الأرض ويسفك الدماء، على هذا النظام أن يبين لنا من هو قاتل الشيخ البوطي ومن معه، سيعرف الناس أنَّ قتلته هم هؤلاء الظالمون، لا بدَّ أن أحدا منهم لا يريد أن يبقي أحد من علماء أهل السنة حتى وإن كانوا معهم، ربما ظنوا أن سيتغير كما تغيَّر كثير من العلماء تغيرت مواقفهم وأصبحوا مع أهل السنة ومع أهل الحق، هذا ما توقَّعوا أن يبيِّنه الغد إن شاء الله.)) [1]

هذا كلام الشيخ القرضاوي بعد جريمة قتل الشيخ البوطي رحمهما الله، طبعا نلاحظ مرة أخرى قراءة كل منهما للمشهد من الزاوية التي يراها، لكن نعود للتذكير مرة أخرى أنَّ أحدهما يتحدث والسيف على رقبته والآخر يتحدث والسيف بيده !

لم يكن الشيخ القرضاوي رحمه الله هو الصوت الوحيد الذي اختلف مع موقف الشيخ البوطي رحمه الله بل هناك أصوات أخرى لها وزنها العلمي والشعبي من أمثال الشيخ كريم راجح والشيخين أسامة وسارية الرفاعي والشيخ راتب النابلسي والشيخ محمد علي الصابوني، والشيخ أحمد معاذ الخطيب، جميعهم كان لهم رأي مخالف لرأي الشيخ البوطي، لكن لم

1- موقف الشيخ القرضاوي من مقتل الشيخ البوطي خطبة الجمعة. https://www.youtube.com/watch?v=pu25qZJ6CZM

يصدر عنهم أي ذم أو تحريض أو إساءة للشيخ بل بقي الأمر في إطار الاختلاف في الرأي الذي لم يفسد الود بينهم وبقي الحديث في إطار اختلاف الرؤى !

لكن وقبل أن ننهي الحديث عن أهم الأصوات الوازنة التي عارضت موقف الشيخ البوطي، والتي تمثَّلت بتيار الإسلام الحركي وصاحب الصوت الأعلى فيه الشيخ القرضاوي رحمه الله، لا بدَّ من الاستماع لرأي آخر يبيِّن لنا هل استطاع تيار الإسلام الحركي تلبية مطالب عموم النّاس التي ثارت على الظلم؟ خاصة بعدما أعلنوا أنفسهم أمناء على مطالب النَّاس، هل تمكَّن أنصار هذا التيار وبعد أن أوصلتهم ثورة الجماهير لمواقع السلطة في بعض البلاد بأن يكونوا حكامًا لكل الناس على حد سواء أم إنهم ظلوا ضمن قوقعتهم الحزبية وجماعتهم الضيقة، هل كانوا مؤهلين لإدارة شؤون البلاد بتنوعاتها الدينية والعرقية والمذهبية إلخ؟

ربما نحتاج لصوت محايد يجيب على هذه الأسئلة، صوت لا يمكن أن يتَّهم في ثوريَّتهِ ولا يمكن أيضاً أن يتَّهم بانتمائه الديني ولا بوطنيتهِ!

ونقصد بالصوت المحايد هنا هو ذلك الصوت الوطني الذي لا يعلن عن نفسه خصما لأي طرف من أطراف المعادلات السياسية المؤثرة في بلداننا، وفي نفس الوقت لا يسكت عن أخطاء قد يرتكبها أي مكون سياسي أو حتى ديني قد يؤثر على خيارات النَّاس ومصائرهم، أو يعبث بمصيرهم لمصلحة حزبية أو طائفية أو مذهبية أو قومية أو عرقية ! أو أي إيدلوجية ضيقة تعمل وفق أجندة خاصة أو فكر مغلق على خيارات محددة ! قد يكون من أكثر الناس قربا من هذه مواصفات هذا الصوت تحدثنا عنه هو الشاعر والأديب عبد الرحمن يوسف، وليس اختيارنا له يعني أنَّه الوحيد الذي يتصف بهذه الصفات بل لأنَّه ابن الشيخ يوسف القرضاوي! فلا يمكن بعدها أن يشكك أحد في الكلام الذي يقوله أو أنه من خصوم الشيخ أو متحامل عليه، فهو الرجل الذي يعتز ويفخر بأنَّه ابن يوسف القرضاوي وابن مدرسته الفكرية لكنه يصر على التعريف بنفسه بأنَّه عبد الرحمن يوسف دون إضافة القرضاوي حتى لا يتعرف عليه الناس من خلال أبيه، بل يعرفونه بشخصيته المستقلة وفكره المستقل الذي جعله يوجه رسائله لأبيه تحمل الكثير من المعاني العميقة والأفكار الجريئة التي حاولت كشف مواطن الضعف في بنية تيار الإسلام الحركي عموما والإخوان المسلمين بشكل خاص،

حيث حاول إيصال رسالة مفادها أن الزمن قد تجاوز تلك الأفكار ولم تعد قادرة بأطرها القديمة أن تلبي طموحات الناس وتقدم لهم حلول ناجعة للمشكلات العميقة التي تعاني منها مجتمعاتنا والتي أصبحت بحاجة لتجديد أدواتها لتستوعب المستجدات التي طرأت على بنية المجتمعات.

لكن قد يتبادر على الفور سؤالاً في ذهن القارئ ! وما علاقة رسالة عبد الرحمن يوسف لأبيه بقضية الشيخ البوطي التي هي موضوع البحث؟

طبعاً لا يوجد علاقة مباشرة بالموضوع، فالشاعر والأديب عبد الرحمن يوسف غير معني بالدفاع عن الشيخ البوطي ولا حتى بالهجوم عليه إلا في سياق هجومه على الاستبداد وكل ما يتعلق بالعوامل التي تساعد على ديمومته أو تكون عونا له، لكن عندما نقرأ الرسالة سنفهم كيف تخدم البحث ! فالرسالة في جوهرها تبين الخلل في بنية تيار الإسلام الحركي وفشله في تقديم مشروع عقد اجتماعي يستخدم أدوات العصر ويتحدث بلغتها ويكون عونا للناس في مواجهة مشاكلهم التي تحول دون عيشهم بكرامة وحرية وعدالة اجتماعية، الرسالة تقدم طرحاً جريئاً يطالب بفصل الديني عن السياسي وفض الاشتباك بينهما لكي يتحرك كلاهما بحرية ولا يعيق أحدهما حركة الآخر نحو تقديم رسالته بالصورة الأمثل! وهذا هو جوهر الخلاف الأزلي بين الشيخ البوطي رحمه الله وأصحاب فكر الإسلام الحركي الذين يسعون إلى السلطة لتحقيق مشروعهم مهما كانت تكاليفه باهظة على الناس، عندما يتصدى صوت عاقل لهذا التيار ويبين مشاكله وعدم قدرته على إقامة دولة حديثة بأدواتٍ عتيقة، وهنا يلتقي فكر الشيخ البوطي مع منهج عبد الرحمن يوسف رغم اختلاف أدواتهما، فما الذي تضمّنته تلك الرسالة وأين تلتقي مع فكر الشيخ رحمه الله؟

لكن و قبل الدخول في مضمون الرسالة لا بدَّ من لفت نظر القارئ إلى اللغة التي كتبت بها، فهي ليست لغة تمرد ولد على أبيه أو خروج عن منهجه أو عقوق لتربيته، بل هي لغة احترام التلميذ لأستاذه والابن لأبيه، وهذا ما يعطي أهمية إضافية لمضمونها، حيث يقول في بدايتها:

((أبي العظيم فضيلة الشيخ العلامة يوسف القرضاوي عرفتكَ عالما جليلا وفقيها موسوعيا متبحرا، تعرف أسرار الشريعة، وتقف عند مقاصدها، وتبحر في تراثها، ونحن اليوم في لحظات فاصلة في تاريخ مصر، مصر التي تحبّها وتعتز بها، حتى إنك حين عنونت لمذكراتك اخترت لها عنوان «ابن القرية والكتَّاب»، وأنا اليوم أخاطب فيك هذا المصري الذي ولد في القرية، وتربى في الكتّاب، يا أبي الجليل العظيم.

أنا تلميذك قبل أن أكون ابنك، ويبدو لي ولكثير من مريديك وتلامذتك أن اللحظة الراهنة بتعقيدها وارتباكاتها جديدة ومختلفة تماماً عن تجربة جيلكم كله، ذلك الجيل الذي لم يعرف الثورات الشعبية الحقيقية، ولم يقترب من إرادة الشعوب وأفكار الشباب المتجاوزة، ولعل هذا هو السبب في أن يجري على قلمك ما لم أتعلمه أو أتربى عليه يوما من فضيلتكم))[1]

واضح التهذيب في لغة الخطاب ثمَّ اللفتة الأهم وهي اختلاف قراءة الأجيال للمشهد الرَّاهن، فلا يمكن للجيل المعاصر أن يقرأه بعيون من عاشوا واقعاً مختلفاً، طبعاً هذه الرسالة جاءت بعد الانقلاب على الرئيس محمد مرسي رحمه الله، حيث أفتى الشيخ القرضاوي حينها بضرورة الوقوف مع الرئيس مرسي وتأييده، وكان أ. عبد الرحمن يوسف من المؤيّدين لإزاحة مرسي للأسباب التي أوضحها في رسالته والتي يتابع فيها : ((أبي الغالي الذي تشهد كل قطرة دم تجري في عروقي بعلمه وفضله، لقد أصدرت أمس فتوى بضرورة تأييد الرئيس المقال (بحق) محمد مرسي .. جاء فيها نصا:

((إن المصريين عاشوا ثلاثين سنة - إن لم نقل ستين سنة - محرومين من انتخاب رئيس لهم، يسلمون له حكمهم باختيارهم، حتى هيأ الله لهم، لأول مرة رئيسا اختاروه بأنفسهم وبمحض إرادتهم، وهو الرئيس محمد مرسي، وقد أعطوه مواثيقهم وعهودهم على السمع والطاعة في العسر واليسر، وفيما أحبوا وما كرهوا، وسلمت له كل الفئات من مدنيين وعسكريين، وحكام ومحكومين، ومنهم الفريق أول عبد الفتاح السيسي الذي كان وزير الدفاع والإنتاج الحربي في وزارة هشام قنديل، وقد أقسم وبايع أمام أعيننا على السمع والطاعة، للرئيس مرسي، واستمر في ذلك السمع والطاعة، حتى رأيناه تغير فجأة، ونقل نفسه من مجرد وزير إلى صاحب سلطه عليا، علل بها أن يعزل رئيسه الشرعي، ونقض بيعته له، وانضم

1– نص رسالة عبد الرحمن يوسف لأبيه مأخوذة من موقع اليوم السابع ومنشورة على عدة مواقع أخرى

إلى طرف من المواطنين، ضد الطرف الآخر، بزعم انه مع الطرف الأكثر عدداً))[1] طبعاً هنا ينقل الأستاذ عبد الرحمن يوسف مضمون الفتوى التي أصدرها والده بضرورة تأييد مرسي ليبيِّن موقفه منها والإشكاليات التي تضمنتها الفتوى فيتابع في رسالته:

((أبي الكريم، إن المقارنة بين مرسي ومبارك غير مقبولة، وهذه رؤية جيلنا التي ربما لا يراها من قبلنا، يا سيدي.. جيلنا لم يصبر على الاستبداد ستين أو ثلاثين عاماً كما تقول، بل هو جيلكم الذي فعل ذلك باسم الصبر، أما نحن فجيل تعلم أن لا يسمح لبذرة الاستبداد بالأستقرار في الأرض، وقرر أن يقتلعها من عامها الأول قبل أن تنمو، فهي شجرة خبيثة لا بد أن تجتث من فوق الأرض، ولو أن مرسي قد ارتكب واحداً في المئة مما ارتكبه سابقوه، فما كان لنا أن نسكت عليه، وهذا حقنا، ولن نقع في فخ المقارنة بستين عاما مضت، لأننا إذا انجرفنا لهذا الفخ فلن نخرج من الماضي أبدا! لقد تعلمت منكم أن المسلمين عند شروطهم، ألست القائل: «إن الإمام إذا التزم بالنزول على رأي الأغلبية وبويع على هذا الأساس، فإنه يلزمه شرعا ما التزم به، ولا يجوز له بعد أن يتولى السلطة أن يضرب بهذا العهد والالتزام عرض الحائط، ويقول إن رأيي في الشورى إنها معلمة وليست ملزمة، فليكن رأيه ما يكون، ولكنه إذا اختاره أهل الحل والعقد على شرط وبايعوه عليه فلا يسعه إلا أن ينفذه ولا يخرج عنه، فالمسلمون عند شروطهم، والوفاء بالعهد فريضة، وهو من أخلاق المؤمنين» ومن هنا – والكلام ما زال لكم – نرى أن أي جماعة من الناس – وإن كانوا مختلفين في إلزامية الشورى – يستطيعون أن يلزموا ولي الأمر بذلك إذا نصوا في عقد اختياره أو بيعته على الالتزام بالشورى ونتائجها، والأخذ برأي الأغلبية مطلقة أو مقيدة، فهنا يرتفع الخلاف» ؟))[2]

وهذا كلام مهم يحاول من خلاله الأستاذ عبد الرحمن يوسف بيان الفجوة الكبيرة لدى الإخوان المسلمين بين التنظير والممارسة، فمن خلال السنة التي حكم فيها مرسي ظهرت هذه الفجوة واضحة، حيث لم يلتزموا بما كانوا يطالبون الحكام الالتزام به، وهذه من الإشكاليات الكبرى لدى منظري تيار الإسلام الحركي، فهم من صبَر على الاستبداد لعقود وعندما وصلوا للسلطة حاولوا إدارة البلد بعقلية استبدادية !

1- نص رسالة عبد الرحمن يوسف لأبيه مأخوذة من موقع اليوم السابع ومنشورة على عدة مواقع أخرى
2- السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها «ص116، ط مكتبة وهبة»

وهذا ما حاول الأستاذ عبد الرحمن يوسف بيانه لوالدهَ في جاء في رسالته، حيث يتابع فيها بالقول :

يا أبي الكريم العظيم ((لقد عاهدنا الرجل ووعدنا بالتوافق على الدستور، ولم يفِ، وبالتوافق على الوزارة، ولم يفِ، وبالمشاركة لا المغالبة في حكم البلاد، ولم يفِ، وبأن يكون رئيسا لكل المصريين، ولم يفِ، وأهم من كل ذلك أننا عاهدناه على أن يكون رئيس مصر الثورة، ثم رأيناه في عيد الثورة يقول لجهاز الشرطة – الذي عاهدنا على تطهيره ولم يفِ أيضاً – يقول لهم : «أنتم في القلب من ثورة يناير!!!»، فبأي عهود الله تريدنا أن نبقي عليه ؟ لقد تصالح مع الدولة العميقة، ومع الفلول، ومع رجال أعمال مبارك، ومع كل الشرور الكامنة من العهود البائدة، بل حاول أن يوظفها لحسابه، وأن يستميلها لجماعته، وأعان الظالمين على ظلمهم فسلطهم الله عليه)) [1]

في هذا الكلام تتجلّى أزمة الثقة فيما يسمى الإسلام السياسي أو الحركي فعندما كان يقال لهم يخشى أن تستخدموا الديمقراطية كوسيلة للوصول للحكم ثم تتغير أقوالكم وتتبدل أفعالكم كانوا ينكرون ذلك ويقولون بأنهم سيكون طوعا لإرادة الشعب ! لكنهم سقطوا سريعاً وفي أول اختبار جدِّي، لقد تراجعوا عن كثير من الوعود التي قطعوها على أنفسهم وفي كل تراجع كانت تأتي تبريراتهم واهية وخالية من أية حجة أو إقناع ! وهذا ما يشير إليه الأستاذ عبد الرحمن يوسف في رسالته والتي يواصل فيها بالقول :

((لقد حفظت منك كلمة لا أنساها ما حييت يا أبي وأستاذي، كلمة من جوامع الكلم، كلمة صارت لي ميثاقا ونبراسا في فهم الإسلام، وفي فهم السياسة الشرعية، لقد قلت لي ولكل جيلنا : «الحرية قبل الشريعة» بهذه الكلمة كنت وما زلت من الثائرين الذين يطالبون بالحرية للناس جميعا، بهذه الكلمة كنت في الميدان يوم الخامس والعشرين من يناير، ويوم الثلاثين من يونيو أيضاً، ولم أشغل نفسي بالمطالبة بإقامة شرع الله، ولم أر أنَّ من حقي فرض الشريعة على أحد، بل شغلت نفسي بتحريض الناس أن يكونوا أحراراً، فالحرية والشريعة عندي سواء، وهل خلق الله الناس إلا ليكونوا أحراراً)) [2]

1- نص رسالة عبد الرحمن يوسف لأبيه مأخوذة من موقع اليوم السابع ومنشورة على عدة مواقع أخرى
2- نص رسالة عبد الرحمن يوسف لأبيه مأخوذة من موقع اليوم السابع ومنشورة على عدة مواقع أخرى

الحرية قبل الشريعة يا لها من عبارة تصلح لأن تكون دستور حياة لو تم تطبيقها والعمل عليها بصدق وإخلاص، وَوَجَدَتْ من يترجمها واقعاً على الأرض ولا يبقيها أسيرة الأقوال حدودها الحناجر! ليس المطلوب من الحاكم فرض الشريعة على الناس بل المطلوب هو إن يعطيهم حق السير نحوها بحرية تامة ودون إكراه، وهنا يكمن الافتراق القوي بين تديين السياسة وتسييس الدين ! فكما يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله مهمتنا إيصال الدين إلى أهل السياسة لا أن يصل أهل الدين إلى السياسة ! وهذه نقطة الالتقاء الكبرى بين ما يدعو إليه الأستاذ عبد الرحمن يوسف ومنهج الشيخ البوطي رحمه الله !

ويواصل عبد الرحمن يوسف في رسالته لوالده بيان مسلك الإخوان المسلمين بعد وصولهم إلى السلطة فيقول :

((لقد ناشدتَ يا أبي العظيم في فتواك الفريق السيسي وكل الأحزاب والقوى السياسية وكل طلاب الحرية والكرامة والعدل، أن يقفوا وقفة رجل واحد، لنصرة الحق، وإعادة الرئيس مرسي إلى مكانه، ومداومة نصحه، ووضع الخطط المعالجة، والبرامج العملية.. فماذا لو أخبرتك يا مولاي أنهم طالما فعلوا ذلك طوال عام كامل ولم يستجب الرجل؟!

ماذا لو أخبرتك يا أستاذي أن من مستشاريه الذين اختارهم بنفسه من نثق بعلمه ودينه وإخلاصه ووطنيته ومع هذا تركوه جميعاً بعد أن اكتشفوا حقيقة أنهم ليسوا أكثر من ديكور ديمقراطي لاستبداد جديد، فلم يكن الرجل يسمع لأحد سوى جماعته ومرشده الذين لم يكونوا له يوماً ناصحين أمناء ولا بطانة خير، وإنما أعانوه على ما لم يصلح في مصر ديناً ولا دنيا، ودفعوه إلى مواجهة الشعب بالجماعة لتبرير وتمرير قراراته المنفردة، مما أدى إلى دم كثير، وفتنة في الأرض، وما على هذا بايعه المصريون والثوار! ماذا لو أخبرتك يا سيدي وتاج رأسي أنني قد فعلت ذلك بنفسي فما كان من الرئيس وأهله وعشيرته إلا أن صعروا لنا الخدود! لقد جلسنا مع كل الأطراف في أوقات صعبة، ولم يكن أحد يشكك في شرعية الرئيس، وكان من الممكن لم الشمل بتنازلات بسيطة، ولكن – وللأسف – لم نر رجال دولة على قدر المسؤولية، بل رأينا مجموعة من الطامعين في الاستحواذ مهما كان الثمن))[1]

1– نص رسالة عبد الرحمن يوسف لأبيه مأخوذة من موقع اليوم السابع ومنشورة على عدة مواقع أخرى

طبعاً هذا الكلام كان في بداية الإنقلاب على مرسي وقبل أن تتوضح نوايا السيسي فيصبح عبد الرحمن يوسف من أشرس معارضيه ! لكن في كلامه هذا يوضح حقيقة ما سلكه الإخوان في السنة التي حكموا فيها مصر من خلال الدكتور مرسي رحمه الله، حيث يواصل الأستاذ عبدالرحمن يوسف في رسالته بيان ذلك بالقول :

((إنَّ الإخوان المسلمين قد تعاملوا مع رئاسة الجمهورية على أنها شعبة من شعب الجماعة، ونحن ندفع وسندفع ثمن ذلك جميعا دما وأحقادا بين أبناء الوطن الواحد! إن كل كلمة كتبتها يا سيدي وأستاذي أحترمها، وأعلم حسن نواياك فيها، ولكن تحفظي أنها لم تكن رأياً سياسياً يحتمل الصواب والخطأ، رأيا يكتبه «المواطن» يوسف القرضاوي ابن القرية والكتّاب، بل كانت فتوى شرعية يفتي بها إمام الوسطية «الشيخ» يوسف القرضاوي، وهو ما أذهلني وأربكني وآلمني))[1]

لا يمكن أن نقول أنَّ الكلام يصدر عن إنسان مغرض أو حاقد! فصاحب هذا الكلام هو عبد الرحمن بن يوسف القرضاوي الذي نشأ وتربَّى في هذه المدرسة الفكرية وتشكَّل وعيه بين جنباتها، لكن واضح أثر هذه التربية وواضح أنَّه أعطي كامل الحرية ليشَكِّل وعيه ويبني أفكاره بناء على قناعاته الشخصية وأن تكون له رؤيته المستقلة ليقول هذا الكلام الهام والخطير الذي يخرج من عباءة الإسلام السياسي عموما وعباءة الإخوان بشكل خاص !

لقد تعاملوا مع رئاسة الجمهورية وكأنها إحدى شعب الجماعة وأنَّ الوطنَ وأبنائه هم من سيدفعون ثمن هذه النظرة الإقصائية التي تعتبر أخطر من نظرية الحزب الواحد الذي يمكن للناس أن ينقلبوا عليه وعلى مبادئه ! لكن هذه السلوكيات تقدم للناس على أنَّها دين وتم استبدال المراسيم بالفتاوى أي أنك إن خالفت سلطتهم فقد خالفت الله وهنا تكمن خطورة الخلط بين الرأي والفتوى، فالشيخ يفتي ويوقِّع باسم الله وهنا الكارثة، لقد أنزلَ الدين من عليائه و حشر في فكر جماعة تزعم بأنها تقود الناس بأوامر إلهية !

تأمَّلوا هذا المشهد وتذكَّروا موقف الشيخ البوطي الأزلي من الإسلام الحركي، هل اكتشفتم عمق نظرته وبعد تفكيره عندما حذَّر العاملين في الحقل الدعوي من السعي إلى السلطة في

1- نص رسالة عبد الرحمن يوسف لأبيه مأخوذة من موقع اليوم السابع ومنشورة على عدة مواقع أخرى

إطار المتغيرات المعاشة، وأن يجعلوا محاولاتهم وجهود دعوتهم منصبَّة على الإصلاح الذي إن انتشر بين الناس وصار سلوكاً عاماً حتما سيصل إلى أهل السلطة ولو اجتمعت قطراته لصار سيلاً إمَّا أن يغرقَ أهل السلطة أو يجبرهم على أن يتعلموا كيفية السباحة فيه.

أهمية كلام الأستاذ عبد الرحمن يوسف تأتي كون هذا الكلام لم يصدر عن شيخ صوفي ولا شيخ تقليدي ولا مقلد مذهبي ولا سلفي متعصب، لكنه كلام إنسان حر نشأ في مدرسة القرضاوي ويقول هذا الكلام الذي يكشف ويعرِّي النوايا السلطوية والإقصائية التي ظهرت جليَّة وواضحة عند أول اختبار ! ونصل إلى الكلمة المفتاحية في الرسالة والتي يقول فيها :

((لقد آن لهذه الأمة أن تخوض الصعب، وأن ترسم الحدود بين ما هو ديني، وما هو سياسي، لكي نعرف متى يتحدث الفقهاء، ومتى يتحدث السياسيون)) [1]

كلام يستحق أن يكتب بماءٍ من ذهب، ونصّ يجب أن يتصدر كل دساتير الدول التي تعيش فيها أغلبيات مسلمة، لقد آن الأوان للقيام بفض الاشتباك بين ما هو ديني وما هو سياسي لأن الجمع بينهما في سلة واحدة مستحيل، يجب إبعاد طهارة الدين عن ألاعيب السياسة، فعندما يتلوث الدين بأوحال السياسة سيفقد قيمته الجوهرية ووظيفته الإصلاحية، لا تجعلوا الدين طرفاً في النزاع، بل اجعلوه حكماً عادلاً لحل النزاعات !

لا تغشّوا الناس وأنتم ترفعون لهم شعارات فارغة عصيَّة على التطبيق، قدّموا لهم حلولا واقعية، لا تقولوا للنَّاس الإسلام هو الحل، فلو فشل الحل فإنَّ الناس ستتهم الإسلام بعجزه عن تقديم الحلول، قولوا للناس الإسلام يقدِّم الحل لكل من يبحث عن الحلول من خلاله بصدق وإخلاص، فإن فشلتم أعيدوا قراءتكم للدين فإنَّها حتما قراءة خاطئة، عندها سينسب الخطأ لكم ولن يتَّهمَ الدين.

يعرِّف آينشتاين الغباء بأنَّه اتباع نفس المقدمات وتَوَقّع نتائج مختلفة، ألم ندرك هذه الحقيقة بعد، لماذا نصر على اجترار ما يقرب من أربعة عشر قرنا من الفشل في خلق عقد اجتماعي يجعل من الدين معصما ومن السياسات أصابع؟ لماذا ندافع هذا الدفاع المستميت عن الفشل، ونحارب كل من يدعونا لإعادة قراءة المقدمات علَّها تنتج نتائج مختلفة.

1- نص رسالة عبد الرحمن يوسف لأبيه مأخوذة من موقع اليوم السابع ومنشورة على عدة مواقع أخرى

والآن أدعوا القارئ الكريم أن يعود لدعوة الشيخ البوطي رحمه الله للتفريق بين ما هو ديني وما هو سياسي، وأدعوه أن يتأمَّل هل يمكن لهذه الدعوة أن تقدِّمَ حلًّا مختلفاً عن الحلول التي ما زلنا نجترها كل هذه القرون؟

وبالعودة إلى الرسالة الوثيقة التي أرسلها عبد الرحمن يوسف لأبيه، نعم هي وثيقة وهذا ما دعاني لنقل أجزاء واسعة منها كونها تقدِّم لنا أعلى مستوى من النقاش حول أزمة الإسلام السياسي[1] في التعاطي مع الواقع، نقاش ضمن المدرسة الواحدة التي أفرزت آراء متعددة، حوار بين المسار التقليدي ضمن هذا التيار والمسار الذي يدعو لتجديد القراءة وتغيير وسائل التعاطي مع الواقع من أجل تغييره والخروج من حالة البؤس التي تعيشها مجتمعاتنا نتيجة لاجترار الحلول القديمة والإصرار عليها دون إعطاء الفرصة لأي فكر جديد أن يجرب نظريته على أرض الواقع ثم الحكم عليها ! يقول الأستاذ عبد الرحمن يوسف في ختام رسالته :

((ختاماً: أنا أكثر واحد في هذه الدنيا يعلم أنك لا تبيع دينك بدنياك، وأنك أحرص على الحق والعدل من حرصك على المذهب والأيديولوجيا، وأن تفاصيل الحدث وملابساته كثيرة ومربكة، وأنت لديك شواغلك العلمية الكبيرة،

أعلم يا أبي أن فتواك ما جاءت إلا دفاعاً عما رأيته حق المصريين في أن يختاروا بإرادتهم الحرة من يمثلهم دون العودة ثانيا لتسلط العسكر – وهو ما لن نسمح بحدوثه أبدا –، وهذا التعليق مني رد لأفضالك عليّ، وعرفان بجميل علمك الذي أودعته فيّ صدقني يا أبي الكريم الحليم لو طبقنا ما كتبته في كتبك عن الأمة والدولة، وعن فقه الأولويات، وفقه الواقع، وفقه المقاصد، وعن الحرية التي هي قبل الشريعة كما علمتنا، لكنت أول الداعين للثورة على من ظلم، وخان العهود والمواثيق، وأفشى أسرار الدولة، وزج بمخالفيه في السجن بتهمة إهانته، ولم يترك لهم من الحرية إلا ما كان يتركه لهم مبارك : قولوا ما شئتم وسأفعل ما أريد!))

1- مصطلح الإسلام السياسي، قذف به العالم الإسلامي وذلك لمصادرة حق المتدين من ممارسة السياسة، والترهيب من كل سياسي مسلم، إنني أتحفظ على إطلاق هذا اللفظ وأستخدمه من باب شيوع البلوة، وإلا فالإسلام في لبه سياسي. قالوا السياسة قلت الدين جوهرها وما سياسة قوم بلا دين، وإننا إذ لا نمنع المتدين من ممارسة السياسة، فإننا نمنع أن يتحول الدين إلى سياسة، أو أن يظن الإسلام السياسي هو الناطق الوحيد باسم الإسلام والمجتمع، وننبه إلى أن كل الأمم والمجتمعات لها دين ولها سياسة، فلماذا يمنع هذا الحق عن المسلمين.

ويعود الأستاذ عبد الرحمن يوسف للتذكير بالفجوة التي حدثت عند انتقال الجماعة من النظرية إلى التطبيق وأنَّها تخلَّت عن معظم ما كانت توَصِّل له في تنظيراتها، وسلكت مسلكا براغماتيًّا يستخدم الدين كسلاح في مواجهة الخصوم وهذ نكوص صارخ وفاضح عن كل الوعود التي قطعوها على أنفسهم ! ثم يعيد الفضل لأهله في كلماته الختامية فيقول :

((أبي الحبيب ... لقد ربيتنا نحن أبناءك على الحرية واستقلال الفكر، وإني لفخور بك قدر فخرك بنا وأكثر، وإني لأعلم أن هذه المقالة سوف تدفع بعض العبيد لقراءتها بمنطق العقوق، إلا أنه ما كان لي أن ألتزم الصمت إزاء ما كتبته – بوصفه فتوى لا رأي – وقد عودتنا أن نكون أحرارا مستقلين، وحذرتنا مراراً من التقليد الأعمى، والاتباع بلا دليل، والسير خلف السادة والقيادات والرموز، وعلمتنا أن نقول كلمة الحق ولو على أنفسنا والوالدين والأقربين، وأن نعرف الرجال بالحق، ولا نعرف الحق بالرجال، من حق أسرتنا أن تفخر بأنها لم ترَبِّ نسخا مشوهة، بل خرجت كيانات مستقلة، وذلك بعكس كثير من الأسر التي تزعم الليبرالية والحرية، ولا نرى منها سوى نسخا كربونية لا فروق بينها أبي العظيم: هذه الكلمات بعض غرسك فينا، وهي في الأصل أفكارك وكلماتك، وبعض فضلك وفقهك، إنها بضاعتك القيمة ردَّتْ إليك،والله من وراء القصد))[1]

وفي تعليقنا الختامي على الرسالة نقول بأننا أردنا أن ننقل صوتاً ناقداً للفكر الحركي في الإسلام لا يمكن لأحدٍ التشكيك فيه كما أسلفنا، هذا الصوت الثَّائر على كل فكر قد يخدم الاستبداد أو يعينه على البقاء، هذا الصوت المثقف الواعي يضع يده على مواطن الخلل في بنية هذا الفكر ولا يطالب بنسفه أو التخلي عنه جملة واحده بل يدعوه إلى تغيير أسلوبه الذي ثبت عقمه بالدليل، فالزرع يعرف من ثمره ! وثمار زرعكم حنظلاً فهل أعدتم النَّظر فيه؟

ليس التشكيك بإخلاصكم وصدق نواياكم وإنما بأسلوبكم، لماذا تصرون على اتباع نفس المقدمات رغم معرفتكم بنتائجها.

كم تحتاجون من الوقت لإثبات صدق نظريتكم وقد مرت السنون و عركتها التجارب وما تغيَّرت النتائج ؟

1- نص رسالة عبد الرحمن يوسف لأبيه مأخوذة من موقع اليوم السابع ومنشورة على عدة مواقع أخرى

نعود للجوهر الذي دعانا للاستفاضة في الحديث عن هذه الرسالة، إنها تقدِّم منهج الشيخ البوطي رحمه الله الذي أفنى عمره في حوار بل حوارات مع رموز هذا الفكر مبينا لهم بالحجة والدليل عقم هذا المنهج في التعاطي مع الواقع ولكنهم أصروا أن يعيدوا التجربة مرات ومرات بنفس الوسائل القديمة والأساليب العتيقة فتأتي النتائج كارثية في كل حين !

تعمَّدت أن أنقل محتوى هذه الرسالة النقدية التي جاءت على لسان إنسان نشأ في مدرستهم وتربَّى على فكرهم، لكنَّه أعمل عقله مستغلاً حرية التفكير التي أتاحها لهم والدهم، فجاء بهذا التفنيد الرصين لفكرهم، فلو جاءت هذه الرسالة من أحد تلامذة الشيخ البوطي رحمه الله لما أصغى إليها أحد منهم، ولما تكلفوا عناء قراءة سطر فيها، سيأتي التشكيك فيها قبل قراءة محتواها، أمَّا وقد جاءت من ابن مدرستهم فقد صدمتهم ولم يجدوا تفنيدا لها أو ردًّا رصينا على محتواها فصمتوا عنها ولم أجد منهم تعليقاً عليها !

لم يكن تيار الإسلام الحركي هو الصوت الوحيد الذي جاهر بإعلان خصومته مع موقف الشيخ البوطي رحمه الله، بل ظهرت أصوات أخرى كانت أعلى صوتاً لكنَّها أقل تأثيراً ! وهذا ما ينطبق على التيار السلفي ومنظريه غالباً، لكن ورغم أنَّ غالب المؤثرين على هذا التيار يعلنون صراحة انبطاحهم للحكام دون نقاش إلاَّ أنهم كانوا الأكثر ضجيجاً في التشويش على ما يطرحه الشيخ البوطي والأكثر عملا على تشويه ما يقول، فظهر منهم أنواع من الفجور في الخصومة وصلوا إلى درجة تكفيره وإخراجه من الملة بناء على قراءتهم لبعض النصوص المختارة التي يتم توظيفها قسراً لتنال من الشيخ ودعوته !

▹ الشيخ البوطي والعرعور

فمن الأصوات التي ملأت الفضائيات ضجيجا كان صوت الشيخ عدنان العرعور الذي نسب للبوطي بأنَّه قال: إنَّ باسل في الجنة واستغرب العرعور في مقطع منتشر على اليوتيوب كيف علمَ البوطي أنَّه في الجنة هل يعلم الغيب؟

وقد نقلنا ما قاله الشيخ البوطي في هذه المسألة، وعند العودة لما قال ستجدون حجم الافتراء والتشويه لما قاله الشيخ رحمه الله! ثم يضيف العرعور في نفس المقطع((أنَّ كثير ممن الناس خدعوا في كتاباته بينما الرجل وبكل صراحة كان ضالّا مضلًّاً يحارب منهج الصحابة

لكن بعض الناس حملتهم أهواء وعاطفة وبعض الكلمات الطيبة))[1]، ويضيف العرعور في نفس المقطع أنَّ البوطي اتَّهم المجاهدين ((فقال عن المجاهدين: أنهم شرَّاب خمر وأنهم زناة وأنهم يعقدون على جبينهم لا إله إلاَّ الله سخرية)) وبعد ذلك يقول الشيخ العرعور أنَّ مدح البوطي لحافظ الأسد وبشار أهون من طعنه بالصحابة!

وفي مقطع آخر يقسم الشيخ العرعور بعد أن يذكر أنَّ الشيخ البوطي افترى مرة على الشيخ الألباني فدعا عليه أن يطيل الله عمره ويفضح سريرته، وأنَّ ما جرى للبوطي هو استجابة من الله سبحانه وتعالى لدعوة الشيخ الألباني ثم يقول ((فالبوطي الآن تلاميذه يلعنونه فما تأثيره في دعم النظام ومن يطيعه من الشعب؟ هذا والله ينطبق عليه قول الله سبحانه وتعالى :﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾))(الجاثية/23)

هذا الكلام يصدر عن رجل دين له أتباع يثقون بما يقول، فلكم أن تتخيَّلوا كيف سيكون سلوك هؤلاء الأتباع تجاه الآخر عموماً وليس تجاه الشيخ البوطي فقط! خطورة هذا الكلام أنَّه زرع في عقول شباب نشأوا في مرحلة الثورة ينتمون للإسلام انتماء نَسَبياً عاطفياً وليس لديهم التحصين العلمي والمعرفي الذي يحاكمون من خلاله ما يسمعون، هم غريزياً يدافعون عن الإسلام، ولم يجدوا أمامهم سوى هذه الأصوات المتطرفة أثناء الثورة فظنّوا أنَّ هذا هو الإسلام فلم يصلهم صوت آخر، فوجدوا في هذا التقديم التهييجي للإسلام ما يشبع رغبتهم في الانتقام ممن ظلمهم فنشأ جيل من الشباب شديد التَّطرف ظنَّ أن الإسلام هو انتقام وقتل وعداء للآخر وبالجملة دون فهم الأسباب والدوافع، والخطورة أنَّ هذا الجيل الذي تشوَّهَ وعيه بشكل كبير أصبح من الصعوبة إعادة ضبطه بشي من العقلانية والوعي التي ترشده لإعادة قراءة مقاصد الإسلام بعيداً عن المنطق الثأري والهياج الثوري!

1- موقف الشيخ العرعور بعد مقتل الشيخ البوطي ، يوتيوب https://www.youtube.com/watch?v=U5uL_msx6pU

▹ الشيخ البوطي والشيخ ناصر العمر

لم يكن الشيخ العرعور هو الوحيد من أتباع التيار السلفي الذين هاجموا الشيخ، بل هناك آخرون ساهموا أيضاً في تلك الحملة وزادوا اشتعالها نذكر منهم الشيخ السلفي ناصر العمر الذي قال في أحد دروسه ((الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي من أشهر العلماء والمشايخ في سوريا في العقود الثلاثة الأخيرة من السنين، وكان يحظى باحترام شعبي واسع، إلى أن اندلعت شرارة الثورة الشعبية السلمية في سوريا قبل نحو خمسة أشهر، فاتخذ البوطي موقف الانحياز المطلق للنظام الطاغوتي المحارب لله ورسوله والمستبد بعاصمة الأمويين والديار الشامية، بدأ السوريون يسخطون على البوطي حتى بات شتمه في المظاهرات سمة شبه دائمة، ثم انتهى به المطاف إلى إنزاله من على منبر الجامع الذي يخطب الجمعة فيه، على يد الجمهور الذي كان يتقاطر من أنحاء دمشق لحضور خطب البوطي ودروسه!

غير أن أهل العلم الأصلاء لم يفاجئهم انحدار البوطي لأنهم يعلمون عقيدة الرجل المنحرفة والمناوئة لعقائد أهل السنة والجماعة، ولانبطاحه أمام نظام آل الأسد المارق من الدين مروق السهم من الرمية، فقد نذر البوطي قلمه ولسانه للكيد لأهل السنة وللتحريض عليهم، وتعامى عن حملة التشييع القذرة المستمرة منذ سنوات، والتي تصاعدت في عهد الأسد الصغير، حتى أصبح في سوريا عشرات الحوزات الرافضية، وهي البلد الذي ليس فيه رافضة سوى عدد يسير لا يكاد يرى بالعين المجردة)) [1]

طبعاً ليست مشكلة الشيخ العمر مع الدكتور البوطي أنَّه يدافع عن نظام مستبد أو يقف معه كما يقول بل مشكلته معه أنَّه صاحب عقيدة منحرفة وأنَّه يكيد لأهل السنة ويعرض عن حملات التشيع ! وهذا ليس جديداً فخلاف الشيخ مع القراءة السلفية للدين هي قديمة وقد تحدثنا عنها عند حديثنا عن موقف الشيخ من التيارات المختلفة! ويمكن للقارئ تقييم هذه الدعاوى التي تساق بلا حجة ولا دليل.

1- موقع المسلم مقال للشيخ ناصر العمر بعنوان : البوطي.. انحراف في العقيدة وخلل في المنهج!!

▹ الشيخ البوطي والشيخ عثمان الخميس

ومنهم أيضاً الشيخ عثمان الخميس، الذي توجَّه برسالة مباشرة من خلال أحد فقال :

((أمّا العالِم محمد سعيد رمضان البوطي فنقول له ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ (هود/113) ولقد سلك هذا العالم مسلكا مشينا، حيث ركن للذين ظلموا ووقف ضد شعبه مع هذا الرئيس وأذكِّره بقول أهل العلم عند تفسير قوله تعالى ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة/7) إذ فسرها النبي ﷺ أنَّ المغضوب عليهم هم اليهود والضالين هم النصارى، فقال أهل العلم فمن فسد من علمائنا فهو مع المغضوب عليهم ومثلهم ومن فسد من عبَّادنا فهو مع الضالين! فنقول له إياكَ إياكَ أن تكون مع هؤلاء، وعليك أن تنجو بنفسكَ فإنَّ سِنَّك كبير وقد بلغتَ من الكِبر عتيّا، فعليك أن تتنبه وأن تتقي الله في شعبك وأن تتقي الله في عمرك وأن تتقي الله في هذه الفتاوى التي تصدرها تأييداً للظلمة ووقوفا معهم ضد الحق))[1]

طبعاً للشيخ عثمان الخميس والتيار الذي ينتمي إليه معاييره الخاصة لفساد العالم، فلا أدري إن كان هؤلاء القوم يجدون بأنَّ حكومات البلدان التي يقيمون بها هي حكومات تقيم العدل وتحكم بالقسط ! وبالتالي هم لا يركنون للظالمين وفي أصل عقيدتهم السمع والطاعة للحاكم ولو أكل مالك وجلد ظهرك وارتكب ما شاء من المعاصي جهاراً نهاراً وحتى لا يجوز لك أن تنصحه في العلن، وعقيدتهم هذه معلنة ولا ينكرونها بل يقولون هي عقيدة السلف ومن يحيد عنها عليه مراجعة دينه، طبعاً عقيد السلف وفقا لقراءتهم لها، ومن تكون له قراءة مختلفة لعقيدة السلف هو لم يفهم الدين وفقا لرؤيتهم!

و هناك بعض الأصوات الأخرى من المنتمين لهذا التيار أدلو بدلوهم في القضية لكن لن نستفيض في ذكر النماذج فهي معروفة ومشهورة، فقط جئنا ببعض النماذج الأكثر انتشاراً ليكون القارئ على اطِّلاعٍ عليها !

علماً بأنَّ غالبية هذه الأصوات التي كانت تملأ الآفاق قد صمتت تماماً عندما غيَّرت حكوماتهم موقفها من الثورة السورية، فمنهم من انقلب على عقبيه ومنهم من لم نعد نسمع

1- رسالة عثمان الخمس للشيخ البوطي يوتيوب https://www.youtube.com/watch?v=TjHqqJXcABc

له صوتاً، إذا هم وقعوا بما لاموا الشيخ عليه وتلوَّنت مواقفهم بألوان السياسة التي تتبعها حكوماتهم ! فلكم أن تقدِّروا حجم المصداقية في كلامهم !

طبعاً هذه الأصوات لا تمتلك علماً وازناً أو فكراً ناجزاً يمكن وضعه مقابل علم الشيخ وفكره ! فهم يصفونه بالعالم وبالدكتور وبالشيخ لكنَّهم لا يملكون ردودا تعادل هذه الألقاب فيلجؤون إلى الأساليب التي قرأنا نماذج منها، لا يسوقون حجة الشيخ ثم يدحضونها بحجة أقوى ! ولا يخوضون في فكر الشيخ ثم يأتون بفكر يناظره أو يتفوق عليه لكي يكون هناك توازن في الآراء تجعل القارئ الذي يمتلك عقلاً وازناً يجري مقارنة بين الأفكار ثم يرجِّح ما يستوعبه عقله ويطمئن له قلبه، فعندما يقابل الفكر بحملات شتائم وسباب وردح دون محتوى علمي أو أثر فكري!

سيكون الرد عليها نوعاً من العبث بقيمة العقل وأهمية الفكر ! فكيف سيردّ على السّباب بفكر وعلى الرَّدح بعقل! ربما استطعنا تحقيق شيء من التوازن العلمي والفكري عندما استفضنا قليلاً في الرد على خصوم الشيخ من تيار الإسلام الحركي وجئنا بكلام شخص ذو وزن فكري وثقافي ليرد عليهم بكلام موزون، لكن ستجد صعوبة بالغة في الرد المنطقي على خصومه من التيار السلفي! فلا يوجد فكر لترد عليه بفكر ولا حجة لتبحث عن حجة تناظرها، لذلك حاولنا عرض بعض مواقفهم ونترك للقارئ الحكم على أقوالهم ومواقفهم من خلال معرفته لأحوالهم !

لكن وسط هذا الضجيج الفوضوي وهذه الأصوات الصاخبة في مواجهة موقف الشيخ رحمه الله من هذه القضايا، ألم يكن هناك أصوات عاقلة أنصفت الشيخ رغم معارضتها لموقفه؟ ثم ألم تكن هناك أصوات أيَّدته بما ذهب إليه؟

لا شكَّ أن هذه الأصوات كانت ومازالت موجودة لكن ضجيج المواقف الحادة والمتطرفة غيَّب تلك الأصوات، لكن وقبل العبور لسماع آراء بعض أولئك الذين وجدوا في موقف الشيخ حكمة وصوابا ظهر جليّا بعد هدوء المعارك وانخفاض صوت السلاح و خفَّة حدَّة الآلام المباشرة التي كان الناس يتعرضون لها، دعونا نستمع لصوتٍ عاقل وحكيم لا يتفق مع الشيخ خاصة في مواقفه السياسية وبعض الرؤى الأخرى، لكن هذا الاختلاف لم يمنعه من الإنصاف في القول .

▹ الشيخ البوطي والشيخ معاذ الخطيب

إنه صوت الأستاذ أحمد معاذ الخطيب الذي أصدر بيانا هاما بعد جريمة قتل الشيخ قال فيه:

((بعد التشاور مع كثير من علمائنا الأفاضل فإننا نقرر أن قتل الدكتور البوطي هو جريمة بكل معنى الكلمة، وأن علماء بلاد الشام طالما اختلفوا في رؤيتهم للأمور، ولكن لم يبلغ بهم الأمر أن يستبيحوا دماء المسلمين فضلاً عن أهل العلم فيهم، أو أن يرضوا باستباحة حرمات المساجد، أو يرضوا بقتل المدنيين، وما كان بينهم من الأخلاق رغم اختلافهم شيء مشهود به، إننا نختلف مع الدكتور البوطي رحمه الله في أمور كثيرة سابقاً ولاحقاً، ولكننا نعرف مكانته في العلم وسابقته في الدعوة إلى الله، وحرصه على هداية العباد، ونعرف ما زرعه من الخير في مجتمع كان محروما من أبسط حقوق الناس الشرعية والإنسانية، لا نكاد نتفق معه في رأي سياسي، ونرى وقوفه مع الحكام اجتهادا غير صحيح، ولكننا ننظر إلى قتله على أنه جريمة تفتح أبوابا من الشر لا يعلمها إلى الله، وحده النظام الذي اعتقل وأعدم المئات من علمائنا هو الذي يمكن أن يقوم بذلك الفعل الخسيس، وما جريمة قتل علماء حوران قبل أسبوع والتي ثبت لدينا قيام النظام بها، ثم اغتيال العالم الجامع الشيخ رياض الصعب بعدها، واليوم جريمة اغتيال العلامة البوطي إلا حلقة واحدة من مسلسل ترويع جديد للشعب السوري ولعلماء المسلمين،

لدينا معلومات وشواهد تؤكد بداية انقلاب في تفكير الدكتور البوطي رحمه الله، ونعتقد أن النظام قام بتصفيته خشية موقف شجاع منه قد يقلب الموازين كلها !

النظام الذي يقصف الشعب بالطائرات والصواريخ، ويهاجم المخابز والجامعات ويدمر المساجد ويعتدي على حرمات الناس هو وحده الذي لا يتورع عن قتل عالم مثل الدكتور البوطي،

نعزي علماء بلاد الشام، وسائر أهلنا الذي استشهد من أبنائهم العشرات في التفجير الآثم في جامع الإيمان.

اللهم إن كان محمد سعيد رمضان البوطي قد أحسن فزده من إحسانك وفضلك، وإن كان غير ذلك فأنت أعلم به))[1]

يمثل هذا البيان صوت العقل الذي غاب خلف قعقعة السلاح وغبار المعارك، وربما كان تغييبه مقصودا لتبقى لغة الجنون هي السائدة، فيبدو أن صوت العقل يؤذي معظم الأطراف المستفيدة من طول أمد محنة السوريين، فهذا النوع من الخلاف هو الذي نسعى ليسود العلاقة بيننا أن يصغي أحدنا للآخر فنتفق في مواطن الاتفاق ونختلف إن وجدنا في الاختلاف مصلحة أعلى وفائدة أكبر، لكن يبدو أنَّنا تجاوزنا العقل وأصبح خلفنا بمسافات كبيرة يصعب العودة إليه لكن تبقى الآمال قائمة إن هدأنا قليلا وتخلصنا من كل أشكال العصبيات العمياء وأعلينا من شأن الانتماءات المثمرة التي تتلاقى على المبادئ وتنأى بنفسها عن كل أشكال الفرقة التي لا تثمر إلاَّ عداءات وأحقاد تفسد حياة الأفراد والمجتمعات وتجعل حياتهم جحيما! ما زالت الآمال قائمة لأننا ما زلنا نسمع أصواتاً عاقلة تقرأ الواقع بمعطياته الحقيقية من دون تزوير ولا تزييف، نحن لا نريد من يجمِّل لنا الواقع رغم بؤسه لكن فقط نريد من يكون واقعياً في وصفه لنجدَ له ما يناسبه من علاج، ولو قرأنا منهج الشيخ البوطي ودعوته بهدوء وعقلٍ وروِيَّة لوجدنا بأن هذا هو جوهر منهجه ودعوته، تبريد المواقف بين جميع الأطراف لكي يمكن ملامستها والاقتراب منها ثمَّ بعد ذلك يمكننا أن نبدأ بعلاج مواطن الخلل فيها، كان المطلوب أولا إطفاء الحريق ثم تقييم الخسائر للبدء بالتعويض، لكن كل ما كان محيطا بالمشهد أو داخله كان يسعى لصب الزيت على نار الأزمة فيزيدها اشتعالا حتى احترق الجميع بلهبها واكتوى بجمرها!

وبعد نقول لا يمكن الإحاطة بمشهدٍ ما إحاطة كاملة من داخله، فقد تخفى علينا الكثير من تفاصيله، لكن لو خرجنا منه قليلاً سيبدو لنا كاملاً ويكون الحكم عليه أكثر صوابا ومصداقية ! لذلك سنحاول الخروج قليلا من مشهد القضية السورية وضجيج الصراعات داخلها ونستمع لأصواتٍ كانت تنظر إليها من الخارج، فقد يكون وصلهم دفء نيرانها لكنهم لم يكتووا بلظاها فقد يكون كلامهم باردا يمكن ملامسته أو الاقتراب منه علَّنا نجد فيه بعض الحقائق التي احترقت بنيران أزمتنا، دعونا نستمع لبعض الأصوات التي كانت تراقب المشهد

1- بيان الأستاذ أحمد معاذ الخطيب حول قتل الدكتور الشيخ سعيد رمضان البوطي – موقع رابطة العلماء السوريين

من بعيد ولا نجد لهم مصلحة الانحياز لطرف من الأطراف، وما يهمنا هنا في بحثنا هذا هو شهادات في الشيخ وللشيخ من أناس ليس لهم مصلحة دنيوية معه، فما الذي يمكن للشيخ أن يقدِّمه لهم سوى فضيلة العلم وعصارة الفكر ؟!

فبعد جريمة قتل الشيخ رحمه الله بدأت الأصوات تظهر والمواقف تتبدَّى، فرغم صخب الأصوات التي أظهرت شيئا من الشماتة في موته كان هناك أصوات ومواقف تحدَّثت بشيءٍ من العقلانية والمنطقية في الطرح حاولت من خلالها إنصاف الرجل بما هو أهله من دون تضخيم وتهويل !

▹ الشيخ البوطي ود. محمّد سالم أبو عاصي

فبعد مقتل الشيخ رحمه الله وفي حفل تأبين أقيم في الجامع الأزهر كانت هناك كلمة وشهادة للأستاذ الدكتور محمد سالم أبو عاصي المتخصص في علوم القرآن وتفسيره والأستاذ المساعد في كلية أصول الدين في جامعة الأزهر سابقا، والذي يعتبر نفسه من تلامذة الشيخ البوطي رحمه الله / يقول في كلمته :

((ذات مرة وهو في كلية الشريعة (يقصد الشيخ) في جامعة دمشق – وهذه من الأسرار التي كان لا يحب أن تذكر في حياته ونستسمحه أن تذكر بعد وفاته – قال الرئيس السابق لسورية حافظ الأسد لمدير قصرهِ: انظر وتكلَّم مع الشيخ البوطي ربما يكون في حاجة وهو محرج، أعطهِ أي شيء مهما كَبر! فاتَّصلَ به مدير القصر وقال: السيد الرئيس يأمر لك بأي شيءٍ مهما كَبر، وكان الشيخ في ذلك الوقت يسكن في بيت على الطريق في ركن الدين وينزل من بيته ويركب الحافلة -الباص- ويذهب إلى الجامعة فلم يكن يمتلك سيارة، فقال الشيخ: أنا ممنون للسيد الرئيس، لكن كل الذي أريده أنَّ الذين في السجون يخرجون، والعلماء الذين خارج دمشق يرجعون، فنفَّذَ له الرئيس الكثير من طلباته، فلم يطلب شيئاً من الدنيا لنفسهِ، وقال لي مرة : هذا هو السبب الذي جعل حافظ الأسد يرتبط بي ارتباطاً شديداً، لأنَّه يعلم أنَّ الشيخ في علاقته مع الحكَّام يستمدّ منهجه من الإمام الرازي والإمام الغزالي والإمام النَّووي، حيث قال الشيخ قبل رحيله بأيَّام : أنَّ علاقة الداعية بالحاكم ينبغي أن ترتكز على أربع نقاط :

←النقطة الأولى: أن لا يطمع الداعية بدنيا الحاكم، فلا يطمع بمال ولا منصب ولا شيء من دنيا الحاكم.

← النقطة الثانية: إذا دعاه فَلْيجب

←النقطة الثالثة: إذا ذهب إليه فَلْيَنصح.

←النقطة الرابعة: إذا خرج من عنده أن لا يفشي الأسرار.

ويستدل على ذلك بحديث رسول الله "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر " فالحديث يقول عند وليس في غياب سلطان جائر، إنما تكون عنده وتنصحه سرّاً))[1]

ثم يقول الدكتور محمد سالم أبو عاصي كلاما مهمّا وشهادة منصفة: ((وذات مرة ذهبت إلى المملكة العربية السعودية والتقيت بالشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني رحمه الله في بيته في منطقة العزيزية، وتطرَّقَ الحديث إلى الشيخ البوطي رحمه الله، فقال الشيخ عبد الرحمن : هذا من أذكى تلامذة والدي رحمه الله، وهو في معاملته مع الحكام اجتهاد منه، لكنَّ عذر هذا الرجل أنَّه لم ينتفع وتشهد سورية كلها والعالم الإسلامي أنَّه لم ينتفع من دنيا الحكام بشيء! إنَّما كان غرضه الإصلاح وغرضه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولم يركن لهؤلاء ليفوز بمنصب أو يفوز بشيءٍ من الدنيا الفانية))[2]

قد يكون ما جاء في كلام الدكتور محمد سالم أبو عاصي معروف للكثيرين وموجود في كتب الشيخ و دروسه ومحاضراته، لكن نقله لشهادة الشيخ عبد الرحمن حبنكة اختصر الكثير من الكلام من خلال هذه الشهادة التي لخَّصت بإيجاز سيرة الشيخ ومنهجه !

▹ الشيخ البوطي والباحث محمد عصام عيدو

ومن الأصوات الرزينة التي وجدناها تلامس الواقع دون تهويل أو تقليل، بحث بعنوان البوطي الفتوى والثورة منشور على موقع معهد العالم للدراسات للباحث محمد عصام " عيدو أستاذ الدّراسات العربيّة والإسلاميّة في قسم الدّراسات الدّينيّة – جامعة فندربلت الأمريكية والأستاذ الزائر في جامعات أخرى، حيث يرد في بعض أجزاء ذلك البحث:

1- كلمة الدكتور محمد سالم ابو عاصى فى حفل تأبين الشيخ البوطى بالجامع الأزهر الشريف https://www.youtube.com/watch?v=__NI5BnC7M0

2- المصدر السابق.

((بتحليل شخصيته الصوفية (الشيخ البوطي) نلحظ نقطتين بالغتي الأهمية من حيث قوة الاستقطاب،

← أولاً: حديثه عن الله والاصطلاح معه في كل مناسبة، فنراه يغتنم الفرصة في أي مناسبة اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية ليذكِّر الناس بأن ما يجري معهم من خير أو شر إنما هو نتيجة أحد هذين السببين: بعد عن الله، أو قرب من الله، فيستثمر السبب الأول ليحفز الناس على الاصطلاح مع الله، ويستثمر السبب الثاني ليدلل على أن الخير الحاصل ما هو إلا نتيجة الاصطلاح مع الله، ليوصل رسالة إلى المجتمع أن أساس النجاة هو العبودية لله.

هذا الخطاب جعل أغلب الشرائح الشعبية مقتنعة بأن ما يقوله الشيخ البوطي نابع من إيمان واعتقاد ومحبة فائضة وليس من رؤى ونوازع نفسانية.

← ثانياً: أنه يركز في كل مناسبة على أن المصلحة العامة هي التي يجب أن تكون الرائد في اختيار الأمور، وأن المصلحة الشخصية ما هي إلا مصلحة آنية ستكون عاقبتها تدمير الشخص نفسه صاحب المصلحة ومع كل نجاحاته وسجالاته الفكرية الرابحة شعبياً يمكن القول إن الشيخ البوطي لم يستثمر هذه النجاحات في تعزيز مصلحة شخصية خاصة به، وإنما على العكس أراد من كل ذلك أن تكون هذه الأرباح دعماً للصالح العام، وللتأكيد على الناس بضرورة الاصطلاح مع الله))

طبعاً البحث يستفيض في شرح ملابسات موقف الشيخ البوطي وأهم المقومات التي ارتكز عليها في تشكيل موقفه، ومدى تأثير الشيخ في الوجدان السوري والبصمة التي تركها في ذلك الوجدان إلى أن يخلص لنتيجة ملفتة يقول فيها:

((إنَّ المسار الفكري للدكتور البوطي خلق لدى الرأي العام السوري قناعة راسخة بوجود سلطة دينية غير رسمية توازي السلطة الرسمية وتتفوق عليها أيضاً، ومن هنا، فإن شخصية البوطي -بما تشكل من ثقل مرجعي في نفوس المسلمين في سوريا وخارجها- يمكن لها أن تكون مفتاحا يلج من خلاله الناقد والمحلل والباحث بل والمؤرخ إلى رصد تاريخ سوريا الحديث دينيا وسياسيا، نظراً إلى أن عدداً من أفكار البوطي وكتاباته ومقولاته ترتبط بشكل أو بآخر بالحقبة السياسية والدينية الأخيرة من تاريخ سوريا الحديث))

نلاحظ من خلال هذا الكلام الذي ورد في البحث والخلاصة الخاتمة له الفرق بين القراءات العقلانية للمواقف وكيفية استثمارها في اجتراح الحلول أو بناء القناعات على الأقل، وبين الصراخ الفارغ وانتفاخ الأوداج الذي لم يورثنا سوى مزيد من الخيبات واجترار الفشل.

▻ الشيخ البوطي ود. عدنان إبراهيم[1]

ومن الأصوات التي تحدَّثت بإنصاف عن الشيخ رحمه نذكر الدكتور عدنان إبراهيم الذي مهما اختلفت معه لا يمكنك إنكار مكانته ووزنه العلمي وسعة اطّلاعه التي تؤهلِّه ليكون له رأي وازن في أي قضية يتحدَّث عنها، فقد هالته جريمة قتل الشيخ رحمه الله فأفرد لهذا الحدث خطبة جمعة كاملة مطوَّلة تحدث خلالها عن سيرة الشيخ ومناقبه وأورد كلاماً هاماً وواقعيّاً لا يمكن إنكاره حتى من خصوم الشيخ وخصوم الدكتور عدنان إبراهيم على حدٍّ سواء !

فقد أورد كلاما عليه ألف دليل وبرهان تجعل من يستمع إليه لا بدَّ أن ينصاع له ويعترف بصدقيَّته حتى ولو كان صاحب هوى أو جاحد علم ومنكر فكر ! فقد سأل أسئلة منطقية نذكر بعضها باختصار لنترك للقارئ فرصة الإجابة عليها بشيءٍ من الإنصاف أحد هذه الأسئلة ((البوطي كان مقرَّباً من السلطة، والسلطة كانت تحترمه منذ الأسد الأب الكبير، فلماذا لم يغتنِ؟)) يمكن للقارئ أن يجيب بما يراه لكن ليكون منصفا مع نفسه أولا قبل أن يكون منصفا مع الآخرين !

أمَّا جواب الدكتور عدنان فكان ((أنا أقول لكم لأنه كان عزيز النفس، وكان يفهِمهم أنني أفعل ما أفعل وأقول ما أقول خدمة للأمة وللدين وللوطن لا رغبة في مال لأنني لست محتاجاً إلى أموالكم، فهو كان يرفض هذا، وكم مرة عرِضَت عليه وزارة الأوقاف وفي كل مرة يرفض وهو يقول لا أريد أن أكون وزيرا، لماذا؟ لا أريد هذا حتى لا أكون عبدا لمنصب وحتى لا تملى

1- بعد وفاة الشيخ يوسف القرضاوي، ألقى د.عدنان ابراهيم محاضرة طويلة بعنوان "الاستفتاء..وفاة الشيخ د. القرضاوي"1/10/2022، ونحن نرفض الحوامل الفكرية التي بنى عليها قناعاته في خلافاته مع الإسلام الحركي أو الإسلام السياسي، حيث جعل تصفية الحساب مع هذه الجهة عن طريق وضع الشيخ البوطي كضحية لفتوى الشيخ القرضاوي، ونحن نرى أن الحدث هو توظيف خاطئ بل وغير شرعي، من حقك أن تختلف مع الأخوان وغيرهم ولكن لا يجوز أن تلبس وتدلس على الناس وتضع في سبيل تحقيق مآربك، أمواتا في الواجهة لكي تستدر العطف وتمرر أهدافك، رحم الله البوطي ورحم الله القرضاوي وغفر الله لعدنان ابراهيم.

عليّ أشياء لا أقتنع بها)) من يجازف بإنكار هذا الجواب فالمطلوب منه فقط أن يقنع نفسه بمبررات إنكاره مهما كان موقفه سواء من الشيخ أو من الدكتور عدنان !بعد ذلك يقدم الدكتور عدنان شهادة عن تواضعه، ((فالرجل عاش متقِّلِلاً زاهداً ومات كذلك رضوان الله عليه، فلا توجَد أموال للبوطي، البوطي شرَّفنا وأكرمنا بتواضعه المشهود في هذا المكان وزارنا مرتين، ورأينا – والله العظيم – منه العجب))

ثم يسهب في مقارنته بأشخاص آخرين ينسبون للدعوة والعلم كان يضعون شروطا تعجيزية عند قدومهم لأوروبا لتقديم بعض المحاضرات أو الدروس فيشترطون أن يكون الفندق الذي سيزلون به خمس نجوم ونوع السيارة التي ستنقلهم من المطار إلى الفندق أحدث موديل، وقائمة الطعام الذي سيقدم لهم، ثم يقارن متطلباتهم هذه مع تواضع الشيخ البوطي رحمه عندما كان يزورهم ويذكر الكثير من الأمثلة التي تبين جوانب كثيرة من تواضعه وتعامله مع الناس رغم مكانته العلمية التي لا تقارن بما يقدمه بعض المشايخ الذين يتصدون للدعوة وزادهم من العلم ضحل وقليل لا يقارن ببحر علم الشيخ الذي يشهد له حتى خصومه فينقل الدكتور عدنان شهادة مختصرة في هذا المجال فيقول :

((هو شارك في مئات المؤتمَرات حول العالم في الشرق والغرب لأنه كان نابغة من الناحية العلمية مذ نعومة أظافره ومذ شبابه الباكر، فالرجل – رحمة الله عليه – كان نابغة علمياً، ثم قلت له اسمع له وهو يتحدَّث بين يدي الملوك وهو يتحدَّث بين يدي أمثالنا من الأناس العاديين البسطاء جداً، والله العظيم – وأنا أقسِم على منبر رسول الله – الحديث نفسه واللهجة نفسها والطريقة نفسها والاقتباس نفسه، فهو لا يتغيَّر، يتكلَّم بنفس الطريقة ونفس الأسلوب ونفس المقدِّمات، وهناك مَن يتغيَّر كثيراً جداً بمقدار المخاطَب، فإذا خاطبك أنت خاطبكَ من علٍ وبخطاب فيه غطرسة وتكلف وأستذة وادعاءات وتكلفات كثيرة، أما إذا خاطب مَن هم فوقه خاطبهم بتوسّل وإذعان واحترام زائد، فما هذا الكذب؟ البوطي لم يكن يحسِن هذا، لم تكن هذه سيرة البوطي.))

بعد ذلك يتابع الدكتور عدنان في خطبته الطويلة عن فضائل الشيخ وفضله ثم منبته الطيب الذي يعود في أصله لوالده العلامة ملا رمضان البوطي ويذكر بعض كراماته وفضائله،

لن نسهب في نقلها رحمه الله موجودة على الأنترنيت ويمكن لكل مهتم بمضمونها العودة لها لكن حاولنا الاختصار في النقل فقط لنبيِّن بعض جوانب شهادة الدكتور عدنان إبراهيم التي لا يستهان بها في هذه القضية التي نتحدث عنها ! لكن يقول في آخر خطبته كلاماً هاماً لا بدَّ من نقله كوثيقة في هذا البحث لأنها فيها توضيح لجوانب كثيرة وكانت خفيَّة على الكثيرين فلابدَّ من الوقوف عندها لأهميتها

((ليس البوطي الذي يبيع دينه من أجل أن يرضي بشار وغير بشار وأبي بشار أبداً أبداً أبداً، البوطي يحكي قناعته، هذا شيئ اقتنع به، وطبعاً حتى أنا أعبِّر عن بعض قناعاتي لأنني متألِّم أيضاً في الداخل، هل تظنون أن ما حدث ويحدث في سوريا هو شيئ محصور ومقصور من أوله إلى آخره – وقف تام – على الشعب السوري وإرادة الشعب السوري أم أن لأطرافٍ خارجية منافع فيه ومخطَّطات من ورائه ومقاصد وغايات أقل ما فيها أنه يراد بها تذبيح الشعب السوري وتقسيم سوريا؟ هذا واضح، ولذلك قلت أنا العبد الفقير من أول يوم هذا نظام ملعون ونظام متوحِّش ونظام جبَّار عسكري مخيف ولكن ليس الآن، فأنا قلت هكذا والآن بدأ الناس يفهمون بعض كلامي إن صح لكلامي وجه، أنا قلت التوقيت خطأ – ليس الآن – لأنني أعلم التربص أيضاً بسوريا، الآن ماذا كسبنا؟ وإلى أين نحن ذاهبون أيضاً؟

حاولوا أن تفكِّروا في النتيجة، سوف يسقط هذا النظام الملعون وبعد ذلك ماذا سيحدث في سوريا؟ ماذا سيحدث في سوريا؟

هل سوف تبقى موحَّدة؟

هل سوف تحكَم بحكم ديمقراطي وحكم صالح وعادل؟

هل سوف تهدأ سوريا؟

الله أعلم، نسأل الله لها الهدوء والوحدة والسلام والأمن والعز والرخاء ولسائر بلاد العرب والمسلمين. اللهم آمين. قصدي أن أقول لكم:

إن الرجل كان عنده ربما وجهة نظر في الموضوع، كان يمكِن أن يحتمَل، خالفوه ولا تقتلوه، لكنهم فعلوا هذا، فلا فائدة – والعياذ بالله – منهم، فعلوها والله أعلم مَن يقف وراءها،

فالاحتمالات أيضاً مفتوحة لأشياء كثيرة، لأن البوطي – كما قلت لكم – ليس الشخص الذي يمكِن أن يقع على هوى جهة معيَّنة بالكامل، البوطي في بدايات الثورة السورية التي نسأل الله أن تكون عقباها خيرا كما بشَّر هو سئل سؤالاً وعلى موقعه كان الجواب، لكن هذا لا يقال لنا، وأنا قرأت هذا – والله العظيم– بنفسي وقرأه إخواني لي كثيرون وهذا مذكور عنه، فقد سئل هل يجوز لي أنا كفرد من أفراد الجيش السوري يأتيني الأمر من قيادتي – من الضابط مثلا كضابط الفرقة – بقتل المتظاهِرين وبإطلاق النار عليهم أن أفعل هذا؟ فهل تعرفون ماذا كان جواب الدكتور الشيخ البوطي – رحمة الله عليه – مفتي السلطان وعالم السلطان وعالم بشار وعدو الشعب؟ قال لا يجوز لك ذلك أبدا ولا العدوان عليهم وإن أدى هذا إلى قتلك، فليست حياتك بأولى من حياة غيرك، هل مفتي السلطان يفتي بهذا؟

الرجل ليست قضيته في أن يكون مفتي السلطان أو مفتي الشعب وإنما قضيته أن يفتي بما يرى أنه الحق وبما فيه رضاء الله عنه، أن يفتي وفق ما تمليه عليه مداركه ومفاهيمه الشرعية، ولذا قال هذا ممنوع، طبعا بالحري غضبت الحكومة وغضب حزب البعث، فهم غضبوا جداً عليه ورأينا موقعه بعد أيام قد ضرِب – ضرِب موقع الدكتور البوطي – بعد ذلك، فمَن الذي ضربه؟ هل الثورة لها مصلحة في أن تضربه؟ هذه فتوى في صالحها، وكأنه يقول – هو كان ضد التظاهر لكن كأنه يقول بهذا – للناس حق في أن تتظاهر، وهو لا يحِب التظاهر وهو ضد هذا الشيء من أول يوم ولكن الفتوى جاءت هكذا، فهي تصب في صالح التظاهر وفي صالح الثورة، وطبعاً غضبت جهة الحكومة وحزب البعث وهذا أمر معروف، ومن ثم ضربوا موقعه، ومن المؤكَّد أنهم يتعجَّبون ويقولون ما هذا الرجل؟ هو من جهة هو معنا – واضح أنه معنا – ومن جهة أخرى يطلِق هذه الفتوى التي تؤيِّد الثورة.))

هذا كلام يستدعي نقله لأنَّ فيه شهادة موثَّقة بأنَّ الشيخ رحمه الله كان يقول قناعاته حتى لو أغضبت هذه القناعات السلطة أو العقل الجمعي وجاءت على غير هواه، وربما هذه القناعات هي التي جعلت السلطة تسعى للتخلص منه قبل أن يستفحل أمره وتعود الناس للإصغاء لصوت العقل الذي يمثله !

لذلك يقول الدكتور عدنان بأنَّه يعلم أن كلامه هذا سيغضب كثيرين لكنه يجد أن من واجبه قوله: ((إن كان يريد أن يعلم الذين قتلوا العلّامة البوطي أو الذين حرَّضوهم على قتله أنهم أوجعونا وأحزنونا فنحن نقول لهم لقد فعلتم هذا، مثلاً أنا العبد الفقير لست سوريا ولست بعثياً وأكره هذا الحزب الملعون ولا علاقة لي بالنظام السوري ولا برجال النظام السوري ولا بإيران ولا بأحد بفضل الله، وهذا معروف عني، ولو كان عليّ واحد في المليون غير هذا لافتضِحَت في العالمين طبعاً، فهذا معروف عني بفضل الله، ولكن لماذا آخذ هذا الموقف؟ أنا أدافع عن عالم رباني من علماء الأمة الكبار قلَّ نظيره، فوظيفتي أن أفعل هذا، هذه وظيفتي أمام الله، ولو سكت لكنت – والله – شيطاناً أخرس وأقسِم بالله على هذا، وطبعا السكوت بالحسابات الدنيوية الرخيصة أفضل لي، ولكن – إن شاء الله – ألا أكون من أصحاب الحسابات الدنيوية الرخيصة، ولذا هذه الخطبة ستغضِب كثيرين، لكن – كما قلت لكم – هذا لا يعنيني، أسأل الله أن يرضى الله بها فقط حسب نيتي، وأنا أعلم بنيتي إن شاء الله، لكن لا يعنيني فيما وراء هذا، ولذلك أنا أدافِع عن هذا الرجل لأنه ملك للأمة وثروة رمزية من ثروات الأمة أهدرناها وضيَّعناها.))

يؤكد الدكتور عدنان إبراهيم بأنَّه ينقل هذا الكلام من موقع محايد لا يبتغي منه سوى مرضاة الله وإنصاف الرجل، فهو ليس طرفا في القضية السورية ليقال بأنَّه يحاول الانتصار لطرف على آخر، وهذا ما دفعنا لنقل هذه الأجزاء الواسعة من خطبته لما فيها من حقائق شهد لها واقع الحال ومآلات الأمور فيما بعد.

▹ الشيخ البوطي والشيخ المغامسي

لم تكن الشهادة التي قدَّمها الدكتور عدنان إبراهيم هي خاتمة الشهادات التي لمسنا فيها شيء من الإنصاف في القول، حتى من بعض أنصار التيار السلفي ومنظريه وجدنا من قال كلاما فيه شيء من ذلك الإنصاف المنشود حيث سمعنا كلاماً ملفتاً للشيخ صالح المغامسي، الذي أدلى بدلوه في الحديث عن موقف الشيخ البوطي رحمه لكن لم يحمل كلامه تلك الحدَّة التي عرف بها منتسبي التيار السلفي فقال كلاماً لا يوافق فيه الشيخ لكن يحفظ له مكانته ولا يتجاوز عليه:

((وقف بعض العلماء المعروفين وقفة حيَّرت النَّاس مثل الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي، الشيخ سابقا له مواقف معروفة في العلم الشرعي وأظنّ أني تكلمت في هذا لا أدري، لكن الرجل له مؤلفات وله دروس علمية شرعية معتبرة ومعدود في علماء المسلمين، موقفه يثير الغرابة نعم ! لا يوافق عليه نعم، يردّ عليه نعم،لكن لا أرى أن يتجاوز النَّاس فيه هذا الحد ! فالله أعلم بعذره، فإذا انكشف الغطاء، وهو سينكشف عندها يمكن سؤاله، والذي تبيَّن لي ممن يعرفون الشيخ عن قرب أنَّ الرجل ليس معدوداً من المفتونين بالدنيا ! والمعروف عنه فيما بلغني – أنا لا أعرفه شخصياً- أنَّه لا يقبل عطايا السلطان، وهذا إذا استصحبناه واستصحبنا معه دروسه وكتابه فقه السيرة يجعلنا لا نجرؤ على عرضه، لكن نقول أنَّ الشيخ لم يوفَّق في موقفه هذا، ولا يتابَع عليه وكانت الأمة السورية تحتاج منه لأكثر من هذا، لكن الإنسان ينبغي أن يمضي في موقفه ما استطاع على هدي الكتاب والسنة، فلا يمكننا أن نجعل آية المنافقين في رجل مثل هذا، هذا صعب ولا أعتقد أنَّ ذمَّتنا تتحمل مثل هذا، والله يأمرنا أن لا نقف ما ليس لنا به علم، لكن ما نقفوه عن علم أنَّ موقفه خطأ، لكن لماذا فعل هذا ؟ الله أعلم، هل هو تأوَّل ؟ هذا وارد، هل هو مجبر جبرا لا يستطيع الانفكاك منه؟ ممكن! والله سبحانه وتعالى يقول ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾(النحل/106) لكن لا أقول أنَّ الشيخ بريء بل أرى أنَّ الشيخ مذنب في كلامه نعم، وأهل سورية لا يستحقون هذا،أقول هذا نعم لكنني لا أتجاوزه إلى عرض الرجل أبداً.))[1]

فالشيخ صالح المغامسي في رأيه الهادئ هذا يخالف حتى أنصار التيار السلفي المتطرف الذين يكيلون للشيخ اتّهامات وينسبون له أقوالاً وفقاً لموقفهم السلبي منه ولا يحفظون له مكانته العلمية المشهود له فيها حتى من خصومه.

▹ الشيخ البوطي والشيخ علي العمري

وحتى الشيخ على العمري الذي يعلن معارضته لموقف الشيخ البوطي أثنى على فتواه المشهورة بحرمة قتل المتظاهرين بدعوى الاضطرار، وهناك الكثير من الأصوات التي لم تتأثَّر بضجيج وصخب الحملة التي أثيرت على مواقف الشيخ وقالت كلاماً إن لم نقل منصفا فهو على الأقل غير متحامل عليه ولا يحمِّل مواقفه أكثر مما تحتمل!

1- لقاء على تلفزيون قطر يوتيوب https://www.youtube.com/watch?v=BJBs6nfFQc4

أكاذيب وشائعات

ومنزلة السفيهِ من الفقيهِ　　كمنزلةِ الفقيه من السفيهِ

فهذا زاهد في قربِ هـــــذا　　وهذا فيهِ أزهد منه فيـــهِ

إذا غلبَ الشقاء على سفيهٍ　　تنطَّعَ في مخالفةِ الفقيـــهِ

تعد إشاعة الكذب في زمن الثورة السورية من أخطر الآفات التي كرسها النظام بل هو من خلقها وكذلك طيف واسع من المعارضة انتهجت ذات المسلك .

والشائعات من الجراثيم الفتاكة بالمجتمع والأفراد ومن أخطر الأمور التي يمكن أن تهزم الشعوب وتهدم الأفكار، فهي تؤدي إلى تشويه صورة الفرد والمجتمع والدولة على حد سواء. وتؤدي هذه الأكاذيب إلى العديد من المشاكل والآثار السلبية، منها:

1 **تأثيرعلى الرأي العام**: يؤدي إطلاق الأكاذيب إلى تدمير الثقة بين الأفراد، والقوميات والطوائف وخلق المشكلات والتوترات.

2 **الجانب النفسي**: يعد الافتراء وإشاعة الأمور غير الحقيقية مما قد يؤثر على الصحة النفسية للأفراد، حيث يشعرون بالإحباط والعزلة والرغبة في الانتقام.

3 **الجانب الاجتماعي**: يمكن أن يفضي انتشار الكذب إلى التراجع الاجتماعي و الضرر بالعلاقات والأسر، بالإضافة إلى إنشاء الشعور بالحساسية وسط كافة الأطراف.

4 **الجانب السياسي**: تؤدي الأكاذيب إلى فقدان الثقة بين الأجسام السياسية هذا بالإضافة إلى المشكلات الدائمة بين الفاعلين و التي تحدث في الواقع من الاحتراب والتشظي.

في النهاية، فإن تشويه صورة ما وهو ما يحدث بسبب إطلاق الأكاذيب في زمن الحرب يمثل عائقا جديدا في مجال السلم والأمن والموثوقية والثقة بين الأفراد، وقد يؤدي إلى الخروج عن السيطرة لوقت طويل، وهو ما يستحق حملة شاملة لتوعية الرأي العام وتعزيز الثقة بين المجتمعات المتحدة وننتقل إلى جانب مهم جداً وهو النظرة القاصرة أو المجزأة .

ويتلازم مع مسار إشاعة الكذب شيوع النظرة الأحادية.

إن الحكم على الأشخاص من خلال نظرة أحادية بات صفة عامة للشعب السوري نخباً وشعباً وهو سلوك غير عادل لا يقر به عقل ولا دين ولاقانون ولا خلق وقد يؤدي إلى الظلم والتحيز.

عندما يحكم الفرد على الآخرين بناء على معيار واحد فقط، فإنه يتجاهل الجوانب الأخرى المهمة للشخصية والسلوك والظروف المحيطة بالشخص والتي ينبغي أخذها في الاعتبار.

قد يكون للنظرة الأحادية أثر سلبي على العلاقات الشخصية والمجتمعية. فعلى سبيل المثال، إذا كان شخص يحكم على آخرين بناء على:

- لون بشرتهم أو دينهم.
- أحكام تعميمية كل الوسط الديني متخلف أو داعشي؛ كل العلمانيين عقلاء فسيؤدي ذلك إلى تعزيز العنصرية والتمييز ويعرقل التفاهم والتعايش السلمي.

وإذا استصدر حكم على شخص ما دون معرفة الملابسات والظروف والقراءة الموضوعية للأسباب الموجبة لظهوره في تلك الحالة فلربما نكون قد أصدرنا حكماً ظالماً

بدلاً من الحكم على الأشخاص من خلال نظرة أحادية، يجب أن نحكم على الأشخاص بأساس شامل ومتوازن، وذلك عبر الاستماع إلى جميع الآراء والتفكير في الظروف الشخصية والربط بين الجانب الإيجابي والسلبي للشخصية. وينبغي أيضاً أن تشمل النظرة التي نعاير بها الأشخاص، أيضاً الظروف الخارجية ومصادر انتمائهم، ومعرفة الأمور الكامنة في الداخل.

وبمجرد أن تستطيع النظر إلى الأشخاص بشكل شامل، يمكن تحسين الاحترام والتقدير والتفاهم للأفراد، وللمجتمع بصفة عامة، مما يؤدي إلى تعزيز العدل والاستقرار والازدهار.

وعندما يشيع التوازن يعمق الأدب والاحترام ونحول دون الظلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة/8)

تنطوي الأكاذيب حول الشخصيات على عملية إشاعة خاطئة عن شخص ما، ومن ثم تحويل الرأي العام عندما يعلّق عليها، ولمقاومة هذه الأكاذيب ينبغي اتّباع الخطوات التالية:

1. البحث عن الحقيقة: يجب على الأفراد البحث عن الحقيقة الكاملة والدقيقة حول الموضوع المثار، وذلك باستخدام الوسائل الرسمية وفحص المصادر الموثوقة.

2. تقييم الأدلة: ينبغي تقييم الأدلة ومصداقيتها بجدية، وتحليلها بعناية للتأكد من صحتها قبل التصريح بها أو نشرها.

3 توثيق الحقائق: يجب توثيق الحقائق المفترضة من خلال الدليل الذي يمكن التحقق من صحته.

4 توعية الناس: ينبغي إطلاع الناس على الحقائق المفترضة وإخبارهم بمصادرها وما إذا كانت موثوقة أم لا، كما يجب إعلامهم بمستوى المنفعة المتوقع من إظهار مدى صحة الأكاذيب أو الأحكام التي تحدث حول الشخصيات المختلفة.

5 التحدث بالحقيقة: يجب على الأفراد والمؤسسات والحكومات التصريح بالحقيقة والتحفظ حول الشائعات والأكاذيب وذلك لتجنب إشاعة المزيد من الشائعات.

6 محاربة الشائعات: ينبغي تحديد منشورات الشائعات ومحاربتها من خلال توزيع المعلومات الموضوعية والصحيحة وصياغة الإعلام بدقة ووضوح.

في النهاية، تعد مواجهة الأكاذيب حول الشخصيات أمراً صعباً، ويتطلب الكثير من الجهود والوقت لتوضيح الحقائق. ومع ذلك، يمكن الاعتماد على وسائل التحقق والتدقيق وتقييم المصادر والتأكد من الحقائق، وإعلام الناس بشكل مفهوم وواضح.

ما هي الأكاذيب التي شاعت حول د. البوطي رحمه الله

▻ **البوطي يقول: إن باسل الأسد في الجنة**

شاع وانتشر ولم يصح أن د. البوطي قال: إن باسل الأسد في الجنة في كلمة العزاء.

وبالرجوع إلى أصل الكلمة لا نجد هذا الكلام لا تصريحاً ولا تلميحاً

وصدق من قال:

إن آفة الأخبار رواتها، إن الذي ينقل الخبر يجب أن يكون دقيقاً في كلامه، من أين أتى بهذا الكلام بهذه الطريقة؟!

للأسف الذي يشيع هذا الكلام إما أنه يتجاهل ما قاله د. البوطي رحمه الله بالضبط أو أنه لا يفهم اللغة العربية كما ينبغي.

الدكتور البوطي قال: كأنني به.

وكلمة كأنني هنا تعني الظن، يعني " ربما "حسن الظن" كأنني به أراه في الجنة.

من حق كل إنسان ألا يؤيد الشيخ في حسن ظنه بهؤلاء، ولكن ليس من حقه أن يتهمه بالتألي على الله، هو لم يقل إن باسل الأسد في الجنة هذا كذب والنقل بهذه الطريقة هدفه التشويه والإساءة للشهيد رحمه الله تعالى.

فإذا نقل الإنسان فليقل حرفياً ماذا قال، ربما بالغ البوطي رحمه الله بحسن ظنه، ولا نمانع ألا يقتنع البعض بما قاله وألا يؤيده في حسن الظن هذا، ولكن نرفض التلفيق وأنا شخصياً أرى أن الشيخ البوطي بالغ في حسن الظن إلى درجة مرفوضة.

▹ البوطي وصف جنود الجيش النظامي بالصحابة[1]:

انتشر مقطع مبتور للدكتور البوطي ادعى فيه ناشروه أنه يصف القتلة من جيش الدولة بالصحابة ، فهل ما زعموه صحيح ؟

الصحيح أن الدكتور البوطي وصف جنود جيش الدولة الذين قتلوا المتظاهرين والمدنيين بالمجرمين، ولم يصفهم بالصحابة[٢] ، فوصفه هو لهذا الصنف حصراً من المسلمين الذين يقاتلون الصائلين بشرط التقوى وهي تعني عدم سفك دماء الأبرياء والامتناع عن كل الكبائر والصغائر و القيام بكل الفرائض، وهو لم يساوي بينهم وبين الصحابة وإنما قال: إنه سيكون لهم أجر كأجر الصحابة لقوله عليه الصلاة والسلام : "إن من ورائكم أيام الصبر للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم ، قالوا : يا نبي الله أو منهم؟ قال بل منكم" أخرجه أبو نصر في كتاب السنة والبزار والطبراني بنحوه .

لقد كرر البوطي النصح للجيش بطريقته المعهودة التي تخاطب جانب التدين في نفسية العسكري حيث يقول[3]:

أتوجه إلى القادة، أتوجه إلى الأمن أتوجه إلى الجيش، أتوجه إلى الشعب بكل فئاته، أدعو نفسي وأدعوهم جميعاً إلى الاصطلاح مع الله إلى التوبة إلى الله إلى الإقلاع عن الذنوب، تعالوا نمتّن جذورنا الإسلامية مع بعض لله سبحانه تعالى.

وقال[4]:

وأتوجه إلى رجال جيشنا الأبطال أقول لهم ، يقول لكم الله:

﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ (محمد/٧)

1- تكرر الرد على هذا الافتراء وسبب إعادة الرد حساسية الشعب السوري من الجيش ومقابحه .

2- سوف تجد لاحقاً في بحث دواعي الاغتيال الفتاوى التي تحرض على عدم قتل المتظاهرين وكذلك الإنشقاق إذا تأكد إلزامية قتل الأبرياء، وأما المقطع المبتور فقد كان في معرض حديثه عن قتال قطاع الطريق من الخاطفين واللصوص ومن شابههم من الصائلين، وقد أوضح ذلك في فتواه السابقة عن جواز الهروب من الجيش إن علم أنه سيقتل نفسا بريئة، وعن عدم جواز الهروب إن كان سيدعى لقتال الخاطفين واللصوص ومن شابههم ، وبيّن في فتوى أخرى أنه لا يقصد بذلك المعارضة المسلحة ، فقال عن هؤلاء الذين يقاتلون هؤلاء الخاطفين : إن لهم أجرا مثل أجر الصحابة بشرط أن يتقوا الله و يرعوا حق الله في أنفسهم و يتوبوا إلى الله جهد استطاعتهم

3- في خطبة 11/5/2012

4- في خطبة 24/8/2012

وقال[1] :

أتوجه به إلى جيشنا العزيز الغالي، أجل العزيز الغالي بما أتوجه به إلى نفسي وإليكم وإلى قادة هذه الأمة جمعاء، أدعوهم قيادة وضباطا وجنودا إلى التوبة بين يدي الله سبحانه.

وقال [2]:

أقولها اليوم وأقولها غداً واحتسب أجري في ذلك عند الله راجيا أن يكتبني ممن قال عنهم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت/33)

سأدعو قادة الأمة وأدعو أفراد الجيش المقدام وأدعو كافة المسؤولين إلى أن يتوبوا إلى الله إلى أن يعتصموا بشرع الله ، بهذا أرحل إلى الله ، هذا هو رأس مالي إذا قام الناس لرب العالمين ليس لي عمل صالح هام أتقدم به وأرفع به الرأس بين يدي الله ولكني سأرحل إلى الله بهذا اللسان .

ولكن كثيرا من الناس زعموا أن الشيخ يصف قتلة المتظاهرين بأنهم صحابة وهذا كلام باطل كما بينا، كما أنهم أيضاً بتروا كلامه ولم يذكروا الشروط التي اشترطها لهذا الأجر .

وإنما استقى البعض موقفه من مواقع التواصل التي يكتب عليها من هبّ ودب دون تحقيق أو تمحيص، ولقد شاهدنا حملة مسعورة ضد الشيخ رحمه الله في أوائل الأحداث فاجتزؤوا من دروسه وخطبه ما شاؤوا اجتزاء مخلا على طريقة فويل للمصلين، موهمين الناس أن الدكتور البوطي أيد قتل الناس ووقف ضد الشعب، والعكس صحيح ففتاواه تؤيد جانب الشعب لا جانب الحكومة .

▷ **وصف المتظاهرين بأوصاف لا تليق ولا تخطر لهم على بال.**

المقطع المبتور الذي انتشر في أوائل الأحداث وفيه يقول الشيخ البوطي : وجوههم لا تعرف الصلاة، جباههم لا تعرف السجود وكانوا يخرجون هذا الفيديو مع صور المتظاهرين لإيهام الناس أنه يتكلم عن المتظاهرين، فهل كان الدكتور البوطي يصف المتظاهرين بعدم الصلاة؟

1- في خطبة 14/10/2012
2- في خطبة 28/12/2012

أقول : إن أي شخص عنده تحليل دقيق وتفكير عميق سينتبه إلى أن قول الشيخ "وجوههم لا تعرف الصلاة" هو ضمير يعبر عن جماعة ولا نعلم على من يعود، يقول وجوههم: فوجوه من يقصد؟ ولماذا لم يأتوا بأول المقطع؟ وكيف عرفتم أن كلمة وجوههم يعني بها وجوه المتظاهرين وما دليلكم على هذه الدعوى؟

والجواب أنه لا جواب لديهم سوى سوء الظن بالعلماء وعدم التحقق.

السؤال المطروح هل هناك ما يدل على كذب هذه الدعوى من كلام الشيخ نفسه ؟

الجواب: نعم.

يقول العلامة البوطي في فيديو على موقع يوتيوب بعنوان موقف البوطي من منتقديه:

(لم أتهم المتظاهرين سواء المؤيدين أو المعارضين بأن جباههم لا تعرف السجود أو الصلاة) وقال أيضاً: (نحن الآن أيها الأخوة نرى شيئا غريبا عجيبا، عصر المونتاج و عصر الغرف السوداء وعصور غريبة وعجيبة جداً، صور لا أصل لها تركب، الآن وصل المونتاج لعندي، في أول أسبوع قامت به مسيرة كنت خطيب الأموي أثناء الخروج من المسجد كان يوجد ثلة قليلة في مدخل المسجد من الداخل، أناس لم يشتركوا في الصلاة ولكنهم كانوا ينتظرون خروج المصلين ولما خرج المصلون اندسوا بينهم و بدؤوا بالهتاف، طبعاً أنا قلت عن هؤلاء الناس أن جباههم لا تعرف السجود، كانوا ينتظرون في داخل المسجد ريثما يخرج المصلون، فيندمجوا فيهم، ويصبحوا كأن الكل يهتفون، ويأتي من يسقط كلامي هذا على كل المسيرات في كل المحافظات ويجعلني أتهم كل الناس بأنهم لا يصلون، هذا مثال للمونتاج الذي يختلق بواسطته شهادة زور، هذا شيء لا نرضى عنه ولا يرضى الله عزوجل عنه) انتهى كلام د. البوطي.

في جانب آخر إن الإصرار الذي التزم به الشيخ البوطي في قوله رأيه، حتى لو لم يعجب السلطة ولا المعارضة يشكل نوعاً الحيادية السلبية التي رفضها النظام.

كان البوطي رحمه الله لا يقبل إجرام السلطة ولا الثائرين عليها وهذا المنطق ممنوع في سياسة السلطة المتغولة.

والحيادية السلبية التي التزم بها الشيخ تجلت في مواقفه التي لا تقبل من جهاز الأمن ولا من رؤوس البعث السوري ولا من الطائفة الأمنية في سوريا.

وقف د. البوطي مواقف أشبه ما تكون بتأسيس خط إصلاحي يريد قلب السلطة وفق ما أسماه هو الطريق الديني الآمن وعمل على استثمار الأحداث لصالح الشعب وقد تقدم في خطوات سريعة تثبت أنه رحمه الله على الرغم من عدم تأييده للثورة إلا أنه رفض أن يكون في ركب القتلة.

▻ **البوطي جزء من النظام.**

لم يكن الشيخ د البوطي في يوم من الأيام في منصب وظيفي رسمي تابع للدولة فليس هو مفتيا عاما ولا مفتيا لأي محافظة. وليس له أي منصب لا في الدولة ولا الأوقاف والكل يعرف هذا، بل عرض عليه منصب وزارة الأوقاف فرفض ألا يدل هذا على زهده في المناصب وزخارف الحياة الدنيا؟! ثم يصر البعض بعد ذلك على أنه من وعاظ وعلماء السلطان.

ورد إليه سؤال على موقع نسيم الشام في عز الأحداث وقيام الثورة وهذا نصه:

ما موقفكم من النظام في سورية؟

رد. البوطي رحمه الله تعالى:

لست معنيا بالنظام السوري من حيث هو، ولكني معني بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا ما يأمر به الله ورسوله وهذا ما قمت به من قبل ولا أزال جهد استطاعتي والقتل بغير حق من أكبر الكبائر التي يجب إنكارها.

وقال في موضع آخر لست مؤيداً أو معارضاً إنما أحذر من بلاء أعم .

.هذا هو موقف الشيخ من الدولة ، فقد كان من أشد معارضي الفساد ولكنه مع التغيير بالحكمة والموعظة الحسنة وليس بحمل السلاح.

فقد كان الشيخ يفتي بما أجمع عليه أهل العلم بناء على الأحاديث النبوية الصحيحة التي حرمت الخروج بالسلاح على الحاكم الظالم والتي بلغت مبلغ التواتر المعنوي كما يقول العالم الشوكاني، بل إن العلماء حرموا الخروج على الكافر إن كانت المفسدة بالخروج عليه أكبر من المفسدة بالبقاء معه وهذه بعض النصوص النبوية الصحيحة التي تؤكد ذلك:

قال عليه الصلاة والسلام: ((من كره من أميره شيئاً فليصبر فإن من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية)). رواه البخاري ومسلم

سأل سلمة بن يزيد الجعفي النبي عليه الصلاة والسلام:((يا نبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألوننا حقهم ويمنعونا حقنا فما تأمرنا؟ فأعرض عنه ثم سأله فأعرض عنه ثم سأله في الثالثة فجذبه الأشعث بن قيس فقال عليه الصلاة والسلام : اسمعوا واطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم)). رواه مسلم

قال عليه الصلاة والسلام : ((يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ولا يستنون بسنتي وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس قال: قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك، قال: تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع)). رواه مسلم .

ومن أقوال العلماء:

قال الإمام أحمد: لا يتعرض إلى السلطان فإن سيفه مسلول .

وقال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم: (وأما الخروج عليهم- أي الحكام- وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين وقد تظاهرت الأحاديث على ما ذكرته وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل بالفسق).

ونقل ابن حجر العسقلاني رحمه الله عن ابن بطال الإجماع على عدم جواز الخروج على السلطان الظالم وإن كان متغلباً فقال في الفتح : قال ابن بطال: وفي الحديث حجة على ترك الخروج على السلطان ولو جار- ظلم - وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه وأن طاعته خير من الخروج عليه لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء). فتح الباري 13/7

يقوم منهج الشيخ البوطي في تذكير السلطة بما عليها ونهيها عن غيها بالمناصحة سراً، فهو يرى أن تعاليم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تصب في وجوب النصح للحاكم عنده وبمحضره.

ثبت في مسند أحمد والسنة لابن أبي عاصم ومستدرك الحاكم قال (صلى الله عليه وسلم): "من أراد أن ينصح السلطان بأمر فلا يبد له علانية، ولكن ليأخذ بيده فيخلو به فإن قبل منه فذاك، وإلا كان قد أدى الذي عليه" وانتهوا إلى قوله كان قد أدى الذي عليه.

وهذا لأن النصيحة في الملأ تعطي نتائج عكسية وربما أدت إلى قتل الناصح وعدم سماعنا لنصح البوطي للحاكم لا يعني أبداً أنه ساكت أو مؤيد.

وقد تجلى منهج البوطي الاصلاحي في التعامل مع السلطة من خلال **نقاشه الشيخ القرضاوي رحمهما الله تعالى واستبقاء الاحترام ولغة الحوار:**

يقول د. البوطي رحمه الله تعالى : هنا يضطرني الحال والعمل على سد الثغرات أن أقول شيئاً عن أخينا فضيلة الشيخ يوسف القرضاوي، أنا لا أشك بفضل هذا الإنسان وعلمه وأنا أعرفه عن قريب، وبيني وبينه مودة أيضاً، نعم ، لكن عجبت جداً جداً للطريقة التي اقتحم فيها ما قد رآه يعني طريقة إصلاح لما يراه فساداً في هذه البلدة ، اعتقد أنه رجل علم، يعني يعلم الشيء الذي ذكرته الآن، يعلم أن:

باب إصلاح الفساد من وجهة نظر الدين هو ما قد ذكرته لكم .

يعلم ما يقوله بيان الله ويعلم أن الطريقة الغوغائية ليست هي الطريقة التي تصلح الفساد، الطريقة الغوغائية هي التي تفتح أبواب الفتنة.

نعم العزف على وتر الطائفية لا يصلح الفساد أيها الإخوة أبداً وإنما يزيد الفساد، بل ربما أقول لكم يخلق الفساد .

فأنا أعجب أن أخي الشيخ يوسف القرضاوي يعلم هذه الحقيقة، ترى ما الذي منعه وقد التهبت الغيرة بين جوانحه لمصير حقوق الإنسان والحريات والقيم في هذه البلدة، أنا لا أتهم غيرته، ما الذي منعه من أن يتوجه إلى دمشق، ولسوف يجد من يؤهلون ويرحبون به

ليجلس شريكا مع الذين جلسوا مع السيد الرئيس ويكون هو الآخر ممن يتناقشون ويتكلمون ويبحثون، ومن ثم يناله هو الآخر ثوابا من عند الله عز وجل على هذا العمل الذي تم، ما الذي منعه من أن يشد الرحل إلى دمشق وهو يعلم أن دمشق سترحب به أيما ترحيب على المستوى الشعبي وعلى مستوى المسؤولين، لماذا آثر المنبر الأول منبر الغوغاء، لماذا آثر الإثارة وهو يعلم أن هذه الإثارة لا تفيد شيئا.

أنا أسأله سؤال مستعلم لا سؤال ناقد أبدا، سؤال من يريد أن يعلم لا سؤال من ينتقد.

كانت دمشق قد رحبت به فيما مضى على أعقاب حرب غزة وكان أتيح له أن يجلس إلى السيد الرئيس، إذا امتلك فرصة ذهبية رائعة، ما دام أنه غيور بهذا الشكل سميناه على الإصلاحات ويدعو إلى إصلاح الفساد بكل ما يملكه من قوة ومن صوت و..و.. والى آخره، طيب عندما جاء وأتيح له أن يجلس إلى السيد الرئيس، **كانت مشكلة الحزب الواحد قائمة وكانت مشكلة الطوارئ قائمة وكانت مشكلة الحريات قائمة، هذه المشكلات التي يعلن غيرته عليها من خلال خطابه كانت موجودة، لكنه لم يتحدث عن شيء منها و إنما استبدل بذلك المديح الذي كاله جز افا للسيد الرئيس**، نعم استبدل بذلك الثناء والمديح وموقف سورية من فلسطين من غزة وما إلى ذلك وسمعت أنا الكلام الذي قاله ، طيب ، شيء غريب -سبحان الله - فرصة ذهبية أتيحت لك، جلست إلى جانب السيد الرئيس بشار، يقول لي، كال لي المديح جزافاً، طيب هلا ذكرته يا أخ، ذكرته بهذا الإصلاحات التي تثور من على منبر صلاة الجمعة عليها، تثور وتثير من أجلها، الآن تثير مشاعر الطائفية وتضرب على وتره وبالأمس أتيح لك أن تأمر بالمعروف وأن تنهى عن المنكر وأن تتخذ لنفسك شهادة أو شاهداً بين يدي الله يوم القيامة، لماذا لم تفعل، ما فعل ذلك، إذا أيها الإخوة هذا المنهج الذي ذكرته لكم فيما يأمر به الدين وفيما يأمر به المنطق وفيما يدل عليه التجربة، هو هذا الذي ذكرته لكم، وأكبر دليل وشاهد على أنه هو السبيل المجدي والأمثل ما قد ذكرت لكم الآن، والآن كما يقول المثل العامي (الحبل على الجرار) الإصلاحات تتم، موضوع القناة الفضائية الدينية لم تكن في خاطرنا ولا في خاطر الذين جلسوا إليه بالإصلاح وإنما هي غاية تمثلت في ذهني، أنا واحد من أبسط وأدنى رجال العلم في هذه البلدة، والله في دمشق علماء أعلم يقينا أنهم من الأولياء المقربين

وأنا أتقرب إلى الله بتقبيل أيديهم وأرجلهم، نعم، لكن أنا كنت قلت بالأمس الدابر في أواخر شهر شعبان : أراني الله عز وجل رؤيا، وكلّفت بإبلاغها، وقلت: إن هذه الرؤيا تقول إن غضبة إلهية وافدة ستأتي.

نعم ، فيا ناس عودوا إلى الله، وصادف ذلك بث مسلسل ما ملكت أيمانكم، في رمضان كل ليلة تتم السخرية بالقرآن من خلال مسلسل ما ملكت أيمانكم، ذكرت ذلك، وقلت هذا الكلام في مجلس اللقاء التشاوري والناس كانوا بين ساخر ومستهزئ وبين متعجب يقول: ما بال الدكتور سعيد رمضان، الرجل نعرفه رجل عمل، قد صار الرجل خرافي يحكي بالمنامات! يا أخي، شيء واجب كلفت به. ولكن ها هو ذا ظهر.

قلت ولكن هذه الرؤيا أرانيها الله عز وجل تقول إن العاقبة خير وأنها ستنتهي رأيت ذلك ولكن، علمت أن هنالك شرطاً وأبلغت الشرط أخوتنا قادتنا المسؤولين وعلى رأسهم السيد الرئيس، قلت الشرط أن نجدد البيعة مع الله:

الشرط هو أن تصطلح مع الله عزوجل، الشرط هو أن نعود فنكون حراساً لدين الله بهذه البلدة، حراساً للقيم في هذه البلدة، هذا هو الشرط ولسوف تنجلي هذه الغمة.

هذا ما ذكرته، أليس هذا هو الطريق الأجدى، ولقد رأيت التأثر، ورأيت ما يدل على تفاعل الناس، ليس فينا أيها الإخوة من لا توجد بين جوانحه الفطرة الإيمانية، قد تكون راقدة لكننا نحن المسؤولون عن إيقاظها نحن المحاسبون يوم القيامة، نعم هذه هي الحقيقة التي ينبغي أن نعرفها.

وأخيرا أقول، يعني أنا بهذا الحديث عن أخي الشيخ القرضاوي لا أغمز من قناته أبدا أعلم علمه وفضله، ولكن أحب له وهو في المرحلة المتقدمة من العمر أن يحكم ضوابط الدين وتعاليمه وآدابه في حل أمثال هذه المعضلة، بدلا من أن يحكم الظروف والمصالح الحزبية التي تدعوه آنا أن يصمت فيصمت، وتدعوه آنا إلى أن يتكلم ويثور فيثور ويثير، لا يا أخي، لا يا أخي نحن بيننا وبين القبر الذي ينتظرنا شبر أو أشبر أنا وإياه تقريباً هو أكبر مني بقليل، يا جماعة دعنا نبيض وجوهنا في عمل يرضي الله، نحكّم ديننا في هذه القضايا، لا نحكم تبعيتنا الحزبية، وغدا الباري عز وجل يكتب لنا الأجر الوفير، ولسوف يكون ذلك

سببا لصلاحنا وإصلاح إخواننا وسبباً لإزالة الفساد، وسببا لانقياد القادة لنصائحنا، القادة ينقادون لمصالحنا إن شموا رائحة الإخلاص لوجه الله عز وجل، ولكنهم يعرضون عنا إن وجدوا أننا نتلاعب وأننا نستعمل الكر والفر من أجل قضايانا ومصالحنا، هذه تتمة لحديث بدأناه قبل أسبوعين، ونختم حديثنا هذا بالدعاء متضرعين لله عز وجل .

ولنتأمل في جوابه التالي حيث ورد إليه السؤال الآتي:

سيدي الحبيب الدكتور البوطي حفظه الله ورعاه، لا أدري هل أهل الموقع لا يوصلون أسئلتي إلى حضرتكم أم أنكم لا تريدون أنتم الجواب أو أن أسئلتي ليست ذات قيمة للإجابة عنها، و لكني أقول صادقاً أن حبي واحترامي لحضرتكم هو الذي يجعلني أرسل هذه الأسئلة سيدي الحبيب طلابك ومحبيك وقعوا في ورطة كبيرة لا يدرون كيف الخروج منها قد يسأل سائل عن السبب. فأقول لكم بكل صراحة بسبب مواقفكم و أقوالكم التي هناك من يترجمها للنيل من حضرتكم بين الناس سواء كان ذاك الشخص من الموالين أو من المعارضين.

قلت لنا :

أنك تنصح أولي الأمر وأنك لست من الذين يحبون أن ينشروا نصائحهم لهؤلاء الناس، فقالوا: ولكنك سيدي تنصح الناس جهراً على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جعله المولى أمانة لديك.

فإن قلت:

أنا أنصح من هم أمامي وهم العامة من الناس.

قلنا: إن لم يكن أولو الأمر أمامك أيضاً يحضرون نصائحك فإنهم يستمعون عبر أثير الإذاعة أو التقارير المكتوبة على الخطبة وما جاء فيها.

فإن لم يكن هذا أو ذاك أي لا يحضرون خطبة جمعة ولا يستمعون لما يجيء بها فهم لا يستحقون ولائك وزودك عنهم أمام من يرى ما يفعلونه.

سيدي الحبيب سامحني على الإطالة، إلا أنها نفثة مكلوم ببلاده علماء وساسة، وللحق سيدي أن أكثر كلمة أثارت الناس وأوقعتهم في حيرة هي قولك عن المتظاهرين أنهم حثالة،

فقد أستكبر الكثيرون هذه الكلمة وخاصة إذا كانت بعيدة عن الواقع بعض الشيء. المحب: مواطن سوري هداه الله على كتبك ودروسك.

وهذا جواب الشيخ البوطي :

لو حدثتك عما قلته وأقوله في المجالس الخاصة لكبار المسؤولين مما يدخل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بصورة عامة وبمسائل خاصة، والتذكير بضرورة التوبة.. إذن لأهدرت ثوابي عند الله إن كان لي على ذلك من ثواب عنده فلماذا تحرجني؟

على أني أقول: عندما يصلح أن يكون المنبر العام أداة تبليغ للخاصة، وتكون الفرصة مواتية لذلك، فلا حرج من استعمال المنبر لذلك، وأضرب لذلك مثلا يوم دعا المسؤولون ممثلا في وزير الأوقاف إلى الاجتماع لإقامة صلاة الاستسقاء، فقد كانت تلك الدعوة فرصة مناسبة للتذكير بالمعاصي التي لا تفيد معها تلك الصلاة، وقد أعلنت عندئذ ذلك للناس مبينا عذري في اليقين بأننا لن نجد استجابة من الله، أعلنت عن التجاوزات التي تقع في وزارة التربية وتسريح المنقبات والترحيب بمسلسل «ما ملكت أيمانكم» وما فيه من سخرية بكتاب الله وشرعه. ولكن فلتعلم أن ذلك كان حديثا مرتبطا بميقاته، وبياناً جاء اعتذاراً عن الاستجابة لدعوة.. ولتعلم أن الجو لم يكن آنذاك مشحوناً بعوامل الخروج إلى المسيرات وتصادم الأفعال مع ردود الأفعال...إنني لو ذكرت بمثل تلك الأمور اليوم على ملأ من الناس لتسبب عن ذلك هياجات لا ضابط لها من عقل ولا شرع، ولكانت نتيجة ذلك أعداداً من القتلى أنا أتحمل عند الله مسؤولياتهم، ولجاءت هذه التذكرة بالشر بدلا من أن تأتي بأي خير.

وإني لعلى يقين بأن كلامي هذا لا يجهله أي عاقل، منصف، ولكن يتجاهله المفتئت على شرع الله أولا وعلى مدارك العقل ثانيا، والمستجيب لعصبيته ثالثا.

تجاوز د. البوطي الخطوط الحمراء وتقدم نحو المحظور الأمني فوقف مع الناس ودمهم المسفوح حيث صلى صلاة الغائب على الشهداء الذين قتلهم النظام في درعا، ووصله السؤال التالي:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته إلى فضيلة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي حفظه الله:

هل الشهداء الذين سقطوا في درعا والذين صليت عليهم صلاة الغائب في جامع الإيمان ليسوا شهداء أخذا بالحديث من قاتل تحت راية عمية، وإن كانوا شهداء فما الذي يميزهم عن من مات بعدهم الجميع لم يكونوا يقاتلون؟

أفتى الشيخ البوطي:

هؤلاء لا يتمتعون بالشهادة بمعناها الخاص، وهو سقوط المسلم قتيلا في معركة مع الكافرين تحت قيادة شرعية، وهم لا يغسلون ولا يكفنون.. ولكننا نرجو أن يكرمهم الله بأجر الشهادة بمعناها العام شأنهم كشأن المبطون، والميت حرقاً، ونحو ذلك، وهؤلاء حكمهم في التجهيز كحكم غيرهم.

ومن أراد أن يشاهد مقطع الصلاة فليكتب على محركات البحث على النت (غوغل): (دعاء الدكتور البوطي بحرقة وبكاء لسوريا وصلاة الغائب على شهداء سوريا يوتيوب تجدون الصلاة في آخر دقيقة من المقطع).

▹ **كذبة أن الشيخ يجيز السجود على صور بشار الأسد وفي موقع آخر حرق كتب البوطي لأنه أجاز السجود على صور بشار الأسد .**

وهذا تحريف وكذب وتشويه وانحطاط أخلاقي وديني، فإنه قد جاءه:

س1 . السؤال على الشكل التالي: المجبر على السجود على صورة بشار إذا نوى السجود لله له أجر بدل الوزر:

س 2. نحن نقطن في منطقة دوماً، لما اجتاح الأمن والشبيحة المنطقة دخلوا على البيوت ومنهم بيتنا وقاموا بإجبارنا على السجود لصور الرئيس بشار الأسد علماً إننا لم نشارك في أي مظاهرة مناوئة للنظام وخوفاً من القتل قمنا بالسجود للصورة فهل نحن آثمون وهل يجب علينا دفع كفارة؟ ولكم جزيل الشكر والاحترام ونريد منك أن:

تدعو لنا بأن يزيح الله الغمة عنا وعن سوريا الحبيبة.

جواباً عن سؤالك المحدد أقول لك: اعتبر صورة بشار الموضوعة على الأرض بمثابة بساط، وقف عليه ثم اسجد فوقه لله عز وجل. يكتب الله لك أجر السجود له بدلا من الكفر.

أقول وقد ورد حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأكثر من هذا فقد جاءه الصحابي عمار بن ياسر وأخبره أن المشركين قد أخذوه وعذبوه حتى يسب الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويذكر آلهتهم بخير ففعل ذلك فقال له كيف تجد قلبك قال: مطمئن بالإيمان فقال: إن عادوا فعد، ونزلت الآية ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾(النحل/106) وللعلم فإن العلماء قبل أن يخلق البوطي قد أجازوا الصلاة على بساط فيه صورة وهو موجود في الكتب الفقهية لأن الصورة حينئذ مهانة فكيف إذا كان الشخص مجبرا؟

وما رأيكم أن نقول:

إن الذي أُجبر على السجود للصورة وسجد، صار كافراً؟!

أهكذا تريدون أن يفتي؟! هل رأيتم الفرق بين العالم والجاهل؟!

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

وفتوى السجود على الصورة تجدونها للإمام الزركشي في كتابه إعلام"الساجد" في أحكام "المساجد": يا سيدي في حالتين فقط يجوز السجود على الصورة في حالة الإكراه المادي الناتج عن قوة قاهرة وفي هذه الحالة لا يحاسب الشخص على المعصية والحالة الثانية وهي الصلاة على الصورة في حال عدم وجود سجادة أو ما يشابهها لأن النية هنا موهوبة كليا للصلاة الفريضة لا للصلاة على الصورة».

للكذب إقبال مجدي وللعلم إدبار مكدي

رأى والدي رحمه الله تعالى قبل وفاته بثلاثة أو أربعة أشهر، شخصاً وكأنه موفد من جهة رسمية وقد حمل بيده حقيبة وبدت عليه ملامح الأناقة والجدية جاءه إلى بيته وفتح الحقيبة، وقال له: هذا مصنفك وأحب أن أخبرك أن طلبك قد تم قبوله، والقضية مسألة وقت إن شاء الله.

استيقظ والدي وأخبرنا، برؤياه تلك ثم فسرها بأحد التفسيرين إما الفرج العام، أو الفرج الخاص له. وفصل ما أجمله فقال لنا:

إما أن الفرج أصبح قريباً، وأنا منذ بداية الأحداث أدعو الله بالفرج.

أو أن الأجل بات على مقربة، لأنني دائماً أطلب من الله أن يجعلني شهيداً في سبيل الله، فهو إما فرج عام، أو فرج خاص لي.

ثم أعقب ذلك بجلاء حقيقة موقفه فأسمعنا العبارات التالية: إن الأجل قريب، وأنا في مسألة أحداث البلد، في كل يوم أراجع الأحكام الفقهية وأدرسها بعمق، لعلي أكون مخطئا فيها، لعل هناك رأي أمثل من رأيي، أبحث في كل يوم حتى أطمئن أني لست مخطئا.

ومع كل هذا البحث، أرجو أن أكون قد سلكت الطريق الذي يرضي الله سبحانه وتعالى في هذه المسألة.

يا أولادي لي طلب أخير ورجاء:

لا تحملوا أي حقد على من خالفني في الرأي، سواء من كبار أهل البلد أو من العلماء والمشايخ.

وكونوا حذرين في كلامكم عنهم فقد بلغني أنكم تتكلمون كلاما غير لائق بهم.

هؤلاء هكذا اجتهدوا، وأنا هكذا رأيت، لا أريد أن نجعل من ذلك خصومة وحقوقا بيننا وبينهم، وهذا التعامل لا أراه لائقاً.

هذا موقفهم واجتهادهم، وأنا أجتهد وأبحث في موقفي وهكذا رأيت، لم أجد أنه خطأ، بل أقرب شيء إلى الصواب، وغيري أيضاً اجتهد في رأيه، ولا أريد أن نتطاول على أحد من إخواننا.

د. عبد الرحمن البوطي [1]

1- من مقابلة معه أجريتها في بيت د. عبد الرحمن البوطي.

الشائعة ودواعي القتل

كان الخط البياني للثورة صاعداً، فاضطر بعض شباب الطوائف الباطنية ممن ينتسبون لكلية الشريعة للمداهنة والمصانعة فسقوط النظام مسألة وقت كما كان الناس يظنون، فجاء شاب درزي وطلب لقاء ضروريا مع بعض أساتذة الكلية ممن يعرف عنهم تعاطفهم مع الثورة.

قال: هناك شخصية دينية كبيرة ستقتل، وأظنه الدكتور البوطي.

طلبنا منه إيضاحات فالدعوى كبيرة.

قال بعد تمنّع وتلكؤ:

في اجتماعات مغلقة وسرية طلبوا منا - وكان شخصية مقربة جداً من فرع الحزب ومن فروع المخابرات كافة- توقّع ردات الفعل على قتل شخصية دينية مهمة، ثم ختم اللقاء بضرورة أن نحذر الشيخ البوطي.

طلبنا من زميل لنا أن يجلس مع ابنه د. توفيق ليصارحه بما سمعنا حرصاً على حياة شيخنا، كانت ردة الفعل غير متوقعة، ثار الابن وهاج وغلي الدم في عروقه يريد أن يعرف هذا العميل الحقير الماسوني الذي افترى هذه الإشاعة المغرضة بغية الفتنة والإساءة للدولة، لا بد أن يبلغ عنه الأمن لينال جزاءه العادل، ندمنا _أشد الندم _ على ما حصل، وصار أعظم الرجاء أن يسكت توفيق وتنتهي القصة بسلام ووئام.

بعد أيام معدودة قرأنا الخبر الآتي:

(العصابات الإرهابية الجبانة اغتالت الشيخ البوطي) كانوا ينقلون للناس خبراً وكنا نعتقد أنهم يصفون أنفسهم)[1].

إن غضبة الشيخ د. توفيق[2] مفهومة وذلك لأن تلك الرواية التي ساقها د. ثائر تمس رأس العائلة والوالد والشيخ والمعلم بالنسبة للابن وهذا أمر كارثي بكل معنى الكلمة إن صح .

1- يذكر د. ثائر الحلاق هذه القصة وأسوقها كما هي.

2- د. توفيق رمضان البوطي سبق وأشرنا إلى أنه النجل الأكبر للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، رحمه الله تعالى وقد شغل مناصب عديدة وللشيخ توفيق خصائص نفسية وفكرية خاصة تفترق عن والده، وقد لحق به الابتلاء من النظام ومن الثورة فقد فقد صهره السيد خالد الشالاتي رحمه الله بعد وفاة الشيخ سعيد رمضان البوطي بشهر حيث اعتقل واعلمت أسرته بوفاته عام 2020 وكذلك نالت يد الغدر ابن د. توفيق أ. أحمد رحمه الله الذي اغتيل مع جده د. البوطي .

ربما يخال البعض أن ردة فعل د. توفيق غير منضبطة إلا أن موقفه مزيج من الألم والحرقة وعواطف الابن المشروعة في الدفاع عن أبيه ولربما أراد أن يشعر السلطة أن تدبير المكيدة قد كشف.

وفي جانب آخر إن انفعال د. توفيق يعد حالة طبيعية وذلك لسيطرة الخوف المزروع في بنية النخب والأكاديميين مما منعه أن يتقبل هذا الفكرة.

لكن قد يتبادر سؤال لماذا تفكر الدولة في اغتيال د. البوطي مع أنه بقي داخل البلد ولم يقف مع الثورة بشكل مباشر؟

وللجواب لابد أن نفهم أن الدولة كانت على علم مسبق أن البوطي لن يستطيع السير في مساربها الدموية ولن يشرعن قتلها، وكان الشيخ مصراً على عدم مغادرته البلد فلعله حسب رأيه يسهم في وأد الفتنة والدم حيث كانت نظرته إلى البلد مبنية على الترابط الأسري والرحم الواحدة وواجب العالم تجاه موطنه

تأملوا كلامه:

طلب مني أن أخرج من هذا البلد، المسكن موجود، المسكن الفاره موجود، العربة موجودة، الأسرة أيضاً ممكن أن أطمئن إلى مصيرها، لكن ما الذي منعني من الاستجابة؟ أنا لا أعيد المسألة إلى بطولة فيّ، والله أنا ضعيف، نعم أنا ضعيف ، ولكن الله عز وجل هو الذي لطف بي ، أشعرني بأنني في هذه المرحلة إن تركت هذا البلد فسيكون شأني كشأن أب له أهل وأولاد وأحفاد يتركهم إلى حيث لا يعلم مصير هؤلاء.

هذا الموقف المتبني للبلد لا يشجعه النظام ولا تقبل به أطياف من المعارضة، وهو تصريح أيضاً يسبب حساسية مفرطة للنظام أيضاً الذي لا يمكن أن يضمن انقلاب الشيخ عليه في لحظة أو في منعطف خطير.

ولكن نعود إلى أصل الإشكال لماذا اغتالته الدولة على الرغم من عدم تأييده للثورة بشكل مباشر؟

والتساؤل يطرَح عادة على شقين:

<u>فالشق الأول</u>: يستفسر مستنكراً بحثك مؤكداً ما يتم تداوله من أن الدولة تنهي دور من يعمل معها في الوقت الذي تريده فالسطحية والأحكام المعلبة والتي تقوم على اضمحلال المعرفة وشرودها بعد وجودها، صارت أصلا حيث ساهمت وسائل الإعلام الرسمي والمعارض في تكبيل العقل السوري وتسويق صور محددة ومجتزأة حول الشيخ البوطي رحمه الله مما أسهم في إضاعة صورة الموضوع الأساسي.

وهو أن البوطي لم يكن جزءا من السلطة في يوم من الأيام بل إن البوطي رغم الهدنة الظاهرية بينه وبين النظام.

كان رحمه الله سبباً في العفو عن عدد من السجناء السياسيين حيث طلب ذلك من الحاكم وتحدث مع النظام حتى قبل وجود المظاهرات عن مشكلة الحريات وعن مشكلة الحزب الواحد واستنكر من الحكومة عرض بعض المسلسلات الفنية مثل ما ملكت أيمانكم وبعض المقاطع في مسلسل بقعة ضوء ورفض منع الصلاة في بعض قطع الجيش وقال : أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى في أحد دروسه و رفض تسريح الحكومة مئات من المنقبات من وزارة التربية وكذلك العبث بمناهج التربية الإسلامية ولا سيما في المدارس الخاصة بل انتقد قرار وزير الداخلية بعدم السماح لمدير الفندق بسؤال النزلاء عن عقد الزواج إذا اصطحبوا نساء معهم.

وكان قد أثنى على خطبة الشيخ أحمد معاذ الخطيب الشهيرة والتي كانت بعنوان رسالة مفتوحة إلى معسكرات شبيبة الثورة .

<u>والشق الثاني</u> من السؤال المشكل يبحث في تنقية الموجود والبحث عن الحق المفقود حيث هنا تكمن المشقة ولذة البحث في طرائق استحضار القطع المخفية والمعارف الموجودة الكامنة، والرد على الشائع الكاذب.

لعب النظام وسدنته وساندته أبواق المعارضة على التخلص من الشيخ البوطي رحمه الله ، وأما النظام فقد كان كرهه للبوطي رحمه الله تعالى مبنيا على رؤية أمنية للتعامل مع المواطنين أولا ومع أهل العلم والدين ثانيا حيث اعتاد الأمن امتطاء الجميع ومن شذ يحكم عليه بالإعدام المعنوي أو المادي.

والبوطي رحمه الله كان على دراية بالخطوط الحمراء وكان على وعي باللحظة الراهنة واستحقاقاتها وقرر خوض ثورته، ولكن على طريقته حتى إنه طرح مبادرة وبين ملامحها ونادى بإنهاء سلطة الحزب الواحد والفساد الاقتصادي وبقي في البلد، وعمل على ملء الفراغ ولأنه ليس كما يريد النظام، ولأنه بات يشكل ممانعة حقيقية ضد استباحة الدم السوري كانت المكيدة له مدبرة من قبل النظام واستصدر قرار اغتياله.

وكان يتحرى في مواقفه الصواب حسب رأيه فزلة العالم كالسفينة تغرق ويغرق معها خلق كثير. [1] نعم البوطي رحمه الله لم يرفع علم الثورة، لكنه لم يقف ضد مطالبها ولم يقبل تغول السلطة وكان مع الانتصاف للشعب كما لم يكن سلاحاً بيد السلطة ورفض وبشدة المساس بالناس وحارب التنظيمات المتطرفة التكفيرية

يقول د. البوطي على لسان التكفيريين، بل رسالتنا هي أن نقتلع الإصلاح ونغرس بدلاً منها الإفساد، نفجر أنابيب النفط والغاز، نحرق الأفران كي لا يصل الجائعون إلى لقمة عيشهم، نسد ينابيع المياه كي لا يصل الظمآن والعطشى إلى جرعة شرابهم، نغتصب البيوت من أصحابها، نأمر الأسرة كاملة أن تخرج من بيتها الذي تمتلكه وإلا سيحرق عليها أو يهدم على رأسها، وكل ذلك يتم باسم ماذا؟ باسم الإسلام باسم الجهاد في سبيل الله .

ننظر يا أيها الأخوة فماذا نرى، نرى مخلوقات عجيبة لا عهد للإنسانية بها قط، تنطق بشعارات الإسلام تتزيى بزي الإسلام، ترفع لواء الجهاد في سبيل الإسلام، ثم إنها تمعن ذبحا وتقتيلا في البرآء المسلمين باسم الإسلام. ننظر وإذا بها تهجر الناس من بيوتهم كما قلت لهم باسم الإسلام.

1- أدب الدين والدنيا ج.1 ص 121

ننظر وإذا بهذه الثلة من الناس ترسم الإسلام من خلال هذا العمل على أنه شيء مرعب أسود قاتم جهنمي يثير الاشمئزاز ويثير الرعب في أفئدة الناس.

حارب الشيخ على جبهات ثلاثة:

- عواطف الناس وضرورة لجمها.
- توحش النظام وضرورة منعه من الاسترسال في البطش.
- التكفيريين والحول دون تمكنهم من الإساءة للبشر والدين.

وظل الشيخ داخل البلد يتحرك في إطار لا يريح النظام حتى وإن لم يعلن محاربته له أو الدعوة لإسقاطه ولكن الطلبات المتتالية والشروط والمبادرات المتعاقبة شكلت خطاً مزعجاً ضد النظام وكتلة حرجة، ولذلك قرر النظام تصفيته حيث كانت السلطة تعلم مسبقاً أن عالماً كبيراً مثل البوطي لن يبرر لبشّارَ الأسد إجرامِه، ولن يدعم تصفية شباب الثورة وكثير منهم من روّاد مسجده وطلّابه .

ولننظر في دواعي الاغتيال:

أرادت الدول المتسيدة على العالم حرق أكبر خزان بشري متاخم للربيب الغربي وتدمير ذاكرته وتاريخه فاستثمروا الواقع الاستبدادي وثورة الشعب عليه وقاموا بشطب سوريا من الخارطة العالمية بطريقة خبيثة ومقاومة أي رأس في الداخل السوري يدعو إلى حل وإلى إيقاف شلال الدم فصدر قرار عالمي بقتل د. البوطي كجزء من هوية المجتمع أما دواعي القتل فهي تعود لمواقف الشيخ والتي تتمثل في التوقف ثم المواجهة وهذه مواقفه التي غيبتها المعارضة وحال النظام دون نشرها .

د. البوطي يفتي بحرمانية استهداف المتظاهرين ومنع العسكر من إطلاق النار.

ورد إلى الشيخ البوطي هذا السؤال على موقعه نسيم الشام:

شيخي الفاضل أنا جندي في الجيش السوري وقد اختلفنا مع بعض هنا في حال إذا أمرنا الضابط المسؤول عنا بضرب المتظاهرين بالرصاص الحي هل نمتثل للأمر أم لا؟ وللعلم فإننا إن لم نقم بضرب المتظاهرين سنقتل حتما ونريد جواباً شرعياً فكلنا نثق بعلمكم لنعرف كيف نتصرف نرجو الجواب بأقصى سرعة.

أجاب الشيخ :

نص الفقهاء على أن الملجَأ (قلت أي المجبر) إلى القتل بدون حق لا يجوز له الاستجابة لمن يلجئه(قلت أي يجبره) إلى ذلك، ولو علم أنه سيقتل إن لم يستجب له. ذلك لأن كلا الجريمتين في درجة الخطورة سواء، ومن ثم فلا يجوز للملجَأ إلى القتل تفضيل حياته على حياة بريء مثله.

د. البوطي يرفض أي دم في سوريا سواء من الدولة أو المعارضة:

ورده السؤال التالي على موقعه:

إلى أين تذهب سوريا، أفتيت لأحد المتسائلين أنه لا يجوز قتل المتظاهرين، لماذا لا تظهر على التلفزيون وتعلن وتكرر هذه الفتوى والله لو أعلنت هذه الفتوى على شاشة التلفاز لحقنت الكثير من الدماء في سوريا.

أجاب الشيخ البوطي:

قلت هذا من قبل، وقلته في آخر حديث تلفزيوني لي. ألم تسمع استشهادي في هذا بقول رسول الله « وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أمَتِي يَضْرِب بَرَّهَا وَ فَاجِرَهَا، ولا يتحاشا مؤمنها، وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ بِعَهْدِهِ، فَلَيْسَ منْ أمَتِي» (رواه مسلم وأحمد) هل هنالك تحذير وتحريم لما ذكرته من قبل أوضح و أقوى من هذا الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أقول هذا الكلام للمسؤولين ولغيرهم.

د. البوطي يلزم العسكر بالتوبة وعدم قتل أي متظاهر

ورده السؤال التالي: فضيلة الشيخ الحبيب أنا مجند في الجيش السوري أطلقت النار على بعض المتظاهرين، بعد صدور الأوامر، فلا أدري من قتل ومن جرح، غير أني منذ ذلك الحين في عذاب وضيق صدر لا يعلمه إلا الله، حتى تأتي أفكار ولم أعلم بفتواكم في حكم الجندي الملجأ إلى القتل إلا مؤخرا. سؤالي: تطاردني الكوابيس المفزعة ليل نهار، وتفكر النفس كثيراً بالانتحار، هل يجب أن أقدم نفسي للقصاص، أم يجب علي الدية مع العلم أني لا أعلم من قتلت أو جرحت، أم ماذا أفعل؟

أجاب الشيخ البوطي :

هوّن الأمر على نفسك، فإن ربك عزوجل أرحم مما تتصور. تقول: إنك لا تعلم من قتل أو جرح من جراء إطلاقك النار، فإذا كنت تقصد أنك لا تعلم هل كان ما أقدمت عليه سبباً لجروح أم سبباً لقتل، ولم تتأكد أن في الناس من قد قتل بسببك، إذن فالشرع لا يجرمك ولا يحملك جريرة القتل، لأن الأصل براءة الذمة. وفي هذه الحال يكفي أن تتوب صادقاً إلى الله تعالى، وأن تدعوا الله لمن تسببت لهم بالجروح أن يصفحوا عنك.

أما إن تأكدت أن في المصابين من قد قتل، فالمطلوب أولا إعطاء الدية لأولياء المقتول، ونظرا إلى أنك لا تعرفهم، فالمطلوب منك أن تعاهد الله إذا ظهر الشخص الذي قتلته وعرفته فستعطي ورثته الدية التي يطلبونها، ثم يطلب منك بالإضافة إلى هذا أن تصوم شهرين متتابعين، فإذا علمت أنك لا تطيق ذلك، فينبغي أن تخرج عن صيام كل يوم قيمة وجبة طعام لفقير من أوسط الوجبات التي تتناولها في بيتك. وكن على يقين بعد هذا بأن الله قد عفا عنك وغفر لك ذنبك و إياك أن تعود.

قلت :لقد نهى عن القتل نهياً صريحاً وأوجب على التائب من القتل دفع الدية .

د. البوطي يدعو إلى الانشقاق عن العسكر إذا تحول إلى آلة قتل

ورده السؤال التالي: أنا كنت في صفوف الجيش السوري لغاية 2102 أكملت الخدمة الإلزامية سنة ونصف وعشرة شهور كاحتياط ولكن لم أتسرح فهربت علما أني لم أقم بالأعمال القتالية كي لا أتسبب في مقتل أحد وإلى الآن أنا فار خوفا من الفتنة والقتل هل يعتبر فرارا من الزحف علما أني هربت لأن الأمر اختلط علي واستخرت الله سبحانه وتعالى وتحت إلحاح الأهل والأقارب قررت الهرب .

أجاب عنه د. البوطي :

إن عرفت أو غلب على ظنك أنك ستكلف بقتل نفس بريئة بغير حق، من خلال وجودك في الخدمة العسكرية، ففرارك مشروع، وإن علمت أنك ستدعى إلى قتال الصائلين الذين يقصدون إلى العدوان على الأرواح البريئة أو تخريب المنازل والبنى التحتية أو اغتصاب البيوت من أصحابها، فالاستجابة واجبة، والفرار من هذا الواجب فرار من الزحف، وقد أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح أن من قتِل دون دمه أو ماله أو دينه فهو شهيد.

د. البوطي يفتي بهدر دم المعتدي على العرض من جيش الدولة أو الأمن.

ورده السؤال التالي: السلام عليكم فضيلة الدكتور بارك الله لنا بكم وحفظكم وأمد في عمركم فضيلة الدكتور أنا من قرية الزيارة التابعة لجسر الشغور سيدي الفاضل الفقير لم يكن يوما مشاركا في مظاهرات ولن أشارك ولكن سيدي دخل الى بيتنا الجيش بعملية تفتيش وفتشوا الرجال والنساء وحتى الأطفال كان تفتيش النساء بطريقة مهينة ووضع أيديهم على أجسادهن ولمس أماكن العورة أمام أعيننا أخي لم يستطع التحمل وهاجمهم بيده فما كان منهم إلا أنهم قتلوه فهل يعتبر شهيداً فنرجو منكم توجيه رسالة الى الجيش مع العلم أن قريتنا عشائرية وقد أقسموا اليمين على أن يأخذوا بالثأر جراء ما فعل الجيش بحقهم نرجو منكم التبيين سيدي فإننا نثق بعلمكم ولكم جزيل الشكر .

أجابه الشيخ البوطي :

إن هذا المجرم الذي تجاوز حدّ وظيفته إلى ممارسة عمله الغريزي صائل ولو أن أخاك عاجله وكان هو القاتل له، لكان دمه (أي الجندي) في شريعة الله هدراً ولتعلم يا أخي أن مثل هذه الأعمال يدعى إلى القيام بها أناس لم يتلق كثير منهم تربية فكرية أو سلوكية، بل لا يخلو حشدهم من أراذل أصحاب الموبقات، ومن ثم فلا بدّ أن تتعرض البيوت الآمنة أو بعضها لشيء من هذه الجرائم المؤسفة.

لم يتوقف البوطي رحمه الله عند ذلك الحد فوقف د. البوطي ضد إجرام النظام وحرم قتل المتظاهرين، وحرم على الجندي قتل المتظاهرين، حتى لو قتل.

الشيخ يرفع مستوى المطالبة: لا علمانية ودولة مدنية إسلامية.

سارع الشيخ رحمه الله إلى تذكير المسؤولين بعدم ترسيخ مفهوم العلمانية الاستئصالية فقال :

الوصية التي أوصي بها نفسي وأوصي بها قادة هذه الدولة التي تتمتع بعناية ربانية متميزة هي أن نزداد تمسكا بالعهد الذي قطعناه على أنفسنا مع الله وأن يزداد رسوخنا في يقيننا بأن الذي حمانا وأنقذنا هو الله سبحانه وتعالى وأن نعلنها دولة إسلامية مدنية فأنا لست ضد الدولة المدنية لأن الإسلام هو الذي نقل العرب من البداوة إلى المدنية ، لكن أقولها :

دولة إسلامية مدنية وأرجو أن يستخرج بعض الإخوة من رؤوسهم حلم العلمانية واللادينية وما إلى ذلك، إن فعلوا ذلك وإن نجحت مساعيهم في ذلك فلسوف تعود الأزمة إلينا بأشد مما بدأت.

الشيخ يصف من وقف مع الثورة بالمجتهدين رغم عدم صواب موقفهم حسب رأيه فنراه يقول:

هنالك إخوة لنا اجتهدوا في الأيام الأولى لهذه الأزمة فانشقوا ثم اجتهدوا كما قلت الآن فتسلحوا ثم إن الأزمة مع مرورها وتحولها إلى حرب معلنة علينا تحولت المسألة إلى حقيقة واضحة غير خاضعة للاجتهاد فالمظنون بهؤلاء الإخوة الذين اجتهدوا بالأمس واتجهوا هذه الوجهة حسب اجتهادهم المظنون بهم أن يقطفوا ثمرات هذه المأساة التي نمر بها وأن يعلموا أن المسالة ليست عبارة عن دعوة إلى إصلاح وليست دعوة إلى تقويم اعوجاج وإنما هي حرب معلنة أعلنها الغرب المجرم بشطريه الأوروبي والأمريكي على هذه البقعة من عالمنا العربي والإسلامي والهدف البعيد من وراء ذلك بل القريب بناء على الخطة المرسومة لها تقسيم هذه الدولة إلى دويلات بل تقسيم سوريا إلى لقيمات تؤكل ثم تصبح أثرا بعد عين .

المطلوب والمنتظر من هؤلاء الأخوة أن يفتحوا أعينهم على هذا الأمر فيعودوا إلى إخوانهم ويعودوا إلى الخندق الواحد مع الجيش ومع الشعب ومع قيادة هذه الدولة، ونعم وأن يعلموا أن الأمر لم يعد بأيديهم وإنما الأمر أصبح بيد هؤلاء المرتزقة هذه الجيوش الآتية من الخارج وهذه الجيوش التي لا تنظر لهم إلا على أنهم أعداء، وإن استمكنوا منهم فسوف يكونون أول من يطبقون فيهم عقاب الإعدام والقتل كما يتصورون باسم الجهاد.

هذا الكلام الذي في ظاهره انتقاد للأحداث إلا أنه يحمل إلزاميات للدولة بما لا تطيقه فسلطة تقوم على اغتصاب النساء والتنكيل بالمعارضين وقتل الأطفال وتدمير المدن لن تقبل بعفو ومصالحة. تركه الباب مفتوحا للاجتهاد في الموقف من السلطة السورية:

لم يجد البوطي نفسه في حرج من موقفه وهو رفض الدم من أي جهة والوقوف مع أمان بلاده لا مع الأمن ورجالاته ولكنه مع ذلك فتح الباب لغيره وهذا يعني قبوله أن يخرج أيضاً من الباب الذي تركه مفتوحا وأن يدخل من خرج منه دون أي مساءلة يقول د. البوطي :

كثيرون هم الإخوة، يعني المحبون الغيارى على الحق وعلى الناس الذين يثقون بهم، يرسلون إلي أو بالهاتف أو يخاطبونني شفاها.

يقولـون: كثير من النـاس يتهمونني لمواقفي السـابقة في الـدرس الخـاص الـذي ألقيتـه في هـذا المسجد قبل ثلاثـة أسـابيع أو أربعـة أسـابيع، يقولـون: هـؤلاء يتهمونك بالضلال وبالكفر وبالجهالـة، ومـا إلى هنالـك، ويفنـدون موقفـك إلى آخـره و.. و ... إلخ .

طيب ما موقفك من هؤلاء الذين يقولون هذا الكلام؟

البعض منهم يحبون أن أرد عليهم حتى أشفي غليلهم فهم يعلمون ويحسنون الظن بي أنني قلت كلام حق .

البعـض منهـم يتصـورون أن كلام هـؤلاء في بعـض المواقـع أو في بعـض الأجهـزة ربمـا يجعـل بعـض الشـباب يرتابـون ويشـككون في كلامـي فينبغـي أن أعـود فأبين وأوضـح.

هنا أحب أن أجيب:

- **النقطة الأولى** :

أنـا بوسـعي أيهـا الإخـوة والحمـد لله قـد أوتيـت لسـاناً بينـاً، وقـدرة بالغـة على التعبير، وقـدرة على حَوْك الكلام، أنـا كنـت ولا أزال قـادرا عندمـا أتكلـم في المناسـبات الجماهيريـة المختلفـة أن أرضي النـاس كلهـم، أسـتطيع، أسـتطيع أن أرضي النـاس على مختلـف المسـتويات، لكـن هـذا يكلفني شيء غـالي جـداً، يكلفني أن أصبـح منافقـا، المنافـق هـو الـذي يسـتطيع أن يرضي النـاس كلهـم، وأسـأل الله عـز وجـل أن يميتني مؤمنـا صـافي الإيمـان، لا أرحـل إلى الله وفي إيمـاني شـائبة من الشـوائب آمين يـا رب، هـذه النقطـة الأولى.

- **النقطة الثانية** :

أقـول لهـؤلاء الإخـوة بوسـعي أن أدافـع عمـا قلتـه وبـث في التلفزيـون أكثر من مـرة، وأن أدافـع عـن نفسي مبينـا أنني مـا قلـت إلا الحـق المتفـق مـع كتـاب الله والمتفـق مـع وصايـا رسـول الله، وأنني لسـت كمـا يقولـون، وأنني إنسـان بـريء مـن هـذه التهـم، بوسـعي أن أقـول هـذا، لكـن يـا إخوانّـا إذا قلـت هـذا الـكلام سـأرحل إلى الله غـدا بجعبـة فارغـة، ولسـوف أصبـح مرائيـاً، إذا أنـا عندمـا قلـت هـذا الحـق قلتـه مـن أجـل أن أبـرز قيمـة ذاتي ومـن أجـل أن أبـرز براءتي ممـا قـد أتهـم بـه، نعـم وهاأنـا أدفـع عـن نفسي وأقـول كـذا وكـذا، يـوم القيامـة يقـال لي إنـك قلـت وفعلـت وفعلـت

من أجل أن يقال عنك إنك ملتزم وإنك مستقيم وأنك قادر على أن تدافع عن نفسك وقد أخذت أجرك، تفضل مع السلامة، لا والله يا أخي أنا لا أريد أن ألقى الله سبحانه وتعالى خالي الوفاض بهذا الشكل أبدا، لذلك أنا لن أدافع عن نفسي أبدا إذا دافعت عن نفسي أكون قد أهدرت كل الثواب إذا كان لي ثواب .

- **النقطة الثالثة:**

هذا الموقف عدم الدفاع عن نفسي لا يخولني باسم التواضع مثلاً أن أقول ممكن والله أن أكون غلطانا، ممكن هؤلاء الأخوة الذين يضللونني ويكفرونني ويعتبرونني جاهلا، من الممكن أن يكونون هم الصادقين وأنا الجاهل، كذلك هذا غير جائز، لأن هذا إذا قلته، هنالك كثيرون يثقون بي، ومن ثَمّ مواقفهم أنا أتحمل وزرها غدا يوم القيامة، واضح كلامي ؟

كذلك إذا أردت أن أقول هم ممكن يكونوا على حق وأنا الغلطان وأدافع عنهم وأقول ممكن وممكن، ففي هذه الحالة أنا أتحمل أوزارهم يوم القيامة .

إذا ما الحل؟

الحل أن أصمت لا أدافع عن نفسي فيما قد قلت، وفي منهجي الذي التزمته وربيت عليه في بيتي وألقى الله عز وجل عليه، نعم، ولا أتحدث أيضاً مبررا مواقف الآخرين الذين يكفرون ويضللون و.. و... وإلى آخر ما هنالك.

إذا ما الموقف الذي ينبغي أن أتخذه؟

أقول لهؤلاء الإخوة الذين يلاحقونني أقول الموقف هو أن أصمت وأحيل الأمر إلى الله سبحانه وتعالى.

إما أن أكون فيما قد قلت أبتغي وجه الله، قرار الله يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾(الحج/38) وإما أن أكون قد قلت ذلك لأبرز أمام الناس قدرتي العلمية وقدرتي الكلامية وإذا جاء من يجادلني أستطيع أن أجادله وأتغلب عليه في الجدل، إذا فأنا في هذه الحالة خسرت دنياي وآخرتي .

أليس واضحاً هذا الكلام أيها الإخوة؟ نعم، هذا ما أقوله وألتزم به، نعم .

أنا عندما أدعى أن أقول شيئاً في دين الله عز وجل أقول ما قد عرفته ودرسته في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، هذا ما أقوله، والله لا أبالي برضى الناس أو بسخطهم وقد وضعت نصب عيني وأرجو أن يتوفاني وأنا ملتزم بهذا الذي يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((من أرضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس ومن أسخط الناس برضا الله كفاه الله مؤنة الناس)) رواه الترمذي وغيره

هذا مبدئي الذي أسير عليه.

يقول لي أحدهم، طيب ما موقفك من هؤلاء عم يكفروك عم يقولوا عنك كذا ..كذا .. كذا، نعم .

موقفي أيها الأخوة :

إذا كان هؤلاء الإخوة مجتهدين في دين الله عز وجل ودلهم اجتهادهم على أنني مخطئ ضال تائه لكن إن انطلقوا إلى هذا من اجتهاد أخطأوا فيه، فو الله ما على المجتهد من سبيل وأسأل الله أن يثيبهم على اجتهادهم، إذا اجتهادهم الصافي عن الشوائب جعلهم يتهمونني بالمروق بـ... إلى آخره إذا اجتهد المجتهد فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد، نقول الله يثيبهم .

أما إن كان سبب موقفهم هذا حقداً يهيمن على قلوبهم، عداوة نفسية سيطرت على كياناتهم، مصالح شخصية لا يرضى عنها الله عز وجل تسوقهم إلى ذلك، فأنا عندئذ أدعو بما دعا به سيدي الشيخ أحمد الرفاعي - أنا ما بطلع قلامة ظفره للشيخ أحمد الرفاعي- الذي أخرج له النبي صلى الله عليه ويده يده الشريفة فقبلها على مرأى الناس أدعو بما سيدي الشيخ أحمد الرفاعي: اللهم من عاداني فعاده، ومن كادني فكده، ومن بغى علي فخذه، ومن نصب لي هلكة فأهلكه.

هذا إذا كان ينطلق من حقد، من ضغينة من مصلحة ذاتية يريد أن يضحي بسبب مصلحته بالأمة كلها بالبلد كله أو بأي شيء، ففي هذه الحالة هذا هو دعائي.

أما إن كان مجتهداً فو الله ما على المجتهدين من سبيل، يخليه يحكي ما يريد ما في مانع .

أيها الإخوة أنا أحب أن ألتقي بكم كل أسبوع مرتين، خلينا نعاهد رب العالمين ونحن نرحل إليه أن لا نضع نصب أعيننا إلا رضا الله عز وجل، دعونا نشد ونحن نسير إلى الله، نخاطب الله بهذا الكلام :

فليتك تحلو والحياة مريــــرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامــر ... وبيني وبين العالمين خــــراب

إذا صح منك الود يا غاية المنى ... فكل الذي فوق التراب تـراب

نحن هكذا نخاطب ربنا عز وجل.

ومن هذا المنطلق أدعو لهذا البلد ومن هذا المنطق أدعو بالهداية للقائمين على شؤون هذا البلد، أنا ما عندي حقد، أنا عندي حب، أنا عندي ود، أحب أن يرحم الله عباده جميعا، أحب أن يهدي الله عباده جميعا، هذا هو المبدأ الذي ننطلق منه .

السلام عليكم ورحمة الله يا سيدي الشيخ سأروي لك الحقيقة الخالصة التي حدثت كما يلي: بدأت الأزمة الحالية في سورية كما تعلم و كان كلامك يبلغني بواسطة جمل وتصريحات وأنا لم أكن أسمع كلامك كاملاً بل مجتزأً وكنت قد بعثت إليك برسالة عتب إلى هذا الموقع وأشهد الله وأشهدك أني نلت من شخصك الكريم بشتائم ثم بعد ذلك سمعت وشاهدت خطبك المتلاحقة وكلامك وعقلت ما تقول وفهمته ووعيته تماما بإذن الله أدركت فداحة ما اقترفت وإني أستغفر الله عما بدر مني وأعاهد الله أن أبين هذا الأمر للمسلمين وأطلب منك العفو والسماح عما بدر مني من قول بحقك فأنت الشيخ الكريم وأنا الشاب المتسرع والله يشهد أن عينتي تدمعان ندما وأنا أكتب هذا الكلام فرجائي يا شيخ أن تسامحني بالغيب وأسأل الله أن يطيل عمرك وينفعنا من علمك ويرحمك ويدخلك الجنة وجزاك الله عنا خيراً أرجو أيضاً أن تنشر كلامي عسى أن يقرأه أحد الغافلين فينتبه إلى مراجعة كلامك كاملاً و يتبين الطيب من الخبيث والسلام عليكم ورحمة الله أحبك في الله يا شيخ و أقبل يديك.

أجابه الشيخ البوطي :

إنني أسامح كل من يخالفني الرأي عن جهل أو اجتهاد، بل أدعو الله أن يكتب له الأجر على نيته إن كان جاهلا، وعلى اجتهاده إن كان مجتهدا، أما المخالف عن عناد واستكبار فإني حتى لو سامحته، لسوف يتعرض لمقت الله بسبب استكباره ولقد تبين لي من كلامك أن مخالفتك لي كانت عن اجتهاد أو جهل، وقد تبين لك الآن ما كان خافيا عنك، فأسأل الله أن ينيبك ثواب المجتهد المخطئ في اجتهاده من قبل، وأن يثيبك الآن ثواب المجتهد المصيب في اجتهاده اليوم.. وأهنئك على جذوة الإخلاص الذي يبدو من حرارة كلامك، وأسأل الله أن يكرم الإخوة المخالفين لي بمثل ما أكرمك به من التجرد عن هوى النفس وعصبية الذات فأنتم غدا ستكونون سعداء بهذا الذي فعلتموه، أفأنتم ستكونون سعداء بالتاريخ الذي يكتب ويتحدث عن المخالب العربية التي استخدمت واستعملت لتقسيم سوريا وتحويلها إلى أثر بعد عين؟ أأنتم على استعداد لأن تستقبلوا لعنات الأجيال وهم يقرأون التاريخ .

الكتلة الحرجة والالحاح بالإصلاح

(الطريق الديني الآمن الحضاري)

لتكوين الكتلة الحرجة ضد سلطة الاستبداد، يجب اتباع الخطوات الآتية:

1 **التعريف بالمشكلة**: يجب على الأفراد أولا تعريف المشكلة ومعرفة الأسباب التي تؤدي إلى الاستبداد وتحدد نطاق العمل.

2 **الاتصال بالآخرين**: يجب على الأفراد البحث عن الأشخاص الذين يتشاركون نفس القلق حول المشكلة، ومشاركة الأفكار والمعلومات معهم.

3 **التخطيط للعمل**: يجب على الأفراد تحديد الأهداف، وضع خطة العمل و تحديد الخطوات اللازمة لتحقيق هذه الأهداف.

4 **التعبئة والتنظيم**: يجب على الأفراد تنظيم الفعاليات والأنشطة التي تدعم قضيتهم ونشرها عبر وسائل التواصل الاجتماعي و المسيرات السلمية والمظاهرات.

5 **الصمود والمر اقبة**: يجب على الأفراد الصمود في وجه القمع والاضطهاد ومواجهة كل تحدي يواجههم، كما يجب عليهم مراقبة تطورات القضية وضرورة إعادة تقييم الأهداف والخطط المعدة بانتظام.

يمكن أن يتم تكوين الكتلة الحرجة ضد سلطة الاستبداد من خلال توفير الأدوات والوسائل المناسبة للأفراد لتمكينهم من التنسيق والعمل بشكل فعال.

كما يجب أن يتم تنظيم الفعاليات والأنشطة بطريقة شاملة وإجراء حملات توعية لتوسيع الدائرة الداعمة لقضية الكتلة، ويجب على جميع الأفراد الالتزام والتقيد بالقوانين والقيم الأخلاقية في كل ما يقومون به من أجل قضيتهم.

يقول د. البوطي في خطبة الجمعة 2/12/2011:

وبعد فإننا لسنا ممن يغمضون أبصارهم عن الخطأ بل كنا ولا نزال نراقب أنفسنا ألا نخطئ، كنا ولا نزال ننبه إخواننا وقادتنا إلى الخطأ، لكن الخطأ الذي لم نره لا يبرر أن نضع على أعيننا أقنعة تعمينا عن رؤية المؤامرة القذرة التي أطبق على تحقيقها والتخطيط لها والتنفيذ له أعداء الله عز وجل وأعداء دينه في العالم أجمع، هذه الأغلاط مهما كبرت لا تبرر أن نتعامى عن مؤامرة ما أعلم في العالم كله، في تاريخ العالم الإسلامي كله مؤامرة أخطر من هذه التي تطرق اليوم أبوابنا .

مسلك الشيخ يتجلى في التخفيف عن الناس وتجنب الصدام المباشر وتحييد سوريا من مخططات كبرى كما يظهر في كلامه.

قامت العلاقة بين النظام والشيخ بعد الثورة على الحذر المتبادل أو الود المتباعد والتجنب المريح.

ربما ظاهر العلاقة الساكنة بين الطرفين توحي بالسكينة إلا أن الثأر كان مستبطنا فقد أثخنت أحداث الثمانينيات في الطرفين وكانت العلاقة بين الوسط الديني والسلطة غير متكافئة وكذلك معقدة وغير مريحة، فالحياة مع النظام أشبه بالحرب، حرب مع نفسك، وحرب مع ظروفك، وحرب مع الحمقى الذين خلقوا هذه الظروف.

أظهرت الدولة ودا ظاهرياً للوسط الديني عموما وكانت على حذر وسعي دؤوب لامتطاء واحتواء، بل والإملاء إذا كان لابد من ذلك.

الناظر من بعيد يدرك عقلانية الشيخ التي كان يخالطها رحمة بشعبه وحماسة للإصلاح في مواقفه (إننا في هذه المرحلة المتأزمة في تاريخنا في أشد الحاجة إلى التوازن بين دافع الحماس ودافع الموضوعية في أنفسنا، فليس من الخير أن يسيطر الحماس على تفكيرنا دوما، كما أنه ليس من الخير أن تخلو قلوبنا من الحماس.)

كانت الدولة تريد قدر الإمكان تحييد محاور الاستقطاب الجماعي مثل د. البوطي إلا أنها تركت له مجالاً ضيقاً وعلى الرغم من ضيق المساحة إلا أنه استثمرها فكان يقوم بالأداء الأمثل في أسوء وأعقد الظروف .

لم تغير الدولة بمعسول الكلام الذي كان يقدمه الشيخ البوطي بين يدي مطالبه التي كان يلح عليها والتي كانت تلتزم التخفيف عن الناس ولجم توحش السلطة، و لا يخفى عدم اقتناع السلطة بهذا الدور الذي كان يقوم به الشيخ.

وعلى الرغم من انتقاد د. البوطي مظاهر الثورة إلا أنه رفض أن يكون جزء من النظام، بل اختط ما أسماه **(الطريق الديني الآمن الحضاري)**

وقد بدأ يشكل داخليا الكتلة الحرجة للنظام.

لتكوين الكتلة الحرجة ضد سلطة الاستبداد، لابد من خطوات منهجية .

1- بيان سبب الفساد: وهذا حسب رأي الشيخ لا يقتصر على السلطة بل على العلماء وعامة الشعب على الكل واجب التوبة .

2- توسيع دائرة التجاوب: فلم يقطع الشيخ الصلة بأصحاب القرار لكن لم يبرر لهم أي فعل خارج عن الدين وبالمقابل أكد مطالب الناس ولكن وفق أساس المطالبة العاقلة التي تتدرج وفق المكان وصولاً إلى الواجب.

3- التخطيط للعمل: حدد الشيخ مطالبه وذلك في مبادرة لم يكتب لها الانتشار وذلك لتطويق النظام لها ولسيادة الصراخ والهياج من كل الأطراف.

4- التعبئة والتنظيم: لم يمنع الشيخ رحمه الله بداية الحراك تنظيم الفعاليات والأنشطة التي تدعم الإصلاح ولكن حارب التخريب والتهجير.

5- الصمود والمراقبة: صرح الشيخ في أكثر من موضع أن الحل ليس في التبعية للنظام، ولكن ليس أيضاً في الخروج عليه،بل يجب على الأفراد الصمود في وجه القمع والاضطهاد ومواجهة كل تحدي يواجههم، كما يجب عليهم مراقبة تطورات القضية وضرورة إعادة تقييم الأهداف والخطط المعدة بانتظام. يمكن أن يتم تكوين الكتلة الحرجة ضد سلطة الاستبداد من خلال توفير الأدوات والوسائل المناسبة للأفراد لتمكينهم من التنسيق والعمل بشكل فعال.

كما يجب أن يتم تنظيم الفعاليات والأنشطة بطريقة شاملة وإجراء حملات توعية لتوسيع الدائرة الداعمة لقضية الكتلة. ويجب على جميع الأفراد الالتزام بالتقيد بالقوانين والقيم الأخلاقية في كل ما يقومون به من أجل قضيتهم.

في التعامل مع الشر:

انطلق الشيخ من مبدأ اصلاحي معروف وهو ضعف إرادة الإنسان ومن هنا ركز على قاعدة علمية بنيت على أصل ديني وهي "عمالكم أعمالكم وكما تكونوا يولى عليكم" ومبدأ آخر " اللهم لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا" من هنا كان يؤكد على تشكيل الفرد الممانع للفساد الخاص والعام، يقول د. البوطي رحمه الله:

الحقيقة أن السبب لا يكمن في وجود المنكرات في المجتمع، فإن مرد ذلك إلى ما هو معروف من ضعف الإنسان وتعرضه من جراء ذلك، لارتكاب المعاصي على اختلافها، وقد علمت أن العصمة من الذنوب إنما هي للأنبياء والرسل وحدهم .

ولكن سبب تعرض هذه المجتمعات للمصائب والمحن، سكوتها عن ملاحقة المنكرات بالإنكار، فلا الناس العامة والعلماء منهم يستعملون ألسنتهم في إنكارها والتحذير منها بالحكمة واللطف، ولا القادة فيهم يستعملون سطوتهم وإمكاناتهم التي لا تتاح لغيرهم في العمل على إزالة المنكرات وتنظيف المجتمع جهد الاستطاعة منها.

ويجب أن لا يغيب عن البال أن سكوت القادة عن منع المنكرات، منكر بحد ذاته، بل هو من أخطر المنكرات التي يتفرع عن وجودها وجود سائر المنكرات التي تشيع في المجتمع.

وإنما السبيل إلى القضاء على هذا المنكر الأم لسائر المنكرات الأخرى، توجه عامة الناس، وفي مقدّمتهم العلماء القائمون بمهام الدعوة الإسلامية، إلى أولياء الأمور، يذكرونهم علنا بضرورة العمل على تطهير المجتمع من المنكرات الظاهرة التي تشيع في أرجائه. فهذا من أهم المنكرات التي يجب على سائر المسلمين التعاون في السعي إلى إنكارها، على أن لا يخرج ذلك عن حدود الكلام والحوار وتذكير الحاكم بواجب حماية المجتمع من تسرب الفتن والمحن إليه من جراء شيوع المنكرات فيه.

إلى هنا كانت حرب الشيخ الاصلاحية متجهة إلى طبقتين اثنتين هما: السلطة والنخب، ولكنه تجاوز ذلك إلى شرعنة وإباحة المظاهرات التي تطالب بتنحية السلطة المقصرة عن واجباتها.

يقول د. البوطي:

ولعلك تسأل فهب أن الناس كلهم قاموا بواجبهم في تذكير أولياء الأمور بما هم مكلفون به من تطهير مجتمعاتهم من المنكرات التي يستعلن بها، فلم تجد تذكرتهم شيئاً، وبقيت المنكرات على حالها، بل ربما أخذت تزداد وتتفاقم، ما الذي يجب فعله عندئذ؟

والجواب : من الأئمة في ذلك ما ورد منهم أن الإنكار اللساني من الناس يجب أن يستمر، أمام الله عز وجل. ولكن أفيحق لهم في مجال الحوار أن يطالبوا الحاكم بالتنحي عن الحكم عندئذ دون أن يتجاوزوا في ذلك حدود الحوار والكلام والإعلان عن الرغبة التي في نفوسهم ؟

الذي أعلمه أن هذا لا يعد بحد ذاته خروجا على الحاكم (وقد علمت أن الخروج عليه غير جائز فيما اتفق عليه جمهور المسلمين ما دام لم يتورط في كفر صريح بواح) إذ الخروج الذي حذر منه علماء الشريعة الإسلامية، هو العمل على خلعه بالقوة، أي بقوة السلاح.

والاحتجاجات اللسانية بوسائلها السلمية المعروفة اليوم، لا تدخل في المعنى الذي حدده العلماء لكلمة (الخروج على الحاكم)

وكان قد أفتى الشيخ على موقعه نسيم الشام بجواز الخروج في المظاهرات وحرم كما بينا قتل المتظاهرين ولما وجد أن القتل صار هو الأساس وأن المظاهرات تحولت إلى فتنة حيث بات البعض يستثمرها للقيام بأعمال تخريبية يستفيد منها طرف آخر هو في الغالب الدولة التي لا ترحم.

انتقل الشيخ إلى مرحلة تشريعية جديدة في مواقفه الفقهية فحرم المظاهرات الداعمة للنظام والمعارضة له من باب سد الذرائع .

حاول الشيخ تخفيف حدة الشارع، والمحافظة على الأرواح والممتلكات بعد أن رأى سيادة العقل الأمني.

البوطي وقراءة المشهد

مع رفضه رحمه الله أن يدعم الثورة إلا أنه لم يقبل أن يكون عضواً في سلطة تقود مؤامرة ضد البلد وكان يكره المنزلق الذي يراه والفخ المنصوب للسلطة والمعارضة. ارتكزت رؤية د. البوطي في التعامل مع الساحة السورية على فهم وقوع سورية تحت تأثير مؤامرة دولية، فحذر من تقسيم آت.

يقول د. البوطي :

الطريق التي رسمت لسوريا بدأت بها .. مسيرات ثم إسقاط ثم بعد ذلك تخريب ولو بدون أي شيء تخريب قضاء قتل تحريق .. إلى آخره، من أجل أن يكون هناك فعل وردة فعل ومن أجل أن يوجد القتل، نعم، ثم يستحر القتل ويزداد القتل .

المرحلة الأخرى التي تستجر لها البلد .. الوطن .. الدولة هو الحرب الأهلية، الحرب الأهلية إذا تمت لا يستطيع أحد أن يملك خيارا فيها .

المرحلة الثالثة : يأتي المعلم الكبير الذي يختفي الآن وراء الأسوار ، يأتي ليحل المشكلة يأتي من أجل أن ينهي هذه المشكلة ، ويجيء ويأخذ منا إتاوة لأنه سيجيء ويحل لنا المشكلة .

كيف يحلها ؟ بأن تقسم سوريا إلى خمسة أقسام .

قبل نحو عامين عندما بدأت هذه الأزمة ثم تحولت إلى شيء من الشدة، كنا نظن أنها ستنحسر عما قريب، إن هي إلا أشهر وستنحسر ، ولكننا فوجئنا بأنها حرب عالمية معلنة على سوريا من قبل الغرب بشطريه الأوروبي والأمريكي تقودها المسيحية المتهودة، أجل، تقودها المسيحية المتهودة التي تنتظر مسيحها ذا العين الواحدة، نظرنا فوجدنا أن هذه الحرب العالمية يستخدم لها إخوة بل تستخدم لها أقاليم من شتى أطرافنا عن يمين وشمال، من شرق وغرب .

ونظرنا وإذا بهذه الحرب العالمية يستقدم لها لا أقول جيشاً، بل جيوش من الأخلاط والأمشاج المرتزقة ذوي السوابق القابعين في سجونهم، أولئك الذين صنعتهم أمريكا والذين يسمون القاعدة وذيولها.

وقال العلامة البوطي :

إننا نغزى اليوم في كل شبر من أرضنا، نغزى في كل لقمة من أقواتنا وأرزاقنا، نغزى في حياتنا وحياة أطفالنا وذرياتنا ونساءنا، نغزى في مقدساتنا، نغزى في أعراضنا، وإن هذه الحال التي نمر بها اليوم يصورها بيان الله عز وجل أدق تصوير في قول الله عز وجل : ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ (الأحزاب/10) هذا الغزو الشامل المتنوع يستدعي منا جميعا أن نخضع لأمر الله سبحانه تعالى الذي يدعو في مثل هذه الحال إلى الاستنفار يدعو إلى ما يسميه علماء الشريعة الإسلامية بالنفير العام .

لعل من الخير إن لم أقل من الواجب أن نقول كلمة فيما يتعلق بهذه الفتنة التي أطلت برأسها علينا ونسأل الله عز وجل أن لا يجعلها تتسرب إلينا، لعل من الواجب أن نقول كلمة في هذا ترضي الله وتبصرنا بمواطئ أقدامنا ، فأستعين بالله عز وجل وأستلهمه الرشد وأقول :

أما الإصلاح إصلاح المجتمع فذلك واجب اجتماعي وديني لا يسري إليه ريب ولا شك ، بل الإصلاح الذي يفرضه الواجب الاجتماعي والديني واجب مستمر على اختلاف الظروف والأحوال وعلى اختلاف الأمكنة والبقاع ، لماذا ؟ لأن المجتمع عبارة عن الفرد المتكرر والأفراد كانوا ولا يزالون غير معصومين ، معرضين للانحراف، للأخطاء، للتقصير، ما عدا الرسل والأنبياء، والمجتمع هو نسيج الأفراد، إذا فالمجتمع ينبغي أن يلاَحَظ دائماً، وينبغي أن يكون الإصلاح سائرا معه مهما كانت الظروف والأحوال، هذه حقيقة ينبغي أن نعلمها أولا.

حسنا، ما هي الطريقة التي بها يتم إصلاح المجتمع؟

عندما نعود إلى كتاب الله في الإجابة عن هذا السؤال، وعندما نعود إلى علم الاجتماع، وعندما نعود إلى التاريخ نجد أن الجواب هو التالي، سبيل الإصلاح هو التلاقي والتشاور والمذاكرة والتعاون، ثم الانطلاق إلى التنفيذ، هذا هو سبيل الإصلاح، إذا الإصلاح لا يكون من طرف واحد، وبعبارة أصح الإصلاح إصلاح المجتمع لا يتحقق بخروج فئة من الناس تملأ ساحة من الساحات أو شارعا من الشوارع، تهتف وتطلق شعارات معينة، وتعبر تعبيرا يترجم عواطفها يترجم رعوناتها إلى ما إلى هنالك، هذه الطريقة دل الواقع الاجتماعي ودل كتاب الله

عز وجل على أن هذه الطريقة غير ناجحة، هذه الطريقة التي ترفع شعار الإصلاح بالكلام والظاهر، الواقع أنها تهدّم وتسيء، نعم.

هنالك قاعدة معروفة أيها الإخوة، هذه القاعدة تقول الثورة إذا انقدح زنادها في مكان ما تستطيع أن تهدم بساعات لا أقول بأيام، لكن البناء لا يتم بساعات ولا بأيام البناء يتم تدريجاً بالتلاقي بالتشاور بالتعاون بالاتفاق ثم بالانطلاق إلى العمل، هذه النقطة الأولى انتهينا منها.

الذي حصل أن مشروعاً جديداً انطلق في هذه البلدة للإصلاح، وأقول للإصلاح الجذري، انطلق من مبادرة من رئيس هذه البلدة، دعا ثلة كبيرة من العلماء والمفكرين، طبعا دعاهم من أجل أن يسمع احتياجات البلد والتقصير الذي ينبغي أن ينهض عنه المسؤولون ويؤدوا واجبهم، وطرح في ذلك اللقاء كل ما قد يخطر في البال، بال الذين يرفعون الشعارات، كل ذلك طرح، بل هنالك أشياء يمكن لا تخطر في بال الإخوة الذين ينادون بالإصلاح طرحت أيضاً، الحرية المطلقة، الحرية السياسية ..الـ.. إلى آخره، ولم نلق إلا الترحيب وإلا الوعد، ثم تلت هذه الخطوة، خطوات المتابعة من أجل التنفيذ، والمتابعون معروفون ولا داعي إلى أن نفصل القول.

كما قلت لكم الإصلاح لا يتم بما يتم به الهدم، الهدم بساعة، لكن الإصلاح لا بد فيه من التدرج، وإلى الآن المتابعة موجودة ولعلكم ستسمعون قريبا ربما الليلة أو غداً مبادئ إصلاحية جذرية، كانت الأمة ولا تزال تحتاج إليها، هذه النقطة أيضاً انتهينا منها.

الشيء الثالث الذي ينبغي أن نقوله وهذا طبعاً ما فوجئنا به جميعاً، ننظر ونحن نتأمل المشروع الذي بدأ وانطلق ثم هنالك من يتابع، وإذا بخطة تأتي من خارج هذا القطر من حيث لا نعلم، خطة للإصلاح وإذا بأوامر تصدر إلى هذه البلدة بأن يعلنوا عن يوم كذا يوم غضب يوم كذا يوم عزة، من هم؟ لا نعرف ننظر وإذا بأوامر تأتي تقول ينبغي أن ترفعوا الشعارات التالية، ينبغي كتابات شعارات على الجدران إلى آخره، ونحاول أن نعلم المصدر، المصدر مجهول.

ما الطريقة التي تصل منها هذه الخطط، هذه الأوامر؟ المواقع الالكترونية كما تعلمون نظرنا فوجدنا هذه الخطة تأتينا من مجهول الأوامر التي تصدر إلينا من مجهول والشعارات التي نؤمر بارتفاعها من مجهول ننظر فنجد أنها تسعى إلى إجهاض هذا المشروع الذي انطلق، وأنا مسؤول عن هذا الكلام أيها الأخوة.

ما الموقف الذي يفرضه علينا الدين في الواقع؟

ما الموقف الذي يفرضه علينا الوعي؟

ما الموقف الذي تفرضه علينا الكرامة؟

الموقف الذي يفرضه علينا الدين هو قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (الإسراء/36) هذا كلام الله عز وجل، أي لا تتبع من يأخذ بيدك إلى مالا تعلم، لا تتبع من لا تعلمه من هو، لا تضع يدك في يد من تجهله، ولا تضع يدك في يد من تعرفه لكن لا تعلم إلا أي غاية ينتهي بك، هذا كلام الله ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ وكم شرحنا هذه الآية، حتى الدين ينهانا الله عز وجل أن نغمض أعيننا ونتبع من يدعونا إليه تقليدا أليس كذلك؟ فكيف بجهات أو جهات نجعلها ترسل إلينا خططا تزعم أنها في سبيل الإصلاح، تأمرنا بأن نعلن يوم غد يوم عزة، يوم غد يوم غضب .. يوم كذا ونلتفت يمينا وشمالا ونبحث وإذا بتلك الجهة مجهولة، تتحرك هذه الجهة، لا أقول في الظل، بل في الظلام وترسل إلينا أوامرها ونواهيها عبر هذه المواقع التي أحدثكم عنها .

حسنا، أنا هنا بغض النظر عما يقوله الله ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أعود إلى عقلي، وأنا كما تعلمون أيها الإخوة رجل علم ولله الحمد وأنا لست ممن يتعامل بالأسلوب الخطابي ولا بالوعظ الفارغ عن المضمون ، هذا مبدئي .

العلم يقول لي: الاحتمالات المختلفة واردة، أمام المجهول تظهر الاحتمالات، هذا قرار منطقي، بل رياضي، أمام المجهول تنبع الاحتمالات، أليس هنالك احتمال بل احتمالات أن تكون هنالك أصابع إسرائيلية صهيونية تحرك يا جماعة، أليس هنالك احتمال كبير أن يكون هنالك من يتربصون بسوريا - وأنتم تعلمون أن هنالك من يتربص بها سوء – يدلون بدلوهم في هذا الأمر ، ألا تتصورون أن هنالك يمين متطرف أمريكي معروف يرفع شعاراته بين الحين

والآخر يكون هو الدافع وهو المحرك، ألا تتصورون أن يكون هنالك أصابع تريد باسم الإصلاح أن تهدّم؟ أن تشعل نيران فتنة كانت سوريا أو كانت الشام بعناية الله عز وجل مكلوءة منها؟

علمياً هذه الاحتمالات واردة أم لا؟

واردة يا إخواننا، بل احتمال كبير، الدين عرفنا موقفه.

أمام هذه الاحتمالات ماذا يقول لي الوعي؟

الوعي يقول لا يجوز أن أغمض العين وأقول لهؤلاء الذين يأمروني: لبيك سمعا وطاعة، يرسلون إلي خططهم، لبيك سمعا وطاعة، يقولون لي وظفوا المساجد لكذا وكذا فأقول لبيك سمعا وطاعة، الوعي يمنعني من هذا، وأنا كنت ولا أزال أحمد الله سبحانه وتعالى على أن سوريا تمتاز عن كثير من البلدان العربية بالوعي الثاقب، يعني كنت ولا أزال أقول: وعي الفرد السوري يكافئ عاطفته الوعي يتغلب والعاطفة لا تتغلب، وهذه مزية، في حين أن الفرد المسلم في كثير من البلاد إما تتغلب عليه العاطفة على حساب الوعي وإما العكس، لكن أصدقكم، أمام هذا الخنوع الذي أراه لأوامر المجهول أكاد أشك في هذه المزية التي كنت ولا أزال، نعم، أعتز بأهلنا في سورية إذ يتمتعون بها، أكاد أشك، أنا ممن حاول أن يعلم مصدر هذه الخطط.

يعني عرفونا من أنتم حتى نثق، حتى نمد يد التعاون، لا سبيل، إذا كان هذا السبيل مغلقا ولا نعلم سبيل لأن نعلم هوية الجهة التي تأمرنا وتنهانا وتدعونا إلى ذلك، إذا لا يمكن أن أنغض الرأس وأضع في عنقي زماما ثم أسلم طرفه لهذا المجهول الذي يريد أن يمضي بي إلى حيث لا أعلم.

هنا يأتي دور الكرامة، عرفنا مبدأ الدين، وعرفنا مبدأ الوعي، طيب الكرامة ماذا تقول؟

هل يوجد إنسان كريم على نفسه يتبع المجهول، معقول ؟

زيد من الناس مقنع، قال لي أنت تعاني من مشكلة الفقر، تعال أنقذك من هذه المشكلة، وأخذ يقدم لي كلاماً معسولاً جميلاً، هل يمكن أن – إن كنت صاحب كرامة، دعك من الوعي– هل يمكن أن أنغض الرأس له وأسير وراءه، لا يمكن لعاقل أن يفعل ذلك .

نحن الآن في هذا الوضع، نحن الآن في هذا الوضع الذي أصفه لكم، إذا كان الأمر كذلك، فكيف يمكن أن أستجيب أو يستجيب كل واحد منا ممن شرفهم الله عز وجل بالمقام في هذه البلدة المباركة، بالاستجابة لمن يقول اجعلوا يوم الجمعة غدا يوم عزة، الجمعة الماضية يوم غضب، كيف يعني؟

يعني وظفوا المساجد، استخدموها لما خططناه، ولما وضعناه في اعتبارنا، بعبارة صريحة استخدموا المساجد، هذا ما يعنون، كيف يعني؟ إذا أردنا أن نترجم هذا الكلام إلى الواقع، تعالوا إلى ما جرى في الجمعة الماضية في المسجد الأموي، في داخل المسجد القوم يؤدون صلاتهم بقلوب طاهرة، بنفوس نقية، ولما قام زيد من الناس يتكلم ببعض الكلمات ظن المصلون أن هناك من يريد أن يحدث بلبلة، فبدأوا بذكر الله عز وجل، بدأوا يقولون لا إله إلا الله، لا إله إلا الله ليغلقوا السبيل أمام هذا وذلك أمام الشعارين، نظرنا بعد أن خرجنا وإذا بفئة كبيرة في الفسحة السماوية في المسجد ليسوا من المصلين ولا من الذين تعرف جباههم السجود، ولا ممن تعرف قامتهم الركوع ينتظرون أن تنتهي الصلاة ليستخدموا المسجد للشعار و..و..و وما إلى ذلك وقامت البلبلة في الخارج، يعني أنا نظرت إلى المسجد الأموي، وكيف استخدم، لا يوجد هنالك دافع، ولا واحد من مليار يرضي الله عز وجل، ناس لا يصلون دخلوا المسجد وربما كانوا غير طاهرين، هؤلاء هم الذين يرتبون وينظمون، الآن كذلك، يعني النافذة التي يحاولون أن يحيوا خططهم من خلالها، وهؤلاء الذين يستخدمون المساجد كما قلت لكم ليسوا من رواد المساجد في شيء لكنهم يريدون أن يتخذوا من تجمع الناس في المساجد أداة يمتطونها، يعني أنا اليوم استعملت كلمة وأسأل الله أن يغفرها لي ما بلساني لكن استعملتها تعبيرا عن مشاعر أولئك الناس يا إخواني، ألا ترون أن هذا شأن من ينتعل المسجد لمقاصده، ومساجد الله عز وجل بيوت الله، يعني شيء ينزل الغضب الإلهي أن يكون هؤلاء الناس لا من المصلين ولا .. ولا .. ثم يدخلون المسجد من أجل أن ينهضوا الناس إلى هذا الذي يريدون.

هل تجيز كرامة الإنسان أيا كان مبدؤه، أيا كان اتجاهه أن يقول للمجهول: تفضل هذا ظهري مطية لك، معقول!؟ مطية لك! وإلى أين؟ إلى الخراب.

إذا كان الغراب دليل قوم ... يمر بهم على جيف الكلاب

لـواء الإصلاح، اسـم الإصلاح، شـعار الإصلاح عندما يرتفـع، أنـا واحـد من الذيـن ينشـدون الإصلاح، وكلنا ذاك الرجل، وقلتها، ولكن أسلك السـبيل الذي يحقق لي الإصلاح طبق القاعدة المعروفـة، وهي (درء المفاسـد مقدم على جلب المصالح) قاعـدة علمية منطقيـة اجتماعيـة دينيـة، يعني إذا أردت أن أسلك طريق الإصلاح وسـرت في هـذا الطريق، وإذا بي أخـرّب وإذا بي أقتل وإذا بي أسفك الدماء وإذا بالبرآء يتهارجون ويتقاتلون وتسيل الدماء الزكية وإذا بالتخريب ينتثر وينتشر يمينا وشمالا، طيب ماذا فعلت أنت؟ أنت فررت من الحمى إلى الطاعـون يا أخي، من قـال أن هـذا إصلاح، من قـال؟ هـذا شـأن من يريـد أن يمتطي الشـعارات ويمتطي الشـعور الديني في المساجد من أجل مغانم خاصة لأصحاب هذه الخطط .

طيب أنا أسأل لماذا لا تعلنون عن هوياتكم لماذا؟

الإنسـان الـذي يبتغي الإصلاح حقـاً يعتز بـأن يعـرّف بذاتـه أليس كذلـك، أنـا عندمـا أريـد أن أصلح ولـو كنت خـارج سـوريا، عندمـا أريد أصلحهم أعلـن عـن هويتي أعلـن عـن ذاتي لأنني أعتز بذلك ، ولكن عندما أصر على أن أبقى مقنعا وأبقى في الظلام ولا يعرفني أحد، معنى ذلك أنـا أعرف أنني كاذب في دعواي ((كاد المريب أن يقول خذوني)) هذه حقيقة ينبغي أن نعلمها.

لعل فينا من يقول: ها هي مصر قد سلكت هذا المسلك ونجحت، لا، المسلك الذي سلكته مصر يختلـف عـن هـذا المسـلك تمامـا، النـاس الذيـن في مصـر خرجـوا مـن داخـل الأرض التي يعيشـون فيهـا، الخطة نسـجت ونظمت في داخـل مصـر، اعرفـوا هـذه الحقيقـة، الذيـن فعلـوا وحاولوا كان بداخل مصر، وكم وكم رجعوا وكم وكم بعثوا، أما نحن لا، الأمر ليس كذلك .

صحيح بدأ مشروع جديد على نحـو المشـروع الـذي بـدأ في مصـر، لقـاء وأنـا كنت موجود في هذا اللقاء، وأنا واحد ممن دعا إلى إنهاء الحزب الواحد، يجب أن يكون هنالك حرية، أحزاب متعددة، نعم فئات متعددة، وكان هنالك تجاوب إذا هذا موضوع في الاعتبار .

هذا هـو العمل الـذي ينبثق من الداخل، مصر هكذا كانت، لكن ما كاد هذا المشروع يمشي بعـض الخطـى ويتجـه بعـض الخطـى علـى النحـو السـليم، والموضوع سـائر في طريقـه إلى الآن أقـول لكم إلى الآن، وإذا بخطـط أو خطـة تغزونـا عنـوة متجهـة لإجهـاض هـذا العمـل الهـادئ المتسلسـل الـذي يوجد الآن من يتابعه للتنفيذ، إذا هنالك فرق كبير بين ما تم في مصر وبين

انقيادنا نحن لأناس هم في الخارج، أنا لا أريد أن أشير بإصبع الاتهام إلى جهة ما لكنني أعود فأقول: الاحتمال العلمي قائم ولا أريد أن أسلم نفسي إلى الظنون .

فإذا كان الأمر كذلك أيها الإخوة فأنا أناشدكم الله وأناشدكم الدين الذي بايعتم الله عليه وأناشدكم الانقياد لقول الله جل جلاله ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أن تصموا آذانكم عما تسمعونه آتيا من الخارج وأن لا تلتفتوا إلى نصائح وأوامر تأتي من أناس مقنعين من فئات يتحركون في داخل الظلام الدامس، إياكم أن تنقادوا إليهم ليسيروا بكم إلى الأعشاش ليسيروا بكم إلى الكهوف التي فيها أسباب الهلاك والدمار، الأمر أنا أعلم أيها الإخوة خطير بهذا الشكل، دماء زكية ما ينبغي أن نكون سببا لإهدارها، ما ينبغي أن نجعل من عواطفنا ورعوناتنا ثمنا لإهدار دماء بريئة زكية بهذا الشكل .

نعم فتنة أطلت نسأل الله سبحانه وتعالى أن يبعدها عنا وهذا هو المظنون بكرم الله .

وهذا أيضاً شيء رابع أو خامس – لا أدري – انتهينا منه.

الأمر الأخير وهو زبدة الكلام، هذا هو المنطق الذي ينبغي أن نتشاور فيه، قلته، وهو الدين الذي ينبغي أن نلتزم به، والكرامة التي ينبغي أن نتمتع بها، بقي السبب الذي يتوج ذلك كله: الالتجاء إلى الله، الالتجاء الصادق لا التقليدي، وفي أي أوقات، أوقات السحر يا إخوان، اجعلوا بينكم وبين الله موعدا لا تخلفونه ساعة السحر واعلموا أن الله ينظر إليكم يستجيب دعاء الداعين يغفر للمستغفرين يحقق سؤال السائلين، أنا كفيل بهذا أيها الإخوة، الآن مرت بنا البأساء، هذه محنة من الله، ترى هل سنفر منها إلى الالتجاء إلى الله انظروا إلى كلام الباري عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ (الأنعام/42) ربنا سبحانه وتعالى اسمه الرب، يعني ماذا ؟ يعني يربينا، عندما يجد أننا انغمسنا في دنيانا في منسياتنا، ملهياتنا، نعم طيب، ينبهنا بمحنة من المحن، بفتنة تطل برأسها من بعيد أو قريب، ترى هل نصحو إلى الإيمان الجاثم بين جوانحنا، هل نصحو إلى البيعة التي بايعنا الله عليها، هل نفر من هذه الشدة إلى الضراعة التي يأمرنا الله بها والله إذا كنا ممن استجاب لهذا الدعاء بهذه الآية، أقسم بالله العظيم أن الله سيريكم معجزات الحماية، بل سيريكم الله عز وجل معجزات الإصلاح الذي

تبتغون ويريكم معجزات الحماية التي تبتغونها، ثمنه، بعد هذا الشيء الذي أدركناه، عرفنا أن الوعي لا بد منه، ثمنه الالتجاء إلى الله، يا إخوانّا، ألذ وقت، ألذ وقت تناجي فيه ربك ذلك الوقت الذي ليس بينك وبينه أحد، قبل الفجر ثلاثة أرباع الساعة، ساعة إن استطعت، نصف ساعة إذا ما استطعت، صل ركعتين وطوّل السجود وناج ربك باللغة العامية باللغة التي تريدها، إلهك معك ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (طه/46) هذا كلامه، أسمع وأرى، هو الآن يسمع هو الآن يرانا وهو الآن يعلم سرنا وعلانيتنا، دعونا يا إخوانّا نرجع إلى الله وأنا أقول هذا الكلام لكم جميعا ولأمتنا في سوريا ولقادتنا في سوريا، يا ناس ارجعوا إلى الله، يا ناس ارجعوا إلى الله، اصطلحوا مع الله، يا ناس بيننا وبين القبر مسافة بسيطة، قصورنا قبورنا، هذه هي القصور التي تأوون إليها، والله الذي لا إله إلا هو بيننا وبين أن يكرمنا الله بالسعادة بالنصر بالإصلاح بزوال الفساد هذا الالتجاء إلى الله عز وجل، فاجعلوا بينكم وبين الله وعدا كل يوم ساعة السحر واحك باللغة التي تريدها مع ربك عز وجل وأنت تعلم انه يسمعك ويراك، وكن واثقا بان الله عز وجل سيستجيب دعاءك ، هذه حقيقة لا ريب فيها ولاشك، نعم .

طبعا هذا هو العلاج الأوفى والأوحد، ولكن هناك مقدمات بين يدي العلاج الذي ذكرت، الوعي، نلتزم بأوامر الله ما ننقاد للمجهول أبدا بعد أن نطبق هذه التعليمات التي يأمرنا بها بيان الله سبحانه وتعالى عندئذ يأتي دور الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى، وكما أقول لكم، الآية : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ* فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ (الأنعام/42)

لماذا أخذهم بالبأساء ؟ لعلهم يتضرعون

فلولا إذا جاءهم بأسنا تضرعوا عتاب رقيق، فلولا إذا جاءهم بأسنا تضرعوا، هلّا تضرعوا ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قلوبهم﴾ (الأنعام/43) اللهم لا تجعلنا ممن قست قلوبهم ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام/43) ومع ذلك أنا لا أشك ببشارة رسول الله أبدا، لا أشك ببشارة رسول الله ((فسطاط المسلمين يوم الملحمة الكبرى على أرض يقال لها الغوطة إلى جانبها مدينة اسمها دمشق خير منازل المسلمين يومئذ))

أعلن أنه لا يدعم النظام وليس معنياً به ولكن ضد أي هياج يفضي إلى تخريب كما توجه إلى الناس وبين ضمن كلامه حالة التوحش التي آلت إليها الأمور، والخوف، والهلع والدم وكفر حاضنة الرئيس التي سجدت له كما سنرى لاحقاً وحذر من استهداف يوم الجمعة

يقول د. البوطي :((يا إخوان، يا ناس، يوم الجمعة كانت وما تزال إلى عهد قريب يوم أنس، يوم فرحة الأسرة بعضها ببعض، يوم راحة، اليوم الأزهر سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم الأزهر، وليلة الجمعة سماها الليلة الزهراء، هو القائل: ((أكثروا من الصلاة علي في اليوم والليلة الزهراوين)) هذا هو يوم الجمعة فيما نسجه ديننا في أذهاننا وهكذا كانت حياتنا مع يوم الجمعة وهكذا كنا نستقبل يوم الجمعة، ما الذي حصل؟

يا ناس ما الذي حصل حتى يصبح يوم الجمعة يوم رعب، حتى يصبح يوم الجمعة يوم خوف؟

ما موقفنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؟

هنالك أناس يا جماعة كانوا يصلون صلاة الجمعة يعني أقل المراتب لا يتركون صلاة الجمعة، هل تعلموا أن قسما كبيرا منهم لم يعودوا يصلون لأن الرعب يجعلهم لا يخرجون.

يسمعون دعوة عارمة تأتي: يوم الجمعة يوم الغضب، يوم الجمعة اليوم العظيم، لماذا؟ كثير من الذين كانوا يصلون انقطعوا، تحول يوم الجمعة يوم الأنس يوم البركة يوم الخير يوم سعادة الأسرة بعضها ببعض، تحول إلى رعب، تحول إلى وحش، تحول إلى توقع إلى دماء تسيل، كيف، كيف؟ من الذي يرضى بهذا يا أخوان)).

يقول د. البوطي :

جاء من يسعى للقضاء على الجهاد وتمزيق باب الجهاد في الشريعة الإسلامية، لكن لا بالأسلوب القديم وإنما بطريقة أخرى .. بوضع صورة مزيفة للجهاد بحيث تشرئب إليها أعناق المسلمين جميعا ويشغلون بها، وأثناء انشغال المسلمين بهذه الصورة المزيفة للجهاد، يتم القضاء على الجهاد الحقيقي الذي شرعه الله سبحانه وتعالى .

مهاجمة تجار الحروب والمستثمرين في النكبات

كلمات إلى تجار الأزمات

قال البوطي رحمه الله في خطبة الجمعة 15/3/2013:

أيها الأخوة كلمات تنبع من قلب محترق أوجهها إلى أخوة لنا في الدين أو في الإنسانية آملا أن تبلغهم حرقة كلماتي لتنفذ من آذانهم إلى قلوبهم : يا أيها الناس راجعوا إيمانكم بالله عز وجل إن كان له بقية بين جوانحكم، راجعوا نبضات إنسانيتكم إن كانت موجودة في كياناتكم، لا تستثمروا بؤس عباد الله عز وجل، في هذه المرحلة الخطيرة التي نمر بها لتملأوا عن طريق بؤسهم جيوبكم .

البيوت المغلقة في دمشق وفي المدن الأخرى، تعد بالآلاف أغلقها أصحابها ومضوا لينتجعوا الراحة، ولينتجعوا الأمن والطمأنينة خارج هذا الوطن بعيدا عن الاشتراك في سرائه وضرائه منتظرين نهاية الأزمة ليعودوا، ترى لو أن هذه البيوت التي تعد بالآلاف، لو فتحت لهؤلاء الأخوة الذين شردوا إلى أمد يسير، ولو استقبلهم أصحاب هذه البيوت كما استقبل الأنصار بالأمس المهاجرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أفكان لهذا البلاء أن يعلن عن نفسه، أفكان لهؤلاء الذين شردوا عن ديارهم أن يلجئوا إلى خيام لم يجدوا فيها إلا السوء والظلم، لا أيها الأخوة .

التهديد المبطن

هدد الشيخ بشكل واضح أن تخدير الناس عن تحقيق الإصلاح سيلزمه اتباع طريق آخر و أن البقاء في خانة التسويف لمطالب الناس وحقوقهم ربما يدعوه لاتخاذ موقف مغاير فنجده يصرح بكلام لا يمكن قبوله من قبل السلطة، فهو يحمل بعدا انقلابيا.

المبادرة .

حيث يقول: «لدي اقتراح أيها السادة والسيدات، أرجو إذا رأيتموه منطقيا أن توافقوني على هذا الاقتراح الذي أقوله:

1 تشكل لجنة متابعة شعبية على أن تكون لها جذور مؤسساتية.

2 تكون هذه اللجنة ذات صلة قوية بالشعب على اختلاف فئاته وجماعاته، وعلى صلة بقمة المسؤولية أيضاً.

3 لجنة المتابعة هذه سيعبد أمامها الطريق، وينبغي أن يعبد أمامها الطريق للمتابعة وطرق الأبواب، أبواب الجهات المعنية لوضع هذه الإصلاحات التي أعلن مراسيم بشأنها إلى واقع معاش.

إن رأينا أن الطريق معبد أمامها وتسير هذه اللجنة في طريق التطبيق، وننظر أن هذه الإصلاحات هبطت من المستوى النظري إلى المستوى الواقعي العملي فهذا ما نطلب، أليس كذلك.

وإن رأينا أن هنالك عوائق وأن هنالك صدا وردا فلكل حادث حديث أنا أقول لكم:

عندما نجد أن هذا الطريق الديني الآمن الحضاري قد أغلق فأمامنا طرق أخرى، لكن نرجئ ذلك إلى أن نجد مصداق حالة هؤلاء إخواننا الذين يتشاءمون.. لكل حادث حديث.

قد يكون الشيخ ورديا، ولكنه ورغم كلامه المعسول في ظاهره تجاه السلطة إلا أنه بدأ يستثمر أجواء الثورة، بل تصفية الحساب ورفع وتيرة المطالب، بل التهديد المبطن كما رأيناه قبل قليل.

المواجهة وتكفير الحاضنة

المكان مدرج جامعة دمشق.

التاريخ 20/7/2011.

في حشد إعلامي وأمني أعلن الشيخ البوطي رحمه الله تعالى في مدرج جامعة دمشق موقفه من الجهة التي طالبت الناس بالسجود على صورة بشار الأسد فقال :

لعلكم رأيتم صورة للسيد الرئيس بسطت على الأرض صورة كبيرة جداً جداً ودعي شباب من الأطراف وإذا ننظر فنجد أنهم سجدوا فوق هذه الصورة.

طيب **هذا منكر ولا شك أن الذين فعلوا هذا تلبسوا بالكفر البواح المؤكد.**

غدوت بمعية السيد الوزير رأساً إلى السيد الرئيس وأنا أحمل هذه الصورة قلت له: تأمل سيادة الرئيس أنا أحلل تحليلا ظنيا **هؤلاء الذين فعلوا هذا الأمر هم في الظاهر من مؤيديك، ولكنهم والله في الباطن ممن يشنؤونك.**

نعم قال: أنا لا أشك في هذا ونظر.

قلت الآن الهدف من وراء هذا أن يشيع في المجتمع هذا الأمر، وأن تزداد مشاعر الثورة الهائجة ضدك، ومن ثم يوجد من يقول لعل السيد الرئيس هو الذي أوحى بهذا أو هو راض إذن أنتم تقولون الكفر البواح ها هو ذا الكفر البواح وجد.

لم أشهد أن السيد الرئيس غضب غضبة كالغضبة التي رأيتها عندما كنت مع السيد الوزير، حيث تجلت في شكله وكلامه بالأمس قال أنا أسجد لله أنا أعبد الله كيف أرضى أن يسجد لي الناس وأنا الذي أعبد الله وأسجد له.

قلت سيدي الرئيس هذا لا يكفي لا بد من كلمة يسمعها الشعب من فمك.

قال سأتكلم، ولكن ما دامت هنالك ندوة غدا فقل بلساني ما تعلمه من عقيدتي التي أقولها.

نعم وأنا أقول لكم نعم:

أولاً: من فعل هذا فقد تلبس بالكفر البواح سجد لغير الله عز وجل.

ثانياً: الذين دبروا هذا الأمر تظاهروا بعظيم المحبة له ولكنهم جعلوا من ذلك منزلقا لتهتاج الأمة أكثر فأكثر.

شن د. البوطي رحمه الله حرباً لا هوادة فيها على هذا المنكر الذي وصفه بالكفر ولوح بضرورة المعاقبة، وتحريض النظام على محاسبة الآمرين.

أول استهداف علني من قبل الشيخ لحاضنة الرئيس الأمنية، ورغم قسوة الشيخ في التعامل معها بل وتكفيرها إلا أننا نرى تعاطفه مع عامة الناس ممن أجبروا على السجود.

جاء في الفتوى رقم **15449** على موقع نسيم الشام :

((نحن نقطن في منطقة دوما لما اجتاح الأمن والشبيحة المنطقة دخلوا على البيوت ومنهم بيتنا وقاموا بإجبارنا على السجود لصور الرئيس بشار الأسد علماً أننا لم نشارك في أي مظاهرة مناوئة للنظام وخوفاً من القتل قمنا بالسجود للصورة فهل نحن أثمون وهل يجب علينا دفع كفارة ولكم جزيل الشكر والاحترام ونريد منك أن تدعي لنا بأن يزيح الله الغمة عنا وعن سوريا الحبيبة؟))

جوابا عن سؤالك المحدود أقول لك: اعتبر صورة بشار الموضوعة على الأرض بمثابة بساط، وقف عليه ثم اسجد فوقه لله عز وجل. يكتب الله لك أجر السجود له بدلا من الكفر.

رد بشار على فتوى الشيخ البوطي وظهور بوادر الصدام :

تختلف طريقة رد السلطة المستبدة على الانتقادات التي تتعرض لها بحسب نظام الحكم الذي يسيطر عليها. ومع ذلك ، تتعامل السلطات المستبدة عادة مع الانتقادات بطرق غالبا ما تكون معادية وقاسية، وتحاول استخدام سلطتها لإزعاج وتخويف وتكميم أفواه المنتقدين. وللأسف هذا كان .

جاء الرد الأول على الشيخ البوطي وذلك من قبل راس النظام المجرم بشار الأسد وذلك في لقاء عام وتحديدا بتاريخ 2011/08/25

وجاءت كلمته ردا على الشيخ البوطي بعد فتواه على **مدرج جامعة دمشق. وذلك في 20/7/2011. أي بعد أقل من شهر حيث قال بشار أسد**

لنفترض أن هناك شخص أطلق النار، شخص لم يقدر أو أنه كافر، قام بضرب المئذنة، وأضيف إليها الشخص الآخر الذي أتى بشخص وقال له : قل لا إله إلا بشار، وشخص ثالث وضع صورتي وقال له : اركع عليها ، والصورة الرابعة التي تحدث عنها سماحة الدكتور البوطي وهي مجموعة في المزة تركع على الصورة.

لو أتينا بكل هؤلاء وهم يكفرون أين نقع بالخطأ؟

يأتي شخص ويقول لي : الأمن يكفر، الأمن عشرات الآلاف بل مئات الآلاف، والجيش يقوم بكذا، أيضاً الجيش مئات الآلاف، ألم نخالف مبدأ آخر !

المبدأ الأول (واعتصموا بحبل الله) ولم نقتد به كمجتمع

المبدأ الثاني : نحمل نفسا وزر أخرى، هناك مشايخ ورجال دين أساؤوا، وهناك رجال دين دعوا للجهاد وكانوا متطرفين – أعداد محدودة جداً- هل نقف ونقول : رجال الدين متطرفون، هل نعمم، هل نحمل نفسا وزر أخرى، أقبلها من مواطن بسيط، لكن لا أقبلها من رجل دين، نحن علينا أن نحدد الخطأ بحجمه، هناك شخص أخطأ نحدد، هل هو كافر؟ لنفترض أنه كافر، أنا لا أريد شيء سوى أن نقتدي بالرسول، الرسول كان يهدف خلال مسيرته لقتال المشركين أم لهدايتهم؟

للهداية قبل القتال .. طبعا نحن نستطيع أن نأتي بهذا الشخص لنعاقبه بشكل شخصي، لسبب بسيط ، لأنه أساء للرئيس، وهو مرؤوس لدى الرئيس لا يحق له أن يسيء، لأنه أساء للمؤسسة أستطيع أن أعاقبه.

أما من وجهة نظر دينية أنا أتمنى أن يكون السؤال لدى رجال الدين، كيف نرشد هذا الشخص، لنفترض بأننا عاقبناه، دخل إلى السجن شهروبعدها!! هل ذهب الكفر؟! سيبقى كافر.

ماذا أكون قد قدمت للدين، ألا أقدم أكثر عندما أرشد هذا الشخص، إذا نعود لموضوع التربية والأخلاق، الحالات الفردية يجب ألا تؤثر فينا، وعلينا أن نعمل العقل وليس العاطفة، أنا لا أبرر الأخطاء، فهي موجودة.

أنا أقول كيف نتعامل مع الأخطاء؟ كيف أتعامل مع شخص يسيء لمواطن؟ وكيف أتعامل مع مواطن يسيء للقانون، أتمنى منكم أن تحرصوا قدر المستطاع على التوازن في رؤية الصورة من كل زو اياها، لا أن يحصر كل رجل دين نفسه في حارته، رجل الدين شخصية قيادية ليست شخصية عادية اجتماعية، يجب أن يكون أوسع من الحارة، وأوسع من المدينة، كل واحد فينا يمثل كل سوريا إن كان بمقداره أن يقوم بهذا الشيء.

علي مملوك والتهديد بالقتل .

وصف بشار أسد فتوى التكفير بأنها تتناسب مع شيخ حارة، وليس مع عقلية رجل الدين وبذلك يبدي بشكل واضح أن فتوى البوطي لا قيمة لها ثم تحركت السلطة مباشرة وذلك عبر وسطاء من جهة علي مملوك الذي قال للدكتور البوطي ثمنك رصاصة في مسجدك .

أدركت أجهزة الأمن أن الشيخ البوطي بات يشكل حرجاً وحالة مستعصية على الاحتواء على الرغم من العلاقة الاضطرارية بين الطرفين والتفاهم الهش إلا أن الشيخ كان كثير الإلحاح على الإصلاح والتوبة وتذكير الرئيس والعسكر والجيش بالتوبة .

وقد نفذت السلطة تهديدها وذلك عبر عملية دموية أدت إلى استشهاد الشيخ وحفيده و أكثر من مئة طالب علم في الدرس.

خاتمة

ومع اقترابنا من ختام بحثنا هذا لا بدَّ أن نقرر بعض الحقائق:

◉ أوَّلها، أننا لا ندعو في بحثنا هذا القارئ لكي يتبنَّى جميع مواقف الشيخ ومنهجه وفكره، بل كل ما نطالب به المخالفين لمنهج الشيخ أن يكونوا منصفين في نقده ومتفهمين لمواقفه النابعة من أصول فقهية وتأصيلية لا وليدة أهواء ومصالح! بالمقابل أن لا يبالغ تلامذته ومحبوه في مدح شخصه وقبول أحكامه دون التحرّي من مرجعية مواقفه واجتهاداته! فهذا تصنيم للأشخاص لا يرضى عنه الشيخ ذاته! فكلا الموقفين يسيء للحقيقة التي ننشدها جميعا!

◉ ثانيها، أننا حاولنا في بحثنا هذا أن نكون منصفين في النقل أيضاً، حيث نقلنا وجهة نظر أشرس خصوم الشيخ حتى لا يقال أننا تعمدنا تغييب كلام الخصوم وجئنا بكلام مؤيديه انتصاراً لموقف الشيخ ومنهجه، فإن أردت إظهار حجتك فلا بدَّ أن تأتي بأقوى ما قيل في معارضتها لكي تبدو حجتك قوية أمامها، لذلك اجتهدنا أن نأتي بأقوال جميع الأطراف على اختلافها وبيَّنا الموقف منها ونترك للقارئ أن يشكل رأيه فيها وفقا لقناعته.

◉ ثالثها، هل نقول إنَّ ما يدعو له الشيخ هو الحل الناجع لكل ما نعاني منه من مشاكل الاستبداد وظلم الحكام وغياب الحريات وانتهاك الحقوق ؟

لا أبداً لم نقل هذا على الإطلاق وليس هذا المقصود من بحثنا! بل ما نقوله أنَّ الشيخ يطرح رؤية وفقا لقناعاته التي نشأ وتربَّى عليها، ويطالب الناس لإعطاء فرصة لهذه الرؤية بعدما جربنا الكثير من الرؤى الصدامية وجميعها فشلت فشلاً ذريعاً رغم امتداد هذه التجارب لعقود وربما قرون ولم تثمر ! فلماذا لا نعطي الفرصة لتجارب جديدة؟!

◉ رابعها، هل نحاول من خلال عرضنا لمنهج الشيخ البوطي رحمه الله عقد هدنة مع الاستبداد أو التعايش معه ؟

مطلقاً فالاستبداد شرّ مطلق ولا ندعو لأي صلح أو مهادنة أو تعايش معه ! بل ما ندعو له تغيير أساليب مواجهته بعدما أثبتت كل التجارب السابقة فشلها عبر التاريخ، وما ندعو له هو دراسة منهج الشيخ بعقل بارد وتجديده وفق المستحدث السياسي والاجتماعي فقد نجد في ثناياه فكراً مبتكراً يمكن أن يكون ناجحاً في الصراع الطويل مع الاستبداد، أو قد يساهم في تقويض أركانه من خلال الاستقلال بدعوة الدين عن مستنقعات السياسة علّها تساهم في تجفيف هذه المستنقعات ولو بعد حين.

◉ وآخرها، نقول لقد رحل من أحدث كل هذا الضجيج في حياته وبعد مماته وقد أفضى لما قدَّم وأصبح بين يدي قاضي السماء الذي لا يظلم عنده أحد، نقول:

رحل الجسد وفاضت النَّفس وبقي العلم وثمرة الفكر بين أيدي النَّاس فمن أراد أن يواصل المحاكمة فليحاكم فكره وينقضه بفكر بديل نرى ثماره على الأرض، فنقد الموجود كل الناس تجيده، أمّا إيجاد ما هو عصيّ على النقد فهنا المهارة وهنا يتميَّز صاحب الفكر عن سواه، انقدوا فكر الشيخ لكن لا تظلموه فإنَّكم ستصيرون إلى مصيره وستلتقون به عند قاضي السماء فحضِّروا إجاباتكم لما ستسألون عنه، وقولوا كلاما تستطيعون من خلاله الدفاع عن أنفسكم !

أمَّا من قتل البوطي؟

فأعتقد أنَّ هذا السؤال أصبح ساذجاً، فنحن لا نتحدَّث هنا عن تحقيق جنائي، بل نتحدث عن وقائع نتائجها على الأرض، فقط ابحثوا عمن امتهن القتل وامتهن معه السير في جنازة القتيل، فإن أردتم أن تجيبوا عن هذا السؤال فعليكم الإجابة قبله عن بضعة أسئلة إن أجبتم على أحدها فسيكون هو الجواب لسؤالكم!

من قتل كمال جنبلاط ؟

من قتَل المفتي حسن خالد ؟

من قتل رشيد كرامي ؟

من قتل رينيه معوض ؟

من قتل بشير جميّل ؟

من قتل رفيق الحريري ؟

من قتل غازي كنعان ؟ ومن قتل ....؟ ومن قتل ... ؟

من قتَل البوطي ؟

هل عرفتم مدى سذاجة السؤال الذي نسأله ؟

رحمَ الله الشيخ البوطي ولعنَ قاتله.

لوامع أفكار

د. سعيد رمضان البوطي [1]

1- اللوامع هو جزء من سلسلة أطلقها المؤلف، وهي سلسلة تستهدف المسح المعرفي والبناء المنهجي لبعض الشخصيات المهمة تاريخياً ومنها د. البوطي رحمه الله تعالى، وقد أعدت المادة أ. ريما حكيم.



جلال الربوبية

مظهر جلال الربوبية سرّ ينبعث في كلام الخالق عز وجل، وإذا هو يشعّ بتأثير يسري على النفوس مخترقا حواجز اللغات وحواجز الجهل والتخلف الثقافي.. إن إدراكه أو الشعور به لا يتوقف على ثقافة ولا على سعة علمٍ أو ذوق عربي، غير أن المتأثر به قد لا يحسن التعبير عما يشعر به ولا يقدر على تحليله وبيان أسبابه. فإذا رأيت من إذا تلا القرآن أو تلي عليه تأثر به قائلا: إن هذا الكلام لا يمكن أن يكون مما يصدر عن البشر، فاعلم أنه متفاعل مع هذا الوجه الفريد من وجوه الإعجاز القرآني.

ألا ترى إلى المسلمين الأعاجم كالأتراك مثلا، يصغون إلى آيات من كتاب الله يتلى، وإذا بالخشوع يهيمن على وجوههم والدموع تهمي على عيونهم، وهم لا يعرفون من العربية كلمة.. إن السر هو انتشار مظهر جلال الربوبية مما يسمعونه، في نفوسهم. [1]

1- لا يأتيه الباطل ، ص 231 - 232 .

علاقتنا مع اللــه

إن علاقتنا نحن البشر مع الله ليست من نوع علاقتنا مع رؤساء الدول الكبرى، حتى تتطور وتقوم على المفاوضات، إنه يحكم ولا معقب لحكمه، له وحده الحكم، وإليه وحده المرجع والمآب.[1]

من عرف نفسه عرف ربه

إن الإنسان، مهما أشرب قلبه حبَّ الاستعلاء والطغيان، بوسعه أن يعلم عبوديته الذاتية الكاملة لله عز وجل، بمجرد أن يتأمل في كيانه الداخلي الذي لا يملك من أمره أي شيء. إنه يرى ذاته مظهرا لجملة أنظمة ونواميس تهيمن عليه وتحكمه منذ لحظة ولادته إلى ساعة موته، دون أن يقوى على أي تغيير فيها أو تلاعب بها.

فإذا أدرك الإنسان هويته من خلال معرفته لهذا العجز الداخلي المسيطر عليه، عرف ربه وخالقه عز وجل. وهذا معنى قول العلماء: من عرف نفسه عرف ربه.

وإذا وصل الإنسان إلى هذا المستوى من المعرفة، تهيأ لقبول كل ما يخاطبه الله به من الأوامر والتعليمات، واثقا بأنها لا تحمل له إلا الخير ولا تبعده إلا عن الشر، مهما بدت ثقيلة القيود أو كثيرة التكاليف. وتحت مظلة هذا القبول الخاضع يتعايش الناس متوادِّين متساوين لا يبغي قوي فيهم على ضعيف ولا تتربص الحريات بعضها ببعض.[2]

وهو على كل شيء قدير

إن الذي يعلم حال (الحارة الجديدة) قبل أربعين عاما، ويرى حالها الإسلامية الرائعة اليوم، يدرك المعنى الأتم والأجل لإحياء العظام وهي رميم.. ويدرك قيمة الصبر والمصابرة على صعوبة الدعوة، والأشواك الدامية على طول الطريق إليها .[3]

1- تجربة التربية الإسلامية، ص 45 .
2- هذه مشكلاتهم ، ص142- 143 .
3- هذا والدي، ص 50 .

وحدة الشهود

إن الاعتقاد المنطقي السليم هو أن نعلم أن الوجود الحق، أي الوجود الذاتي المستقلّ بنفسه، إنما هو وجود الله وحده. ثم إن الله خلق بمحض تدبيره وإرادته وقدرته وجود المكونات التي أبدعها، كلا في ميقاته الذي حدده له. فالوجود الأزلي القديم هو وجود الله لا غير، إذ لم يكن في الأزل ما يسمى غيرا.. واستمر الأمر على هذا المنوال ما شاء الله أن يستمر، ثم إن قدرة الله تعلقت بإنجاز خلق كل ما قد قضى الله أن يخلقه، فدخلت تلك المخلوقات عندئذٍ في نطاق ما يسمى بالوجود.

وهذا يعني أن الوجود الذاتي الحقيقي إنما هو وجود الله وحده. أما وجود ما عداه من الموجودات، فبإيجاد الله إياها تم أو تحقق وجودها. وهذا هو السبب في تعبير العلماء عن وجود كل ما عدا الله عز وجل بالوجود التبعي أو الوجود الظلي.. إن الظل له وجود مستقل عن وجود أصله كالشاخص مثلا، ولكنه في الوقت ذاته يزول وينمحق بزوال أصله فهو من آثاره ونتائجه.

ولعل من أقرب الأمثلة التي توضح ما نقول: إيقاف الرجل طفله الصغير على قدميه، إذ يمسكه بيديه. لا شك أن وقوف الطفل غير وقوف أبيه، ولكنه – في الوقت ذاته – لم يوجد إلا بالقوة السارية لحظة فلحظة من أبيه إليه..

إن استمرارية وجود الإنسان أو غيره من الموجودات، رهن باستمرارية إيجاد الله له لحظة فلحظة. [1]

إلى حال الشهود

إن أردتِ أن تتجاهل ديباجات الألفاظ والبيانات النظرية، التي كثيرا ما تكون طلاء يجمل به اللسان أو يزهى به الفكر وصاحبه بين الناس، إلى الحال الصامتة التي تتلبس المشاعر فتقودها إلى صعيد الشهود، وتقف بها على مورد الحب وأصله. فلتعلم أن رسول الله ﷺ هو إمام هذه الصفوة من الناس، وأن أصحابه رضوان الله عليهم كانوا أول وأصدق قدوة له في ذلك.

1- هذا والدي، ص 112 -113 .

إن ليالي التعبد في حياة رسول الله ﷺ كانت من مفرزات هذه الحال.. وإن حديث: ((إنه ليغان على صدري فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة)) من مفرزات هذه الحال.. وإن نداء الحب الذي توجه به إلى السماء قائلا: ((اللهم بالرفيق الأعلى..)) إنما هو من مفرزات هذه الحال..

وإن استهانة الصحابة بالدنيا، وتسابقهم إلى فنون التضحيات، واستخفافهم بأشد الشدائد، وتزاحمهم على موارد الموت، حيث يشمون رائحة الجنة من قريب أو بعيد.. ليس إلا من مفرزات هذه الحال.. [1]

تابع السير ولا تتشاغل بما ترى ! !

لقد شاء الله لي أن أسير خلال رحلتي العلمية والفكرية في دنيا الناس هذه، في طريق محفوف بلوحات الجمال المرئية والمسموعة، عن يمين وشمال، ولكم ذاب قلبي منذ نعومة أظفاري في وهج ما كنت تتقد به تلك اللوحات من نور ونار!

غير أني لم أحبس نفسي ولا عينيّ أو أذني، أمام أي من تلك المناظر والصور، ولم أتوقف، رغم افتتاني بكل ما أسمع وأرى، عن متابعة السير. فلقد كنت ولا أزال أسمع نداء يصيح بي من أعماق كياني: تابع السير ولا تتشاغل بما ترى، فإن مصدر الجمال وسر كل ما تراه عيناك أو تسمعه أذناك، ماثل أمامك، ليس بينك وبينه إلا حجاب المسافة.. فاخترقها بالمسير نحو ما هو أمامك، ولا تقطع نفسك عن مواصلة الرحلة بالسير في متاهات السبل المتعرجة عن يمينك أو عن شمالك.

وها أنا – ولا أزال سائرا على متن هذا الطريق – أرى بوارق الجمال الحق أمامي تلوح لعينيَّ على البعد، وأملي بالله عز وجل مزدهر وكبير أن لا تقطعني عوارض الأحلام الوردية الزائفة عن متابعة السير إلى المنتهى. بل إن رجائي من الله عز وجل أن لا يريني في صور الجمال المتنوعة الكثيرة التي تتألق من حولي إلا جمال ذاته، وأن لا يجعل قلبي إلا وعاء لحبه. [2]

1- شخصيات استوقفتني، ص 150 .
2- شخصيات استوقفتني، ص 152 .

ما الدنيا إلا مرآة لشهود صفات الله تعالى ! !

إن محبة الله تعالى إذا هيمنت على قلب الإنسان، وترسخ في يقينه الذهني أن لا حول ولا قوة لشيءٍ من الموجودات إلا بالله عز وجل، ففاعليتها آتية لحظة فلحظة من الله، ونظامها مستقر بإمساك الله لها على النهج الذي ارتضاه، بحيث لو تخلى الله عنها لحظة واحدة، لعادت هباء، بل عدما كما كانت – يسبح عندئذ في بحار التوحيد، ويهيمن على كل من عقله وشعوره معنى قول الله تعالى:﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف/54]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم:25]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾[فاطر:41]. فهو يرى المكونات والموجودات كلها ويوقن بها، ولكنه لا يرى من خلالها إلا عظيم صنع الله ولا يقرأ في شيءٍ منها إلا صفات المكوِّن جل جلاله. وتلك هي وحدة الشهود التي ينبغي أن ينتهي إليها كل من ينشد التوحيد الحقيقي التام لله عز وجل.. إن الدنيا كلها تصبح عندئذ مرآة نقية صافية لشهود صفات الله عز وجل والتذكير بوحدانيته وسلطانه، بدلا من أن تكون شاغلا عن الله وأداة نسيان له. (1)

من المالك إلا الله

هبْ أن الله تبارك وتعالى، لم يشأ إلا أن يسوق قسما من عباده بسياط القسر والإكراه إلى النار فيقذفهم فيها عنوة وابتداء، ولم يشأ إلا أن يسوق القسم الآخر بالوسيلة ذاتها إلى جنة خلده، فيكرمهم بها منحة وابتداء: أفيوجد في هذا الملكوت كله من يستطيع أن يناقشه الحساب ؟؟ .. بالطبع لا ...

وهل يوجد من وراء ملكوت الله كله، مون آخر لا يخضع لسلطان رب العالمين، حتى يلتجئ أحدنا إليه، ويعلن من هناك استنكار ما يريد أن يستنكره من القوانين والأحكام؟ بالطبع لا .

فإذا كان هو وحده مالك الملك كله، أفليس من حق المالك أن يتصرف بملكه كما يشاء؟ بالطبع نعم ..

1- شخصيات استوقفتني، ص 237 .

إذا تعال نلزم باب العبودية لرب الأرباب، فقد كدنا أن نشرد عنه إلى شقاء الغواية والاضطراب، تعال.. فلا مفرَّ من الله إلا إليه، ولا ملاذ من عذابه إلا بالخضوع لسلطانه، ولا عليك ممن استكبر فوق قمامةٍ من الجهل، أو اعتلى فوق عيدانٍ من الوهم، فسوف يقدم الجميع إلى الله من باب العبودية له صاغرين مطأطئين: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم:93/95].(1)

أين هو المعين؟

أذكر حفلا حاشدا في إحدى بلادنا العربية، كنت أحد الحاضرين فيه، وأذكر أن أحد المفكرين من العلماء الفضلاء خطب في ذلك الحفل، فكان مما قال:

((إنٍ مشكلة كثيرٍ من المسلمين اليوم ما يحسبونه من أن الإسلام هو أن يكثر الإنسان من الصلاة.. أو أن يكثر من التعبد.. مع أن الإسلام هو العمل والبناء..))

ولقد أخذت ألتفت إذ ذاك عن يميني ويساري أنظر في وجوه الحاضرين، ثم رحت أتأمل في نفسي طبيعة أهل تلك المدينة كلها، فما هدتني عيناي ولا أرشدني خاطري إلى أن ثمَّة أقواما انقطعوا عن الحياة الدنيا في كهوفٍ قاصيةٍ للعبادة والصلاة...

وتأملت، فوجدت أن أعظم متعبِّدٍ فيهم هو ذاك الذي يحافظ على فرضه يؤديه جماعة في وقته، وقد يتبعه بركعاتٍ خفيفةٍ من نوافله المتممة.. فما وجه الحاجة إلى هذا الكلام، وما الضرورة الداعية إلى التكريه بالصلاة أو الدعوة إلى التخفيف من العبادات، وما في الحاضرين كلهم والبلدة بأسرها إلا مقصِر عن الحد الأدنى في ذلك؟..

والعجيب أن ندعو بعد ذلك إلى العمل.. والبناء.. والتضحية..

فما الذي ينهض بالمسلمين إلى القيام بذلك كله، وهم مقيدون بأثقال وأغلال من الشهوات والأهواء والمطامع الدنيوية المختلفة!.. ما الذي يحملني على استدبار شهواتي وأهوائي، وإن قلبي ليخفق بحبها والتعلق بها؟.

1- من الفكر والقلب، ص 46 / 47 .

إن الأمر يحتاج ولا ريب إلى مساعدٍ ومعين، فأين هو المساعد والمعين وما هو؟

لقد أجاب البيان الإلهي على هذا، ووضع بين أيدينا المساعد والمعين، وذلك في قوله جل جلاله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[البقرة: 45]، وطالما وضع الباري جل جلاله هذا الدواء المساعد بين يدي حبيبه المصطفى ﷺ، كلما حزبه أمر، أو أطبقت عليه شدة، أو استيقظت في نفسه بعض المشاعر البشرية، تأمل مثلا قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: 39/ 40]. [1]

مناجاة قلبٍ كسير

مولاي: لئن نسيتني أفراح الدنيا، فإن عزائي بما فاتني منها عظيم ما ألقاه من الأنس بذاتكِ، والأمل في رحمتكِ. ولئن أبكتني صروف الليالي والأيام، فإن عزائي معها بكائي على أعتاب لطفكِ وبين يدي ربوبيَّتكِ.

وشتّان بين دموعٍ اعتصرتها الآلام من العيون، ودموعٍ استجابت لذلٍ العبودية فانحدرت تبكي لمن خلق الوجد في القلوب، وأودع الحرقة في الدموع. [2]

مناجاة إلهية

إلهي: سألوني عن وجودك. فقلت لهم: متى عرفتم أنفسكم رأيتموه، ولولا ضلالكم عن كينونتكم لما افتقدتموه.

إن الذي ينظر إلى العالم ذاهلا من وراء منظار، جدير به أن يفتقد منظاره ولا يراه، ومهما أدار عينيه فيما حوله فإنه لن يعثر عليه، حتى يهتدي إلى ذاته ويتحسَّس المنظار القائم أمام عينيه.

وسألوني عن أقدس سرٍّ من أسرارك، فقلت لهم: إنه القلب!.. يخفق ويحسّ، ويحنّ ويئن، في عالمٍ لا تطوله فيه يد المال والمتاع، ولا الصنعة والخداع، ولا الدنيا وزخرفها، أو المادة وقيمها!

1- من الفكر القلب، ص 102 / 103 .
2- من الفكر والقلب، ص 182 .

عروش الدنيا وممالكها، وبطشها وسلطنتها – كلّ ذلك أقلّ من أن يقاوم خفقة من خفقات قلبٍ محب!..

ونعيم الدنيا وأفراحها، ولهوها ولذتها – كلّ ذلك أقلّ من أن يخلق لمعةِ فرَحٍ في قلبٍ حزين!..

يمضي الناس في معالجة مدنيَّاتهم وحضاراتهم، ويتسابقون إلى دنياهم وملاذّهم، وتبقى هذه القلوب الخفاقة فوق ذلك كله، لا تطوِّرها يد الحضارة، ولا تغيِّرها آثار المدنيَّة.

فهل من أسرار ما صنعه الخالق شيء أقدس وأعجب من القلب. [1]

سبحانك إلهي!

مولاي: هل كان فيما أبدعه صنعكِ هذا، ما بين شتاءٍ وربيعٍ، إلا صورة رائعة أبرزت فيها بعظيم إبداعك، كيف يتحول اليأس المحرق إلى أملٍ خافقٍ منعش، وكيف تنشأ الحياة المضيئة من جوف ظلامٍ ميِّت!.

جلّت حكمتك وعظمتِ رحمتك يا مولاي: متّعت أعين العشاق بالورود الحمراء، وأنطقتها لهم بلغةٍ من الجمال تتقاصر عنها لغة الكلام، حتى يكون لهم من ذلك عزاء عن الجمال الذي افتقدوه، وسلوى عن الأمل الذي خسروه!..

أنعشت نفوسهم بعبق الرياحين وعطر الزهور، حتى يغسلوا أفئدتهم بها من غبار الكآبة وألم الهجران!..

أقمتِ لهم من مرأى الخمائل، بكل ما زيَّنتها به من فتنةٍ وجمال، نديما يسامرهم، وجليسا يؤنسهم، ونجيًّا يتأثر لأناتهم ويتمايل لآهاتهم!..

وأبدعت لهم ذلك كله، يا مولاي، من جوف أمهم الأرض!..

ألا بوركتِ أيتها الأرض، مصدر سلوى لأبنائك الذين لا تزال الحياة تحركهم على ظهرك، وليزدكِ الله رحمة بنا وحنانا، يوم يعيدنا الردى منكِ إلى الأعماق. [2]

1- من الفكر والقلب، ص 184 .
2- من الفكر والقلب، ص 185 .

إلهي كيف أيأس وأنت ربي ؟ !

أيتها الرياض النضرة!..

أيتها الورود الناعمة الضاحكة!...

أيتها الروائح المسكرة العبقة!..

لشدٍّ ما يطربني وينعشني أن أجدني غريقا فيما بينكم، ملفوفا بتحنانكم، ولكني ما انتعشت منكم بشيءٍ أكثر من الأمل!..

الأمل!.. أقرؤه في تماوج العشب مع الرياح السارية، وأجده في انبعاث روائح منعشة شتى من تلك الورود النضرة، واسمعه من حفيف الأغصان وتصفيق أوراقها الرقيقة الخضرة.

أجل.. إنه الأمل الذي صوَّرته يد الخلاق، إذ أنبتكم من طوايا أرضٍ مظلمةٍ جامدة؛ أبدع حياة الأرض من موتها، وأخرج زينة الدنيا من كآبتها، وأظهر أرقَّ ما في الكون من قسوته وصلابته!..

يا من استوى في خلقه الأمل واليأس، وتلاقى في تقديره الموت مع الحياة!..

يا منشئ النور من الظلام، ومبدع الفرح من الأحزان!..

يا من هذا سرّ لطفكِ وطعم إحسانك وحنانك؟..

يا إلهي: كيف أيأس إذا وأنت ربي، أم كيف لا ينعشني الأمل وأنت حسبي؟![1]

ما جمال الخلق إلا من جمال الخالق

إن ظلَّ الموقن بالله عز وجل يتأمل صور الجمال ومظاهر المنن والإحسان ومعاني العظمة والجلال، ليتبين من خلالها جمال الخالق وعظمته وإحسانه، اتجهت عواطفه وتجمعت شيئا فشيئا بالحب والإجلال لمبدع تلك المعاني ومصدر تلك الصفات. وإذا استمر به الحال تأملا وذكرا وفكرا، تحول الحب إلى وقود شوقٍ متضرم، واهتاجت الروح بنشوة بالغةٍ لا يعلم مدى لذتها وسموها إلا أصحاب هذه المعاناة.

1- من الفكر والقلب ، ص 186 .

ولكن هل تنقطع علاقة هؤلاء العشاق بصور الجمال، إنْ في أشكالها الطبيعية الجامدة، أو في صورها الإنسانية الحية؟

لا.. لا تنقطع علاقتهم بها قط، ما داموا في طور اليقظة الشعورية، وعلى مستوى التعامل مع الحياة. ذلك لأن الصور كانت ولا تزال مرآة شهودهم ودرب وصولهم وأداة ذكرهم. وذلك هو القاسم المشترك بينهم وبين سائر الناس.

إلا أن الجمال فيما يتعامل به عامة الناس، هو العنوان والموضوع، والطريق والغاية، بل هو غاية كل شيء. أما هؤلاء الذين تمحّض حبهم لله، فتظل صور الجمال، على اختلافها، عنوانا لموضوع حبهم الرباني، ونورا على درب معاناة طويلةٍ سعيا إلى تذويب حجب الأكوان عن مشاهدة المكوِّن.

إنهم يقفون بنشوة بالغة أمام لوحات الجمال والجلال الكونية، لأنهم يرونها المرآة الوحيدة لجمال الملك القدوس وجلاله. ويصغون بترنم بالغ إلى رجع الصدى إذ يجوب بألحانه الشجية في جوانب الدنيا، لأنه رأوا فيه النسيم الذي يحمل إلى أرواحهم عبق الذكرى.. ذكرى العهد القديم الذي لا تزال أرواحهم سكرى بنشوته.. عهد الخطاب الإلهي الذي وعته الروح، ونسيه الفكر وحجِبت عنه النفس: ألست بربكم؟!.. [1]

1 - من الفكر والقلب، ص 201 .



انتقاد

كل انتقاد للقرآن يوجه إليه من منطلق الزعم بأنه ليس كلام الله، يجعل مناقشتنا له في ذلك الانتقاد غير ذات جدوى، إذ النقاش الذي لا ينطلق ابتداؤه من نقطة ذات رؤية مشتركة، يكون كالخطين المتوازيين، لا يجتمعان في بداية ولا يلتقيان عند نهاية. [1]

ما هو القرآن

إن هذا الكتاب الرباني، ليس كتابا في علم التشريع والقانون، ولا كتابا في علم التاريخ والقصص، ولا كتابا يعرف على السماوات والأرض والأفلاك، وإنما هو تعريف للإنسان بهويته وذاته، وسمو به إلى النهوض بالوظيفة التي خلق من أجلها.

إن كل ما فيه من مسائل وموضوعات، إنما يدور على هذا المحور الكلي الواحد الذي يخاطب به الناس جميعا في كل زمان ومكان: ألا وهو دعوة الناس إلى أن يكونوا عبيد الله بسلوكهم الاختياري كما قد خلقوا عبيدا له بواقعهم الاضطراري. [2]

1- لا يأتيه الباطل، ص 27 .
2- لا يأتيه الباطل، ص27/ 28 .

الشمس الواضحة

بوسعك أن تعلم أنك من هذا الكتاب أمام شمسٍ واضحة مشرقة تسير أمام عينيك تحت قبة السماء الصافية، ليس حولها مزقة سحاب تغشي عليها، وليس بينك وبينها أي زوبعةٍ أو ضبابٍ تلبس أمرها عليك.

سلسلة متصلة من التدوين الكتابي الدقيق، والتلقي الشفهي السليم يسيران جنبا إلى جنب في تطابقٍ وإتقان، منذ بزوغ فجر هذا التنزيل إلى هذه الساعة من يومنا هذا، لا ترى فيها حلقة مفقودة أو ثغرة ينفذ منها الشك أو اختلاقا يبعث على الريبة. [1]

من هو العالم بالنص القرآني

إن العالم هو الذي يسبر غور النصوص إلى المراد منها حتى ينتهي من ذلك إلى التوفيق بين النصوص التي تتسم بالتعارض بحسب الظاهر، وليس هو الذي يخبط منها الدلالة السطحية ثم يبني عليها أخطر الأحكام.. [2]

القرآن ليس بخادم

إن ما يسلكه بعض الناس اليوم من تفسير الآيات الكونية في كتاب الله تعالى طبق نظريات وآراء علمية، لا دلالة في الآية عليها بميزانها اللغوي وحسب القواعد العلمية للتفسير، هو من قبيل التفسير الفاسد الذي يتّبع فيه المفسِر رأيه المجرد. ومثله ما يسمى بالتفسير الإشاري أو الباطني الذي ينتهجه بعض الفرق الباطنية أو المنحرفون من المتصوِّفة؛ ويسير وراءهم في ذلك طائفة أخرى من الناس، هان عليهم القرآن وفرغت قلوبهم من الشعور بجلاله وهيبته، فاقتحموا إليه بالتفسير والتأويل، طبقا لِما تهواه أنفسهم وتستدعيه عصبياتهم وأخيلتهم، وهم عن شروط وضوابط التفسير الصحيح، معرضون وغافلون.

1- لا يأتيه الباطل، ص 221 / 222 .
2- اللا مذهبية، ص 127 .

فالقرآن عند هؤلاء الناس ليس أكثر من خادمٍ لتأييد آرائهم ومذاهبهم وأخيلتهم!.. لهم أن يختاروا ما يشاؤون من المذاهب والآراء والتصورات في حقٍ أنفسهم ومصيرهم والكون الذي من حولهم، وعلى القرآن أن يكون طوع آرائهم والخادم الأمين لتصوراتهم وأفكارهم، ولا ضير أن يجرَّ القرآن إلى ذلك جرًّا، خارج حدود اللغة وضوابطها والحقيقة ومجازها!!.. [1]

سبيل المعرفة

إن السبيل إلى اكتساب المعرفة الكلية الشاملة التي من شأنها أن تبعث الثقة بالمعلومات الفرعية والجزئية التي تأتي على أعقابها، لا يتحقق إلا عن طريق كتاب الله تعالى. فهو الذي يقدم للإنسان خارطة إجمالية لبنيان هذا الوجود كله، وهو الذي يعرفه على مرافق هذا البنيان وعلى صلة ما بينها وسبل الاستفادة منها. [2]

أسلوب القرآن في إنقاذ الناس

إن أسلوب القرآن عندما يحذر من الانحراف إلى الفواحش والموبقات أنه لا يحذرك من نهاياتها الخطيرة البعيدة ولكنه يحذرك من الاندفاع في طرقها السهلة القريبة. ذلك لأن السبيل الوحيد إلى أن لا تقع في تلك الموبقات هو أن لا تسلك مسالكها. أما إذا سلكت فيها ودنوتِ إليها فهيهات أن تقوى على الرجوع. إنك تقع عندئذٍ ضمن حدود جاذبيتها، وقلما تمكن مغامر من التخلص عن تلك الجاذبية والرجوع إلى أول السبيل الذي انحرف إليه.

من أجل هذا ينهى الله تعالى دائما عن القرب من الموبقات لا عن نفس الوقوع فيها. فهو يقول: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام / 151]، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: 152]، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 32]. [3]

1- من روائع القرآن ، ص 80، 81 .
2- وهذه مشكلاتنا، ص 155، 156 .
3- من أسرار المنهج الرباني ، ص 34، 35 .

القرآن هو الحل

إن الاضطراب الفكري الكبير الذي ينجرف فيه اليوم كثير من الغربيين، ويزجهم في فراغ نفسي يبعث على التطلع إلى البديل.. البديل عن كل شيء، لا مفر منه إلا باللجوء إلى القرآن الذي هو معين الإسلام ومصدره. ولكن السير إلى القرآن يحتاج إلى دليل، والإصغاء إلى إخباراته وبياناته يحتاج إلى مرشد ومعلم، فأين هم الأدلاء والمرشدون والمعلمون ينجدون هذه الكثرة الكاثرة من المستنجدين؟ لقد توازعتهم السبل الكثيرة المتعرجة، سبل الانتصار للأفكار والاتجاهات والقناعات الشخصية المتناقضة.

ومن ثم فهم في شغل شاغل عن الاستجابة لتطلعات الملايين المتكاثرة، الذين يبحثون عمن يدلهم على صراط الله، ويخرجهم من ظلمات التيه الذي أطبق عليهم، إلى ضياء القرآن وهديه!.. [1]

خارطة الوجود في القرآن.

إن السبيل إلى اكتساب المعرفة الكلية الشاملة التي من شأنها أن تبعث الثقة بالمعلومات الفرعية والجزئية التي تأتي على أعقابها، لا يتحقق إلا عن طريق كتاب الله عز وجل، فهو الذي يقدم للإنسان خارطة إجمالية لبنيان هذا الوجود كله، وهو الذي يعرفه على مرافق هذا البنيان، وعلى صلة ما بينها وسبل الاستفادة منها. [2]

1- الإسلام والغرب، ص 76 / 77 .

2- منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ص 132 .



الدار العامرة . . الإسلام . .

إن الدار العامرة التي يتخلى عنها أصحابها، لن يضيرها بفراقهم شيء.. يعرف هذا كل عاقل. وإنما الذين يصيبهم الضيم هم أولئك الذين خرجوا منها إلى العراء وتعرضوا من بعدها لعوادي الطبيعة وقسوة الحر والبرد وأسباب التشرد والضياع. أما الدار التي تركوها فسيتسابق الكثيرون من بعدهم إلى احتلالها.

وهل الإسلام في جوهره وأصوله إلا كهذه الدار: حقيقة راسخة ناصعة لا مرد لها، مهما اصطنع الريبة فيها أولو النزعات والأهواء، ومهما تنكروا لها أو تخلوا عنها باسم التحرر.. أو التطور.. أو ما شابههما من الكلمات الجوفاء. وما دام في الناس عقول تنزع بهم إلى التأمل والتدبر والدراية المتحررة، فلسوف تجذبهم هذه العقول إلى المثول أمام حقيقة الإسلام كما تجذب الشمس إليها الأبصار.[1]

1- هذه مشكلاتهم، ص 109 /110 .

إنه تنزيل من رب العالمين

لقد بات واضحا لكل عاقل أن الإسلام لو كان نظام أمة اخترعته أو شرعة دولة تبنته، لقضي عليه منذ أحقابٍ طويلة، ولما كان نصيب الناس منه اليوم إلا التخيل والذكرى؛ إذ إن معشار المكائد والحروب التي انصبَّت عليه وأحدقت به، كانت كفيلة بمحقه. ولكن بقاءه – على الرغم من ذلك – في قوة متنامية وانتشار مستمر، وإقبال عليه من سائر الطبقات والأصقاع، برهان قاطع ساطع على أنه تنزيل رب العالمين، القائل في محكم تبيانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[الحجر/9]. [1]

رحلة الإسلام في القلب

إن الإسلام يبدأ عمله بالتوجه إلى فكر الإنسان يخبره بجملةٍ من الحقائق والوقائع لا أكثر، تتعلق بذاته وقصة وجوده والكون المحيط به، ووجود خالقٍ واحدٍ له وللعالم كله. فإذا ما تنبه إلى هذه الحقيقة وصدق بها واستولت بسلطانها على مشاعره، كان ذلك إيذانا له بأن يعيد النظر إلى ما كان قد وعاه وتصوره من أمر نفسه، وبأن يبدأ فيتعرف على هويته من جديدٍ، وذلك على ضوء الواقع الذي أدركه واستيقنه بعد تأمّلٍ وبحث.

وسيدعوه هذا اليقين، بلا ريب، إلى أن يوطِن نفسه لتقييد حريته طبق ما تقتضيه معلوماته الجديدة عن نفسه وعن مولاه وعن خالقه.

بعد هذه المرحلة التأسيسة الهامة، يقدم الإسلام للإنسان صفحة الإرشادات والتعليمات السلوكية، منبثقة عن واقعه الذي كشفه له ونبهه إليه، فصدقه واصطبغ به كل من شعوره ووجدانه. فما أيسر عليه بعد هذا، أن ينصاع لتلك التعاليم والإرشادات، وما أبعد أن تقف حريته لها بالمرصاد. كيف وقد تقيدت هي بذاتها بسلطان ذلك الواقع وخضعت لمقتضاه وضروراته أتم الخضوع. [2]

1- هذه مشكلاتهم، ص 158 / 159.

2- حرية الإنسان، ص 63 .

مهمة الإسلام

إن المهمة الأساسية للإسلام، تتلخص في أنه يبصِر الإنسان أولا بهويته ويطلعه على حقيقة ذاته، ثم يدعوه إلى أن يكون في سلوكه الشخصي وعلاقاته مع الآخرين، منسجما مع مقتضى هويته هذه. [1]

حقيقة الدين

إن هذا الدين لم يكن يوما ما اختراع أمة من الناس، ولا نتاج مجتمعٍ من المجتمعات، ولا فكرة فرضها حاكم أو سلطان، وإنما كان وحيا من لدن خالق هذا الكون وقيومه، إلى الصفوة المختارة من خليقته. [2]

تحديث الإسلام أم أسلمة الحداثة

إن ما يسمى بتحديث الإسلام وعصرنته ليس له، على حدٍ علمي، إلا معنى واحد، هو العبث به ثم محاولة القضاء عليه.

أما المخلص للإسلام وللدعوة إليه، فهو ذاك الذي يعيده إلى ينابيعه، ويجعل من عهد رسول الله ﷺ وأصحابه النموذج الذي يجسِده ويبرزه على حقيقته.

فإن كان الرجوع إلى جوهر الإسلام ومعينه الصافي عن الشوائب، تحديثا وعصرنة، فذاك يعني إذن أسلمة الحداثة والعصرنة، وتوبة كلٍ منهما إلى الله من اللحاق بالمدنيَّات الزائفة والأهواء المنحدرة الآسنة.

وتلك هي أمنيتنا، وأمنية كلٍ عاقلٍ بصيرٍ بحقائق الأمور، متحررٍ من أغلال العصبية وعبادة الذات. [3]

1- حرية الإنسان، ص 67

2- حرية الإنسان، ص 73

3- المرأة، ص 92

قاسم مشترك وفارق أساسي

من المعلوم أن هنالك قاسما مشتركا بين الإسلام والمذاهب الوضعية. ولكن بينهما فارقا أساسيا كبيرا في الوقت ذاته.

أما القاسم المشترك، فيتمثل في أن كلا منهما يقدم مشروع نظام، يفترض أنه الأفضل والأكثر استجابة لحاجات الإنسان ومصالحه.

وأما الفارق الأساسي الكبير، فيتمثل في أن النظام الإسلامي يأتي ثمرة دينونة الإنسان لله، وإيمانه الطوعي بوجوده ووحدانيته، وثقته التامة بحكمته وعدله ورحمته، ومن ثِمَّ فهو لا يطمئن على حكمٍ غير حكمه ولا يثق بنظامٍ يصلح لمعاشه ومعاده غير نظامه.

أما الأنظمة والمذاهب الوضعية فهي ثمرة رؤى وأفكار بشرية، تبناها أصحابها بدافع مزيج من الاجتهادات التي اقتنعوا بها، والأغراض التي استهوتهم، والعصبيات التي أسرتهم؛ ومن هنا لم يكن لها من سبيلٍ إلى الأفئدة والعقول، تقديسا لها وإيمانا بها. إذ الناس مهما اختلفوا في الأعراق وتمايزوا في الثقافات والمدارك، تجمعهم مشاعر الندية المتكافئة، وتفرقهم عن بعضهم مصالحهم المتخالفة وأهواؤهم وأمزجتهم المتعارضة. فهيهات أن تسري آراء ثلة من الناس إلى عقول الآخرين من أمثالهم، من خلال قناة التقديس والإذعان بأنها خير آراء أخرجت للناس.[1]

لِمن سيكون الاصطفاء ! . .

إن قدرة الإسلام على صنع الأمم والرجال هي هي، لأن الإسلام هو هو، وكما لم يعجز بالأمس عن اصطفاء حفنةٍ من سكان الصحراء لقيادة عالمٍ بأسره وإنشاء حضارة إنسانية كاملة، فلن يعجزه شيء اليوم عن اصطفاء فئة أخرى من الناس، أيا كانوا وأينما كانوا؛ فذلك شأنه، وتلك هي وظيفته، ألم يقل في بيان ذلك صاحب هذا الدين وقيّومه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾[محمد: 38] .[2]

1- وهذه مشكلاتنا ، ص 49 .

2- وهذه مشكلاتنا ، ص 82 / 83 .

نور موجود أبدا

إن الحق الكامن في تضاعيف الإسلام كالشمس تماما قد تغرب أشعتها عن رقعةٍ من الأرض، غير أنها في الوقت ذاته تبعث الأشعة ذاتها مشرقة في بقاعٍ أخرى من الأرض ذاتها. وإنها لسنّة ربانية لا يلحقها أي خلف. أولم تقرؤوا قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[المائدة: 54]. [1]

لا ملجأ إلا الإسلام

إن مأساة إعراض كثيرٍ من المسلمين عن إسلامهم، وتفرقهم بين متاهات الشهوات والأهواء، لا تشكل خسارة تحيق بالإسلام، وإنما هي خسارة كبرى تحيق بهم أنفسهم. فالحصن الذي يتخلى عنه أصحابه يظلّ حصنا في واقعه وطبيعته وأداء مهمته، ولا بد أن يأوي إليه آخرون. وإنما تحدق الأخطار بأولئك الذين تخلوا عنه وآثروا لأنفسهم الانتشار في العراء. [2]

الإسلام . . نهاية على طريق العلم

إن الحقائق الغيبية التي أنكرها الغرب بالأمس، ويذعن لها اليوم، كالروح، والعقل، والوجدان، والقيم الجمالية... لا يمكن فهمها بطريقة علمية، إلا على ضوء الإيمان بوجود الخالق عز وجل؛ وبدون ذلك تبقى هذه الحقائق – وإن أذعن لها العالم – لغزا يستعصي على الفهم. وإذا تم الإيمان بالخالق عز وجل، فلا ريب أن هذا الإيمان يسلم صاحبه إلى الدينونة بالعبودية له، ويحمله على الإصغاء إلى أنبائه وتعاليمه، ثم يدعوه إلى التقيد بهذه التعاليم جهد المستطاع. وذلكم هو الدين. كل ما في الأمر أن على الإنسان، وهو يتلمَّس تعاليمه، ويصغي إلى خطابه، أن يهتدي بمنهجٍ علميٍّ سليم، وأن يحذر من الاستسلام للعواطف التي لا تتقيد بضوابط المنطق والعلم.

1- وهذه مشكلاتنا، ص 83 .
2- وهذه مشكلاتنا، ص 84 .

وإذن.. فالإسلام، الذي هو الدين الحق، ليس ممارسة لحقيقة العلم، ولا هو خط مستقل أو موازٍ للعلم لا ينطلق معه من بداية ولا ينتهي معه إلى نهاية، وإنما الإسلام نهاية على طريق العلم، فمن أذعن للعلم وأخلص له، وواصل رحلته على طريقه، لا بدَّ أن يجد نفسه وجها لوجه أمام الحقيقة العلمية الكبرى... أمام الدين الحق الذي هو الإسلام.[1](1)

شمسنا لن تغرب . .

ليس مهما أن يصحو أو لا يصحو المسلمون التقليديون عندنا إلى هوياتهم الإسلامية، إنما المهم أن الحق الكامن في تضاعيف الإسلام، كالشمس تماما، قد تبعث الأشعة ذاتها مشرقة في بقاع أخرى من الأرض ذاتها. وإنها لسنة ربانية لا يلحقها أي خلف. أولم تقرؤوا قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[المائدة:54]. (2)

كيف نمارس الإسلام . . .

إن الإنسان لكي يمارس الإسلام يقينا وسلوكا، لا بدَّ أن يجتاز المراحل الثلاث التالية:

- التأكد من صحة النصوص الواردة والمنقولة عن فم سيدنا محمد ﷺ ، قرآنا كانت هذه النصوص أم حديثا؛ بحيث ينتهي إلى يقينٍ بأنها موصولة النسب إليه، وليست متقولة عليه.
- الوقوف بدقة على ما تتضمنه وتعنيه تلك النصوص، بحيث يطمئن إلى ما يعنيه ويقصده صاحب تلك النصوص منها.
- عرض حصيلة تلك المعاني والمقاصد التي وقف عليها وتأكد منها، على موازين المنطق والعقل (ونعني بالمنطق هنا قواعد الدراية والمعرفة عموما)، لتمحيصها ومعرفة موقف العقل منها.

فمنهج المعرفة الإسلامية والانضباط بمبادئه وأحكامه، يتكون من ثلاثة أجزاء، كل جزء منها يتكفل بحمل صاحبه إلى ثلث الطريق. ومن تلاقي هذه الأجزاء الثلاثة متدرجة على الترتيب الذي ذكرناه، تتم الرحلة إلى معرفة الإسلام والانضباط به اعتقادا وسلوكا.[3]

1 - وهذه مشكلاتنا ، ص 135 .
2- الإسلام والغرب ، ص 62 .
3- السلفية ، ص 63 .

يوم الفتح ! !

أتذكر يوم خرج النبي ﷺ من وطنه، مكة، مستخفيا في بطون الشعاب والأودية، مهاجرا إلى يثرب، وقد سبقه من قبله ولحقه من بعده أصحابه القلة المستضعفون يتسللون مهاجرين، وقد تركوا المال والأهل والأرض من أجل أن يبقى لهم الدين؟..

ها هم أولاء وقد رجعوا إلى الوطن والأهل والمال، وقد كثروا من بعد قلة، وتقووا بعد ضعف، واستقبلهم أولئك الذين أخرجوهم بالأمس خاشعين أذلاء خاضعين..

ودخل أهل مكة في دين الله أفواجا، وأقبل بلال الحبشي وهو الذي طالما عذِب في رمضاء مكة على أيدي المشركين، فصعد على الكعبة المشرفة ينادي بأعلى صوته:

الله أكبر .... الله أكبر ..

ذلك الصوت الذي كان يهمس يوما ما تحت أسواط العذاب:

أحد .. أحد ... أحد .....

ها هو اليوم يجلجل فوق كعبة الله تعالى قائلا:

لا إله إلا الله محمد رسول الله..

والكل خاشع منصت خاضع !!!!

ألا إنها لحقيقة واحدة لا ثانية لها: هي الإسلام، فما أحمق الإنسان وما أجهله، حينما يكافح أو يناضل أو يجاهد في غير سبيل الإسلام، إنما يكافح حينئذ عن وهم لا حقيقة له ولا طائل. [1]

فرق كبير ! !

الذي يرغب أن لا يكون الإسلام أكثر من انقطاعٍ في المساجد أو الزوايا، وأن لا يكلف أهله أكثر من أورادٍ تتكرر مع كل صباح ومساء، وقفزٍ وإنشاد يمتعون بهما النفس على وهم أنهم يصلحون بهما القلب – يجب أن لا يردد من القرآن آيات الجهاد، وأن لا يتذكر من سيرة رسول

1- فقه السيرة النبوية، ص 397 / 398 .

الله ﷺ سعيه الرائع العظيم في سبيل إقامة المجتمع الإسلامي وحكم الإسلام، وأن لا يتذكر أنه عليه الصلاة والسلام شاد هذا المجتمع الإسلامي العظيم ثم سلمه أمانة إلى أجيال أمته من بعده.

أما الذي فهم الإسلام كما أنزله ربه عز وجل: إيمان بالله وحده، ويقين بأنه عبد مملوك لهذا الإله الواحد الأحد، واعتقاد بأنه مخلوق في هذه الدنيا ليكون عبدا له عز وجل بالكسب والاختيار كما قد خلقه عبدا له بالجبر والاضطرار، واعتقاد بأن مصيره إلى الله وأنه سيلاقي جزاء ما قدِّم، ثم عمل دائب بعد ذلك على دفع النفس الأمارة بالسوء في مدارج الإصلاح والقرب إلى الله، وعلى دفع المجتمع الذي هو فيه إلى صعيد الحكم بما أنزل الله – فهذا هو الذي يعتبر فهمه وسلوكه نواة صالحة لوحدةٍ إسلاميةٍ صالحة، وعلى هذا المحور يمكن أن يجتمع أمر المسلمين، ومن هذا المنطلق ينصر الله جماعة المسلمين ويمدهم بالتأييد والعون. [1](2)

إنه ليس إسلامنا نفسه

إذا كانت بداية السعي إلى ((تفجير الطاقات الخلاقة في الإسلام)) هي التخلص من ((النصوص المحدودة الضيقة)) فلا ريب أن ذلك الإسلام الذي يسعون إلى تفجير طاقاته الخلاقة، هو غير هذا الإسلام الذي نتحدث عنه ونعتنقه ونقوم ونقعد بالحديث عنه، فإسلامنا هذا إنما ينتمي نسبه المباشر إلى أبوين من نصوص الكتاب والسنة، ومحال أن يخلص في المحافظة على هذا الإسلام من يسعى جاهدا للتحرر من قيد نصوصه التي لم ينبثق الإسلام إلا منها . [2]

حقيقة لا جدل فيها

إن الإسلام الذي انقاد له المسلمون منذ أقدم عصوره إلى يومنا هذا، لم تنبع قداسته من كونه تراثا لا يجوز تضييعه، ولا من كونه حضارة يجب الاعتزاز بها، ولا من كونه مجموعة نظم اجتماعية تجب رعايتها وتطويرها.

وإنما تتمثل حقيقته التي هي سرّ قداسته في كونه دينونة كلية شاملة من الإنسان لخالقه

1 – باطن الإثم، ص 92 / 93 .
2– التعرف على الذات، ص 211 / 212 .

عز وجل. وليست هذه الدينونة سوى أن يكون عبدا ذليلا له بالسلوك الطوعي والاختياري، كما قد خلق عبدا بالقهر والحكم الاضطراري. فمن هذا المنطلق خضعت رقاب المسلمين لما قد قضى به كتاب الله عز وجل، وجاءت به سنة رسوله ﷺ. ومن هذا المنطلق ألزموا أنفسهم بشرائع الله وأحكامه: دراسة وحفظا واجتهادا وتطبيقا. [1]

أعيدوا إلى الإسلام حياته

كل علماء المسلمين يعلمون أن إسلام المسلمين لو ظل حيا في نفوسهم كما كان، يعمل عمله في حياتهم كما هو شأنه. لاستمروا صاعدين في نهضتهم العلمية المعروفة، ولسجل التاريخ للمخترعات والاكتشافات العلمية ميلادا أسبق من ميلادها الزمني المعروف اليوم بما لا يقل عن قرنين من الدهر.

واليوم.. أعيدوا إلى الإسلام حياته التي كانت في النفوس، ومكنوه من أن يعود فيعمل عمله في قيادة المجتمع، واجعلوا إليه حل كل مشكلة وعويصة. ثم حملوه تبعة كل تخلف وقصور، إن وجدتم عند ذلك أي تخلف وقصور. [2]

لماذا هذا السؤال البدهي

لماذا يقبح بالقزم أن يلبس ثياب المردة الطوال؟ ولماذا يقبح بالمارد أن يرتدي ثياب الأقزام؟..

لماذا يقبح بالإنسان أن يتشبع بما ليس فيه وأن يدعي ما ليس له، وأن يزعم لنفسه الحرية وهو مملوك، وأن يتجاهل حقوق الآخرين وهو مدين لهم ومستأجر؟.

هل يعجز أحد عن معرفة الجواب البدهي على هذه الأسئلة؟.. إن الجواب عن سؤال السائل: لماذا الإسلام، أكثر بداهة ووضوحا. [3](2)

1- التعرف على الذات، ص 216 .
2- من الفكر والقلب، ص 23 .
3- الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية، ص 17 .

بداية عمل الإسلام . .

إن الدين – وليعلم أننا نعني به الإسلام – إنما يبدأ عمله في حياة الإنسان بعِرْضٍ إخباري.. إذ هو يكشف السجاف عن حقائق هامة كامنة في ذاته، ولكنها قد تكون في بادئ الأمر خفية عن بصيرته وشعوره. وهو يمعن في تجلية هذه الحقائق الذاتية وإبرازها أمام فكره ومشاعره بالأدلة والبراهين المختلفة، لا يزيد على ذلك شيئا. فإذا تنبه الإنسان إلى هذه الحقائق وصدق بها واستولى على مشاعره، كان ذلك إيذانا بأن يعيد الإنسان النظر إلى نفسه بطبيعة الحال، وأن يبدأ فيتعرف على هويته من جديد، على ضوء واقعه الذاتي الذي لم يكن قد تنبه إليه من قبل، ولم يكن قد أعطاه من نفسه أي حساب. وسيدعوه ذلك، ولا ريب، إلى أن يقيد حريته بمقتضى ذلك الواقع الذي يفرض نفسه، والذي لا اختيار له في رفضه أو قبوله.

ثم إن الإسلام يقدم لهذا الإنسان، بعد ذلك، صفحة الإرشادات والتعليمات المنبثقة عن واقعه الذي سبق له أن اكتشفه وصدّقه واصطبغ به كل من وجدانه ومشاعره. فما أيسر عليه أن ينصاع عندئذٍ لتلك التعاليم والإرشادات، وما أبعد أن تقف حريته لها بالمرصاد.. كيف وقد تقيدت هي ذاتها بسلطان ذلك الواقع وخضعت لضروراته. إذ إن إيمانه به يجعله بطبيعة الحال يلامس شعوره ويسري بالتأثير إلى أخصِّ شؤونه!.. فهو كمن كان يمارس حريته في كل ما يأكل ويشرب ويتصرف، ثم اكتشف أنه يعاني من مرض يقتضيه الاحتماء عن بعض تلك الأطعمة والابتعاد عن بعض تلك التصرفات، لا ريب أنه يجد نفسه أمام واقع حتميٍّ لا يستطيع تجاهله أو عدم الاكتراث به، لأنه أمر متعلق بذاته وداخل في كينونته. وهو الأمر الذي يستوجب تقييد حريته بما يتفق مع هذا الواقع وحكمه.

فمن هنا كان سلطان الإسلام نافذا، في حين بقيت محاولات أولئك الآخرين أفكارا نظرية، ليس لها أي سبيل من التأثير على سلطانه.

ولعلك أدركت الآن السر في أن القرآن يحدث الإنسان كثيرا عن ذاته وهويته ومصدره ومآله، قبل أن يوجهه إلى أي شيء من الواجبات أو يحمله شيئا من التبعات.

السر هو أن خضوعه لتلك الواجبات لا يمكن أن يتم إلا إذا اكتشف ذاته وأدرك أنها قائمة على صفات وقوانين منسجمة مع النهوض بتلك الواجبات. لا جرم إذن أن معرفة الإنسان لذاته بدقة هي السبيل الذي لا بديل عنه إلى خضوعه للضوابط والأحكام السلوكية.[1]

أيّ إسلام ؟!

إن الإسلام الذي ألزم الله به عباده، إنما هو ذلك الإسلام الذي يبدأ بترسيخ جذور العقيدة وتعريف الإنسان بهويته الحقيقة من خلال تبصيره برب هذه المكونات وخالقها، ثم يسلمه بعد ذلك إلى الضوابط السلوكية وقيود الشريعة والأخلاق، وليس ذلك الإسلام الآخر الذي ابتدعه عشاق الحضارة الغربية، إذ جعلوه عنوانا على تراث حضاري يفخرون بذكريات أمجاده، ويتغزلون بفائق مرونته وصلاحية انسياقه وراء كل متطور وجديد.[2]

تخطئ إن ظننت أن إسلامك يكفيك وفق هواك

يخطئ من يظن بأن المسلمين إنما ينهض بهم الإسلام إلى الحياة الكريمة الفاضلة بسبب ما في النظم والأحكام الإسلامية من ضمانات لمصالح الناس بقطع النظر عن أي سببٍ آخر. أجل، يخطئ من يظن ذلك، فإن الإسلام إنما يضمن تحقيق مصالح المسلمين بسبب ما قد يتصفون به من الدينونة لله تعالى والعبودية الصادقة له، وليس للأحكام والنظم ذاتها أي مدخل إلى ذلك، إذا فصلتها عن دافع الدينونة لحكم الله والخضوع لسلطانه. بل ليس ثمة أي ضمانةٍ لمن يطبق الإسلام من حيث إنه نظام وقانون فقط أن يجني من ورائه أي سعادة أو خيرا!.. فإن كلا من أسباب الخير والشر ليست أسبابا حتمية في حقيقتها، وإنما هي أسباب جعلية ثبتت لها هذه المزية بجعل الله تعالى وحكمه. والأحكام الشرعية بحد ذاتها أقل من أن تخلق للناس سعادة أو رشادا، ولكنها، وقد أمر الله بها، أصبحت مقياسا لصدق العبودية لله والدينونة لحكمه، وإنما يسعد الناس بانضوائهم في دين الله والدخول طوعا تحت ذل العبودية لله، والانسياق وراء مشاعر الرهبة من عقابه والرغبة في ثوابه. ومن دون ذلك الانضواء وهذا الشعور لا تعتبر الشرائع الفرعية للإسلام إلا قيودا تنظيمية شأنها شأن غيرها من الضوابط والقيود.

---

1 - الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية، ص 32 /33 .

2- الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية، ص 45 / 46 .

وانظر.. كم تتجلى هذه الحقيقة بارزة وقاطعة في القانون الإلهي الذي ختمت به الآية التالية من كلام الله عز وجل:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم:14-13].

إن الخطاب الإلهي – كما ترى – يخبر عن كيفية انتصار الطائفة المؤمنة على خصومهم الذين طالما هددوهم بالطرد والإهلاك وساموهم أشد ألوان العذاب، كيف ثبَّت دعائم هذه الطائفة في الأرض من حيث أهلك الآخرين، ثم يلفت النظر إلى أنه قانون إلهي مستمر، وليس حادثة جزئية عابرة، ويعبر عن القانون بهذه الخاتمة ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم:14]

وتلك هي حقيقة الإسلام وجوهره، إنه الخشية التي تأخذ بمجامع القلب نابعة من مصدرين اثنين:

- الخوف من عظمة الربوبية في ذات الله تعالى وامتلاء المشاعر بصفاته عز وجل.

- الخوف من وعيده الذي أبلغه أمم الأرض كلها عن طريق ما بث فيهم من الرسل والأنبياء، وإنما تأتي النتائج الأخرى لاحقة بهذا الخوف، منوطة بهذا التعظيم، منساقة وراء هذا الشعور.

وأنى لشهوات الأرض كلها أن تقف عندئذ في الطريق، أو أن تتغلب على القلب الذي امتلكته مخافة الله، فراح يفيض على المشاعر كلها صبغة العبودية الكاملة الصادقة لقيوم السموات والأرض، أو أن تبقي في النفس شيئا من آثار عصبية أو تبعية أو رابطة تقليد، أو أن تحمل شيئا من نوازع الفكر والعقل، على أن تستخف بالغائب المحجوب الذي أخبر الله عنه في سبيل اقتناص الحاضر المرغوب الذي جعله الله فتنة وامتحانا.

تلك هي حقيقة الإسلام. وتالله إنها الحقيقة التي يفقدها أكثر المسلمين اليوم.

يؤمنون بالله، ولكنه إيمان محبوس في سجن رهيب من رواسب الشهوات والأهواء، والركون إلى زهرة هذه الأرض!.. إيمان بهذا الشكل لا ريب أم مآله إلى الموت والاختناق، إن لم يكن ذلك أثناء مرحلة من مراحل العمر، فإنه كائن لا محالة عند الوقوع في سباق الموت.

مسلمون لله، ولكن على طريقتهم الخاصة، إسلام لا يتجاوز الحلقوم ولا ينهض على أي ساقٍ من استشعار معنى العبودية لله عز وجل!.. مسلمون ويجلسون مع الله على مائدة مستديرة يناقشون في نظامه وأحكامه وحلاله وحرامه!.. مسلمون ويقول قائلهم: إن كثيرا من أحكام الشريعة لم تعد صالحة للتطبيق!.. مسلمون ولم تدع الدنيا التي التفت على أفئدتهم واستعمرت مشاعرهم أي مكان صالح فيها للخوف من مقام الله أو الرهبة من وعيده!.. مسلمون ولم تدخل أفئدتهم في محراب الخشوع له يوما من الأيام، ولا ذاقت أعينهم طعم الدموع من خشية الله أمام تذكرة مذكر أو آية تهديد أو وعيد!..

إسلام بهذا الشكل لا ريب أنه لا يصد صاحبه عن أن يقيم من نفسه مقوما لشرع الله يفصل الصالح منه عن الفاسد!.. ويميز الخبيث منه – بزعمه – عن الطيب!.. وإسلام بهذا الشكل لا يعد في حكم الله إسلاما، لأنه افتقد أهم حقائقه وأركانه، وهو استشعار معنى العبودية لله. فهل رأيت إسلاما بغير استسلام، وإيمانا بالله دون انصباغ بالعبودية له؟!..[1]

الإسلام . . أداة توصلك لكل شيء

أين هي تلك الرابية العجيبة التي يمكن أن يعلوها الإنسان، فيطّلع منها على المنظور الكلي للحقيقة الكونية بجوانبها المتباعدة؟.. أم أين هي الأداة التي تجمع نثار هذه المكونات وتطوي جوانبها المترامية، ثم تضع منها نموذجا كليا أمام بصيرة الإنسان وفكره؟

أما إنه ليس مبالغة ولا مفاجأة أن أقول لك:

ليس أمام الإنسان من أداة يسخرها لذلك، إلا الإسلام!..

ذلك لأن الإسلام ليس إلا تعريفا للإنسان بقصة هذا الكون كله من حيث هو، وتبصيرا له بمنظوره الكلي الشامل، وتنبيها إلى أخلافه وأسراره الكامنة من ورائه.

وخير تعريف مقرب له أن نقول: إنه الخاطرة الشاملة التي إذا بسطها الإنسان تحت عينيه، رأى المكونات التي تموج حوله مجسدة في حقيقتها الكلية الواحدة، ورأى الشرايين الموصلة بين جوانبها، والعروق الجامعة لوحدتها، والسر الجاثم من ورائها.

1- الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية، ص 71 ، 73 .

فجدير بمن امتلك تلك الخارطة، وتأملها ببصيرة حرة، أن يجد السبيل إلى دراسة ما شاء بعد ذلك من بقاع تلك الخارطة، والتعمق في أنحائها، دون أن يقع منه في أي حيرة أو اضطراب. وكيف يتيه في خطوط الخارطة وتعاريجها من قد درس قبل كل شيء جهاتها، ووقف على خطوط الطول والعرض فيها، وتصور منظورها الكلي في ذهنه؟. [1]

1- الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية، ص 81، 82 .



ومضات من منهجنا الإسلامي في التربية

تربيتنا الإسلامية

إن التربية الإسلامية تسلك السبيل بالفرد المسلم على مرحلتين: الأولى مرحلة العرض والمناقشة والإقناع، والثانية مرحلة التعريف بماهية السلوك النموذجي الذي أمر به الإسلام، ثم محاولة إيجاد أكبر قدر ممكن من الانسجام بين حياة الفرد المسلم وهذا السلوك النموذجي المطلوب. [1]

من هو مدرس التربية الإسلامية

خلاصة ما تمتاز به علاقة مدرس الدين هي أنها علاقة أخٍ وصديقٍ كبير بإخوانه وأصدقائه الصغار قبل أن تكون علاقة مدرس أو أستاذ بتلاميذه، وما ساعة الدرس بالنسبة إليه إلا وسيلة لتوطيد أسباب التعارف بينه وبين طلابه، وما البحوث التي يلقي إليهم بها إلا طريق للاطلاع على مختلف مشكلاتهم..

فمن الخطأ إذا أن يدخل المدرس إلى الفصل بادئا حديثه على الطلاب بدرسه المنهجي وخاتما أيضا حديثه بذلك، لا يخرج عن هذا الصراط من قبل ولا من بعد ولا فيما بين ذلك.

1- تجربة التربية الإسلامية، ص 34 .

ومن الخطأ أيضا ألا يتعرف على أسماء طلابه وأشخاصهم إلا من خلال الوظائف والاختبارات والامتحانات، ثم هو من وراء ذلك لا يعرفهم ولا يكلمهم ولا علاقة له بهم.

ومن الخطأ أيضا أن يتخذ من منصة درسه عرشا إذا ما جلس عليه تخيل نفسه معلقا بالثريا، وطلابه من دونه ملتصقون بالثرى؛ فهو لا يرضى أن ترفع إليه من الأسئلة إلا ما صدق عليها جميع موازين اللياقة واللباقة والأدب، ولا يسمح لأي فكر أن يتجاوز معه الحدود فيناقش أو يصارح بزعم أنه لم يفهم.

ومن الخطأ أيضا أن يصطنع الغيرة على حرمات الله وأحكامه، فينقذف بالتقريع والغضب والشتم على كل من يجده متساهلا في أحكام الإسلام أو عباداته، أو مناقشا في بعض شؤون العقيدة ومقوماتها.

إن أي خطيئة من هذه الخطيئات من شأنها أن تفسد نوع الصلة التي ينبغي أن تكون بين مدرِّس الدين وطلابه، حيث تصبح علاقته بهم مقتصرة على القدر الذي يسمح له بأن يقبض راتبه في نهاية الشهر باعتباره موظفا في عملٍ من قبل الدولة لا أكثر. [1]

(اعلم) هو أمر الله

إن التكليف الإلهي الذي خوطب به الإنسان يمكن أن يترجم بكلمة: اعلم، ولكن لا يمكن أن يترجم بكلمة: اعتقد. ذلك لأن (اعلم) تعني السعي إلى المعرفة، أما (اعتقد) فتعني حمل العقل على الجزم واليقين. ومن المعروف بداهة أن السعي إلى المعرفة ممكن؛ أما حمل العقل على اليقين بشيء ما فغير ممكن.

وإن بوسعك أن تتبين دقة التعبير القرآني عن هذه الحقيقة في قول الله عز وجل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد:19] إذ أمر بالعلم ولم يأمر بالاعتقاد، لما بينهما من الفرق الذي وضحناه. [2]

السلاح العجيب . .

لقد استعان أبي بعلمه الغزير، ولسانه الذي أصبح طليقا، كما استعان بطول الصبر والتحمل، بل استعان بعد ذلك كله بكثير ممن بيدهم الحكم والسطوة. فلم يأتِ ذلك كله بأي نتيجة على طريق السعي إلى هداية بعض أولئك الجهال بل السفهاء.

1- تجربة التربية الإسلامية، ص 136 / 137 .

2- حرية الإنسان في ظل عبوديته لله ، ص 35 .

وإنما أنجده بعد ذلك كله، كثرة الالتجاء إلى الله، وطول التضرع بين يديه، في ظلمات الليالي وساعات السحر.. وليت الدعاة إلى الله – إن كان في هذا العصر دعاة – يدركون قيمة هذا السلاح العجيب في إصلاح الفساد وتقويم الاعوجاج. [1]

التصوف النقي

إن الالتزام الحقيقي بأوامر الله عز وجل يأتي نتيجة ازدهار ثمرات الإيمان بالله في القلب وليس لهذا الإيمان من ثمراتٍ إلا حبَّ الله وتعظيمه والخوف منه والرضا عنه والثقة به والاتكال عليه والفناء في ذلك كله عن الأغيار. ومن ازدهار مجموع هذه الثمرات الإيمانية يتحقق معنى شهود العبد للرب. وهذا هو الذي يحجزه عن المحرمات ويضبطه على منهج الآداب والواجبات، إذ هو في كل أحواله وتقلباته، مع الله عز وجل في مراقبته له وذكره إياه وانسياقه في مشاعر الخوف منه والحب له والرضا عنه والثقة به، وليس للتصوف النقي من معنى إلا أن يأخذ المسلم نفسه بما يوصله إلى مستوى هذا الشهود . [2]

التصوف الحقيقي

إن التصوف الحقيقي لا يمكن إلا أن يكون مأخوذا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ذلك لأن السعي إلى الوصول إلى ثمرات الإيمان بالله في القلب واجب رسمه القرآن وأكّدته السنة. أما الطريق التي رسمها كثير من الشيوخ، كسبلٍ تربوية لتحقيق الغاية ذاتها، فلم تخل فيما مضى ولا تخلو الآن من البدع. [3]

فلنكن أطباء لا قضاة . .

إنه على المرشد أن يعالج حال الفاسق أو العاصي كما يعالج الطبيب مريضه: يعذره لمرضه، ويعالجه في الوقت ذاته بالنصح والإرشاد لإنقاذه. [4]

1- هذا والدي، ص 48 .
2- هذا والدي، ص 99 .
3- هذا والدي، ص 100 .
4- هذا والدي ، ص 143 .

الميزان التربوي العجيب

إن المنهج الإسلامي يأخذ الإنسان بعوامل تربوية معتدلة، إذ يصبغ شعوره بمزيج متكافئ من العواطف الدافعة والرادعة والممجدة تجاه مولاه وخالقه عز وجل. وبذلك يستقر وسط دائرة تحيط به من أطرافها عوامل عاطفية متكافئة، من الحب والخوف والتعظيم والتقديس لله عز وجل. أي فلا يهيمن عليه من الخوف ما قد يزج به في اليأس، ولا يجتاحه من الأمل والحب ما قد يسلمه إلى الأماني والأحلام ويجعله يتمنى على الله ما ليس له.

إن بوسع كل من يتدبر كتاب الله تعالى أن يتبين الميزان التربوي العجيب للعواطف الإيمانية المتنوعة والمتكافئة التي يبثها القرآن، في منهج تربوي عجيب، في مشاعر الإنسان وقلبه.

فنحن لا نكاد نجد في القرآن آية تسلم الإنسان إلى رهبة مجردة عن بوارق الرحمة والأمل. أو تمنيه ببشارة صافية عن شوائب الخوف. بل إن من القواعد الكلية في كتاب الله عز وجل أنه لا يذكر الإنسان بشيء من صفات السطوة والانتقام لله عز وجل، إلا ويذكره إلى جانبها بصفات الرحمة والغفران، ولا يحدثه بشيء من صفات الجنة ونعيمها إلا ويحدثه إلى جانبها عن جهنم وعذابها. [1]

نقاء الظاهر من نقاء الباطن

إن الباطن النقي عن الأدران، لا بد من أن يقود الظاهر إلى النقاء والالتزام بأحكام الله وشرعه، إذ الباطن النقي يكون وعاء للخوف والحب والرجاء. والخوف سوط سائق، والحبّ قائد موجِّه، والرجاء تيار محرِّك.. غير أن الظاهر النقي ليس بالضرورة قائدا للباطن ومطهرا له من الآفات، إذ ما أكثر الظواهر الحسنة التي تخفي وراءها بواطن سيئة. وإلا لما وجد في الكون النفاق ولما كثر في الناس المنافقون. [2]

التصوف الحقيقي هو لباب الإسلام

لقد ظهر في تاريخ هذه الأمة فئات شتى من الزنادقة والباطنية، تسللوا بضلالاتهم إلى الفكر الإسلامي عن طريق التصوف والاصطباغ بصبغته وارتداء مسوحه، وما هم في الحقيقة من

1- وهذه مشكلاتنا، ص 216 / 217 .
2- شخصيات استوقفتني، ص 13 .

التصوف أو الإسلام في شيء. ولكنهم اتخذوا من هذا وذاك قناعا لإيهام الناس وجِرّهم باسم الحقيقة إلى الإباحية، وباسم الوجد والفناء إلى ألوان من الزندقة والحلول.

أما التصوف بمعناه الحقيقي السليم، فهو لبّ الإسلام وجوهره الكامن في أعماق فؤاد الإنسان المسلم. وبدونه يغدو الإسلام مجرد رسومٍ ومظاهر وشعارات، يجامل بها الناس بعضهم بعضا.

وهذا اللباب يتمثل في الرغبة والرهبة إذ تهيمنان على قلب المسلم حبا لله ومخافة منه، فيتطهر فؤاده من أدران الضغائن والأحقاد وحب الدنيا، ويزداد بذلك مراقبة لله وتمسكا بشرائعه وأحكامه؛ ويزداد حيطة في تجنب المحرمات والقيام بالواجبات، ومبادرة إلى حقوق العباد. وإنما المثل الأعلى في هذا كله سيدنا رسول الله ﷺ ثم الرعيل الأول من هذه الأمة، وهم أصحابه البررة الكرام. ولا توقفنّك إزاء هذه الحقيقة مشكلة الاسم. فلقد كان التحلي بهذا اللباب في صدر الإسلام مسمى، لا اسم له إلا الإسلام الحقيقي الذي يستدعي من صاحبه تزكية النفس والسعي إلى بلوغ درجة الإحسان. فلما أصبح لفظ (الإسلام) فيما بعد مجرد شعارٍ يتحلى به كثير من الناس في الظاهر، ثم تفيض قلوبهم بنقيض ما يدل عليه هذا الشعار في الباطن، قام من أحب أن يميز الإسلام الحقيقي الذي لا يزال ضاربا جذور الحب والخشية في قلوب أصحابه، ولا يزال يتعهده أصحابه بذكر الله ودوام مراقبته، فأطلقوا عليه اسم المتصوفة وخصصوا هذا التعهد القلبي باسم التصوف. ولاضِير في أن نتجاوز اليوم هذا الاسم، بل هذا ما أفضِله وأدعو إليه، على أن ندرك أن من وراء هذا الاسم لبابا هو جوهر الإسلام وروحه، فلا نهمله ولا نتهاون به اكتفاء بالمظاهر والأشكال التي ثبت أنها لم تغنِ أصحابها من آمالهم الدنيوية شيئا، ويقينا أنها لن تغنيهم شيئا عن العقبى من باب أولى.[1]

ما هو الخطر الأكبر

.هل تعلم ما هو ؟ أم هل فكرت فيه قط ؟.

إنه ليس العدو الداهم الذي يستقر مستعمرا في ديارك، وليس الفرقة التي تشتت القوى وتباعد الصفوف، ولا تلك الأسلحة المذهلة التي تنذر بالدمار الشامل، ولا المجاعة الرهيبة التي تهدد نصف الكرة الأرضية بسبب تناقص نسبة الإنتاج أمام تزايد عدد السكان.

1- السلفية، ص 117/ 118 .

إنما الخطر الأكبر شيء أشدِّ رهبة من هذا كله!.

إنه ذاك الذي يمكِن العدو من التسلل إلى الديار، وهو ذاك الذي يهيئ الأسلحة للانفجار والوقود للاشتعال، وهو ذاك الذي يوجد أسباب الخصومة والفرقة ويقضي على فرص الوحدة والتعاون.

إنه أعدى عدوٍّ لنا على الإطلاق. إنه نفوسنا التي بين جنبينا!.

أجل.. فالنفس الإنسانية التي لم تقترن، مع العمل الصالح، في سيرٍ منضبطٍ على المنهج الإسلامي الصحيح، هي الخطر الأكبر في حياة المسلمين اليوم، ما في ذلك شكٍّ ولا ريب.[1]

قبل التصوف . . لنبدأ بتزكية النفوس

إنه لا يجوز للمسلم الذي يرى تقصيره في جنب الله، ويلمس أمراضه القلبية التي تبعده عن الله تعالى، أن يشغل شيئا من وقته بالحديث عن التصوف الفلسفي والوجداني فيعكف على دراسة أحوال القوم وشرح مقاماتهم المختلفة.

فإن هذه الأمور أذواق لا تفهم إلا بمعاناتها ولا نستفيد منها علما يقرأ أو يحفظ وإنما نستفيد منها واقعا إسلاميا صحيحا يحيا فيه الإنسان.

ولو ذهبت تتحدث عمرا كاملا عن مواجيد أصحاب الأحوال وتحليل كلماتهم وتتبارك بشطحاتهم، فإن شيئا من ذلك لا يقربك إلى الله تعالى شروى نقير، ما دمتِ غير ملتفت إلى ما تعانيه نفسك من أمراض الكبر، والحسد، والتعلق بالدنيا، والعجب، والرياء، والضغائن ونحوها.

وما رأيت أعجب من حال أناسٍ تركوا من التصوف ما يمثل جوهر الإسلام ولبه، وراحوا يعكفون منه على دراساتٍ فلسفية لا يفهمونها، ويخوضون في البحث عن مواجيد وأحوال ليسوا من أهلها، ويرددون دون شطحاتٍ فاه بها بعض من عانى من هذه الأحوال ذوقا ولم يصطنعها تكلفا. فلئن كان أولئك معذورين (من أجل هذا) بنطقهم بها فإن هؤلاء ليسوا معذورين بتقليدهم فيها وباتخاذ كلماتهم تلك موضوع درسٍ ومحطٍّ بحثٍ وينبوع فائدة!!..

1- باطن الإثم، ص 26/ 27 .

إنني أدعو نفسي، وأدعو جميع إخواني وأصحابي، وأدعو هؤلاء جميعا إلى الإقبال على تزكية النفس.. وتزكية النفس هي الغاية التي تطوف حولها شرعة الإسلام، وهي المرمى البعيد لجميع السالكين والمتصوفين إلا من انحرف منهم وشذ عن الصراط، وهي الباب الذي يدخل منه المسلم إلى سبيل مرضاة الله، وهي العلاج لكل بلاء، والمخرج من كل فتنة.

خذوا، يا هؤلاء، من ابن عربي وصاياه واتركوا له فتوحاته، اقرؤوا من كتبه (معارج القدس في محاسبة النفس) الكتاب الذي يكشف عن عيوب المسلمين وما يختبئ خلف مظاهرهم الطنانة والرنانة من النقائص والأمراض الخطيرة ومظاهر الرياء والسمعة وحب الدنيا وحب الرئاسة – ودعوا له أحواله وشطحاته وما لا تفهمون من أقواله.

حتى إذا ذابت من نفوسكم غوائل الدنيا وأمراضها، فلم تعودوا تتأثرون بعصبيةٍ باطلة، ولم يعد من فرقٍ عندكم بين الدنيا إذا أقبلت أو أدبرت، وبين من يكيل لكم عبارات المديح ومن يرميكم بسهام القدح والتجريح – حان لكم عندئذٍ أن تدخلوا في هذا الباب الثاني وأن ترتعوا في هذا الميدان الخطير.[1]

قوة الأخلاق

ماذا يجدي أن نسهب في شرح (المجتمع)، أو نتفنن في كشف المخططات العدوانية التي يسير عليها أعداء الإسلام وأرباب الغزو الفكري، أو تهتم بعرض المزيد من منهجية الفكر الإسلامي والدعوة الإسلامية – وإن البلاء الذي يعانيه المسلمون ليس الجهل بشيءٍ من هذا كله وإنما هو المرض العضال الذي يستحكم بنفوسهم؟!.

ليس بالمسلمين حاجة بعد اليوم، إلى أي مزيد من هذه الدراسات الفكرية، فالمسلمون –على اختلاف ثقافاتهم – أصبحوا يملكون من الوعي في هذه النواحي ما ينسج لهم الحصانة الكافية، لو أن الأمر كان موكولا إلى الوعي وحده.

وإنما هم بحاجة بعد اليوم إلى القوة الهائلة التي تدفع بهم إلى التنفيذ. وهيهات أن يكون أمر التنفيذ بيد الفكر أو العقل وحده.

والقوة الهائلة التي يحتاجون إليها إنما هي قوة الأخلاق!.[2]

1- باطن الإثم، ص 81/ 83 .

2- باطن الإثم، ص 84 / 85 .

من أهم وظائف مساجدنا . .

ما هي الحكمة من كون المسجد ووظيفته من الأركان الأساسية للدولة والمجتمع الإسلامي؟؟
إن الحكمة من ذلك أن شيئا من الانسجام بين الحاكم والأمة، وأن شيئا من الوحدة التي يجب أن تشيع بين أفراد الأمة، لا يمكن أن ينمو ويتحقق من خلال نصوص وشعارات، وإنما يتحقق وينمو نموه الطبيعي في النفوس إذا انصهرت هذه النفوس في بوتقة المسجد، فما لم يتلاقِ المسلمون يوميا وعلى مرات متعددة في بيوت الله عز وجل، وقد تساقطت مما بينهم فوارق الرتب والمال والجاه، واستيقظت بين جوانحهم مشاعر عبوديتهم لله عز وجل، لا يمكن لروح التآلف والتآخي أن توحد ما بينهم. [1]

من أصول التربية

إن ربط الناس بالنظم والقوانين، قبل أن تتهيأ لها نفوسهم وتنسجم معها بالتربية والصقل والتهذيب، أشبه ما يكون بلصق الثمار بأغصان أشجار يابسة، هل ينتظر بها إلا الذبول ثم السقوط والفساد.. ولعمر الحق لا تربَّى النفوس هذه التربية إلا بالعبادة المستمرة الصادقة، ولا تسمو سموها المطلوب إلا عندما تتوالى لقاءاتها في بيوت الله عز وجل. [2]

إنه ليس إلا أسلوبا تربويا

إن ادعاء القسوة والشدة في حدود الشريعة الإسلامية، مظهر من مظاهر السطحية في فهمها، بل الجهل العجيب بطبيعتها وأنظمتها وقيودها. وإن كل دارس للشريعة الإسلامية يدرك أن ما قد يبدو في حدودها من القسوة لا يعدو أن يكون قسوة تلويح وتهديد. فهو أسلوب تربوي وقائي أكثر من أن يكون عملا انتقاميا أو علاجيا بعد الوقوع، وهي بهذا تنطلق من أدق الأسس التربوية السليمة للمجتمع. [3]

1- التعرف على الذات، ص 97 .
2- التعرف على الذات ، ص 98 .
3- التعرف على الذات ، ص 121 .

أصلحوا القلوب أولا

هل في الناس من مسلمٍ أخلص لله في إسلامه، لا يعلم أن سائر المعالم الإسلامية التي تبرز خفاقة في المجتمع، وأن سائر النظم والأحكام الإسلامية التي تنبسط في جنباته وأنحائه، إنما تثبت وتستقر عندما تكون ثمارا لغراس القلوب وصلاح النفوس، وأثرا للرغبة في مثوبة الله والرهبة من عقابه إذ تأخذان بمجامع الألباب؟.. وهل في الناس عاقل لا يدري أن الأشجار التي تقام مثبتة على ظاهر الأرض، مآلها أن تتهاوى هنا وهناك عند هبوب أول عاصفة، ثم أن تذبل فتيبس وتتحول حطبا للحريق؟.. [1]

تربية النفوس في الإسلام

إن الإسلام في حقيقته وكما يعلمه كل عاقل، عقيدة وعبادة وضوابط سلوكية واجتماعية، وهو بفروعه الثلاثة هذه، إنما يبني مجتمعا ويكوِّن أمة، ويؤسس حضارة ويضع قانونا، ويربِّي نفوسا.

وإذا كان عمله الأخير هذا – وهو تربية النفوس – يطلق عليه في بعض الأحيان: تربية روحية، فإنما مآل ذلك وجدواه أن تنطلق هذه النفوس التي ربِّيت تربيتها الروحية هذه، فتتعاون في بناء مجتمعٍ إنساني متمدين تضمن فيه المنفعة والسعادة لجميع أفراده.

فتربية النفوس على المحبة والتواضع ونبذ التباغض والكبر والحسد والرياء والنفاق – كل ذلك جعل منه الإسلام أساسا تمهيديا لا بد منه لإقامة مجتمعٍ منسجمٍ سعيدٍ لا مضطرب متشاكس. [2]

انظر إلى قلبك

إن القلب كالمرآة، لا يمكن أن يخلو من صورةٍ تظهر على صفحتها... فإما أن تثبت فيه صور من عكر الدنيا وأهوائها، وإما أن يشرق بالمحبة الإلهية الصادقة. وإذا فاض القلب بعكر الشهوات والأهواء، فهيهات أن يصبح الاعتقاد وحده حاملا لصاحبه على أي عملٍ من أعمال التضحية أو الفداء. [3]

1- التعرف على الذات ، ص 158 .
2- من الفكر والقلب ، ص 94 ، 95 .
3- من الفكر والقلب ، ص 99 .

مشكلة خطيرة في تربيتنا الوجدانية

إن المشكلة التي نعاني منها اليوم هي أن التربية الوجدانية، التي تستهدف ربط المشاعر الوجدانية بالله عز وجل، حبا له، ومخافة منه، ورضا عنه، واتكالا عليه، تسلل إليها كثير من البدع والأخطاء والانحرافات، على أيدي كثير من المسلكين والموجهين، أو ربما التلامذة والمريدين. فماذا يجب أن يصنعه المسلمون العلماء الرقباء على دين الله عز وجل.

إن ما يصنعه، في الواقع جل هؤلاء المسلمين – وأكثرهم من أهل العلم – أنهم يستنكرون هذا السلوك كله، ويحذرون من الأخذ بأسباب هذه التربية من حيث هي، لأن بدعا أخذت تشيع فيها، ولأن أخطاء وانحرافات ظهرت على حال المشتغلين بها.. وانتشرت أساليب هذا التحذير والإنكار أقوالا وكتابات تتكرر هنا وهناك، حتى استهان الناس بتربية هذا الجانب من الكيان الإنساني أيما استهانة، وحتى أهمل الكثير منهم واجب الرقابة والرعاية الوجدانية في حياتهم، إذ حسبوا أن إسلام المسلم يتحقق بإدراك العقل ويقين الفكر، فبقيت عواطفهم طليقة من أي قيد أو توجيه ديني، فكان أن استعمرها وتحكم بها حب الشهوات والأهواء، وهيمنت عليها رعونات النفس ورغائبها. وانشطرت كيانات المسلمين من ذلك شطرين متناقضين بل متصارعين، شطر يتمثل في العقل المصدق والفكر المحدث المتفلسف، بيانا للإسلام ودفاعا عنه، وشطر يتمثل في الانفعالات الوجدانية الخفية، والمنصرفة إلى رغائب الدنيا وأهوائها والمتعلقة بأمراض النفس ورعوناتها!..

ونحن نقول: أما البدع والانحرافات، فما من ريب أن على المسلمين الابتعاد عنها والتحذير منها. كيف وقد قرر العلماء أن وباء البدعة أشد خطرا من ضرر المعصية، لأن معرفة كون المعصية معصية يدفع مرتكبها، ما دام مسلما، إلى التوبة والاستغفار، أما البدعة فإنما ترتكب على أنها جزء من الدين ذاته، فهيهات أن يستشعر صاحبها في ارتكابها ضررا يدعوه إلى التوبة والإقلاع.

ولكن علينا، ونحن نحارب البدع ونحذر منها، أن نبقي على الأساس السليم، وأن نحافظ على جوهر الاتباع. وإلا فأي خير حققه ذاك الذي يدمر بالسلاح الذي يحارب به البدعة، جوهر

الدين وأساسه. وقد علمت أن هذه التربية الباطنة، كمحبة الله والإخلاص له والتوكل عليه والرضا عنه ونحو ذلك، كلها أمور مأمور بها في حق الخاصة والعامة، لا يكون تركها محمودا في حال أحد وإن ارتقى مقامه وأعمال القلوب هذه -وهي التي قد تسمى بالمقامات والأحوال هي من أصول الإيمان وقواعد الدين -.

نعم، أي خير حققه ذاك الذي حارب الذباب المتساقط على وجه صاحبه بصخرة طحنت رأسه قبل أن يتطاير الذباب عنه؟

إن المصيبة في حال هؤلاء الناس أنهم ينسون أصول الإيمان وقواعده، في غمار حمى هجومهم على البدع والانحرافات، فلا يلفتون إليها نظرا، ولا يرسمون لها طريقا، ولا يتحدثون عنها من قريب أو بعيد، فتضيع هذه الأصول في تيار حربهم اللاهبة. ثم يعودون وقد حطموا الجدار المتداعي من الدار، ولكنهم قعدوا بعد ذلك راضين مطمئنين في العراء.

وقد علم العقلاء جميعا أن الجدار المتداعي من الدار لا يجوز تركه، ولكن لا يجوز نسفه أيضا ليستبدل عنه بالعراء. وإنما يبنى من خلفه جدار ثابت مستقيم، حتى إذا تم الوثوق به وتكاملت الطمأنينة إليه، نسف ذلك الجدار الفاسد من أساسه غير مأسوفٍ عليه.

تزكية النفس الإنسانية لب الدين وجوهره، ما في ذلك شك، وتحرير الوجدان الإنساني من غوائل هذه النفس أصل من أصوله الثابتة، لا يرتاب في ذلك مسلم، فماذا صنع الذين يمسكون بمعاول التهديم في نطاق بنائهم لهذه الأصول؟

والشباب المسلم الذي يتكاثر بفضل الله في كل بقعة من أرضه الواسعة، يظل يسأل، تحت إلحاح فطرته الإسلامية الظامئة: كيف السبيل إلى أن أسمو على نفسي وأهوائها في هذه الأزمنة العصيبة؟ كيف السبيل إلى أن أشعر بلذة المناجاة للخالق إذا وقفت بين يديه في صلاة، أو جلست أقرأ قرآنا؟ كيف أصنع لأرقى بمشاعري إلى الرتبة التي أعبد فيها الله كأني أراه؟ كيف أجعل محبة الله ملء كياني حتى لا أحب مع الله غيره، وكيف أجعل المخافة منه ملء شعوري حتى لا يتسلل إلى قلبي أي خوفٍ من سواه؟

نعم، إن الشباب المسلم الظامئ يظل يسأل هذه الأسئلة، ولا من مجيب. لأن الذين عليهم أن يجيبوا، منهمكون في ملاحقة البدع والسعي للقضاء عليها.

غير أن هؤلاء الشباب إن لم يجدوا أنفسهم أمام أجوبة عملية تروي ظمأهم الإسلامي، فلسوف يقعون، شئنا أم أبينا، في تيار هذه السبل التربوية القائمة، على ما فيها من بدع وانحرافات. لأن شيئا ما خير من لا شيء، إن لم يؤمن بذلك العقل دائما انقاد له الشعور والوجدان غالبا.

ألا ترى إلى الظمآن الذي يمسك بكاس من الماء الملوث يريد أن يشربه، إن خير سبيل عملي تسلكه إلى حجزه عن ذلك الماء، أن تقدم له كأسا أخرى يلمع فيها ماء طاهر عذب. أما أن تجلس مكتفيا بموعظة التحذير والتخويف من ضرر الماء الوحيد الذي بين يديه، وأنت في شغلٍ شاغل عن الظمأ الذي يحرق كبده، فاعلم أن موعظتك لن تؤثر فيه شيئا، لأن عذاب الظمأ الذي يعانيه أشد عليه من الضرر الذي تخوفه منه.

من أجل هذا.. تنظر، فتجد هذه الطرق الصوفية في تزايد وانتشار، وتجد المقبلين عليها في تكاثر مطرد، بل إنك تجدهم في أكثر الأحيان من صفوة الناس ثقافة ودراية ووعيا. لأنهم رأوا في هذه الطرق على علاتها ما يعالج نفوسهم ويرقى بعواطفهم، ويشعرهم بلذة الطاعة والعبادة، ولم يجدوا أمامهم البديل الذي هو خير منها، فكان لا بد من ركونهم إليها مهما حذر المحذرون وأنكر المنكرون.

فانظر، كم يروج هؤلاء المنكرون، للبدع والانحرافات، من حيث يتوهمون أنهم يحاربونها!.. ولو أنهم تبنوا الدعوة إلى معين هذه الطرق وأصولها الصافية الأولى، ونبهوا الناس (لا سيما هؤلاء الشباب الظامئين) إلى السبل التربوية السليمة التي تعين على تزكية النفس وترقيق القلب وتصعيد الوجدان، بعيدا عن مزالق البدع والانحرافات، إذن لانفضت جموع الناس عن تلك الطرق التي ينكرونها ويحذرون منها، ولجفّت موارد البدع والمنكرات، مع وجود المورد الصافي عن تلك الكدورات والموصل إلى الهدف التربوي ذاته من أسلم طريق.



دين الحب

إن الدين السماوي إذا ترك وشأنه، ومارسه أهله ممارسة حقيقية دون وجود من يستثيرهم ويضيق عليهم ، لن يهدي إلا إلى الحب ، ولن يمدٍ بين الناس إلا جسور التعاون. [1]

هيمنة الحب

بمقدار ما يهيمن الحب على القلب، تهيمن وحدة الشهود على المشاعر والعين. أيا كان المحبوب ونوعه، وغنما تتنوع وحدة الشهود تبعا لتنوع المحبوب.

فالذي تولّع بحب فتاة كمجنون بني عامر، لا يرى في مظهر منازلها إلا رسمها وصورتها. ولن تجد إلا من يعذره في ذلك، إذ هو شأن الحب وقانونه. ومن ثمَّ فالكل يردد له هذين البيتين بإذعانٍ وإعجاب :

أمرّ على الديار ديار ليـــلى   أقبِّل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حبّ الديار شغفن قلبي   ولكن حبَّ من سكن الديارا

1- مشكلات في طريق النهوض، بحث: من التطرف إلى الحوار، ص 17 .

والمرأة التي ذاب فؤادها شوقا وتلهفا على ابنها الغائب عنها، تضم ثيابه إلى صدرها وتستنشقها وتقبلها، دون أن ترى فيها إلا صورة ابنها.

فإذا اتجه القلب إلى محبة الله عز وجل – وهو أولى الكائنات كلها بالحب ولواعجه – فلا بد أن يقع صاحب هذا القلب من حبه لله وشوقه إليه في المشاعر والرؤية ذاتها.. فهو لا يكاد يبصر الزهرة ويشم عبيرها، حتى يذهل عنها برؤية جميل صنع الله وإبداعه، ولا يكاد يبصر الكواكب في هدأة الليل تتلألأ في سمائها حتى يذهل عنها بالتأمل في عظمة المكون وباهر حكمته وخلقه، ولا يكاد يبصر الأطعمة المرصوفة أمامه، أو الماء النمير المتدفق من حوله، بل لا يكاد يرجع إلى ذاته في المرآة ليتبين مظهر العافية في شكله ودلائل القوة في كيانه، حتى يذهل عن ذلك كله ويخترقه إلى وقفة أدب وشوق وحب يعيشها بكل مشاعره مع الله عز وجل الذي أبدع بجميل صنعه وواسع رحمته وباهر حكمته ذلك كله.

فهل للإنسان. أيا كان. أن يعتب على الحب، في هذا الذي من شأنه أن يفعله بصاحبه؟.[1]

لو نطق الإسلام

لو نطق الإسلام بحديثٍ يعرِّف من خلاله الناس على ذاته وأبرز خصائصه، لقال: إن نسيجه التكويني يتكون من الحب.. ولو نطق هذا الحبّ معرفا الناس على هويته الفطرية الخالية عن الشوائب، لقال: إن هويته المثلى تتجلى في حبِّ رسول الله ﷺ .[2]

طريق الحبّ واحد

إذا هدأت في الإنسان رعونات نفسه، وسكن جِماح البغي في غرائزه، ثم اهتاجت في مقابل ذلك العاطفة الصادقة منبثقة من حنايا قلبه، فتلك هي أولى الخطوات التي تتجه بصاحبها إلى الله، أيا كانت اليد التي أيقظت تلك العاطفة، وأيا كانت الوجهة التي اتجهت إليها، أو الكائن الذي مالت إليه.

ذلك لأن طريق الحب واحد، أيا كان المحبوب الذي يقف على أيّ من جانبي الطريق.

1- هذا والدي، ص 117 / 118 .
2- المرأة ، ص 187 .

كل ما في الأمر أن على السالك أن لا ينهي رحلته عند المحطات التي قد تستهويه فيركن إليها. بل عليه أن يتجاوزها جميعا ما دام الطريق أمامه ممتدا ومفتوحا، وعليه أن يعلم أن محبوبه الحقيقي أمامه.. ولسوف يشعر كلما أوغل في الطريق وتجاوز محطة إلى أخرى فأخرى، بجاذب يشده إلى المضي قدما. ولسوف تتلظى بين جوانحه نيران الحنين إلى المعين، حيث المحبوب الأول.. إلى الغاية القدسية الكامنة في نهاية شارع الحب.. وعندئذٍ لا بد من أن يغذ السير، طال الطريق به أو قصر، متجاوزا المحطات والسواقي، مشدودا إلى النهاية.. وما النهاية التي سيلقي عندها عصا التِسيار إلا الوصول إلى المحبوب الحقيقي الذي هو معين كل جمال تتعشقه العين ومصدر كل إحسان يغمر النفس.[1]

شوق المجاهدين

إن الجهاد يحتاج إلى مجاهدين. وما المجاهدون في قانون من شرع الجهاد وأمر به، إلا أولئك الذين أخلصوا لله في سرائرهم، وتحققوا بصفات العبودية له في ظواهرهم. تعلقت منهم الأعين والآمال بالغد القريب الذي لا ريب فيه، إذ يقوم الناس جميعا لرب العالمين، فهانت عليهم الدنيا بكل متعها ولذائذها.. أيقنوا بقضاء الله المبرم، وعلموا أن لكل حي أجلا، وأن لكل أجل كتابا. فلم يعلم يرهبهم عراك الموت، ولم يبالوا أوقعوا على الموت أم وقع الموت عليهم.. حجبت قلوبهم عن مرعبات القتال وأهواله بعذوبة الخطاب الرباني الذي أخذ منهم بالألباب:

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران:157-158].

لهم في جنح الليالي مع الله عز وجل، حديث من برَّح به الشوق إليه، يناجونه من وراء سجاف الغيب، داعين، مستغيثين، متضرعين، أن يثبت أقدامهم وأن يحقق لهم النصر الذي وعد به أولياءه وأحباءه. فلو تألبت الدنيا كلها عليهم لجعل الله تعالى لهم من شدائدها رخاء، ولشتت عنهم قلوب أعدائهم بالرعب، فاستحالت هباء.

كيف لا، وهو القائل: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:12].

1- شخصيات استوقفتني، ص 22 / 23 .

فما أعجب أن نتكلم اليوم عن طرف من أحكام الجهاد، ونحن عن هذا الطرف الأهم معرضون، وما أعجب أن نحلم بالنصر ونتشوق إلى يومه، ونحن عن سبيله الوحيد مبتعدون.[1]

العهد الأخير

إنا لنستطيع أن ندرك شعوره ﷺ وهو يعاني سكرة الموت، فبينما كان الناس مصطفين لصلاة فجر يوم الاثنين إذا بالستر المضروب على حجرة السيدة عائشة رضي الله عنها قد كشف، وبرز رسول الله ﷺ من ورائه، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، حتى نكص أبو بكر على عقبه ليصل الصف وكاد الناس أن يفتنوا في صلاتهم فرحا به ﷺ، ولكنه أشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر.

لقد كان تفكيره إذن منصرفا في تلك الساعة إلى أمته، وإلى ما سيكون عليه حالهم من بعده.. وإنك لتشعر من نظرته الباسمة إلى أصحابه وهم يقفون خاشعين بين يدي الله تعالى، بمعنى الحب العظيم يفيض به فؤاد رسول الله ﷺ لهم، بل وإنك لتجد في ابتسامته مظهرا لما كان يخفق به قلبه من حبهم والدعاء لهم والتوجه إليهم.

لقد أراد رسول الله ﷺ (بأبي هو وأمي) وهو يمر بآخر دقائق عمره أن يتزود من أصحابه رضوان الله عليهم بآخر نظره، وأن يطمئن إلى الحق الذي تركهم عليه والهداية التي أرشدهم إليها.. فأراه الله منهم ما طابت به نفسه بالبشر والسرور والرضا يطفح كل ذلك على وجهه، حتى خيّل إلى الصحابة رضوان الله عليهم أنه ﷺ قد نشط من أوجاعه، وعوفي من آلامه.

ولكنهم ما عرفوا إلا أخيرا أنه إنما وقف ينظر إليهم تلك النظرة لينقلب بها إلى سكرة الموت، وهي آخر لوحة تسجل في ذهنه لمشهد أصحابه، بل وأمته كلها، كي تكون هي العهد الباقي بينهم وبين الله عز وجل، ولتكون هي الهمزة الواصلة بين لحظة الوداع لأمته في الدنيا ولحظة الاستقبال لها في الآخرة على حوضه الموعود.

ولقد شاءت حكمة الله أن يكون هذا المشهد هو الصلاة!..

وشاءت إرادة الله أن تكون هي العهد الأخير..

1- الجهاد في الإسلام ، ص 241/ 242 .

فيا أخي المسلم :

العهدِ العهدِ الذي فارقت عليه رسول الله ﷺ، وهو راضٍ يتبسَّم... [1]

ابدأ بلوعة القلب

إن بعض الناس لا ينجيهم من المشكلة التي يعانون منها أن تحشو أدمغتهم بمكتبات من النظريات والأبحاث الفكرية عن الإسلام، وإنما يفيدهم شيء واحد، هو أن تشعل فيهم كوامن الوجدان، بما لديك من لوعة القلب.

لوعة القلب.. هي البلسم الذي لا يغني مع فقده أوقار من الكتب تفيض بالأفكار الدقيقة والتحليلات الرائعة.

لوعة القلب.. هي السر العجيب الذي يقلب حياة الإنسان فيقرب له البعيد، ويلين له الحديد، ويجمع أهواء النفس من شتات، وينسيك طعم الدنيا وأهواءها بما يذيقك من حلاوة مراقبة الله وشهوده.

لوعة القلب هذه، لا تأتي من إرهاق الفكر لاعتصار مزيدٍ من النظريات والأبحاث، وإنما تأتي من إرهاق النفس بمزيدٍ من العبادات، والمثول بضراعةٍ أمام باب الله تعالى في الأسحار. [2]

أين الحب في إسلامنا

إن داءنا المستحكم العضال، أننا مسلمون بالفكر والعقل، لا بالحب والقلب، أي إننا نمارس إسلاما عقلانيا مجردا بعيدا عن جواذب القلب ومؤثراته.

ومثل هذا النوع من الحياة الإسلامية قد يثمر ثروة فكرية عظيمة، أو مكتبة إسلامية واسعة. ولكنه لن يثمر أبدا السعادة الإسلامية المنشودة.

إن أقلّ تجسيدٍ لهذه الحقيقة التي أقولها، أنّكِ قد تجتمع مثلا بجماعةٍ من المسلمين لهم مركز الصدارة في الفكر والقيادة الإسلامية في المكان الذين يوجدون فيه، ويبدأ الحديث بينهم

1- فقه السيرة النبوية ، ص 507 .
2- باطن الإثم ، ص 86، 87 .

عن الإسلام، وكيفية الدعوة إليه، والنهوض به، وواجب المسلمين في هذا العصر؛ ويغوصون في هذا الحديث في نشاطٍ ولذّةٍ وحماس، ويتعالى صوت مؤذنٍ على مقربةٍ منهم يؤذِن للصلاة، والحديث لا يزال موصولا! وينتهي صوت الأذان، ويذوب في ضوضاء الحديث وصخبه!.

ويمتدّ وقت طويل بعد ذلك، والقوم مشغولون عن الاستجابة للأذان، والقيام إلى الصلاة، بالحديث عن الإسلام والاهتمام بشأنه.. ويوشك وقت الصلاة أن يخرج والقوم لا يزالون في شغلهم وحديثهم. وأخيرا يقترح أحدهم استراحة دقائق ليقوموا إلى الصلاة.. وتبدأ صلاةٍ سريعة، قد لا تزيد على ركعات الفرض وحده، وتتأمّل في صلاتهم، فلا تشكّ أن كلّ واحدٍ منهم منصرف بتفكيره إلى الحديث الذي قاموا لتوّهم عنه!

وما هو إلا أن يسلِموا يمنة ويسرة، حتى يلتفتوا، بعضهم إلى بعضٍ مرَّة أخرى وقد تذكّر هذا في الصلاة ما كان قد نسيه أثناء الحديث، وقام في ذهن الآخر إشكال تصوره عند قراءة الفاتحة.. ويعود الحديث بينهم عن الإسلام ومشكلاته، وما يتعلّق به، وقد نسوا أنّ من وراء الصلاة التي فرغوا منها تسبيحا وذكرا ودعاء، وأن لها تتمة من الرواتب والنوافل، وأنّ كلّ هذا الذي يخوضون فيه من الحديث إنما هو وسيلة إلى هذه الغاية العظيمة!

وهكذا دواليك .. وقِس على هذه الصورة غيرها من أشباهها. [1]

لوعة الحب . . من أول شروط النهضة

لن يستطيع مسلمو اليوم أن يسيروا وراء خطى أجدادهم بالأمس، إلا إذا غمرت اللوعة قلوبهم، وتلظت الأشواق الإلهية بين جوانحهم، وملؤوا أكوابهم بتلك الخمرة العلوية التي تنشلهم من قتام هذه الشهوات والأهواء، وتساموا بوجدانهم إلى مستوى الحقيقة العليا.

إن لوعة الحب وحدها هي السوط السائق، والتيار المحرك، والمحب هو وحده الذي يبذل الجهد شوقا إلى المحبوب، فيسهل بذلك عليه الصعب، ويقرب له البعيد، وتفنى لديه القوى، وتذوب فيه الحياة، ولا يرى أنه قد أوفى بعهد المحبة، أو قام بواجب شكر النعمة.

ويوم يعمر هذا الحب قلوب المسلمين اليوم، يتكامل البنيان كله، ويتوفر العمل جميعه، وتتجلى معجزات التضحية والبذل والجهاد، وتتنزّل معجزات النصر والعزة والتأييد. [2]

---

1 - من الفكر والقلب، ص 101 / 102 .

2- من الفكر والقلب، ص 104 .



مهمة الداعي إلى الله

إن مهمة الداعي إلى الله، هي أن يبصِّرَ الناس بهوياتهم، وبأنهم عبيد لله مكلفون من رسله وأنبيائه بأداء وظائف معينة في نطاق اليقين والاعتقاد أولا، وفي نطاق التعامل والسلوك ثانيا. ثم إن عليه أن يتركهم أحرارا في اتخاذ القرار الذي يشاؤون، على أن ينبِّهوا إلى الجزاء الذي أعده الله للمطيعين، والجزاء الذي توعّد به العاصين.

ذلك لأنهم لو حمِلوا قسرا على الالتزام بالتكاليف الإلهية، وسيقوا إليها دون اختيار منهم، لسقط معنى الاستجابة الذاتية في عملهم، ولما استحقوا على ما قد سيقوا إليه قسرا أي مثوبة وأجر.

ولذا فإن خطاب الله تعالى يعلِم الدعاة إلى الدين، وفي مقدمتهم رسول الله ﷺ، أن يبلغوا الناس واجباتهم تجاه الله، وأن يقنعوهم بها بالدلائل العقلية والمعرفية، وأن يتركوهم بعد ذلك أحرارا، يختارون ما يشاؤون.

انظر إلى قوله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية : 21 – 22]، وإلى قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة : 256]، وإلى قوله وهو يخاطب رسوله الكريم ﷺ أيضا : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس : 99] .

إذن فلا مجال في جذور الإيمان الذي يستقر قناعة في العقل وطمأنينة في النفس إلا للحرية التامة التي يملك الإنسان من خلالها القدرة على اتخاذ القرار. ولا يجتمع هذا الإيمان مع العنف أو الإكراه أو الإرهاب، أو ما شابه من الألفاظ ذات الدلالة الواحدة أو المتقاربة، في أي حالٍ من الأحوال. بل إن الإيمان الذي يجِرّ إليه الإنسان جرا تحت طائلة الإرهاب والتهديد، ليس إلا إيمانا شكليا مزيفا. إذ ليست له في قرار القلب وقناعة العقل أي جذور. وإنما هو استسلام ظاهري منفصل عن حكم العقل وقناعته. وهيهات أن يكون لهذا الإيمان الوهمي أي قيمةٍ عند الله عز وجل، الذي لا يقف أمام الصور والمظاهر، بل ينظر إلى القلوب والخواطر.. والإيمان الذي تستقر جذوره في القلوب والخواطر، هو ذاك الذي يستقر فيها عن طريق الحرية وتوفر الاختيار.[1]

الدعوة فرض عين

لقد كانت مهمة الدعوة إلى الإسلام من الفروض الكفائية، كما قال العلماء، يوم كانت المجتمعات الإسلامية، تسير قدما في طريق الإسلام، بدفعٍ من اتجاهها التي وضعت نفسها فيه، دون أن يكون على الطريق أو عن يمينه أو يساره، من يتربص بها الدوائر، ويختلق لها العقبات، ويصدها عن الوصول إلى الغاية بنيران الشهوات والأهواء.

أما اليوم، وقد جندت كل إمكانات الدنيا، من مال وطاقة ونساء وفكر، في سبيل الصد عن صراط الله والوصول إلى مرضاته، فقد أصبحت مهمة الدعوة الإسلامية فرضا من الفروض العينية، يخاطب به كل مسلم صادق مع الله في إسلامه، ولم تعد مقتصرة على ثلة من الناس، مهما بلغ شأنهم ومهما كانت أهميتهم.[2]

1- مشكلات في طريق النهوض، بحث: من التطرف إلى الحوار، ص 12 / 13 .
2- هكذا فلندع إلى الإسلام، ص 5 .

أَنِر قلبك . . . لتنير القلوب

إن أثر الدعوة في نفوس السامعين ليس آتيا من مجرد الكلام المنطقي الذي يقبله العقل، وإنما هو آتٍ، في معظمه، من تجليات ربانية على قلب الداعي والمرشد، عندما يكون قلبه صافيا من كدورات النفس وأهوائها، مشرقا بشهود الله تعالى ومراقبته. إذ تنسكب من ذلك إشعاعات في كلامه، فلا يلبث أن يسري تأثيره إلى أفئدة السامعين، بدرجات متفاوتة، كل حسب ما أبقاه طغيان الشهوات والأهواء فيه من بقايا الاستعداد أو زوايا الطهر والفراغ.

فإذا كان الداعي إلى الإسلام يعاني من ظلام القلب وقسوته، مثل الذي يعانيه أولئك الذين يتوجه إليهم بالدعوة والإرشاد، فإن غاية ما يمتاز به حديثه معهم حينئذٍ، سلامة المنطق وقوة الحجة والبيان. وهيهات أن يكون ذلك وحده كافيا، في أن يضيء طوايا قلوب مظلمة. وإذا لم يستضئ القلب بنور الحق، لم يكف أن يخضع العقل وحده لميزان المنطق؛ فإن أكثر ما يدعو الناس إلى الانحراف عن جادة الصواب: طغيان الشهوات على قلوبهم، لا احتجاب دلائل الحق عن عقولهم. [1]

السلاح الأنجع

إن سلاح القائم بدعوة الله، كثير ذكرٍ ودعاء، وتضرع وبكاء، وكثير استغفار في الأسحار، وتلاوة للقرآن. وحراسة دائمة للقلب ألا تسيطر عليه الأهواء. وكل التدابير الأخرى، على أهميتها، إنما يأتي وراء ذلك. [2]

مقياس النجاح

مقياس القرب إلى النجاح، أمام الداعي إلى الله، هو قول الله عز وجل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: 11]، فبقدر ما تشيع الاستقامة ويتوفر الصدق والأخلاق في حياة الأفراد، تنهض دعامة جديدة بتوفيق الله في بناء المجتمع الإسلامي المنشود. [3]

1- هكذا فلندع إلى الإسلام ، ص 18 / 19 .
2- هكذا فلندع إلى الإسلام ، ص 110 .
3- هكذا فلندع إلى الإسلام ، ص 110 .

تأمل لتصل

من الواجب على المرشد والداعي، أم يقول للضال أو التائه: تأمل، لتصل إلى الاعتقاد السليم، بدلا من أن يقول له: اعتقد الاعتقاد السليم. [1]

حرية دعوتنا

إن المسلم الواثق من تألق البراهين الإسلامية في ساحة العقول الحرة وسريانه في أعماق الفطرة الإنسانية، لا يبالي أن يتفتح للحرية خمسون بابا لخمسين منظمة أو حزب يتبنون أفكارا ومذاهب شتى، على أن يكون بينها باب واحد لحرية الدعوة إلى الله على بصيرة وسداد.

والذي لا يرى لنفسه سبيلا مفتحة للدعوة إلى الله، إلا في مناخ صفِّد فيه الآخرون كلهم بالأغلال، ليتسع المجال الرحب له وحده، لا شك أنه قد أخطأ السبيل، وتصور أن المجتمع الإسلامي إنما يتحقق من وراء جهود انقلابية وقوة عسكرية وقتل وسفك دماء، حيث يفرض الإسلام بعد ذلك فرضا ويحمل الناس عليه حملا شاؤوا أم أبوا، صدقوا أم لم يصدقوا!..

إنه تصور خاطئ ولا ريب؛ فإن مقر الإسلام إنما هو في العقول المصدقة به أولا، ثم في ساحة التطبيق لأحكامه ثانيا، والإسلام الذي يفرض بحكم انقلابي، يذهب به حكم انقلابي مثله أو أقوى منه. والناس الذين يفرض عليهم الإسلام بالتهديد، لن ينعموا من الإسلام بشيء من مزاياه الدنيوية، ولن يفوزوا بشيء من الأجر الذي ادخره الله للمؤمنين به، في حياتهم الأخروية.[2]

الجهاد باللسان

يمتاز الجهاد باللسان بأنه ينبغي أن يكون تعريفا بالإسلام وحقائقه، وإزالة للغواشي والشبهات التي تعترض سبيل فهمه، ودعوة إلى التأمل في حقيقته ثم الإذعان له عن طواعيةٍ واقتناع، دون أي قسرٍ أو إجبار، مهما كانت السبل إلى الإجبار مهيأة وميسرة. [3]

1- حرية الإنسان، ص 41 .
2- حرية الإنسان، ص 90 .
3- حرية الإنسان، ص 109 .

عليكم أيها الدعاة

إذا سارت الدعوة إلى الله في أوساط مصغية وبين آذان مفتحة، أي دون سعيٍ إلى إيقاف كلمات الدعوة في حلوق أصحابها، ودون صدٍ للدعاة عن أن ينفذوا بدعوتهم الفكرية والحوارية، فليس لرجال الدعوة أن يحملوا الناس على أي شيء وراء ذلك؛ بل عليهم، وهم يذكرون ويرشدون، أن يجعلوا من أنفسهم مظهر انصياع لقول الله عز وجل: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: 21،22]، بل عليهم أن يصمدوا ويصبروا لسخرية الساخرين وأذية المبطلين، وأن يقابلوا السيئة دائما بالحسنة، طبقا لأمر الله عز وجل ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصّلت: 34]، وطبقا لما كانت عليه سيرة رسول الله ﷺ. [1]

أين محاريب الدعوة ؟

أليس من الطبيعي أن أتسائل في مرارة: أين الدعاة إلى الله عز وجل، يخاطبون الناس بالروح السمحة، ويجذبونهم إلى رحاب الله بحرارة عبوديتهم لله، وبسموِّ استغنائهم عن الدنيا بكل صورها ومعانيها؛ أليس من الحق أن أتساءل: فيم تحولت محاريب الدعوة والإرشاد إلى ساحاتٍ بطشٍ وانتقام؟ لماذا اختفت القلوب التي يجب أن تفيض شفقة على عباد الله، لتبرز في مكانها قلوب تفيض بالشحناء والبغضاء؟ ترى إلامَ كان يؤول حال الناس لو أن الذين يتقلبون في همّ إقامة المجتمع الإسلامي سلكوا طريق الربانيين في محاورتهم ودعوتهم إلى الله؟.. إذن لفتحوا والله مغاليق الأفئدة بكلماتهم النورانية، ولدانت لهم الرتب، ولتعشّقتهم النفوس!.. ألا.. إن الطريق إلى ذلك مفتوح، ولن يتكلف السائر فيه إلا إخلاصا لله وصفاء في القصد، وعبودية واجفة لله، وترفعا فوق محبة الشهوات والأهواء والعصبيات. [2]

على الدعوة أن تكون عملية

إن من الحقائق الإسلامية الثابتة، وجوب النهوض بالدعوة إلى الله وتعريف الناس بالإسلام، وتحبيبه إليهم وأمرهم بعد ذلك بالمعروف ونهيهم عن المنكر. وحسبنا دليلا على أن هذا واحد

1- حرية الإنسان، ص 110/111 .

2- هذا والدي، هامش رقم (1) ص 146 .

من الأحكام الجوهرية للإسلام، قول الله عز وجل: ﴿ ادۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: 125]، وهو من ثم لا يلحقه أي تغيير أو تبديل.

غير أن هذا الحكم يتصل بأنشطة سلوكية كثيرة في حياتنا وواقعنا المعاش، تتصل ببناء الجامعات وإقامة المؤسسات التعليمية والتثقيفية، والعكوف على إخراج المؤلفات العلمية التي تخدم هذا الحكم، كما يتصل بإنشاء دور نشر ومطابع والاستعانة بأجهزة إعلام. وإيجاد مناخات ملائمة للنقاش والحوار. وكل ذلك خاضع للتطور تحت عوامل اختلاف الأزمنة والأمكنة، وتبدل الوسائل وتطورها بموجب التقدم أو التخلف الحضاري.

إن الحكم المتصل بهذه الأنشطة، على الرغم من ثباته ورسوخه مع الزمن، يبعث المسلمين على أن يطوروا هذه الأنشطة الخادمة له ما أمكنهم، وأن يبعثوها في كل فترة من الزمن بعثا جديدا بحيث يكون ذلك ضمانة لاستمرار تطبيق هذا الحكم، بل ضمانة لاستمرار جِدَّته وبقاء حيويته. [1]

دعوتنا أكبر من مجرد انتماءٍ فكري

المسلمون اليوم، تتوازعهم انتماءات فكرية شتى، وقد غدت هذه الانتماءات غذاء فريدا من نوعه، لتنمية مشاعر العصبية والأنانية الجماعية بين جوانح كل منهم وبمقتضى ذلك فقد أصبحت الدعوة الإسلامية التي أمر الله بها في كتابه المبين، لا تعني أكثر من أن يدعو كل منهم إلى الجهة التي ينتمي إليها، ويحذر بأقصى ما يملك من جهدٍ، من كل ما عداها!..

وتدخل في عموم ما نقول، الانتماءات الفكرية المجردة كالنزعة الوهابية والصوفية والمذهبية واللامذهبية، والانتماءات السياسية التي ترفع ألوية السعي إلى إقامة حكومات إسلامية تحكم في الناس بما أنزل الله.

ونحن لا نستبعد أن تكون هذه الانتماءات، في بادئ أمرها، قائمة على هدف البحث عن الحق وتنبيه الناس إليه، ولكنا لا نشك أنها تنتهي مع الزمن إلى استجابة للعصبية وحظوظ النفس، وانتصار للشخصية المعنوية المتمثلة في جملة الأفكار والميولات التي عرف بها صاحبها.

1- وهذه مشكلاتنا ، ص 30/ 31 .

ومن أكبر الأدلة على ذلك، أن أصحاب هذه الاتجاهات والانتماءات، لا يبالون أن يمزقوا وحدة الأمة الإسلامية، ويحيلوها إلى فرق متناحرة فيما بينهم، دون أن يتذكروا أن تحقيق وحدة الأمة الإسلامية، هدف من أقدس أهداف الوجود الإسلامي بحد ذاته.[1]

فلنكن متعقلين في دعوتنا

إن جل المسلمين الملتزمين بإسلامهم، لا سيما طبقة الشباب منهم، ينساقون في مجال سلوكهم الإسلامي وراء الحماسة والهياج العاطفي، أكثر مما يتبصرون مواطئ أقدامهم على طريق من الدراية والرشد!..

فقصارى ما يفهمونه – مثلا – من معنى المجتمع الإسلامي الذي يطمحون إلى تحقيقه، هو أن ينظروا فيجدوا أن يد السارق تقطع، وأن الزاني يرجم، وأن الشارب يجلد.. وأن يطمئنوا إلى أن الأحكام الوضعية والقوانين المستوردة قد اختفت من قصور العدل ومن أقواس القضاء، وسادت في مكانها أحكام الشريعة الإسلامية السمحاء.

ونحن لا نشك في أن هذه الغاية هي التاج الذي ينبغي أن يتوج به المجتمع الإسلامي وأنها اللسان المبين المعبر عن هوية ذلك المجتمع المسلم.

غير أن التدبير العقلي يحذر من أن تلصق هذه الأحكام بساحات المجتمع الإسلامي إلصاقا، بل يقضي باتباع منهج تطبق من خلاله أو في نهايته هذه الأحكام، ثمرة طبيعية لانصياع جل أفراده لدين الله وازدهار الإسلام في عقولهم دراية ووعيا، وفي قلوبهم ووجداناتهم حبا وإكبارا..

ولا يتم هذا الازدهار والانصياع، إلا بمعاناة طويلة مع هؤلاء الأفراد تعليما، وإرشادا وتوجيها.. وذلك هو لب العمل الإسلامي العظيم، وحقيقة معنى الدعوة إلى الله.

غير أن من شبابنا اليوم من لا يريد هذه الحقيقة، ويتبين صدقها!.. ولا يريد أن يلتفت إلى سواد الناس التائهين من حوله، بأي رعاية واهتمام.. وإنما يتجه بحماسته واهتمامه إلى حيث القادة والحكام، يطالبهم بأحد أمرين لا ثالث لهما: إما تطبيق أحكام الله، أو النزول عن سدة الحكم، لينهض من ورائهم من يطبق أحكام الله عز وجل!.. كأن هذه الأحكام الإلهية إذا طبقت،

1- حوار حول مشكلات حضارية ، ص 276 .

تحولت الضلالة في قلوب الناس إلى هدايةٍ ورشد، وتبدل الجحود والإلحاد في رؤوسهم عبودية وإيمانا، واستحال الفسوق والعصيان في سلوك الناس طاعة والتزاما!..

غير أن أحدا من العقلاء، لا يصدق أن تلك المقدمة تستلزم هذه النتيجة، وأن التطبيقات القضائية لأحكام الإسلام هي قصارى ما يجب على الداعين إلى الله العمل عليه والدعوة إليه بل إني أرى أن هذا العمل أشبه ما يكون بمن يدخل المسجد للصلاة فيستقبل القبلة ويدخل في الصلاة مكبرا، دون أن يتوضأ ويأخذ عدته للصلاة!..

إن هذا طريق مسدود بلا ريب، لا يدفع إلى السير فيه إلا حماس أعزل، لا يدعمه شيء من مؤيدات العقل والتدبير!..

إذ هو إما أن ينتهي إلى سد يتمثل في قيام فتنة بين جماهير المسلمين وحكامهم، أو إلى سد آخر يتمثل في تطبيق بعض الأحكام الإسلامية، مصانعة لهؤلاء المطالبين وإسكاتا لهم، فيقوم التشاكس بين هذه الأحكام وطبيعة الواقع السيئ الذي يتقلب فيه أكثر الناس.. ويأتي عندئذ من يستغل الموقف، ويعلن على رؤوس الأشهاد، أن التجربة قد أثبتت أن الشريعة الإسلامية غير صالحة للتطبيق!..[1]

نصائح لكَ أيها الداعية . .

إن الداعي إلى الله عز وجل، ما ينبغي أن يشغل الناس بالجزئيات الفكرية أو السلوكية التي يتمسك بها وينتصر لها، قبل أن يخضعوا ويدينوا جميعا للقاسم المشترك الذي يمثل الجذع الأساسي والمبدأ الاعتقادي الجامع لأشتات الجزئيات والفروع.

والداعي إلى الله، ما ينبغي أن يفرض على الناس قناعاته الاجتهادية، ويجعل منها مشكلة تسوِّغ النزاع وتصدع الصف الإسلامي الواحد؛ مع أن المشرع جل جلاله حل مشكلتها عندما أحالها إلى صدق النظر الاجتهادي، وأشرك كلا من المخطئ والمصيب في المثوبة والأجر.

وهكذا، فكم من منكر لا يجوز في ظروف معينة النهي عنه، مع أنه منكر بدون ريب.. وكم من معروف لا يجوز في ظروف معينة الأمر به، مع أنه معروف بدون ريب، إذ يكون الاشتغال بمحاربة

1- حوار حول مشكلات حضارية ، ص 278/ 280 .

ذلك المنكر باعثا على الوقوع في منكر أشد منه، ويكون الاهتمام بهذا المعروف والوقوف عنده، سببا في الإعراض عن معروف آخر أكثر أهمية منه في ميزان الشرع وحسابه... [1]

واقع مؤلم

إن الذي ينبغي أن يشغل بال المسلمين ويبعث المخاوف في نفوسهم، ليس الكيد الذي تستعِر به نفوس القادة وأولياء الأمور في الغرب، وإنما هو المصير الذي ينتظره هذا الإقبال المتزايد من شعوب الغرب على دراسة الإسلام وفهمه على حقيقته.

فالكيد القتالي لا يعدم قوة تقف في وجهه. والحرب الفكرية القائمة على الدسائس لا تقف في وجه حقائق الإسلام وساطع دلائله. ولكن المشكل أن الملايين التي تتوجه – بدافع ما – إلى معرفة الإسلام وفهمه، وتتطلع إلى من يبصرها به، ثم لا تجد من ينجدها في تحقيق هذه الرغبة، ولا تجد من المسلمين إلا إعراضا وتشاغلا عنهم، بخلافاتهم وخصوماتهم، قد يتحول تطلعهم في وقت ما إلى نقيضه.. هذا إن لم يسرع إليهم من يضعهم من الإسلام أمام زيف الصور القاتمة له، وأمام أوهام يمجها العقل وينكرها المنطق والعلم.

ولم يكن لشيءٍ من هذه المخاوف موجب، لو كان المسلمون اليوم أمناء على دينهم اعتصاما بحبله؛ وسيرا على صراطه؛ ونهوضا بواجب التعريف به والدعوة إليه.

ولكنهم اليوم، على الرغم من الصحوة الإسلامية التي ملأنا بها سمع الدنيا، مظهر مؤلم لتيه متشرذم، ولخصومات من غير هدف، ولاحتكاكات تبعث على التآكل، مع إعراض يكاد يكون كليا عن رسالة الدعوة إلى الله وتبصير الناس بحقيقة الإسلام.. هذا إن ضربنا الصفح عن أولئك الذين ما زالوا يؤثرون الشرود عن الهوية، والالتصاق بالآخرين.. واصطناع الريبة في كل ما هو قديم ابتغاء التعلق بكل ما هو جديد.

فهذا الواقع الذي يعاني منه عالمنا الإسلامي، بكلا هاتين الصورتين، هو الذي يؤرق الذهن ويبعث المخاوف في القلب تجاه المصير الذي ينتظر أولئك الملايين إلى الإسلام، ورغبتهم في معرفة جوهره الذي بات يخيف ساستهم وحكامهم إلى هذا الحد!.. [2]

1- حوار حول مشكلات حضارية ، ص 285/ 286 .

2- الإسلام والغرب، ص 66/67 .

بشارة

من أطرف ما يثلج الصدر ويبشر النفوس المؤمنة بالله عز وجل، أنه ما من إنسان غربي، ذكرا كان أو أنثى، يعتنق الإسلام بصدق اليوم، إلا ويتحول في الغد القريب إلى دلالٍ على بضاعة هذا الدين، ينادي به بين قومه وأبناء جلدته، يدعوهم إلى الله ويعرفهم على دينه الذي اختاره لعباده، بدافع من الحرقة والحب، وبمظهر أخاذ يذكِرك بما كان عليه أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم. [1]

الجهاد الكبير

إن من أهم أنواع الجهاد التي شرعت مع فجر الإسلام، مواجهة رسول الله ﷺ المشركين، ومن ورائه أصحابه، بدعوتهم إلى الحق، وتفنيد ما كانوا يعكفون عليه من تقاليد الآباء والأجداد.. وإن من أهم أنواعه ثباته وثباتهم معه على الصدع بكلمة الحق، مهما جرَّ ذلك عليهم من أنواع الشدة والإيذاء.. وإن من أهم أنواعه مضيِّهم في التبصير بكتاب الله والتعريف به والتنبيه إلى إخباراته وأحكامه، دون أي مبالاة بالأخطار التي كانت تحدق من جراء ذلك بهم.. كيف لا وقد سماه الله تعالى جهادا في صريح بيانه، عندما قال لرسوله وهو لا يزال في مكة:﴿**فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا**﴾ [الفرقان:52]، أي وجاهدهم بالقرآن وحججه جهادا كبيرا، كما قال ابن عباس وغيره. وتأمل في تسمية النهوض بهذا الواجب (جهادا كبيرا) لتعلم مركزه الكبير المتميز بين أنواع الجهاد. [2]

أين هو أثر الدعوة الحقيقي

إن الدعوة التي يفهمها ويمارسها أكثر الجماعات الإسلامية اليوم، ليست أكثر من أنشطةٍ تدور حصرا بين أفرادها أنفسهم!.

وتتمثل هذه الأنشطة، كما هو معروف، في مناقشات تدور بينهم حول المستجد من أوضاع المسلمين والمشكلات التي تطوف بهم أو التي يعانون منها، وفي تحليل وتقويم واقع الحكومات

1- الإسلام والغرب ، ص 86.
2- الجهاد في الإسلام ، ص 20/ 21 .

والأنظمة القائمة في بلادهم خاصة، أو في البلاد الإسلامية عامة، ثم في رسم الخطط التي تتكل بترسيخ وجود أفضل وأكثر قوة، لهم، على طريق السعي للوصول إلى مناطق الحكم والنفوذ، ثم في التحرك التعاوني المنظم لتنفيذ هذه الخطط بالسبل المتنوعة الممكنة.

ذلك هو، باختصار، حجم الأنشطة التي يمارسها أكثر من يسمون بالإسلاميين أو الجماعات الإسلامية، والتي يطلق عليها اسم العمل الحركي، ثم تدخل في مفهومهم تحت مصطلح: الدعوة الإسلامية!

فهل هذه هي الدعوة التي أمر الله عز وجل بها في قوله تعالى: ﴿ ادۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[النحل:125]، والتي عناها رسول الله ﷺ بقوله: ((لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت)) [1]؟

أين هو الداعي المرشد والمدعو التائه في سلسلة هذه الأنشطة الحركية؟

وأين هو أثر هذه الطريقة من الدعوة على التائهين والجانحين والفاسقين والواقعين في شباك محترفي الغزو الفكري، وما أكثرهم على كل صعيد؟

إنك لتنظر، فترى أن برزخا كبيرا يفصل بين تلك الجماعات التي تنشط نشاطها الحركي الذي أوضحناه، وهذا الخليط من التائهين والجانحين والجاهلين. فليس بين هؤلاء وأولئك أي تلاقٍ على صعيد دعوة أو نقاش أو حوار. بل بوسعك أن ترى، بدلا من ذلك، فئات شتى من أصحاب المذاهب والأفكار الهدامة، يتغلغلون بين خليط هؤلاء التائهين والجهَّال، يلحقونهم إلى قراهم النائية، ربما، أو إلى أماكنهم المستوعرة، فيجلسون إليهم ويؤانسونهم، ثم يبثون في أفكارهم عوامل الشبهات والريب، ثم يسعون إلى إحلال أفكارهم ومذاهبهم الباطلة محل قناعاتهم الدينية التقليدية. وذلك بأساليب شتى من الحوار والنقاش.

كل هذا، في حين أن الإسلاميين أو الجماعات الإسلامية، منصرفون إلى أنشطتهم الحركية الخاصة بهم والدائرة بينهم.. ومع ذلك فهم، عند أنفسهم وقناعاتهم، يمثلون طليعة الدعاة إلى الله من خلال هذا العمل الحركي!.. [2]

1- الحديث متفق عليه .

2- الجهاد في الإسلام، ص 43، 44 .

جوهر الدعوة أنها عبادة

إن جوهر الدعوة إلى الله، لون من أجلِ ألوان العبادة التي يتقرب بها الإنسان المؤمن إلى الله عز وجل، بل هو ممارسة لأسمى معاني العبودية الضارعة له. إذن فهو ليس وظيفة حركية من جنس الوظائف الحركية التي يمارسها أصحاب المذاهب أو رجال الأحزاب الأخرى، إذ يتنافسون في سباقٍ لاهثٍ إلى فرض أنظمتهم ثم سلطانهم على المجتمع الذي يعيشون فيه، بقطع النظر عن حال الأخلاق الشخصية وواقع التربية الفردية وخط السلوك.

الداعي إلى الله بحق، يجيش وقود الدعوة بين جوانحه، في ضرام الحقيقة الربانية القائلة: ((لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت))[1]، فهو يتجه بأمل الهداية إلى الأفئدة والعقول، ويتعلق منه الطمع بعد ذلك برضا علام الغيوب، وينتظر من حصاد دعوته تربية قويمة تشيع بين الأفراد واستقامة على الخلق السليم والسلوك الرشيد في علاقة ما بينهم على كل المستويات.

أما المتحرك سعيا إلى نصرة جماعته أو حزبه، فهو إنما يتجه بهم في حركة تكتيكية إلى مقاليد الحكم. ومن ثم فهو أبعد ما يكون عن الاهتمام بإصلاح القلوب وإقناع العقول وتهذيب النفوس. وإنما همه، بل كل همه، محصور في أن يقتنع الناس بضرورة إبلاغه إلى سدة الحكم والقيادة، ليريهم كيف يفجر لهم من نظامه الذي ينادي به، جنة تزخر بأمواج السعادة للجميع.[2]

أين أنتم يا خلفاء مصعب ومعاذ

إنه ما من إنسان اصطادته مكائد الحضارة الغربية بأهوائها وزخرفها، إلا وهو مهيأ للانعطاف إلى أوامر الله واتباع سبل مرضاته بمقتضى فطرته التي فطر عليها. وإذا كان أبطال تلك الحضارة وصناعها مهيَّئين بفطرتهم لهذا الانعطاف عند أول نداء يصك أسماعهم ويسري إلى قلوبهم، أفلا يكون المسلمون الذين اصطادتهم زخارف تلك الحضارة أكثر تهيؤا وقبولا لذلك؟

ولكن المشكلة أن سلطان تلك الأهواء والزخارف يتغلغل في مجتمعاتنا ومن ثم يسري إلى نفوس أفرادها، دون وجود أي محذر أو نذير، ودون وجود ربانيين مربين يوقظون مخافة الله بين جوانح هؤلاء الأفراد، وينبهونهم إلى قصة رحلتهم في فجاج هذه الحياة.

1- الحديث متفق عليه .

2- الجهاد في الإسلام، ص 64 .

فلو أن رجال الدعوة الإسلامية في مجتمعاتنا توجهوا إلى حشود هؤلاء التائهين يلقونهم في أنديتهم وأسواقهم أو مدارسهم وجامعاتهم، يبصرونهم بحقائق هذا الدين ويحاورونهم في إزالة شبهاته، تحدوهم إلى ذلك نوازع الإخلاص لوجه الله والشفقة على عباد الله، إذن لاستأنس أولئك التائهون بهم وركنوا إليهم، ثم أصغوا باهتمام إلى نصائحهم وبياناتهم، ولا بد أن تسري أشعة الهداية، أخيرا إلى عقولهم وأفئدتهم، وسبحان من قضت سنته في عباده أن يسخر بعضهم لبعض، وأن يجعل فئات منهم مادة مثوبة لفئات أخرى.

ولكن أين هم الذين يجددون في هذا العصر، سيرة رسول الله ﷺ وأصحابه في دعوة الآخرين إلى الله عز وجل، بالأسلوب الذي كانوا يمارسون، والآداب التي كانوا يتحلون بها؟.. أين هم الذين يعيدون، في مجتمعات التائهين اليوم، سيرة مصعب بن عمير، ومعاذ بن جبل، وأبي موسى الأشعري، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن مسعود؟!.. [1]

كلنا رجال دين

ليست مهمة الدعوة الإسلامية وقفا على الرسل والأنبياء وحدهم، ولا خلفائهم وورثتهم العلماء الذين يأتون من بعدهم، وإنما الدعوة الإسلامية جزء لا يتجزأ من حقيقة الإسلام نفسه، فلا مناص ولا مفر لكل مسلم من القيام بعبئها مهما كان شأنه أو عمله أو اختصاصه، إذ حقيقة الدعوة إنما هي (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وهو جماع معنى الجهاد كله في الإسلام، وأنت خبير أن الجهاد فرض من فروض الإسلام تستقر تبعته على كل مسلم.

ومن هنا تعلم أنه لا معنى ولا مكان لكلمة رجال الدين، في المجتمع الإسلامي، حينما تطلق على فئة معينة من المسلمين. ذلك أن كل من دخل الإسلام فقد بايع الله ورسوله على الجهاد من أجل هذا الدين، ذكرا كان أم أنثى، عالما أو جاهلا، ومهما كان شأنه أو اختصاصه، فالمسلمون كلهم رجال دين، اشترى منهم الله أرواحهم وأموالهم بأن لهم الجنة يسخرونها في سبيل إقامة دينه ونصر شريعته.

ومن المعلوم أن هذا كله لا علاقة له بما للعلماء من اختصاص البحث والاجتهاد وتبصير المسلمين بأحكام دينهم، وحل ما قد يجدّ من المشكلات في حياتهم، على ضوء نصوص الشريعة الثابتة مع الزمن. [2]

1- الجهاد في الإسلام ، ص 208 .
2- فقه السيرة النبوية ، ص 178 ، 179 .

مسؤوليتنا كبيرة أيها المسلمون

إن مسؤولية الإسلام في أعناق المسلمين في كل عصر وزمن ليست من السهولة واليسر كما يتصور معظمهم اليوم.

فلا يكفي أن ندّعي الإسلام بألسنتنا المجردة، كما لا يكفي أن يكون نصيبه من حياتنا بعض أعمالٍ يسيرة، كانت في أصلها جليلة، ثم تحولت في حياتنا إلى عادات وتقاليد، بل ولا يكفي أن يتمسك الواحد منا بالإسلام لنفسه فقط، ثم يغلق بابه دونه لا يسأل عن شيء.

لا ترتفع مسؤولية الإسلام عن أعناق المسلمين حتى يضيفوا إلى هذا، القيام بواجب الدعوة إليه والتبشير به، والسفر في سبيل ذلك إلى شتى الجهات والقرى والبلدان. [1]

المقبلون آتون.. فهيا أيها المرشدون

لقد تكاثر عدد المقبلين إلى الإسلام داخل ربوعه، كما تضاعف عدد الراغبين في فهمه خارج بلاده. وإن بهؤلاء وأولئك لحاجة ماسة إلى من يعرض حقائق هذا الدين لهم بأسلوب علمي مبسط ويزيح عن طريقهم إليه الغشاوات المصطنعة والشبهات المختلفة. فإن لم يسرع من المسلمين الصادقين من ينهض بمسؤولية هذا الشرح والبيان على أتمّ وجه، أوشك أن يسبق إليهم من أولئك الأعداء التقليديين وجنودهم، من يجهض لديهم تلك الرغبة، بابتداع صورٍ مشوهة كاذبة عن الإسلام يضعونها نصب أعينهم، ثم يتسللون بها إلى مكمن الوعي من نفوسهم. فإمّا أن يعرضوا بعد ذلك عن الإسلام ويرجعوا إلى شر من الحالة التي كانوا عليها من قبل، وإما أن يعتنقوا إسلاما باطلا مزيفا، لا يصلح فسادا ولا يتّفق مع علمٍ ولا عقل، كما آل إليه حال كثير ممن دخلوا في الإسلام، في كثيرٍ من جهات أوربا وأنحاء أمريكا، ثم لم يجدوا من يبصّرهم بحقيقة ما هم عليه وبمدى بعدهم عن الإسلام الذي يطمحون إليه. [2]

1- فقه السيرة النبوية ، ص 473 .

2- التعرف على الذات ، ص 25 ، 26 .

لا تنسَ أنك عبد لله

إن الذي يدخل في طريق الدعوة على الإسلام، بعيدا عن المثول في محراب التبتل ومعاني العبودية لله عز وجل، مندفعا بالأسباب ذاتها التي تدفع صاحب أيَّ مذهب أو مبدأ إلى الدفاع عن مذهبه ودعوة الناس إليه، لا بدٍ أن ينسى الله تعالى في غمار دعوته تلك. ولا بدٍّ أن ينجرف في تيار الأنانية ورغبة الانتصار للذات، شأن سائر الدعاة إلى مختلف المذاهب والأحزاب. وهيهات حينئذٍ أن يتأثر بدعوته أحد، اللهم إلا أن يكون تأثرا مصلحيا قائما على مناورة أو على الرغبة في الوصول إلى أمان ومصالح دنيوية. ذلك لأن الناس لا يصعب عليهم أن يشموا رائحة حب الانتصار للذِّات، من خلال هذه الطريقة في الدعوة. وإذا تنبهوا لذلك، فلا بدٍّ أن تستيقظ لديهم هذه المشاعر ذاتها، بطبيعة الحال، وأن يتحصَّن كل طرف ضد الآخر في حصن أنانيته والانطواء على ذاته، وعندئذٍ يتقطع مما بينها الجسور الواصلة، ويتفاقم الحقد وتتوالد الضغائن، ويقضى على كل أملٍ في التفاهم والوئام. [1]

أين هي ثورة الدعوة إلى الإسلام

إني لأقول إن هذه الأمة مهيأة بكاملها اليوم لقبول هذه الدعوة، ولكن أين هم هؤلاء الدعاة؟ وأين هي ثورة الدعوة إلى الإسلام، تبصر المسلمين بدينهم، وتخلصهم من ازدواج البشع في تفكيرهم وسلوكهم، وتوقظهم إلى هوياتهم الحقيقية في هذا الوجود: أنهم عبيد مملوكون لله عز وجل، وتنبههم إلى وظائفهم الأساسية التي أنيطت بهم في هذه الحياة، وهي أن يضعوا عبوديتهم لله موضع التنفيذ، فيحرموا حرامه ويطبقوا أحكامه، ويربطوا أفكارهم بالمصير، الذي سينتهون إليه بلا ريب، إذا اجتازوا مرحلة الموت وحانت وقفة الحساب بين يدي الله عز وجل. [2]

1- التعرف على الذات ، ص 32 .

2- التعرف على الذات ، ص 135 + 136 .

ما هي الحكمة في الدعوة

ليست الحكمة أن تسلك بالدعوة أقرب السبل إلى ضمان أمنكِ ودنياكِ، وإنما الحكمة في الدعوة، أن تسلك بها أقرب السبل إلى أفئدة الناس وعقولهم، وليست الحكمة حصنا يقي به الداعي نفسه مما قد يلحقه من البأساء والضراء، وإنما هي سياسة يحافظ بها على كلمة الحق كي تصل إلى مداها من عقول الناس ونفوسهم واضحة سليمة مشرقة. [1]

المسلم . . . كالماء

إن الماء العذب هو هو ... فيه جوهر الرقة والصفاء، ولديه طبيعة الثورة والهياج، سواء كان يتصبب من راسيات الصخور، أم يتجمع في الجداول ووسط المروج.

وتلك هي طبيعة المسلم الصادق في إسلامه: عمق في الإحساس، وصفاء في النفس، ورقة في القلب، حتى وهو يثور قائلا صبَّحكم مسَّاكم... وثورة في العزم، وحزم في الإرادة حتى وهو يتفيَّأ ظلال أسعد ساعات عمره. [2]

لكَ أيها العالِم

ليس المهم في العالِمَ أن يكون مجرَّد داعٍ أو واعظٍ أو مرشدٍ يهيّج الناس بخطبِهِ المتأججة، ويحمِسهم بكلماته الهائلة، ويشيد في أخيلة الناس صرحا عظيما من الحكم أو المنهج الإسلامي القويم – فربَّ دعاةٍ من هذا القبيل أصبح كلِ شأنهم هو التعويض عن خسارة المسلمين التي حاقت بهم إذ تركوا إسلامهم، بأوهامٍ تصول وتجول داخل رؤوسهم، وربَّ دعاةٍ من هذا القبيل أسقِطِ في أيديهم وهم في ذروة تهييجهم وتحميسهم للآخرين، عندما قيل لهم: لقد آمنا وصدٍّقنا، فما السبيل وما المنهج وما الحكم؟..

ولا والله ما ضرَّ الإسلام وأهله أكثر من رجلين اثنين: خامل يرى النار تلتهم شرعة الله وحكمه فلا يتحوَّل عن محرابه إليها بأي جهدٍ أو محاولة، ومهيّج مِهذار يبيع الناس كلاما ويملؤهم وعودا وحماسا دون أن يتحرك من أرضه أو يحرّك الناس إلى سبيلٍ من الفكر والعمل والتدبير. [3]

1- من الفكر والقلب ، ص 160 .
2- من الفكر والقلب ، ص 222 .
3- من الفكر والقلب ، ص 238 .



ترجمة (لا حول ولا قوة إلا بالله)

ألا فليعلم كل جاحد، وكل معاندٍ مستكبر، أن الإنسان لا يتأتى منه أي شيء، لا الصبر ولا غيره من سائر التكاليف الإلهية إلا بتوفيقٍ وعونٍ من الله تعالى. فالإنسان لا يتحرك إذ يتحرك إلا بحول الله وقوته، ولا يتجنب ما ينبغي عليه أن يتجنبه إلا بمعونة الله وحمايته.. ومن ثم فإن الأوامر الصادرة من الله إليه، ليست متعلقة في الحقيقة بالأفعال المكلف بها، وإنما هي متعلقة بواجب آخر يشملها جميعا هو طلب العون من الله، وذلك بإعلانه العجز والافتقار إلى عون الله وقوته، وتلك هي ترجمة الكلمة القدسية التي يجب أن تكون ملء عقل الإنسان ويقينه: (لا حول ولا قوة إلا بالله) .. [1]

ما أثقل الاستكبار

ألا ما أثقل الاستكبار وأغلظ !.. ينقل صاحبه من مخاصمة الحق إلى معانقة المستحيل. يخاصم الحق بستين لغة من لغات جحوده واستكباره. ويستسلم للخرافة التي يمجّها العقل ويسخر منها العلم، وإن شهد ستون برهانا على تطوحه في التيه والضلال !!.. [2]

1- لا يأتيه الباطل ، ص 52 .
2- لا يأتيه الباطل ، ص 103 .

جعلكَ اللهُ مفكرا . . لا فكرة

لقد كان الله، ولا يزال، قادرا على أن يسيِّر الإنسان لتحقيق ما يشاؤه فوق هذه الأرض من عمران وغيره، في الطريق القسريِّ ذاته الذي سيَّر فيه الحيوانات العجماوات، ألا وهو طريق الغريزة الحتمية، وإذا بهذه الأرض العامرة مبنية على النهج الذي شاءه دون أي ثغرات أو عيوب. ويكون دور الإنسان في ذلك، التنفيذ الآليَّ الذي لا يتوقف ولا يشرد عن نهجه المسيَّر فيه يمنة ولا يسرة.

ولكن الله عزَّ وجلٍ شاء أن يكل هذا الأمر إلى الإنسان، يقدِره على التنفيذ بفكره وجهوده التي بثها فيه، ويبصِّره بالمنهج والنظام وأدوات التنفيذ، ويمتِّعه بالحرية والقدرة الذاتية على اتخاذ القرار الذي يشاء، فهو إذن يملك أن يتخذ لنفسه قرار الاستجابة والنهوض بالعمل الذي وكله الله إليه، فتعمر الأرض بالخير والأمن والسلم. ويملك ألا يستجيب، ويتخذ لنفسه قراراِ مخالفا للتعاليم التي أنزلت إليه ووكل إليه تنفيذها، فتتحول الأرض إلى براكين من وقود الشر، وإلى قوى متصارعة تحصد الشقاء للأسرة الإنسانية جمعاء. [1]

حقيقة الخلافة

ما هي حقيقة الخلافة التي قضى الله أن يتشرف بها الإنسان، والتي أعلن عنها لملائكته إذ قال لهم: إني جاعل في الأرض خليفة.

إنها ليست عنوان غياب أو عجز الله تعالى، حاشاه جل جلاله عن ذلك. وإنما هي عنوان تكريمٍ منه للإنسان. ألا ترى كيف سخَّر له بين يديه نهوضه بهذه الوظيفة ما حوله من المكنونات، ومتَّعه بفيوضاتٍ من صفات ذاته العلية كالعلم والقدرة والشعور بالامتلاك ؟ ثم ألا ترى أنه إذ يستجيب لِما قد كلِف به إنما يفعل ذلك باسم الله ، واستجابة لأمر الله ؟. [2]

1- لا يأتيه الباطل ، ص 136 .
2- لا يأتيه الباطل ، ص 137 .

أهمية علم الكلام

إن علم الكلام اليوم (من حيث هو منهج وأسلوب) في حدود الحاجة الماسة إلى التصدي لأسباب الزيغ وموجباته الحديثة، مما يحلى بأردية المنطق والعلم في الظاهر، من أشرف ما يجب على المسلمين الاشتغال به والانصراف إليه. وهو ضمن حدود الحاجة إليه داخل في صميم المنهج القرآني الذي يأمر بمحاورة الآخرين ومجادلتهم.

على أن هذا العلم لا تزيد فائدته على كنس الوساوس الفكرية، وطرد الشبهات العقلية التي يخيَّل إلى من وقع في شراكها أنها حقائق ثابتة. أما تنمية اليقين بالله في القلب فعلاجه اتباع شيءٍ آخر من وراء هذا العلم، وهو الاستمرار في السعي إلى تزكية النفس من أوضارها، عن طريق الإكثار من ذكر الله في الغدوِّ والآصال، والإكثار من تلاوة القرآن بتدبر، وربط العبادات السلوكية بالعبودية التي هي حال يصطبغ بها العابد، وتطهير اللقمة، والابتعاد جهد الاستطاعة عن ظلمات المعاصي والآثام. [1]

العاصم الوحيد

إن الحق الذي لا يمتري فيه عاقل، هو أن العاصم الوحيد الذي يمكنه أن يحجز الإنسان عن الانحراف إلى الطغيان الخلقي إنما هو أن تقوم محكمة تامة برئيسها وأعضائها وشرطتها في داخل الفؤاد. ولن تجد هذه المحكمة متمثلة – مهما حاولت – إلا في العقيدة الإسلامية إذ تغرس بعناية في فؤاد الإنسان منذ نشأته؛ فهي التي تغالب الدوافع النفسية حتى تغلبها، ثم تستحل مكانها من النفس وتتولى هي القيادة والتسيير. [2]

أيهما أصدق حديثاً عن الكون

أيهما الخبر الصادق؟ خبر الإنسان المخلوق عن كيفية خلق الله وإبداعه له، أم خبر الله ذاته عمَّا خلق وأبدع؟.. وأيهما أوثق وأصدق؟ حديث الإنسان عن أحداث الكون في ماضيه السحيق، أم حديث خالق الكون ذاته عن تلك الوقائع والأحداث؟

1- إشكالية تجديد أصول الفقه ، ص 263 ، 264 .
2- تجربة التربية الإسلامية، ص 59 .

أعتقد أن الإجابة عن هذا السؤال تدخل في البدهيات التي لا يجهلها عاقل من الناس. فحديث الصانع عن صنعته والمبدع عن كيفية إبداعه، هو الكلام المصدِّق، وكلام الآخرين عن ذلك فضول لا يؤبه به. وليس في الناس من يقبل إلى دراسة ((الدليل)) المقرون بالجهاز الذي حصَّل عليه من معمله إلا إذا رآه مختوما بختم المعمل الذي أنتجه، فإن رآه من بيان أو تعليق أناس آخرين أعرض عنه ولم يثق بشيء مما فيه.

ولا يقبل الناس على الإصغاء إلى الافتراضات والنظريات المتعلقة بأثرٍ عمراني أو جهازٍ صناعي أو عملٍ إبداعي، إلا إذا حيل بينهم وبين الإصغاء إلى بيان صاحب العمران أو العمل الإبداعي ذاته. [1]

من نصدق الصانع أم المصنوع ؟

ما الذي يأمرنا به العلم ومنطق البداهة في فهم الأشياء؟ أن نصدق كلام ذاك الذي صنع الإنسان وأبدعه، أم أن نصدق كلام هذا الإنسان المصنوع الذي أدخله الله إلى ساحة الحياة بالأمس ثم قذف به إلى وادي الموت والهلاك اليوم؟

هل من عاقلٍ في الناس يجهل أن العبرة بكلام الصانع في وصف ما قد صنع وكيفية صنعه له، وأن كلام ذلك الإنسان المصنوع فضول من القول لا قيمة له؟

ويزداد مظهر هذا الفضول والتفاهة، في معارضة الإنسان لبيان خالقه جلاء، عندما نقف بشيءٍ من التأمل أمام هذا الكلام القرآني العجيب الذي يخاطب به الإله الصانع عباده الذين يقفون من بيانه هذا لهم، موقف المعارض والمجادل، فيقول عنهم – وهو بمثابة الخطاب لهم – : ﴿ **مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا** ﴾ [الكهف :51].

وليت شعري أي فرقٍ هذا الذي قد يوجد، بين بيانٍ يصدره ربّ مصنعٍ ما، عن الجهاز الذي صنعه، من حيث كيفية صنعه وكيفية استعماله وصيانته، وبيانٍ يصدره ربّ هذا الجهاز الكوني أجمع، حتى يلقى البيان الأول كل قناعةٍ ورضى، ثم يلقى البيان الثاني كل إعراض وتكذيب؟ لماذا يلقى الأول كل ترحيب واحترام، على حين يوضع الثاني في ملف الأوهام والأساطير؟. [2]

1- هذه مشكلاتهم ، ص 126 .
2- هذه مشكلاتهم ، ص 128 / 129 .

شحنة الإخلاص

لا بد من توافر شحنة الإخلاص لله عز وجل، حيال كل أنشطتنا الدينية والاجتماعية الكثيرة. وإنه لدواء رائع فعال لو أمكن العثور عليه. ولكن الإخلاص لله كما قال الربانيون سرّ يودعه الله في قلب من أحب من عباده... فاللهم اجعلنا ممن أحببتهم فأحبوك، حتى نخلص لك ... [1]

اتقِ الله ولا تكفّر

فليتق الله أولئك الذين يجازفون في إقامتهم أنفسهم مقام الله عز وجل بتكفير كل من لم يحكم بما أنزل الله، دون رجوع إلى ضوابط ذلك من أدلة العلم وقواعده، وليتهموا أنفسهم بالانسياق وراء غيظ لا يحكمه منهج الإسلام وضوابطه، ولا يقصد به وجه الله وحده. [2]

رقابنا بيد الله

مهما بحث عشاق الحرية في القيود الكونية أو البشرية، ومهما فكروا في إمكان العثور على سبيل للتغلب عليها، فلن تهديهم بحوثهم إلا إلى وجود خالق لهذا الكون ومبدع لنظمه وقوانينه. ولسوف يقفون خلال بحوثهم هذه على كثير من صفاته، وإن كان مقضيا عليهم بالعجز عن الوصول إلى كنهها. ولسوف يوقنون يقينا لا يخالطه ريب بأنه مالك هذه الموجودات كلها، وأن الإنسان ليس إلا سلعة ممتازة في هذه البضاعة الكونية التي هو قيومها ومالكها وإليه مآلها، ولسوف يدركون بأن قصة هذه الحرية التي يناضلون في سبيلها ليست إلا كقصة الحرية التي توهمتها العنز، عندما أطال صاحبها من الزمام الذي أثبته في عنقها، فانطلقت تقفز إلى هنا وهناك، وتتسلق ما يصادفها من روابٍ وهضاب.إن من الواضح أن هذا الزمام الذي أثبت في عنقها، إنما هو زمام امتلاك، مهما بلغ طوله، ولن يورثها أي حرية أو انعتاق، وليس عجيبا أن لا يعقل الحيوان الأعجم هذه الحقيقة، ولكن العجيب أن في الناس العقلاء من لا يهتدي إلى مكان الزمام الذي أثبت بإحكام في كل جزء من كيانه، واستقر طرفه الآخر في قبضة مولاه وخالقه. وإنه ليوشك أن يجذبه إليه جذبة واحدة فإذا هو أسير في قبضته، ضئيل تحت سلطانه لا يملك لنفسه طولا ولا حولا . [3]

1- مشكلات في طريق النهوض ، بحث : من التطرف إلى الحوار ، ص 23 .
2- هكذا فلندع على الإسلام ، ص 84 / 85 .
3- حرية الإنسان في ظل عبوديته لله، ص 24 .

القضاء والقدر

الحقيقة أن كلمتي القضاء والقدر لا علاقة له بشيء من معاني الجبر والاختيار، كما يتوهم العوام من الناس وإنما هو من مستلزمات صفة العلم المطلق أولا، ثم القدرة المطلقة ثانيا. فقضاء الله من نتائج كونه عز وجل عالما بكل شيء. وقدره من نتائج أن كل شيء إنما يوجد بقدرته وخلقه. [1]

نداء العبودية

إن العبودية التي فطر الإنسان عليها تناديه من أعماق شعوره :

((تعالِ أيها العبد المملوك لخالقه الأوحد جل جلاله، المتحرك في قبضته وداخل سلطانه، فالزم باب العبودية الراضية لرب الأرباب، قبل أن تشرد عنه إلى شقاء الغواية والاضطراب. تعالِ، فلا مفر من الله إلا إليه، ولا ملاذ من عذابه إلا بالخضوع لجنابه والرضا بسلطانه. ولا عليك ممن نسي ذاته فاستكبر فوق قمامة من الجهل أو اعتلى متساميا فوق عيدان من الوهم.)) فلسوف يقدم الجميع إلى الله من باب العبودية التامة الراضية له صاغرين مطأطئين:

﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: 93 – 95].

ومرة أخرى أقول: إن تعامل الإنسان مع ربه، في مجال التعرف عليه والإيمان به، ثم في مجال الالتزام بأوامره وأحكامه، لا يجوز أن يتم إلا على ضوء العلم وأحكامه.

وهو قرار ثابت بأمر الله عز وجل ذاته، أليس هو القائل: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: 36]. [2]

1- حرية الإنسان، ص 44 .
2- حرية الإنسان ، ص 54 .

ما الإنسان إلا جهاز استقبال

ما من ريبٍ في أن الإنسان لم يصنع ذاته، وما من ريب في أنه ليس فاعلا لشيءٍ من الطاقات والصفات التي يعرفها في كيانه، وإنما هو منفعل بها.. أي إنه مجرد وعاء حشي بمجموعة طاقات، ولا شك أنه لا يملك أن يجذبها إليه وأن يدفعها عنه أو أن يبقيها في كيانه، فهو إذن جهاز استقبال.. أجل هو جهاز استقبال بكل ما في هذه الكلمة من معنى، واليقين العلمي بجهاز الاستقبال، يسوق – لا محالة – إلى اليقين العلمي بوجود جهاز إرسال يقابله، ذلك لأن بين هذين اليقينين تلازما بيِّنا لا يقبل الانفكاك.

من أين ينعكس إرسال هذه الطاقات إلى الإنسان، فتتحرك في كيانه مبدعة ومنتجة ومدركة، إلى أجل مسمى، ثم تتقلص عنه مرة واحدة، فإذا هو كالشاشة البيضاء التي انقطعت عنها أشعة الصور التي كانت تتحرك عليها؟..

أجل، من أين يتم إرسال هذه الطاقات إلى الإنسان؟ ألا يفرض العلم على أهله طرح هذا السؤال؟.. وهل من سبيل لأن يفر العاقل بعقله عن مواجهته والبحث في إجابة علمية شافية عليه؟..

لقد أطلت التأمل في هذا السؤال في صدر حياتي، كأي إنسان يفرض عليه عقله ذلك.. ولقد استعنت لمعرفة جواب علمي سديد صافٍ عن الشوائب، بكل الجهود المعرفية والوسائل العلمية التي يمكن أن يتعامل بها شتى فئات الناس، على اختلاف عقائدهم واتجاهاتهم.. وانتهيت إلى قرار علمي يكمن في نهاية طريقٍ علمي يصل إليه كل من سلكه واتجه إليه.

خلاصة هذا القرار أن الإنسان صنعة خالق أوجده ابتداء، ثم إنه يمده بمقومات الوجود دواما، ويفيض عليه، ما شاء من الملكات والطاقات التي يمتعه بها إلى أجل معلوم، فالله الخالق هو الفاعل لها، والإنسان المخلوق هو المنفعل بها.

هذا الواقع الذي لا مرية فيه، والذي يرصده العلم بدقة لا يطولها الوهم، يجعل من الإنسان المنفعل بتلك القدرات والصفات عبدا مملوكا، ومن الخالق الفاعل لتلك القدرات والمسيِّر لها، إلها ومالكا.

إذن فالإنسان عبد مملوك لا محالة وعبودية الإنسان هي بذاتها عنوان ربوبية الله عز وجل، وإنما ينبثق الدين أو الدينونة من علاقة ما بين هذين الطرفين.

وهكذا يتبين لنا بالبرهان العلمي القائم على الواقع الحسي المشاهد، أن دينونة الإنسان للخالق حقيقة ثابتة ذات وجود موضوعي مستقل عن الإنسان وفكره، لا يزعزعها أو يغير من ثبوتها جحود الجاحدين ولا إلحاد الملحدين ولا نسيان التائهين عن معرفة أنفسهم.[1]

سبحان الله

لا يزال هذا الإنسان الذي وضع القمر تحت سلطانه، ثم انطلق يلقي شباك بحثه نحو الكواكب والأفلاك النائية الأخرى – لا يزال هذا الإنسان يموت بنفس الطريقة التي تموت بها أي ذبابة ضعيفة في الكون!.. [2]

موقفنا من الآراء الشاذة والانحرافات الفكرية

إن الآراء الشاذة والمنحرفة ليست بالضرورة مستوجبة لكفر أصحابها وخروجهم عن الملة. بل فيها ما يشتد الشذوذ والانحراف فيه بحيث يبلغ درجة إنكار ما هو معروف من الدين بالضرورة، فيجرّ ذلك إلى ما سماه رسول الله ﷺ بالكفر البواح. وفيها ما يقف الشذوذ والانحراف فيه عند حد الخروج على قواعد المنهج المتفق عليها عند علماء اللغة ومن ثم عند علماء الشريعة الإسلامية، فيستلزم ابتداعا وربما فسقا وجنوحا عن الحق بدون عذر.. وفيها ما قد يتردد الشذوذ والانحراف فيه بين بلوغ درجة الكفر وحدود الفسق والابتداع، فلا يجد فيه الباحث المنصف معتِمِدا راسخا للتكفير، كما لا يطمئن إلى أنه انحراف جزئي لم يندّ بصاحبه ولم يخرجه عن دائرة الإسلام.. ونحن في مثل هذه الشذوذات والضلالات الفكرية نؤثر اتباع الحيطة. وإنما الحيطة في هذا المقام حمل حال الناس ما أمكن على أنهم لا يزالون داخلين في حظيرة الإسلام واقفين تحت مظلته، فإن الخطأ في تحسين الظن بهم لن يجر إلى الوبال الذي يجره الخطأ في إساءة الظن بهم بنسبتهم إلى الكفر والمروق عن الإسلام. [3]

1- حوار حول مشكلات حضارية ، ص 32 . 34 .

2- من هو سيد القدر في حياة الإنسان ؟ ، ص 33 .

3- السلفية ، ص 109 + 110 .

نحن (مسلمون) لا (محمديون) ..

من المعلوم أن إطلاق كلمة (محمديين) على المسلمين، أمر يلح ويصر عليه طائفة كبيرة من الباحثين والمستشرقين الأجانب، لكنها تسمية مرفوضة في ميزان الرؤية الإسلامية، ومن خلال الواقع الذي يعيشه المسلمون الصادقون مع إسلامهم.

إذ إن كلمة (محمديين) هذه تعبر عن انتماء المسلمين إلى شخص محمد ﷺ، والتفافهم حول ذاته، وتعصبهم لأفكاره الخاصة به. أما كلمة (مسلمين) فتعبير عن الدينونة لسلطان الله وحكمه، وقبولهم لكل ما جاءهم منه عن طريق رسوله محمد ﷺ. فالتفاهم حول رسول الله ﷺ التفاف أخذٍ من الله؛ وطاعتهم له، ليست في حقيقتها إلا طاعة لله، وليس حبهم له إلا لأنه رسول الله ﷺ. [1]

لا تنسَ أنه ﷺ أولا نبيّ مرسل ..

إن المسلم لا ينبغي أن يحاول لحظة واحدة، فهم حياة رسول الله ﷺ على أنه عبقري عظيم أو قائد خطير أو داهية محنِّك، فمثل هذه المحاولة ليست إلا معاندة أو معابثة للحقائق الكبرى التي تزخر بها حياة محمد ﷺ. فلقد أثبتت هذه الحقائق الجلية الناصعة أن النبي ﷺ كان متصفا بكل صفات السمو والكمال الخلقي والعقلي والنفسي، ولكن كل ذلك كان ينبع من حقيقة واحدة كبرى في حياته ﷺ ، ألا وهي أنه نبي مرسل من قبل الله عز وجل. وإن من العبث الغريب أن نضع الفروع في موضع الأصل ثم نتجاهل وجود الأصل مطلقا!. ولا ريب أن الرد على ذلك لا يكون بلفت النظر إلى الأصل، بل إلى الأصل وحده..

كما أن المسلم لا ينبغي له أن يتصور أن المعجزة الوحيدة في حياته ﷺ إنما هي القرآن، مادام أنه لا ينكر أن له ﷺ سيرة يحاول أن يفهم حياته من خلالها. أما إن كان ينكر وجود هذه السيرة فإن عليه أن ينكر معجزة القرآن أيضا. إذ لم تبلغنا معجزات رسول الله ﷺ المختلفة إلا من حيث بلغتنا منه معجزة القرآن. والإقدام على تأويل هذا وتسليم ذاك طبق ما يستهوي النفس ويتفق مع الغرض، إسفاف غريب في تصنع البحث والفهم، لا يقدم عليه من كان كريما على نفسه معتزا بعقله. [2]

1- السلفية، ص 222 .

2- فقه السيرة النبوية، ص 13 / 14 .

قل الروح من أمر ربي..

أغلب الظن أن الذين لا يزالون ينكرون الروح، إنما يفعلون ذلك، لأنهم يعجزون عن إدراك كنهها والإحاطة بماهيتها، فيصرفونها إلى شيء يسعهم فهمه، ويريحون أنفسهم بفرض أنها ليست إلا نتيجة مادية معقدة لعمل المخ والأعصاب. وإذا صدق ظننا هذا فلسوف يطول إنكارهم للروح وحقيقتها، لأنهم لن يدركوا كنهها وحقيقته يوما ما، ولسوف تظل معجزة التحدي الرباني تفرض نفسها من علوّ شامخ على القرون والأجيال من خلال قوله عز وجل: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء/85]. [1]

المساواة من أولى مستلزمات العقيدة !

إن شأن العقيدة الإسلامية وتوابعها أنها تنزل بالمتألهين والمتكبرين من عليائهم وجبروتهم، وتحجزهم عن التطاول على الآخرين. وأنها ترتفع بالدهماء والمستضعفين عن مناخ الذل والصغر المتلبس بهم، وتطلقهم فوق صعيد الحرية والكرامة، وتعيد إلى كيانهم مشاعر العز والإباء. وبذلك يلتقي هؤلاء وأولئك عند حدودٍ عادلةٍ متساوية، لا تدع لهذا الجانب أو ذاك أي فرصة لاستغلال أو أي وسيلةٍ لاستعباد. [2]

سبحان الله العادل .

دعِ الخلق يا أخي للخالق!.. ولا تحكم على الناس بالسعادة والشقاء بمقياس ما تبصره عيناك أو تلمسه يداك، فألطاف الإله خفية، تنسكب في الأفئدة عن طريقٍ لا تبصره عيناك، ولا تسمعه أذناك، ولا يحسّ به شعورك.

ثم إن هذه الدنيا إنما تعدّ مظهرا للسعادة أو الشقاء في نظر من رآها قصة لحياةٍ كاملةٍ!.. وهيهات أن تكون كذلك.. إنما هي مجرد معبرٍ إلى حياة الخلود، فهي جزء يسير من قصة حياةٍ أبديةٍ طويلة، وهي رقعة صغيرة في لوحةٍ كبرى لمنظرٍ شاملٍ عظيم.

1- التعرف على الذات ، ص 86 .
2- من الفكر والقلب ، ص 53 .

فمنذا الذي يبصر الفصل الأول من القصة على مسرحٍ، ثم يسرع فيحكم عليها من خلال ذلك الفصل بالفساد أو الاضطراب أو فقد العدالة في مفهومها ووحيها!. ومِنذا الذي يدنو فيحملق في رقعةٍ صغيرةٍ من لوحةٍ عظيمةٍ أبدعتها ريشة فنان، فيحكم عليها من خلال ما يبصره فيها من الخطوط المتموجة والألوان المتداخلة؟!.

سوف يتكامل مرور الناس على معبر هذه الدنيا التي نراها، وسوف يقوم الناس لربِّ العالمين، وستتكامل حينئذٍ عناصر القصة، فما من منكوبٍ صابرٍ مسلمٍ كنت تشفق عليه في الدنيا إلا وتتمنى أن لو كنت مكانه في الآخرة، وما من سعيدٍ منعمٍ مسرفٍ على نفسه في الدنيا إلا وتشفق على ما هو فيه من بؤسٍ في الآخرة، وسوف تسمع صوت الحقيقة يملأ سمع الزمان والمكان: ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾[غافر: 17]. [1]

نصيحة لك . . كن عبدا لله

سألني أحد المسلمين ذات يوم، (وقد كنت أحدثه عن ضرورة صدق المسلمين مع أنفسهم إن كانوا حقا مسلمين): افرض أننا طبقنا الإسلام منذ هذا اليوم، فمتى يمكن أن نستعيد بناء على ذلك أرضنا السليبة ونبني لأنفسنا حياة رخية تعتقنا من هذا التخلف وتلحقنا بالأمم الراقية في الأرض؟.

قلت له: إن أصغر إنسان يعتز بالتبعية الماركسية – مثلا – قد يلقى ألوانا من الضيم في سبيل تبعيته، ويرى مسافة البعد تزداد كل يوم بينه وبين أحلام الشيوعية المطلقة، ومع ذلك فهو لا يسمح لفكره أن يعيش مع هذا السؤال لحظة واحدة!.. وهو إنما يتبع إنسانا مثله يخطئ ويتعرض لأشكال من الجهالة والطيش والغرور!.. أفيكون مثل هذا الإنسان الصغير منطقيا مع نفسه ومع الآخرين تجاه هذه التبعية المستسلمة المؤمنة الراضية، ثم لا يكون المسلم المتبع لمنه خالق السموات والأرض منطقيا مع نفسه إن هو صدق مثل ذلك التصديق واستسلم مثل ذلك الاستسلام؟!!..

وقلت له: أفبينك وبين الله عقد على أن تنفذ له شرعه فيبادر إلى تنفيذ هواك ويسرع في تحقيق رضاك، فأنت تستوثق من موقفه معك، حتى إذا لم تطمئن إليه أعرضت عنه قبل أن يعرض عنك!!..

1- من الفكر والقلب ، ص 57 .

إن كنت على يقين أن شأنك مع الله إنما هو شأن أصحاب المصالح المتبادلة وأنك تملك من وجودك تجاهه ما يوقفك منه موقف الند للند: تعرض إذا شئت، وتقبل إذا انشرحت، وتقاضيه إذا لم يكافيك – فأرني الثبات على موقفك عندما تتضاءل ذاويا عند سياق الموت، وأشعرني إذ ذاك بحريتك التي تملكها، ودلني على عالمك العظيم الذي ستنطلق إليه معرضا عن الله الذي لم يحقق لك شرطك فلم توفِ له شرطه!!..

أما أنا فقد عشت اليوم، وأنا أقلب العين في الدنيا التي من حولي، بكل ما تموج به من الصور والأشكال والعلوم والأفكار، فما أبصرت في ذلك كله إلا شيئا واحدا يظل ماثلا أمام عيني، يلاحقني بشكله الرهيب في البكور والآصال والليل والنهار: غلا ثقيلا يطوقني بآصار العبودية لله عز وجل، لم يدع لي من سبيل إلى أي مفر أو ملاذ.. إن جحده لساني لم ينج منه كياني، وإن تناسيته في ذاتي ذكرني به الملكوت الذي من حولي والمصير الذي يرقب دقائق أنفاسي!..

ادفن نفسك في رمال الغرور، أو العصبية، أو النسيان، أو التجاهل، ما طاب لك الدفن، فإنما أنت واقف على أرض العبودية لله، لن تحيد عنها ولن تطير فوقها.

﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم:93/94].

فأسلم وجهك لله، وأخضع القلب راضيا لسلطانه وحكمه، وكن عبدا له بالسلوك والاختيار، كما قد خلقك عبدا له بالقسر والإجبار. واقطع العمر سعيا وراء تثبيت حكمه في الأرض فذلك هو حق الله عليك ما دمت سائرا في رحلة هذه الحياة. [1]

أنتَ منفعل لا فاعل

يجب أن يتساءل العالم المعتز بعلمه: من أين انسكب إليه هذا العلم، وكيف أشرق في دماغه نوره، وهل هو فاعل مختار في جلبه وصنعه، أم هو مجرد جهاز استقبال له ومظهر انفعال به؟.

لو تأمل هذا الإنسان في ذاته، وهو يتلقى الصور والحقائق العلمية ويستوعبها في دماغه أو فؤاده، لأدرك أنه يتلقاها ويدركها من حيث لا يدري، كأي مملكة أخرى مما يعتز به الإنسان، متوهما عند نفسه أنه مبدعها وصانعها.. إنه بدون شك يمارسها ويصطبغ بها تأثرا وانفعالا ولا يكتسبها خلقا وإبداعا.

1- الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية ، ص 74 / 75 .

نعم، إنك قوي في جسدك، ولكنك منفعل بالقوة غير فاعل أو موجد لها، وأنت متكلم مبين، ولكنك منفعل بالقدرة الكلامية من حيث لا تشعر ولا تدري، ولست فاعلا أو مبدعا لها. وأنت مفكر وعالم أيضا ولكنك منفعل بالفكر والعلم من دون قصد منك ولا اختيار. ومعاذ الله أن تكون أنت الموجد لمعنى الفكر أو ثمرة التعلم في ذاتك.

إنك لتتأمل في لسانك، أثناء نطقك، وهو يجول في أنحاء فمك، ليخرج الأحرف والكلمات سليمة مرتبة مفهومة، فهل تتصور أنك المشرف والمراقب على كيفية تحركه ذات اليمين آنا واليسار آنا آخر، وأنك أنت الذي توحي إلى حبالك الصوتية أن تنفث التقاطيع المسموعة المتآلفة مع حركة اللسان وعمله؟

إنك لا تعلم أكثر من أنك عزمت على الكلام، فإذا أنت تتكلم، وقد سخرت لك أسباب ذلك من حيث لا تعلم ولا تدري كيف تم هذا التسخير.

إذن فأنت منفعل بملكة التكلم ولست فاعلا أو مبدعا لها.

كذلك كل ما يتمتع به الإنسان من ملكات، ومنها العلم.. إنك لا تدري سوى أنك قد اتجهت بالعزم والقصد إلى أن تتعلم، وإذا به انسكب في عقلك إشراقا وفهما دون أن يكون لك أي دخل في إيجاد ذلك.

وخطأ كبير أن تتوهم المعاناة التي تبذلها في طريق التعلم، إيجادا منك لحقيقة العلم وجوهره. إن هذه المعاناة ليست أكثر مما يفعله الفلاح إذ يفلح الأرض ثم يلقي فيها البذر، ثم يجلس ينتظر جود الله وكرمه. فلئن كان هذا الذي يفعله الفلاح هو عين الزرع والنبت الذي يخضر ويتطاول، فإن معاناة المتعلم يمكن أن تكون هي عين العلم والإدراك.

إنك لا تدري كيف يعي عقلك الحقيقية ولا كيف يحفظها. فكيف تكون صانعا لما لا تدري كيف تم صنعه، وكيف تكون موجدا لما لا تدري كيف تم وجوده. [1](1)

اعرف نفسكَ أولا

ترى بماذا يتطاول الإنسان وإنما هو مجرد لوحة أثبتت عليها مجموعة نعوت وصفات، هو بفضلها يقوم ويقعد ويتصرف ويكافح. وهو لا يملك لها جلبا ولا دفعا، ولا يملك أن يتجاوز بشيء منها حدود صلاحياتها، ولا أن يستبقيها إذا ذبلت وحان ذبولها!..

1- الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية ، ص 92 + 93 .

أجل بماذا يتطاول الإنسان، وهو ليس أكثر من جهاز استقبال؟ وماذا عسى أن يفيد مثل هذا الجهاز إن قطع عنه الإرسال؟

هل في هذا الكلام أي تجاوز فوق سلطان العلم، أو أي تهوين لشأنه؟

إن كان ثمة من يرى أن فيه شيئا من ذلك فليقل.. وسأسمع.

والآن أليس حقا ما يقوله خالق الإنسان ومبدع ملكاته وطاقاته:

﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ [عبس:23-17]. (1)

الاحتفال بالمولد النبوي الشريف

إن احتفالات المسلمين بذكرى مولده ﷺ والمناسبات المشابهة، لا تسمى بدعة قبل كل شيء. لأن أحدا من القائمين على أمرها لا يعتقد أنها جزء من جوهر الدين وأنها داخلة في قوامه وصلبه، بحيث إذا أهملت ارتكب المهملون على ذلك وزرا. وإنما هي نشاطات اجتماعية يتوخى منها تحقيق خير ديني. فإن هم توهموا ذلك كانت بسبب ذلك بدعة.

ثم إنها لا تدخل تحت ما يسمى بالسنة السيئة أيضا، إن روعي في إقامتها أن تخلو من الموبقات وأن تهذب عن كل ما قد يعود على الخير المرجو منها بالنقض أو الإفساد.

وإذا رأينا من يخلطها بما يسيء إلى نتائجها، فإن التنبيه يجب أن يتجه إلى هذا الخلط، لا إلى جوهر العمل بحد ذاته. وإلا فكم من عبارة صحيحة مشروعة يؤديها أناس على غير وجهها، فتؤدي إلى نقيض الثمرة المرجوة منها. أفيكون ذلك مبررا للتحذير من أدائها والقيام بها.

نعم، إن اجتماع الناس على سماع قصة المولد النبوي الشريف، أمر استحدث بعد عصر النبوة، بل ما ظهر إلا في أوائل القرن السادس الهجري. ولكن أفيكون ذلك وحده كافيا لتسميته بدعة، وإلحاقه بما قال عنه المصطفى ﷺ: ((كل من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد))؟ إذن فليجردوا حياتهم من كل ما استحدث بعد عهده ﷺ، إن كانوا يستطيعون. فإن كل ذلك من البدع!..

1- الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية ، ص 93 + 94 .

وإني لأعجب لأناس، ينتقلون من مؤتمر إسلامي إلى آخر، ويتصدرون فيه باحثين وأعضاء عاملين، دون أن يتذكروا أنه هو الآخر بدعة (بالمعنى الذي يتوهمون) لا فرق بينه وبين احتفالات المسلمين بالمولد ونحوه شروى نقير، اللهم إلا أن تكون تلك المؤتمرات يبذل عليها من الأموال الطائلة ما لا يعطي ثمرة ولا نتيجة، وقد تشيع فيها أمور لا ترضي الله عز وجل، على حين لا يكلف اجتماع طائفة من المسلمين في أحد البيوت أو المساجد للاحتفال بذكرى المولد أو الهجرة شيئا من ذلك. ولكنهم ما إن يوضعون أمام الحديث عن المولد ونحوه، إلا وتجدهم ثاروا وهاجوا ونعتوا الاجتماع عليه بأنه ضلالة وبدعة، ترى لو وضعت هذه الاحتفالات ضمن إطار مؤتمرات، دعي إليها الناس من الأقطار، وأنفق عليه المال الطائل، أتتحول بفضل ذلك من بدعة باطلة إلى عمل مبرور؟

وغني عن البيان أنني لا أنكر شيئا من هذه المستجدات على اختلافها، بل إنني لأدعو إليها أيضا لذاتها.. إذ هي أمور تقبل أو ترفض على ضوء النتائج الآتية من ورائها، فهي كالماء الذي يأخذ لون الإناء الذي يتجمع فيه، وما تنسحب أحكام الشريعة الإسلامية على سائر ما يستجده الناس من شؤون وعادات، إلا بناء على هذه القاعدة التي لا مجال لأي ارتياب فيها. [1]

الإخلاص . . العدة الأهم

ألا إن أعظم مصيبة رانت على حياتنا، إنما هي مصيبة هذا التدابر والشقاق الذي مني به العالم العربي والإسلامي على عرضه وطوله، ومن ثم فإنها لأعظم منكر يشيع في أرجاء عالمنا الإسلامي. فمن كان يريد أن ينهض بواجب النهي عن المنكر، فليبدأ من هنا.. على أن يتخذ لنفسه عدة واحدة في مسعاه هذا، ألا وهو الإخلاص.

الإخلاص، ذلك السر الذي يسحق الأنانية والعصبية، ويفرق بين أدق ما يلتبس على كثير من الدعاة والربانيين، في مجال السلوك والتطبيق: الانتصار للنفس.. والانتصار لله. [2]

1- الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية، ص 196/ 198 .
2- الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية، ص 199 .

العقل والوجدان معا أساس ثبوت الإيمان

إن الإيمان بالله عز وجل لا يستقر ويثبت لدى الإنسان إلا بقوة من دعامتي العقل والوجدان معا. فلا بد أن يغرس وجوده في ساحة العقل وبراهينه أولا، ثم لا بد أن تغذى أصوله برعاية العواطف والوجدان ثانيا. شأنه كشأن أي شجرة تغرسها في دارك. لا بد أن تغرس في تربة صالحة أولا، ثم لا بد أن تتعهد بالرعاية والسقيا ثانيا.

وكما أن الشجرة تذبل ثم تيبس إذا غرستها في أرض صالحة ثم أعرضت عن سقياها ورعايتها، فكذلك الإيمان الذي غرسته في كيانك العقلي قناعة ويقينا، ثم لم تغذِه وتنعشه بمشاعرك الوجدانية، وتركت هذه المشاعر تصبو إلى الرغائب والشهوات النفسية، فإنه لا جرم يذبل ثم يختنق في أوار تلك الرغائب والشهوات الجانحة.

من أجل هذا ترى البيان الإلهي لا يتحدث عن صفات المؤمنين إلا ويضع اليقظة الوجدانية في مقدمة هذه الصفات.

فهو يقول: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال:2].

ويقول:﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[المؤمنون:1،2].

ويقول: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾[الفرقان:73].

ويقول: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:90].

وأنت تعلم أن وجل القلوب وخشوعها، والانسياق إلى الدعاء رغبة ورهبة، كل ذلك من مظاهر ارتباط مكمن الوجدان الإنساني بالحقائق الإيمانية الجاثمة في العقل، ومن آثار تفاعله بها. (1)

1- الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية ، ص 203 /204 .



من مشاكل وجودنا الحضاري

إن دراستنا للعلوم الإنسانية المختلفة، لا تعني أكثر من أننا نفكر بعقول غيرنا، ونخزن في رؤوسنا النتائج والمفرزات التي لا جذور لها في حياتنا ولا في تاريخنا ولا في شيء من أصول مدركاتنا. وليت أن هذا (الغير) كان ندا لنا، أو كان ممن يشدنا إليهم سبب من أسباب الود أو حسن العلاقة والجوار.

ولكن الذي يزيد الأمر أسى، أن هذا (الغير) هو عدو الأمس واليوم. هو ذاك الذي يتربص بوجودنا الحضاري منذ أن أحس أن وجودنا الحضاري هذا خطر كبير عليه.

فهذا (الغير) هو الذي نلجأ إليه ليسد ثغرة الفراغ الفكري في حياتنا، ومن ثم فهو الذي نفكر بعقله ونحاول أن نتعرف على علوم الفلسفة والتاريخ والاجتماع والأخلاق من خلال فهمه ومنظاره.

فهذه هي المشكلة الكبرى، لا فيما يتعلق بأصول دراسة العلوم الإنسانية في مجتمعاتنا. بل إنها المشكلة الكبرى التي تتعلق بوجودنا الحضاري كله، بل بقيمتنا الإنسانية المطلقة. [1]

1- وهذه مشكلاتنا ، ص 167 / 168 .

لا تقوم الحضارة إلا بمقياس ضوابطها

إن الحضارة الإسلامية في ماضيها المشرق الذي نعتز جميعا به، ما بسقت وتنامت، إلا بعد أن أخضع أهل تلك الحضارة أفكارهم وأنفسهم لضوابط الإسلام، متمثلة في نصوصه وقواعده على أتم وجه.

فكيف يمكن إذن في ميزان المنطق والعلم، أن نعود اليوم فنجرد هذه النصوص من ضوابطها اللغوية التي ما تنزلت إلا وهي مكسوة بها، وما فهمت في عصرٍ من العصور إلا على أساسها، ثم نتوصل بهذا التجريد إلى تقطير النصوص وتحويلها إلى (روح) ثم نجعل هذه الروح أمرا اعتباريا ما يتسع لاستيعاب كل ما قد يلذ لنفوسنا من مشتهيات وأهواء، ولهضم وقبول كل ما تعجّ به الحضارة الغربية من سلوك أو تصورات؟..

ثم نزعم أننا إنما نفعل هذا كله بوصف كوننا مسلمين، ونعبث هذا العبث العجيب المنكر بنصوصه، تحت مظلة الخضوع للإسلام والدينونة لحكم الله؟

ثم أي فرق يبقى بيننا وبين أولئك الذين يقول الله عنهم في كتابه، على سبيل الاستنكار والاستهجان: ﴿يحَرِّفونَ الكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ (النساء/46)؟ وهل يبقى لكلمات القرآن من مواضع، بعد اقتلاعها من مغارسها اللغوية، وإبعادها عن قواعدها الدلالية؟.

إذن، فالسبيل مختلف جدا بيننا، نحن الذين ما عرفنا الإسلام إلا انضباطا بمعاني العبودية الكاملة لله تعالى والمنزلة وحيا من لدنه، وبين أولئك الذين شاؤوا أن يفهموه تراثا خلفه لنا الآباء والأجداد، وثورة إصلاحية هبَّت على أرض الجزيرة العربية يوما من الأيام.

وإذا كان السبيل بيننا مختلفا هكذا، بدءا من جذور المسألة وأصولها، فأنى للحوار والنقاش أن يثمرا اتفاقا على رأي؟ وهل سمعت أن خطين متوازيين سارا باستقامة تامة، ثم التقيا على نقطة واحدة؟.

أما الحضارة، فليست في جوهرها وحقيقتها أكثر من ثمرة التفاعل الذي يتم على نحو ما بين الإنسان والكون والحياة تصورا أولا، وسلوكا ثانيا، ثم إنها تصلح أو تفسد أو تتردد بين طرفي الصلاح والفساد، بمقدار ما يكون ذلك التفاعل الثلاثي سديدا أو غير سديد، أي بمقدار ما يكون فهم الإنسان لتلك العناصر الثلاثة والعلاقة القائمة بينها فهما صحيحا أو غير صحيح..

ولذلك صح لنا أن نقول: ربَّ حضارة كانت وبالا على أصحابها، وربَّ حضارة كانت كست أصحابها رداء الخير والسعادة من كل الوجوه.. ولو كان أي إقبال من الإنسان على الكون والحياة والإنسان، من شأنه أن يثمر حضارة رشيدة صالحة، إذن لكانت الحضارات كلها صالحة مفيدة للفرد وللمجموعة الإنسانية، ولكان الإنسان بسبب ذلك في غنى عن أن يبصره القرآن بأفضل السبل إلى التعامل مع الكون والحياة وأخيه الإنسان، وعلى أن يحذره من التنكب عن الطريق الأمثل وخوفه من عواقب ذلك.

ومن أجل ذلك، فإن قرارنا العلمي الذي لا بديل عنه، هو أنا لا نقوِّم الحضارات ونقدرها من خلال الضياع بين أعضائها والنظر في جزئياتها والوقوف عند بوارقها، وإنما نقومها من حيث النظر في فلسفتها وبواعثها، والمعنى الذي يفهمه أقطابها لحقيقة كل من الكون والإنسان والحياة.[1](1)

لكلّ منا منهجه

قد يحلو لبعض الناس، أن يقولوا في نشوة ومباهاة: إن الغرب أخذ أصول حضارته منا.. ثم إنه غرسها في أرضه.. ثم أتقن خدمة الغراس ورعايته، فأثمر الغراس كل هذا الذي يتمتع به الغرب اليوم غنى وقوة وعلما.

ولا ريب أنهم مخطئون في هذا التصور خطأ فادحا، مهما كثر الذين يرددونه.

لو صح أن الغرب إنما أخذ أصول حضارته من العالم الإسلامي أيام ازدهاره، إذن لوجب أن تكون الحضارة الغربية اليوم إسلامية في فلسفتها واتجاهها ضرورة أن الفروع لا بد أن تتبع أصولها.

عندما اقتبس الغربيون من العالم الإسلامي علومه وفلسفته وصنائعه، إنما تزودوا من ذلك كله، بالضياء الذي بصرهم بالنهج الملائم لعقائدهم الخاصة بهم، والمتفق مع الصورة المعتمدة لديهم عن الكون والإنسان والحياة.

نعم، لقد أخذوا منهج ابن سينا وقانونه في الطب، ولكنهم وضعوهما في ميزان رؤيتهم الذاتية للكون، فكان من جراء ذلك أن استبعدوا أهم أصوله الأساسية، ألا وهو إقامة قوانين الطب

1- حوار حول مشكلات حضارية ، ص 96 /99 .

على فلسفة متكاملة منتزعة من وحدة كلية جامعة بين الفرد والمجتمع والروح والعقل والجسد والبيئة.. ثم اتجهوا بقوانينهم الطبية في اتجاه جانب واحد منفصل عن سائر الجوانب الأخرى، اعتمادا على رؤيتهم التي لا تقر بتمازج تلك الجوانب وبدهي أن انطلاق أمثال الرازي وابن سينا من اليقين الجازم بوحدتها، ليس إلا أثرا للرؤية الإسلامية التي تحذر الإنسان من توهم أي انفصال بين هذه الأجزاء في نطاق الخلق والتكون من جانب، وفي ساحة التفاعل من جانب آخر. [1]

قانون هام لمشروع الحضارة

إن الأمة التي تتمتع بأصالة حضارية (صالحة كانت أم فاسدة) لا يمكن أن تعمد إلى مزج منطلقاتها الحضارية بمنطلقات أخرى، ولو جاء ذلك باسم التنسيق والتوفيق والانفتاح إلا إذا أقرت هذه الأمة بمحض اختيارها، أن تخلع ثوبها الحضاري لتستبدل به غيره.. وهي لن ترتدي عندئذٍ إلا مزقا ورقاعا مما عند الآخرين. [2]

مسألة لا يسعنا السكوت عنها

إننا بحق، لم نعد نملك اليوم أي ذاتية نستبين من خلالها أي قواعد فكرية أو ثقافية متميزة، تحدد معالم وجودنا الحضاري المستقل؛ بحيث يحق لنا بناء عليه، أن نبحث في مشروع التوفيق أو التنسيق المزعوم مع حضارة الغرب ومدنيته المعاصرة.

أصولنا الثقافية التي كانت دعامة حضارتنا الإسلامية العظيمة، ملقاة اليوم على رفوف الإهمال، بل مرمية في زوايا النسيان، وإنما نعكف اليوم على أصول ثقافية أخرى، اقتطفناها كما هي من الغرب، وأقصد بكلمة (كما هي) ما تحمله من تصورات وتسويغات للنزعة المادية التي تؤله الطبيعة، وتجعل الإنسان سيد نفسه والمالك لمصيره!..

ففنون التربية وعلوم النفس والاجتماع والأخلاق، التي تدرس في مدارسنا وجامعاتنا، ليست إلا مجموعة نظريات، ومواضعات، وضعت تعبيرا عن النظرة الغربية إلى الوجود، ودعما

1- حوار حول مشكلات حضارية ، ص 100/ 101 .
2- حوار حول مشكلات حضارية ، ص 103 .

لأصول تتناقض بشكل حاد، مع مبادئنا ومسلماتنا الإسلامية الراسخة التي كانت إلى الأمس القريب مصدر تفوقنا وسياج حضارتنا!..

والغريب، أنك تنظر فتجد أن علوم التربية والاجتماع في كل مجتمع من المجتمعات تصاغ تعبيرا عن أصوله الفكرية وفلسفته الحضارية، إلا في مجتمعنا العربي الإسلامي!..

فهذه العلوم في الشرق الماركسي مرآة لما يتبناه هناك من الجدلية المادية والتاريخية.. وهي في الغرب المادي مرآة لأصول الحضارة الغربية، وتصوير للقيم (وفي مقدمتها الدين والأخلاق) من وجهة نظر الغربيين الذي لا يبالون أن يتخذوا من الدين والمعتقدات أيًّا كانت لمزيد من الطغيان المادي، وبسط النفوذ الحضاري على العالم كله، لا سيَّما الأجزاء المتخلفة منه.

أما نحن المسلمين فنمتاز عن سائر الأمم الأخرى بأنّا لا ندرس علم الاجتماع أو التربية والأخلاق إلا من وجهة نظر هذا الفريق أو ذاك، ولا نقبل عليه إلا مصبوغا بصبغة أحد المجتمعين.. ولا نردِد أثناء دراسة شيء من هذه العلوم إلا نظرياتهم ومذاهبهم!..

وقد كان أقلِ ما تستدعيه الكرامة الذاتية أن نصبغ هذه الفنون الثقافية بدورنا بصبغة ما ارتضيناه وأيقنّا به من الحقائق والمسلّمات الإسلامية التي لا نزال ندعي بألسنتنا على الأقل أننا مذعنون لها أمناء عليها. [1]

هل هي مجرد بلادة

إن الدفاع عن فكرة التوفيق بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، بحجة أن الحضارات المختلفة من شأنها أن تتلاقح وأن تسري فيما بينها عملية الإخصاب المتبادل – إنما ينطبق على حضارات صغرى ينتمي جميعها إلى عائلة حضارية واحدة، لا على عائلتين يمتاز كل منهما بأسس ومنطلقات نوعية مختلفة في الجوهر عن الأسس والمنطلقات الأخرى..

وعلى سبيل المثال: إن التلاقح أو التواصل الذي قد يستشهد به بين الحضارتين الإغريقية والرومانية، أو الحضارتين الجرمانية والأنكلوسكسونية، إنما جرى ضمن دائرة عائلة حضارية واحدة، هي الحضارة الأوربية بصورة عامة.

1- حوار حول مشكلات حضارية ، ص 107 /109 .

غير أن هذا لا يمكن أن ينطبق على العلاقة القائمة بين الحضارة الأوربية بمختلف فروعها من جهة، والحضارة الإسلامية من جهة أخرى..

ذلك لأن التواصل في المثال الأول من شأنه أن يحقق مزيدا من القوة والتكامل لسائر الفروع دون تفريق، نظرا إلى أن الأصول الكبرى واحدة.. أما التلاقح في المثال الثاني فإنه إذا استمر، لا يمكن أن ينتهي إلا بابتلاع إحدى الحضارتين للأخرى، وذلك لاختلاف الأصول التي لا بد أن تتصادم عندئذ، ثم لا بد أن ينتهي التصادم بتغلب أحد الطرفين!.. كيف لا، ونحن نعلم جيدا أن أصول الحضارة الغربية ليست مخالفة لتاريخنا ووجودنا الحضاري فحسب، بل هي متجهة إلى معاداتنا وإهلاكنا حضاريا.. أي أنها تهدف إلى اعتصار كل قيمنا وخيراتنا وقوانا، وصبها في أقنية المصالح الغربية، حتى وإن اقتضى ذلك أن تتحول هذه الأمة كلها إلى حثالة أو ركام!..

وعلى الرغم من أن هذه الحقيقة لا تحتاج للتنبيه إليها إلى دراية عميقة أو ثقافة واسعة، فإنك لتقرأ بين الحين والآخر دعوة جادة إلى التوحيد بين الحضارتين الإسلامية والغربية في عملية مزج وتنسيق.. فلا تدري أهي البلادة المتناهية تلقي على أقلام هؤلاء الناس مثل هذا الغثاء الذي تمجه الثقافة الحيادية بأبسط مظاهرها، أم هي تباله جاء نتيجة استهانة بعقول القراء وازدراء بثقافتهم!!. [1]

من شروط النهضة الفكرية

إن أهم ثورة فكرية تنهض هذه الأمة من كبوتها، إنما تتمثل في تطهير شامل لهذه المعارف الثقافية الثلاث: الاجتماع، التربية، الفنون، من الدخيل الذي لا شأن لنا به، ثم تحويلها إلى مرآة صافية تشرق عليها مبادئها الاعتقادية، وأصولها الفكرية وفلسفتها التي ارتضتها عن قناعة ووعي للكون والإنسان والحياة. [2]

تفاءلوا فالعالم يتوجه إلى الإسلام

إن العالم كله (بمجموعه الكلي لا بجميعه العددي) لم يتهيأ للتوجه إلى الإسلام، بنفوس مستأنسة وبعقول متفائلة، في عهد من العهود، كما قد تهيأ لذلك اليوم. الأمن الحضاري

1- حوار حول مشكلات حضارية ، ص 112 / 114 .
2- حوار حول مشكلات حضارية ، ص 125 / 126 .

غائب، وسلطان العدالة مقهور، وشعوب العالم تتبارى بتفتيل عضلات القوة التي كانت كامنة في طور الإنضاج.. والجيل الناشئ هناك في الغرب الأمريكي، جيل الضياع والتطوح، غير مهيأ قط، لتسلم عهدة العمل السياسي ورعاية المنجزات الحضارية.. وصيدلية العلاجات العالمية أقفرت من علاجاتها التي انتهت مدة صلاحياتها وخابت آمال المجربين لها.. ولا يتراءى بين الرفوف إلا علاج واحد، هو الإسلام الجوهري الواحد، نقيا عن العوارض الطارئة عليه أو المطيفة به.. إن الكل مشدود بآماله إليه. أما المسلمون على اختلافهم، فيقينا منهم بأنه العلاج الذي شفى العالم بالأمس من سرطانه المهلك، فأحرى به أن يشفيه اليوم من أوجاعه المتوضعة.. وأما غير المسلمين، فبسائق من الرغبة العقلية في التجربة، وبدافع من الاستئناس الشعوري به. [1]

نموذج عجيب للمسلمين

إن المسلمين اليوم ليسوا هم المسلمين الذين كانوا بالأمس، عندما آتاهم الله -معجزة- الفتح، وليسوا هم الذين وعدهم الله تعالى بالنصر والتأييد في مثل قوله عز وجل:﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور:55].

وإنما هم اليوم نموذج آخر عجيب!.. يصبغون أنفسهم من الإسلام ببعض ألفاظه وشعاراته ضمن شروط معينة، ثم لا يرضون لأنفسهم شيئا من منهجه وشرعته وأحكامه، يتبرمون بكل قيمه ونظمه وحدوده، لمجرد أنه قديم لم يولد البارحة في جملة هذا الذي ولدته حضارة الغرب، ويتعشقون بدلا عنه جميع ما يجدّ بين هؤلاء الأعداء، لمجرد أنه شيء حديث لمسته يد الغرب المباركة!.. قد شاعت فيهم صنوف المنكرات حتى غدت هي المعروف المحبب إليهم واختفى من بينهم المعروف حتى أصبح هو المنكر المستهجن في نظرهم!..

فأي حق لهؤلاء عند الله أن يطالبوه بالنصر، وأن يمنوا عليه بإسلام لم يمسكوا منه إلا بالقشور أو الدعاوي الكاذبة بالإضافة إلى ما قد يكيدون لمبادئه وأحكامه القدسية؟!.. [2]

1- الإسلام والغرب ، ص 167 .
2- الإنسان وعدالة الله في الأرض ، ص 56/ 57 .

لن يقوم الإسلام بمجرد التخطيطات

قد ينقلب العلم الإسلامي في واقع حال الكثيرين من المسلمين إلى مجرد تخطيطات شكلية وأمور حركية تستأثر من حياتهم بالسطح الأعلى وحده، ولا تغوص إلى شيءٍ مما وراء ذلك!. إذ كان سلطان الإسلام قد تناقص عن القلب، ثمَّ ظل يتناقص حتى لم يعد له فيه سلطان، وعاد الحكم فيه للدنيا وأهوائها ومصالح النفس ومطامحها. وأصحاب هذه القلوب بين الناس مسلمون، وهم يتمنون لو أن الإسلام عاد إلى السيطرة والحكم، فيرفعوا رؤوسهم به عاليا ويكون لهم به غلبة وسلطان – وهي أمنية دنيوية لا تتنافى مع ما استحكم في قلوبهم وتعلقت به نفوسهم – فيذهبون في نصرته والعمل له مذهب أولئك الذين ينتصرون لمذاهبهم الأخرى: عمل حركيّ بحت يقوم على النظريات والأفكار والتنظيمات السطحية المجردة.

وقد فاتهم أن بين طبيعة الإسلام وطبيعة المذاهب الفكرية الأخرى فرقا كبيرا.

فالإسلام قائم في ذاته على تحقّقِ معنى العبودية لله في النفس، وهو المنطلق الأول لكل عملٍ وحركة وسعيٍ في سبيله، وهو يكلف المسلم إصلاح قلبه ونفسه قبل كل شيء. أما المذاهب الفكرية الأخرى فلا تكلف نفوس أصحابها شيئا من ذلك ولا تحملهم على أي اجتنابٍ لِما أطلق القرآن عليه اسم: (باطن الإثم)، ولذلك فإن دعوتهم إليها تبدأ من عملٍ حركي، والنفس سائرة معه بطبيعة الحال لأنه لا يكلفها ترك شيءٍ من أهوائها ومشتهياتها.

إلا أنّ إعراض أكثر المسلمين عن هذا الفارق الأساسي الخطير، وإهمالهم (نتيجة ذلك) لإصلاح القلب والنفس، جعلهم يقلدون الآخرين في أساليبهم ويحصرون أنفسهم في مثل دائرتهم: نقاش، ومجادلات، ولقاءات، وتفنن في الأفكار، واختراع للمناهج. ولا شيء من وراء ذلك. وربَّما هوَّن الكثير منهم من أمر العبادات والأذكار وحضور الجماعات وأنواع القربات التي يتوخّى من ورائها إحياء القلب وإيقاظه للحقيقة الإسلامية، وتخليصه من أمراضه، واعتبروا ذلك من دأب العامة وعاداتهم، وتصوروه شيئا لا يليق بمن نشط للحركة والدعوة الإسلامية!.

إنه وهم عجيب مؤسف..! سببه ما قلت لك: الذهول عن الفارق الأساسي والمذاهب الفكرية الأخرى، وسبب الذهول انصرافهم عن مجاهدة النفس وتركها مع ما تهواه وتطمح إليه.

وليس معنى هذا الذي أقول، أن العمل الإسلامي لا ينبغي أن يعتمد على تخطيطٍ أو نشاطٍ حركي.. وإنما المقصود أن كل سعي في سبيل الإسلام يتوقف نجاحه على أساسٍ جوهريٍ لا بدَّ منه، ألا وهو إصلاح القلب وتقويمه وانتزاع أهواء الدنيا منه. (1)

كيف نتحمل مسؤولياتنا الحضارية

إن القرآن لم يكن كتاب دينٍ وعبادة، إلا من حيث إنه يحمِل الناس جميعا مسؤولية بناء حضارة.

وبيان ذلك، أن محور الدين الذي ألزم الله به عباده، بما فيه من نسك وعبادات، إنما هو تزكية النفس البشرية، وتطهيرها مما قد يعلق بها عادة من الأدران والأوضار. ألا ترى إلى قوله عز وجل: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾[الأعلى:14]، وقوله خطابا لموسى عليه الصلاة والسلام، وقد أرسله إلى فرعون:﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ [النازعات:19-18]، وقوله عز وجل: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [فاطر:18].

وليست تزكية النفس بدورها، إلا الشرط الأساسي لتحمل الإنسان مسؤولياته الحضارية بصدقٍ وجدّ. فبمقدار ما تتزكّى النفس وتصفو من كدورات الأهواء والرعونات، يخلص صاحبها في تحمل كل ما يجب أن يتحمله في سبيل بني جنسه من المهامّ والواجبات المختلفة. وبمقدار ما تنطوي تلك النفس على شوائبها ورعوناتها، يغدو صاحبها مجرد أداة للإفساد في الأرض، ولإهلاك الحرث والنسل، ابتغاء مصالحه وأهوائه الشخصية، مهما تحلّى ظاهره بالصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة. (2)

رجل الحضارة الإنسانية في القرآن

إن القرآن يربي الإنسان بغذاءين اثنين؛ أحدهما ينمي فيه الشعور بتفاهة أصله وبعبوديته الثابتة لله عز وجل. ثانيهما ينمي فيه الشعور بعزّته وكرامته وأهميته في الكون الذي خلقه فيه.

ولا يتهيَّأ الإنسان لقبول هذين الغذاءين أو حتى لأحدهما، إلا بعد يقينه بوجود الله عز وجل، ربا واحدا لا شريك له لهذه المكونات كلها.

1- باطن الإثم ، ص 34 / 36 .
2- منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، ص 24 .

فإذا تكاملت هذه التربية في الإنسان، فذلك إذن هو رجل الحضارة الإنسانية في القرآن.. وذلك هو الرجل الذي هيَّأه القرآن لعمارة الأرض وإنشاء أرسخ مجتمع إنساني فوقها.

إنه الرجل الذي لا يهون ولا يذل.. ولكنه لا يطغى ولا يستكبر أيضا. وهو الرجل الذي لا يجهل موقعه الذي أقامته الأقدار الربانية فيه، كما لا يجهل المهمة الكبرى التي عهدت بها إليه؛ وهي: بذل كل جهد ممكن في سبيل خدمة الإنسانية المطلقة، ومن أجل صهرها في بوتقة من التآلف والمحبة والإخاء. [1]

ما هو مفتاح الحضارة

إن رجل الحضارة الإنسانية في القرآن يمارس الدنيا ممارسة الحاكم عليها، المستخدم لها، طبق نظامٍ معين، وضمن حدود مرسومة، ومن أجل الوصول إلى هدف عالٍ مقدس، على حين لن تستطيع الدنيا أن تسكره فتستخدمه وتستعبده ثم تطوح به.وعند هذه النقطة الهامة الحرجة، يختبئ مفتاح الحضارة.. وعندما يكمن السر الذي يمدها بأسباب الاستقرار والبقاء، وهو بعينه المفتاح الذي عثر عليه – من خلال بيان الله عز وجل – الرعيل الأول من هذه الأمة، بعد أن بحثوا عنه تحت نبراس الكتاب الرباني، فافتتحوا به مغاليق الدنيا في أقرب زمن وبأيسر جهد.

ألا فلتعلم أن كل ما على الأرض من خير وأن كل ما في باطنها من ذخر، أداة وأيّ أداة لعمارة هذه الأرض على أفضل وجه، ولنسج برد السعادة الإنسانية المثلى فوق جنباتها وذراها، ولكن الشرط الوحيد لذلك، أن لا يمارس الإنسان هذه الأدوات ولا يعالجها إلا بعد أن تفرغ نفسه من غوائل التعلق بها، فيقبل عليها عندئذٍ إقبال من امتلأ شبعا، إلى طعام يبيعه أو يتاجر به.

ألا ترى إلى الرجل يضع بين يديه أطباقا من الحلوى يبيعها ليستغني بأثمانها، إن الشرط الأساسي لنجاحه في مسعاه، ألا تهفو نفسه إلى تلك الأطباق، ولا يسيل لعابه عليها وألا يتشهاها كلما نظر إليها. فأما إذا كانت نفسه تندلق عليها، ولا تصبر عنها، فهو يتذوق منها بين كل حين وآخر، ويتخذ منها إفطاره إذا أصبح، وغداءه إذا أضحى، وعشاءه إذا أمسى، فإنه لن يعود من مسعاه إلا بالخيبة والخسران، وسيضيع كلا من الجهد والمال معا.

1- منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، ص 55 ، 56 .

غير أن أكثر الشعوب والأمم، لما كانت غافلة عن هذه الحقيقة، تائهة عن معرفة هذه الدنيا على وجهها، بعيدة عن حديث القرآن وبيانه، أقبلت على الدنيا بنفوس متعشقة لها، قبل أن تتأملها بعقول مدبرة.

فكان من جراء ذلك أن سعت تلك الأمم إلى بناء مدنياتها وحضاراتها، بدافع النهم النفسي أكثر من التدبر الفكري، ولا بد أن ينشأ عن مثل هذا السعي في العادة، السباق بين أصحاب الدوافع المتشابهة، ولا بد أن ينشأ عن السباق الصراع، وأن ينشأ عن الصراع الخصومات والحروب، ذلك لأن النفس إذا تعلقت بالشيء تعلق نهم ورعونة، خيِّل إليها أنها لن تنال حظها منه، إلا إذا انفردت به، مهما كانت حاجة النفس إليه قليلة، ومهما كان بحد ذاته كافيا وافيا لحاجات الناس جميعا.

لذا فإنك لا تكاد تجد أمة سعت إلى بناء حضارتها من هذا الطريق، إلا وشغلت يدا واحدة لها بإنشاء الحضارة وأسبابها، بينما انصرفت بيدها الأخرى إلى إيقاد نيران العداوات والحروب بينها وبين الآخرين. [1]

حضارتنا لا تشيخ

إن الحضارة إنما تتكون من جملة معارف وممارسات معينة.. وهي بحد ذاتها لا تشيخ ولا تهرم، إذ أن المقومات المعنوية لشيءٍ ما تبقى في مزاياها وصلاحياتها كما هي. ولكن الذي قد يتبدل ويتغير ويشيب ويشيخ هو ذاك الذي يجب أن ينهض بتلك المقومات ورعايتها، وهو الإنسان، فالحل كامن في النظر إلى حال رواد الحضارة وحراسها وبناتها، وفي موقفهم الثابت أو المتبدل أو المنحرف من مقوماتها، ثم في معالجة الأمر على هدي تلك الحال دون غيرها. ولما كانت تلك الأجيال المتعاقبة تتناوب في رعايتها وحراسة مقوماتها، فليس ثمة ما يمنع من بقاء الحضارة ثابتة عند ذروة شبابها وقوتها، بفضل ثبات تلك الأجيال المتناوبة على المبدأ القرآني السليم في رعاية المجتمعات الإنسانية وحمايتها من أسباب التفسخ والانهيار. [2]

1- منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، ص 102 /103 .

2 - منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، ص 107 .

كيف تتباهون بضعف حضارتكم ؟

إن تعجب لشيء، فاعجب عجبا لا ينتهي، من أناس يريدون أن يعبروا عن إكبارهم لتلك الحضارة فلا يجدون ما يستشهدون به على موجبات ذلك الإكبار، إلا مؤشرات ضعفها وانحدارها نحو الأفول والزوال!.. يريدون أن يبرهنوا للناس – فيما يزعمون – على مدى روعة تلك الحضارة الإسلامية وعظمها، فلا يقفون بهم إلا على الأمراض التي استشرت في كيانها، ولا يعرضون أمامهم إلا صور هبوطها واتجاهها نحو الاضمحلال فالفناء، وهم عن أيام أمجادها وأسباب نشأتها وقوتها معرضون وغافلون!!..

أجل والله إنه لفكر عجيب

يتباهون من حضارة الأندلس بزخارفها وباذخات قصورها، وهي لم تكن – لو علموا – إلا مؤشرات الشيخوخة في حياتها، ونذر اتجاهها نحو التفكك والزوال!.. ويعجبون منها بأصداء الأغاني التي كانت تتعالى من أبهاء تلك القصور، على طول لياليها المضيئة، مع أنها لم تكن – لو فهموا – إلا حشرجة الموت تتعالى من خلال أنفاسها الأخيرة!..

فما أشد بلاء أمةٍ، وصلت من الجهل والبلاهة، إلى حيث تقف منتشية معجبة بمظاهر الشحوب في مغرب الحضارات، وهي تحسب أنها إنما تقف أمام مشرقها، ومصدر قوتها وتصاعدها!..

وقد يعذر أصحاب تلك الحضارات إن جهلوا اتجاه سيرهم، لأنهم قد لا يستطيعون رصد اتجاهاتهم الجزئية بالعين المجرية أو من خلال حكم فترة زمنية قصيرة.. ولكن لا يعذر إطلاقا أن يجهل الاتجاهات والنتائج من قد جاؤوا بعدهم، وأخذوا يدرسون حياتهم وخطوط سيرهم بشكلها الكلي منبسطة على رقعة التاريخ. [1]

أقوم المناهج الحضارية .

إن القرآن لم يزد على أن وضع أمام الناس أقوم منهج يمكن أن يتلمسه الإنسان ويعثر عليه، إلى إقامة أمتن بنيان حضاري يحقق للمجتمع الإنساني أصدق معاني الخير والسعادة

1- منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، ص 118 ، 119 .

الشاملة.. أي فهو لم يحتكر لنفسه السبيل إلى إقامة حضارةٍ ما. فما أكثر الحضارات التي سادت على وجه الأرض، قبل أن يأتينا القرآن بمنهجه الأمثل إلى الحضارة المثلى. ومع أننا على يقين بأن ما جاءت به الكتب السماوية السابقة، مع تعليمات الرسل والأنبياء الذين خلوا من قبل، قد لفت أنظار الناس بشكل أو بآخر، إلى هذا المنهج القرآني ذاته، ونبههم إلى حقيقة كل من الكون والإنسان والحياة، فإن كثيرا من الحضارات سادت خلال تلك العصور بمنأى عن التعاليم الدينية. [1]

لا نهضة بدون المسلمين

لا ينهض إسلام بدون مسلمين، ولا يكون الناس مسلمين بمجرد التمني أو التحلي أو النسبة العامة للإسلام. وإنما يكونون مسلمين باصطباغهم بهذا الدين بدءا من أعماق أفئدتهم إلى سائر مظاهرهم وأحوالهم.

فمن شاء أن يقيم دعائم المجتمع الإسلامي، فليجمِع لهذه الدعائم، المسلمين الصادقين، فإن لم يجد فليبدأ بالسعي إلى إيجادهم بالدعوة والإرشاد والتعليم. [2]

كيلا نحج عند رجوع الناس

ينشدون المجتمع الإسلامي، ويتنادون للسعي إلى إقامته، وهم معرضون عن القرى الكثيرة التي هجرت وأغلقت فيها عشرات المساجد، فلا تقام فيها جماعات ولا جمعات؛ وعم الجهل أهليها صغارا وكبارا، فلم يعد يوجد فيهم من يعلم شيئا أصول الإسلام وعقائده، فضلا عن الطهارات والعبادات وأحكامها.

فإذا ظهرت حناظل الكفر والإلحاد في شباب تلك القرى، ثمارا طبيعية لذلك المناخ، بدأ الالتفات بعد طول الغفلة والإعراض، وأخذ الجميع يتحدث عن خطورة هذه الظاهرة.. ظاهرة الإلحاد المنتشر في شباب الأمة الإسلامية. وتجلى الحماس في مكافحة ذلك الإلحاد أشكالا وألوانا!..

فماذا يفيد الحماس بعد فوات أوانه، وماذا يغني الضجيج وقد انتهزت شياطين الإنس أيام غفلتك إن كنتِ منهمكا بالإعداد للمجتمع الإسلامي، فاتخذوا من جهالة أولئك الصغار أفضل أساسٍ لغراس الكفر والإلحاد في نفوسهم؟. [3]

1- منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، ص 151 .
2- التعرف على الذات ، ص 236 .
3- التعرف على الذات ، ص 237 ، 238 .

في طريقكم إلى بناء المجتمع الإسلامي، انتبهوا إلى

إنما يتكون المجتمع الإسلامي بإيجاد أفراده الصالحين أولا، ولا تتمثل مهمة المسلمين في أكثر من النهوض الحقيقي بهذا الواجب: فإن هم أنجزوا ذلك في صبرٍ وإخلاصٍ وأناة، تكفل الله لهم ببقية الأمر، فتوج لهم جهودهم هذه بنظام إسلامي متماسك وسلطة إسلامية راشدة. لذا فليحذر المسلمون الذين يهتمون بشأن الدعوة الإسلامية من آفةٍ هي أخطر آفات الحركات الإسلامية التي تظهر هنا وهناك، وهي أنهم ما يكادون يرون أن الإقبال على الإسلام يتزايد، وأن يقظة إسلامية واعية بدأت تنتشر في صفوف الشباب، وأن الأنظار أخذت تحسب للقوة الإسلامية حسابا – حتى تعاجلهم النشوة ويستبد بهم الزهو، فيتركون القاعدة التوجيهية التي ما كلفهم الله بغيرها، ويطمحون إلى حيث القمة، ليبدلوا النظم ويقيموا (الدولة الإسلامية التي تحكم بما أنزل الله)... ولا بد أن تتنبه عندئذ عوامل التربص والحذر لدى الأطراف الأخرى، وأن تصطرع القوى وتتأزم الأمور. وأخيرا ينكفئ الطامحون على أعقابهم، وقد خسروا قواعدهم الأولى، ولم يفوزوا بأحلامهم الأخرى. وتلك هي مصيبة الحركات الإسلامية في أكثر بقاع الأرض.[1]

كيف تنبعث الحضارة الإسلامية من جديد ؟

ماذا يجب أن يفعله المسلمون، كي يستعيدوا الحضارة التي متع الله بها أسلافهم عن طريق اتباعهم لمنهج القرآن وتعليماته.

يجب من أجل ذلك، أن يتحقق المسلمون بالشروط التالية:

أولا – وجود الرغبة الكافية لديهم في السعي إلى استعادة هذه الحضارة. وهذه الرغبة يجب أن تصطبغ بها الأمة كلها أو أغلبيتها العظمى. فلا قيمة لتلك الرغبة المتحرقة التي تجيش في صدور آحاد الناس، قلوا أو كثروا.

وقد يخيل إليك أن هذه الرغبة موجودة، وأن الحديث عن شرط وجودها تحصيل لحاصل. فمن من الناس، على اختلافهم، لا يرغب رغبة صادقة في أن يرى مجتمعه الذي يعيش فيه، وقد استعاد شأنه ومكانته في الدنيا، وتخلص من الآفات التي كان يعاني منها؟..

1- الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية ، ص 232 .

غير أن هذه الرغبة إنما تتعلق في الحقيقة بالغايات والنتائج الأخيرة؛ ولا تتجه، إلا نادرا، إلى ممارسة أسبابها وعواملها التي لا بد منها. فاشتراط هذه الرغبة ليس كما يتخيل بعضهم تحصيلا لحاصل. بل هي مفقودة اليوم، إلا عند قلة من الناي. وإنما يشغلهم عنها انصرافهم إلى أمانيهم وأهوائهم، وتنافسهم على الرخيص من المتع والملذات العابرة.

ثانيا – القضاء على التجزؤ وأسبابه. ذلك لأن الجهد الحضاري إنما هو جهد جماعي، لا يثمر إلا إذا كان كذلك. ومحال أن يتحقق العمل الجماعي إلا بعد انصهار الجماعة في وحدة حقيقية مترابطة.

إذن لا بد أن تبدأ الأمة الإسلامية (والأمة العربية أساس خطير فيها) سعيها لاستعادة مكانتها الحضارية، بتجميع شتاتها، والقضاء على أسباب التجزؤ المتغلغلة فيما بينها، حتى تغدو متحدة منصهرة في كيان واحد.

وعوامل هذا التجزؤ، عديدة رهيبة.. لا تتسلل إلى الأمة إلا من حيث تعاني من فراغ فكري وفقرٍ إلى مجموعة المبادئ والقيم التي تغنيها بدراية سليمة مطمئنة عن حقيقة كلٍ من الكون والإنسان والحياة. إذ إن من شأن أي جماعةٍ تعاني من مثل هذا الفراغ، أن تغدو هدفا لمطامع أولي الدعوات الهدامة، التي تصطنع المبادئ والقيم، لبلوغ أمانيها وأغراضها. فإذا تلك الجماعة بعد قليل أشتات متصارعة ومزق متناحرة.

ولكن إذا أمكن أن يسدٍ هذا الفراغ في حياتها الفكرية، بقاعدةٍ راسخةٍ من المبادئ والمعتقدات التي تشكل قاسما مشتركا يؤمن به ويخضع له الجميع، فإن هذه القاعدة تصبح في حياتها كالميزان الذي يحتكم إليه الطرفان، كلما اختلفا على أمر، فلا تدع شيئا من الخلافات وأسبابها تصدع بنيان الأمة أو تزهق وحدتها.

وهذه الحقيقة تلفت نظرنا إلى الضرورة الماسة، للبحث عن المسلمات الأساسية في حياتنا الفكرية، حتى إذا عثرنا عليها، اقبلنا إلى تغذيتها وتقويتها، لكي يتشكل منها القاسم المشترك في نشاطاتنا الفكرية العامة، وذلك من أجل أن تكون إليها الفيئة والاحتكام، كلما اشتط بنا نقاش أو تمادى بيننا خلاف.

فماذا عسى أن تكون المسلمات الأساسية في حياة هذه الأمة ؟

تتلخص تلك المسلمات في القرارات الهامة التي يدلي بها بيان الله عز وجل عن حقيقة كل من الإنسان، وعمره الذي يتمتع به، والمكونات التي تطوف من حوله، وهي تأتي بالضرورة والحكم

المنطقي بعد اليقين بحقيقة أهم وأشمل منها كلها، وهي حقيقة وجود الله عز وجل إلها واحدا، مع اليقين بأن القرآن كلامه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

تلك هي المسلمات الأساسية في حياتنا الفكرية، وهي الخطوط الكبرى التي يجب أن يتكون منها نسيج القاسم المشترك في حياة هذه الأمة.

ثالثا – الاستقرار الفكري والنفسي :

ويتحقق قسم كبير من هذا الاستقرار، عن طريق ترسيخ المسلمات الأساسية التي تحدثنا عنها، كما يتحقق قدر كبير منه، في ظل الوحدة التي من شأنها أن تأتي ثمرة لرسوخ تلك المسلمات.

وأوجز ما أستطيع أن أعبر به عن هذا العامل الثالث، هو العمل الجاد على قطع أسباب الاضطراب النفسي والفكري الذي يجتاح اليوم سواد هذه الأمة.

وفي يقيني أن عوامل هذا الاضطراب، على اختلافها، إنما ترسبت في حياة هذه الأمة، من جراء اجتيازها منعطفا فكريا واجتماعيا خطيرا في حياتها الحضارية هذه.

على أن بلاءنا العظيم لا يتمثل في نشأة هذه العوامل ذاتها، ولكنه يتمثل في طول الفترة الزمنية التي استغرقها المرور في هذا المنعطف.

وإنها لفترة طويلة حقا!..

لقد بدأت منذ أواخر الخلافة العثمانية، ثم استمرت إلى يومنا هذا!..

عمر طويل من الدهر، ونحن مبعثرون من خلاله في سجن هذا المنعطف!..

وهذه بعض من أسباب تطاول المدة الزمنية التي استغرقها مرورنا في هذا المنعطف، التي أفقدت هذه الأمة فرصة استقرارها النفسي والفكري معا:

- هرمت الخلافة العثمانية وأصابها الونى، وتسلل إليها الفساد، بمقدار ما كان لها قبل ذلك الحظ الأوفر من القوة والصلاح والتماسك. ثم انتثرت حطاما بفعل عواصف القومية الطورانية التي اهتاجت في داخلها، والخطط اليهودية الماكرة التي أحاطت بها كخيوط العنكبوت من خارجها.

✤ تسلل المتسابقون إلى المغنم.. من الدول الكبرى التي كانت تتربص بنا، وراحوا يتقاسمون فيما بينهم الميراث.. ميراث البلاد الإسلامية في هذه المنطقة، كل يحتج لضرورة الحصول على ما يسعى إليه بالجهود التي بذلها في سبيل تحطيم طوق الخلافة.. وبالمزيد من الحقن التي أثقل بها جسم (الرجل المريض) استعجالا لموته والقضاء عليه.

✤ نهضت الدول الأوربية نهضتها، ودخلت عصر (البخار) الذي يشبه في يومنا هذا عصر (الفضاء) وركبت من حياتها متن الدراية والصناعة، فانبهرت أبصارنا وعشيت عيوننا لمرأى هذه النهضة، وكان من أهم أسباب هذا الانبهار، انحسار أسباب القوة عن حياتنا، واشتغالنا بحال (الرجل المريض) دفاعا عنه أو تعجلا به .. ثم انتثار عقد وحدتنا بين أيدي المقتسمين والناهبين.

✤ كان من آثار هذا الانبهار، ذلك السعي التقليدي الأعمى وراء أوربا، أملا في بلوغ نهضة كنهضتها، وتلمس الإصلاح من السبل ذاتها التي تلمسته منها أوربا.. وأخذنا نضع الإسلام في الميزان ذاته الذي وضعت فيه أوربا دينها.. كل ذلك بدافع من مركب النقص الذي حاق بنا، والانبهار الذي عشيت له أبصارنا.

فهذه العوامل زجَّت بالأمة العربية والإسلامية إلى المنعطف الذي أتحدث عنه، والذي لا نزال نتعثر فيه إلى يومنا هذا!..

فلا نحن أبقينا صلاتنا المختلفة منسجمة مع الماضي، تحت مظلة السنن الكونية للتطور، وفي ميزان المنطق والعلم. ولا نحن حققنا شيئا من أمنيات اللحاق بنهضة تشبه نهضة الآخرين. بل بقينا، كما قلت، نتهارج ونتخاصم ونضطرب في سجن هذا المنعطف الثقيل!..

وفي هذا المناخ الذي وصفت، يتبدد الإشراق الفكري ويزول الاستقرار النفسي، ويذهب الفرد ضحية الغشاوات التي تتجمع على صفحة الذهن والعقل، والاضطراب الذي يهتاج في أعماق النفس. (وأنت تعلم أن الأمة والمجتمع ليس إلى الفرد المتكرر) فتتكاثف من ذلك الحجب بينه وبين سبيل العلم والإبداع، ويظل دائرا وسط قوقعةٍ التقليد والتمزق والاتباع. فتلك هي أهم عوامل الاضطراب الفكري والنفسي الذي ترسب في كيان هذه الأمة، ثم لم يتخل عنه إلى هذا اليوم.

وسواء أكان التخلص من هذا الاضطراب يسيرا أم عسيرا، فإن بقاءه يعد من أخطر المعوقات التي تصد عن سبيل التقدم الحقيقي، هذا إلى أنه يجمد الطاقات كلها، ويحبسها عن الانطلاق المتناسق المفيد.

رابعا– تلاحم الثقة بين قطاعات الأمة، وأقصد بقطاعاتها ما يشمل الحكام وسائر فئات الأمة على السواء.

ولا ريب أن قدرا كبيرا من عوامل تحقق هذا الشرط، رهن بتحقيق الشروط الثلاثة التي مر ذكرها. فبمقدار ما تنضج الرغبة لدى الأمة في السعي إلى استعادة أمجادها الحضارية، وبمقدار ما تترسخ في كيانها مسلماتها الفكرية الأساسية، التي تتكفل باسترجاع وحدتها، وبمقدار ما تحقق لنفسها الاستقرار الفكري والنفسي – أقول، وبمقدار ما يتحقق ذلك كله تتلاقى عوامل الثقة ما بين طبقات الأمة وفئاتها.

غير أنها بحاجة بعد ذلك إلى أن تتلمس عوامل أخرى لتحقيق المزيد من هذه الثقة، لاسيما بين القادة والشعوب.

وقد سبق أن أوضحت بأن المنجزات الحضارية، إنما هي دائما نتيجة جهود متناسقة مشتركة. ولم تكن في وقت من الأوقات ثمرات لجهود فردية أو جماعية متشاكسة. وهيهات أن يتحقق الجهد الجماعي ويعطي شيئا من ثماره إلا إذا وحدت الثقة أجزاءه وألفت بين أشتاته.

وأزيدك إيضاحا فأقول: إن الدخول في أي مشروع إنتاجي، مما كان نوعه ومهما بلغ اتساعه، إنما يعتمد قبل كل شيء على رصيد من التفاعل والتعاون بين الأطراف والفئات كلها، فلا يمكن له أن يأتي بأي نتيجة إيجابية ذات قيمة، إذا ما كانت دعامة ذلك المشروع مكونة من جهود طرف واحد.

وأنا إنما أقصد بالتفاعل والتعاون، ذلك الذي ينبسط على رقعة الأمة كلها. وإذن فلا قيمة لتعاون تنهض به فئة من الناس فيما بينها، وسط أمة من الناس كثيرة، مهما تنوعت اختصاصات تلك الفئة الواحدة ومهما اتسع سلطانها.

ذلك لأن مجرد اتصاف أفراد تلك الفئة بكونهم فئة، مقابل فئات أخرى، يفسد كل قيمة ذاتية لكثرتهم وقوتهم. قد تستطيع هذه الفئة وحدها أن تحكم وتسيطر، ولكنها لا تستطيع أن تحقق بذلك وحدة الأمة أي تقدم أو ازدهار. إذ إن بين طبيعة هذين الأمرين فارقا كبيرا:

الأمر الأول، وهو القهر والاستيلاء، لا يعتمد إلا على ما لدى تلك الفئة من عزيمة وقوة ودقة في التخطيط.

أما الأمر الثاني، وهو تحقيق التقدم والازدهار، فإنما يعتمد على استخراج أسباب القوة ومقومات التحرر والتقدم، من جميع فئات الشعب وأفراده، ثم ضفرها جميعا وتوجيهها في طريق التطور والرقي.

نعم، إن الأمر الأول ليس أكثر من لكمةٍ تسدِد إلى هدف. وإنما يكفي من أجلها قبضة يد واحدة، أما الأمر الثاني فإنما هو كالتصفيق، لا ينبعث صوته إلا باجتماع الكفين والتقائهما، في خِيرة وحرية تامة، على القيام بعمل مشترك.

إلا أن هذه الثقة، لا يمتد نسيجها فيما بين هذه الفئات،التي يجب أن يشيع فيما بينها التفاعل والتعاون، إلا تحت مظلة حكمٍ رشيد شفوق على مصالح الأمة، تأتلف عليه القلوب، وتطمئن إليه النفوس، ثم يحظى من أسباب الاستقرار ودعائمه، بما يجعل الناس في مأمن من تقلبات غير متوقعة، وطفراتٍ لم تكن في الحسبان.

فإن لم تقم هذه المظلة من الحكم الرشيد الشفوق، شاعت الظنة بين الناس بدلا من الثقة، وانتشرت بينهم المخاوف بدلا من أن يعم فيهم الأمن والتناصر، فاختفت من جراء ذلك الطاقات، وخمدت النشاطات، وتبخرت عوامل الإبداع، وتقوقع الناس على أنفسهم؛ هذا إن لم يتربصوا بعضهم ببعض الدوائر، كما هو البلاء المستشري اليوم بين أكثر الناس.

والخلاصة أن تبادل الثقة بين فئات الأمة، شرط أساسي لأي عمل جماعي تنهض به الأمة في سبيل استعادة مجدها الحضاري، ولا تنبت هذه الثقة إلا حيث تظهر رائحة إخلاص الناس بعضهم لبعض. ولا يأتي هذا الإخلاص إلا بفضل التبصرة القرآنية إذ يصطبغ بها أغلبية الأمة، إن لم نقل كلها، يقينا وسلوكا.

خامسا- استخدام الطاقات التربوية بكل عواملها وأدواتها، لترسيخ المسلمات الفكرية الأساسية التي تحدثنا عنها، في تربية المجتمع الإسلامي. وذلك عن طريق بذل كل جهد تربوي وعلمي في سبيل أن ينقاد الناس، على اختلافهم، وبطواعيتهم، لتلك المسلمات.

وقد علمت أن ذلك يعني أن تتشبع الأمة بالبصيرة القرآنية التي تتجلى من خلالها حقائق هذا الكون، ويتميز فيه الشراب الحقيقي من السراب الوهمي.

ويجب أن أوضح لمن ينشد لأمته – بجد وصدق – انبعاثا جديدا لحضارتها الإسلامية العظيمة، أن المقومات ((المادية)) لعودة هذه الحضارة، متوفرة في أيدي هذه الأمة، بل تحت أقدامها أيضا. بل إنها لتمتلك من هذه المقومات أكثر مما تمتلكه أي أمة أخرى في هذا العصر.

ولكن علينا أن نعلم أن هذه المقومات ((المادية)) التي نملكها، مهما ازدادت وتضاعفت،

فإنها لن تشكل إلا عقبة في طريقنا الحضاري، وجاذبا يشدنا إلى الخف بل يجذبنا إلى القاع، ما دامت العوامل والأجهزة التربوية لا تنهض بالوظيفة التي يجب أن تنهض بها، ومادامت الشروط الأربعة التي تحدثنا عنها مركونة على الرفوف بعيدة عن النظر والاهتمام.

لا بد أن يتربى المسلمون الذين ملكهم الله ما في باطن أرضهم من كنوزٍ مدخرة، وما على ظاهرها من خيرات منتثرة (إن هم أرادوا حقا عودا حميدا إلى أمجادهم الحضارية الغابرة) على الكيفية الدقيقة التي يجب أن يتعاملوا مع الدنيا على أساسها، فيعلموا متى يستهينون بها ومتى يتسابقون إليها.

لا بد أن يربى هؤلاء المسلمون على دراية دقيقة بقيمة الحياة التي تخفق بين جوانحهم، والعاقبة التي سيؤولون إليها بعد موتهم، حتى يعلموا جيدا متى يستهينون بحياتهم ويضحون بها، ومتى يتشبثون بها ويحافظون عليها، دون أن يعوقهم عن تنفيذ ذلك أي عائق.

فإذا اصطبغت ألبابهم ووجداناتهم بهذه التربية، فإن جزءا يسيرا من ثرواتهم التي يملكونها، يكفي ليتحول بين أيديهم إلى أداة سحرية تبعث لهم دفينهم الحضاري، في حياة جديدة تمتص من الجديد كل خيره وتلفظ منه كل شروره وسمومه، وليعيد إليهم زمام القيادة في ركب هذه الحياة الإنسانية التي برمت بالشقاء الحضاري، وطال ارتقابها دون جدوى لقيادة جديدة تمحض النصح، وتخلص في الرعاية، وتجعل من السياسة خادما أمينا لمبادئ الإنسانية والحق، بدلا من الحال المنكسة اليوم، وهي ما نراه من اتخاذ المبادئ الإنسانية العليا أداة رخيصة في يد السياسة التي غدت اليوم هدف الأهداف ونهاية النهايات..

وهذا الذي نقرره، يعني بأسلوب آخر، أن مفتاح النهضة العلمية والصناعية والانطلاقة الحضارية، لا يتمثل كما يتوهم بعض السطحيين، في علوم التكنولوجيا والمشاريع الاقتصادية المرسومة والتجهيزات الصناعية الضخمة.. بل ما أقرب أن تغدو هذه الأسباب أعباء وأثقالا على كواهل أصحابها، إن لم تنهض بدورها على قاعدة راسخة من المعارف الإنسانية الرشيدة، لا تكتفي بالتغلغل في طوايا الفكر والعقل، بل تتجاوزها إلى أعماق النفس والوجدان. ذلك لأن الوعي العلمي والتربوي هو الذي يحرك المصانع في طريقها الصحيحة، ويدفع الجهود التقنية إلى النتائج المرضية، ويحرس النشاطات الاقتصادية المختلفة أن لا تنحرف إلى سبل الخيانة والغلول. [1]

1- منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، ص 160 . 175 ، بتصرف واختصار غير مخل بالموضوع .



قاعدة علمية في التفكير

إن من القواعد العلمية التي يجب أن لا تغيب عن البال، أن فهم جزء من حقيقة الشيء، ليس مستلزما بالضرورة لإدراك ذلك الجزء على حقيقته، إذ إن تجزيء الحقيقة في ساحة الدراية والفهم من شأنه أن يفسد الصورة الصحيحة للحقيقة كلها.. فالذي يحصر بصره وفكره مثلا في سير القطار دون أن ينتبه إلى القضبان الحديدية الراسخة التي تقيده وتحدد نظام سيره، لم يدرك حتى ذلك الجانب الجزئي الذي حصر فكره فيه، وهو المفهوم الواقعي الصحيح لسير القطار. [1]

قاعدة فلسفية

إن أي فلسفةٍ سليمةٍ في العالم، إنما تنطلق من المبدأ الذي يقضي بالتضحية بالمتعة في سبيل الإبقاء على المصلحة، ولا تنطلق من عكس ذلك، أي من التضحية بالمصلحة في سبيل الإبقاء على المتعة؛ هذا بعد الاتفاق على فهم المصلحة والإيمان بأنها مصلحة. [2]

1- هذه مشكلاتهم ، ص 50 .
2- هذه مشكلاتهم ، ص 67 .

من يقدرها أكثر ؟!

نحن نقدر المرأة من خلال كونها عضوا أساسيا في الأسرة ثم المجتمع، ومن خلال اليقين بأن الأسرة السليمة هي العمود الفقري في المجتمع السليم.

وأما هم، فيقدرون المرأة من خلال كونها عضوا أساسيا في أركان المتعة، ومن خلال اليقين بأن المتعة هي أول أسرار الحياة وأهم أهدافها.

وكل ما تراه من فرقٍ بين المجتمعين: الإسلامي والغربي، في الأنظمة والقوانين المتعلقة بالمرأة، إنما هو أثر لهاتين الرؤيتين المختلفتين. [1]

كيف نتعامل مع الحياة ؟!

إن التعامل السليم مع الحياة، لا بد أن يكون مسبوقا بدراسة مستوعبة سليمة لجوهرها وطبيعتها، ثم أن يكون مسبوقا أيضا بالعمل على اكتشاف المناهج والسبل التي توصل الإنسان إلى ما يبتغيه من المتعة بأقل ما يمكن من الآلام والمعكرات.

ولم يختلف إلى اليوم كل الذين أقبلوا إلى دراسة طبيعة هذه الحياة وجوهرها، في أن التعامل السليم معها لا بد أن ينهض على أساس من تحمّل المسؤوليات والأمانة التامة في أدائها. إذ إن النهوض بتحملها هو الشجرة الوحيدة التي تثمر المتعة الصافية عن الشوائب بأنواعها. فمن سعى إليها بعيدا عن تحمل تلك الأعباء وصل إليها ممزوجة بعكر من المآسي والمصائب المتنوعة التي لا بدٍّ أن تذهب بجدوى تلك المتع من أساسها.

وما الإسلام إلا تبصير للإنسان بهذه الحقيقة، ثم إرشاد له إلى تلك المناهج والسبل التي إن سار عليها وتقيَّد بها أوصلته إلى متع الحياة محفوظة عن سائر المآسي والمنغصات. صحيح أن التقيد بتلك المناهج والسبل هو بحدٍ ذاته من المنغصات التي تضيق بها النفس، إلا أنها أقلّ بكثير مما لا بد أن يتحمله ويعاني منه، فيما لو قفز فوق تلك المناهج وغامر إلى أهوائه ومتعه بعيدا عن تلك الضوابط والقيود. [2]

1- هذه مشكلاتهم ، ص 75 .
2 - هذه مشكلاتهم ، ص 75/ 76 .

أي قيمة ؟

ترى أي قيمةٍ تبقى لحياةٍ تضمحل فيها الفوارق بين الحق والباطل؟ وأي فائدة تبقى لعلمٍ لا يملك أن يصنّفهما ويضع كلا منهما في المكان اللائق به؟ بل أي مزيةٍ تبقى للعلم على الجهل إذا لم يكن بوسعه أن يحجز الحق عن الباطل، ولم يتأتَّ له أن يحمي الحق في حصنٍ من القداسة والتنزيه؟. [1]

لماذا العجب ؟

إننا لا نعجب أبدا من أن تموت الأشجار موتا موسميا، مرة كل عام، ثم تعود بعد ذلك إلى النمو والحياة. بل نحلل ذلك ونعلله وندرسه على أنه ظاهرة من الظواهر العلمية. لأنه شيء تكرر في حياتنا وألفناه منذ نعومة أظفارنا، فسقط منه موجب التعجب والاستنكار.

ولكننا نعجب إلى درجة التكذيب والاستنكار، من أن يقال لنا إن ميتا من الناس قد تفجر عنه القبر بعد سنوات، كما تتفجر الأرض عن النبات الذي ينمو فوقها، ثم ما هو إلا عادت إليه الحياة وأسرع عائدا إلى داره. لأنه شيء لم نألفه ولم يقم نظام الحياة عليه.

غير أن الله عز وجل لو شاء أن يجعل من هذا التصور نظاما وسنة كونية، إذن لألفناه هو الآخر واعتدنا عليه، ولما رأينا فيه ما يدعو إلى تعجب أو استنكار، ولرأيت الجامعات والمعاهد العلمية تدرس ذلك وتحلله وتعلله، وتستخرج منه الأنظمة والقوانين. [2]

سلمان رشدي

إذا كانت تلك الشتائم المستقذرة التي حشا بها سلمان رشدي روايته، فكرا، إذن فيجب أن تحاور شتائمه بشتائم مماثلة، ضرورة أن الفكر يجب أن يحاور بالفكر المماثل!!..

أفتلك هي الطريقة الحضارية والسبيل الموصل إلى اللقاءات الفكرية والاتفاقات العلمية، فيما يراه أسير الفكر الصهيوني؟!.. وهل سيطربه جدا أن يجد ملفَّ المساجلات والمحاورات العلمية والفكرية في العالم فياضاِ بأقذر ألفاظ السباب والشتائم المتبادلة؟!

1- هذه مشكلاتهم ، ص 111 .

2- هذه مشكلاتهم ، ص 131 ، 132 .

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا نظلم السوقة والرعاع من الناس ونغمطهم حقهم، ولا نبوّءِ كلا منهم كرسي الأستاذية في عالم الفكر، مع التقديس التام لكل ما يتأبطه من معجم الشتائم والسباب التي تفوح بها رائحة العهر والنتن ؟!..[1]

كلمتك هي أنت

إن الكلام خير مرآة دقيقة لطبيعة المتكلم. فما تتجلى الأغوار النفسية لشخص، على شيء، كما تتجلى من خلال السطور التي يكتبها أو الجمل التي ينطق بها ويهدر بها. وكلما تبسط الإنسان في الحديث الذي يكتبه أو يقوله، ازدادت خصائصه النفسية جلاء ووضوحا.[2]

الهدف

إن حياة الإنسان إذا فرغت من الهدف، حلّت العشوائية محلها، فأصبحت العشوائية بحد ذاتها هدفا ...[3]

لا للتطرف

عندما تختفي التشنجات الحقدية والعصبية الباعثة على العنف والتطرف، يشرق عندئذٍ في النفوس معنى قول رسول الله ﷺ : ((الخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله))[4]، ومعنى قول رسول الله ﷺ : ((إن الله رفيق يحب الرفق في الأمور كلها)).[5]

ما هو الوازع ؟

إن أي دافعٍ داخلي يحمل الإنسان على فعل أمرٍ ما، يسمى وازعا، فالدافع الذي يحملني على جمع مزيدٍ من المال وازع، والدافع الذي يحملني على تحقيق شهواتي الخاصة وازع، والتفريق

1- هذه مشكلاتهم ، ص 150 .

2- هذه مشكلاتهم ، ص 195 .

3- هذه مشكلاتهم ، ص 228 .

4-الحديث ضعيف جداً، الحديث وقد أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده رقم 3315 والقضاعي في مسنده الشهاب رقم 1306 عن أنس رضي الله عنه وأخرجه الطبراني في الكبر 10033 وأبو نعيم في الحلية 102-2 والبهقي في الشعب 7448 عن ابن مسعود . ا(الناشر)

5- مشكلات في طريق النهوض ، بحث : من التطرف إلى الحوار ، ص 22 .

بين هذه الوازعات والوازع الذي يحمل على سلوك الفضيلة والحق تفريق لا ينهض على أي دليل.

إن المعنى الأخلاقي الذي يراد بكلمة الوازع أو الضمير، يستحيل أن يوجد بشكل جماعي إلا ضمن عقيدة سليمة تستحوذ على العقل والنفس.

ولن تستحوذ العقيدة على كلٍ من النفس والعقل معا، إلا إذا كانت إيمانا بالله تعالى ووحدانيته وكتبه ورسله، وبرقابته على العباد، ومحاسبته إياهم يوم المعاد، ومجازاته كلا منهم على ما قدم.

فهذا الإيمان الصادق هو وحده الذي يمكن أن يمتلخ جذور ذلك الفساد، ويطهر تربة المجتمعات منه، وهو وحده الذي يمكِن أصحابه من أن يتأملوا الحياة بعقولٍ حرة، ويفهموها كما هي في حقيقتها الذاتية، لا كما هي في أطيافها العارضة العابرة، وعندئذٍ يقبل الجميع على تحمل مسؤولياتهم مع ممارستهم حقوقهم ومستلزمات إنسانيتهم.[1]

من فيروسات الأمة

إن بلاءنا بصنفٍ من الناس اليوم، أنهم يتحمسون في استعمال شعارات وعبارات غامضة، دون أن يتبينوا أي حجم لمعانيها أو يقفوا على أي ضابط لمدلولاتها.. ثم يمتطون صهوة هذه الكلمات، لينطلقوا في حربٍ كلامية بها، على غير بينةٍ ولا هدى!..[2]

العجلة سائرة سائرة

إن عمارة هذه الدنيا أمانة، يشرِّف الله بها عباده المسلمين طالما كانوا مسلمين فعلا.. فإذا انحرفوا، استلب الأمانة منهم واستودعها عند غيرهم. وربما كانوا شرا منهم، لا ضير.. فإن الله لا يوقف عمارة الأرض وحركتها من أجل عيون الذين ارتدوا على أعقابهم، وانحرفوا عن منهج التشريف والتكريم.. لا بد أن تظل الحياة مستمرة، وقانونها نافذا؛ إن لم يكن زمامها بيد هؤلاء، كان بيد آخرين، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.[3]

1- تحديد النسل ، ص 84 .
2- من المسؤول عن تخلف المسلمين ، 25 .
3- من المسؤول عن تخلف المسلمين ، 80 .

فلنبدأ من الإصلاح الداخلي أولا

ألا فليعلم المسلمون أينما كانوا، أنهم في اليوم الذي يتحققون فيه بمعاني الإسلام على وجهه الصحيح، بدءا من أعماق أفئدتهم إلى ظاهر أحوالهم، ستتفتح أبواب الإسلام على مصاريعها أمام شعوب أوربا وأمريكا كلها، وسوف يدخلون في دين الله أفواجا، كما دخلوا فيه من قبل أفواجا.

فأما، والمسلمون على هذه الحالة التي هم عليها، فإن جهود الدعوة كلها، يجب أن تنصرف إلى إصلاح حالهم هم؛ وكل حديث يصطنع التباكي على الإسلام في ربوع أوربا أو أقاصي أمريكا أو أعماق أفريقيا، دون التفات جادٍ إلى واقع المسلمين أنفسهم لا بد أن يكون مرده إما إلى سذاجة متناهية في معالجة الأمور المترابطة بعضها ببعض، وإما إلى كيد خبيث، يستهدف شغل المسلمين عن البلاء المستشري فيما بينهم، وصرف طاقاتهم لتتبدد في الفضاء. ثم لا تعود على أصحابها بشيء. [1]

ليس غضبا لله

إن أكثر ما يصد المنحرفين عن سماع كلمة الحق، ما قد يشعرون به في تضاعيفها من التعالي والأنانية وحب الانتصار للنفس أو للجماعة، فيثير هذا الشعور لديهم (بموجب رد الفعل) تعاليا أشد وأنانية أقوى، واندفاعا أسرع إلى الانتصار للذات. وهكذا توقظ العصبية، عصبية مثلها، فتتكاثف من ذلك الحجب بين الطرفين، ويمضي الداعي إلى الإسلام، وهو لم يأتِ من جهده بطائل، ولم يحمل قلبه إلا مزيدا من أسباب الضغينة والحقد، التي قد يخيل إليه، لفرط جهله، أنها ليست إلا مشاعر الغضب لله عز وجل. [2]

أخطر من الجهل

إن الذي أخطر من الجهل، عصبية تتحكم بمجامع النفس، يجعل منها صاحبها غذاء لأنانيته وأفكاره الشخصية، فلا يفيد شيء من العلم وبراهينه معها بحال .. [3]

1- هكذا فلندع إلى الإسلام ، ص 23 + 24 .

2- هكذا فلندع إلى الإسلام ، ص 53 .

3- هكذا فلندع إلى الإسلام ، ص 93 .

كن مع الله .. تصل

كان لي رفاق في الحي من أيام الطفولة، اتجه البعض منهم فيما بعد إلى مدارس رسمية حكومية، واتجه آخرون إلى صناعات أو مهارات حرفية.. فكان البعض منهم إذا رآني، وعلم انقطاعي لطلب العلم في ذلك المسجد، نصحني وحذرني من أن سلوكي هذا لن ينتهي بي إلا إلى فقر يجعلني عالة على الناس.. وكان يقول أحدهم إنه ليس أمامك إلا مستقبل واحد، هو أن تصبح مغسلا للموتى أو مؤذنا أمام الجنائز.. ويعود أحدهم فيقول: ألم تتعلم بعد ما يكفيك لمعرفة دينك والقيام بوظائفه؟ فلماذا تضيع عمرك في المزيد الذي لا حاجة إليه؟!..

فأذكر أن تلك النصائح والتحذيرات، كانت تطرق سمعي، ثم لا تترك أي أثر في نفسي. ولم أكن أزيد على أن أقول لهم: ((عهد ألزمت نفسي به تجاه أبي، لن أنكثه ولن أحيد عنه!)). [1]

وينبغي أن أعلن هنا أن الله لم يضيعني، ولم يتركني عالة على الناس كما قد خوفني بعض الأصدقاء بل أغدق عليَّ من النعم ما لا يحصيه العد، وما لم يكن لي فيه من مطمع قط. لم يتحقق شيء من ذلك بتدبير مني ولا من أبي، ولا كان شيء من ذلك كله متوقعا ولا داخلا في الحسبان، ولكنه المصداق الدقيق لقول الله عز وجل: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ** ﴾ [الطلاق: 2 – 3] وإنَّ في أولئك الأصدقاء، الذين كانوا يلاحقونني بتحذيراتهم المخيفة، مِنْ قد وقعوا في شرٍّ ممَّا حذروني منه!.. [2]

نعم لثبات الحقائق .. لا للإصلاح

إن الإسلام بكل ما يتألف منه، من عقائد ومبادئ وأحكام، مجموعة ثوابت مستقرة، تستعصي على أي تغيير أو تبديل، إنها حقائق.. والحقائق لا تقبل – من حيث المنطق – أي تطور أو تغيير.

غير أن وظيفة هذه الحقائق الثابتة، أنها تبعث الإنسان المسلم على أن يمارس حياته الفكرية والعمرانية والحضارية عموما بطريقة متجددة، طبق نظام معين تحكمه تلك الحقائق الثابتة.

1- هذا والدي، ص 60 .
2- هذا والدي ، ص 64 .

إن هذه المتغيرات الفكرية والعمرانية والحضارية ليست داخلة في شيءٍ من حقائق الإسلام، وإنما هي من آثاره وثماره.

ومن حِكِمَ الله الباهرة، أن الإسلام لا يمكن أن يبعث المسلمين على هذا التجدد المستمر في حياتهم، إلا إن كان هو بحدٍ ذاته ثابتا مستقرا يتسامى على أي تطوير أو تغيير.

وحديث رسول الله ﷺ : ((إن الله يبعث لهذه الأمة، على رأس كل مائة سنة، من يجدِد لها دينها)) ليس إلا تعبيرا عن هذا الذي أوضحناه.

فمراده ﷺ بتجديد الدين، إزالة ما تراكم عليه في تلك المدة، من غبار البدع والتزيدات، وتنقيته من مخلفات العابثين والمبدلين والمشوهين، حتى يعود بذلك إلى فجره الجديد ويتجلى عليه ألق الوحي وينبعث فيه من جديدٍ أنس النبوة. وهيهات أن يكون المعنى الذي أراده النبي ﷺ التجديد الإصلاحي والتطويري، كما يشتهي ذلك بعض المتبرمين بأحكام الدين وقيوده.

إن كلمة (الإصلاح الديني) التي استعيرت من الغرب، لتلصق بالإسلام، ومن ثِمَّ لتبعث على التلاعب به والتغيير منه باسم الإصلاح، لا مكان لها قط في بنيان الحقائق الإسلامية الراسخة، بل إن كلمة (الحقائق) تطرد وهم الإصلاح عن مضمونها إلى أبعد مدى ممكن.

ذلك لأن بين (الحقيقة) و(الإصلاح) تناقضا بينا لا يخفى على عاقل.. والغرب إنما استنجد بالإصلاح الديني، أيام أقدم على ذلك، لكي يقوّم به اعوجاجا ويزيل به وهما باطلا، لا لكي يصحِح به حقيقة.. إن تصحيح الحقيقة، يدخل فيما يسمى بتحصيل الحاصل. وتحصيل الحاصل مستحيل في منطق سائر العلماء والعقلاء.

ولما فكّر بعض المغفلين، ذات يوم، أن يطوِّروا أنفسهم تطوّرا تقدميا عن طريق تطوير الإسلام، في إحدى أمهات البلاد العربية والإسلامية، ثم راحوا ينفذون ذلك، تحت رعاية وبإشارة من بريطانية الوفية المخلصة!.. لم يزيدوا على أن أخرجوا أنفسهم بذلك من حصن الإسلام إلى العراء، ثم جاءت الأمواج الدافعة في الوقت المناسب، فقذفت بهم في طفرة قاتلة إلى الوراء، بل إلى وراء الوراء. [1]

1- وهذه مشكلاتنا ، ص 37، 38 .

بديل خاطئ

أين هي ليالي التبتل بين يدي الله؟ وأين هي مجالس ((تعالوا بنا نؤمن ساعة)) ؟ وأين هي معارج التزكية بالنفس إلى حيث الإيثار بدلا من الأثرة، والحب بدلا من الحقد، والتضحية بالحظوظ بدلا من التضحية بالخصوم؟ وأين هي حِلِق الذكر التي كانت تزدان بأصحاب رسول الله ﷺ فتورثهم الأفئدة الرقيقة والعيون الدامعة؟

أين هي مجالس التبليغ عن الله والتعريف بألوهيَّة الله وعظيم سلطانه؟ أين هو البحث عن التائهين والشاردين والضالين، وما أكثرهم في كل فجٍّ وصوب، للحوار معهم والإجابة عن مشكلاتهم وتذويب شبهاتهم والصبر في سبيل ذلك على من أذاهم؟

أين هو السلاح الأول في حياة المسلم الرباني القائم على حدود الله وأوامره؟ وهل هو إلا صدق التوكل على الله والثقة بالله والرضا عن الله، ثم الاصطباغ – في التعامل مع الناس – بأخلاق رسول الله ﷺ الذي قال فيما صحَّ عنه: ((إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فلتسعكم منهم بسطة الوجه وحسن الخلق)) ؟

إنني أنظر .. وينظر الناس جميعا معي، فلا نرى إلا انصرافا عن هذا كله.

آلاف التائهين والشاردين، تتصيدهم كل يوم شباك الشهوات والأهواء، أو تتربص بهم جهود الدعاة إلى النار، وقد تسلّحوا بما كان أَولى بالإسلاميين أن يتسلحوا به، من حسن المعشر وخفض الجناح ولين الجانب، والصبر على مشاقِ الرحلة، ومخاوف الصدِ والردِ.. ولسان حال هؤلاء التائهين والجاهلين يصرخ قائلا: ألا من منقذٍ يخلِصنا من رقِ أهوائنا التي تحكَّمت بنا، أو من هؤلاء الماكرين المبشرين الذين يحيطون بنا؟ أين هم ورَّاث شريعة الله ورجال الدعوة إلى الله، ينتشلوننا من عذاب نفوسنا ومن كيد المتربصين بنا؟

غير أن لسان حال الإسلاميين والجماعات الإسلامية يردِ قائلا: نحن في شغل شاغل عن هذا الذي تدعوننا إليه وتستنجدون بنا من أجله. إننا مشغولون عنكم باتخاذ أسباب الوصول إلى الحكم ولسوف ننعطف إليكم من فوق كراسي الحكم، لنقودكم إلى الحقِ كرها، بدلا من أن نحاوركم وندعوكم إليه عن طواعية ورضا !.. [1]

1- وهذه مشكلاتنا ، ص 46 ، 47 .

تطور الفرد . . تطور للإنسانية

إن أي سعيً من الإنسان نحو أي لونٍ من ألوان التطور في سبيل عيشه وسعادته، ثمرة طبيعية لمعرفة هويته وذاته، من حيث هو فرد، ومن حيث هو عضو في المجتمع. ذو صلةٍ بهذه الطبيعة. وكلما ازداد الإنسان دقة في هذه المعرفة، يزداد علما بما يحتاج إليه الإنسان، ويزداد تبصرا بأفضل السبل إلى تحقيق المزيد من أسباب سعادته ومقومات استقراره ورغد عيشه خلال رحلة هذه الحياة. [1]

مرآة التعرف على الذات

لننظر !!.. ما هو أول ما يعيه ويتنبه إليه كل من أقبل يصغي بتدبر إلى حديث القرآن للإنسان، وما يعلق عليه محمد ﷺ شارحا ومفصلا؟.. إن أول ما يعيه من ذلك أن يقف من حديثه إليه أمام مرآة التعرف على الذات!..

ذلك لأن المحور الذي يدور عليه حديث القرآن والسنة، هو التعريف بالإنسان من حيث هو إنسان، بقطع النظر عن أعراضه وظواهره: كيف خلِق، ومن هو خالقه، وما هي المهمة المنوطة به، خلال اجتيازه مرحلة هذه الحياة، ومن هو الذي كلّفه بذلك ولماذا، وما حقيقة الحياة التي تنبض بين جوانحه، وما مبعثها، وما مصيرها؟... [2]

أدرِكْ ذاتكَ

إن الإنسان إذا أصغى إلى حديث القرآن عنه، أدرك ذاته، وعرف أنه مخلوق من ضعفٍ ثمَّ حوَّل الله ضعفه إلى قوة، ثم إنه سيعيد ظواهر قوته مرة ثانية إلى ضعفٍ، فهو منفعل إذن بالطاقات والقدرات التي أفرغت فيه دون أن يفعلها أو يفعل شيئا منها... وإذن فهو ليس مالكا لها ولا لشيءٍ منها، وإنما هو مظهر لتجليها ووعاء يحتويها، بل هو مجرد جهاز استقبال، إن انقطع عنه الإرسال تحول إلى ما يشبه تلك الشاشة البيضاء التي تنعكس عليها صور الأشياء.

1- من المسؤول عن تخلف المسلمين ، ص 67 .

2- وهذه مشكلاتنا ، ص 144 .

وإذا اكتشف الإنسان هذه الحقيقة، فلا بد أن يبحث عمن ملأ كيانه بهذه الطاقات وجعله ينفعل بها دون أن يملك أي فعلٍ لها، وسيهديه البحث إلى الله عز وجل، الذي خلق فسوَّى والذي قدر فهدى، ذاك الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا، والذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى. [1]

من هو المثقف ثقافة إسلامية؟

إن كل من أتيح له أن يتمتع بزادٍ وافٍ من الثقافة الإسلامية، لا يعدو أن يكون أحد رجلين:

رجل أقبل بعقلٍ متجردٍ صافٍ ينهل من هذه الثقافة، ويتعرف على الإسلام في جوانبه الأساسية الهامة، رغبة في معرفة الحقيقة، ودون أن يكون خاضعا لأسبقيات ذهنية أو مستبعدا لأغراض يسعى إليها.. مثل هذا الرجل لا بد أن تثمر ثقافته الإسلامية إيمانا بالإسلام ويقينا بمبادئه، ثم التزاما بمنهجه وصراطه.. والثقافة الإسلامية في هذه الحال هي المدخل الطبيعي إلى اعتناق هذا الدين عن طواعيةٍ وصدق.

ورجل أقبل يعكف على دراسة الثقافة الإسلامية بشتى جوانبها، وأقسامها، وخصائصها. ولكنه مندفع إلى ذلك ابتغاء غرض نفسي يسعى إليه، أو خاضع لأسبقيات فكرية ومذهبية فهو متعصب لها وجاحد بكل ما سواها، أينما وقف البرهان والدليل.

مثل هذا الرجل لا تزيده معارفه الثقافية إلا كما يزيد الماء المرارة في أصول الحنظل. وما أيسر عليه أن يستخدم سائر معارفه وخبراته لدعم الأغراض التي يتأبطها والأفكار التي يتعصب لها.

ولا عاصم من الانحدار في هذا المهوى السحيق سوى التمتع بحرية الفكر والنظر.. ولن ينال شرف الحرية من صفد عقله وكيانه بأغلال المطامع والأهواء، وعصَّب عينيه بعصائب التبعية الفكرية والعصبيات المذهبية.

حمانا الله من معاندة العقل، ومخادعة الفكر والعلم، وبصرنا بحقائق الأشياء كما هي في واقعها، لا كما نشتهي لها أن تكون. [2]

1- وهذه مشكلاتنا ، ص 147 .

2- وهذه مشكلاتنا ، ص 158، 159 .

أحكام الإسلام ليست مجرد تقاليد

إن من أبرز مظاهر الغزو الفكري بالشعارات الدخيلة، ما شاع من إطلاق شعار (التقاليد) على جملة القيم والمبادئ الإسلامية المتعلقة بالمجتمع والسلوك، وترويجها في كل مناسبة. فهذا الشعار وإن كان يطلق من قِبل كثيرٍ من الناس إطلاقا عفويا دون أن تنتبه إلى مضمونه الخاطئ، ولكنه في أصل ترويجه وإشاعته ليس خطيئة عفوية.

فالغرض الأول من ترويج هذه الكلمة: (التقاليد الإسلامية) هو أن يؤتى بمعظم النظم والأحكام الإسلامية فيسدل فوقها شعار: التقاليد. حتى إذا مر على ذلك زمن وألف الناس هذه التسمية وارتبطت في أذهانهم بمعظم أحكام الإسلام، ناسين أن هذه الأحكام ليست في حقيقتها إلا مبادئ قائمة على ما يقتضيه العقل والبحث السليم – أصبح من السهل على أعداء الإسلام أن يحاربوا أحكامه من النقطة التي تنفذ إليها حرابهم وسهامهم. وهي نقطة حرب التقاليد في عصرٍ يبحث فيه الناس عن الحرية. [1]

السلام عليكم

أرأيت إلى الماء العذب إذ يتدفق جاريا باستمرار، كيف يجعل المكان الذي يجري عليه نقيا من كل رجسٍ أو مستقذر، فكذلك السلام عندما يشيع على ألسنة المسلمين بصيغته الإسلامية العذبة، في أسواقهم وحوانيتهم ومجتمعاتهم، فإنه لا يبقي من درن ف أفئدتهم ولا يترك فرصة لبغضاء تتسلل إلى نفوسهم.

ولعل المسلمين قد نسوا هذه الأهمية البالغة لهذا الشعار الإسلامي العظيم مما ألفوه واعتادوا عليه. فأصبحوا يتساهلون فيه من أجل ذلك. ولكنهم لو تأملوا في كلمة (السلام عليكم) يخاطب بها المسلم أخاه أيا كان يعرفه أو لا يعرفه، حيثما رآه: في طريق أو شارع عام أو حانوت تجارة أو ملتقى سمر أو مسجدٍ من مساجد الله، ثم في ردها الذي يأتي من بعدها: (وعليكم السلام ورحمة الله) – أقول لو تأمل المسلمون هذا، لرأوا فيه أروع وأعجب مزية يمتاز بها المسلمون عن أمم الأرض جميعا. ومن شأن هذه المزية إذا روعِيتْ حق رعايتها وأعطاها

1- من أسرار المنهج الرباني ، ص 30 ، 31 .

المسلمون كامل حقها، أن تشيع بينهم حقيقة السلام الذي هو شعارهم، فلا يعيش فيما بينهم حقد ولا بغضاء ولا يقيم بينهم كيد ولا عدوان.[1]

سبيل المعرفة الكلية الشاملة

إن ما يتصف به الناس اليوم مما يسمى معرفة هو على الأغلب إدراكات جزئية لصور متقطعة من جوانب لزوايا البنيان الشامل لهذا الوجود الكوني الكلي المتشابك، تتوازعها أدمغة من يسمون اليوم بالعلماء.

ومثل هذه الإدراكات الجزئية المتقطعة، على فرض أنها جاءت مطابقة للحقيقة ، إنما يسمى معرفة جزئية بل هي في الحقيقة معرفة تقليدية، اصطلح الناس فيما بينهم أن يسموها كذلك، إلا أنها لا تحقق في الواقع لصاحبها أي فائدة كلية.

إن هذه المعارف الجزئية، مهما تكاثرت وتجمعت في الذهن، فإنها (إن لم تنهض على أرض من المعرفة الكلية الشاملة لنثار هذه الجزئيات) ستبقى معارف ميتة، ولن يطمئن الذهن إلى حقيقة ثابتة لشيءٍ منها، بل تظل صورا مهتزة مشوشة ومن ثم فلا يمكن لهذه المعارف أن تبعث في النفس أي طمأنينة مما من شأن المعارف الصحيحة أن تبعثه في النفس.

بل الثابت يقيناِ أن هذه المعارف الجزئية المتقطعة، كلما تلاحقت في الذهن، دون أن يضمها وعاء من المعرفة الشاملة لبنيان هذا الوجود الكلي، ازداد بها صاحبها رهقا، وتكاثرت من جرائها في نفسه التصورات والشكوك، وازداد شعوره بمشوشات الجهل وبالحاجة الماسة إلى المعرفة.

وسبب ذلك أن هذه المعلومات الجزئية المتقطعة من هذا البنيان الكوني المتماسك، أشبه ما يكون بفصول متعددة كثيرة من كتاب كبير ذي موضوع علمي واحد، فماذا عسى يفيد من وقع على أحد فصوله تلك، ثم عكف على دراسته في تأمل ودقة؟ بل ماذا عسى أن يفقه منه من درس فصوله كلها، ولكن على غير ترتيب وتناسق ودون تصور أي رابطة بين الواحد منها والآخر؟. من الثابت يقينا أن هذا الإنسان لن يعود من دراسته تلك مهما جاءت دقيقة معمقة إلا بمفاهيم مهمشة ومعارف مبتورة، وهي في حقيقتها، ليست إلا لونا من أسوأ ألوان الجهل المركب، وإن تبدت في الظاهر أنها معلومات جزئية صحيحة.

1- من أسرار المنهج الرباني ، ص 53 + 54 .

فكذلك هذا الكون، إنه كتاب علمي واحد، ذو فصول مترابطة ومتناسقة شتى، وإن بدت لك لدى النظرة العجلى أنها مستقلة متباعدة عن بعضها.

وهذا هو السر في أن جل العلماء والفلاسفة الذين ملأت أسماؤهم وشهرتهم الدنيا، عادوا في أيامهم الأخيرة يشكون الجهل، وينشدون المعرفة، ويتبرمون بالحيرة، ويعانون من الاضطراب.

فالمعرفة التي لا بد منها، هي تلك المعرفة الكلية الشاملة التي تحيط ببنيان هذا الوجود كله، والمتمثل في كل من الإنسان والكون والحياة، ووجه العلاقة السارية فيما بينها..

وليس المهم في هذه العلاقة أن تكون عميقة ودقيقة، ولا سيما في بادئ أمرها، ولكن المهم جدا أن تكون صحيحة وشاملة.

فإذا غرست بعد ذلك المعارف الجزئية المتمثلة في العلوم المختلفة، فوق هذه القاعدة من المعرفة الكلية الشاملة، فإنها تغدو بذلك معارف حية ذات أهمية كبرى في ثمراتها ومدلولاتها، إذ لا ريب أن من شأنها أن تلقي ضياء ساطعا على جوانب شتى من الهيكل الكوني كله.

ولكن ما السبيل إلى هذه المعرفة الكلية الشاملة؟.

وأين يمكن العثور على تلك اللوحة أو الخارطة التي تصور لنا المنظور الشامل لبنيان الهيكل الكوني كله، وتكشف لنا نوع العلاقة السارية بين جوانبه وأركانه الكبرى؟.

من الثابت يقينا أننا لن نعثر على هذه الخارطة إلا في القرآن، بل هي المهمة الأساسية الكبرى التي تنزل القرآن من أجلها، والتي يتوقف على تحقيقها تعرف الإنسان على ذاته وإمكان نهوضه بالمسؤولية التي كلِف بها وخلق من أجلها.

وبوسعنا جميعا أن نعلم بأن القرآن لو لم يكن كلام صانع هذا الكون ذاته، لما أمكن أن يحوي بين دفّتيه الصورة الكلية الشاملة لوحدة هذه المصنوعات المترابطة المتناسقة.

فمن عكف على دراسة القرآن، بتدبر وتجرد وإمعان، وجد أن هذا الكتاب يبدأ فيعرف الإنسان على ذاته وخصائصه ومهامه في الدنيا التي خلق فيها، ثم يعرفه على حياته التي يتمتع بها وعلى ما فيها من جوانب التفاهة والأهمية معا، وعلى مبدئها ومنتهاها، وعلاقتها بما وراءها، ثم يعرفه على المظاهر الكونية التي تموج من حوله وعلى صلة ما بينه وبينها بشكل شمولي وإجمالي.

وهو ينبهه من خلال ذلك إلى ما في تلك المظاهر من السنن الراسخة التي لا تخضع لأي تطوير أو تغيير، وما فيها من المظاهر المتطورة المسخرة لطاقة الإنسان وفكره..

وتلك هي العناصر والأركان الكلية الكبرى لبنيان هذا الوجود: الإنسان، الحياة، الكون (أي سائر المكونات الأخرى)، وإذن فتلك هي ينابيع المعرفة كلها.

وهكذا يتمثل الهيكل الكوني أمام بصيرة الإنسان، من خلال تدبره لهذا الكتاب الرباني العجيب، كما تتمثل شجرة باسقة عظيمة أمامك، عندما تنظر إليها على أرض مستوية، ليس بينك وبينها أي حجاب أو سحاب، فهي جلية أمام العين في هيكلها وفي ضخامة جذعها واتساع فروعها، وفيما تحمله من ثمر بين أوراقها.

وهنا يحين الوقت لهذا الإنسان، أن ينهض إذا شاء، فيخوض في يم هذا الوجود الكوني ويتعمق في فهم الجوانب والأجزاء التي يجب أن يتعمق في فهمها وأن يتخصص بدراستها، فإنه لن يضيع عندئذ في المتاهات، ولن تخدعه ألوان الطيف المتكسرة التي كانت تنبعث من جراء انحصار النظر في زوايا ضيقة ومقطعة بعضها عن بعض، بل سيكون له من الاعتماد تلك الخارطة الشاملة التي انطبعت في بصيرته، ما يرده عن كل ضلالة ويبعده عن كل خدعة.

ولسوف يكون له من ذلك ما ينبهه إلى الرابطة القائمة بين الأجزاء التي قد تبدو متنافرة أو مستقلة بعضها عن بعض.

وهذا هو المقصود بالعلم الذي يظل القرآن ينوه بأهميته وشرفه في كثيرٍ من الآيات، وعن الذين اصطبغوا بهذه البصيرة العلمية دون غيرهم يقول:﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر:28]. (1)

فلنحيي علاقتنا مع الإسلام

إن الخطب الجسيم يتمثل في أن إذعاننا للإسلام، قد تحول منذ سنوات طويلة إلى شعارات تقليدية ذابلة لعوامل كثيرة، فنشأ عن ذلك فراغ خطير داخل غرفة العمليات الفكرية الموجهة في كيان هذه الأمة، وتهيأت الفرصة لتسلل التصورات الجانحة المتصارعة حولنا، إلى ساحة

1- حوار حول مشكلات حضارية ، ص 67 . 81 ، باختصار بعض الفقرات التي لا تخدم الموضوع

ذاك الفراغ الفكري.. فكان لا بد أن ينعكس من ذلك تمزّق بل تفتت خطير انتاب جسم هذه الأمة، فتناثر أشلاء مترامية تتخاصم وتتهارج على غير هدى.

من أجل هذا نقول: لا بد لنا من بثٍ الحياة الحقيقية في علاقاتنا التقليدية بالإسلام بحيث نوليه كل يقيننا العلمي وإذعاننا السلوكي، حتى يعود فيهيمن على الساحة الفكرية في كياننا، ويمسك بزمام القيادة في حياتنا.

ولست أعلم شيئا يتخوف منه الغربيون في نطاق العالم العربي والإسلامي، أكثر من ذلك الاحتمال الذي يظل يراود أذهانهم، ألا وهو أن تتحول العلاقة التقليدية للمسلمين بإسلامهم يوما إلى يقين حيوي يهيمن على الفكر والوجدان، فيستعيدوا بذلك ذاتيتهم.[1]

لا حرية للإنسان دون عبوديته لله

إن الإسلام يواجه الإنسان بواقع عبوديته الحتمية لله عز وجل، ليفتح أمامه آفاق التحرر من آصار العبودية للآخرين من جهة، وليصدّه عن استعباد المستضعفين من حوله من جهة أخرى.. وإذا تأملنا جيدا، أدركنا أنه لا ثمن لهذا التحرر إلا الإذعان الصحيح لتلك العبودية، وقد أبرز القرآن هذا التلازم ببيانٍ واضح صريح، وذلك في قوله عز وجل:﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾[آل عمران:64].

ومن آثار هذا التلازم أن تنطوي وتزول مشكلة النقاش والجدل الدائبين حول تحديد الضرورات التي يتصارع الناس في تحديد معناها ليقيدوا بعضهم بعضا بها، وذلك نظرا لتساويهم جميعا في الفكر والمستوى الإنساني، واقتناعهم جميعا بأن ما يخطّه لهم سيدهم ومالكهم من المناهج والضوابط التي تحدد لهم الضرورات المختلفة في شأنها هو المذهب السديد الذي لا مناص من اتباعه والحق الذي لا مرية فيه.[2]

1 - حوار حول مشكلات حضارية ، ص 122 / 123 .
2 - حوار حول مشكلات حضارية ، ص 164 / 165 .

لا تتعامل مع الشريعة وفق رغباتك

كم قرأنا وأصغينا لأناسٍ يقدسون الشريعة الإسلامية كل التقديس، وينشدون اليوم الذي تطبق فيه أحكامها، فلما قيل لهم عن الربا وحرمته، أجابوا بأنه حكم اجتهادي منوط بظرف تبدل وتطور، وأن الفوائد التي تتقاضاها المصارف اليوم لا تعدو أن تكون أجورا ذات أسباب وجيهة مشروعة!.. وإذا حدثتهم عن عقوبة الزاني أو القاتل أو المرتد، أو ذكرت لهم أحكام الذمة، أو فصلت لهم شيئا من أحكام المرأة فيما يتعلق بلباسها وآدابها، هوَّنوا من الأمر وتحرروا من قيود هذه الأحكام كلها، بحجة أنها آراء اجتهادية!.. وإن أحدنا ليسأل بحق وجد: فماذا تعني الشريعة الإسلامية المقدسة الخالدة إذا؟ وما هي مضموناتها التي يتجلى فيها معنى خضوعنا لسلطانها وتمسكنا بأحكامها، إذا استثنينا بدهياتها المعروفة كأصل وجوب الصلاة والصوم والحج والزكاة..؟.

وواضح أننا لا نجد على هذا السؤال أي جواب!.. [1]

وأخيرا . . صحوة إسلامية

إن الضياع الطويل لهذه الأمة عن ذاتيتها وهويتها الإنسانية والحضارية، هو المعني قطعا بالسبات الطويل الذي ران على مشاعرها، ومن ثم فإن الانتباه الذي أخذ يسري في فئات وقطاعات كثيرة شتى من الناس، إلى هذه الهوية التي طال ذهولها عنها ونسيانها لها، هو المعنى بالصحوة أو اليقظة الإسلامية التي ينتشر الحديث عنها هنا وهناك.

وكما أن السبات الطويل، قد ترك مظاهر التخلف والفساد تتراكم وتترسخ مع الزمن، فإن هذه اليقظة الحديثة السارية بين شتى فئات هذه الأمة، ستكون الأداة الفعالة الأولى لكنس كل هذه المظاهر وامتلاخها من الجذور.. هذا إن كتب لهذه اليقظة أن تتكامل بشكلٍ سوي، ولم يتألب عليها ومن حولها من يوسعها خبالا ويدفعها إلى التطوح في تلافيف الرقاد من جديد. [2]

1- حوار حول مشكلات حضارية ، ص 210 .
2- حوار حول مشكلات حضارية ، ص 251 .

إياكَ أن تعاودَ النوم

إن اليقظة الإسلامية التي برزت في السنوات الأخيرة، لم تكن في واقعها أكثر مما تدل عليه كلمة (اليقظة) فعلا. فهي كحال إنسان استغرق في رقادٍ ثقيل وطويل ثم إن يقظته أدركته، ففتح عينيه ونظر فيما حوله.. وراح يتمطى ويتقلب في سريره يمنة ويسرة. فهو إما أن يسعفه الحظ ويدركه من الحيوية والنشاط ما يجعله يقوم فيفارق سريره، ويبدأ فيؤدي وظائفه وأعماله التي تنتظره، وإما أن تعود وطأة النعاس فتثّاقل في عينيه وجسمه، وما هو إلا أن يعود فيستسلم لرقاده الثقيل من جديد. [1]

كافح الجهل أولا . .

إن الجهل بالإسلام هو الفرصة الوحيدة لانتقاصه والهجوم عليه، وهو المناخ الوحيد الذي تستنبه فيه الأكاذيب والتقولات الباطلة على الإسلام.. فهذه الأكاذيب التي تتنامى في هذا المناخ وتلتصق بالإسلام خلال غيبوبة المسلمين أو أكثرهم عن إسلامهم بحاجز الجهل بحقيقته، هي التي تخلق عوامل الاشمئزاز منه والعداوة له.

وهذا ما يفسر كثرة الكتب الفكرية التي تؤلف اليوم وتنشر عن الإسلام، محشوة بالأكاذيب والافتراءات عليه، ومليئة بالعبث بنصوصه، والدجل في عرض مضامينه وأحكامه.. إن الذي يغري هؤلاء الكاتبين المحترفين بهذا التدجيل، إنما هو جهل أكثر المسلمين بحقيقة إسلامهم، وفقدهم للموازين العلمية التي يفترض أن يمسكوا بها ويحتكموا إليها للتمييز بين ما هو حق وباطل!..

وإنه لإمعان في خطأ كبير، أن ندعى دائما إلى كتابة الردود على كل متقول على الإسلام عابثٍ بحقائقه ونصوصه.. إن ملاحقة هؤلاء العابثين – وما أكثرهم – بالردود والتعقيبات لا تفيد شيئا، ما دام أكثر المسلمين لا يعرفون من حقيقة إسلامهم إلا مجرد انتمائهم إليه، وأنه التراث الذي وصل إليهم من الآباء والأجداد.. لسوف ينتشر فيما بينهم هذا الدجل المصنوع، ولسوف يتسرب إلى عقولهم الفارغة عن حقائق الإسلام. ولا بد أن يبعث فيها نوعا من الاضطراب والضياع الفكري، مهما تلاحقت وتكاثرت الردود العلمية التي تتعقب الدجل وتكشف

1- الإسلام والغرب ، ص 96 .

عن حقيقته وأهله.. ذلك لأن تعقب الجراثيم والحشرات التي تتصاعد أو تنبعث من أحد المستنقعات، بالتقتيل واحدة إثر أخرى، لا يمكن أن يفيد شيئا، ولا أن يخفف من أضرارها، ما دام المستنقع موجودا على حاله. ولكن جفف المستنقع وطهر الأوبئة والمكان، ثم انظر كيف يخلو الجو المحيط به من سائر الأوبئة والجراثيم. [1]

ضياع الذات . . أصل بلاءاتنا

ما هو ذلك الجذع المستصلب الغليظ الذي تتوالد منه فروع محننا كلها؟

إنه، وبكلمة بسيطة وموجزة: ضياع الذات.

نعم، ضياع الذات هو الجذع المستصلب الخطير الذي انتشرت منه في كل الجهات فروع وأغصان من المحن المتنوعة التي لا حصر لها.

وإنما أشدد على هذه الكلمة، وأؤكد أنها – على الرغم من بساطتها وسهولة ما تدل عليه– هي ينبوع مصائبنا كلها، لأنني أعلم أن كثيرا ممن حبسوا عقولهم وسط رقعة من شطرنج السياسة، أو عودوا أفكارهم وأعصابهم على الدوران النظامي الرتيب ضمن الدوائر المغلقة، لا يقيمون لهذه الكلمة ولا لمدلولها أي وزن.

إنهم لا يزالون يتوهمون – حتى بعد أنهكتهم التحركات السياسية ودوختهم المناورات التي تظل تراوح في مكانها – أن جذور هذه المحن كلها إنما تتمثل في إرادة الدول العظمى والتحركات السياسية الكبرى، أو في الجمود عند الأفكار العتيقة!.. [2]

العلم من أول حقائق التكليف .

يقول الإسلام من خلال مصدره الأساسي الأول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:36].

إن الواجب الذي يخاطب الله به الناس في هذه الآية، هو أن يسلكوا إلى معرفة الحقيقة، أيا كانت، منهجا علميا لا تشوبه شائبة مصلحة أو هوى، ثم أن يقفوا وقفة يقين وإذعان عند النهاية التي يقودهم إليها هذا المنهج. وهذا الإذعان هو الإيمان.

1- الإسلام والغرب ، ص 99/ 100 .
2- الدين والفلسفة ، ص 9 ، 10 .

ولا شك أن الإيمان الذي يتبناه العاقل تقليدا لأسرته أو بيئته، أي قفزا فوق منهج المحاكمة العقلية والتبصر بالأدلة العلمية، إيمان مرفوض في موازين الإسلام وحكمه.

إن صاحب هذا الشكل من الإيمان – وإن عومِل في الدنيا على أنه مؤمن حسب ظاهر حاله – غير مؤمن يوم القيامة، بقرار رب العالمين الذي ينظر إلى سرائر عباده قبل أن يقوِّم ظواهرهم.

والتكليف الإلهي الذي توجه إلى الإنسان، إنما يتعلق بالبحث العلمي المعتمد على حركة الفكر والذهن، لا بالنتيجة الانفعالية المتمثلة في اليقين الإيماني. ذلك لأن البحث العلمي هو الذي يدخل في طوق الإنسان واختياره، أما النتائج المتمثلة في الإيمان وعدمه فانفعالات قسرية لا اختيار لأحد من الناس فيها.[1]

لن تتعلم بشكل صحيح دون (الكاتلوك)

نحن نسأل: هل يمكن لمنهج المعرفة، أيا كان الموضوع المطلوب معرفته، أن يتكون من التأمل الفكري الصافي، دون استعانةٍ بأي مضمون خبري مما يسمى بالنص؟

إنه ليكاد يكون من المعلوم بالضرورة أن المعارف الغيبية العامة لا يمكن أن تكون وتترسخ إلا من سدى التأمل الفكري ولحمة الخبر العلمي، أي الخبر الذي ثبت صدقه وصدق مصدره بالميزان العلمي.. ولعله لم يخلق بعد عقل من ذلك النوع الذي يدرك حقائق الكون والحياة، دون أي استعانة بما يقوله صانع هذا الكون، سبحانه، مخبرا ومعلما لنا أنباء تقديره وصنعه!..

إن أي معرفة سليمة عن حقيقة الجهاز الصغير الذي يقع في يدك، وعن طرق استعماله وكيفية صيانته، متوقفة إلى جانب ((الكاتالوك)) الذي يحوي مضمونات خبرية صادرة عن المصنع الذي أنتج ذلك الجهاز، والذي يحوي بيانا بكيفية صنعه، وأصول استعماله والطريقة المفضلة لصيانته.

وإن أي عاقل يضع منهج المعرفة من حياته اليومية موضع التطبيق، لا يكاد يخرج من داره صباحا قبل أن يصغي إلى نص النشرة الجوية إذ يختبر ذوو الدراية بالأنواء والأرصاد، مستسلما لمضمونها متفاعلا مع مستلزماتها من إعداد العدة للحر أو البرد، طبقا لما قد أخبر به النص الذي أصغى إليه.

1- الدين والفلسفة ، ص 31 + 32 .

وإن أي عاقل من هؤلاء العقلاء لا يمكن أن يعرض عن نص خبري أذاعته الدولة حول عقوبة أقرتها على ارتكاب جريمة ما، اعتزازا منه بالمنهج العقلاني الصافي عن شوائب النصوص، ثم يتكل على بصيرته (العقلانية) تلك، ويرتكب تلك الجريمة آمنا مطمئنا، لأن النصوص (اللاعقلانية) لا تقاوم المنهج العلمي!..

أليست هذه الأمثلة المتعلقة بأحداثنا اليومية التي نتقلب فيها، أجزاء داخلة، بل سارية، في صميم هذا البنيان الكوني كله؟

إذن فكيف يتصور ذو فكر سليم، بأن الخوض في مجاهل هذا الكون لمعرفة دقائقه – مبدأه ومنتهاه، وصانعه وما ينتظره الإنسان بعد موته – إنما يكون بتسليط حوافز الفكر صافيا عن الاستعانة بأي نص إعلامي أو توجيهي، يلقي الضوء على هذه المجاهل الخطيرة ويكشف لنا شيئا عن خفاياه وأنبائه؟. [1]

شرط لتصحيح الفلسفة

على الفلسفة، قبل كل شيء، أن تلمَّ شعث أفكارها وأن تجمع أشتات رعاياها وعائلتها من أوديتهم السحيقة المتخاصمة المتقاطعة. فإن هي فرغت من ذلك، وأفلحت في إخضاع أهلها للحقيقة العلمية الراسخة طبق منهجها المنطقي الدقيق، آن لها عندئذٍ أن تلتفت إلى الدين، أي إلى الإسلام، لتتولى القيام بتوجيهه وإرشاده، ولتهديه إلى سواء الصراط المستقيم.

إننا ما عرفنا الفلسفة، إلى هذا اليوم، إلا معاناة فكرية مخفقة على طريق البحث عن كنه الوجود وأسراره.

ويقيننا أن هذه المعاناة ستظل مخفقة، وستظل تورث أهلها شيئا واحدا، هو الحيرة والاضطراب والضياع، ما دامت تحاول استخراج تلك الأسرار الكونية بأداة واحدة، هي هذا الفكر الذي يتمتع به الإنسان، على ما فيه من ضعفٍ في الذات ومحدودية في الساحة التي يملك أن يتحرك فيها.

فإذا هديت الفلسفة – بهداية أهلها طبعا – إلى أن أسرار الوجود لا يمكن أن تستجلى على حقيقتها إلا بتعاون صريح المعقول العلمي مع صحيح المنقول الخبري، فإنها تستطيع عندئذٍ أن تنتهي من سعيها ومعاناتها إلى غاية مفيدة، وأن تصل إلى الكثير المسعد من حقائق الوجود وأسراره.

1- الدين والفلسفة ، ص 38 . 40 .

وليس صحيح المنقول، هنا، إلا ما ورد من صانع الكون ذاته، سبحانه وتعالى، طبق منهج علمي معروف ومدروس. علم ذلك من علم وجهله من جهل وستكشف الغواشي كلها عما قريب.

وإلا، فما أطول ضلالة من يتيه داخل نفق مظلم، مستغنيا عن النور المتكافئ الذي لا بدٍّ أن يدعم نور عينيه، مكتفيا بتحديق عينيه في الظلمات المحيطة به، مدعيا أنه يملك من حدة البصر ما يغنيه عن ضياء الشمس المشرقة أو المصباح المنير!..[1]

فلنطفْ حول الحقيقة دوما

لتكن كعبتنا التي نسعى جميعا إليها، ونطوف جميعا من حولها، هي الحقيقة.

إن الحقيقة هي الصديق الدائم للإنسان، يجدها أمامه في سائر تقلباته ومختلف أحواله، تنجده حيث لا منجد، وتسعفه حيث لا مسعف.

إذا طوي الشباب بهيجانه وشهواته وأهوائه، وأقلب إليك من بعده الهرم والشيخوخة ثم الزوال... لم تنفعك إذ ذاك إلا صداقتك مع الحقيقة، فبمقدار ما قد كنت أمينا معها في رحلة هذه الحياة، ستكون خير خادم أمين لك في رحلة قادمة عبر المفاوز الأخرى..

ولسوف تذكر يوما ما أقوله لك ... [2]

هو طريقك . . لا محيد لكَ عنه

إن الإنسان يتدرج – منذ أن عرفته الحياة – من مرحلة الطفولة الصغرى إلى الصبوة اليافعة، إلى الشباب القوي الناضج، إلى الكهولة المدبرة، ثم إلى الشيخوخة الفانية، حيث يتلقاه الموت الذي لا مفر منه ولا محيد عنه. ومع أن دأب الإنسان خلال هذه المراحل كلها إنما هو النزوع إلى البقاء والقوة، والفرار من الضعف والموت، بما يستعين به من عطاءات الكون، أو بما يفر إليه من وقاية تعاويذه، أو بما يعكف عليه من العلم ووسائل الدراية والإبداع – فإنه لم يستطع يوما ما أن يفرَّ من قانون هذا التنقل الدائري المحكم: ضعف، فقوة، فضعف، فموت!.. [3]

1- الدين والفلسفة، ص 102/ 103 .
2- من هو سيد القدر في حياة الإنسان؟ ، ص 14/ 15 .
3- من هو سيد القدر في حياة الإنسان؟ ، ص 20 .

قدّسِ العلم بشكل صحيح

ما هي قيمة العلم إن لم تتفاعل سلوكيا مع مقتضياته؟

بل ما الذي قدسته من العلم إن أنت وصلتِ في طريقه إلى حقيقة الإيمان بالله عز وجل، تقابلك وجها لوجه، فأعرضتِ عنها وتجاهلتِ مقتضياتها، ثم قفزت من فوقها، ومضيتِ تزعم أنك لا تستبدل بالبحث العلمي شيئا؟ ومتى كانت غاية البحث العلمي هي ممارسة حبٍّ عذري مع كلمات العلم ومصطلحاته.

وإذا فلا بد، ونحن نقدس المنطق العلمي، أن نتفاعل تفاعلا إيجابيا سليما مع سائر النهايات التي يوصلنا إليها هذا المنطق العلمي. [1]

تعامل مع اللون الأبيض فقط

إن الذي يتعامل مع اللون الأبيض الناصع، لا يمكن أن تسرّب أي يد أجنبية أو تدس في بضاعته اللون الأغبر أو القاتم.

وإن مسؤولية الذي يفتح الذريعة إلى الشر، هي ذاتها مسؤولية الذي يرتكب الشر أو يمارسه، في ميزان شرع الله. [2]

فلنتبع ميزان السلف الصالح

إن اقتداءنا بالسلف لا يجوز أن يكون بواقعهم الذي عاشوه من حيث إنهم أشخاص من البشر يجوز عليهم كل أنواع الخطأ والسهو والنسيان. فإنهم من هذا الجانب، بشر مثلنا، لا يمتازون عن سائر المسلمين بشيء. أما الفضل الذي أحرزوه بموجب الشهادة التي شهد لهم بها رسول الله ﷺ، فليس نابعا عن ذواتهم ولا عن بشرية معينة خاصة بهم. وإنما منبعه صفاء سريرتهم وقربهم من مصادر الشريعة وينابيعها، وهي المزية التي يسَّرت لهم سبيل التخلص من هذه المشكلة التي حاقت بهم، إذ سرعان ما عكفوا على استخراج قوانين وقواعد تكون بمثابة

1- من هو سيد القدر في حياة الإنسان؟ ، ص 66 .
2- الجهاد في الإسلام ، ص 188 .

موازين يخضع لها الباحثون والعلماء جميعا، في مجال استخراج الدلالات من النصوص، والوقاية من الانزلاق في الأوهام والمتاهات. وليست قيمة هذه القوانين آتية من جهة أن الذين اكتشفوها وأخذوا بها هم السلف، ولكن قيمتها في كونها محل اتفاق عند العرب أولي السليقة العربية الصافية، بالنسبة لما يدخل منها في قسم الدلالات خصوصا وقواعد تفسير النصوص عموما، وفي كونها تمثل أصول المعرفة وأولياتها الضرورية، بالنسبة لما قد يدخل منها في منهج المعرفة عموما وأصول العقيدة الإسلامية خصوصا.

ولما كان الإسلام في مجموعه قائما على النقل الثابت عن طريق نصوصٍ صيغت باللغة العربية، وعلى العقل الثابت عن طريق منهج المعرفة وأصولها الضرورية – فقد كانت تلك القوانين هي الميزان المحكِّم في تفسير ما تضمنته تلك النصوص، وهي المرجع في ضبط صحيح المعقول وحجزه عن الشبهات والأوهام الباطلة.

ونظرا إلى أن المسلمين الصادقين من سلف هذه الأمة، قد ضبطوا أفكارهم واجتهاداتهم، فيما بعد، بهذا الميزان. فقد غدا اتِباع هذا الميزان، إلى يوم القيامة، هو مقياس اتباع الكتاب والسنة، وهو العنوان على مدى الاعتصام بحبل الله عز وجل. ويَسري سلطان هذا الميزان والمقياس المنبثق عنه على أجيال المسلمين وطبقاتهم عموما دون أي فرقٍ بين سلفٍ وخلفٍ وصحابيّ وتابعيّ، وعربي وأعجمي.

فمن ضبط سلوكه وفكره بمقتضى هذا الميزان، فهو واحد من المسلمين الملتزمين بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، والمعتصمين بحبل الله عز وجل، ولا يبقى، في هذه الحال، أي معنى لانتسابه، ضمن هذا الانتماء الإسلامي العام، إلى عصر من عصور الإسلام بعينه، كسلفٍ أو خلف. بل هو ابتداع باطل لا معنى ولا موجب له. ومن لم يضبط سلوكه أو فكره بمقتضى هذا الميزان، فلا بدّ أن يخدش ذلك في حقيقة التزامه واعتصامه بدين الله عز وجل. ويتفاوت هذا الخدش خطورة، حسب مدى تحلله وإعراضه عن الالتزام بمقتضى هذا الميزان، وحسب ما قد يجرّ ذلك عليه من آثار التكفير أو التفسيق أو نحو ذلك. ولا يبقى في هذه الحال أي معنى لتجريده من شرف الانتساب إلى السلفية، أو لِلصقه بالخِلفيَّة. إذ ليس بعد ميزان الانضباط بمبادئ الإسلام أو عدم الانضباط به أي ميزانٍ يمكن أن يكافئه أو يناحره أو يناكبه في طريق الازدواج.[1]

1- السلفية ، ص 55 ، 56 ، 57 .

تقعيد المنهج خير وسيلة لضمان تطبيقه

إن تحول المنهج الفطري من شعورٍ وتفاعلٍ خفي في الفكر والنفس إلى قواعد مدونة مضبوطة ماثلة للعيان، من شأنه أن يجمع شوارد الأفكار عليه، وأن يبعد عوامل التلبيس والكيد عن التسلل إلى ساحة المعرفة، ودائرة النظر والمحاكمة العقلية في الذهن؛ في حين أنه لو بقي شعورا غامضا في النفس وفطرة مستكنة في أغوار الفكر، لأمكن أن تتسلل إليه الشوائب، وأن تحاط بعوامل الغموض والريب، وأن يغشِّي عليها المبطلون بزخرف القول وزيف الأدلة الباطلة. [1]

الاختلاف سنة كونية

إن اتباع السلف هو الصبغة العامة لسائر المسلمين، وما معناه إلا الاستضاءة بسلوكهم وعلومهم في فهم هذا المنهج والتمرس على تطبيقه بشكل سليم. وكما صحَّ للسلف الصالح أن يختلفوا تحت مظلة ذلك المنهج المتَّبع، فلا ريب أنه يصح لمن جاء بعدهم متبعا لهم ومقتديا بهم أن يختلفوا تحت تلك المظلة ذاتها كما اختلفوا. وكما أن اختلاف السلف لم يمزِّق وحدتهم الإسلامية إلى شطرين: ملتزم وزائغ، فإن اختلاف من بعدهم أيضا لم يؤثر على وحدتهم الإسلامية، ولم يجعل منهم شطرين: سلفيا وبدعيا. [2]

عقل مفكر + حرية = قبول للحق

إذا توفر عقل مفكر، وتوفرت معه حرية في التأمل، فلا مفر إذن من قبول الحق والإيمان به مهما شق السبيل إلى ذلك. أما إذا فقدت حرية الفكر وضاعت قدسية العقل، ونبتت في مكانها قدسية الحقد الهوي، فلا مناص من العكوف على الباطل، ولا مفر من معانقة الجهل أو التجاهل، ولا نعمة تفوق نعمة العمى أو التعامي.وصدق رب العالمين إذ يبين لنا صفات هؤلاء:
﴿ وَقَالوا قلوبنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدعونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقر وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَاب فَاعمَلْ إِنَّنَا عَامِلونَ ﴾ [فصلت:5]. [3]

1- السلفية ، ص 61 .
2- السلفية ، ص 231 .
3- فقه السيرة النبوية ، ص 471 .

نعم . . كل نفسٍ ذائقة الموت

كل نفسٍ ذائقة الموت!..

إطلاق لا قيد فيه، وعموم لا مخصص له، وشمول ليس للدنيا كلها أن تجعل له حدا.

فليأتِ دعاة العلم الجديد، والرقي الحديث، ومتوثبو الغزو الفضائي فليجمعوا أمرهم وليضفروا جميع إمكاناتهم المختلفة وليحشدوا كل أقمارهم المصنوعة ومراكبهم المشروعة، فليستعينوا بذلك كله على أن يزيحوا عن أنفسهم شيئا من سلطان هذا الموت الذي قهرهم واستذلهم، وليبطلوا بذلك ولو جزءا من هذا التحدي الإلهي: كلّ نفسٍ ذائقة الموت.

فإن فعلوا ذلك فإن لهم حينئذٍ أن يشيدوا لأنفسهم صروحا عالية من الجبروت والطغيان والتأله والكفران..

وإلا فأحرى بهم أن يتفرغوا للتأمل في تلك القبور التي سيغيبون في أحشائها والتربة التي سيمتدون من تحتها، وفي القبضة التي سوف لن ينجوا من حكمها. [1]

شقاؤك نابع من ذاتك

ليس الشقاء الذي قد ينزل بأحد الناس نابعا من وقع المصيبة ذاتها مهما اختلفت وتنوعت، وإنما هو نابع من عدم اتساع النفس لها واستعلائها عليها. [2]

حقيقة الصبر

إن الصبر في حقيقته ليس أكثر من تعلق الأمل بخير متوقع.. فإذا لم يكن ثمة أمل، فلا صبر، بل لا معنى عندئذٍ للصبر. وليس معنى تحمل الضر عندئذٍ إلا الخضوع القسري لعذاب لا ثمرة له ولا مناص له. وجدير بمن كانت هذه حاله أن يختنق أو ينتحر.

إن الذي كتب عليه السير ضمن مغارةٍ ضيقةٍ مظلمة، وطال عليه السير فيها، دون أن يتوقع لها نهاية تنفذ به إلى متنفس سعيد يستنشق منه الهواء والضياء، لا يعتبر سيره أو بقاؤه فيها من الصبر في شيء، وإنما هو سير وئيد أو سريع إلى الانفجار أو الاختناق.

1- فقه السيرة النبوية ، ص 498 ، 499 .

2 - الإنسان وعدالة الله في الأرض ، ص 24 .

أما ذاك الذي يسير إلى جانبه وسط تلك الظلمة ذاتها وهو موقن أنها الطريق الطبيعي الوحيد إلى جنةٍ غناء وارفة الظلال، فإنه لا يحس من كل حوله إلا بالأمل الذي يراوده، ولا يرى من الظلام المطبق عليه إلا صورة الضياء الذي ينتظره.

وهذا هو الصبر الذي أمر الله عز وجل عباده به في كثيرٍ من آيات كتابه.

ليس صبرا لا نهاية له على عذاب دائم خانق، وإنما هو صبر في طريق لا بد منها، إلى الغاية التي لا شك في وجودها ولا مرية في انتهاء الإنسان إليها. وبمقدار ما أمر الخالق عباده بالصبر، أكد لهم حقيقة الأمل، وجزم لهم أن مضمونه حقيقة واقعة لا ريب فيها.

وعلى الذي يظل يشكو من ظلام السرداب الذي يسير فيه، أن يشكو من جحوده بالنهاية التي تنتظره وراء الظلام. [1]

سبب تخلفنا

إن العالم الإسلامي اليوم، إنما يعاني من وطأة تخلف هذا، بسبب الغشاوات والحجب الكثيفة التي أسدلت على بصيرته، فأقصته عن معرفة حقيقة الإنسان، والحياة التي يتمتع بها، والدنيا التي تطوف من حوله، وعن معرفة المهمة التي خلق الإنسان للنهوض بها في هذه الحياة. ثم إنه لم يرضِ مع ذلك أن يقف حيث هو ليعترف بجهله، بل مضى يستعير للتعرف على كلٍ من هذه العناصر الثلاثة ، عقول الغربيين وأبصارهم، فهو لا يحاول أن يفهمها إلا طبقا لما يفهمون، ولا يحاول أن يراها إلا بتلك العيون التي يرونها بها!.. [2]

قدّم الأصول والجذور أولا

إذا حصر المسلم نفسه من الإسلام في منثورات فروعه وأحكامه وتشريعاته، ثم راح ينبِّه الناس من الإسلام كله إلى هذه الفروع، وأخذ يبذل كل جهده في إقناعهم بمزايا هذه الأنظمة والتشريعات وأفضليَّتها على سواها، فإن دعوته هذه لن تثمر شيئا، لأنه يقدم لهم هذه الأنظمة والأحكام منفصلة عن منبتها وجذورها. فهو كمن يقدِم إليك غصنا أخضر يانعا، بعد أن اقتطعه من شجرته الراسخة الباسقة، هل تنتظر به إلا عاقبة الذبول والانمحاق. [3]

1الإنسان وعدالة الله في الأرض ، ص 43 . 45 .
2- منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، ص 146 .
3- التعرف على الذات ، ص 30 / 31 .

لا تنزعج من الأشواك على الطريق

إن إصغاء متكررا إلى من ينعت الإسلام بالتخلف والرجعية وعدم الاستجابة لمتطلبات العصر، قد يوجد في نفوسنا عوامل الاشمئزاز منه والضيق به. ولكن علينا أن نعلم أن فن التنفير الخطابي والدعاية الكلامية ما ينبغي أن يحل محل العقل المتدبر أو أن يشل فاعلية المنطق العلمي الحر.

إن هذه الأمة مدعوة اليوم إلى أن تحرر نفسها تحريرا تاما من كلا تياري المد والجزر، وأن تعكف (مستعينة بضياء العقل والمنطق الصافيين) على التأمل في الذات والهوية الإنسانية. حتى إذا اكتشفنا أو تأكدنا أننا عبيد مملوكون ملكا حقيقيا لله عز وجل، وأن مهمة كبرى قد حمَّلنا الله إياها في هذه الحياة الدنيا، وأنه سيسألنا عنها يوم القيامة، عدنا نتأمل في هذه المهمة وتفصيلها وكيفية النهوض بها، ثم مضينا في طريق العمل والتنفيذ متآلفين متعاونين، لا يشغلنا عن ذلك شيء، ولا يزعجنا عنه إغراء أو إغواء أو أي استثارة نفسية مهما كان شأنها. [1]

فارق هام بين الرجل والمرأة

إن بين الرجل والمرأة فارقا في طريق التسابق إلى حظوظ النفس تكون بمقتضاه هي الخاسرة فيه دائما... ذلك أن المرأة مهما تحللت عن قيود العفة والدين، فإنها لا تصل إلى قمَّة سعادتها إلا في ظلال بيت هانئ تصبح أما سعيدة فيه. والرجل، مهما كان شأنه، إنما تهفو نفسه إلى نعيم تصفو لذِّته عن شوائب الغرامة أو المسؤولية أو الجهد، ولا يفطم نفسه عن التعلق بذلك إلا وازع ديني يتحكم بمجامع قلبه. فإذا فقد الدين، فإن الرجل والمرأة يلتقيان من حياة التحرر على مائدةٍ تكون المرأة دائما هي الطرف الخاسر فيها. [2]

الشافعي نفسه في زماننا ليس إلا . . تابعا

افرض أن الشافعي نفسه لم يولد إلا في هذا العصر الذي تكاملت فيه قواعد تفسير النصوص، ماذا عسى أن تفيده درايته وعبقريته العلمية في نطاق الإبداع والاجتهاد المطلق؟..

1- التعرف على الذات ، ص 178 + 179 .
2- التعرف على الذات ، ص 204 + 205 .

وهل له، على جلالة قدره، إلا دور التابع والمؤيد لأحد الآراء السابقة، شاء ذلك أو أبى؟.. اللهم إلا أن يفتئت على المصادر الشرعية وعلى أمهات القواعد العربية، ويتحايل عليها،فسيكون بوسعه آنذاك أن يبدع في اجتهاداته، وأن يأتي بشيءٍ جديدا!.. ولكن معاذ الله أن يتجرأ مسلم صادق في إسلامه، فيفعل ذلك. [1]

اقتحام غوغائيّ مرفوض

علينا تقدير معنى الاختصاصات العلمية في حياتنا الثقافية العامة، بحيث ينتبه كثير ممن يطيب لهم أن يتكلموا أو يكتبوا كثيرا في شؤون الإسلام وقضاياه، إلى أن الأمر ليس من السهولة بهذا القدر. وأنه لا يجوز لمتخصص في أحد فروع القانون أو الحقوق، أتيح له أن يقرأ طائفة من الكتابات الإسلامية الحديثة أو القديمة، أن يقحم نفسه في معالجة مسائل وقضايا أساسية في بنيان الشريعة الإسلامية ونظامها.. وما أكثر من يفعل اليوم ذلك!. وإننا لننظر، فلا نرى ساحة علمية خاصة تقتحم بجرأة، وبأدنى زادٍ ثقافي ضحل، غير ساحة العلوم الإسلامية!..

فحتى لو لم يكن الإسلام دينا منزلا على هذه الخليقة من قبل الله عز وجل، تترتب أخطار جسيمة على التلاعب، والخلط فيه، فإن التقحم عليه بطرح أنواع الآراء وفرض وجهات النظر المختلفة، عمل غوغائي مشين، في مقياس الأصول العلمية المتبعة. فكيف وهو دين؟.. كيف وهو شرعة رب العالمين.. ذاك الإله الذي يرى ما تكنه السرائر وما تنطوي عليه القلوب.. ذلك الذي يحذر الناس من التلاعب بأحكامه قائلا:﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [النحل/116]. [2]

لماذا نشكو الداء وقد هجرنا الدواء

لقد أقامنا الله عز وجل إلى أجلٍ محدودٍ فوق هذه الأرض، وجهَّزنا بالدواء الناجع والتعليمات المفيدة لكل ما قد يصادفنا فيها من مرضٍ ومصيبة وبلاء، وأمرنا أن نستعمل هذا الدواء لمقاومة تلك المصائب، فعمدنا على الدواء فألقيناه وراءنا ظهريا وعمدنا على صحيفة

1- التعرف على الذات ، ص 228 .
2- التعرف على الذات ، ص 231 + 232 .

التعليمات فألقينا بها وراء حواجز القرون والتاريخ، فكان أمرا طبيعيا بعد ذلك أن نلتفت فنجد أمراضا تستفحل دون أن نجد علاجا لها، ومصائب تتكاثر دون أن نملكِ وسيلة للتغلب عليها. ففيم التأفف والضجر مما كنا نحن السبب في أمره، وفيم الصراخ والبحث عن عدالة السماء وقد تنزلت علينا عدالة السماء مجسدة في شكل دينٍ ونظامٍ وتشريعٍ فانسلخنا عن مضمونها واكتفينا منها بالاسم والعنوان والغلاف.[1]

انظر بعينك المجردة .. ترى الحقيقة

إن الإسلام كان، ولا يزال، دقيقا في موازينه، جليا في قواعده، ناصعا في نصوصه وأحكامه، فمن عمِي عليه شيء منه، فلأنه جعل من أهوائه ورغباته النفسية حجابا أسدله على تلك الموازين والنصوص والأحكام، فراح يخلط بين ما هو باطل يصدر من جموحات نفسه، وما هو حق يهبط من علياء ربه.

وقديما، نظر من الناس قوم إلى رسول الله ﷺ، بأعين إنسانيتهم المجردة، فلم يلبثوا أن رأوا فيه دلائل الصدق وسيما النبوة وإشراق الوحي الإلهي، فآمنوا به وأيدوه.. ونظر إليه آخرون من خلال ما بصرتهم به شهواتهم وأهواؤهم وكبرياؤهم، فلم يروا فيه أكثر من يتيم أبي طالب، ورضيع أبي كبشة، ومثال الفقر والمسكنة، فأعرضوا عنه وكفروا به.

فلئن لم يتق الله في أنفسهم أولئك الذين يجملون رغباتهم وأهواءهم بحلية الدين، فليتقوا الله في أناس وأمم شتى، كلما اشرأبَّت منهم الأعناق تطلعا إلى معرفة الإسلام في جوهره وحقيقته، وجدوه قد تبخر دعاوى متناقضة على ألسنة كثير من أهله والمتحدثين باسمه!..

يا أيها المسلمون: إن عجزتم أن تكونوا دعاة صالحين إلى الله ودينه، فاحرصوا على ألا تحجبوا الإسلام عن المتطلعين إلى معرفته، بواقع أنفسكم وسوء تصرفاتكم، على أقل تقدير.[2]

1- من الفكر والقلب ، ص 55 .
2- الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية ، ص 66 + 67 .

العلم يتبع المعلوم

لا يجوز في مقياس العلم، فضلا عن الدين، أن يسمى نجاح الإنسان في أي شيء خلقا أو إبداعا لمعدوم، أو إيجادا لسنة كانت غير موجودة. فإن الذي يستغل الظواهر الكونية – بالطريقة التي يشاء – لاستخراج نتائج معينة منها لا يوجد أي معدوم، ولا يبدع أي قانون، ولكنه يجمع شتات الظواهر والأسباب الموجودة إلى بعضها، فتظهر الثمرة التي كانت كامنة فيها. وليس للعلم في ذلك إلا دور التنبيه إلى تلك الظاهرات وما قد أودع فيها من فاعلية وتأثير، ثم التأليف بينها على نحو يتفق مع ما تقوم عليه من حكمة ونظام. وهكذا فالعلم لا يوجد مفقودا ولكنه يؤلف بين نثار الموجودات، على نحو تتحقق منه غايات معينة وهذا معنى قولهم: العلم يتبع المعلوم وليس العكس. [1]

حاجز دقيق بين الأنا والإسلام

على المسلم الذي ينهض بأعباء الدعوة الإسلامية، أن يكون شديد الرقابة على نفسه، فلا ينتصر لها من حيث يتوهم أنه ينتصر لدين الله. فإن بين هذين الطرفين حاجزا دقيقا لا يكاد يبين. ولكنه مع ذلك حاجز ذو أهمية بالغة، إن ضاعت معالمه على السالك، وقع من جراء ذلك في مغبة ضياع خطير، وذهبت جهوده كلها أدراج الرياح. [2]

مؤشر التطور ليس دائماً إلى فوق

ليس حتما أن يكون أي تطور في شيء من مجالات الفكر أو الحياة، صعودا نحو الأفضل. ذلك لأن عملية التطور وسيلة إلى غاية، وليست غاية بحد ذاتها. وربَّ غاية تكمن في أسفل منحدر، وأخرى تستقر في أعلى القمم. وخليق بالطريق إلى الغاية أن يتلون بلونها، وأن يأخذ لنفسه من قيمتها.

ولو لم يصح أن التطور إنما يتلون بلون نتائجه وغاياته، لما صح لنا القول بأن الحضارات تشيخ وتهرم، ثم تذبل وتموت.

1- الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية ، ص 128 .

2- الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية ، ص 232 + 233 .

هذا، عندما نفرض أن تكون بواعث التطوير تطلعا مخلصا نحو الأفضل والأكمل؛ إذ ربَّ خطأ يدخل في التخطيط أو الاجتهاد، فيرتد المجتهد أو الباحث، بسبب ذلك إلى الانحدار والنقصان. فكيف عندما ننظر، فنجد أن بواعث التطوير كثيرا ما تتمثل في نزوة من نزوات النفس، أو مصلحة شخصية لفرد أو لفئة قليلة من الناس، أو ضرر مما قد يدعو إليه حقد دفين، أو استجابة لرغبة الاندماج والتقليد، أو عبث يستنفد الطاقة والجهد. [1]

خطر كبير

ليس الجهل هو الخطر الأكبر في حياة الناس، كما قد يتوهم البعض. وإنما الخطر الأكبر أن يسقى فيهم نبات العلم والفكر بماء الشهوات والآفات النفسية المختلفة، فيتلون كل ذلك بلون هذه الآفات ويتشبع من وحيها، حيث يتحول السعي المقدس للبحث عن الحقيقة إلى أحط ما يعتبر قاسما مشتركا بين الإنسان وسائر الحيوانات الأخرى. [2]

لا تجعل نفسك مقبض الفأس

سقطت قطعة فأس ذات يوم بين أشجار بستان، فذعرت الأشجار لهذا العدو الداهم، وداخلها الرعب والهلع، ولكن شجرة عظيمة قد أتت عليها السنون، نادت فيهم قائلة: لا يهولنكم الأمر، فلو أن قطعة الحديد هذه ظلت ملقاة فيما بينكم مئة عام لم يكن لها أن تؤذي واحدة منكم، إلا أن يتبرع جذع منكم فيجعل من نفسه مقبضا لهذه الفأس. [3]

1- الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية ، ص 234 .
2- الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية ، ص 252 .
3- الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية ، ص 256 .



الشورى في ديننا

إن الإسلام يرفع شعارين اثنين ويدعو إلى تطبيق كلٍ منهما بدقة:

أحدهما شعار ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام:57] وثانيهما شعار ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران/159]. ولكن أي الشعارين يجب أن يتحرك تحت جناح الآخر؟

لا شك أن ثانيهما هو الذي يجب أن يتحرك تحت جناح الأول، فالشورى مبدأ إسلاميّ مقدس يجب الأخذ به، ولكن على أن يكون مجالها محصورا ضمن المساحة التي تركها الشارع لعباده. يتخيرون فيها ما يشاؤون ويشرعون لأنفسهم ما يحبون في نطاق من التشاور واحترام الآراء. فأما ما قد ألزمهم الله به من المبادئ الكلية أو الأحكام الجزئية، فلا مجال فيه لمشورة أو رأي. (1)

1- حرية الإنسان ، ص 93/ 94 .

هيكل الجهاد الإسلامي

تتفرع درجات الجهاد في سلّمٍ هرميّ الشكل، تبدأ أولى وأعرض درجاته بما يسميه القرآن: الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة في كل المجتمعات وفي سائر الظروف والأحوال. دون أي تهاون في بثٍ الكلمة والنصح، ولكن دون أي إرغامٍ أيضا لأحد.. وكل المسلمين والمسلمات يتحملون النهوض بمسؤوليات هذه الدرجة، كل جهدِ استطاعته؛ تليها وتتفرع عنها الدرجة التي هي أضيق منها والمتمثلة في مقاومة كل من أراد اغتيال الصدع بكلمة الحق، ومنع الدعوة الإسلامية أن تبلغ مداها من أسماع الناس وألبابهم. ولا شك أن هذه الدرجة تبرز وتتجلى في نطاق أضيق ولدى احتمالات محدودة.

تليها وتتفرع عنها الدرجة الثالثة التي هي أضيق من السالفتين، وهي تتمثل في مقاومة كل من يتربص بالنظام الإسلامي بعد ظهوره ورسوخه، أو بالمجتمع الإسلامي بعد قيامه، أو بأي شبرٍ من الوطن والأرض التي أمكن الله عباده المؤمنين منها وورّثهم إياها، فأقاموا عليها شرعة الإسلام وحكمه، أو سعوا إلى إقامة شرعته هذه عليها جهد استطاعتهم. ويدخل في هذه الدرجة الثالثة تحصين الحدود وحماية الثغور وإعداد العدة وتجهيز الجيوش.

فهذه صورة جامعة مصغرة لهيكل الجهاد الإسلامي متمثلا في درجاته المتفرع بعضها عن بعض. [1]

حماية الإسلام لحرية التعبير

بوسعك أن تتبين مدى حماية الإسلام لحق التعبير عن الرأي أيا كان نوعه، وأيا كان صاحبه، إذا تأملت في قوله تعالى: ﴿وَجَادِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[النحل: 125] فإن المجادلة لا تكون إلا في جوٍّ يصغي فيه كل من الطرفين إلى رأي الآخر، وإذا كانت المجادلة لبيان الحق وتمييزه عن الباطل واجبا كلف الله به المسلمين، فلا شكّ أن تهييئ مناخه، من الإصغاء إلى الرأي الآخر، مهما كان جانحا، واجب هو الآخر. إذ إن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وهذا الواجب لا يتم إلا بتمكين صاحب الرأي الجانح (في اعتقادنا نحن) من التعبير بكل أمان عن رأيه، إذ بذلك توجد المادة التي يدور حولها الجدل والحوار. [2]

1 - حرية الإنسان ، ص 107 + 108 .

2- حرية الإنسان ، ص 112 .

من المؤسف

كم هو مؤسف أن يجد المسلم نفسه مضطرا – وهو في بلدٍ إسلاميٍّ بين مسلمين يتباهون بالإسلام – إلى أن يخفي عنهم قصده في التبرك بالمكان الذي تشرف بولادة سيدنا رسول الله فيه![1]

من عوامل تصدر الأئمة

إن هناك شيئا آخر غير العبقرية العلمية لعب دورا كبيرا في رفع أولئك الأئمة الذين كانوا في الصدر الأول من تاريخ التشريع الإسلامي إلى مركز الصدارة في الميدان الاجتهادي، ألا وهو فراغ المجال الاجتهادي أمامهم، بحيث أنٍ أي إنجاز علمي يتجلى فيه، لا بد أن يتخذ شكله الإبداعي.

فالإمام الشافعي جاء ولم يكن قد سبقه أحد إلى استخراج قواعد أصول الاستنباط من النصوص وموازين الاستدلال على صحة الأحكام، فكان أمرا طبيعيا أن يتجه بعبقريته العلمية ودرايته الواسعة بالعلوم العربية، إلى استخراج تلك القواعد وتدوينها طبقا لما اجتهد ورأى..

فلما ظهر إلى جانبه أو على أثره علماء آخرون، كان طبيعيا منهم أن ينظروا بدورهم في تلك القواعد المستخرجة، فيروا فيها رأيهم، فيتفقوا معه في كثير منها ويخالفوه أو يخالفه بعضهم في بعضها، ثم ما زالت هذه القواعد موضوعة تحت مجهر البحث والتمحيص، حتى سدٍّت سائر احتمالات الرأي فيها بآراء اجتهادية محتملة؛ سجلت عليها أسماء أصحابها، فلم يبقِ لمن جاء بعدهم، بحكم الاحتمالات العقلية المحدودة، إلا دور الاختيار والترجيح ثم دور التطبيق والبناء عليها.

ولكن فلنفترض أن الشافعي نفسه لم يولد إلا في العصر الذي تكاملت فيه قواعد الاستنباط وأصول الدلالة، ماذا عسى أن تفيده درايته وعبقريته العلمية، في نطاق الإبداع والاجتهاد المطلق؟.. وهل كان له عندئذٍ على جلالة قدره، إلا دور التابع والمؤيد لرأي من الآراء السابقة، شاء ذلك أم أبى؟..

اللهم إلا أن نتصور أن بوسعه أن يفتئت على المصادر الشرعية وعلى أمهات القواعد العربية، أو يتحايل عليها، فسيكون بوسعه آنذاك أن يبدع ويأتي بجديد.. ولكن معاذ الله أن يتجرأ مسلم صادق في إسلامه على اقتحام هذا السبيل.

1- هذا والدي ، ص 86 .

ثم لنفرض مقابل ذلك أن واحدا من الأئمة المتبعين المتأخرين، كالغزالي والنووي والعز بن عبد السلام والشاطبي وأمثالهم، كتب له أن يعيش في غضون القرن الثاني أو الثالث، حيث الساحة الاجتهادية فارغة أمام بصره وذهنه، إذن لرأينا كيف يحدثنا التاريخ عن أعماله الاجتهادية وإبداعاته العلمية، ولبهرنا من منجزاته الاجتهادية ما لا يقل عن تلك المنجزات الأخرى التي قام بها علماء ذلك العصر فعلا.

إذن، فكل ما في الأمر أن أسبقية أولئك وتأخر هؤلاء جعل المتأخرين يظهرون، شاؤوا أم أبوا، في مظهر المقلدين والتابعين، حتى وإن كانوا في واقع الأمر مستقلين بالنظر والبحث.[1]

التورط السياسي

(من نقاط ضعف الجماعات الإسلامية)

معلوم لكل متبصر أن مزج الدعوة الإسلامية بالعمل السياسي المعروف اليوم، هو بحد ذاته تورط في متاهات لا مخلص منها.. وأقل ما يلتصق بأصحاب هذا العمل من السوء، أنه يبدد رصيد الثقة بهم في قلوب الناس، إذ لا بد أن يلتزموا دون طواعية أو اختيار منهم بالانحياز إلى فئات على حساب أخرى، وأن يغامروا بالنتائج مع من يحتكون بهم ويتعاونون معهم، كما يغامر المقامر مع زملائه على مائدة القمار.

تلك هي نقطة الضعف الكبرى التي يعاني منها أكثر الجماعات الإسلامية، بل فلنكن صريحين ولنقل: التي تعاني منها كبرى الجماعات الإسلامية اليوم في العالم العربي.

وعلى نقطة الضعف هذه يقيم أعداء المسلمين خططهم وبرامجهم.. ومن نقطة الضعف هذه يتسللون إلى صفوف هذه الجماعات يسخرونها ويلعبون بها كما يشاؤون.. ولن يعجزهم عن ذلك شيء، فالقوم قد زجوا بأنفسهم طوعا في متاهات ومنعرجات لا قِبلِ لهم برصد مداخلها ومخارجها، ومجاراة الاختصاصيين بالكر والفر فيها.

ونحن لا نشك في وجود سفراء لهؤلاء الأعداء ضمن هذه الجماعات، يتقنون فن التلون باللون الإسلامي العريق، لا تكشفهم إلا فراسة مسلم أخلص دينه لله عز وجل، ولم تتبلد

1- حوار حول مشكلات حضارية ، ص 232 /234 .

حساسيته الإسلامية المرهفة من جراء كثرة النقاش والخصومات والدوران في متاهات السياسة والتعلق بأحابيلها.. فما أكثر ما يقود واحد من هؤلاء السفراء المقنعين بقناع الإسلام جماعة بكاملها ويزجها في مهلكة لا نجاة منها، ثم يعود إلى مقره آمنا مطمئنا دون أن يحتاج حتى إلى أن ينفض يديه من غبار!..

أما إنه لأمر عجيب حقا

ولكن مصدر العجب لا يكمن في وجود هؤلاء السفراء الذين يتقنون اصطناع الغيرة على الإسلام فذلك شأن الكيد الأجنبي الذي نتحدث عنه.

وإنما يكمن العجب في أن لا تكلف الهوية الإسلامية إنسانا قادما إلينا من وراء المحيطات، سوى لحية وافرة وحديثا حارا عن الإسلام ومصيره وأهله،وإذا هو بعد ذلك قد نال الثقة وأصبح يتصدر مجالس التوجيه ويمسك بزمام القيادة، وإذا المسلمون السذج الأغرار جنود طائعون من حوله!

أليس هذا أمرا عجيبا ومؤسفا؟!

أليس عجبا أن تنظر إلى أكثر المسلمين العاملين في الحقل الإسلامي، فلا تجدهم إلا أحد رجلين: خبيث يكيد للمسلمين من داخل العمل الإسلامي نفسه، وساذج يخدعه الكلام الأجوف ويجتاحه التهويل والحماسة دون أي رويَّة ولا تبصر!.. أما أن تقع عيناك منهم على من يصدق عليه كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ((لست بالخب، ولا الخِبّ يخدعني))، فذلك نادر، لا يتجمع منه أي سوادٍ ولا رصيد!.. [1]

لا إخلاص مع السياسة

هيهات أن ينسجم الإخلاص لوجه الله وحده في العمل، مع الركون بشكل من أشكال التحالف، إلى أي من الجماعات السياسية المحترفة. ذلك لأن هذا الركون يستدعي سكوتا عن كثير من الانحرافات والمحرمات التي قد تصدر عنها، كما يستلزم قدرا كبيرا من المجاملة والمهادنة لها على حساب المصلحة الإسلامية، التي يزعم أنه حارس أمين عليها وداعٍ مخلص إليها، هذا فضلا

1- حوار حول مشكلات حضارية ، ص 272 / 274 .

عن أن مصانعة هذه الجماعة تؤدي إلى مصادقة حقيقية لأفرادها واستئناس بهم. ولا بد من أن تتراكم من ذلك آثار مظلمة على القلب تبعث فيه القسوة وتنسيه ما هو بأمس الحاجة إليه، من غذاء التبتل وزاد الطاعات والقربات إلى الله عز وجل. [1]

الطريق الأقصر للقضاء على الطغيان

إن نهوض المسلمين بتبليغ كلمات الله والتعريف بدينه بصدق وإخلاص، هو الطريق الأقصر إلى تحطم عروش الطغيان أو إلى هداية أربابها. [2]

العلمانية الإسلامية . .

إن العلمانية التي أفرزتها خصومة العلم مع الكنيسة في الغرب، كانت ولا تزال في تلك الربوع سندا لحقائق الإسلام ومبادئه. إذ إنه في الوقت الذي لوحق فيه رجال العلم من قِبل رجال الكنيسة في الغرب، بتهمة التجريم لهم بسبب مخالفتهم العقائد التقليدية التي كانت تنادي بها الكنيسة، كان الإسلام في الوقت ذاته يشدِ من أزر رجال العلم ويدافع عنهم ويدعوهم إلى مزيد من البحث والعمق، مؤكدا أن العلم، لا غيره، هو رائد الفكر الإسلامي في طريق الوصول إلى المعتقدات الإسلامية الصحيحة. ولقد كان قراره هذا، ولا يزال، صريحا وقاطعا في هذا المضمار، ينطق به كلام الله القائل:﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾[الإسراء:36]. [3]

العلمانية مع الإسلام . . نوعان

إن العلمانية التي ينادي بها الغربيون قنطرة تنتهي بأصحابها إلى الإسلام، أما العلمانية التي ينادي بها المسلمون فقنطرة تنتهي بأصحابها إلى الإلحاد. [4]

1- شخصيات استوقفتني ، ص 164 .
2- الإسلام والغرب ، ص 78 .
3 - الإسلام والغرب ، ص 122 .
4- الإسلام والغرب ، ص 123 .

علاقة النظام الإسلامي بغير المسلمين

إن النظام الإسلامي الذي تؤخذ به الدولة الإسلامية، لا يضيق ذرعا بوجود غير المسلمين فيها، ما داموا خاضعين لهذا النظام منسجمين معه. ومن المعلوم أن النظام الإسلامي للدولة، له مفهوم ديني يتعامل معه المسلمون ويؤخذون به. وله مفهوم قانوني تنظيمي مجرد يشمل المسلمين وغيرهم، أي يتجاوب كل فريق معه حسب حاله، إما من منطلق ديني إيماني بالإسلام وعقائده أو من منطلق قانوني اجتماعي يؤمن بالنظام وشرعته.[1]

ليس في الإسلام أقلية وأكثرية

دأبت فئات من الباحثين في الشريعة الإسلامية اليوم على استعمال كلمة (الأقليات) تعبيرا عن غير المسلمين في المجتمعات الإسلامية.. وهي كلمة لا وجود لها في شيء من مصادر الشريعة الإسلامية. ولا أعلم أن في أئمة الفقهاء من استعملها من قبل.

وإنما ولدت هذه الكلمة في المجتمعات الغربية، بصدد تصنيف درجات المواطنة هناك.. فالمواطنون من الدرجة الأولى فيها، هم الكثرة الدينية والعرقية. ثم تأتي رتبة الأقليات الدينية والعرقية مواطنين من الدرجة الثانية. فالكثرة والقلة فيهما هما مقياس القرب والبعد أو العلو والهبوط هناك.

غير أن هذه الكلمة بهذا القصد، لا مكان ولا معنى لها في نظام الشريعة الإسلامية، وفي المجتمعات التي تأخذ نفسها بتعاليمها وأحكامها. إذ إن كل من احتضنتهم دار الإسلام وأظلهم النظام الإسلامي الجامع، يتمتعون بمعنى المواطنة في درجة واحدة، على اختلاف أديانهم وأعراقهم. قلوا أو كثروا. فأنت مهما نبشت بطون الكتب الفقهية وأمهاتها، فلن تعثر على تصنيف يقسم رعايا الدولة الإسلامية إلى مواطنين أساسيين من الدرجة الأولى وإلى أقليات دينية أو عرقية من الدرجة الثانية.

إن التعبير الشامل لكل من تستوعبهم دار الإسلام، هو كلمة (رعايا) وهي تعني المواطنين من حيث مسؤولية الدولة عن رعايتهم وحمايتهم والنظر في شؤونهم ومصالحهم. أما التعبير الذي يقابل كلمة (الأقليات)، فهو غير المسلمين أيا كانوا.. غير أن كلمة (الأقليات) هذه مرفوضة وغير موجودة في قاموس مصطلحات الشريعة الإسلامية، لما تحمله من دلالة غير لائقة.[2]

1- الإسلام والغرب ، ص 130 /131 .
2- الإسلام والغرب ، ص 134/ 135 .

في دولتنا . . لا فرق بين مسلم وغيره في نطاق السلم

ليس في الأنظمة والقوانين الإسلامية ما يرسم أي فرق بين مستوطنين أصليين، على أرض الإسلام، ومتجنسين طارئين عليها، ووافدين مقيمين فيها إلى أجل، ما دام الكل يجنحون إلى السلم، ولا يتطلعون في وجودهم الدائم أو الموقوت إلى أي عدوان أو كيد، وأن النظام الواحد يشملهم جميعا ويرعاهم دون أي امتياز ولا تفريق!..

وعندما يلتقي على أرض الإسلام، من جراء هذا الشمول، أكثر من دين واحد، فإن الشريعة الإسلامية ترعى لكل ذي دين حقه في ممارسته، دون أي ظلم أو اضطهاد، ضمن دائرة النظام الإداري العادل والشامل لمصلحة الجميع.

وبوسعنا أن نتبين في الدولة الإسلامية الأولى التي أقامها رسول الله ﷺ في المدينة المنورة أبرز نموذج تطبيقي لهذه الحقيقة الهامة، التي ينبغي أن نتبينها.

إن المجتمع الذي تكونت منه تلك الدولة، لم يعرف في أي عهد من عهوده ما يسمى اليوم: أكثرية وأقلية. بل ظل يحتضن الكل على أنهم رعايا للدولة الإسلامية الفتية. ولقد تألفت تلك الرعايا من غالبية مسلمة، ومن قلة من القبائل اليهودية. فما نبذت الدولة الإسلامية الدين المخالف، ولم تحرم أصحابه من الحقوق التي تمتعت بها الغالبية المسلمة. بل نص نظام تلك الدولة على أن اليهود يتمتعون بدينهم وحقوقهم الإنسانية كاملة، كالمسلمين سواء بسواء. [1]

نداء إلى مفكري الغرب وساسته

أنا لا أقول لساسة الغرب ومفكريه تعالوا فاعتنقوا الإسلام.. ولكني أقول لهم: تعالوا فتفهموا الإسلام، بعيدا عن الصور الضبابية التي أسدلت عليه، وعن الأفكار الدخيلة الممجوجة التي أقحمت فيه. فلسوف تستأنسون به أولا، ولسوف تنسجم حقائقه مع تطلعاتكم العلمية ثانيا، ولسوف تدركون أن الإسلام هو الملاذ الذي ينتشل الناشئة الغربية من بؤرة الاختناق أو الضياع. والمطلوب في هذه الحال شيء واحد، هو التخلي عن نظرتكم إلى الإسلام على أنه خطر مداهم، والنظر إليه بدلا عن ذلك على أنه صديق صدوق، وملاذ عند الحاجة، وترك

1- الإسلام والغرب ، ص 183 + 184 .

كل من يرغب في دراسته ثم اعتناقه دون أي تضييق عليه.. ولعلكم تعلمون أن «مراد هوفمن» سفير ألمانية في بعض البلاد العربية جرِّدِ من وظيفته وكثير من حقوقه الاجتماعية لأنه اعتنق الإسلام. [1]

التمسك بالهوية أولا

إن أمتنا العربية والإسلامية، لم يتحْ لها أن تبني تاريخها الحضاري المجيد، من خلال مساعٍ حضارية أو جهود علمية أو ثقافية، وإنما أتيح لها أن تنهض نهضتها التاريخية المجيدة تلك من خلال عثورها على هويتها، ثم إيمانها الراسخ بتلك الهوية. وإنما جاءت المساعي الأخرى بعد ذلك.

وليس معنى هذا أنها لم تحتج إلى أن تغذي ذاتها وأفكارها بالمعارف والعلوم، وإنما المراد أن استمساكها بهويتها كان الأساس الصلب لما قد أشادته فوق ذلك من صرح المعارف والثقافات والعلوم. فلولا استمساكها بهويتها ولولا اعتزازها بها، لما قام شيء من ذلك الصرح، ولتهاوى أو انزلق كما ينزلق بناء أقمته على آكام من الرمال. وهو ذاته الذي يجري في حياتنا اليوم!.. [2]

التسامح . . ليس عنوان علاقتنا بغير المسلمين

ينعت بعض الناس وكثير من الكاتبين اليوم نظام التعامل مع أهل الذمة في الإسلام بالتسامح.

ولو اتبعنا الدقة في فهم معاني الكلمات واستعمالاتها، لعلمنا أن كلمة (التسامح) هذه لا تنصف الإسلام ولا تكرِّم أهل الذمة.

ذلك لأن هذه الكلمة تعني التجاوز عن الحق على سبيل التفضل والمسامحة.

وهذا التجاوز موجود في الأحكام التي تتضمن حقوقا لله عز وجل. بل حيثما وجد الإنسان نفسه أمام حقوق الله عز وجل، لا بد أن يجد نفسه أمام ساحة واسعة من التسامح، أي من التجاوزات التي يمتن الله بها على عباده تفضلا منه وإحسانا. ألا ترى إلى أحكام العبادات وما يتبعها من المتممات والمحسنات، كم تحيط بها رخص وتجاوزات. ثم إن تقصير الإنسان في أداء هذه الحقوق منوط دائما بآمال العفو والغفران. ولذلك قال الفقهاء: حقوق الله مبنية على المسامحة.

1- الإسلام والغرب ، ص 193 .
2- الدين والفلسفة ، ص 22 .

أما الأحكام التي ترسم حقوق العباد وتقيم موازين العدل فيما بينهم، فلا معنى لافتراض وجود التسامح فيها إلا اضطراب ميزان العدالة بين الأطراف.

ذلك لأن هذه الأحكام قائمة على حراسة الحقوق ورعايتها طبق ميزان دقيق من العدالة. فإذا وجد التسامح (أي التجاوز) في أحد الجانبين فلا بد أن يوجد من جراء ذلك الإجحاف والظلم في الجانب الآخر.

وأحكام أهل الذمة، تدور، كلها على محور واحد، هو ترسيخ ضمانات العدل في التعامل والمعايشة بين المسلمين وأهل الكتاب، في ظل المجتمع الإسلامي.

أي فكل حكم من أحكام أهل الذمة، روعي فيه تحقيق العدالة لكل من المسلمين والكتابيين. فإن أدخلت تسامحا فيه لصالح المسلمين كان في ذلك إجحاف وظلم بالكتابيين، وإن راعيت فيه تسامحا لصالح الكتابيين كان ذلك إجحا بالمسلمين.

نعم، إن التسامح في الأحكام التي ترسي حقوق العباد فيما بينهم، وارد ومعقول بمعنى واحد، وهو أن يوصي الشارع جل جلاله الناس أن يتساهلوا ويتسامحوا، كل في حق نفسه تجاه الآخر، دون أن يشرع في ذلك أحكاما ملزمة.

ذلك لأن التسامح لا يتحقق معناه إلا أن يمارِسَ بشكل طوعي. فأما أن تتنزل في ذلك أحكام قسرية، فذلك هو الظلم بذاته.

ألا ترى أن الشارع عندما أرسى الأحكام الملزمة في نطاق التعامل المالي من بيع وشراء واقتراض ونحو ذلك، راعى في ذلك مقاطع الحقوق التي تضمن العدالة لسائر الأطراف، بعيدا عن أي تجاوز أو تسامح.. ولكنه عندما ذكر الناس بالمبادئ الأخلاقية أوصى الجميع أن يتسامحوا ويتلاينوا. فقال ﷺ: ((رحم الله رجلا سمحا إذا باع، سمحا إذا اشترى، سمحا إذا قضى، سمحا إذا اقتضى))[1].

إذن فمن الخطأ بمكان أن توصف الأحكام التي تنظم علاقة المسلمين بالكتابيين في أي حال من الأحوال بالتسامح. ذلك لأنها لو كانت كذلك لكانت قائمة على الظلم في الوقت ذاته، لأن التسامح القسري في حقوق بعض العباد لن يكون إلا عن طريق إهدار حقوقٍ لآخرين. [2]

1- رواه البخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

2- الجهاد في الإسلام ، ص 142 . 144 .

لن يفرض الإسلام بالقوة

لقد علمتنا سيرة رسول الله ﷺ، وطبيعة هذا الدين، وواقع التاريخ الإسلامي، وتجارب الربانيين والدعاة إلى الله، أن العرش الذي يتربع عليه الإسلام هو الأفئدة والعقول، ثم إنه يستقر بعد ذلك نظاما وأخلاقا في المجتمع، ثم إنه يعلو بأصحابه ليستقروا – حفظة له – على كراسي الحكم.

ولقد علمنا التاريخ القريب والبعيد، والمنطق الذي يخضع له كل عقل، أن ما فرض بالقوة ولو كان إسلاما ينتزع بالقوة مثلها ولو كانت فسوقا وإلحادا.

وهل في الناس من يجهل أن اليقين إذا استقر في العقل وهيمن بالعاطفة على القلب، لم يمتلخه إلا يقين معارض. وهيهات أن يتسرب يقين معارض إلى فؤاد من استيقن حقائق الإسلام وامتلكت عليه عواطفه. وهل فيهم من يجهل أن القوة إذا حلت محل اليقين، نافستها فقضت عليها قوة، بل قوى معارضة ربما، فأحالت قوتها إلى ضعف ووجودها إلى انمحاق؟!..

بل ما رأينا سبيل القوة والقهر، إذ تتخذ بديلا عن الدعوة إلى الإسلام والتعريف به، إلا نذير سوء في حقه، ومبعث كراهية له. فالقوة التي تستعمل بديلا عن واجب الدعوة والتبليغ، تصبح هي ذاتها مبعث ضعف يحيق بالإسلام وحكمه.

والدعوة اللينة التي تستعمل أداة لنشر الإسلام، تصبح هي ذاتها مبعث قوة في رسوخه وحكمه. [1]

دع الزهرات كلها تتفتح

إن مناخ الحرية الحقيقية، هو خير تربة يتنامى فيها الإسلام بعقائده وضوابطه السلوكية والأخلاقية.

لقد كنا ولا نزال ننادي بالمثل الصيني القائل (دع الزهرات كلها تتفتح) موقنين ومطمئنين، إلى أن زهرة الإسلام ستكون أولها تفتحا وأشدها جمالا وأكثرها عبقا وأطولها أمدا.

وإذا كان مناخ الحرية الحقيقية لصالح الإسلام إبان تحوله من الضعف إلى القوة، فكيف لا يكون هذا المناخ لصالحه إبان قوته وعندما يكون الحكم حكمه والقرار قراره؟!.. [2]

1- الجهاد في الإسلام ، ص 185 .
2- الجهاد في الإسلام ، ص 217 .

من يملك عصا الجهاد

إن التأديب بالعصا الجهادية، حق أمكن الله منه عباده جميعا، ينهض به المحق ضد المبطل حيثما اقتضت الحاجة ولم تنفع النصيحة ولا المشورة، وليس أداة قوة أو مكنة تحيز بها الشارع جل جلاله لفئة من عباده دون أخرى، كما قد يوهم أو يتوهم بعض الحاقدين أو الجاهلين.

ولكن لما أبى كثير من الناس إلا استكبارا على الحق، وجنوحا إلى تلبية رعونات النفس وأهوائها، وانغماسا في حمأة الظلم والاستهانة بالحقوق، انحصرت مهمة التأديب الجهادي بطبيعة الحال، في أولئك الذين استمسكوا بموازين العدل، وثبتوا تحت مظلة العبودية لمولاهم وخالقهم عز وجل، فكان من واجبهم أن ينصحوا المتنكبين عن هذه الجادة بالتحذير والبيان، فإن لم يرعووا، وجب عليهم أن يردعوهم بالقوة والسلاح.

وهكذا، فإن عصا التأديب الجهادي، معلقة من جنبات الأسرة الإنسانية، في المكان الذي يتناولها أي محق ليردع بها أي مبطل. أي فإن هذه الأداة الرادعة إنما شرعت لمصلحة الأسرة الإنسانية جمعاء. (1)

ليست فئة خاصة : السلفية

إن من الخطأ بمكان أن نعمد إلى كلمة (السلف) فنصوغ منها مصطلحا جديدا، طارئا على تاريخ الشريعة الإسلامية والفكر الإسلامي، ألا وهو (السلفية) فنجعله على عنوانا مميزا تندرج تحته فئة معيَّنة من المسلمين، تتخذ لنفسها من معنى هذا العنوان وحده مفهوما معيَّنا، وتعتمد فيه على فلسفةٍ متميزة، بحيث تغدو هذه الفئة بموجب ذلك جماعة إسلامية جديدة، في قائمة جماعات المسلمين المتكاثرة والمتعارضة بشكل مؤسفٍ في هذا العصر، تمتاز عن بقية المسلمين بأفكارها وميولاتها، بل تختلف عنهم حتى بمزاجها النفسي ومقاييسها الأخلاقية، كما هو الواقع اليوم فعلا. (2)

1- الجهاد في الإسلام ، ص 226 .
2- السلفية ، ص 13 .

نظريات الدس على الجهاد

إن المغالطات والتشويهات التي دست على الجهاد، تتمثل في نظريتين متناقضتين في الظاهر، ولكنهما منسجمتان في باطن الأمر وحقيقته، إذ يتكون من كليهما وسيلة واحدة متسعة تهدف إلى إلغاء مشروعية الجهاد من أساسه.

أما النظرية الأولى، فهي تلك التي تنادي بأن الإسلام لم ينتشر إلا بحد السيف وأن النبي ﷺ وأصحابه سلكوا مسلك الإكراه، فكان الفتح الإسلامي على أيديهم فتح قهر وبطش .. لا فتح قناعة وفكر.

وأم النظرية الثانية، فهي تلك التي تهتف بعكس ذلك تماما، أي أنه دين سلام ومحبة، لا يشرع الجهاد فيه إلا لرد العدوان المداهم، ولا يحارب أهله إلا إذا أرغموا على ذلك وبودئوا به.

وعلى الرغم من أن هاتين النظريتين متناقضتان، فإن أرباب الغزو الفكري أرادوا أن يستولدوا منهما غاية معينة، هي وحدها المقصودة من كلا هاتين الأطروحتين. وإليك إيضاح ذلك:

لقد أشاعوا وروجوا أولا أن الإسلام دين بطش وحقد على الآخرين. ثم انتظروا إلى أن أتت هذه الشائعة ثمارها من ردود الفعل لدى المسلمين وإنكار هذا الظلم في حق الإسلام..وبينما المسلمون يلتمسون الرد على هذا الباطل، قام من أولئك المشككين أنفسهم من اصطنع الدفاع عن الإسلام بعد طول علم وبحث متجردين، وراح يرد هذه التهمة قائلا: ((إن الإسلام ليس كما قالوا دين سيف ورمح وبطش، بل هو على العكس من ذلك: دين محبة وسلام لا يشرع فيه الجهاد إلا لضرورة رد العدوان المداهم، ولا يرغِّب أهله في الحرب ما وجدوا إلى السلام من سبيل)).

فصفق بسطاء المسلمين طويلا لهذا الدفاع (المجيد) في غمرة تأثرهم من الظلم الشنيع الأول، وصادف ذلك في نفوسهم المتحفزة للرد عليه قبولا حسنا، فأخذوا يؤيدون ويؤكدون، ويستخرجون البرهان تلو الآخر على أن الإسلام فعلا كما قالوا.. دين مسالمة وموادعة لا شأنه له بالآخرين إلا إذا داهموه في عقر داره، وأيقظوه من هدأته وسباته.

وفات أولئك البسطاء أن هذه هي النتيجة المطلوبة، وهذا بعينه هو الغرض الذي التقى عليه في السر كل من روج الشائعة الأولى ثم أشاع الباطل الثاني.

فالمقصود هو السلوك بمقدمات ووسائل مدروسة مختلفة، تنتهي إلى نسخ فكرة الجهاد من أذهان المسلمين، وإماتة روح الطموح في نفوسهم. [1]

المساواة ابتدأت من عند رسول الله ﷺ.

لم يندب رسول الله ﷺ المسلمين إلى حفر الخندق، ثم ذهب يراقبهم في قصر منيف له مستريحا هادئا، ولا أقلب إليهم في احتفال صاخب رنان ليمسك معول أحدهم بأطراف أصابعه، فيضرب به ضربة واحدة في الأرض إيذانا ببدء العمل وتحيبا لهم أنه شاركهم في ذلك، ثم يلقي المعول ويدير إليهم ظهره، ينفض عن حلته ما علق بها من ذرات غبار..

ولكن رسول الله ﷺ قد انخرط في العمل كأي واحد من أصحابه، حتى لبس ثوبا من الأتربة والغبار على جسمه فما تفرقه عن أي عامل آخر من صحبه وإخوانه، يرتجزون لينشط بعضهم بعضا، فيرتجز معهم، ويتعبون ويجوعون فيكون أولهم تعبا وجوعا. وتلك هي حقيقة ما أقامته الشريعة الإسلامية من مساواة بين الحاكم والمحكوم والغني والفقير والصعلوك والأمير، وأنت لا تجد فرعا من فروع الشريعة وأحكامها إلا قائما على هذا الأساس ضامنا لهذا الحق.

وأعيذك أن تخطئ، فتسمي هذا ديموقراطية في السلوك أو الحكم، فشتان ما بينهما من الفرق.

مصدر هذه العدالة والمساواة في الدين الإسلامي، هو العبودية لله تعالى. وهي صفة عامة شاملة للناس كلهم، تضعهم في صف واحد من المكانة والاعتبار. ومصدر ما يسمونه بالديموقراطية، تحكيم رأي الأكثرية أي تأليه رأي الأكثرية على الآخرين، مهما كانت طبيعة ذلك الرأي ومرماه.

من أجل هذا، لا تعوج الشريعة الإسلامية على شيء مما يسمى بالامتيازات لأي طبقة أو فئة من الناس، ولا تخص جماعة منهم بحصانة مهما كانت الدوافع والأسباب، لأن صفة العبودية من شأنها أن تذيب كل ذلك وتلغيه من الاعتبار. [2]

1 - فقه السيرة النبوية ، ص 186 + 187 .
2- فقه السيرة النبوية ، ص 322 + 323 .

ليست إلا حرية مزيفة

ليت شعري أي قيمة توجد للحرية عند أولئك الذين يظلون يكذبون على أنفسهم وعلى شعوبهم، إذ يصورون لهم الإسلام بالصور الكاذبة المنفرة، ويصورون لهم المسلمين همجا من الناس لا يزالون يعيشون في البوادي مع الإبل والأنعام، كي يصدوا بذلك تطلعاتهم الفكرية إلى فهم الإسلام ويحبسوا دوافع البحث عندهم ضمن خيوط عنكبوتية حقيرة. حتى لا يطلعوا على حقيقة الإسلام فيؤمنوا به، فتدول بذلك دولة البغي على الإنسان في أتعس أشكاله القذرة. [1]

السياسة ليست إلا سلاحا

إن علينا جميعا أن ندرك بأن العمل السياسي في أيدي قادة الأمة الإسلامية، ليس إلا سلاحا لخدمة الإسلام وإقامة المجتمع الإسلامي فوق أرفع ذرى الأرض. فإن هم عجزوا أن يتخذوا من السياسة والحكم سلاحا لذلك، فقد تحوَّل كل منهما في أيديهم على باطل من السعي وعبث من الجهد والعمل !.. [2]

وظيفة هامة لجهاز الحكم الإسلامي

إن ثلثي أحكام الفقه الإسلامي، إنما يناط تنفيذه بجهاز الحكم في المجتمع الإسلامي، سواء تمثل ذلك في سلطة الحاكم الأعلى بالنسبة لأحكام الإمامة، أو تمثل في سلطة القضاء بالنسبة للأحكام القضائية. فإذا لم يقم هذا الجهاز الحاكم على النحو المطلوب، بقيت هذه الأحكام كلها معلقة لا مجال لتنفيذها أو البت فيها!.. [3]

1- فقه السيرة النبوية ، ص 374 .
2- التعرف على الذات ، ص 45 .
3- التعرف على الذات ، ص 52 .



أفواه الغرب

إن في أوربة أفواها من الغرب تنفخ في نيران التطرف وأسبابه في الشرق، في شرقنا العربي الإسلامي. في الوقت الذي تتحرك ألسنة هذه الأفواه باستنكاره والبحث عن السبل التي تقضي عليه ! . [1]

معا ضد دعاوى تحديد النسل

إن كل دعوة عامة إلى الحد من النسل، وقاية وعلاجا، تسهم في تحقيق أخطر المكائد الاستعمارية المكشوفة، التي تستهدف شد حركة العالم العربي والإسلامي إلى التقوقع والتخلف. وما نظن إلا أن أصحاب هذه الدعوة على علمٍ بها، وعلى علمٍ بمواطئ أقدامهم في التعاون معها.

لقد بات واضحا لكل ذي بصيرة وفكر، أن العنصر البشري يشكِل أهم الدعائم لأيِّ تفوقٍ حضاري ولأيِّ قدرة على استغلال ثروات الأرض وخيرات الدنيا، كما بات واضحا أن الدوائر الاستعمارية إنما تسعى إلى خنق أسباب هذا التفوق لدينا بوسائل من أهمها العمل على تقليص النسل بشتى الوسائل المكنة. [2]

1- مشكلات في طريق النهوض ، بحث : من التطرف إلى الحوار ، ص 21 .
2- تحديد النسل ، ص 145 .

أسلوب جديد لغزو المسلمين

إن مظاهر الغزو الفكري إلى أذهان المسلمين، كانت إلى الأمس القريب تتجه مباشرة إلى تسفيه الإسلام، بدعوى تعارضه مع العلم، ووقوفه عثرة في طريق التقدم، وبدعوى أن أحكامه خيالية تستعصي على التطبيق، وتناقض حتمية الحل الحضاري.. فهو يحرِّم الفائدة الربوية مع أنها ضرورة اقتصادية لا مناص منها!..

وهو يلزم المرأة بالحشمة والاحتجاب مع أنها اليوم شريكة الرجل في السعي إلى النهضة العلمية والصناعية، وهو يدعو إلى التواكل والإيمان بالغيب مع أن الميزان العلمي الذي يفرض نفسه اليوم لا يعرف سوى الاعتماد على النفس والوقوف أمام المنظور المادي الماثل أمام العين!..

غير أن الله عز وجل شاء أن يكشف التقدم فيما بعد عن زيف هذه المزاعم وسخفها، وأن يضع عقول الناس أمام نقائض هذه الدعاوي كلها..

وكان ذلك بدون ريب، أصدق تنفيذٍ للوعد الذي قطعه رب العالمينعلى نفسه إذ قال: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:53]، إلا أن سطوع هذه الحقيقة التي كشفت الزيف وعرَّت الأكاذيب، لم يقضِ على شيء من كيد الكائدين ومعاداتهم لهذا الدين.. ذلك لأن عداوتهم لها، لم يكن يوما ما عن جهلٍ أحاط بعقولهم، ولكن كان ولا يزال عن حقدٍ ران على نفوسهم.. لذا فقد دعتهم أحقادهم الدفينة إلى تغيير الأسلوب وتطوير الطريقة وإبراز شخصية جديدة من أنفسهم.. أملا في البحث عن ثغرة أخرى ينفذون منها إلى كيد من نوع آخر بالإسلام والمسلمين.

وإني لأعتقد أن أول من تنبه إلى ضرورة تغيير ذلك النهج التقليدي القديم والاستبدال به، هو الزعيم الشيوعي الإيطالي "توليتاي" الذي قضى نحبه عام 1964م فلقد تنبه في وقتٍ مبكر إلى أن أسلوب الكيد المباشر المكشوف للإسلام، لم يعد مجديا، بل لعله يوقظ المسلمين إلى الاهتمام بذاتيتهم أكثر من أن يحقق آمال الكائدين فيهم.. فيكتب وصيته المشهورة بذلك، والتي انتشرت بسرعة لا في الأوساط الشيوعية فحسب، بل بين جميع الفئات التي تلتقي على الكيد للإسلام والتربص به!..

ولقد كان من النتائج الإيجابية لتلك الوصية ما نشرته مجلة (إكونومست) في أوائل شهر كانون الثاني من عام 1965م، فقد نشرت دعوة ملحّة إلى اتخاذ تكتيكٍ جديد تجاه محاربة الإسلام والسعي إلى القضاء عليه، والكفِ عن الأسلوب القديم المتمثل في الهجوم المباشر عليه.

فما هو الأسلوب الجديد الذي اعتمد الكائدون للإسلام، أولئك الذين جندتهم حكوماتهم، بدوافع استعمارية مكشوفة لفصل المسلمين عن إسلامهم، وإقصائهم عن ظلال أي سلطان له؟.

إنه يتمثل في استغلال ما قد يتراءى من نقاط ضعفٍ يعاني منها المسلمون في مختلف بلادهم وأوطانهم.. وقد أتيح لهم أن يضعوا أيديهم من ذلك على نقطتي ضعفٍ خطيرتين: أولاهما الإعجاب الفكري والانهار النفسي بظواهر الحياة الغربية، والثانية الخلافات المستشرية التي تهيج بين صفوف المسلمين، على صعيد المسائل الجزئية والانتماءات المذهبية والسياسية. [1]

خطط جديدة للقضاء على الإسلام

ما هي التدابير الجديدة التي بحثت عنها الدوائر الغربية، فعثرت عليها، واعتمدتها، للقضاء على المد الإسلامي الجديد، بعد أن استنفذت التدابير القديمة إمكاناتها، وأدت الأدوار التي عهد بها إليها، بقدر كبير من النجاح آنذاك؟

إنها تتلخص في العمل على تصديع الإسلام وتحويله إلى شظايا من المذاهب والأفكار والفلسفات والقراءات المتعارضة المتخاصمة!.. وأقرب أداة طيعة لذلك – فيما تراه وتتواصى به هذه الدوائر إلى هذا اليوم – الترويج للاجتهاد في الإسلام مطلقا عن حدوده، وقيوده، والعمل على فتح باب التأويل على مصراعيه، بحيث يذوب ظاهر كل نص في باطنه، ويتحول الباطن المختلق فيه ليحل محل الظاهر منه، إذ يتكفل كل من هذين الطرفين أخيرا بمحو الآخر والقضاء عليه!.. [2]

1- حوار حول مشكلات حضارية ، ص 261 . 263 .
2- الإسلام والغرب ، ص 162 .

حجة عليهم منهم

إن « أوجست كونت» يملك الحجة العلمية على أن الديانة في أوربا ليست أكثر من ظاهرة اجتماعية نسجتها الأيدي البشرية، وإن كانت جذورها الخفية الأصلية وحيا حقيقيا منزلا من عند الله. فالمورثات الدينية في أوربا، فيما يعرفه جميع الباحثون ومؤرخو الأديان، ليست موروثات أولئك الحواريين الذين أخلصوا لعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، واتبعوا عقيدته وساروا على نهجه، وإنما هي أفكار بولس اليهودي وقسطنطين الروماني اللذين تتابعا على إنشاء نسيج فكري واعتقادي مختلف، لا عهد للمسيح ولا لأحد من حوارييه بها. [1]

لماذا يلهبون المشاعر الدينية

إن الفكر الاستعماري كان ولا يزال، يرى – فيما يخيَّل إليه – أن الحساسية الدينية التي يفترض أن تكون ماثلة دائما بين المسلمين وغيرهم، هي أهم نقطة ضعف لدى المسلمين يجب استغلالها وتغذيتها بالسبل الممكنة. والثمرة التي يتصور أن عليه أن يقطفها هو إلهاب المشاعر الدينية لدى الكتابيين من نصارى ويهود، للإيقاع بالمسلمين وتحطيم شوكتهم. ولكن النتيجة المنطقية أن هؤلاء الكتابيين، ومن في حكمهم من غير المسلمين، سيكونون ضحية، بل وقودا في هذا الضرام. ومهما اصطنع الوجه الاستعماري لهم مظاهر الود المتحالف معهم والوعود البراقة جزاء انصياعهم لرغباته، فلن يكون لهذه المظاهر والوعود إلا مآل واحد، هو أن يبرزهم في المنطقة تجار فتنة وينابيع طائفية، ثم أن يتركهم مادة (ثمينة) لإثارة القلاقل والاضطرابات فيما بين المسلمين. ولا شك أن دائرة المصائب تدور بذلك عليهم كما تدور على المسلمين. إذ لا ريب أن الذي يضرب فئة من الناس بأخرى، يقضي بذلك على الفئتين معا، وإن كان قصده في استعمال الواحدة ضد الأخرى مختلفا. [2]

1- الدين والفلسفة ، ص 52 .
2- الجهاد في الإسلام ، ص 124 .

وإنما شأن المؤمنين بالله القائمين على حدوده وأحكامه مع بقية الأمم الجاحدة بالله الباغية على هذه الحدود والأحكام، بالنسبة لعمارة الكون وقيادته، مثل كفتي ميزان. إن رجحت إحداهما لا بد أن تطيش الأخرى.

فإذا كان المؤمنون بالله صادقين في إيمانهم به، أمناء على مناهجه وشرعه في الحياة، جعل الله تعالى قيادة الحياة وعمارتها إليهم، وأخرج لهم أسباب العزة والتأييد من حيث لا يحتسبون. وغدا الآخرون من ورائهم وتحت سلطانهم.

وإذا انقلب المؤمنون، فضيعوا شرعة الله وحكمه، ولم تخلص أفئدتهم لدعوى ألسنتهم، وفاض فيهم المنكر حتى عاد غريبا يتقزَّز منه – جعل الله تعالى قيادة الحياة وعمارتها إلى الأمم الأخرى، وسلطها عليهم بالقهر والتمزيق والإذلال.

وهكذا، فإن الدنيا لا يمكن أن تقف عن حركتها وتطورها من أجل عيون الذين شاؤوا أن ينكصوا على نموها وحركتها المعاشية كما اقتضت سنة الله. ولكن قيادتها تتحول من أيديهم إلى أيدي الآخرين.

تأمل هذه السنة الإلهية كيف تبدو جلية في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[الأنعام:129].

وفي قوله عز وجل، وهو يشرح هذه السنة نفسها لبني إسرائيل، ويحذرهم من الوقوع في مغبتها: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا﴾[الإسراء:4،5]، إلى أن قال لهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾[الإسراء:8]. (1)

1- الإنسان وعدالة الله في الأرض ، ص 57 ß 59 .

حقيقة مرة

إن الأمة الإسلامية، تقع اليوم، بكل موازينها الفكرية ومشاعرها الوجدانية في منطقة الجاذبية الغربية. فهي مهما تحركت، لا تتقلب إلا ضمن سلطان التأثر بها والالتفاف حولها!.. يخيل إليها أنها تناقش الأفكار والقيم بكامل التحرر، وأنها تقوِّم مناهج السلوك ومظاهر الحياة بكل تجرد. غير أن مورد التفكير والتمييز في كيانها، مطبوع بقناعة خفية عميقة. مؤداها أن لا سبيل للتعامل مع الحياة والكون، إلا طبقا للموازين التي تعتمدها الحضارة الغربية فيذلك. فقد فرضت الحضارة الغربية نفسها – على حد تعبيرهم أو قناعاتهم الضمنية – على مسيرة الحياة الاجتماعية أينما كانت.

ولا نشك أن ثمة أصواتا تتعالى هنا وهناك، يقف أصحابها خارج منطقة النفوذ، أو على حافتها.

غير أن هذه الأصوات لم تبلغ إلى الآن أن تشكل تيارا يتمتع بأي جاذبية مكافئة. [1]

سؤال وجواب

للسائل أن يسأل :

أليست الأمة العربية والإسلامية، بكل فئاتها وعلى اختلاف ما تضم من نزعات واتجاهات، مسوقة بشكل أو بآخر بد الحضارة الغربية، منقادة لسلطانها؟ فكيف أمكن الله أمما شأنها عبادة اللذة العاجلة، والخضوع لسلطان المادة وحدها، من التحكم بناصية العالم الإسلامي الذي شأنه – مهما اعترفنا بانحرافاته وأخطائه – الإيمان بألوهية الله وحده والدينونة لسلطانه وحده، والاصطباغ بعبادته جهد المستطاع؟.. وكيف يتطابق ذلك مع قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[القصص:5].

فنقول في الجواب :

أولا – لم يلتزم الله تعالى في شيءٍ من آي كتابه، ولا على لسان أحد من أنبيائه، أن يمن على الذين استضعفوا في الأرض، فيجعلهم أئمة وقادة فوقها، لمجرد كونهم مستضعفين.

1- منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، ص 146 + 147 .

لو أنه جل جلاله ألزم نفسه بذلك، لكان علينا أن نرى جميع المستضعفين من الناس والأمم على اختلاف أديانهم واتجاهاتهم وأخلاقهم، قد تحولوا إلى قادةٍ وأئمة يرثون السيادة والحكم.

وإنما ألزم الله نفسه بذلك اتجاه من قد ألزموا أنفسهم، بالمقابل، أن يضعوا عبوديتهم لله موضع التنفيذ؛ وأن يتعاملوا مع الحياة التي يتمتعون بها، والمكونات التي تحيط بهم، طبقا للحقيقة التي أطلعهم الله عليها، وللمنهج الذي ألزمهم الله تعالى به؛ على أن يفعلوا ذلك بدافعٍ من الخضوع المطلق لجلال الله وسلطانه، والخوف من بطشه وعقابه. وتأمل صريح قرار الله تعالى في التزامه بذلك من خلال قول الله عز وجل:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾[إبراهيم:14-13].

فإن القيد الذي أتبعه البيان الإلهي بعد قوله: ولنسكننكم الأرض من بعدهم، وهو قوله: ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد، أغلق السبيل إلى أي احتجاج أو استشكال.

وإنك لتجد صريح هذا القرار في آيات كثيرة أخرى من مثل قوله تعالى:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾[النور:55].

وأنت تعلم أن كلمة (وعملوا الصالحات) قد استوعبن كل مقتضيات دعوى الإيمان بالله واليوم الآخر، ودخل فيها دخولا أوليا ضرورة التزام المنهج القرآني، في التعامل مع الحياة والمكونات، وسائر بني الإنسان.

فقد خرج إذن، بمقتضى قيود هذا الالتزام الرباني، كل من تحولت حقائق الإيمان في حياتهم إلى أطر ومظاهر.. وانفصل واقعهم السلوكي عن سلطان ذلك الإيمان في حياتهم، ليدخل في سلطان الدنيا وشهواتها، وما فيها من تيار اللذائذ والأهواء.

لذا، فليس لهم أن يمنوا على الله بإيمان لم يمكنوه من تحقيق أي أثر في مرافق حياتهم، أو في جوهر سلوكهم وأخلاقهم، وكيف يكون لهم ذلك وما هم من الذين خافوا مقام الله ولا

من الذين خافوا وعيده. وواضح أننا إنما نتحدث عن الواقع الاجتماعي العام. ولا ننظر في هذا الصدد للالتزامات الفردية التي لم يتكون منها تيار اجتماعي متناسق.

ثانيا – إن من سنن الله ونواميسه الكونية في هذه الدنيا، أن تظل هذه الأرض معمورة بأهلها، ماضية في أخذ زينتها وزخرفها، خاضعة لسنة التطور العمراني والاجتماعي، حتى يأتي وعد الله، وتحين الساعة المحتومة لقيام الساعة وانتثار هذا النظام الكوني المتماسك.

أي فلا بد من أمم وجماعات تقود حركتها المعاشية والعمرانية والاجتماعية. وقد كانت الأمم منذ غابر الأزمان إلى يومنا هذا، تتداول فيما بينها قيادة هذه الرحلة الإنسانية، حتى تبلغ مداها الأخير في علم الله عز وجل.

ثم إن الله جلت حكمته، جعل شأن المؤمنين القائمين على حدوده وأحكامه، مع الأمم الجاحدة بالله والباغية على أحكامه وحدوده، بالنسبة لقيادة المجتمع الإنساني، مثل كفتي الميزان: إن رجحت إحداهما لا بد أن تطيش الأخرى.

فإذا كان المؤمنون بالله صادقين في إيمانهم به، أمناء على منهجه وشرعه، جعل الله قيادة الحياة إليهم، وأورثهم مقاليد الحضارة، وأخرج لهم أسباب العزة والتأييد من حيث لا يحتسبون، وصيَّر الآخرين جندا لهم، يسيرون من ورائهم ويخضعون لسلطانهم.

وإذا تحول المؤمنون، فضيعوا شرعة الله ومنهاجه، ولم تخلص أفئدتهم لدعاوى ألسنتهم، وشغلتهم النعم عن شكر الله ومراقبته، جعل الله تعالى قيادة الحياة وعمارتها إلى أي من الأمم الأخرى، ثم سلطها عليهم بالقهر والتمزيق والإذلال.

وهكذا، فإن الله عز وجل لم يلتزم أن يوقف حركة الدنيا، وأن يحيل عمارها إلى خراب، من أجل عيون الذين شاؤوا أن ينكصوا على أعقابهم وأن يتخلوا عن مسؤولياتهم؛ لمجرد أنهم يزعمون بأنهم لا يزالون مسلمين له مؤمنين به!.. بل ستظل الدنيا تجدد نفسها، وستظل الحياة الحضارية تتعاقب في أهلها، ولكن القيادة تتحول عندئذٍ من أيديهم إلى أيدي رجال آخرين؛ طبقا لقوله عز وجل:

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾[محمد:38].

وليس حتما أن يكون هؤلاء الآخرون أصلح حالا منهم. إذ القضية ليست قضية إيثار واختيار لمن هم أحسن حالا أو أقل سوءا.. وإنما هي تسليط وتولية، وما أكثر ما يكون المسلط شرا من المسلط عليه. وما أكثر ما يكون عكس ذلك.

تلك هي سنة الله في عباده. وعلى المسلمين الذين يظل هذا السؤال يحوك في صدورهم، أن يتفهموها جيدا من خلال بيان الله لعباده، ومن خلال سننه السارية في الأرض.

تأمل قول الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:129]. (1)

انتصارهم تسليط . . لا نصر علينا

إن انتقال أزمة القيادة من المسلمين إلى غيرهم من القوى الغربية ليس في حقيقته نصرا لأولئك الآخرين، ولكنه – كما سبق أن قلت – تسليط.. أي فهم ليسوا في الحقيقة أكثر من سياط تجردها الأقدار الإلهية على ظهور أولئك الذين كان لا بد أن يتلقوا التربية والتأديب من الله عز وجل، لما قد فرط منهم. (2)

1- منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، ص 153 ، 156 .
2- منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، ص 180 .



لا لتعداد المحاريب

إن تعداد المحاريب في المساجد وتسمية كل محراب منها باسم مذهب من المذاهب الأربعة، أسوأ مظهر يتجسد فيه التحزب المقيت الذي لا معنى له ولا مسوِّغ. وإن ما يفعله بعض العوام من الانزواء في طرف من المسجد وصلاة الجماعة قائمة تؤدى أمام عينيه، لا يمنعه من القيام إليها إلا أن الإمام ينتمي إلى غير مذهبه، فهو ينتظر إمامه الذي من حزبه، لا يقتدي بغيره ولا يرى أن صلاته تصح إلا من ورائه – نقول إن هذا الذي شاع عند كثير من العوام أو من يتسم بسمة العلم، شيء لا يستند إلى أي أصل من أصول الدين، وما أجمع الأئمة والعلماء في كل عصر وزمنٍ إلا على خلافه. وما يمسك الناسَ على هذه العادة إلا شيئان اثنان: تعصب لا وجه له من هؤلاء الناس، و -تنفيع- لأناس توارثوا مثل هذه الوظائف واعتادوا على نيل جراياتها والاستفادة منها. [1]

1- اللامذهبية ، ص 40 .

المخربون

إن في كل فئة أو طائفة من الناس تدعو بدعوة معينة أناس قد اندسوا في صفوفهم، ليس لهم أي شأنٍ بالدعوة من حيث الإيمان أو الكفر بها، ولكن مهمتهم الوحيدة أن يشعلوا جذوة الخصومة بينهم وبين الآخرين كلما ذابت وأوشكت أن تخبو؛ ولا ريب أنهم يتظاهرون بالحماس لأصل الفكرة وجوهرها، ولكن الغرض الوحيد هو: تعميق ثغرة الخلاف وتحويلها قدر الإمكان إلى خصومة وشقاق، وإبعاد ظروف التعقل والتدبر في الأمر بكل ما يمكن بذله من جهد. [1]

قوة الإسلام

إن الإسلام مكمن هائل للقوة لأهله ومصدر للخطر على أعدائه بسبب أنه عقيدة ونظام وخلق. فعقيدته إذا استحوذت على قلوب المسلمين أخرجت منهم خلقا آخر يستهين بكل ما على الأرض من قوة وسلطان وجبروت، وتشريعه إذا ما اصطبغ به المجتمع، تماسك وعظم واستعلى وأخذ يلفت إليه الأنظار، فيحقق أسباب رسوخه، ويمهِّد سبيل اتساعه، أما خلقه إذا ما ربط وجمع بين الآحاد، فإنما هو الحزام الذي يحمي ذلك المجتمع من الدخيل الذي لا يتسنى له أن يتسرب إلا من ثغرات المفاسد الخلقية حينما يبتلى بها أفراد المجتمع. وأخطر من هذا كله أن العقيدة إذا تأسَّست كاملة في القلب استلزمت وجرت إليها لا محالة كلا من العنصرين الآخرين. [2]

المعارضة

إن الصحابة الذين كانوا مثال التقديس للإسلام ورسوله، كانوا قبل ذلك مثال المعارضة القاسية، بل الدامية، بالنسبة إلى كثير منهم. فلما انجابت عن بصائرهم الغواشي وتبين لهم صدق محمد فيما أخبرهم به، كان لا بد لسيوفهم أن تغمد ولمعارضتهم أن تتحول إلى استجابة وانصياع.

1- اللامذهبية ، ص 107 .

2- تجربة التربية الإسلامية ، ص 18.

ودونك فانظر من جديد إلى ترجمة عمر، وخالد، وعمرو، وعكرمة، ومصعب، وأبي ذرّ، وعديّ بن حاتم.. وجلِّ الصحابة الآخرين، تجد أن إشراقة الإسلام في حياة كلٍ منهم، إنما تفجرت من أحشاء ظلمات تلك المعارضة، بل المحادّة والمخاصمة.

غير أن تلك المعارضة التي كانوا يمارسونها، كانت – على شدتها وقسوتها– منهجا نقديا للوصول على معرفة الحق ثم الانضباط به. أي فلم تكن هدفا مقدسا لهم يقبعون منه في سجن أبديّ لا محيص لهم عنه، دون أي نظر إلى الحق ومساره، كما يحبه لنا هؤلاء الذين دأبهم التنكر لقداسة الحق بحد ذاتها، مهما ثبت أنه الحق. والتبتل في سجن معارضته ومقاومته، مهما ظهر لهم أنه باطل من الفعل والقول. [1]

وحدتنا من أزاهير شتى

كانت الصورة التي في ذهن والدي للكردي المسلم، والتركي المسلم، والعربي المسلم، والفارسي المسلم، صورة أزاهير ذات الوان شتى تلاقت وامتزجت في حديقة واحدة، هي حديقة الإسلام، التي تترجمها الأخوة الإسلامية، التي تثمر بدورها الوحدة الإسلامية، ذات الأثر الإنساني المسعد لسائر تلك الأصناف من الزهور . [2]

لا للتكفير

لقد نبهني والدي إلى أن التكفير الكيفي للناس سلاح الحاقدين والمنتقمين، وأن النصيحة القائمة على التعاون وحسن الظن هي سلاح المجاهدين . [3]

لا للفرقة

أيعقل أن يكون الإسلام الذي وحِّد، بالأمس، القبائل المتخاصمة والمتعادية، هو بذاته الإسلام الذي يفرق ويشتت، اليوم، الأمة المتضامنة الواحدة؟!.. إنني لا أستطيع أن أتصور أن هذا الإسلام الذي نمارسه اليوم هو ذاته الذي مارسه سلفنا وأجدادنا بالأمس!.. [4]

1- هذه مشكلاتهم ، ص 106 .

2- هذا والدي ، ص 138 .

3- هذا والدي، ص 141 .

4- وهذه مشكلاتنا ، ص 184 .

لا للعصبية

إن الذي كان ولا يزال يفرِّق بين المسلمين إنما هو العصبيات والأهواء!.. عندما ينسى الإنسان أن المذهب خادم للمبدأ، يضحي بالمبدأ في سبيل المذهب. وتلك هي ثمرة العصبية الخطيرة في حياة المسلمين، بل في حياة الجماعات الإسلامية كافة. ولو أن الناس، أو لو أن المسلمين بالأحرى، تنبهوا إلى أن المذهب لا يبرر وجوده إلا أن يكون خادما للمبدأ المتفق عليه، لحركوا المذهب كما يقتضي المبدأ، ولسيروا الفروع كما تقتضي الجذور.. ولتحررنا عندئذ من عصبياتنا، ولتحررنا من أهوائنا. [1]

قداسة الوحدة

إذا كانت وحدة الأمة هي الأساس الأقدس، بل هي الهدف الأسمى الذي تدور عليه أحكام الإسلام العلمية والعملية جميعا، فإن قداسة هذا المبدأ تتجلى في هذا العصر أكثر من أي عصر آخر مضى.

وإن أهمية الوصول إلى هذا الهدف الأقدس تدعونا إلى أن نجند كل الطاقات، وأن نضحِّي بكل آرائنا الاجتهادية، في سبيل الحفاظ على هذه الوحدة أو استعادتها.

من أين، وكيف أشعر بهذا المعنى؟

أشعر بهذا المعنى عندما أجد أن أعداءنا لا يرهبون فينا قوة مادية، ولا كنوزا من مدخرات الأرض وخيراتها، ولا يرهبون فينا فكرا اجتهاديا ولا ماضيا حضاريا أفل نجمه. ولكنهم يخافون من شيء واحد!. يخافون أن تلتقي هذه الأمة على نهجٍ واحدٍ كما التقت بالأمس!.. [2]

قاعدة هامة للوحدة

إن الأمم لا تتحد إلا على مبدأٍ سبق أن آمنت به، ولا تلتقي إلا على محورٍ يجذبها ويجمعها من شتات. فإن لم يتحقق الإيمان بالمبدأ الواحد أولا، فلا سبيل إلى قيام الوحدة ثانيا. وإذا لم تتركز نقطة المحور في القلب، فهيهات أن يحيط بها طوق الدائرة من الأطراف!. [3]

1- وهذه مشكلاتنا ، ص 189 / 190 .

2- وهذه مشكلاتنا ، ص 192 .

3- من أسرار المنهج الرباني ، ص 13 .

الصلاة من أجل التعارف

إن الحكمة من ندب الناس إلى المساجد ليست مجرد أداء الصلوات. فقد كان يسع الناس أن يصلّوا في منازلهم مع أهليهم وأولادهم ولقد كان يسعهم لذلك أن يتخذ كلّ لنفسه منعزلا يأوي إليه في أوقات العبادة. وربما كان ذلك أجمع لقلبه وأقرب إلى أسباب الخشوع في نفسه.

ومع ذلك فقد ندب الشارع جل جلاله الناس إلى التلاقي في المساجد. وجعل صلاة الرجل مع الجماعة معادلة لسبعٍ وعشرين صلاة من تلك التي يصليها الرجل منفردا!

وإنما سبب ذلك القصد إلى أن يجتمع الناس.. فيتعارفوا.. فيتآلفوا.. وتآلف المسلمين مع بعضهم أعظم غايةٍ جاء الإسلام لتحقيقها، فلا جرم أن ترى كثيرا من العبادات في جوهرها أو آدابها وسيلة هامة لتحقيق هذه الغاية. [1]

الإسلام يدعم وحدة الصفوف

أعتقد أن كل من تحرَّر من سلطان العصبية المذهبية وحب الانتصار للذات، يدرِك جيدا أن الإسلام الذي يؤلف القلوب المتنافرة ويجمع الصفوف المتدابرة ويعلِم الناس أن يكونوا عبادا لله إخوانا، يتعاونون فيما اتفقوا عليه ويعذر بعضهم بعضا فيما اختلفوا فيه من الأمور الاجتهادية – يرفض رفضا باتا، أن يقتطع من جسم الجماعة الإسلامية بضعة غالية منه، ثم تحجز عنه وتفصل ضمن دائرة مذهبية مبتدعة، ثم تستثار عوامل البغضاء بين هذين الجزأين من جسم الجماعة الإسلامية الواحدة، وتتقاذف الألسن فيما بينها اتهامات التضليل والتكفير.

أجل، إن الإسلام الذي وحد بالأمس القبائل المتعادية المتحاربة وجعلها مضرب المثل في الاتحاد والتآلف، لا يمكن أن يكون هو بذاته ذاك الذي يفرّق اليوم الجماعة الإسلامية الواحدة، ويستثير عوامل البغضاء فيما بينها، ويستمرئ نشر اتهامات الكفر والشرك والضلال بين فئاتها وأفرادها. ولكن شأن كثيرٍ من الناس أن يبرروا أهواءهم ويروّجوا لعصبياتهم وأفكارهم باسم الإسلام!. [2]

1- من أسرار المنهج الرباني ، ص 25 .
2- السلفية ، ص 258 .

ضعْ محور الوحدة أولا

ألا فليعلم الحالمون بالوحدة، المتغزلون بألفاظها وشعاراتها، أن إقامة الوحدة ليست في حقيقتها إلا صنعا لدائرة. ولا بد لرسم الدائرة من الارتكاز على نقطة المحور أولا.

ضع المحور أولا، ثم انظر كيف يستدير الخط من حوله، ليكوِّنِ دائرة محكمة بأيسر جهد ومن أقرب سبيل. فأما إذا أهملت نقطة المحور، فلسوف يعبث القلم بين أصابعك، ولسوف تملأ بياض الورق خطوطا هائمة متعرجة، دون أن يستقيم لك من ذلك أي دائرة صحيحة.

وسبحان من علمنا كيف نضع المحور أولا، إذا أردنا أن نستجيب لأمره فلا نتفرق ولا نتجزأ!..

وسبحان من أنبأنا بأن المحور الجاذب لن يكون جاذبا إلا إذا كان احتكاما إلى ربوبية الله وسلطانه، وأوامره وإرشاداته، فقال عز وجل:﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعا وَلا تَفَرَّقوا**﴾[آل عمران:103] لم ينههم عن التفرق إلا بعد أن أمرهم بالاعتصام بحبله. أي إنه لم يأمرهم برسم الدائرة إلا بعد أن هداهم إلى نقطة المحور.. [1]

1- منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، ص 165 .



عشاق الحوار

الحوار .. نحن أهله ودعاته وعشاقه. كيف لا وقد أمرنا الله به ؟ بل هو وحده رأس مالنا على طريق الدعوة والجهاد في سبيل الله. [1]

اختلاق الباطل

عندما يشتهي المبطل رواج باطله وتألقه في الخواطر والأبصار، يختلق لشهواته المبررات التي لا وجود لها، وقد قالوا إن رجلا عضَّ عليه الجوع في الصحراء، فرأى حمارا صغيرا أمامه، فاشتهَّاه وسال لعابه عليه، فقال لنفسه وهو ينهشه يأكل منه: (ما أشبه أذنيه بالأرنب!). [2]

تعلموا كيف تخاصمون

ألا ليت محترفي الغزو الفكري من المبشرين والمستشرقين والطغاة الذين أعلنوا الحرب على القرآن ورسوله، يتلقون من مشركي الجزيرة العربية درسا يتعلمون من خلاله كيف يكون الخصم شريفا في خصومته. [3]

1- لا يأتيه الباطل ، ص 78 .
2- لا يأتيه الباطل ، ص 146 / 147 .
3- لا يأتيه الباطل ، ص 168 .

حوارنا

إنني أقول لهؤلاء الذين يرعبهم الحوار والنقاش: اطمئنوا فإن حوارنا لن يكون كما تتوهمون، إن حوارنا لكم وللآخرين أيا كانوا، لا ينبعث من حقدٍ دفينٍ أو غير دفين، وإنما ينبعث من إنسانية تتسامى على كل مشاعر الغيظ والضغائن والأحقاد.

إن حوارنا للآخرين أيا كانوا، يتم تحت شعار قول الله تعالى:

﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هدى أَوْ فِي ضَلَالٍ مبِينٍ ﴾ [سبأ: 24]، إنه وصية من الله لنا إذا تلاقينا مع الآخرين في حوارٍ حول شيءٍ من حقائق هذا الدين، أن نحاورهم ونحن نفترض أننا قد نكون الطرف التائه المتطوح في الضلال، وأن الطرف الثاني هو السائر على الهدى والمتبصر للحق، والحكم العدل بيننا إنما هو العلم ومنطق الأحداث.

ولن يحرفنا عن هذا الشعار القرآني في حوارنا مع الآخرين، عدم التزامهم بالشعار ذاته. إنهم حتى إذا انطلقوا من اتهامهم لنا، من منطلق العصبية والعناد، أو الضغينة والأحقاد، فإنا نظل – استجابة لأمر الله لنا – منضبطين بهذا الشعار : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هدى أَوْ فِي ضَلَالٍ مبِينٍ﴾ ولا بدٍّ لدى قيام هذا الاحتمال، والأخذ به منهجا للبحث والحوار، من أن نسير على هديه، وأن نجعل من ميزان العلم وقواعده الحكِمَ العدل في القرار الذي يجب التلاقي عليه. [1]

إليكَ أيها الحاقد

لكِ أن تستجيب اليوم للواعجك النفسية وعنادك الفكري ونداء ضغائنك وأحقادك، فتختلق ما تشاء، وأن تخلط الحق بالباطل كما تهوى، وأن تضع كتاب الله تعالى غرضا تصوب إليه سهام سخريتك على النحو الذي يشفي غليلك، ولكن عليك أن تتأكد اليوم أنك تتمتع بالقدرة على الثبات على هذا الذي قررته لنفسك وارتضيته مذهبا في حياتك. تأكد أن لواعجك النفسية وعنادك الفكري وضغائنك المتحكمة بك لن ترتد عنك إذا فاجأتك ضجعة الموت، ورأيت بعينيك ما كان غائبا عنهما، وعلمت أن المساق إلى الله، وإذا بقرارك الذي تتخذه اليوم قد تحول إلى نارٍ من الندامة كاوية، في ساعةٍ لا يفيدك فيها الندم، ولا سبيل فيها لإصلاح ما أفسدت ولا لبناء ما هدمت !.. [2]

1- لا يأتيه الباطل ، ص 234 .
2- لا يأتيه الباطل ، ص 235 .

إنهم بشر

إن الأئمة والفقهاء الذين نعيش على مائدة فضلهم اليوم، ليسوا أنبياء معصومين، إنهم - على فضلهم الكبير- بشر من الناس يجوز عليهم بعض ما قد يتِصوَّر وقوعه من أي إنسان غير معصوم. والرجل الذي يتمتع بأصالة في الخلق لا يمضي حياته يتسقط هفوات أولي الفضل وزلاتهم، ليتشاغل بها عن الإحساس بفضلهم وشكر جميلهم. بل هو الذي يرى في مظاهر فضلهم وما قدموه للناس من الخير العظيم ما ينسيه أمر تلك الهفوات أو يحمله على استشعار المعذرة لأصحابها. (1)

كذلك جعلناكم أمة وسطا

إن الموقع الجغرافي للأمة العربية يحمِل أصحابه عبء الوساطة بين كل طرفين متنازعين، ويملكهم راية السلم العالمي يرفعونها فوق قمة الدنيا كلما كشر الشر عن أنيابه أو تراءت نذر الحروب. وإني لأعتقد أن هذه الحقيقة جزء من تفسير قوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَاكُمۡ أُمَّة وَسَطا لِتَكونوا شهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكونَ الرّسول عَلَيۡكُمۡ شَهِيدا﴾ [البقرة: 143]، وضع إن شئت أمامك خارطة العالم ثم فتش عن أي رقعة فيها تصلح لهذه الوساطة والقيادة، فإنك لن تجد أصلح لها من هذه الرقعة المباركة من الأرض. (2)

تسقط الخرافة

أي مشكلة أدهى وأمر من أن يحسب جهل الجاهلين، وبدع المبتدعين، وخرافات المتخرصين – وشيا في ديننا وجزءا من حضارتنا ونتاجا لفلسفتنا؟.. ثم ينظر إلى ديننا وحضارتنا وأفكارنا على هذا الأساس، وإذا بجميع ذلك من الانحطاط والسخف في متناول نقد الناقدين وتفنيد المفندين!.. أرأيت إلى أكثر ما يبني عليه المستشرقون والمبشرون هجومهم وتهديمهم؟ إنه ليس في غالب الأحيان إلا هذه الخرافات التي حسبت على الدين وما هي منه، واستحدثت فيه وهي ردٌ على من استحدثها.

1- اللامذهبية ، ص 129 .
2- تجربة التربية الإسلامية، ص 64 .

وما كان المستشرقون والمبشرون بعاجزين عن أن يدركوا أن الخرافة خرافة والبدعة بدعة وأن رسول الإسلام يقول: ((من أحدث في ديننا هذا ما ليس منه فهو رد)) ولكنهم لا يحبون أن يدركوا ذلك فيفوتوا على أنفسهم غرضا هم يسعون إليه بكل ما يملكون. [1]

كيف يدعوننا إليها ؟

إن الرجل الغربي، لم يعد يستطيع اليوم، بعد أن اصطبغ – طوعا أو كرها – بالعقلية العلمية، أن يقتنع بالصورة التي ظلت المجامع الكنسية تنسجها وتؤكدها لشخص السيد المسيح عليه الصلاة والسلام.. إن أي رجل مثقف أو فتاة مثقفة في الغرب لم يعد أحدهما يصدق أن كيانا لاهوتيا قد قام في شخص المسيح فهو إله أو جزء من إله.. ولم يعد يقيم وزنا لما ظلت هذه المجامع تؤكده من أنه عليه الصلاة والسلام جاء ليتحمل خطيئة البشرية عنها، وأن الخالق عز وجل اضطرَّ أن يضحي بدم ابنه البريء لمحو كل أثر من آثار اللعنة الخفية التي ولد الإنسان ملوثا بها!.. وبوسع من يجوب اليوم في مكتبات الغرب المنتشرة في أسواقه، أن يطلع على عشرات المؤلفات الحديثة التي تفند هذه التصورات وتدعو إلى تجديد بناء الفكر الديني، في الغرب، على نحو يتماشى مع العلم أو العقلية العلمية التي يتمتع بها الإنسان الغربي اليوم.[2]

حوار مثمر

إن تعددِ المحاور التي لا بد أن يتوالى ظهورها ويتنامى رسوخها في تربة التوازن العالمي الذي لا مفر منه، هو الضمانة الوحيدة لظهور معنى الندية المتوازية أو المتكافئة فيما بينها. ومن ثِمَّ فهو الضمانة لقيام ديمقراطية عالمية، إن جاز التعبير، تؤدي بالضرورة إلى تعارف أفضل بين الحضارات والثقافات المتنوعة، حيث لا بد أن يؤدي ذلك أخيرا إلى ما نسميه بحوار الحضارات.

وعندما تكون حقيقة الندِية المتكافئة هي السائدة في جو الحوار، بدلا مما هو سائد الآن من واقع التبعية الخفية أو الظاهرة، والمفروضة بشكلٍ ما، فلا بدٍّ أن يصبح الحوار حينئذٍ حقيقيا ومثمرا.

وفي هذا الجو سيتجلى دور الإسلام قويا راسخا.

---

1 - تجربة التربية الإسلامية، ص 120 .

2- هذه مشكلانهم ، ص 153 .

إن الإسلام الذي هو جذور اعتقادية راسخة، وبنيان حضاري باسق، لم يفرض نفسه ذات يوم إلا من خلال الحوار... الحوار الذي يطابق ظاهره باطنه، ويتجه إلى العقول صافيا عن شوائب الأسبقيات أو الذرائع أو التحكم أو الاستغلال.[1]

عقيدتنا في الحوار مع الآخر

لئن رفض بعض الناس إخضاع آرائهم وتصوراتهم لميزان الحوار العلمي، على الرغم من مجانفتها لكتاب الله وتناقضها مع جوهر الإسلام، فإنا لنعتز بالسير في نقيض ذلك الطريق تماما.. فما نكاد ندلي بقراراتنا الفكرية أو العلمية حتى نطرحها في ساحة النقاش والحوار، على الرغم من حرصنا على أن تكون مدعومة بأدلة المنطق والعلم، وأن تأتي موافقة لكتاب الله منسجمة مع حقائق الإسلام.

وإنا لنجل الرأي المخالف على أي حال عن أي إهمال أو امتهان.. لأنا على يقين من أن الحكمَ العدل الذي يملك وحده حق القبول والرفض إنما هو ميزان البحث العلمي المنضبط بقواعده وأصوله المحددة.

وحتى يقيننا بالإسلام ذاته، متمثلا في مصادره وأركانه.. إننا لنربأ بعقولنا أن نتعصب له بموجب سبقية تتجاوز أصول النظر والبحث، وتتجاهل قواعد المنطق والعلم.

فما الذي يجعلنا إذن نستبد بآرائنا ونقصيها عن ضياء البحث والحوار؟.

وما الذي يخيفنا من وضعها جنبا إلى جنب مع الآراء والأفكار المخالفة؟.

إن هذا الذي يخيف غيرنا، فيندفعون إلى الفرار منه هو بذاته المحك المفيد الذي نبحث عنه ونسعى إليه.. فإن صحة الدعاوي والأفكار، لا تستبين بشيء كما تستبين على محكِّ المحاورة والنقاش!..[2]

1- وهذه مشكلاتنا ، ص 80 .

2- حوار حول مشكلات حضارية ، ص 292 / 293 .

إنها قوة الحوار

إن الإسلام الذي هو جذور اعتقادية راسخة، وبنيان حضاري باسق، لم يفرض نفسه ذات يوم إلا من خلال حوار.. الحوار الذي يطابق ظاهره باطنه ويتجه إلى العقول صافيا عن شوائب الأسبقيات أو الذرائع أو التحكم والاستغلال.. لقد كان ولا يزال سبيل انتشار اتباع المنهج الرباني القائل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل:125].

إن تحكم 11% بـ 89% من سكان العالم سيختفي.. ولكنه لن يختفي تحت سلطان قهر الأغلبية أو بقوة السلاح أو في أعقاب حروب مدمرة، بل سيختفي تحت سلطان قوة أخرى هي أمضى وأشد فاعلية من ذلك كله.. إنها قوة الحوار الذي لا بد أن يفرض ذاته من خلال السنة الربانية التي لا يقع فيها خلف ولا تبديل.. سنة التوازن الذي لا يكاد يختفي بمظهره المتقادم، حتى يعود فيتجلى بمظهر متطور جديد. [1]

الحقيقة باقية مهما تمزقتم

مهما زعم كل فريق أو طائفةٍ من الناس أن الحق محصور فيما يؤمن به ويجنح إليه، واتخذ لنفسه المواقع الجهادية للدعوة إلى ما يراه أو للدفاع عنه، فلن تتمزق الحقيقة المطلقة في ضرام هذه التصورات النسبية المتصارعة.

والعلاج، أن يلتقي الكل على مائدة النقاش والحوار، شريطة أن يتم ذلك بجد وموضوعية وإخلاص. فلسوف تنبت جذور الحقيقة المنشودة على صعيد هذا الحوار، بل لا بد أن يزدهر هذا النبات بمعانيه وأبعاده ومظاهره. [2]

حوار مع السلفية

نتساءل على سبيل التنزّل والمسايرة الجدلية: (ها نحن نريد أن ندخل في هذه الجماعة وننتمي إليها، فما هو دستورها الذي إن اتبعناه أصبحنا من أفرادها واصطبغنا بشارتها؟).

1- الإسلام والغرب ، ص 59 .
2- الجهاد في الإسلام ، ص 27 .

فنسمعهم يقولون: ((سبيل ذلك التزام حرفية الأقوال والأعمال والتصرفات والعادات التي كان السلف يلتزمونها ويمارسونها، دون زيادةٍ عليها ولا نقصان منها ولا تغيير لها.))

لا بد أن نقول عندئذٍ: ((ولكن السلف أنفسهم لم يكونوا ينظرون إلى ما يصدر عنهم من أقوال أو أعمال أو تصرفاتٍ، هذه النظرة القدسية الجامدة التي تقتضيهم أن يسمِروها بمسامير البقاء والخلود، ويجعلوا من شأنهم معها ما يشبه المدينة المسحورة!.. وإنما أوْلِوا هذه النظرة الذاتية الثابتة إلى القرارات والأحكام التي تنزّلت عليهم صريحة قاطعة في كتاب الله عز وجل أو خاطبهم بها رسول الله ﷺ، ثم ساروا وراء ذلك مع ما تقتضيه علل الأحكام وسنة التطور في الحياة، وعوامل التقدم العلمي، ومنطق التجاوز المستمر من الصالح إلى الأصلح، كما سايروا الأعراف المتطورة من عصرٍ إلى آخر، أو المتبدلة ما بين بلدةٍ وأخرى، ما دام ذلك كله منتشرا وراء أسوارِ النصوص الحاكمة والمهيمنة. وربما اختلفوا هم فيما بينهم في تحديد كثيرٍ من الضوابط التي تحدد معنى الالتزام بالنصوص وتبين كيفية ذلك، لا سيَّما عندما تكون تلك الضوابط محل نظرٍ واجتهاد. [1]

كيف تتركون الحقيقة لما هو أعجب؟

لعل بعضا من الناس له أن يزعم بأن القرآن من كلام سيدنا محمد ﷺ، حتى يفر بذلك من الإيمان بأعجوبة الوحي الإلهي. ولكنهم إنما يقعون بذلك في ضرورة الإيمان بأعجوبة أشد وأعظم!..

إن الاعتقاد بأن القرآن من كلام محمد ﷺ وليس وحيا منزلا عليه، يعني الاعتقاد بأنه ﷺ سلخ أربعين عاما من عمره وهو يتوقى الكذب على الناس، ثم إذا به يكذب أعظم الكذب على الله!.. ويعني الاعتقاد بأنه ﷺ (وهو الأمي الذي لم يخط بحياته حرفا ولم يقرأ كتابا) تنزل على عقله – بدون علم ولا معلم – علم القوانين المنظمة وأخبار الأمم الماضية وأنباء الأحداث المقبلة، وأنه أوتي ازدواجا في القدرة الكلامية فهو يتكلم آنا فيأتي بكلامٍ بليغ ولكنه مما يستطيع أن يأتي بمثله الآخرون، ويتكلم آنا فيصوغ شيئا آخر ليس هو كالنثر ولا من الشعر، يبهر الألباب بعجيب سبكه ورائع بيانه وعجيب معانيه، ويتجرد الناس لمحاولة تقليده فلا يأتون من جهدهم

1- السلفية ، ص 14 ، 15 .

بشيء!.. ويعني الاعتقاد أيضا بأنه ﷺ أوتي قدرة خارقة على التشكل والتمثيل لم يبلغها إلى اليوم أبرع الممثلين أو المخرقين، فهو يصطنع الاصفرار في وجهه والرعدة في جسمه، والبرداء في أعضائه ليوهم الناس أنه يوحى إليه، وما سمعنا إلى اليوم بممثل وقف على المسرح فأخفى احمرار الدم المنتشر في وجهه وأبدله عن ذلك صفرة فاقعة دون الاستعانة بأي مسحوق أو (ماكياج)!.

إنه لأيسر – ألف مرة – على العقل الإنساني أن يعتقد بأن هذا القرآن – كما يقول مبلغه وكما يقول هو بذاته – وحي من الله لرسوله، من أن يحمل أعباء هذه الاعتقادات العجيبة المنكرة التي لا وجه لها ولا بينة عليها. [1]

1- منهج تربوي فريد في القرآن ، ص 92 ـ 94 .



فرق كبير بين الحب والأنانية

الحبّ أن يرى الإنسان ذاته في الآخرين.. أي أن يرى في رعايته لهم سعادةِ لذِاتِهِ.

أما أن يرى الإنسان الآخرين في ذاته.. أي أن يرى منهم أدوات لأهوائه ومتعه، فهي الأنانية في أصفى معانيها ملفوفة ربما بأوراق من سلوفان الحب.

وكم هو ضروري وهام، أن يدرك المجتمع الفرق بين هاتين الحالتين، وأن يعطي كلا منهما من المعاملة ما يستحق. [1]

ما هو ذكر الله

ذكر الله تعالى .. أهم منطلقٍ تربوي يضعه الله تعالى لحياة عباده في الأرض، وهو ليس بسبسة لسانٍ ولا فرقعة سبحة ولا قفزا أو التواء على الأرض، وإنما هو أن يظل القلب يسبِّح في طائفٍ من مراقبة الله تعالى وتصوّر أنه عز وجل يطلع على كل غيبٍ مجهولٍ وضائعٍ مستور، وأنه لا مناص من وقفة حسابٍ بين يدي هذا الإله العظيم على كل جنايةٍ وعصيان!. [2]

1- المرأة ، ص 167 .

2- من أسرار المنهج الرباني ، ص 16 .

وقود العاطفة والوجدان

إن الدفاع عن الحق وأصحابه، وتصوير المواقف والمشاهد الإنسانية وإبرازها على النحو الإنساني السليم، لا يتم من خلال درايةٍ عقليةٍ جافة، بل لا بد من إنضاجه على وقود العاطفة والوجدان. فمن حرم من هذا الوقود، حرم من الروح التي ينبغي أن يودعها في كلامه وأفكاره. وإذا انتهت الكلمات والأفكار إلى الآذان والأذهان منفصلة عن جذوة الروح، وقفت عند دهليز كل منهما ميتة باردة، لا تصلح فسادا ولا تقوم اعوجاجا ولا تقنع منكرا!.. (1)

من لم يجعل الله له نورا فما له من نور

إن البصيرة كالبصر؛ فكما أنك لا تستطيع أن ترى بهذا الثاني الأشياء التي هي أمامك على شكلها وحقيقتها، إلا مستعينا بنورٍ خارجي متكافئ، كالشمس ونحوها، كذلك لا تستطيع أن تدرك ببصيرتك شيئا من المجاهيل الكونية غير الخاضعة للحس، إلا مستعينا بنور خارجي متكافئ، وهو الوحي الرباني أو الإلهام العلوي. وهذا النور هو المعني بقوله تعالى: ﴿قَدۡ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهۡدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضۡوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذۡنِهِ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [المائدة:15/16]، وهو المعني أيضا بقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40].

وإنه لعجيب جدا أن ترى في الناس من يدرك حاجة البصر للإبصار إلى نور الشمس ونحوها، ولا يدرك حاجة البصيرة للإدراك إلى نور الوحي الإلهي ونحوه. (2)

الخلوة كالدواء . . عند الضرورة وبقدر محدود

لا ينبغي فهم معنى الخلوة كما شذ البعض ففهموها حسب شذوذهم، وهو الانصراف الكلي عن الناس واتخاذ الكهوف والجبال موطنا واعتبار ذلك فضيلة بحد ذاتها.

فذلك مخالف لهديه ﷺ ولِما كان عليه عامة أصحابه. إنما المراد هو استحباب اتخاذ الخلوة دواء لإصلاح الحال، والدواء لا ينبغي أن يؤخذ إلا بقدر، وعند اللزوم، وإلا انقلب إلى داءٍ ينبغي

1- شخصيات استوقفتني ، ص 12 .
2- شخصيات استوقفتني ، ص 98 .

التوقي منه. وإذا رأيت في تراجم الصالحين من استمر على الخلوة والابتعاد عن الناس، فمرد ذلك إلى حالة خاصة به، وليس عمله حجة على الناس.[1]

نشهد أنك قد بلغت يا رسول الله

في ختام خطبة الوداع... يشعر رسول الله ﷺ أنه أخرج مسؤولية الدعوة وتبليغها من عنقه، فها هو الإسلام قد انتشر، وهاهي ضلالات الجاهلية والشرك قد تبددت، وها هي أحكام الشريعة الإلهية قد بلغت، وها هو الوحي ينزل عليه ﷺ، يقول الله تعالى مخاطبا البشر كلهم:﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:3].

ولكنه ﷺ يريد أن يطمئن إلى شهادة أمته بذلك أمام الله تعالى يوم القيامة عندما يسألون.. فأعقب توصياته في خطبة الوداع بأن نادى فيهم: ((إنكم ستسألون عني، فما أنتم قائلون؟))

وارتفعت الأصوات من حوله تصرخ: ((نشهد أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت..)) وحينئذٍ اطمأن الرسول العظيم ﷺ !..

لقد كان يريد أن يستوثق من هذه الشهادة التي سيلقى بها وجه ربه عز وجل.. ولقد اطمأن الحبيب الأعظم ﷺ إذ ذاك، وشعشع الرضى في عينيه، ونظر بهما إلى الأعلى مشيرا بسبابته إلى السماء ثم إلى الناس يقول:

((اللهم اشهد .. اللهم اشهد ... اللهم اشهد)).

ويا ما أعظمها من سعادة!؟.. سعادة رسول الله ﷺ بشبابه الذي أبلاه وعمره الذي أمضاه في سبيل نشر شريعة ربه جل جلاله، وذلك حينما ينظر فيرى حصيلة الجهد الذي قدِم والعمر الذي بذل، أصواتا ترتفع وتعج بتوحيد الله، وجباها تعنو ساجدة لدين الله وقلوبا خفاقة تجيش بحب الله. ألا ما أسعد حبيب الله إذ ذاك بذكرى ما لقيه من ظمأ الهواجر، وشتات السفر في القفار، وعذاب السخرية والإيذاء، في سبيل هذا الإيمان الذي شاده فوق أرض الله!.. فلتكتحل به عيناكِ يا سيدي سعادة وسرورا، وليبارك لكِ ربك في وجيب قلبك اليوم حمدا ونشوة وحبورا.

ولا والله، ما كان ذلك شهادة تلك الآلاف المحتشدة من حولك فحسب، يا سيدي رسول الله. ولكنها شهادة المسلمين في كل جيل وعصر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها تعلن بلسان حالها

1- فقه السيرة النبوية ، ص 94/ 95 .

ومقالها: نشهد يا رسول الله أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجزاك الله عنا خير ما جوزي نبي عن أمته.

ولكن مسؤولية الدعوة قد انتقلت من بعدك إلى أعناقنا، وما أبعدنا اليوم عن القيام بحقها، وما أشد خيبتنا بلقائك يا سيدي غدا، وإن علينا أوزارا من التقاعس والتكاسل والركون إلى زهرة الحياة الدنيا، بينما يلتف من حولك أصحابك البررة الكرام وإن في أيديهم وعلى أبدانهم شهادة الدم الذي سفكوه والجهد الذي بذلوه والدنيا التي حطموها تحت أقدامهم نصرة لشريعتك ودفاعا عن دعوتك وتأسيا بجهادك.

أصلح الله حالنا وحال المسلمين جميعا، وأيقظنا من سكرة الدنيا ونشوة الشهوات والأهواء، وتغمدنا بلطفه وكرمه وجوده. [1]

الخلوة الضرورية

كلما كان التفكّر في نجوةٍ عن الناس وضوضائهم وملهيات الدنيا وأهوائها، فإن نتيجته تكون أصدق وأدق. إذ النفس الإنسانية تستقبل ما يردها من الدوافع والإيحاءات عن طريق نوافذ كثيرة كلها مفتحة عليها، فمنها العقل والمنطق الصافي، ومنها الأهواء والشهوات المركوزة في كيان الإنسان، ومنها ردود من مشاعر النقص أو دوافع الكبر أو سلطان العصبية، ومنها عقد أوجدتها الضغائن والأحقاد والمنافسة على حطام الدنيا وزخرفها الكاذب.

وليس الشأن أن يحسن الإنسان الإصغاء إلى هذه الأصوات كلها، إنما الشأن كل الشأن في أن يحسن الإنسان الإصغاء إلى صوت العقل وحده متميزا من بين هذه الأصوات كلها!.

وإنما يتم ذلك بساعات منظمة من الخلوة أو العزلة، يجعل الإنسان لعمره نصيبا منها، يتجرد فيها لعقله المستقل الحر يسأله عن مصيره وعن حقيقة كل هذا الذي يضج ويتراقص من حوله، مستعينا بذكرى كلام الله تعالى وبالغ عظاته وكلام رسول الله ﷺ وعظيم إرشاده.

ولست أدعوك، بهذا الذي أقول، إلى الانعزال عن المجتمع، والعيش بعيدا عنه في كهوف جبالٍ أو بطون أوديةٍ. فليست هذه فطرة الإنسان ولا هي وظيفة المسلم. ولكني أدعوك إلى أن تخلو إلى عقلك كلما رجعت إلى حساب صندوقك. أي فأنا أدعوك إلى مثل ما يفعله التاجر الذي يعيش عمره بين صخب الناس وضجيج الأسواق. إن ذلك لا يمنعه عن أن يخلو إلى نفسه

1- فقه السيرة النبوية ، ص 484 ، 486 .

في غرفةٍ من غرف داره، بين كل حينٍ وآخر، متجردا حتى عن الأهل والولد والمؤنس، ويعكف مستغرقا على دفاتره وأوراقه وحساباته.

ولولا اهتمامه بمثل هذه الساعات في عمره لما قدم له متجره الذي يغص بالغادين والرائحين إلا الندامة والخسران!. (1)

طمأنينة ووجل . . معا

طمأنينة ووجل، أثران قد يبدوان متناقضين لما تفعله العبادة في المشاعر، ولكنهما في الحقيقة متكاملان، كل منهما يشكل صمَّام أمانٍ للآخر، ومن مزيجهما المتكافئ تتكون إنسانية الإنسان كما يجب أن تكون في هذه الدنيا.

وعن هذين الأثرين يقول الله عز وجل مرة: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]، ثم يقول مرة أخرى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: 2]. (2)

لمن سأتلو نشيدي

إنني على استعدادٍ لأن أكتب فصلا أضمنه أشجى وأسمى خفقات القلوب المعذَّبة، وأترجم إليه نجوى السرائر والأرواح، تحت جنح الليالي الحالكة؛ حيث يكون أدعياء الحب إذ ذاك يتمرَّغون في أوحال من الشهوات الآسنة، ولكن ما أكتبه في ذلك سرعان ما ينقلب نشيدا هوانيا رخيصا في أفواه أولئك الأدعياء.

فلمن أنشد ولمن أقول؟.. ولست أبصر من حولي أي سامرٍ يفهم عني ويشاركني في شعوري، وإنما الكل متطوح سكران بكأسٍ أخرى غير تلك التي طار عندها لبِّي، وبلذعها أينع وجدي وحبي..

دعني أتلو نشيدي عندما أقبع في محراب من الغربة أناجي به ليلا ساجيا، لا تسمعني فيه إلا أذن الظلام، ولا يلحظني فيه إلا العيون اللألاءة في السماء. (3)

أيها الليل

طالما سألت نفسي: فيم يظل العشاق والمعذبون من أرباب القلوب يتغنون باسم الليل كلما أقبل، وينتظرون ظلامه كلما أدبر، ويرون في سواده إشراقا أحلى في عيونهم من شفق الصبح؟!

1- باطن الإثم ، ص 58 ، 59 .
2- التعرف على الذات ، ص 89 .
3 - من الفكر والقلب ، ص 174 .

ولما شكى إليّ القلب جراحا في سويدائه، أقبلت ذات يومٍ إلى الكون، أنقل إليه شكواه، وأبثه آهاته.. فرأيته أشبه ما يكون بملهى واسعٍ كبيرٍ قد تزاحمت فيه ألوان من الصخب واللهو والضجيج، ليس فيه إلا مشغول بغيري، معرض عن أنيني وصوتي، ورأيتني وسط زحامه غريبا إلا عن نفسي منفردا إلا عن قلبي.

فطويت الآهة في صدري، وأعدت اللوعة إلى قلبي، واعتصمت بالسكوت..

وأقبل الليل دون أن يقبل معه إلى عيني النوم.. وأقبلت من ورائه ساعة السحر والعين لا تزال يقظى مسهدة.. وفجأة، رأيت الكون كله يقبل علي بعد إعراض!.. وأصغيت، فسمعت في صمته العميق أرق ألحان الحب والحنان يسكبه فم الكون في أذني!.. وتأملت، فأحسست في نسيمه الهائئ العذب بيد الدنيا تمسح على فؤادي، وتضمني إليها ضمة أم مشفقة والهة!... ونظرت فإذا بنجوم السماء تتناثر دموعا من أجلي!

ورأيتني، وأنا في هدأة السحر، أعيش في ضمير الكون كله، تشملني خفقات قلبه، ويرأف بي حنوّ صدره.. ورأيتني مستسلما لبحر من الحنان الدافئ لم أجد مثله إلا في صدر أمي التي تركتني وأنا طفل.

ولما أشرق الصبح، رأيت الكون يتسلل معرضا عني، ورأيتني مرة أخرى أعيش وسط ضباب الغربة والوحشة.

وإذ ذاك، علمت لماذا يتغنى العشاق باسم الليل كلما أقبل، وينتظرون ظلامه كلما أدبر. [1]

أنواع الحب

الحب الذي يأتي به القلب وحده، تذهب به صحوة صادقة من العقل، فالخطب فيه يسير. والحب الذي يأتي به العقل وحده، تقضي عليه نزوة من عاطفةٍ متمردة، فأمره هو أيضا يسير. أما الحب الذي يأتي به العقل والقلب معا، فداء عضال، لا يذهب به إلا جنون مطبق، أو موت مريح!.. ويا رحمة الله لمن كان يعاني هذا البلاء!.. [2]

1- من الفكر والقلب ، ص 187 + 188 .
2- من الفكر والقلب ، ص 188 .



فلنهبَّ جميعا للدفاع عن ديننا

إننا في عصرٍ تلتهم فيه النيران بنيان الإسلام، على الرغم من أن دعائم أحقيتهٍ لم تتجل للأبصار والبصائر كما تجلت في هذا العصر، لا لأقوامٍ من الناس بأعيانهم، بل لأهل الأرض جميعا؛ وفرق الإطفاء قليلة عاجزة عن الوقوف وحدها في وجه هذه النيران، إذن لا بد أن يهبَّ الكل، على اختلاف قواهم وإمكاناتهم، لصدِ هذه النيران عن بنيان الحقائق الإسلامية، وعن صرحه القائم على دعائم الحق والعزة والعدل كل يجاهد في سبيل ذلك حسب استطاعته. [1]

أليس عجبا

أليس عجبا أن يبلغ بعض الناس في تقليدهم الأعمى للغرب مبلغا يجعلهم يأخذون الإسلام بجريرة غيره، فينادون بحبس فاعلية الإسلام في المساجد لأن النصرانية تناقض العلم وتقف في سبيل الحرية والفكر، ويلحون على فصل الإسلام عن الحياة العامة والهيمنة عليها، لأن النصرانية فقيرة في مضمونها الاجتماعي والتشريعي. [2]

1- هكذا فلندع إلى الإسلام ، ص 5 / 6 .
2- التعرف على الذات ، ص 116 .

المشكلة فيهم لا في الإسلام

كم من مشكلةٍ يحسبها بعض الباحثين مشكلة في الإسلام وحكمه، وهي ليست أكثر من مشكلة جهلهم بحقيقة الإسلام وحكمه!.. وقد انتهى الأمر ببعض المسلمين في هذا العصر إلى حد أنهم يريدون أن يعلموا كل شيء عن الإسلام، وكل شيء عن نظامه وطبيعته، دون أن يتحرك أحدهم عن مجلسه الأرائكيّ الحالم، ودون أن تكلِفه لفهم كل ذلك إلا بقراءة ما طاب له من الجرائد والمجلات وما لفّ لفّها، مما خفّ حمله في اليد وقلت مؤونته على الفكر!..[1]

مبادؤنا ليست مجرد قيم روحية

إن التعبير عن مبادئ الإسلام وأحكامه بالقيم الروحية، تسمية اقتضتها طريقة الغزو الفكري الذي يهدف إلى سلخ النظم والأحكام الإسلامية عن المجتمع الإسلامي.

فهو أولا، التعبير الفني المنسجم مع ما يستلزمه بث الشك في أمر الحياة الآخرة وحشر الأجساد ونشورها مرة أخرى بعد الموت. ولا ريب أن هذه الحقيقة إذا آلت إلى أن تصبح وهما مشكوكا فيه، فإن معظم العبادات – تؤول إلى طقوسٍ شكلية مجردة، كل ما يتوخى منها نشر ظلالٍ من الطمأنينة الوهمية حول الروح ومعالجة النفس البشرية بهدهدةٍ شاعرية ((فنية)) تريح أعصاب صاحبها من وطأة الحقائق المتصارعة المؤلمة، بين كل حين وآخر.

وهو ثانيا، يمهّد السبيل ويهيّء الأذهان لفهم أن الإسلام إن هو إلا مجموعة من الممارسات الروحية التي اصطلح الآباء والأجداد على تقويمها وتقديسها، ولا شأن له وراء ذلك بشيءٍ. فالنظم الاجتماعية والاقتصادية والأحكام والقوانين التي من شأنها أن تنظم علاقة الناس بعضهم ببعضهم وتكفل لهم العدالة الفردية والاجتماعية كل ذلك مما لا شأن للإسلام به، لأنه لا علاقة لشيءٍ من ذلك بالقيم الروحية!.

والحقيقة، إن هذا الذي يراد بالإسلام من وراء ذلك، هو أن يؤول إلى فن!..

فكما أن الشعر، والأدب، والرسم، والنحت، والموسيقى – كل ذلك أوجه مختلفة من الفن الذي يراد به كما يقولون: خلق أجواءٍ خياليةٍ جميلةٍ أمام الروح كي تسبح فيه وتحلق صعدا في

1- من الفكر والقلب ، ص 66 .

طبقاتها، فتسعد بأمن هذا الخيال واتساعه، وتطمئن في نسماته الرخية وظلاله الآمنة، بعيدة عن ضوضاء الواقع وآلامه – نقول: كما تحِلِل الفنون المختلفة وتقوِّم على هذا الأساس، فإنما يراد بالإسلام أيضا أن يقوِّم ويحلِّل من هذه الوجهة نفسها، أي من حيث إنه مرفه نفسي معين، يريح الأعصاب وينفض عنها من آثار الضيق والإرهاق اللذين لا بد أن تستلزمهما مشكلات الحياة وحاجاتها.

وهذه النظرة، من شأنها أن تحيل سبيل القداسة وتعظيم شعائره، إلى هذا المصدر فقط. فقداسته نابعة من وجه الحاجة إليه، والحاجة إليه – فيما يراه مروِّجو ((القيم الروحية)) ليست إلا هذا الذي ذكرناه. ثم إن هذه النظرة تعدِّ من الحلول الرائعة لمن ينكر حقيقة الدين ومصدره الحقيقي، ولكنه لا يريد أن يواجه الآخرين بعقيدته هذه كي لا يثير ردود الفعل في نفوسهم، فحسب الدين إذا أن يكون لحنا روحانيا حالما يبثّ ألوانا هادئة من الطمأنينة في النفس![1]

الإسلام ليس مجرد منتدى فكري

إن هناك نموذجا من الناس عجيب !!! فما تدري، أيحسب أحدهم أن الإسلام إنما هو نتيجة منتدى فكري أنشئ ونخبة من المفكرين توالوا مع الزمن، فهو يريد أن يعلو بنفسه إلى مصافِهم، ويسجل على التاريخ اشتراكا معهم في الفكر والرأي، أم إنهم يعلمون ما يعلمه عامة العقلاء من أن الدين إنما هو شرعة الله لعباده في الأرض، ولكنهم يرون من الممكن أن يعمد أحد هؤلاء العباد فيمعن النظر في هذه الشريعة، ثم يرفع عنها تقريرا إلى مشرعها العظيم جل جلاله، يضمِّنه ملاحظات واقتراحات إصلاحية لها؟!..

لست أدري!.. غير أن الأمر لا يعدو، بنظري، واحدا من هذين التأويلين أو ما يشبههما من السخافة وعمق الوهم.

وأيا كانت الحقيقة، فإن هذه الصورة العجيبة حقا، ترتبط بجذورٍ فكريةٍ معينةٍ، هي أساس كثيرٍ من مظاهر الوهم، وضلال الرأي، لدى أخلاطٍ من الناس في عصرنا هذا.

1- من الفكر والقلب ، ص 92 ، 93 .

وتتشخص هذه الجذور الفكرية، في أن الواحد من هؤلاء الناس، لا يهمه أن يعلم عن الإسلام إلا أنه بضعة أحكامٍ من الأوامر والنواهي تتعلق بالسلوك والحياة، ولكن ما هو مصدر هذه الأحكام، ومن أين جاءت، وكيف تكونت؟ هذا ما لا يتوافر لديه أي علمٍ يقيني عنه، بل لعل الرجل لا يهمه أن يعلم شيئا من ذلك. إذ هو لا يريد أن يشغل فكره ونظره إلا بجملة الأحكام والمعايير التي رآها في مجتمعه الذي يعيش فيه، والتي كان من الممكن أن لا يراها ولا يحس بها، وأن لا تكون ذات أي تأثير في تاريخه، لو أنه نشأ وعاش في مجتمعٍ آخر!. [1]

أين صوت الشام

. إن عهدي بالشام – والله – أن فيها أصواتا إذا ارتفعت أصاخ لها سمع الإسلام من حولها، وأن فيها أقلاما إذا كتبت استيقظ لصريرها الدنيا. فما للأصوات الخافتة لا تنطق، وما للأقلام جامدة لا تتحرك؟!! [2]

صناعة التأويل

بوسعك أن ترى جمهرة كبرى من الناس اليوم، دأبهم أن ينزلوا مبادئ الإسلام وأحكامه على طبائعهم ونزوات نفوسهم، وأن يجعلوا من تلك المبادئ والأحكام مجرد كسوة لها، يفصلونها على قدر تلك الطبائع والأهواء... وما أكثر الطبائع المتخالفة، وما أيسر أن تجد الإسلام قد تحول في أيدي أصحابها إلى أردية متنوعة ومتنافرة، تبعا لتنوع تلك الطبائع.

ثم إن صناعة التأويل في الكلام والتلاعب بمفاهيم النصوص ليست عسيرة.

ألم يتقنها بنو إسرائيل من قبل، للمحافظة على مآربهم وما تعلقت به نفوسهم؟... أوِ لا يتقنها اليوم كثير من المحامين الذين يتلاعبون بالنصوص القانونية ومفاهيمها، تحقيقا للأماني التي استأجرهم عليها موكلوهم؟.. فكذلك يتقنها كثير من المشتغلين ببضاعة العلم الشرعي، ليتقربوا بذلك إلى من يملكون – في الظاهر – رعايتهم ودفعهم في سلِّم المناصب الدنيوية الفانية.

1- من الفكر والقلب ، ص 106 .

2- نطق الدكتور البوطي – حفظه الله – بهذه العبارات عام 1960م كنداءٍ للعرب والمسلمين من أجل أريتيريا، حين كان المسلمون فيها يجبرون على التنصّر وترك دينهم، وقد نقلتها اليوم لأنها تناسب حالنا وواقعنا بشكل أحق، فأين أصوات أبناء الشام وواقع الأمة ينادي لفلسطين والبوسنة وأفغانستان والعراق .. والأيام تعدنا بالمزيد إن بقينا على هذه الحال ....

ذلك لأن النصوص مهما كانت، في إحكام صياغتها ودقة دلالتها على المعنى المقصود، تغدو ألفاظا ميتة، إذا ما قطعت عنها شرايين الصلة بقائلها، وتنوسي قصده المستكن في أعماقها. فما أيسر أن تحمَّل عندئذ من المعاني ما لا تحتمل، وأن يلحق بها من القيود والذيول ما هي بريئة منه بل مناقضة له!... ولا تبلغ عندئذ سائر القواعد العلمية الخاصة بتفسير النصوص، أن تملك أي قدرة على تحصينها أو أن تغدو، بحق، قيودا كابحة ضد التلاعب بها. [1]

ادفع (بدل الخلو) على الأقل

بعض الناس يريدون (الإسلام) ولا يبتغون عن هذا الاسم بديلا. ولكنهم إنما يريدونه عنوانا تجاريا قديما طالما أكسب محله أرباحا، واستحوذ على ثقة الغادين والرائحين، كي يرفعوه فوق مخازنهم الجديدة، فينالوا به الثقة نفسها وتتحقق لهم الأرباح ذاتها. وهم ليسوا على استعداد لأن يدفعوا لقاء ذلك حتى (بدل الخلو): القيمة الأدبية للعنوان!.. [2]

لا لتجديد أصول الفقه

(أصول الفقه) مفاتيح تدار لفتح مغاليق النصوص والوصول إلى المعاني المرادة بها. وهل الدعوة إلى تغيير المفاتيح إلا دعوة ضمنية إلى اطِّراح طائفةٍ من المعاني التي تتضمنها النصوص، ولصق معانٍ أو أحكام أخرى بها في مكانها؟. [3]

1- الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية ، ص 63 .
2- الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية ، ص 70 .
3- إشكالية تجديد أصول الفقه ، ص 183 .



فقهنا ليس تراثا

في الناس اليوم من يهونون من أمر الأحكام الاجتهادية للفقهاء، ولا يتصورون لها أي إطار أو سياج ديني، ويجرِّئون الآخرين على تجاوزها ونسخها باجتهادات أخرى مماثلة، بحجة أنها في زعمهم لا تمثل الشريعة الإسلامية وإنما هي اجتهادات فقهية!..

ولقد قرأت كلاما لواحد من هؤلاء يدعو إلى إعادة النظر في كل هذا الذي يسميه: «التراث الفقهي» على الرغم من شدة اعتزازه به – على حد تعبيره – !..

وعندما يسمى الفقه الإسلامي تراثا، وتنبع قيمته من كونه كذلك، فلا غرابة أن يكون الاعتزاز به اعتزازا سخيفا مضحكا من هذا القبيل.

ماذا تعني إذن كلمة الشريعة الإسلامية؟ وماذا يعني وصفها بالرسوخ والخلود؟ إنها لا تعني، والحالة هذه أكثر من عنوان كبير لا مضمون له..

وما أيسر أن يوصف عنوان لا مضمون له بالبقاء أو الخلود والصلاحية لكل زمان ومكان..

وما أيسر أن يعلن هؤلاء المشيدون به محافظتهم وخضوعهم له ودفاعهم عنه.. ما أيسر عليهم أن يفعلوا كل ذلك، لأنهم في الواقع لن يحافظوا منه على شيء ولن يخضعوا منه لشيء ولن يدافعوا منه عن شيء!.. [1]

حقيقة الاجتهاد

إن الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، ليس عملا إبداعيا طليقا كالذي نعرفه في نطاق البحوث المتعلقة بكثير من المعارف والعلوم الإنسانية الأخرى.. وإنما هو اتجاه مرسوم والتزام بمنهج محدد، إذ هو البحث عن حكم الله تعالى خاطب وألزم به عباده في كتابه، أو أوحى به وحيا غير متلو إلى نبيه محمد ﷺ، كل ذلك استنادا إلى سبل ووسائل علمية محددة، لا مجال لأحدٍ من الناس مهما كان شأنه أن يتجاوزوها أن يتحرر منها.

إذن، فالساحة الاجتهادية أمام الباحثين في أحكام الشريعة الإسلامية محددة ضمن قواعد ثابتة معينة، في عملية تفسير النصوص العربية ومسالك الاستدلال بها والقياس عليها..

والهدف الاجتهادي محدد هو الآخر في بلوغ معرفة أوامر الله ونواهيه المتعلقة بعباده. [2]

منطق لحل مشكلة الاجتهاد

إن حل مشكلة الاجتهاد، إنما ينهض على أساس لا بد من تأسيسه أولا ولا يتم ترسيخه، بل لا يمكن أن نبدأ بترسيخه إلا بأن نتكاشف ونتحاور مع أولئك الذين بحّت حلوقهم وهم يدعون إلى الاجتهاد، ولا شيء غير الاجتهاد، في النقاط المصيرية التالية:

هل نحن نتبنى الإسلام عبودية قانتة لله عز وجل، أم تراثا نعتز به، ونصبغه بما نشاء من صبغة الشهوات والأهواء؟.

هل الحضارة الإسلامية – في يقيننا الجازم – أصل والإسلام الديني أحد آثارها وثمارها، أم أن الإسلام الديني هو الأصل، والحضارة الإسلامية واحدة من آثاره وثماره؟.

1- حوار حول مشكلات حضارية ، ص 218 ، 219 .
2- حوار حول مشكلات حضارية ، ص 229 .

وأخيرا فإن الذي هو أهم من معالجة مشكلة التقليد والاجتهاد والبحث عن الصيغة الجامعة بين الإسلام والحضارة الغربية، أن نقنع المسلمين جميعا بكل فئاتهم وطبقاتهم، بالحجج العلمية والموضوعية النيرة، بأن الإسلام الحضاري الذي يثير دهشة وإعجاب كثيرٍ من الباحثين والكتاب، لا يمكن أن ينهض إلا على أساس راسخ من الإسلام التديني.

وإن كلا من الماضي البعيد، والحاضر الذي نتقلب فيه، والمستقبل القريب الذي يلوح في الأفق لأكبر شاهدٍ على ذلك.. [1]

صنعة الفتيا بين الماضي والحاضر

لست أعلم أمرا من أمور الدين كان أبعث للرهبة في النفس لدى الإقدام عليه وأدعى إلى التريث فيه والتخوّف منه، من الفتوى إذ يجد العالم نفسه أمام ضرورة النهوض بها.. ولست أعلم أمرا من أمور الدين في عصرنا اليوم أقرب منالا وأيسر ممارسة، وأكثر ازدحاما عليه وتسابقا إليه من أمر الفتوى. [2]

يا للأسف

ما أكثر المسلمين اليوم إذا عددتهم بمقياس الصلاة والعبادات الظاهرة واستعمال المسابح في الأيدي وتعويد اللسان على المواعظ والكلمات الدينية المنمقة.

وما أقلَّ المسلمين اليوم إذا عددتهم بمقياس التعفف عن الوقوع في المال الحرام والتزام حدود الله في ذلك، وملاحظة مرضاة الله تعالى حيال ما قد يدخل في الجيب!. [3]

1- حوار حول مشكلات حضارية ، ص 241 / 242 .
2- الإسلام والغرب ، ص 143 .
3- باطن الإثم ، ص 73 .

المراجع

- القرآن الكريم.
- كتب السنة النبوية.
- العواصم من القواصم، أبو بكر بن العربي، تحقيق محب الدين الخطيب ، الناشر مكتبة السنة، القاهرة 1992.
- صيد الخاطر، ابن الجوزي، بعناية أ. حسن السماحي ط3 ، دمشق دار القلم 2012
- نقوش من ذهب ونحاس، ثروت أباظة، صدر هذا الكتاب عام 1986. صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام 2022.
- الإمام ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ج1 طبعة أوقاف قطر ج1.
-خالد محمد خالد، الوصايا العشر لمن يريد أن يحيا القاهرة المقطم للنشر والتوزيع ..مصر ط7. 2003.
-سلمان العودة، أسئلة الثورة الريحانية تركيا قطر الندى للثقافة والإعلام ط1 ،2021
-أبو الحسين محمد بن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، مطبعة السنة المحمدية، 1953 القاهرة.
- محمد إقبال، الأعمال الشعرية الكاملة قدم لها وحققها وترجمها عن الشعر الأزدي د. حازم محفوظ الديوان الثالث ضرب الكليم (القاهرة مصر دار الأفاق العربية ط1 2005
-د. مصطفى السباعي، أخلاقنا الاجتماعية، دار الوراق بيروت الرياض ط1 2010
- ابن كثير،البداية والنهاية ج3/ ط. دار الكتب العلمية بيروت.
- ثمار التنقيح على فقه الإيمان د.وميض بن رمزي بن صديق العمري دار عمار الأردن ط 20191
- عباس محمود العقاد، الأعمال الكاملة، المجلد 15، تراجم وسير أبو العلاء، ط2، القاهرة دار الكتاب المصري، بيروت دار الكتاب اللبناني، 1991
- د. محمد سعيد رمضان البوطي، هذا والدي القصة الكاملة لحياة الشيخ ملا رمضان البوطي من ولادته إلى وفاته،ط 31، دمشق دار الفكر، 2011،
- د. محمد سعيد رمضان البوطي، شخصيات استوقفتني، ط10، دمشق دار الفكر، 2017
- مجموعة من المؤلفين، محمد محي الدين حمادة، شخصيات وأفكار، ط1، دمشق مركز الراية للتنمية الفكرية، 2004،
- د.محمد سعيد رمضان البوطي، ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية، ط 2، 1973، مؤسسة الرسالة.
-أ. محمد خير موسى، البوطي شخصيته ومواقفه، ط1، اسطنبول مكتبة الأسرة العربية 2023.
- عبد الغفار عبد الرؤوف حسن عبد الرؤوف، القضايا الاجتماعية في فكر الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ط1، دمشق دار الفكر، 2017
- د. عبد الرحمن حبنكة، الوالد الداعية المربي الشيخ حسن حبنكة الميداني قصة عالم مجاهد حكيم شجاع، ط1،الناشر المؤلف،2002.
- د. محمد سعيد رمضان البوطي، البدايات باكورة أعمالي الفكرية، ط1، دمشق دار الفكر 2009.
- مقال: عالم محقق وعاشق رباني د. محمد جنيد الدير شوي، ضمن: محمد سعيد رمضان البوطي بحوث ومقالات مهداة إليه.

-د. محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية شرح وتحليل، ط6، دار الفكر - دمشق، 2011م،ج3
- د. محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة النبوية، ط19، القاهرة- دمشق- دار الفكر ودار السلام
-د. محمد سعيد رمضان البوطي، هكذا فلندع إلى الإسلام، ط1، دمشق - دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، 2020
- الإمام القشيري في رسالته تحقيق الإمام د. عبد الحليم محمود- د. محمود ابن الشريف، القاهرة -دار المعارف
- د. علاء رجب تباب، الاتصال التنظيمي لقادة الرأي العام وأثره في الحراك الشعبي، دراسة حالة على الحراك السوري، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، 2016،
- د.محمد سعيد رمضان البوطي، الجهاد في الإسلام كيف نفهمه وكيف نمارسه، ط1، دار الفكر المعاصر بيروت- دار الفكر سورية، 1993
- د. محمد سعيد رمضان البوطي، من سنن الله في عباده، دار الفكر ، دمشق 2017
- د. محمد سعيد رمضان البوطي/ إحياء جوهر الإسلام في حياة المسلمين مما خطه في حياته ونشر بعد استشهاده، ط2، دمشق - دار الفكر، 2017
- الإمام أبو حامد الغزال، الاقتصاد في الاعتقاد، دار المنهاج السعودية ط1 2016
-وجيه كوثراني، الفقيه والسلطان، ، المركز العربي للأبحاث والدراسات 2015
- هشام عليوان وفادي الغوش، البوطي الدعوة والجهاد والإسلام السياسي، دار الحضارة، لبنان.
- الشيخ عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد.
- د. محمد عبد الله دراز، دستور الاخلاق، 1973 مؤسسة الرسالة.
- د. يوسف القرضاوي، السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها، ط مكتبة وهبة.
- الإمام الماوردي، أدب الدين والدنيا ج.1
- موقع نسيم الشام.
- موقع فكر حر، التدليس العلمي ومحنة الشيخ البوطي [محمد خير موسى أنموذجا]
- برنامج البوطي حياته وفكره، https://youtu.be/fSQkswJLixo
- الشيخ القرضاوي في برنامج الشريعة والحياة على الجزيرة يوتيوب https://www.youtube.com/watch?v=Wx-y7IM9MV4g
- موقف الشيخ القرضاوي من مقتل الشيخ البوطي خطبة الجمعة. https://www.youtube.com/watch?v=pu25qZ-J6CZM
- نص رسالة عبد الرحمن يوسف لأبيه مأخوذة من موقع اليوم السابع
- موقع المسلم مقال للشيخ ناصر العمر بعنوان : البوطي.. انحراف في العقيدة وخلل في المنهج!!
- رسالة عثمان الخمس للشيخ البوطي يوتيوب https://www.youtube.com/watch?v=TjHqqJXcABc
- بيان الأستاذ أحمد معاذ الخطيب حول قتل الدكتور الشيخ سعيد رمضان البوطي – موقع رابطة العلماء السوريين
- لقاء على تلفزيون قطر يوتيوب https://www.youtube.com/watch?v=BJBs6nfFQc4

الفهرس

بساط فكري وشعوري 8

مقدمة بقلم د. عبد الرحمن محمد سعيد رمضان البوطي............ 13

مقدمة بقلد د. علاء رجب تباب 21

مقدمة المؤلف: الثمن... 41

مقدمات أساسية................................ 29

مع الأكاديمي الفقيه الثائر 49

هل كان البوطي جزءا من النظام؟.. 58

التفاهم الاضطراري بين العصابة والفقيه.. 59

اجتهاد الشيخ في ملء الفراغ.. 64

لماذا كل هذا اللغط والخطابات العنصرية؟.. 68

الفصل الأول: المفتاح التاريخ 81

▿ الأب والأصل 83

▿ أمل في الحياة.. 83

▿ الاسم المختار 84

▿ الطيور المهاجرة.. 81

▿ هوامش على هذه المرحلة: 86

الفصل الثاني: الأعمدة والتدابير... 89

◉ العمود الأول: العاصمة (البيئة الشامية وغناها المعرفي)............................. 91

◉ العمود الثاني: الملا صاحب الفقه والهمة والرؤية.. 93

البيت: الأب والمعلم والعديل 93

مآخذ وأوهام على تربية الأب لابنه:... 97

الساكن في جلباب أبيه... 97

الوهم الأول :الزواج.. 98
الوهم الثاني :موقفه من التصوف... 99
الوهم الثالث : الانتماء للتيارات والحركات الإسلامية.........................100
الوهم الرابع : العمل الوظيفي...100
الوهم الخامس : العلاقة بالحكم والسلطات السياسية 101
◉ العمود الثالث: الحاضنة المعرفية الخاصة..................................104
◉ العمود الرابع: الحاضنة الأزهرية...107
◉ العمود الخامس: الميدان التعليمي 108
عقلية التحدي وعمق الإيمان ودعم الوالد......................................109
رد على وهم وكذب: الاعتداد العلمي والفكري غير المتناهي بالذات 113
تعددت المشارب العلمية للدكتور البوطي 115
محنة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي 118
الكذب والخيانة العلمية في نموذج ما كتبه أ. موسى

الفصل الثالث: حياته الزوجية والأسرية 123
في بيت الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله.............................125

الفصل الرابع: مسار الأشواك
الشيخ والسياسة وآل الأسد والثورة.........131
- التصوف والحراك الشعبي..133
قراءة هادئة في مسار الأشواك...137
موقف الشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله من ثورات الربيع العربي بشكل عام ومن الثورة السورية بشكل خاص ومن آل الأسد !
لماذا البوطي؟..137
فمن هو البوطي وما هو منهجه؟..138

كيف ينظر الشيخ البوطي رحمه الله للعلاقة بين الحاكم والمحكوم وماهي ضوابطها
وهل مواقف الشيخ هي مواقف مبتورة أم لها جذور ؟..144
- د. البوطي ورؤيا باسل الأسد في الجنة...208
- هل أفتى د. يوسف القرضاوي بقتل الشيخ البوطي رحمهما الله تعالى........................212
- الشيخ البوطي والعرعور..228
- الشيخ البوطي والشيخ ناصر العمر...230
- الشيخ البوطي والشيخ عثمان الخميس..231
- الشيخ البوطي والشيخ معاذ الخطيب...233
- الشيخ البوطي ود. محمد سالم أبو عاصي..235
- الشيخ البوطي والباحث محمد عصام عيدو..236
- الشيخ البوطي ود. عدنان إبراهيم...238
- الشيخ البوطي والشيخ المغامسي...242
- الشيخ البوطي والشيخ علي العمري..243

أكاذيب وشائعات 245

- ما هي الاكاذيب التي شاعت حول د. البوطي رحمه الله 250

المكيدة والمشهد الأخير.. 263

الشائعة ودواعي القتل 265
د. البوطي يفتي بحرمانية استهداف المتظاهرين ومنع العسكر من إطلاق النار. 270
د. البوطي يرفض أي دم في سوريا سواء من الدولة أو المعارضة: 270
د. البوطي يلزم العسكر بالتوبة وعدم قتل أي متظاهر......................................271
د. البوطي يدعو إلى الانشقاق عن العسكر إذا تحول إلى آلة قتل..........................272
د. البوطي يفتي بهدر دم المعتدي على العرض من جيش الدولة أو الأمن. 272
الشيخ يرفع مستوى المطالبة: لا علمانية ودولة مدنية إسلامية..............................273
الشيخ يصف من وقف مع الثورة بالمجتهدين رغم عدم صواب موقفهم: 274

الشيخ والرئيس والحاضنة والمواجهة................... 281
الكتلة الحرجة والإلحاح بالإصلاح

البوطي وقراءة المشهد...286
ما موقفنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؟ 295
مهاجمة تجار الحروب والمستثمرين في النكبات 296
كلمات إلى تجار الأزمات........... 296
التهديد المبطن...297
المواجهة وتكفير الحاضنة 298

خاتمة 303

لوامع أفكار د. سعيد رمضان البوطي 307
إلهيات... 309
قرآنيات..319
وقفات مع الإسلام 323
ومضات من منهجنا الإسلامي في التربية...337
إنه دين الحب..349
منهجية دعوتنا الإسلامية...... 355
في العقيدة الإسلامية..371
قواعد في التفكير والحياة...407
قواعد السياسة والحكم..439
نحن والغرب...454
من أجل وحدة إسلامية...463
مع الحوار................................. 469
في المشاعر الوجدانية............. 477
في رحلة الدفاع عن ديننا...483
في الأحكام الفقهية...488
المراجع...491

لا يسعني في نهاية المطاف إلا أن أشكر الدكتور علاء الدين آل رشي على هذه الجولة التوثيقية والفكرية الجريئة التي خطّها بقلم متألّق وحرفٍ نابض يتحرى الصدق والإنصاف والوفاء لمجتمعه ومعلّمه. ولا شكّ أنّ هذا القلم الأنيق يزداد جمالاً وعزاً وبهاءً بإنصافه العلامة الشهيد د. محمد سعيد رمضان البوطي.

كنت في غاية السعادة وأنا أسافر مع عباراته التوصيفية والتحليلية التي اقتحمت خلوتي وأغوار عقلي لتنتزع ما فيّ من حبٍ وإنصاف وأفكار ما استطعت أن أطوّقها، فكتبت البعض ومازلت أمتلك الكثير!

شعرت أثناء قراءتي لوهلة أنّي أجالس هذا العالم الجليل المظلوم الذي حاول بعد تفجيره في المسجد أن يستقيم لا لينتزع الحياة، بل فقط ليعدّل عمامته ويتحدّى قاتله ويجأر في عينيه ويقول: لن أسمح لأحدٍ أن يدنّس عمامتي أيها الجبان!

د. علاء رجب تباب

للبيان أقول: لم يكن والدي يوماً من الأيام جزءاً من الدولة أو النظام ولم يكن يعنيه رضا الدولة ولا رضا عامة الشعب، بل كانت غايته رضى الله تعالى فقط باتباع النهج الشرعي، رضي من رضي وسخط من سخط، ومواقفه كانت مبنية على أحكام شرعية يبحث فيها ويدرسها ويستخير الله فيها ليصل إلى نتيجة صحيحة، وكل مواقفه التي اعتبروها بجانب السلطة هي روايات مجتزأة.

ومع ذلك فإنه عدة مرات ذكر أن من لديه دليلاً شرعياً على خطأ موقفه فليذكره له. وإنني على يقين أن كثيراً من هؤلاء يعلمون ضمناً خطأ موقفهم ويدركون الآن بعد الدمار والتشتت والضياع صواب موقف ومنهج والدي ولكن خوفهم من غضب وتنمر جمهورهم يمنعهم من إعلان ذلك.

د. عبد الرحمن محمد سعيد رمضان البوطي

إنني لست مدافعاً عن د. البوطي في موقفه السياسي فهو مجرد رأي، ومهما بلغ لا يمكن أن نجيز قتله بسببه.

إن الحكم الذي سوف أخلص إليه في دراستي هذه أريده أن يظل شاهداً علينا أننا نملك جرأة التراجع والتصحيح وعدم المكابرة وأن نقف مع المظلوم، إن جوهر القضية التي أدافع عنها هو(العدل).

إن المواطنين أصحاب الحساسية القوية برسالتهم وتبعات الإصلاح الملقاة على كواهلهم، يشعرون كأنهم المعنيون عند كل نداء، المطلوبون عند كل نجدة. وهذا الكتاب نجدة لضمائرنا ودعوة للحقيقة.

من أجل الحرية وفي سبيل الله والحق يظهر هذا الكتاب وهو جهد يصب في الدفاع عن قيمة آمنت بها "الله سوريا حرية".

إنني أوثر أن أكون مواطناً ثائراً ضد الظلم، وأن أعيش فقيراً على أن أكون مؤيداً لنظام أو مسترزقاً أرتع بالغنى وأنا ذليل.

فلنستحضر رقابة الله ولتكن سوريا العزيزة عادلة منصفة والحرية المنضبطة هادية.

د. علاء الدين آل رشي



د. علاء الدين آل رشي
مدير المركز التعليمي لحقوق الإنسان / ألمانيا
LM Lehrcenter für Menschenrechte
مؤسس ورئيس جمعية Damaszener / ألمانيا
دبلوم تأهيل الكوادر السياسية والمدنية من المعهد الإسكندنافي/جنيف
عضو اللجنة العربية لحقوق الإنسان



